



اقتل خالد

عملية الموساد الفاشلة لاغتيال خالد مشعل وصعود حماس

بول ماغّوو

بول ماغوو

اقتل خالد

عملية الموساد الفاشلة لاغتيال خالد مشعل وصعود حماس

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

اقتل خالد

عملية الموساد الفاشلة
لاغتيال خالد مشعل وصعود حماس



اقتل خالد

عملية الموساد الفاشلة
لاغتيال خالد مشعل وصعود حماس

تأليف

بول ماغّوو

ترجمة

مروان سعد الدين

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L



يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
Kill Khalid
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر
The New Press
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

الطبعة الأولى

1430 هـ - 2009 م

ردمك 978-9953-87-714-3



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (9611+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

المحتويات

شكر وتقدير

عدا ما هو مذكور خلاف ذلك، يستند هذا الكتاب إلى مقابلاتي مع لاعبين ومراقبين رئيسيين في أزمة الشرق الأوسط. تم إجراء المقابلات في ست دول في خلال العام 2007 وبداية العام 2008. من دون شك، كانت هناك بعض العقبات، والكثير من المصادر تعاونت شرط ألا أكشف هويتها. إنني أشكر الجميع. أحد الذين قابلتهم ولم يضع شروطاً على مطالبي المتكلّفة بشأن وقته كان خالد مشعل.

طيلة ذلك الوقت، ساعدني كثيرون بشكل لا يسعني شكرهم بما يكفي. في مانهاتن، كانت سالي روث متحمسة للعمل منذ اللحظة الأولى التي ناقشت فيها الفكرة معها. لولا مساعدتها القيّمة وتشجيعها، ربما لم يكن هذا الكتاب قد رأى النور. منحني مارك فافرو، مدير تحرير نيو برس، ثقته ودعمني. لاحقاً في المشروع، كشف عن مهارة استثنائية في فن إخراج مخطوطة معقدة عندما دفعني إلى حيث ينبغي أن أكون.

في عمّان، لم تبخل رانيا قدري بوقتها، وتحليلها العميق، وإرشاداتها المهنية وتجاوزت حواجز ثقافية، ولغوية، وإعلامية يمكنها أن تتغلب على بشر عاديين. كانت رندا حبيب، أيضاً، سخيّة بشكل لا يصدّق بوقتها وعونها.

في سيدني، كان ألان أوكلي، مدير تحرير *سيدني مورنينغ هيرالد*، داعماً كبيراً، بحماسه للمشروع والسماح لي بالاختفاء في صحيفته لأكثر من سنة. كان ريتشارد والش، من فريق عمل الناشر الاسترالي ألان وأنوين، منارة في الأيام الحالكة. مديرٌ متابع، عمل ريتشارد على المخطوطة بطريقته النشيطة والمثابرة، مع تشجيع ووضوح عندما كان الأمر يتطلب ذلك. تبعه ماهر مغربي بدروس ليست عن تهجئة الأسماء العربية فقط، وإنما عن الحساسيات والتاريخ أيضاً.

كذلك ركّزت على جيش من زملائي - إنهم صحفيون ومؤلفون عرب، وإسرائيليون، وأجانب - الذين غطّوا الشرق الأوسط خلال عقدين من الزمن.

أحيّيهم وأشكرهم على آلاف التقارير الإخبارية، والمقالات المميزة، وعشرات الكتب التي أغنت فهمي للشعب، والأماكن، والأوقات، والأحداث.

مهـــنة الكـــتابة صعبة للغاية، لهذا وجود زوجة متفهمة هبة من الله. كانت بام ويليامز صبورة، ومحبة، وملهمة حتى في وجه الشجار. قامت بكل سخاء بإجراء بحث معمّق غير رسمي حول كل الموضوعات التي يضمها هذا الكتاب. لم يكن هذا الكتاب لـــيرى الـــنور لولا زوجتي العزيزة متعددة المهارات، والصديقة الوفية، والزميلة ثاقبة الرأي، والمحررة المصححة.

بول ماغّوو

سيدني

تشرين الأول من العام 2008

الشخصيات الواردة أسماؤها
في هذا الكتاب

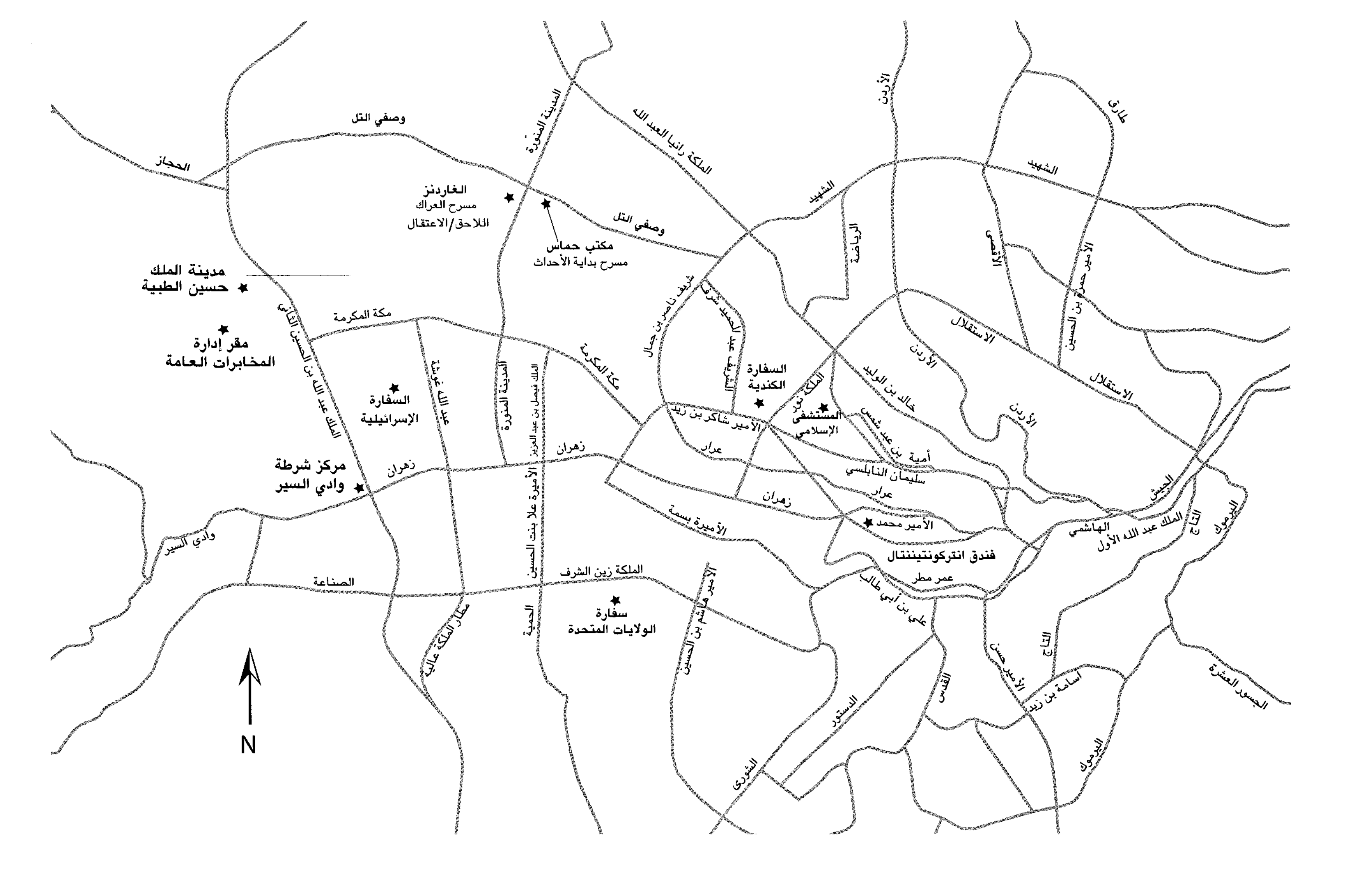
من حماس	
خالد أبو هلال	أحد قادة فتح، انضم إلى حماس قبل أزمة حزيران عام 2007 في غزة
محمد أبو سيف	حارس خالد مشعل الخاص
موسى أبو مرزوق	الرئيس السابق لحماس ونائب رئيس المكتب السياسي لها
جواد أبو سليمة وصائب دهب	أول شهيدين لحماس في اشتباكات مع القوات الإسرائيلية
عيسى النجار	أحد مؤسسي حماس
عبد العزيز الرنتيسي	قائد بارز في قطاع غزة
محمود الزهار	قائد بارز في قطاع غزة
يحيى عيّاش	معروف بالمهندس
ناديا العشّي	زوجة أبو مرزوق
إبراهيم غوشة	ناطق باسم حماس
إسماعيل هنية	رئيس وزراء السلطة الفلسطينية المعيّن في العام 2006
أبو ماهر	سائق مشعل
خالد مشعل	رئيس المكتب السياسي لحركة حماس المقيم في دمشق، ومعروف أيضاً بأبـــي وليد
عائلة خالد مشعل	
عبد القادر	والد خالد مشعل، ومعروف أيضاً بالشيخ عبد القادر
فاطمة	والدة خالد مشعل
أمل	زوجة خالد مشعل
ماهر	الشقيق الأصغر لخالد مشعل
محمد نــزال	عضو المكتب السياسي لحركة حماس
محمد صلاح	جامع تبرعات لحماس مقيم في شيكاغو

سعيد صيام	عيّن وزيراً للداخلية في السلطة الوطنية الفلسطينية في العام 2006
عزّام تميمي	صديق مشعل منذ سنوات مراهقتهما ومؤلف كتاب *حماس: فصول غير مكتوبة*
الشيخ أحمد ياسين	الزعيم الروحي لحماس، اغتالته إسرائيل في العام 2005
في الأردن	
الملك عبد الله الثاني	اعتلى عرش الأردن بعد وفاة والده، الملك حسين في العام 1999
عبد الله عزّام	فلسطيني ومستشار لخالد مشعل وأسامة بن لادن
الفريق سميح البطيخي	رئيس الاستخبارات العامة، المعروفة أيضاً باسم المخابرات، في التسعينيات
ستيف بينيت	السكرتير الأول في السفارة الكندية
حسين بن طلال	ملك المملكة الأردنية الهاشمية من العام 1952 حتى وفاته في العام 1999
ويسلي إيغان	سفير الولايات المتحدة لدى الأردن، 1994-1998
عوديد عيران	سفير إسرائيل لدى الأردن في العام 1997
رندا حبيب	مديرة مكتب وكالة الصحافة الفرنسية في عمّان
الأمير حسن	شقيق الملك حسين وولي عهده، وكان متوقّعاً على نطاق واسع أن يخلفه ملكاً للأردن
رانيا قدري	صحافية
سعد نعيم خطيب	ساعد في القبض على عميلي الموساد في عمان في العام 1997
ديف مانرز	مدير محطة وكالة الاستخبارات المركزية، عمّان
مايك مولي	السفير الكندي لدى الأردن
نصوح محيي الدين	مدير الأمن العام في عمّان
سمير مطاوع	وزير الإعلام في منتصف التسعينيات
الملكة نور	الزوجة الرابعة للملك حسين
أسد عبد الرحمن	درّس خالد مشعل في جامعة الكويت، مستشار ياسر عرفات
فهد الريماوي	رئيس تحرير صحيفة المجد الأسبوعية ومالكها
الفريق علي شكري	مدير المكتب الخاص للملك حسين
بسام عكاشة	جرّاح ومدير مركز الملكة علياء لجراحة القلب في مدينة الملك حسين الطبية، عمّان
سامي ربابة	رئيس قسم التخدير في مركز الملكة علياء لجراحة لقلب
والتر ويلسون	مدير قسم الأمراض المعدية، مايو كلينك، روشستر، مينيسوتا

في الأراضي المحتلة	
ياسر عرفات (1929-2004)	رئيس السلطة الفلسطينية، أحد مؤسسي فتح؛ رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية
محمود عبّاس	معروف أيضاً بأبـــي مازن، رئيس الوزراء ولاحقاً رئيس السلطة الفلسطينية (2004- حتى الآن)
محمد دحلان	مدير الاستخبارات وقائد فتح في غزة
كيث دايتون	جنرال في الجيش الأميركي، عينته الولايات المتحدة منسّقاً أمنياً بين إسرائيل والسلطة الفلسطينية
الشقيقان الرجّوب	جبريل مرشح فتح ونايف مرشح حماس لانتخابات العام 2006
تيري رود لارسن	دبلوماسي نرويجي وممثل الأمم المتحدة لدى منظمة التحرير الفلسطينية
نبيل شعث	رجل أعمال فلسطيني، وزير في السلطة الفلسطينية، ومستشار لياسر عرفات منذ وقت طويل
راجي صوراني	رئيس المركز الفلسطيني لحقوق الإنسان في غزة
في إسرائيل	
إيهود باراك	رئيس الوزراء، 1999-2001
ناحوم بارنيا	صحافي في *يديعوت أحرونوت*
ديفيد بيرغر	السفير الكندي لدى إسرائيل، 1995-1999
ديفيد بويم	ابن جويس وستانلي بويم اللذين توفيا في هجوم حماس قرب القدس في العام 1996
ألفارو دي سوتو	مبعوث الأمم المتحدة للجنة الرباعية الخاصة بالشرق الأوسط
ليفي أشكول	رئيس الوزراء، 1963-1969
باروخ غولدشتاين	مستوطن يهودي قتل ثلاثين فلسطينياً في الخليل في شباط من العام 1994
إفرايم هالفي	دبلوماسي ورئيس الموساد، 1998-2002
تساحي هنغبي	وزير العدل، 1996-1999
شالوم هراري	مستعرب إسرائيلي ومسؤول إداري في قطاع غزّة في الثمانينيات
مارتن إنديك	سفير الولايات المتحدة لدى إسرائيل، 1995-1997، وأحد كبار مستشاري كلينتون
دان كورتزر	دبلوماسي أميركي عمل في إسرائيل في منتصف الثمانينيات
زفي مالشن	عميل الموساد في الستينيات

بنيامين نتنياهو	رئيس الوزراء، 1996-1999
إيهود أولمرت	رئيس الوزراء، 2006-2008
سمادار بيري	صحافية في *يديعوت أحرنووت*
إسحاق رابين	رئيس الوزراء، 1974-1977؛ 1992-1995
أرييل شارون	رئيس الوزراء، 2001-2006
نورمان سبكتر	السفير الكندي الأسبق لدى إسرائيل، 1992-1995
مجالي وهبي	مستشار أرييل شارون
جلعاد شاليط	الجندي في القوات الإسرائيلية البالغ من العمر تسع عشرة سنة والذي أسر في حزيران عام 2006
داني ياتوم	رئيس الموساد، 1996-1998
في الولايات المتحدة	
إيليوت أبرامز	نائب رئيس مجلس الأمن القومي في إدارة بوش، تم تعيينه في العام 2005
مفيد عبد القادر	شقيق خالد مشعل المقيم في تكساس، وممول لمؤسسة الأرض المقدّسة
شكري أبو بكر	الرئيس والمدير التنفيذي لمؤسسة الأرض المقدّسة
ساندي بيرغر	مستشارة الأمن القومي في إدارة كلينتون، 1997-2001
جورج دبليو بوش	الرئيس، 2001-2009
بيل كلينتون	الرئيس، 1993-2001
ستانلي أل. كوهين	محامٍ في نيويورك توكل عن أبـي مرزوق
مايكل تي. دوغرتي	عميل مكتب التحقيقات الفيدرالي
أيه. جو فيش	القاضي المشرف على محاكمة مؤسسة الأرض المقدّسة عام 2007 في دالاس
ليندا هاملتون	زوجة برنارد سي. ولش الابن
جوزيف همل	عميل مكتب التحقيقات الفيدرالي
ناتان لوين	محامٍ في واشنطن يعمل بالشراكة مع ابنته أليزا لوين
دينس لورميل	رئيس قسم مراقبة عمليات تمويل الإرهاب في مكتب التحقيقات الفيدرالي
روب مالي	مستشار كلينتون للشؤون العربية - الإسرائيلية
أكرم ميشيل	قريب خالد مشعل وموظف في مؤسسة الأرض المقدّسة
كولن أل. باول	وزير الخارجية، 2001-2005

كوندليزا رايس	وزيرة الخارجية، 2005-2009
بروس ريدل	مستشار كلينتون لشؤون الشرق الأدنى
دينس روس	مبعوث الشرق الأوسط ومفاوضات السلام في إدارتي جورج دبليو. بوش وكلينتون
جورج تينيت	مدير وكالة الاستخبارات المركزية، 1997-2004
برنارد سي. ولش الابن	أُدين بقتل الدكتور مايكل هالبرستام في العام 1980
ديفيد ولش	مساعد وزيرة الخارجية لشؤون الشرق الأدنى، 2005-2009
روبرت رايت	عميل مكتب التحقيقات الفيدرالي المكلّف بالتحقيق بشأن حماس في الولايات المتحدة
في كندا	
الغرير	شخص مجهول يُعتقد أنه يعمل من كندا
لويد اكسورثي	وزير الخارجية، 1996-2000
في لبنان	
ألستر كروك	عميل الاستخبارات البريطانية السابق، مستشار الاتحاد الأوروبي في الشرق الأوسط، ومؤسس منتدى حل النزاعات ومقره بيروت



مدينة الملك حسين الطبية
مقر إدارة المخابرات العامة
السفارة الإسرائيلية
مركز شرطة وادي السير
الغاردنز
مسرح العراك اللاحق/الاعتقال
مكتب حماس
مسرح بداية الأحداث
السفارة الكندية
المستشفى الإسلامي
فندق انتركونتيننتال
سفارة الولايات المتحدة
الأمير محمد
وصفي التل
الحجاز
المدينة المنورة
الملكة رانيا العبد الله
الشهيد
طارق
الأقصى
الأمير حمزة بن الحسين
الرياضة
الأردن
الاستقلال
خالد بن الوليد
أمية بن عبد شمس
سليمان النابلسي
عرار
زهران
الأمير شاكر بن زيد
الشريف عبد الحميد شرف
شريف ناصر بن جميل
الملكة نور
مكة المكرمة
الملك عبد الله بن الحسين الثاني
عبد الله غوشة
الملك فيصل بن عبد العزيز
الأميرة علا بنت الحسين
الأميرة بسمة
الملكة زين الشرف
الصناعة
وادي السير
مطار الملكة عالية
الحمية
الأمير هاشم بن الحسين
علي بن أبي طالب
عمر مطر
الجيش
الهاشمي
الملك عبد الله الأول
التاج
اليرموك
الأمير حسن
أسامة بن زيد
الجسور العشرة
القدس
الدستور
الشورى
N

1

السيّاح

وصل الكنديون على متن رحلات مختلفة من مدن مختلفة. إنهم يافعون، ورشيقون، وأنيقون وأعطوا انطباعاً مناسباً؛ غربيون يحملون الكثير من المال، ويصلون لرؤية جواهر الأردن... آثار الأنباط الرائعة في البتراء، الأطلال الرومانية المذهلة في جرش، والبراري الصحراوية في وادي رام حيث صوّر ديفيد لين وبيتر أوتول الفيلم السينمائي الرائع *لورانس العرب*. إذا كان هناك وقت، ربما يقيمون حفلة على الشاطئ في العقبة على البحر الأحمر.

في أيلول من العام 1997، في جنون الشرق الأوسط، كان الأردن واحة لسلام نسبي. كان عدد من السيّاح يظهرون عادة بين القادمين من رجال الأعمال الأجانب والعرب الذين يرتدون ملابس بيضاء في مطار الملكة علياء في عمّان، وسرعان ما اختفى الكنديون في فوضى قاعة الوافدين. ختم الموظفون جوازاتهم بشكل روتيني، وبعد نصف ساعة، كان الخمسة في وسط المدينة، يخرجون من سيارتي أجرة متهالكتين في الساحة الأمامية المرصوفة لفندق إنتركونتيننتال، لتسجيل إقاماتهم في الفندق، قدّموا مجدداً أوراقهم الكندية، وتحدّثوا بسهولة مع موظف الاستقبال عن المقاصد السياحية التي تقع على مسافة قصيرة من عمّان.

لكن في وقت لاحق عندما اجتمعوا في واحدة من الغرف التي حجزوها، تخلّوا عن التظاهر. كان هؤلاء السيّاح الكنديون عملاء للموساد، جهاز الاستخبارات الإسرائيلي المعروف. كانت مهمتهم في تلك المدينة العربية الوادعة الصديقة للولايات المتحدة تنفيذ عملية اغتيال أقرّها حكومتهم.

بعد أن أغلقوا الباب بإحكام من الداخل، تخلّوا عن اللهجات المصطنعة، وتكلموا بلغتهم الأصلية. أخرجوا معدّاتهم من حقائبهم، وجلسوا لمرة أخيرة، وراجعوا بمنهجية تفاصيل وجدول أعمال الأيام المقبلة. كانوا حذرين بشكل فطري

في مكـــان مـــن العالم حيث يوضع نـــزلاء منتقون في غرف معينة لاستراق السمع عليهم، ولهذا السبب رفعوا صوت التلفاز.

أصـــبحت طاولـــة صغيرة زجاجية السطح سطح عمل لهم، نشروا عليها لوازم عملـــية الاغتـــيال؛ خـــريطة لشوارع عمّان، مع دوائر مرسومة بخط اليد على حي الأعمال في الجهة الغربية، وصور لضحيتهم المفترضة؛ إذ كان رجلاً عربياً في الأربعين من العمر نحيلاً، وممتلئ الوجه، وملتحياً. لم يكن كثيرون سواء في الأردن أو إسرائيل يستطيعون تمييزه. الغريب أنه كانت هناك آلة تصوير صغيرة معهم.

أخفت رباطة جأش تدربوا على إظهارها حذر وقلق الجميع. أمسك رجل أشقر وملتحٍ بآلة التصوير بعناية وحرص يتخطيان اهتمام أي سائح عادي بالتقاط صور في أثناء عطلة. في الحقيقة، كانت آلة التصوير سلاحاً للقتل.

أبرز أحد زملائه رزمة، أخرج منها قارورة صغيرة لا تثير الشبهة أبداً، كان قد أدخلـــها إلى الـــبلد بشكل منفصل، وأوصلها إليهم في الفندق مبعوث سري. كانت تحـــتوي على كمية صغيرة من سائل صاف؛ إنها *رصاصة* الموساد. كانت تلك نسخة معدّلـــة كيميائياً من الفنتانايل، مسكّن الآلام المستعمل على نطاق واسع، لكن بتلك التركيبة المعدّلة يمكنه قتل أي شخص في غضون ثمانٍ وأربعين ساعة، ولا يترك أي أثر يمكـــن الكـــشف عنه عند تشريح الجثة. كانت خطّتهم القتل بصمت، ومن دون أن يثيروا شبهات.

في غرفة أخرى من الفندق نفسه، فتحت امرأة سمراء حقيبة زينة صغيرة لتتأكد بنفـــسها مـــرة أخرى من أن قارورة واحدة على وجه الخصوص كانت قد وصلت سليمة. كانت تلك المرأة بمنـــزلة بوليصة تأمين لرجال الموساد. لم يكن اشتراك أمثالها في المؤامرة أمراً معتاداً أبداً، لكن الدواء الذي كان العملاء سيستعملونه للمرة الأولى كـــان فتاكاً جداً، وقد طلب المخططون لمهمة الموساد وجود طبيب وترياق في حال عرّض أحد أفراد الفريق نفسه للسم عن طريق الخطأ.

كانـــت الأوامر تقضي باغتيال خالد مشعل. كان حشد عملاء الاستخبارات الأجنبـــية العـــاملين في عمّان يغضّون الطرف عن الناشط الفلسطيني البالغ من العمر واحداً وأربعين عاماً. لكن في مقر الموساد قرب تل أبيب، كان مشعل يُعدّ الأول على لائحـــة جديدة خطيرة من القادة الأصوليين. كان متشدداً، لكنه لم يكن يطلق لحية

كـــثّة أو يلف نفسه بجبّة. كان مشعل يرتدي بذلة، ويعدُّ بالمعايير الإقليمية – باعتباره الـــرجل الـــذي تتهمه إسرائيل بتنسيق سلسلة جديدة من العمليات التي تستهدفها – منطقياً في مقابلاته التلفزيونية. من وجهة النظر الإسرائيلية، تمتع خالد مشعل بمصداقية كبيرة كقائد جديد لحماس، ويمكن أن يكون مقنعاً للغاية. كان ينبغي القضاء عليه.

ضـــربوا ضـــربتهم يوم الخميس 25 أيلول من العام 1997. كانت الساعة قد تجـــاوزت العاشرة صباحاً بقليل، إلا أن ضربتهم لم يكتب لها النجاح، لو أنهم نجحوا، لكـــان مـــشعل قـــد ذهب إلى منـــزله ومات بهدوء، ولكان العملاء شقوا طريقهم عائـــدين إلى مـــنازلهم أيـــضاً، فوق جسر اللنبـــي على نهر الأردن، ووصلوا القدس للاحتفال بتناول الغداء. بدلاً من ذلك، سرعان ما كان إسرائيليان حبيسي زنـــزانتين رطبـــتين تحت مبنى أمن عمّان والآخرون يختبئون في السفارة الإسرائيلية التي طوّقتها القوات الأردنية وهو أمر لا يُصدّق لما يفترض أنها بعثة أجنبية صديقة.

كان الملك الأردني حسين على قدر المسؤولية في الأزمة. استشاط غضباً، اتصل مباشـــرة بـــرئيس الـــوزراء الإسرائيلي، وحذّر بنيامين نتنياهو من أن رجال الموساد سيموتون شنقاً إذا توفي مشعل. بتأنٍ أكبر، رفع الملك حسين بعد ذلك سمّاعة الهاتف، وأجـــرى مكالمـــة، فأجابـــته امرأةٌ بصوت عذب: "صباح الخير، أهلاً بك إلى البيت الأبيض".



2

قرية الشيوخ

كان الفتى اليافع يعرف تلك الشاحنة. في الصيف، كانت تنقل البطيخ الكبير إلى أكشاك في سوق القرية. إلا أنه في هذه المرة، كان خالد مشعل والعشرات من أقربائه المذهـــولين يجلسون في الخلف، حيث كان معتاداً رؤية الفاكهة مكدّسة مثل صخور خـــضراء كبيرة. كانت والدته، فاطمة، شاردة الذهن لكنه تشبث بها، كانت بعض خالاته يجلسن على ألواح الخشب القاسية؛ واندسَّ أبناء الخالات بين الحقائب وأشياء أخرى، التي رُبطت معاً ببطانيات وملاءات.

اتجهوا شرقاً بعيداً عن منازلهم في جبال القدس، وصلوا إلى أرضٍ غريبة وقاسية. بيـــنما كانـــت الشاحنة القديمة تتمايل وتدخل وادي الأردن، اختفى المنظر المألوف لقريته التي كانت تشكل عالم الفتى بأكمله، وحل محله منظر مقفر.

بينما كانوا يتجهون نحو جسر اللنبـــي، المعبر الذي يلتقي عنده نهر الأردن مع الطـــبقات الغليـــسيرينية للبحـــر الميت، رأى خالد قتلى الحرب الأولى التي يشهدها، أجـــساد مقاتلين على الطريق. عندما أمعن خالد النظر بعينيه الطفوليتين، لم يفهم أنه وســـط ذلك الحزن والأسى تم اقتلاعه وعائلته من أرضهم. كان ذلك في حزيران من العام 1967.

كانـــت حـــركة المرور فوضوية، والشاحنات وسيارات الأجرة تسير جنباً إلى جنب. كان الكثير من الناس الآخرين يفرّون سيراً على الأقدام. جائعون وعطشى في حرّ بداية الصيف، تخلّى البعض على مضض عن أمتعتهم؛ تم إلقاء حقائب على طول الطـــريق، كما أنه شاهد قدماً اصطناعية مرمية. كانت أمهات مع أطفال يبلغون من العمـــر ســـنتين يصرخون طلباً للماء، قدّر دبلوماسيون أميركيون لاحقاً أن عشرات الآلاف كانوا قد هربوا من أريحا القديمة وحدها[1].

في الأيام الكئيبة التي أعقبت حرب الأيام الستة، كان التاريخ يكرّر نفسه بالنسبة إلى الفلسطينيين. بعد أسبوعين فقط من احتلال إسرائيل السريع للضفة الغربية، كان

خالد آنذاك أحد الفتيان المجهولين في الموجة الثانية من الفلسطينيين الذين تم اقتلاعهم من أراضيهم. خرجت الموجة الأولى قبل عشرين سنة تقريباً، في العام 1948، عندما تم إرغام الكثيرين على النـــزوح لدى إنشاء دولة إسرائيل الجديدة.

طلـــبت فاطمة آنذاك من فتياتها المراهقات العناية جيداً بماهر الذي كان يبلغ من العمـــر خمـــس سنوات، وهو شقيق خالد الأصغر. علا صوتها على ضجيج الشاحنة المـــرتفع الـــتي وجدوا أنفسهم فيها، وحاولت تقديم تفسير بسيط للأولاد المذعورين بشأن تلك الكارثة فقالت: "لقد استولى اليهود على أرضنا".

أخيراً، عندما وصلوا إلى معبر النهر، كان هناك ازدحام وخوف، وأرغموا جميعاً علـــى مغـــادرة مـــركباتهم. كان جسر اللنبـــي القديم قد تعرض للقصف، وكانت الثغـــرات الكبيرة في الألواح الخشبية تجعل من المستحيل على السيارات عبوره. تم مدّ حـــبال كدرابزين موقت لمساعدة آلاف اللاجئين الذين كانوا يشقّون طريقهم بحرص عـــبر المـــسالك الضيقة التي بقيت على الأطراف المتينة لأرضية الجسر، تركت فاطمة وأولادها وطنهم وسيراً على الأقدام، مشوا فوق الجسر إلى الأردن.

تقـــع سلواد في منطقة طباشيرية (غنية بالكلس) في قلب الضفة الغربية. في نهاية الطريق إلى هناك، على بعد ستة عشر ميلاً إلى الشمال من القدس، كان حوالى ثمانية آلاف شـــخص يعيـــشون في مـــنطقة ريفية على سفح تلة ميّزهم كقرويين؛ كانت علاقتهم مع الأرض، وليس عددهم، هي التي تحدد ذلك.

كانـــت بـــيوت القـــرية تنتشر متباعدة على طول سلسلة صخرية تمتد باتجاه جنوبـــي الشمال. كان أمام قاطنيها منظر شامل رائع لما أصبح، بعد نكبة عام 1948 ، أراضـــي فلسطين المغتصبة؛ السهول الساحلية من يافا إلى حيفا. يبرز خلفهم جبل العاصور الشامخ، الذي يرتفع 3,370 قدماً، ويُعدّ ثاني أعلى قمة في الضفة الغربية.

كانـــت سلواد قد نجت من معظم الأعمال الدموية والوحشية التي مزّقت أرض فلـــسطين. لكن والد خالد – عبد القادر – كان قد غادر القرية في الثامنة عشرة من عمـــره بحـــثاً عـــن عمل. كانت قد أثارت اهتمامه خُطب الشيخ عز الدين القسّام الحماســـية، الـــتي كان يستمع إليها في مسجد الاستقلال في حيفا؛ المدينة الساحلية الـــشمالية التي ذهب إليها العديد من أهل سلواد بحثاً عن عمل. في العام 1936، كان قـــد انضم إلى صفوف الثورة العربية، الحالمة لكن سيئة الطالع، ضد القوات البريطانية

الاستعمارية في محاولة من العرب لجعل بريطانيا تتراجع عن دعمها لدولة إسرائيل المفترضة. في تلك الثورة، التي ألهبت الشعور الوطني الفلسطيني، قاتل عبد القادر أحياناً مع ما يصل إلى مئتي رجل؛ وفي أحيان أخرى، كان عضواً في خلية صغيرة تقوم بأعمال حرب العصابات.

كانت بريطانيا قد حظيت بالانتداب على فلسطين الكبرى عندما قسّم المنتصرون في الحرب العالمية الأولى الإمبراطورية العثمانية. لقي آلاف العرب حتفهم عندما سحق البريطانيون تمردهم بشكل وحشي. عندما انتهت الثورة في العام 1939، عاد عبد القادر إلى سلواد، وهو يعي تماماً عزلة الفلسطينيين، ويشعر بانزعاج عميق من فشل قيادة شعبه الممزقة. بمواجهة هجوم متواصل من اليهود على الأراضي الفلسطينية ومدعوم من البريطانيين، قام السوريون بتمرير أسلحة وذخيرة للفلسطينيين، لكن القادة العرب آنذاك لم يقدموا الكثير من الدعم، ولم يفعلوا الكثير للمساعدة في توحيد القيادة الفلسطينية المنقسمة على نفسها.

وسط إحساس متنامٍ بشأن الطموحات اليهودية، استمرت الحياة في سلواد بالنسبة إلى عبد القادر وعائلته الكبيرة من العمّال الزراعيين والحرفيين. كان قد تزوج بفاطمة، ابنة عمه ذات الاثني عشر ربيعاً آنذاك، وعاشا معاً حياة بسيطة وقاسية.

كانت سلواد قرية معزولة من دون كهرباء. لم يكن فيها سوى هاتف واحد خلف الأبواب الموصدة لمبنى البلدية، وكانت المياه تُجلب من الآبار، وكانت وسيلة نقل كل عائلة حماراً واحداً في العادة. كان البعض هناك أكثر يسراً من آخرين، لكن حقائق الحياة الأساسية كانت ببساطة تجعل الجميع سواسية؛ فالجميع كانوا يخبزون أرغفتهم على صاجٍ فولاذي حار، ويضعون عليها بعض أقراص الطماطم المزروعة محلياً، والجبن منزلي الصنع، وزيت الزيتون للغداء. كانت تلك هي حياة الفلاح الفلسطيني.

هناك، كان الأولاد يقبلون بشكل اعتيادي ارتباط العائلة العميق بالتاريخ الفلسطيني الحديث، والعلاقات القبلية القاسية أحياناً، والثقافة المحافظة للغاية. بالطريقة نفسها، كان أمراً مسلّماً به ضيق عيش الاقتصاد الريفي الذي يدفع بالرجال للسفر إلى الخارج عدّة سنين في كل مرة، والعمل لزيادة دخل العائلة. كانت النساء هن من يربين الأولاد، ويزرعن المحاصيل. عندما كان خالد في الرابعة عشرة من عمره فقط،

اختفى والده من حياته؛ سافر إلى الكويت البعيدة، وكان يرسل عدّة دنانير كل شهر. كانت الفترة التي تفصل بين كل زيارة وأخرى له للمنـــزل تصل إلى سنتين في بعض الأحيان.

بالـــرغم مـــن كل ذلك، كان هناك شعور بالأمان؛ وكانت الحياة جيدة. كان منـــــزلهم مؤلفاً من غرفة واحدة، مساحتها عشرون قدماً مربعة فقط، وتقع في نهاية مـــبنى من الحجارة رمادية اللون. كان باقي البناء لأفراد آخرين من عائلتهم الكبيرة. لـــدى التحويل من التقويم الهجري إلى الميلادي، يتبين أن التاريخ المكتوب على حجر عقدة الباب العليا يعود إلى العام 1944.

الأكثـــر أهمـــية مـــن المنـــزل، بأي حال، كانت الحقول التي يتداخل فيها الطين وأحجار الكلس المكسورة. كان عبد القادر محظوظاً لأن جدّه لأبيه كان موسراً، وترك له عند مماته أربعين *دونماً*؛ حوالى عشرة فدادين[2]. في تلك الحقول، المليئة بالصخور، كانت العائلـــة تزرع القمح، وأشجار الفاكهة، والجوز، والزيتون، والتين، والمشمش، والعنب، واللـــوز. في غـــياب زوجها، كانت فاطمة هي التي توجّه أبناءها إلى العمل في الحقول، وتقـــضي وقتها بين الواجبات المنـــزلية والصفوف في مدرسة محلية صغيرة، والتي كانت تبعد أكثر من ميل عن منـــزلهم في حي قديم من القرية يدعى *راس علي*.

كانـــت سلواد معروفة بأنها *قرية الشيوخ* بسبب تقليد موغل في القدم، يتجلّى بقـــيام رجالهـــا المحليين بدراسة علوم أصول الدين في الأزهر، وهي الجامعة الإسلامية الشهيرة في القاهرة. كان معظمهم يعود إلى جبال القدس للوعظ والتعليم، وكان من بـــين هـــؤلاء الشيخ الضرير خليل عيّاد، الذي كان له أثر كبير في تشكيل شخصية سلواد الدينية المتشددة في وقت كان فيه عبد القادر وفاطمة يجدان لنفسيهما مكاناً في الطبقة الوسطى المحلية اجتماعياً واقتصادياً.

كـــان عبد القادر يمتلك قطعة أرض كبيرة، وهو ما يعتبر بالمعايير المحلية، مُنتجاً لـــدخل معقـــول. كان رجلاً نشيطاً، كثير الانتقال، ويسعى لالتقاء رجال السياسة والـــدين المهمـــين. لم يكـــن قد تلقى إلاّ تعليماً ابتدائياً بسيطاً، لكنه اجتهد بدراسة القـــرآن، وأصبح بمرور الوقت محكّماً يسوّي النـــزاعات المحلية وفقاً لمبادئ الشريعة الإســـلامية. لم تكن فاطمة تستطيع القراءة أو الكتابة، لكنها كانت حصيفة وتقول لزوجها: "لسنا عائلة ثرية، لكننا أغنياء بعقولنا".

بعـــد ثـــورة الثلاثينيات، ازدادت حدّة العنف بين العرب واليهود. كان عبد القادر يعتـــبر أن البريطانيين المتذبذبين يمنحون فلسطين لليهود. كان يقول: "جزءاً إثر آخـــر... أمـــام أعيننا". مثل الفلسطينيين، كان المقاتلون اليهود يحاربون القوات الـــبريطانية، ويهجّـــرون الفلـــسطينيين للإفساح في المجال أمام الوطن اليهودي الجديـــد. علـــى خلفية توتر متصاعد، كانت الميليشيات اليهودية السرية، مثل الأرغون وعصابة شتيرن، هي التي أصبحت شبحاً طارد كل الشعب طيلة عقود مـــن الزمن؛ بهجمات متعمدة وقاتلة على الحشود المدنية. كان المقاتلون العرب يـــستخدمون في هجماتهم "سكيناً، هراوة، وقطعة قماش منقوعة بالوقود"، بينما كـــان ردّ فعل اليهود إدخال المعدّات الأساسية للإرهاب المعاصر إلى النـــزاع؛ المتفجـــرات في الأســـواق ومحطـــات الحافلات، وفي السيارات والشاحنات، بالإضافة إلى التهجير من خلال إطلاق النار من أسلحة آلية[3].

في العام 1945، بينما كان العالم يهتز من رعب الأعمال الوحشية التي ارتكبها الـــنازيون ومؤيدوهم بحق يهود أوروبا، كثّف الصهاينة حملتهم من أجل وطن خاص بهـــم، وطالـــبوا بكـــل فلسطين التاريخية[4]. قوّتا الحرب الباردة اللتان انبثقتا آنذاك، واشـــنطن وموسكو، تجاهلتا احتجاجات العرب، وفي تشرين الثاني من العام 1947، دعم الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة قراراً للأمم المتحدة يدعو إلى تقسيم فلسطين بـــين الشعبين؛ باستثناء مدينة القدس المقدّسة، التي اقترح قرار مجلس الأمن رقم 181 إخضاعها لسيطرة دولية وفتحها أمام المسلمين، واليهود، والنصارى.

متأثراً بخطيب إسلامي جاء إلى سلواد من القاهرة عام 1946، انضم عبد القادر إلى الإخـــوان المـــسلمين. كـــان الإخوان جماعة مثيرة للجدل، تأسست في مصر في عـــشرينيات القـــرن الماضي لمقاومة النـــزعات العلمانية والدفع نحو إقامة مجتمعات إســـلامية متدينة تقوم على الشريعة. كانت الثورة العربية قد أثارت اهتمام الإخوان بفلـــسطين[5]. لاحقـــاً، أرسلت الجماعة مقاتلين لمساعدة المقاومة العربية ضد اليهود والـــبريطانيين. افتـــتحت عـــشرات الفروع، وانضم إليها في سلواد معظم المتدينين، لأسباب سياسية ودينية على حدٍّ سواء.

عـــندما لاحت حرب استقلال إسرائيل (وفقاً للتعبير الصهيوني) في الأفق، حمل عبد القادر السلاح مجدداً؛ لكنه اختار ألاّ يقاتل مع الإخوان. بدلاً من ذلك، انضم إلى

عبد القادر الحسيني، قائد المقاومة الأسطوري الذي استشهد كبطل في معركة حامية الوطيس في القسطل، غربي القدس، قبل أسابيع فقط من إعلان قيام دولة إسرائيل في أيار من العام 1948.

في الأسابيع التي سبقت وفاته، قاومت قوات الحسيني شبه العسكرية مقاتلين يهوداً في معارك للسيطرة على تلال شديدة الانحدار على الطريق الاستراتيجي بين تل أبيب والقدس حتى إن الهاغانا، قوة الحرب الصهيونية، اضطرت لابتكار ما يدعى الخطة البديلة. بهدف إخراج العرب المعادين المثيرين للمتاعب من فلسطين، كانت تلك حملة عسكرية ساهمت بشكل مباشر وحاسم في نشوء مشكلة اللاجئين الفلسطينيين[6]. كان هدف الخطة تدمير المناطق الريفية والحضرية في فلسطين[7]. قام الصهاينة بتسميم مصادر المياه، وارتكاب مجازر بالعشرات[8]. كتب إسحاق رابين – الذي كان في تلك الفترة ضابطاً، وشغل في ما بعد منصب رئيس وزراء بلده مرتين – لاحقاً عن دوره فيما صنّفه المؤرخ الإسرائيلي إيلان بابيه بأكبر هجرة قسرية في التاريخ الحديث. "كان من الضروري تهجير خمسين ألف مدني من اللد والرملة، وهما بلدتان قرب تل أبيب". وفقاً لما كتبه رابين[9].

"لم يغادر سكان اللّد طواعية. لم تكن هناك طريقة لتفادي استعمال القوة وإطلاق طلقات تحذيرية لجعل السكّان يمشون عشرة أميال أو خمسة عشر ميلاً إلى حيث يلتقون مع الجيوش العربية... شاهد سكّان الرملة ما حدث وتعلموا الدرس، فوافق قادتهم على الإخلاء طوعاً"[10].

وثّق الفلسطينيون تدمير أكثر من خمسمئة قرية. بحلول نهاية العام 1948، كان حوالى سبعمئة ألف شخص، أكثر من 60 بالمئة من السكان العرب في ما كان فلسطين، لاجئين في الضفة الغربية وقطاع غزة وفي الأردن، وسورية، ولبنان.

إعلان الاستقلال الإسرائيلي، الذي قرأه ديفيد بن غوريون باحتفال في متحف الفن في تل أبيب في 14 أيار من العام 1948، أغفل عمداً أي إشارة إلى الحدود الوطنية (خط التقسيم) التي اقترحتها الأمم المتحدة لتقسيم المناطق المتنازع عليها في الأرض المقدّسة لأن بن غوريون كان يتوقّع التوسع خلف تلك الحدود. حظي بفرصته بعد أربعٍ وعشرين ساعة من قراءته ذلك الإعلان.

سينظر الطرفان إلى النزاع التالي الذي بدأ في 15 أيار بشكل مختلف تماماً. ما

تدعوه إسرائيل حرب الاستقلال، يسمّيه الفلسطينيون *النكبة*.

لمنع انهيار المقاومة الفلسطينية في القتال في خلال الشهور التي تلت ذلك، قدّمت الجامعة العربية دعمها لها. تحركت وحدات من الجيوش المصرية، والأردنية، والسورية، واللبنانية، والعراقية نحو فلسطين بعد يوم من إعلان بن غوريون الاستقلال. لكن في منتصف أيار من العام 1948، واجهت قوات عربية مؤلفة من خمسة وعشرين ألف جندي في فلسطين قوة إسرائيلية من خمسة وثلاثين ألفاً. ازدادت كلتا القوتين، وبحلول نهاية السنة تفوّق المئة ألف شخص الذين يحملون السلاح في إسرائيل عددياً على القوات العربية بحوالى الضعف[11]. بدأت إسرائيل بأسلحة أقل كفاءة، لكن شحنات الأسلحة من تشيكوسلوفاكيا، في خلال أسابيع من اندلاع الحرب، قلبت ميزان القوة لمصلحتها[12].

كان الإسرائيليون أكثر عدداً وأفضل تسليحاً، وقاتلوا بشكل استراتيجي. بحلول نهاية الحرب، لقي حوالى ستة آلاف إسرائيلي وضعف ذلك العدد من العرب حتفهم. دخل المصريون غزة وبقوا فيها، وفيها حوالى ثلاثمئة ألف لاجئ فلسطيني جديد تجمّعوا على طول القطاع الساحلي الصغير. تحرك الجيش الأردني الذي درّبته وموّلته بريطانيا، ودخل الضفة الغربية إلى جانب الجزء الشرقي من القدس.

أضحت خطة الأمم المتحدة بتدويل القدس طي النسيان. تم تقسيم المدينة على طول خط وقف إطلاق النار، وسيطرت عمّان على المدينة التاريخية القديمة ومقدّساتها. أصاب ذلك الإسرائيليين بمرارة شديدة، نظراً لعدم تمكنهم آنذاك من الوصول إلى أقدس أماكن العبادة لديهم، الحائط الغربي. كان قد تم محو فلسطين كدولة قيد التأسيس من الخريطة. فيما حصلت إسرائيل، أحدث دولة في العالم، على حوالى ضعف مساحة الأراضي المخصصة لها بموجب قرار الأمم المتحدة 181.

في سلواد، كان هناك شعور بالصدمة من نتيجة الحرب، وفشل القيادة العربية، وشق مئات اللاجئين العرب من الدولة اليهودية الجديدة طريقهم نحو جبال القدس. جاء هؤلاء من حيفا ويافا، سكنوا بيوتاً صغيرة ملحقة بأكبر منها في القرية، لكنهم بمرور الوقت امتلكوا أراضي، وبنوا منازل، وتزاوجوا بعائلات القرية.

بعد سنتين، قام الملك الأردني عبد الله رسمياً بضم كل الضفة الغربية بما في ذلك قرية سلواد. أراد بعض القرويين أن يكونوا جزءاً من فلسطين المستقلة؛ واعترض

آخرون على إخضاعهم لسلطة عمّان. لكن عبد القادر قال لعائلته إن العرب – سواءً أحـــبوا ذلك أم لا – سيكونون أفضل حالاً في ظل أي نظام عربـــي مقارنة بسلطة إسرائيلية أو بريطانية.

إذا نحّيـــنا الحرب، والسياسة، ومشقة الحياة القروية جانباً، كانت تلك سنوات قاسية على فاطمة. كان أول واجبات الزوجة الفلسطينية الريفية إنجاب الأولاد الذين يُفـــضّل أن يكون بكرهم صبياً. توفي أول خمسة أطفال لفاطمة في غضون شهور من مـــولدهم؛ ثلاثة صبيان وبنتان. وكان أول من عاش لها بنتان؛ صفية، ولدت في العام 1950، ومريم في العام 1953. استمر الأمر على تلك الحال حتى آذار من العام 1956 عـــندما حققت واجبها الزوجي بولادة وريث ذكر لعبد القادر. كان ذلك خالد عبد الـــرحمن إسماعـــيل عبد القادر مشعل؛ سيتم اختصار اسمه من الآن فصاعداً إلى خالد مشعل.

كان أي شعور بالفرح يمر بسرعة. خلال شهور، فعل زوجها ما فعله العديد مـــن رجـــال القـــرية الآخرين، تزوج بامرأة ثانية. ثقافياً، ما بدا أنه صفعة قوية لفاطمـــة، كـــان عملاً مقبولاً تماماً. كان عبد القادر يدخن بهدوء، ويقدّم نفسه بـــسعادة بطـــريقة توحي إلى الناس أنه رجل متمكّن، وشخص ذو مكانة رفيعة. شـــعرت فاطمة، التي كانت امرأة جذّابة في الثلاثين من عمرها آنذاك، بالغضب. عـــندما قام زوجها ببناء أسرة ثانية، وأخذ يقضي نصف الوقت فقط مع فاطمة وأولادهمـــا، تحدّتـــه: "كيف يمكنك فعل ذلك بي؟"، وألحّت عليه بالسؤال. "أنا قريبتك، أنا زوجتك. لقد أنجبت لك صبياً، لماذا تريد زوجة ثانية؟ ألم أعتنِ بك، وبالأولاد، وبأمك، وبالمزرعة؟"[13].

صـــدّها زوجها. هزّ عبد القادر كتفيه غير مبالٍ، وقال إن تعدد الزوجات حق كفلـــه الإسلام والتقاليد العربية. كان مثل ذلك السلوك الذي يبدو قاسياً يعد حكاية معقّـــدة عـــن انغماس الرجل العربـــي في الملذّات. في حالة عبد القادر، أصبح الأمر عـــصياً على الفهم بعد عام، عندما أعلن ذلك الرجل، الذي كان يريد من العالم أن يـــصدّق بأنـــه يستطيع إعالة زوجة أخرى ومنـــزل ثانٍ، وأنه سيسافر للعمل لتأمين متطلبات العائلتين.

كـــان الطـــريق للخـــروج من سلواد معروفاً جيداً. في الأيام الأولى للانتداب

البريطاني، تدافع الشباب إلى الناصرة بحثاً عن عمل، وفي الثلاثينيات والأربعينيات ذهبوا إلى حيفا للعمل، ولسماع خطب القسّام النارية[14]. في الخمسينيات، حزم عدد كبير من رجال سلواد حقائبهم، واتجهوا نحو الكويت، وانضم إليهم آنذاك عبد القادر، الذي ذهب بشكل شرعي. لقي رجال آخرون، من بينهم قريب لزوجته الأولى والزوج الأول لزوجته الثانية، حتفهم في الصحراء الحارة بين بغداد ومدينة الكويت في أثناء محاولتهم الدخول خلسة إلى الإمارة الوليدة، الغنية بالنفط والصغيرة، الواقعة على رأس الخليج العربي. تسبب رحيله بألم مضاعف لفاطمة، لأن عبد القادر كان قد قرر أخذ زوجته الجديدة إلى الكويت. بقيت فاطمة وحيدة في سلواد لإدارة المزرعة وتربية الأولاد.

كانت الحياة قاسية وموحشة بالنسبة إلى النساء اللواتي يتركهن أزواجهن. وجدت فاطمة السلوان في المزرعة وأولادها خاصة خالد، الابن البكر المهم للغاية. عندما بلغ الرابعة، طلب بأن تقوم شقيقتاه الأكبر منه سناً بتعليمه القراءة؛ وخلال وقت قصير كان يساعد أمه الأمّية على فهم اللصاقات على قوارير الأدوية. كانت فخورة بابنها. كان معلّمو مدرسته سعداء أيضاً. كان خالد الأول على صفه دائماً، وأصبح كل من في المدرسة يعرفه. يسجل موروث القرية الشفهي، وكلما كان تمرين يستعصي على زملائه، كان خالد الذكي هو الذي يقدم الجواب الصحيح. كان يسلّي ماهر، شقيقه الأصغر، بصنع سيارات ودمى أخرى له من أسلاك منحنية وعلب قصدير.

كانت ألعاب القرية عامل إلفة كبيراً. كان الفتية يصنعون طائرات ورقية، يلعبون بكرات الزجاج الصغيرة، ويبتكرون ألعابهم الخاصة لكشف المهارة والحظ. كانوا يقضون معظم وقتهم في ظل صخرة عملاقة تشبه القلعة على الحافة العليا *لراس علي*، التي كان الأولاد قد أطلقوا عليها اسم *صخرة الخروف*. عندما كانوا يسقطون في أثناء اللعب، كان يُطلب منهم النهوض فوراً؛ وقد شُج رأس خالد، عندما كان صغيراً، بعد أن وقع على رأسه من مستوى غرفة المعيشة في منزلهم إلى الأرضية الصخرية في الأسفل. عولج الجرح الكبير ببساطة بضغط القليل من البن عليه.

كانت تلك بقعة جافة من العالم، ومع انقضاء عقد الخمسينيات وبداية عقد

الـــستينيات، كانـــت الدولة الإسرائيلية الوليدة وجيرانها العرب يتجهون نحو حرب جديـــدة؛ بـــشأن الماء. كانت إسرائيل تريد الاستيلاء على بحيرة طبرية لتكون خزّاناً كـــبيراً لـــبلداتها ومـــزارعها الجديدة. لكن واحداً فقط من الروافد الثلاثة التي تغذّي الـــبحيرة ينـــبع في الواقع من إسرائيل. الآخران - بانياس ودان - ينبعان من سورية ولبـــنان. كان نهر الأردن، الذي يجري من الطرف الجنوبـــي لبحيرة طبرية، مصدراً مائياً مهماً لسورية والأردن.

أصـــدرت الحكومـــتان العربيتان الناقمتان أوامر لمهندسيها بالمباشرة بخطة مثيرة لـــتحويل مساري بانياس ودان قبل أن يدخلا إسرائيل. لكن عندما بدأ الحفر، قصف الإسرائيليون الجرّافات والمعدّات الأخرى حتى توقف العمل. كانت هناك اشتباكات حدوديـــة بين إسرائيل وسورية، وقام وطني فلسطيني جديد غير معروف آنذاك اسمه ياســـر عرفات بأول عمليات حرب العصابات، عندما شن غارات عبر الحدود على إسرائيل.

في سلواد، مع غياب زوجها السياسي النشيط في الكويت، كانت فاطمة غافلة عـــن صوت طبول الحرب. لم يكن هناك تلفاز، وقلّة من الصحف تصل إلى القرية؛ وكـــان الرجال وحدهم، الذين يتجمعون حول أجهزة المذياع التي تعمل بالمذخرات (البطاريات)، يستمعون بأسى إلى إذاعة القاهرة أو هيئة الإذاعة البريطانية. كان الفتيل يـــشتعل، لكـــن بغض النظر عن حقيقة أن فاطمة لم تكن تستطيع القراءة أو الكتابة، كـــان ذلـــك وقت الحصاد، كانت قد حصدت القمح، وتلتقط أنفاسها قبل أن تبدأ قطاف التين والعنب.

استمرت الحرب ستة أيام فقط، كانت الحرب قد انتهت عملياً قبل أن يحمل ابن أخـــيها وهـــو يلـــهث الأنباء لفاطمة بأنها بدأت. في سلسلة مذهلة من الهجمات في الأســـبوع الأول مـــن حزيـــران 1967، دمّرت الطائرات الإسرائيلية أربعمئة طائرة للقـــوات الجوية العربية مجتمعة؛ كان معظمها لا يزال على الأرض. في صبيحة اليوم نفسه، كانت مدينة القدس القديمة قد استسلمت، وبعد ساعات فقط توغلت القوات البرية الإسرائيلية عميقاً في الضفة الغربية. عندما وصلت إلى حدود أريحا القديمة، قبل مغيب شمس اليوم الأول، وصلت أوامر بضم كامل الضفة الغربية إلى إسرائيل[15].

أبلـــغ ابن أخ فاطمة عمّته أن القرى القريبة تستسلم للقوات الإسرائيلية - أو،

كمـــا قـــال، بكلمة بسيطة: "اليهود". صرخ: "نحن نخسر أرضنا!". في صبيحة اليوم الـــتالي، قامـــت فاطمة، التي رفضت الخوف، بإرسال خالد ابن الإحدى عشرة سنة وشـــقيقتيه إلى المدرســـة فـــيما انطلق والدها للعمل في حقوله. لكن الرجل العجوز ســـرعان مـــا عاد. بحزن كبير، أمر فاطمة أن تسلّح نفسها بسكين مطبخ، وقال لها: "اليهود قادمون. لا تموتي كحيوان دافعي عن نفسك!"[16].

مـــثل معظـــم الوطن العربـــي، كان الكثيرون في سلواد يصدّقون الدعاية الإعلامـــية التي تصدر من القاهرة. كانوا يصدّقون كلام المصريين المبالغ به كثيراً عن الانتصارات العربية التي تحققت. في شوارع عمّان، العاصمة الأردنية، هلّلت الحـــشود للطائـــرات المقاتلـــة التي هدرت فوق رؤوسهم في طريقها إلى الأجواء الإسرائيلية. كانوا يعتقدون أن تلك طائرات مقاتلة مصرية لن ترحم الإسرائيليين[17]. في الواقـــع، كانت مقاتلات إسرائيلية عائدة من الضربات الاستباقية، التي سحقت عملـــياً القـــوة الجوية المصرية بكاملها. كان عبد الفتاح، عم فاطمة الذي يمتلك متجـــراً للـــبقالة في سلواد، مفتوناً بإذاعة القاهرة. قال لابنة أخيه: "إننا ننتصر! سنتناول الغداء في تل أبيب!"[18].

لكن بعد أربعٍ وعشرين ساعة فقط، سقطت سلواد من دون قتال. لم تكن هناك مقاومـــة مـــنظمة، اشـــتباك قصير فقط لقي فيه أحد السكان المحليين حتفه. تحركت القـــوات الإســـرائيلية في الشوارع، وأمرت السكان المحليين بتعليق رايات بيضاء في الخـــارج كعلامة على أنهم لن يقاوموا. مع حلول الليل، تم فرض حظرٍ للتجول وتابع الإسرائيليون توغلهم في الضفة الغربية، وعلّقت والدة فاطمة بإذعان علامة الاستسلام العالمية على إطار باب منـــزل ابنتها الخائفة.

لم يكن لدى فاطمة وسيلة للاتصال بعبد القادر في الكويت. تحت سيطرة جيش احـــتلال مـــن رجـــال إسرائيليين يافعين، انتابها خوف شديد على ابنتيها، صفية في السابعة عشرة من عمرها ومريم في الرابعة عشرة. كانت خالتها حليمة تريد الهروب إلى الكهـــوف في أعلـــى الجـــبال، لكن فاطمة قالت بإصرار بكلمات رنّت في آذان أولادها: "يمكنهم تدمير منـــزلي إذا شاؤوا، لكنني لن أغادر".

بعد أن أدرك مدى سوء نتيجة الحرب بالنسبة إلى الجيوش العربية، شعر عبد القادر وعبد الله، شقيقه الأكبر الذي كان أيضاً في الكويت، بالخوف الشديد من

أن تكـــرّر القـــوات الإسرائيلية عمليات القتل وتدمير القرى كما حدث في العام 1948. سارعا إلى عمّان، حيث فرض الشقيق الأكبر سلطته بحكم العمر. جادل بأنـــه مـــن الخطـــير للغايـــة أن يدخلا إلى الضفة الغربية، المحتلة آنذاك من قبل الإسرائيليين، وأمر عبد القادر بالبقاء في العاصمة الأردنية فيما انطلق هو لإحضار عائلتيهما من سلواد.

لـــدى وصوله إلى عتبة بيت فاطمة، طلب منها عبد الله أن تجهّز الأولاد لرحيل سريع. بدلاً من تناول الغداء في تل أبيب كما كان قد توقع نتيجة الانتصار العربـــي، دفع عبد الفتّاح، عمّ فاطمة البقّال، ماله لمالك شاحنة البطيخ لإجلاء العائلة إلى المعبر الأردني.

بيـــنما كانـــت الشاحنة تبتعد عن سلواد، نظرت فاطمة إلى الخلف إلى وجهي والـــديها، اللـــذين تم انـــتقاؤهما ليبقيا هناك. كانت قد حزمت القليل من الأمتعة – حقيبـــتين فقط– لأن رجال القرية ادّعوا أنهم ربما يعودون في غضون أسابيع، أو حتى أيـــام. كانوا واثقين من أنه سيتم تنظيم تلك الفوضى، وأن الإسرائيليين سيغادرون، وسيعود كل القرويين عند ذلك لإنهاء الحصاد. لكن شيئاً اعتمل داخل فاطمة. نظرت نحو الحقول، وأجهشت بالبكاء. كانت قد اعتنت بها كما اعتنت بأولادها. كان أكثر مـــا يزعجها هو أساسيات الحياة الريفية التي تركتها خلفها؛الجبن المصنوع منـــزلياً، وزيـــت الـــزيتون، والتين المجفف، والحبوب التي احتفظت بها جانباً كبذور للموسم التالي.

في حرب خاطفة واستثنائية، كانت إسرائيل قد سيطرت على ما كان رئيس الـــوزراء ليفـــي أشكول قد وصفه بأنه "مهر جيد"؛ تم انتزاع الضفة الغربية من الأردن وغزة وسيناء من مصر، ومرتفعات الجولان، ذات الموقع الاستراتيجي المهم فوق بحيرة طبرية، من سورية. تابع أشكول كناية الزفاف: "لكنه جاء مع عروس لا نرغب فيها"[(19)].

مخاطـــباً قادة حزب العمل الإسرائيلي، كان أشكول يوضّح التناقض الذي ســـيلازم الجـــدال المـــتعلق بوجود إسرائيل طيلة عقود. كان سبب قلقه معروفاً وبسيطاً جداً.

كـــان الإسرائيليون يريدون أرض فلسطين، لكن ليس شعبها. وسط اقتراحات بأن

يتم ترحيلهم، وحتى تفجير مسجد قبة الصخرة، الجوهرة الإسلامية في سماء القدس[20].

انطلق اللوبـــي الإسرائيلي في واشنطن للعمل بنشاط محموم مباشرة، ومارس ضغوطاً على الرئيس ليندون جونسون. كان اليهود الأميركيون يخشون من إرغام إســـرائيل على الانسحاب من أرضها الجديدة من دون التفاوض أولاً على اتفاقية سلام مع عدوها المهزوم[21]. لكن لم يكن واضحاً أبداً ما إذا كانت إسرائيل تريد إبرام اتفاقية فعلاً. بالعودة إلى العام 1948، كان بن غوريون قد استنتج أن الوقت يعمل لمصلحة الإسرائيليين؛ لم تكن هناك حاجة إلى الاسراع في أي محادثات سلام رسمـــية، الـــتي ربما تقوّض فرصاً مستقبلية لإنشاء ما وصفه زميله العميد عوزي ناركس *بحقائق جديدة*[22]. عندما توقف القتال في العام 1967، قال وزير الدفاع موشيه دايان لهيئة الإذاعة البريطانية إن إسرائيل كانت سعيدة بموقعها، كما أنه لم يتـــصور الدخـــول في مفاوضات. بوقاحة، أضاف: "ننتظر من العرب أن يرفعوا سماعة الهاتف ويتصلوا"[23].

كان هناك جدال قوي ضمن المؤسسة الإسرائيلية بشأن ما ينبغي فعله بالضفة الغـــربية. عارض مناحيم بيغن إعادها، ووضع دايان خططاً لإقامة مراكز للجيش الإســـرائيلي ومـــستوطنات يهودية جديدة على المرتفعات بين القرى والبلدات العـــربية. حـــدّد النقاش نهر الأردن ليكون خط الحدود الدولية الجديدة؛ أو عدم وجـــود حدود على الإطلاق. دُرست خيارات للتعامل مع اللاجئين الفلسطينيين بشكل عملي، لجعلهم يختفون من إسرائيل الجديدة، يمكن إعادة توطينهم في الدول العربية؛ ربما في سيناء، أو عبر النهر في مملكة الأردن الصغيرة بقيادة الملك حسين. لكـــن، حـــتى عـــندما كـــان ذلك النقاش لا يزال قائماً، تم منح مجموعات من الإسرائيليين هبات حكومية وحماية مسلحة لإقامة أولى المستوطنات اليهودية المثيرة للخلاف على أرض عربية.

كان هناك شعور بالصدمة عندما قدّم ثيودور ميرون، محامٍ في وزارة الخارجية الإسرائيلية، رأياً قانونياً يؤكد فيه أن المستوطنات تخرق بنداً في اتفاقية جنيف بأن بلـــد الاحتلال لا يستطيع نفي أو نقل سكانه المدنيين إلى أراضٍ محتلة. من دون خوف، ردّت الحكومة بالادّعاء أن الوضع النهائي للضفة الغربية لم يكن قد جرى تحديده وأن ضمها إلى المملكة الهاشمية في العام 1950 لم يكن قانونياً، لهذا تستطيع

إسرائيل القول إنها لا تشكل أراضي محتلة. لتنفيس الغضب الأميركي المبكر الذي نجم عن الاستيلاء على أراضٍ في الجولان، كانت المستوطنات الأولى عبارة عن مراكز عسكرية وبعض المستوطنين الذين تم منحهم ملابس عسكرية. بعد ستة شهور فقط على انتهاء الحرب، كانت هناك عشر مستوطنات يهودية في الأراضي الفلسطينية المحتلة[24].

كان يتم إرسال مكبّرات صوت محمولة على سيارات إلى قرى وبلدات، تحثّ الفلسطينيين على الرحيل، وتهدد أولئك الذين يتخلّفون. عندما كانوا يغادرون فعلاً، كان يتم تدمير منازلهم. كان دايان سعيداً جداً عندما وصل عدد اللاجئين الذين عبروا نهر الأردن إلى مئة ألف. قال: "آمل أن يذهبوا جميعاً. إذا استطعنا ترحيل ثلاثمئة ألف من دون ضغط، ستكون تلك نعمة كبيرة"[25].

كان أول ما سيصبح عقوداً من العقاب الجماعي من قبل الإسرائيليين يستهدف القرى والمدن العربية التي تبدي مقاومة بأي شكل كانت سواء مقاومة سلبية (عدم إطاعة الأوامر) أو الكفاح المسلح. فرض الإسرائيليون حظر تجول، وتم إلغاء خدمات الحافلات، وأصدرت أوامر للشركات بإغلاق أبوابها. كان يتم تفتيش المنازل، ويتم اعتقال أشخاص وتعذيبهم في أثناء استجوابهم. تم ترحيل البعض، وتدمير المزيد من المنازل.

كانت محاولة لانتخاب بعض القادة للمجتمع العربي - تمهيداً لإنشاء فلسطين المستقلة، التي ستكون رئاستها توافقية إلى حدٍّ كبير - هزلية وسرعان ما تم إعلان فشلها. كان برنامج *الترحيل* ناجحاً، وقد استفاد من مهارات أولئك العملاء الإسرائيليين الذين نقلوا اليهود بشكل غير شرعي إلى فلسطين قبل العام 1948، ثم تحوّلوا إلى جعل اللاجئين الفلسطينيين يختفون من قطاع غزة. تم تعيين مردخاي غور، الذي كان بين أوائل الإسرائيليين الذين دخلوا المدينة القديمة في اليوم الثالث من حرب الأيام الستة، حاكماً عسكرياً على غزة؛ وأقر بسعادة أنه كان يبذل قصارى جهده للضغط على العرب ليرحلوا من خلال تدمير أسباب عيشهم عمداً[26].

بالرغم من ذلك، قرّر الكثير من الفلسطينيين ببساطة البقاء في أرضهم. عندما تم افتتاح مكتب بريد إسرائيلي في الخليل، لقّن العمدة العربي الشيخ محمد علي

جباري الوجهاء المجتمعين درساً مختصراً لكن بليغاً في التاريخ. قال لهم إنه كان لا يزال طفلاً عندما افتتح الأتراك أول مكتب بريد في الخليل أيام الإمبراطورية العثمانية؛ ولاحقاً، في خلال سنوات الانتداب، كان قد ساهم في افتتاح مكتب البريد البريطاني، وبعد ذلك المكتب الأردني[27]. كان واثقاً تماماً من أن أحداً آخر سيحل محل الإسرائيليين.

عندما اندفع الفلسطينيون إلى النقاط الحدودية، كتب عوزي ناركس: "كنا نأمل بالتأكيد أن يهربوا (اللاجئين) كما حدث في العام 1948. لكنهم لم يفعلوا ذلك هذه المرة. قدّمنا الحافلات، وكان كل من يرغب يستطيع الذهاب إلى جسر اللنبي. غادر البعض في البداية. ثم كان عدد المغادرين ينخفض كل يوم، حتى توقفوا تماماً[28]. في النهاية، قدّرت إسرائيل أنه نجم عن حرب الأيام الستة ما يصل إلى 250 ألف لاجئ"[29].

كان مؤسسو الدولة الإسرائيلية يثبتون الدعائم، ويجعلون من المستحيل على من يخلفهم أن يوافق على أي تنازلات في ما سيبقي القضايا الملتهبة الأربع في صميم أزمة الشرق الأوسط: الانسحاب إلى حدود العام 1967، وسيطرة العرب على القدس، وحق عودة اللاجئين الفلسطينيين، وإزالة المستوطنات اليهودية من الأرض الفلسطينية.

في العام 1968، انتهى الأمر بموشيه دايان في المستشفى بعد أن أصيب بانهيار أرضي في موقع للتنقيب عن الآثار. تضمنت لائحة زوّاره الكُثر عمدة بلدة عربي كان دايان قد ساعده في الفوضى التي أعقبت الحرب. بعد أن تم تدمير منازل الفلسطينيين، كان المحارب الإسرائيلي ثاقب النظرة قد أمر بإعادة بناء بعضها. لاحقاً، تكلم دايان عن العلاقة الخاصة التي يظن أنها تجمعه بالعمدة، الذي كان قد جاء لعيادته حاملاً برتقالاً لا يزال طازجاً: "الوضع بيننا مثل العلاقة المعقّدة بين الرجل البدوي والشابة التي كان قد تزوجها رغماً عنها. لكن عندما يولد أطفالهما، سيكون الرجل والدهم والشابة والدتهم. لن يعني ذلك الفعل المبكر شيئاً بالنسبة إليهم. أنتم أيها الفلسطينيون، كأمة، لا تريدوننا اليوم، لكننا سنغير موقفكم بفرض وجودنا عليكم"[30].

غيّرت حرب الأيام الستة الشرق الأوسط – والنزاع بين اليهود والفلسطينيين –

للأبـــد. تشبث الطرفان بمواقفهما، وفي ذهنه الطفولي، كان الفتى خالد يشعر بالتوتر. في ســـلواد، كان مسموحاً للأولاد بالجلوس في حلقات القرية، على حين كان كبار الـــسن يشربون الشاي ويسردون قصصاً عن أعمال بطولية فلسطينية وسط خسائر عامي 1936 و1948 الفادحة. في الأسابيع التي سبقت حرب الأيام الستة، كان ينتاب الفـــتى هاجس مخيف بينما كان كبار السن يتجمعون حول المذياع، وتتنبه أحاسيسه عندما كانت التدريبات على الغارات الجوية تزعج الصفوف في المدرسة. كان الخطر قـــد أصبح حقيقياً وحاضراً بقوة عندما أسرع بالصعود إلى قمة العاصور، الجبل الذي يحتضن سلواد، بعد أن التقطت أذناه صوت قذائف المدفعية بينما كان هو وزملاؤه في الصف يحدّقون باتجاه القدس في حزيران من العام 1967.

لم يكن خالد مشعل لينسى أياً من ذلك.

3

السياسي الماهر في عمّان

كانت رندا حبيب في الثامنة عشرة من عمرها فقط عندما سافرت إلى الأردن. كانت ابنة الدبلوماسي اللبناني كثير الأسفار قد التحقت بالمدرسة الابتدائية في بيروت. لكن، نظراً لقضائها معظم سني مراهقتها في المدن التي كان والدها يعمل فيها، كانت تعرف بلغراد، وأثينا، وكاركاس، وريو دو جانيرو أكثر مما تعرف مدينتها بيروت.

بالرغم من اعتراضات الأب، كانت رندا حبيب عاقدة العزم على أن تصبح صحافية، وبعد إنهاء تعليمها حصلت على وظيفة في العام 1972 في مجلة أسبوعية تُنشر في بيروت. أظهرت موهبة واعدة، وخلال شهور من بدئها العمل، ابتكر محرّر المجلة مشروعاً طموحاً كان يتطلب اشتراك كل كادره فيه؛ كان يريد مقابلات مفصلة مع قادة المنطقة. لدى استقرارها من جديد في لبنان بعد قضائها مدة من الوقت في البرازيل، لم تكن رندا حبيب الجديدة في العمل تبالي بالموضوع المخصص لها؛ حسين بن طلال، ملك الأردن.

لدى وصولها إلى عمّان لبدء مهمتها، لاحظت عينا رندا حبيب مجموعة من المشرّعات الأميركيات اللواتي كانت بذلاتهن وتنانيرهن تميّزهن عن حشد في المطار في أثواب طويلة وحجابات. عندما كانت آخرهن تتسلّم حقائبها من السير الدوّار، رأت رندا حبيب موظفاً حكومياً شاباً يحاول توجيههن نحو موكب من السيارات المخصصة لكبار الزوّار.

أقلّت سيارة أجرة رندا حبيب إلى المدينة، فنزلت في فندق إنتركونتيننتال، الذي يقع قبالة السفارة الأميركية في شارع الكلية. في عمّان، كان *الإنتركون*، وهذا اسمه المختصر، خلية نحل يجتمع فيه مسؤولون، دبلوماسيون، وصحفيون؛ لدرجة أن الحكومة كانت مرغمة على إنشاء مكتب صحفي في ردهة الطابق الأرضي، حتى يستطيع النظام معرفة كل ما يجري.

عندما استقرت حبيب وأبلغت المسؤولين في المكتب الصحفي في ردهة الفندق إنها ترغب في مقابلة الملك، رأت عيونهم تتسع دهشة. هل تكلمت مع أحد؟ هل لديها موعد؟ ألم تفكر في الاتصال مسبقاً؟ فيما كانت تفكر فيما ستفعله تالياً، ظهر الجواب من الباب. المسؤول الحكومي الذي كانت قد رأته في المطار قدّم نفسه على أنه عدنان غريبة. عندما شرحت حبيب مهمتها، نصحها غريبة بأن تتوجه في صبيحة اليوم التالي إلى أحد مراكز الاستقبال الحكومية، حيث سيكشف الملك حسين عن تفاصيل النسخة الأخيرة من خطته الكبرى لتوحيد الأردن والضفة الغربية في خلال اجتماع لشيوخ القبائل واسعي النفوذ. ستكون تلك فرصتها لرؤيته بشكل عملي - عن قرب.

ممتنّة لتلك المعلومة، التزمت حبيب بتعليمات غريبة. واقفة في الصف في أثناء دخول الملك، اندفعت إلى الأمام وهي تمد يدها، وسألت بجرأة: "جلالة الملك، هل يمكنني أن أحظى بمقابلة؟". توقف الملك حسين، أمسك بيدها، وابتسم. *"إن شاء الله"*. كان ذلك كل ما قاله. ربما كانت طريقة أردنية أخرى لتجاهل الأمر - "إن شاء الله" - لكن حبيب شعرت أن طريقتها المباشرة أعجبت حسين. عادت إلى بيروت، ولم تتفاجأ أبداً عندما رنّ هاتفها بعد أسبوع. كان عدنان غريبة الذي قال إن جلالته سيقابلها عند الساعة الثالثة بعد الظهر يوم الأربعاء التالي.

انتقلت براً هذه المرة. كونها ابنة دبلوماسي، سافرت حبيب بجواز سفر دبلوماسي. لكن عندما اقتربت من الحدود الأردنية قبل يوم من موعدها في قصر عمّان، لم يكن هناك شيء دبلوماسي أو حتى لطيف في المعاملة التي تلقتها. تأخير كبير والكثير من الأسئلة. سُئلت: "لماذا تحملين آلة تصوير مينولتا؟ لماذا هذه المسجلة؟". قالت ببهجة كبيرة لصحافية في أولى مهماتها الكبيرة: "سأجري مقابلة مع الملك".

في فندق إنتركونتيننتال عمّان في صبيحة اليوم التالي، لم يسع رندا حبيب إلاّ أن تلاحظ أن شخصاً قاسياً يجلس بالقرب منها كان قد وضع عمداً مسدساً على طاولة إفطاره. كان يراقبها. لاحقاً، بينما كانت وزميلها المصوّر يقومان بجولة في المدينة، لاحظا أن سيارة فولكسفاغن خنفساء زرقاء تتبعهما، وأن من فيها يحاولون بشتّى السبل إبقاءهما تحت المراقبة.

عندما عادا إلى الفندق، وصل غريبة ليقول لرندا حبيب إنه لا يمكن تحت أي ظروف أن يرافقها زميلها لرؤية الملك؛ بدلاً من ذلك، سيقوم مصوّر ملكي بالتقاط الصور. لدى وصولها إلى القصر، خضعت لتفتيش دقيق؛ وصودرت آلة تصويرها ومسجلتها من دون توضيح، وسُئلت الأسئلة القديمة نفسها بمئة طريقة مختلفة – من أين هي؟ ما اسمها الحقيقي؟ أين كانت في العام 1967؟ متى ذهبت آخر مرة إلى القدس؟ اشتكت الصحافية المبتدئة، وشعرت بأن مسؤولي القصر ابتسموا بتملّق.

كان الملك حسين نفسه لطيفاً جداً. كانت قدماه قصيرتين مما يدفعه للجلوس على طرف كرسيه، لكنه جلس ويداه مشبوكتان على حُجره، وأجاب عن أسئلة حبيب بحرارة وحماسة. كان يتكلم بسرعة، وكانت جديدة على تسجيل ملاحظات. شعر الملك حسين بفزع حبيب عندما لم تستطع متابعة كلامه السريع، فأبطأ بكل لباقة.

بدا أن الملك يستمتع كثيراً في أثناء عرضه لخططه عن الضفة الغربية. في نهاية المقابلة، حثّ رندا حبيب على البقاء في عمّان والاستمتاع بمشاهدة الأردن. سألها غريبة المرتبك، وكانت قد لاحظت آنذاك أن عينيه سوداوان كبيرتان وأنفه جميل، إن كانت ترغب بالانضمام إليه على العشاء ذلك المساء. اصطحبها إلى مطعم الدبلوماسي القديم، وشرح لها التاريخ المعقّد والمعاني الدقيقة لكلمات الملك، على حين كان الرجال الذين شاهدتهم سابقاً في الخنفساء الزرقاء يتجولون طيلة الوقت قرب الباب. حاول غريبة تهدئة خاطرها، وشرح لها أنهم يتبعونه هو، وليس هي[1].

كانت مقابلة رندا حبيب المؤلفة من ست صفحات قصة غلاف مجلتها بالنسختين – الفرنسية والعربية – لكن قبل أيام فقط من توزيع المجلة، بدا أن بعض التفاصيل ربما تكون قد تسربت. تلقت تحذيراً فظّاً ضد نشر أي شيء يتعلق بمحاولة الملك حسين السيطرة على الضفة الغربية – على شكل رسالة تضم قنبلة زائفة وصلت إلى مكتبها – بعد أيام من النشر، كانت هناك دلالة أكثر إزعاجاً على تفسير المقاومة الفلسطينية لأولى محاولات حبيب الدخول في متاهة أزمة الشرق الأوسط عندما تم قصف مطابع المجلة بالقنابل.

كان الاتصال التالي من عدنان غريبة لنقل رضا الملك عن المقابلة. لكن اتصالاته تتابعت. كانت الصحافية النصرانية الفرنسية – اللبنانية الشابة تسمع عبارات غزل من

المسؤول المسلم، الذي كان ابن إحدى أقوى قبائل الشمال في الأردن. قام عدنان بعدّة زيارات إلى بيروت؛ وذهبت رندا إلى عمّان. عندما أخبرت الشابة التي كانت تبلغ من العمر عشرين عاماً والدها النصراني أنها وجدت رجل أحلامها، أصيب بالصدمة لدى سماعه أن صهره المستقبلي مسلم، وازدادت الصدمة عندما أخبرته أن عدنان ليس حتى من إحدى العائلات اللبنانية التي ربما يكون له عليها بعض النفوذ. في محاولة لتخطّي آلاف القضايا العرقية والدينية لمثل ذلك الزواج المختلط، عرض عليها والداها اليائسان القيام برحلة حول العالم، على أمل أن ينتشل غياب بضعة شهور ابنتهما العنيدة من جنونها. رفضت رندا الذهاب.

بعد ثلاثة أيام من اقتراح العطلة، فرّ عدنان ورندا. خرجا بهدوء على متن طائرة غادرت بيروت، وطلبا من أصدقائهما إيصال رسالة إلى والدَي رندا فقط عندما يصبحان بعيدين تماماً. بوصفه دبلوماسياً بارزاً، شهر والد حبيب أسلحة الحكومة الكبيرة. لاحق الإنتربول الثنائي، وتعقّبهما السفير اللبناني لدى الأردن إلى منزل عائلة عدنان في إربد شمالي الأردن. أخيراً، بعد زيارة قام بها والدها إلى عمّان، تم التوصل إلى هدنة، وقبل الأهل أخيراً صهرهما الجديد.

بعد حفل زفافهما في حزيران من العام 1973، قرّر عدنان أن يخبر حبيب بالقصة الحقيقية خلف السلوك الغريب للأردنيين عندما وصلت أول مرة إلى عمّان قبل اثني عشر شهراً لمقابلة الملك.

كان القصر قد تلقّى تحذيراً مجهول المصدر من أن فلسطينية، تتنكر كمراسلة تدعى رندا، ستحاول اغتيال الملك حسين بتفجير قنبلة ستكون مخفية في آلة تصويرها أو شريط مسجلتها. كان الملك قد رفض إلغاء المقابلة مع رندا، على أساس أنه قطع وعداً. الرجل مع المسدس على الإفطار والجاسوسان في الخنفساء كانوا إشارات تحذير متعمّدة من الأمن الأردني لجعل تلك المرأة المحتملة تفهم أنها تخضع للمراقبة.

كان سبب مزاج الملك الرائع خلال المقابلة وصول تقرير من السفارة الأردنية في بيروت، قبل دقائق قليلة فقط من لقائهما، يكشف بأن رندا ابنة دبلوماسي لبناني يعرفه صاحب الجلالة ويحترمه كثيراً. كان التقرير قد وصل متأخراً للغاية إلى مسؤولي الأمن في القصر لاستدعاء الحرّاس المزوّدين بأسلحة والذين كانوا، في خلال المقابلة، يقفون من دون حراك خلف ستائر في مكتب الملك تحسبا لقيام رندا بأي تصرف غير صحيح.

كان العشاء مع غريبة في مطعم الدبلوماسي فكرة الملك وحدّد بداية حياة رندا الجديدة في المملكة الهاشمية. بعد أن استقرّت في عمّان، عملت أولاً في وزارة الإعلام الأردنية، لكنها سرعان ما أدركت وجود فرصة أكبر وأوسع خارج نطاق الخدمة العامة الأردنية. حثّت عدنان على الاستقالة وفعل ذلك، وأنشأ شركة خاصة أصبحت الوكيل الأردني لشركة المصاعد أوتيس. استقالت هي الأخرى، وتابعت العمل المستقل في الصحافة الذي لطالما أرادته مذ كانت مراهقة.

في الوقت المناسب، تسلّمت رندا منصب مدير مكتب عمّان لوكالة الصحافة الفرنسية. زوّدها ذلك بأفضلية جديرة بالملاحظة في المنطقة حيث رسم الغربيون خطوطاً دقيقة على خرائط لتشكل حدوداً بين دول مستقلة، لكن حيث تختلط أزمة اليوم وتاريخ الأمس للأبد عبر التخوم الصحراوية الواسعة، وتساهم جميعها في اضطراب الغد.

جغرافياً، كان تقارب وانفصال كل تلك الدول يشبه خريطة أرض الألعاب. في ليلة صافية، كان الملك حسين يستطيع رؤية أضواء القدس في أثناء استقباله ضيوفاً على شرفات قصره، في ضواحي العاصمة عمّان. على رأس البحر الأحمر، كانت هناك بضعة أميال فقط من الساحل مشتركة بين مصر، وإسرائيل، والأردن، والمملكة العربية السعودية.

كانت المنطقة تشبه طابعاً بريدياً حقاً، وكانت هناك منافسات معاصرة آنذاك - إقليمية، دينية، وسياسية - سبقت تقسيم القوى الكبرى للإمبراطورية العثمانية مع نهاية الحرب العالمية الأولى، وهو تقسيم استند بشكل كامل إلى المصالح الغربية. لاحقاً، ما كان فلسطين التاريخية أصبح الأردن، وإسرائيل، والأراضي الفلسطينية المحتلة. أضحت إسرائيل تسيطر آنذاك على أجزاء من الأراضي كانت سابقاً تحت سيطرة الأردن، وسورية، ومصر.

جعل انتشار اللاجئين مصير الفلسطينيين قضية إقليمية دائمة. كانت هناك مجتمعات لاجئين كبيرة نوعاً ما في الأردن، ولبنان، والكويت، وسورية، والمملكة العربية السعودية، ومصر، وجيوب أخرى في الخليج. تقع تلك الدول إلى جانب بعضها بعضاً - تشترك إسرائيل بحدود مع لبنان، وسورية، والأردن، ومصر. عقّد الدين الأمور أكثر - كانت القدس مكاناً مقدساً لكل من المسلمين، والنصارى،

واليهود. كانت النتيجة أنه إضافة إلى التدخلات الأميركية، والسوفياتية، والأوروبية، ادّعت أكثر من عشر حكومات في المنطقة الحق في إبداء الرأي فيما يخص المدينة(2).

بوصفه شيخ الصحراء، جمع الملك حسين مزيجاً من السحر القبلي والكياسة المدنية. كان صوته العميق يفتن حتى أكثر زوّاره الغربيين ارتباكاً. كان يقوم بدور الوالد دولته الصغيرة. أحياناً، كان يراوغ في مواضيع مهمة؛ وفي أحيان أخرى، كان يصرّ على أن يعرف أكثر. كانت عينه تقدّر النساء وكان مشغوفاً بالدرّاجات النارية والطائرات. لكنه كان رجل خبز وحمّص أكثر منه ملك كافيار. كان أولئك الذين يرونه يأكل على مكتبه يشعرون بالارتباك من تلهفه لتناول جبن على رغيف خبز عربي أو شطيرة فلافل، وقد كان مسؤولون بارزون يتناولون الغداء قبل ذهابهم لرؤيته، خشية أن يدعوهم لمشاركته وجبته المتواضعة.

كان شخصاً رائعاً وبدا كما لو أنه يسحر شعبه. كانت إشاراته وردّات فعله تدلّ ليس على شعور عميق بالشرف والواجب القبلي فقط، وإنما شعور بالإنسانية أيضاً انغمس فيه طواعية، حتى في وجه تهديدات طاولت العرش.

عندما قضت إحدى المحاكم العسكرية بسجن ليث شبيلات، الناشط الإسلامي في عمّان، كانت لدى الملك أفكار أخرى وأصدر عفواً عنه. بالمقابل، رفض شبيلات مغادرة السجن إن لم يتم إخلاء سبيل آخرين معه. ساخطاً، أقلّت الملك حسين سيارة قادها بنفسه إلى السجن، دخل مبنى الزنزانات، وأخرج منه شبيلات، ثم أوصله إلى منزله في ضواحي عمّان.

عفا الملك حسين عن معظم الذين هدّدوه. في إحدى المراحل في السبعينيات، كان أربعة من قادة أجهزته الأمنية الستة أشخاصاً كان قد تم إرسالهم، في مرحلة مبكرة من مسيرتهم المهنية، إلى المنفى وسط اتهامات بأنهم كانوا جزءاً من مؤامرات ضد النظام الملكي. بشكل غير معتاد في الوطن العربي، عفا عنهم جميعاً، وعيّنهم في مراكز القوى تلك.

لكن حسين لم يكن سهل المنال، وكان أمن عرشه مرتبطاً إلى حدٍّ كبير بقدرته على إدارة التوتّرات. من أجل استقرار رعيته ومراعاة لنزعة إقليمية في ضم أو إبعاد أشخاص، كان حسين مستعداً لأن يسبب لشعبه بعض الألم إن بدا ذلك ضرورياً.

كان موقع قصر الملك حسين، وهو مبنى تاريخي على سفح تل يضم عدّة قصور ملكية في وسط عمّان. هو المكان الذي اتخذته جيوش الثورة العربية الكبرى معسكراً لها عندما حرّرت عمّان في العام 1918، وحيث كان يسكن، بعد ذلك، حكام حقبة الانتداب البريطاني. في ذلك الموقع، بنى عبد الله جدّ حسين أول قصوره الملكية كعاهل للمملكة الأردنية الهاشمية، وهي بقعة صحراوية جرداء بين العراق وما كان عندها فلسطين، والتي منحه إياها ونستون تشرشل في خلال الاضطرابات التي تلت انهيار الإمبراطورية العثمانية في العشرينيات.

في تلك الأيام، كانت العائلة المالكة تعيش في قصر الندوة، وهو مبنى كبير مبني من الحجارة والقناطر. أما مكتب الملك حسين والمكاتب الخاصة بموظفي البلاط الملكي فكانت في قصر بسمان، وهو بناء منفصل ضمن الحرم الملكي، كان مكتب الملك يشبه مكتب أي مدير بارز، فالمكتب لم تبدُ عليه علائم البذخ. بغض النظر عن الحدائق الغنّاء وهدوء المبنى في وسط صخب المدينة، كان الشيء الذي يثير الانتباه للملكية هو بهاء ولون ملابس الحرّاس الشراكس. يتحدر هؤلاء من محاربين مسلمين كانوا قد فرّوا من الغزو الروسي للقوقاز في القرن التاسع عشر، وخدموا لاحقاً النظام الملكي الأردني، مثلما فعل الحرس السويسري في الفاتيكان.

عندما كان في الخامسة عشرة من العمر، شهد حسين مقتل جدّه عبد الله في أثناء دخول الملك إلى المسجد الأقصى في القدس. نجا حسين الشاب من إحدى رصاصات القاتل عندما ارتدت عن ميدالية على بزّته العسكرية. تم تتويجه ملكاً عندما كان لا يزال تلميذاً. مدركاً لمكانته وسهولة الموت في الصحراء، قال إنه كان يتنكر كسائق سيارة أجرة[3]، ويجول شوارع عمّان ليسأل ركابه عن أداء حاكمهم الجديد. كان حسين لا يزال في سني مراهقته عندما أقال أول رؤساء وزرائه[4].

تم اغتيال قريبه فيصل، في انقلاب عسكري في العام 1958 في بغداد. بعد شهور فقط من تلك الخسارة، أحبط الملك حسين انقلاباً عسكرياً مدعوماً من مصر. لاحقاً، استعمل كل مهارته كطيّار لينجو من معركة جوية شرسة. كان يقود طائرته القديمة ذات المحركين من طراز دي هافيلاند دوف، عندما حاولت طائرتان مقاتلتان سوريتان من طراز ميغ – 17 إسقاطه. لاحقاً، كان هدفاً لسلسلة من مكائد الاغتيال والتمرد

في مـــسعى مـــن حكّام دمشق والقاهرة المدعومين من السوفيات للقضاء على روحه الاستقلالية.

في حـــرب الأيـــام الستة، تعرض حسين لموقف عصيب عندما خسر خاصرته الغـــربية أمام إسرائيل، ومعها نصف القدس. في الوقت نفسه، تحمّل عبئاً كبيراً نتيجة هجـــرة حوالى نصف مليون لاجئ من الأراضي المحتلة إلى مملكته الصغيرة[5]. كانت تلـــك نتـــيجة وضعت الملك على مسار آخر مختلف، مع منظمة التحرير الفلسطينية وقائدها حاد الطباع، ياسر عرفات.

تـــصادما بـــشكل مباشر، كمقاتل شاب في العام 1968، كان عرفات – وفقاً لـــرؤية الملـــك للأحـــداث – قد نسب الفضل لنفسه لما كان حسين يعتقد أنه نصر عسكري أردني على الإسرائيليين في الكرامة على نهر الأردن.

تمحـــور النـــزاع حول الكرامة حول من فعل ماذا لتحقيق النصر. كان عرفات مـــن دون شك قد تغلب على الإسرائيليين، لكن فقط بعد أن قام ضابط استخبارات أردني بـــارز – تـــصرف بناءً على إشارة وصلته من وكالة الاستخبارات المركزية – بتحذير عرفات من الهجوم الإسرائيلي الوشيك. كان الجيش الأردني قد بالغ في ذلك التحذيـــر، وبالرغم من تعليمات من عمّان بالبقاء خارج النـــزاع، إلا أن أحد قادة الجـــيش الأردني المـــتعاطفين كان قد قدّم دعماً بالمدفعية والدبابات لعرفات في لحظة حـــرجة مـــن المعركة. كان ذلك كافياً لإرغام الإسرائيليين على الانسحاب بشكل مذل. لقي حوالى مئة من قوات عرفات التي كان يبلغ تعداد أفرادها أربعمئة شخص حتفهم، لكن خسائر الإسرائيليين كانت ثمانية وعشرين قتيلاً، وتسعة وستين جريحاً، وإعطـــاب أربع وثلاثين دبابة. بالمعايير العسكرية للشرق الأوسط، كان ذلك كافياً ليقوم عرفات بإعلان الكرامة "أول نصر للأمة العربية بعد حرب العام 1967"[6].

بعد ذلك، رسّخ عرفات نفسه قائداً متمرّساً في حرب العصابات، حيث أعادت ميليـــشياته الـــصغيرة الاعتبار للكبرياء العربـــي بالتغلب على آثار هزيمة العام 1967 عندما صدّت غزوة إسرائيلية كبيرة على الأردن.

كـــان عـــرفات وقادة فصائل آخرون يعتبرون الأردن آنذاك قاعدة استراتيجية رائعة للمقاومة ضد إسرائيل المجاورة، مثلما كان الفايتكونغ قد استعملوا هانوي قاعدة لاستعادة فيتنام الجنوبية. اخترقت تلك الفصائل جيش الملك وأجهزته الأمنية، وأصبح

عشرات الآلاف من مقاتليهم غير المنضبطين، أو الفدائيين، دولة ضمن الدولة، يدينون بالولاء لأكثر من خمسين فصيلاً فلسطينياً كانوا قد انتشروا في الأردن. وسط حديث عن قلب نظام الحكم والاستيلاء على الأردن ليكون قاعدة لدولة فلسطين الجديدة، كافح الملك حسين للسيطرة على مملكته. كان الخيار الذي واجهه صعباً؛ إما السماح بتقويض عرشه الهاشمي أو القيام بعمل حاسم.

اختار الملك حسين الخيار الثاني في أيلول 1970. بعمل كلّف آلاف القتلى، أخرجت قواته العسكرية الوفية له عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية من الأردن – ملاذهم الأول – إلى قواعد جديدة في سورية ولبنان، دعا الفلسطينيون تلك الحلقة من تاريخهم أيلول الأسود[7].

كانت تلك الأحداث إلى حدٍّ ما نتاج حلقة مثيرة جعلت القشعريرة تسري في جسد المجتمع الدولي. كانت عناصر يسارية من منظمة التحرير الفلسطينية قد استعملت الأردن قاعدة لإماطة اللثام عن تكتيك قوي جديد في حرب العصابات عندما اختطفوا أربع طائرات مدنية، ونجحوا في جعل قادة ثلاث منها يهبطون في مطار داوسون، قاعدة جوية بريطانية سابقة في الصحراء الأردنية. هناك، فجّروا اثنتين من الطائرات أمام عدسات التلفزة البريطانية، وعقدوا في الوقت نفسه صفقة لتبادل ثلاثمئة راكب مقابل سبعة فلسطينيين كانوا معتقلين سجناء في بريطانيا، وسويسرا، وألمانيا[8].

كان معظم رعايا الملك حسين من اللاجئين الفلسطينيين، الذين قطنوا طيلة سنوات في مخيمات بائسة تديرها الأمم المتحدة. في بؤسهم وفقرهم، كانوا ينظرون غرباً كل يوم، على أمل أن يستطيعوا بطريقة ما الهرب من ضغط المخيمات الخانق والعودة إلى قراهم ومزارعهم في إسرائيل والأراضي المحتلة. كان وجودهم يعقّد الأمور كثيراً في الأردن، وهو بلد صغير وموارده شحيحة. كان قربهم الجغرافي من الضفة الغربية بمنزلة تذكير دائم لما خسروه. كان يمكن لإحباطهم أن يشعل – وفعل ذلك – ثورات من الغضب والتمرد.

كانت تلك هي البيئة التي أصبح فيها حضور جماعة الإخوان المسلمين قوياً. إن طرائق الجماعة في جمع الأموال، بناءً على الواجب الديني الذي يحتم على كل المسلمين التصدق، جعلها واحدة من أثرى وأقوى المنظمات السياسية في الأردن. في

العــام 1967، حظّــر الملك حسين عمل الأحزاب السياسية، ما عدا جماعة الإخوان المسلمين، وفي الخمسينيات والستينيات، كان الإسلاميون قد أيدوا نظامه ضد موجة مــن التحدّيات اليسارية. أحياناً، كانوا يقومون بعمل النظام الذي لا يرغب في القيام بــه بــشكل مباشر. لتفادي إحراج الملك حسين باعتبار أنه يضع عائقاً لما يمكن أن يصبح، في مكان آخر، تنوعاً سياسياً صحّياً، أرسل الإسلاميون حشوداً من أنصارهم يحملــون عصياً إلى شوارع عمّان لقمع الاحتجاجات. وقد ورد في النظام الأساسي للجماعــة أن هدفها بناء مجتمع إسلامي صرف وفقاً للشريعة الإسلامية. لكن الحفاظ علــى الذات كان أولوية قصوى لها. كان ظهور أي بديل قومي أو يساري لحسين يشكل تهديداً لوجودها، وكانت لديهم قضية مشتركة مع الملك.

سايرهم الملك حسين في الوقت نفسه الذي وضع فيه خطوطاً حمراً، وجادل بأن هناك فرقاً بين إسلام متنوّر وآخر متعصب[9]. كان يستطيع كسب الجماهير بالتذكير بنــسبه للنبــــي محمد (ص)، لكنه تحقق أيضاً من أن يكون أولئك المعروفون بأهل الــضفة الــشرقية - الأردنــيون التقليديون من الجانب الشرقي لنهر الأردن - هم المــسيطرون علــى الجماعة. كانت تلك العناصر أكثر تمسكاً بالولاءات القبلية من الإخوان المسلمين الفلسطينيين.

في العام 1982، عندما قضى الرئيس السوري حافظ الأسد على تحرك اسلامي، وســوّى مديــنة حماة الثائرة بالأرض لتحذير أي معارضين آخرين من المصير الذي ينتظرهم، منح الملك حسين ملاذاً للعديد من الإخوان الذين هربوا من سورية. وكان في العام 1971، قد استقبل أولئك الذين هربوا من العراق بعد التطهير البعثي.

قــدّم النظام الأردني الرعاية للجماعة، التي منحته بالمقابل شيئاً هدّده به عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية ألا وهو شرعيته. تمسك الملك بالرأي القائل إنه بين القادة العرب هو الممثل الشرعي للشعب الفلسطيني. باستثناء قطاع غزة صغير الحجم نسبياً، كانت كل دولة فلسطينية مفترضة، لبعض الوقت، أردنية فيما سبق.

كــان العديد من المحللين العرب قد انتابهم شك منذ وقت طويل في أن السبب الــذي دفــع البريطانيين لتأسيس الأردن، في ذلك القسم الخاضع للانتداب البريطاني شرقي نهر الأردن، كان لبناء وطن فلسطيني بديل، وبالتالي تمكين اليهود من السيطرة على كل الأراضي غربــي النهر، أو ما يدعى أرض إسرائيل[10].

كانت القمة العربية في العاصمة المغربية الرباط في العام 1974 قد جردت الملك حسين رسمياً من آخر مظاهر دوره كقيّم على الفلسطينيين، ومنحت كل الشرعية لمنظمة التحرير الفلسطينية بقيادة ياسر عرفات. كانت تلك عاقبة طرده لمنظمة التحرير الفلسطينية من الأردن في العام 1970 ورفضه قبل العام 1973 الانضمام إلى الهجوم المصري - السوري على إسرائيل الذي أدّى إلى اندلاع حرب 6 أكتوبر/تشرين الأول.

كان الدرس المرير الذي تعلّمه حسين من مقتل جدّه على درج المسجد الأقصى في القدس، ومجدداً من ضغط جيرانه العرب واليهود عليه، أن عليه كقائد التصرف باستقلالية عن كل ما يجري في المنطقة. راهن على بعض جيرانه أو كلهم من وقت إلى آخر، لكن، كقائد عربي، كان ملك الأردن يغرّد خارج السرب.

كان تصرفه بشكل منفرد لا يعني أبداً أن حسين لوحده. كان المستفيد من خطة أميركية في الخمسينيات لجعل القادة العرب يقدمون الحماية لإمدادات الغرب من النفط وإيقاف التوسع السوفياتي في العقد الأول من الحرب الباردة. وصف هاريسون سيمز، سفير الولايات المتحدة لدى عمّان في الستينيات حسين وآخرين في المنطقة تم إغراؤهم بالسلاح، والمال، وأعمال وكالة الاستخبارات المركزية بالقول: "كان مفروضاً أن يكون هؤلاء القادة الأربعة دفاعنا ضد الشيوعية ومتشدّدي القومية العربية"[11].

قبل الملك حسين المال، لكن كانت هناك أوقات أزعجت فيها استقلاليته واشنطن. كان يقول لمستشاريه: "إذا لم يكن شعبك وقبيلتك معك، ستكون نكرة". كانت تحليلاته للأوضاع القائمة بديهية[12]. في العام 1957، بقيت أعداد كافية من جيشه موالية له لإحباط انقلاب يساري، وفي العام 1970 وقفوا معه عندما حاولت قوات عرفات قلب نظام الحكم الملكي. لاحقاً، أضاف 1990-1991 إلى اللائحة، عندما أبقى الدعم الشعبي القوي له بين الأردنيين واشنطن بعيدة في وقت كانت تودّ فيه معاقبة حسين على رفضه دعم الحملة العسكرية التي قادتها الولايات المتحدة ضد غزو صدام حسين للكويت.

كان المراقبون الغربيون يطلقون دعابة بأن منصب رئيس الوزراء في الأردن كان موقعاً جيداً للتقاعد وأن العمل كوزير يعني التواجد خارج دوائر السلطة.

تقليدياً، ينبغي أن تتضمن علاقة واشنطن - عمّان وزارتي خارجية الأردن والولايات المتحدة، لكن خط حسين كان مباشراً مع البيت الأبيض وكان محور وكالة الاستخبارات المركزية - إدارة المخابرات العامة هو الذي يحافظ على ديمومة وفاعلية تلك العلاقة[13].

بقي خياره الأردني الذي أولاه عناية كبيرة، الذي ظهر في أول تقرير إخباري لرندا حبيب من عمّان، على الطاولة، ودُفن أحياناً تحت اقتراحات أخرى أو ببساطة عميقاً في قلوب القائد الأردني وأولئك الذين من حوله. كان فن تولّي مهام ملك الأردن يكمن في التعامل مع عُقد التوتر. هل كان حسين يريد وضع الضفة الغربية تحت جناح النظام الملكي، كما كانت الحال قبل عقدين من سنة 1967؟ هل كانت جماعة الإخوان المسلمين، مثل منظمة التحرير الفلسطينية قبلها، تخطط لخلع الملك حسين، أو إعادة تشكيل مملكته لتكون جمهورية فلسطينية جديدة، أو خلافة، ربما؟

جعلت التجربة المريرة حسين سياسياً ماهراً بشكل استثنائي؛ لكنه لم يكن يهتم بشركائه. كان يدرك الفرق بين الحاجة إلى تحالفاته وبين محبته لتلك التحالفات. كانت لديه شكوك من الوطنيين اليساريين وكل ما يربطهم بالنظامين السوري والمصري، وكان يستخف بعرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية.

كان الملك حسين يفهم أن التعامل بدفء مع الأميركيين أمر جيد - لكن الإلفة الكبيرة معهم ليست كذلك - كان غالباً ما ينصح أصدقاءه بالقول: "أن تكون عدواً للولايات المتحدة أمر خطير، لكن أن تكون صديقاً لواشنطن أمر قاتل"[14].

4

ثقافة العمل

كانت جامعة الكويت لا تزال في مراحلها الأولى، ومموّلة بسخاء من ثروة النفط الهائلة لعائلة الصباح الحاكمة، كان يفترض بها أن تصبح واحدة من أفضل مؤسسات التعليم العالي في المنطقة. لكن البدايات كانت متواضعة.

كان هناك صخب كبير عند افتتاحها في العام 1966 مع أربعمئة طالب فقط وكلية تضم واحداً وثلاثين تلميذاً تعلّم العلوم، الفنون، والتربية. لكن مع إضافة كليات جديدة إليها، أصبح الحرم الجامعي ملحقاً باقتصاد بالغ النشاط حوّل الإمارة من قطعة أرض قاحلة إلى مركز تجاري ثري منفتح. تقليدياً، كان الكويتيون أكثر تسامحاً من بعض جيرانهم المتشددين. ظهر ذلك في الحرم الجامعي، حيث التعليم في الصفوف مختلط[1].

ربما كان ذلك الجو المنفتح، المتحرر قد أثار حساسيات خالد مشعل الإسلامية المتشددة. لكن، كفلسطيني، كان ينبغي أن يعدَّ نفسه محظوظاً لوجوده بين زملائه الطلاب، صحيح أن التعليم كان مجانياً، لكن أماكن محدودة فقط كانت مخصصة للفلسطينيين[2].

في العام 1974، بدأ الأستاذ أسد عبد الرحمن التعليم في الجامعة. جال عبد الرحمن ببصره على أول صفوفه بعد أن جلس الطلاب في أماكنهم لتلقّي محاضرة عن التاريخ الفلسطيني، ولفت انتباهه طالب مشاغب نحيل الجسم. كان منعزلاً عن باقي رفاقه بلحيته الكثّة - التي كان عبد الرحمن يعرف جيداً أنها علامة على نزعة أصولية - اعتبر الأستاذ في قرارة نفسه مشعل شاباً آخر مضللاً. استنتج الأستاذ أن الطالب كان عضواً آنذاك في الإخوان المسلمين[3].

لم يكن هناك شيء اسمه فلسطيني حيادي. كان تاريخهم جديداً للغاية، ومليئاً بالإذلال. كان الأستاذ يرى العالم من منظور فتح، الفصيل العلماني للسياسات الفلسطينية التي كانت قد انبثقت من مجتمع اللاجئين في الكويت لتصبح العمود

الفقــري لمنظمة التحرير الفلسطينية بقيادة ياسر عرفات. معتقداً بقوة بتفوق منظمة التحرير الفلسطينية، كان يجمع في منــزله أشخاصاً من طينته، وكان وعيهم العربــي اليساري يتعزّز بشعورهم الواثق بهيمنتهم. كانت معادلة بسيطة: كانت فتح في مركز الاهــتمام، والإسلاميون على الهامش. كان معظم طلاب عبد الرحمن يحلمون بالثورة المــسلحة وربما بمقعد في مؤتمر في براغ أو موسكو، حيث يمكنهم رؤية كتفي عرفات مع فيدل كاسترو وسط صرخات *تحيا الثورة!*.

ربمــا كان خالد مشعل يبدو منعزلاً، لكنه كان آنذاك رجلاً صاحب رسالة. في غــياب وطن، كان الآباء الفلسطينيون مهتمين كثيراً بتوفير تعليم جيد لأبنائهم، على أمــل أن تمكّنهم مهاراتهم في العمل من الذهاب إلى حيث يرغبون فيه - أو يحتاجون إلــيه - في العــالم. كانــت تلك من الأسباب التي جعلت أفراد عائلة خالد مشعل يستقرون كلاجئين ممتنين في الكويت.

بعد عبورها نهر الأردن مع أولادها في حزيران 1967، كانت فاطمة قد وجدت أخــيراً زوجها في منــزل قريب لهما في عمّان، حيث كان قد تدبّر أمر مأوى موقت للعائلــة. في الــستينيات، كانت العاصمة الأردنية مدينة صغيرة هادئة، لكن مقارنة بموطــنهم الــسابق في سلواد، كان المكان الجديد كافياً لجعل رأس الفتى يدور، لكن الــصدمة الكــبيرة للعائلة في الانتقال بعيداً كل تلك المسافة عن جبال القدس الريفية نجمت عن شعورهم بأنه تم اقتلاعهم من جذورهم. كان الآباء، الواقعون مع آخرين في الورطة نفسها، يتحدثون لساعات عمّا كان قد حلّ بهم.

مــثل الإســفنج، استوعب خالد الفتى كل ذلك؛ الاقتلاع من الوطن، شعور كئيب بأنهم قد لا يعودون، وأسوأ ما في الأمر كبرياؤهم العربــي الذي أُصيب بجرح عميق. كان لكل ذلك تأثير كبير، خاصة في بداية التحول النفسي المؤلم من العيش في وطــن إلى امتلاك ذاكرة لوطن عاشوا فيه في أذهانهم. كانت فاطمة قد بكت عندما غــادرت الــشاحنة سلواد، ولم تعرف المرح، كما لاحظت العائلة، في أي يوم من السنوات الأربع التي تلت ذلك.

بعــد شهرين من عبورهم النهر، وضع عبد القادر أمتعة عائلته في سيارة أجرة قديمــة من طراز مرسيدس - بنــز لقطع رحلة طويلة إلى مدينة الكويت، عبر بغداد. كانت الإمارة كريمة مع الفلسطينيين المرتحلين، وبدا أن حظ الوالد لم يخذله. كان قد

نجـــا مـــن حربين عسكريتين من دون أضرار تذكر، وخاض حرباً عائلية مع زوجتيه الأولى والثانية التي كانت تنتظره وأولاده.

في ســـنواته الأولى في الإمارة، كان قد وجد عملاً في المزارع وحدائق الأسواق المركزية. لكن بمتابعة حفظه للقرآن الكريم واكتسابه لمعرفة عملية بالشريعة الإسلامية، سرعان ما أصبح شيخاً. أولاً، عمل في مسجد محلي مؤذناً وكان يصعد المئذنة خمس مرات في اليوم ليصدح بالأذان داعياً إلى الصلاة. كانت تتم دعوته لإلقاء خطبة عندما يكـــون الإمام غائباً. عندما توفي الخطيب عيّن مكانه، وأصبح يدعى منذ ذلك الوقت فـــصاعداً الـــشيخ عبد القادر. بعد ذلك بوقت قصير، دعا مرافق لأحد أفراد الأسرة الحاكمة الكويتية عبد القادر لإقامة الصلاة في المسجد الذي يصلي فيه عضو بارز من العائلة الحاكمة مع بطانته من المساعدين وعائلاتهم(4).

ثـــرية مـــن عائداتها النفطية، كانت الكويت الأكثر تساهلاً - وتعاطفاً - مع اللاجـــئين الفلسطينيين في المنطقة. وجدت العائلة الكويتية الحاكمة طرائق للتعامل مع قلـــق الكويتـــيين العاديين بشأن العدد المتزايد من اللاجئين بينهم، فلم يكن مسموحاً للفلسطينيين الاستثمار بالعقارات أو مشاريع أخرى من دون شريك كويتي، وكانت أجـــورهم أقل بكثير من الكويتيين(5). لكن بخلاف التركيز على تفادي النـــزاع بين الفصائل المختلفة، أوكلت السلطات المحلية لفتح مهمة إدارة وحفظ أمن الفلسطينيين، الذين تضاعف عددهم تقريباً بعد حرب العام 1967. كانوا يشكّلون آنذاك 20 بالمئة من إجمالي عدد السكان.

فرض النظام الكويتي ضريبة 5 بالمئة على كل العمّال الفلسطينيين للمساعدة في تمـــويل مـــنظمة التحرير الفلسطينية. الأكثر أهمية أنه شكّل بوتقة للوطنية الفلسطينية عندما سلّم مدارس مجتمعات اللاجئين لهم لإدارة نظامهم التعليمي الخاص. إضافة إلى المـــناهج الدراســـية الكويتـــية، كان التلاميذ من اللاجئين الفلسطينيين ينغمسون في تـــاريخهم وشـــعورهم الدائم بالخسارة على أيدي معلّمين فلسطينيين لاجئين كانوا شـــديدي الحزن وغاضبين مثل تلاميذهم وعائلاتهم. كل صباح، كان التلاميذ يحيّون العلم الفلسطيني، وتضمنت المناهج قضايا برلمانية وسياسية.

في عـــيني والدته، كان خالد فتى مثالياً. كان يحصل دائماً على علامات جيدة، وفي ســـلواد كـــان يقوم بما يتوجب عليه في الحقول؛ وعندما انتسب إلى المدرسة في

الكـــويت، كان عليه استدراك ما فاته في الشعر والشريعة الإسلامية وبقي بالرغم من ذلك الأول على صفه[6].

في سلواد، كانت العائلة قد عاشت في ظل مئذنة جامع، لكن خالد اليافع نادراً مـــا ولج الـــباب إلى المسجد. بالرغم من تمسُّك القرية الشديد بالدين والتأثير القوي للشيوخ الذين تعلموا في القاهرة، كان الإسلام يُعدّ في سلواد طريقة حياة وليس مجرد صلاة جماعة منتظمة. كانت فاطمة قد أدارت منـــزلها بحزم، وجعلت الأولاد ينتبهون إلى ألفـــاظهم وعلّمـــتهم آداب الـــسلوك والاحترام، لكن نظامها لم يدفعهم لملازمة المسجد المجاور.

في الكـــويت، كـــان الوالد قد عاد للظهور في حياتهم مجدداً. كان قد احتفظ بـــزوجته الثانـــية التي أنجب منها عدّة أولاد، لكن عندما استعاد السيطرة على عائلته الأولى، طرح على ابنه البكر سؤالاً بسيطاً بما يكفي، والذي كان نقطة تحول في حياة الفتى: لماذا لا تصلي؟ ردّ خالد: "لم يعلّمني أحد ذلك أبداً".

بـــدأ يرافق والده إلى المسجد ويتعلم القرآن الكريم. في العام 1969، تم اختيار خالـــد للانتـــساب إلى مركـــز الحكومة الكويتية للمتفوقين؛ مدرسة عبد الله السالم الـــصباح. كانـــت تلك نقطة تحول أخرى. بعد انغماسه بالوطنية الفلسطينية خلال ســـنواته الأولى في الكـــويت، عرّفته مدرسته على التيار الإسلامي الذي كان يشهد انتعاشاً في العالم الإسلامي. بين ليلة وضحاها تقريباً، أصبح الفتى أكثر تديناً، وخلال وقـــت قصير فاز بمسابقة وطنية يقوم فيها الطلاب بحفظ وتلاوة سورتين من القرآن الكريم.

في تلـــك السنوات كان الفتيان مجبرين على أن يصبحوا رجالاً في وقت مبكر. ممتلـــئين عـــنفواناً من سرد آبائهم لقصص عن الماضي وشعورهم المتزايد بأنه ربما تم خداعهم ليهربوا بسرعة من وطنهم، كان خالد وأصدقاؤه يتأثرون بشدة بالتحولات اليومـــية في الصراع المستمر. كان للاجئين الفلسطينيين *الجدد* هؤلاء وجهة نظر عن مـــأزقهم تخـــتلف عـــن تلك التي يراها اللاجئون *القدامى* – أولئك الذين هربوا من فلـــسطين في العام 1948 – فجأة، كانت هناك مطالبة بإنشاء قيادة موحّدة، لتملأ ما كان يبدو سابقاً أنه فراغ في السلطة. حضر عرفات وقادة فصائل أخرى إلى الكويت لمخاطـــبة حـــشود كبيرة. كانت خطابات حماسية مثل تلك التي ألقاها صلاح خلف

وجــورج حــبش مثل كمّادات لشعور اللاجئين الذابل بالهوية الوطنية. كان لإعادة اكتــشاف أنفــسهم كفلسطينيين - واشتراكهم في التجربة كمجتمع مهجّر - تأثير قوي على تجديد الوعي بقضيتهم.

مــثل آخــرين من جيله، ترعرعوا في ثقافات مختلفة، وشجعوا فرق كرة قدم مفضلة لديهم، ابتهج خالد بعد معركة الكرامة في العام 1968، التي جعلت الكثير من نظرائه يشعرون أنهم يدينون لياسر عرفات بالولاء والدم. لكنه شعر بأسى شديد من مــوت الآلاف في القــتال العربــي - العربــي في أيلول الأسود، والذي تزامن مع أسابيعه الأولى في المدرسة الثانوية. كان يتم إلغاء صفوف عادية لإقامة حلقة دراسية لا تنتهي عن الاشتباكات في الأردن، والتي كان يتم تناقلها في الشتات، وسط إحباط ومرارة شديدين، على أنها محاولة من الملك الأردني حسين لتقويض سلطة فتح ومنظمة التحرير الفلسطينية بقيادة عرفات، والشعور الناشئ الجديد بالوطنية الفلسطينية.

ما بين الكرامة وأيلول الأسود كانت هناك مأساة ألهبت أيضاً مشاعر اللاجئين في الكــويت وعلــى امتداد العالم الإسلامي. كان الفلسطينيون يحاولون التكيّف مع صــدمة ســيطرة إسرائيل آنذاك على مقدّساتهم في القدس عندما قام مايكل دينيس روهــان، وهو نصراني استرالي وصف بالجنون، كان يزور إسرائيل، بإحراق المسجد الأقــصى. كــان المسجد، الذي زاره النبــي محمد (ص) في الإسراء والمعراج، أحد أقــدس أقداس الإسلام. تعرض جناحه الجنوبــي الشرقي للدمار. ودُمر منبره النفيس الذي يبلغ عمره ألف عام.

وصــلت كلفة إصلاح المسجد أخيراً إلى حوالى 9 ملايين دولار. كانت هناك نظــريات مؤامــرة لــدى العرب الغاضبين بشأن تواطؤ إسرائيلي في الحريق بعد أن أفــرجت الــسلطات عــن روهان بسبب حالته العقلية قبل أن تقوم بترحيله. ساهم الغــضب في تقــسية الصدفة الدينية التي تشكلت حول آراء خالد مشعل في شبابه، وسرعان ما دفعته إلى اتخاذ قرارات حاسمة ستشكل حياته كلها.

اعــتاد مشعل النهوض باكراً كل يوم لأداء صلاة الفجر. قام والده بأداء فريضة الحــج وفي خلال غياب والده، أصبح خالد رجل المنــزل الذي يحرص كل يوم على قيام الجميع بأداء الصلاة. عندما بدأ معاقبة أولئك الذين لا يصلّون، لجأ شقيقه الأصغر إلى الكــذب لتفادي العقاب[7]. بوصفه الابن البكر للعائلة، كان خالد مشعل يفرض

احتـــرامه على الجميع، وأوضح أنه بحفاظه على النظام، فإنه ببساطة "يصحح سلوكاً، ولا يفرض أفكاراً".

في المدرســـة الـــثانوية، كانت قراءة خالد الشاب عالمية ونهمة. تضمنت تلك الأعمـــال الترجمات العربية لمؤلفين عالميين؛ تشارلز ديكنـــز، وفيدور دوستوفسكي، وألـــبرت كامـــو، وفيكـــتور هيغو. اهتم بأعمال المؤلفين العرب والمسلمين، الأدبية والدينية. كان يقضي معظم وقت فراغه في مكتبات الكويت العامة الزاخرة بالعناوين، وانغمـــس في التاريخ العربـــي والعلاقات الدولية. كان شقيقه الأصغر ماهر يتلقف المجلّـــدات مفتوناً، بعد أن يفرغ منها خالد. بحسب ماهر، كان خالد قد قرأ أكثر من خمسمئة كتاب لدى بلوغه الثامنة عشرة من العمر[8].

عندما كان والده يتواجد في المنـــزل، كان الفتى ينتبه إلى كل كلمة من قصصه عن الحرب والصراع الفلسطيني. لاحظ ماهر، الذي كان من بين كل الأشقاء الأقرب إلى خالـــد، أن شقيقه الأكبر يجهش بالبكاء لدى سماعه الأناشيد الفلسطينية. في سعيه إلى تـــشكيل *شخـــصية أيديولوجـــية وفكرية*، انضم خالد إلى الجمعية الإسلامية في مدرســـته. أصـــيب ماهر بالحيرة مجدداً عندما قرّر خالد - كان لا يزال في الخامسة عـــشرة من العمر فقط - عدم خوض مغامرات بالانضمام إلى مقاتلي ياسر عرفات، الـــذين كانـــوا يتمركزون آنذاك في لبنان بعد ما حصل في الأردن. توصل خالد إلى نتـــيجة حاسمـــة أنه في غضون بضع سنين، يستطيع خدمة القضية الفلسطينية بشكل أفضل إذا أنهى تعليمه.

انـــضم إلى جـــناح الطلاب في جماعة الإخوان المسلمين، بالرغم من أن عضوية والده القصيرة في هذه الجماعة كانت قد توقفت عندما غادر سلواد في العام 1957. بالنسبة إلى مراهق فلسطيني، كان الانضمام إلى الإخوان خطوة جوهرية لكن مخالفة لما كان سائداً آنذاك. كانت صرخة الكفاح في تلك الأيام تركز على حرب العصابات، لكـــن نظـــراً إلى أن جماعة الإخوان كانت تتجنب المقاومة المسلحة، كان على خالد الانتظار ليقاتل في يوم آخر.

كان زملاء صفه - المتشبّعون بحكايات عن الكويت بأنها كانت في الخمسينيات مركز انطلاق قوات فتح التي تميزّها الكوفية الفلسطينية - متلهفين للذهاب والتدرّب على القيام بمهمات حرب العصابات في الأراضي المحتلة، أو الانضمام فقط إلى منظمة

التحريـــر الفلسطينية في بيروت. لكن خالد كان عالقاً في ما يدعى التيار الإسلامي. غـــير متهيب من غطرسة فتح وفصائل يسارية وعلمانية أخرى، أخبر زملاء صفه عن يقينه بأن الإسلام عنصر أساسي من تاريخهم وثقافتهم؛ وكان يشعر بواجب يحتم عليه التصرف وفقاً لذلك.

منذ تأسيسها في القاهرة في العام 1928، كان نفوذ جماعة الإخوان المسلمين قد شـــهد مداً وجزراً مع التطورات السياسية في العالم الإسلامي. عندما وجد بعضٌ من مفكّـــريها البارزين طريقهم إلى الكويت خلال حظر قصير الأمد على نشاطاتهم من قبل السلطات المصرية في العام 1970، كان خالد مشعل ناضجاً للقطاف. بينما كان يدير ظهره بشكل نهائي لعلمانية فتح، حاول استرضاء أصدقاء منـــزعجين كانوا قد اختاروا الدرب الآخر.

مـــصراً علـــى أن خياره لم يكن رفضاً لفتح وكل ما ترمز له، عبّر عن مفاهيم تـــتجاوز سني عمره. بيّن أن عمل شخص يحمل سلاحاً في منطقة جبلية في جنوبـــي لبنان يعد تعبيراً غير كاف عن الوطنية إن لم يرافقه أساس إسلامي راسخ على امتداد الـــشعب الفلـــسطيني. محدّقاً بعينه، كما يفعل دائماً لتوضيح وجهة نظره، جادل بأن هـــناك تـــيارات مكمّلة لبعضها بعضاً، وليست متعارضة. قال لأصدقائه: "ينبغي أن يكون الإسلام جزءاً من المعادلة لأنه يتوافق مع إرثنا وثقافتنا العربية والإسلامية".

بوصفه رئيساً للجمعية الإسلامية في مدرسته، بيّن خالد بوعي جدير بالملاحظة أنه يبني بحرص شديد الأبعاد المتنوعة لشخصيته؛ روحياً، وشخصياً، وفكرياً. نقل إلى آخـــرين اعتقاداً بأن نشاطه الإسلامي يشكل شخصيته. بطريقة ما، كان خالد يلتقط *المـــوجة الجديدة* لجيله. بعد تعرضه للقمع في الخمسينيات والستينيات، انتشر الإسلام الـــسياسي مـــن جديد عبر العالم الإسلامي؛ وعند وصوله إلى الكويت مع مفكّري الحركة، تشرّب خالد مشعل فلسفة وفكر الإخوان.

أحد الذين سحروا خالد بخطاباتهم كان الشيخ السوداني حسن طنون، وهو رجـــل كان خالد شديد التأثر بمحاضراته وغالباً ما يجهش بالبكاء عندما يتكلم. مثل جماعات المراهقين، تبع خالد وصديقه عزام تميمي الشيخ طنون من مسجد إلى آخـــر، استـــعملا مـــسجلة لتسجيل خُطبه حتى يستطيعا أخذها إلى قاعة الصف وإسماعها لآخرين.

في مدرسة منقسمة إلى تيارين إسلامي متشدد وعلماني، استفاد خالد من سلطته بــصفته الأول علــى صفه ليعين نفسه خطيباً للمدرسة. قال عن نفسه: "إذا رأيت منكراً، سأجهر بالقول ضده؛ وإذا كان أحد بحاجة إلى نصيحة، سأنصحه"[9]. بغياب إمــام في خـــلال رحلات تخييم المدرسة إلى الصحراء الكويتية، تابع خُطبه الارتجالية وإمامة الطلاب في الصلاة.

كـــثّف خالد المراهق من قراءاته الإسلامية أيضاً. في غضون ذلك، كان يظن أنه يكتـــشف أعمالاً - مثل تفسير سيد قطب المصري للقرآن الكريم في ثلاثين جزءاً - للمرة الأولى.

كـــان ذلـــك جيل من الفلسطينيين الشباب الذين يحسمون خياراهم بأنفسهم. كـــان فشل جيل آبائهم في الدفاع عن وطنهم والحفاظ عليه قد منح الحرية للأولاد لـــشق طريقهم بأنفسهم. كان خالد مشعل يتأثر بقصص الحرب وتديّن والده، لكنه كان متردداً في الإقرار بأن ذلك ربما دفعه إلى الدرب الذي اختاره. عندما قابلت فتح الذكـــرى العـــشرين للنكبة بشعار جديد - "أطفال 48 مقاتلو 68" - تساءل خالد وعزّام أين يتركهما ذلك. كطفلي 67، كانت تثيرهما الأعمال البطولية الإسلامية في إيران وأفغانستان أكثر مما ألحقه الاحتلال الإسرائيلي بالفلسطينيين في خلال حربين.

كـــان خالد طالباً مجدّاً منذ صغره. كان انتصار عرفات السريع في الكرامة قد جعـــل زملاء مشعل في الصف متلهفين لحمل السلاح مع فتح، لكن خالد أبقى نفسه مشغولاً بكتبه، وتجهّم من انغماسهم بتوافه الأمور[10]. مدفوعاً بشعوره أنه شاب على عجلة من أمره، كان خالد ينقل إليهم الواقع: "لا أريد إضاعة الوقت!".

عندما انضم تميمي كعضو نصير إلى فتح، حاول خالد استعادته، وكان يأمل بأن ينــضم صـــديقه إلى صـــفوف الإخوان. بقي الأمر بينهما بين مدٍّ وجزر حتى أنهيا دراســـتهما. لم يتـــراجع أحدهما حتى استسلم تميمي، في العام 1974، عندما سمع أن ياســـر عرفات كان في نيويورك ليلقي خطاباً أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة. قال تميمي: "ثبت أنك على صواب، وأنني على خطأ. لقد باع عرفات القضية"[11].

مـــتابعاً خطـــوات صديقه في تلك المرحلة، شعر تميمي أن القضية الفلسطينية لا تـــبدو مهمة للغاية لمشعل؛ وأن القوة المحركة في حياته كانت أن يصبح مسلماً ورعاً ومؤمناً في جماعة الإخوان المسلمين.

لكن بصفته ناشطاً في حرم جامعة الكويت الجديدة، استطاع مشعل أخيراً تحقيق توازن بين تلك العناصر الوطنية والروحية، مدفوعاً بسخرية فتح منه ومن مناصريه في جماعـــة الإخوان المسلمين بشأن ابتعادهم عن القضية الوطنية. سيقول تميمي: "كان هناك شعور بالذنب... لكن أيضاً، كان فشل فتح يدفع الإسلاميين لتقديم بديل".

كان مشعل في الثامنة عشرة من عمره عندما انتسب إلى الجامعة في العام 1974 لدراســـة الفيـــزياء، لكنه مارس العمل السياسي وعمل على نشر فكر الإخوان عن الإسلام.

بالمعايير الغربية، كانت الكويت في السبعينيات مجرد إمارة أخرى متشددة للغاية. لكن بالمعايير العربية، كانت متحررة، وحتى متساهلة. كانت الحياة الثقافية والفكرية ناشـــطة، وبالـــرغم من منع النظام للخلافات بين الفصائل الفلسطينية، إلا أن الحرم الجامعـــي كـــان بمنـــزلة مظلة يمكن لمشعل وزملائه الاجتماع فيها وتنظيم أنفسهم داخلها.

كـــان الطلاب يتقدون نشاطاً مع الأحداث التي تجري في ذلك الوقت. كانت فـــتح تكـــثّف من عمليات حرب العصابات التي تقوم بها ضد إسرائيل؛ انحاز مجتمع اللاجئين في لبنان إلى أطراف في الحرب الأهلية اللبنانية؛ وأصبح الرئيس المصري أنور السادات منبوذاً من العرب بتغريده خارج السرب وذهابه إلى القدس ليلقي خطاباً في الكنيـــست الإســـرائيلي. انطلق الطلاب للقتال، لكن ردّ فعل خالد على محنة شعبه اقتـــصرت على مملكة الشعر. بغياب أي رد فعل علني آخر، كانت محبته للشعر تثير انـــتقادات لاذعـــة من أبناء بلده الذين يفضلون الكفاح المسلح - كانوا يرغبون في الانطـــلاق إلى معسكرات التدريب على حرب العصابات - بينما تمثّل رد فعله على تقاريـــر عـــن المعاملة الشنيعة التي تلقتها مجموعة من الفدائيين على أيدي مستوطنين إســـرائيليين في العـــام 1975 بنظم قصيدة عندما أقلّته حافلة عائداً إلى المنـــزل بعد المحاضرات الجامعية.

كـــان عـــرفات قد غادر الكويت منذ وقت طويل، حيث كان قد أسّس مع آخرين فتح. لكن حركته العلمانية كانت القوة المهيمنة في منظمة التحرير الفلسطينية، وادّعـــت حقّهـــا بإدارة كل مظاهر الحياة في الشتات الفلسطيني؛ خاصة المجموعات الطلابـــية، التي كانت مراكز تجنيد رئيسية. لكن الكويت كانت أيضاً نقطة ارتكاز

لـــتحدٍّ إسلامي ناشئ لموقع فتح المهيمن، وكان على غارب تلك الموجة خالد مشعل المولع بالكتب.

كـــان البعض يظن أن تلك الحركة لن تسفر عن شيء. عندما انتشرت الحركة الإسلامية الجديدة في الحرم الجامعي، أخذ أكاديمي بارز، الذي كان بالمصادفة إسلامياً أيضاً، على عاتقه رسم معالم المستقبل لأسد عبد الرحمن، أستاذ التاريخ الذي كان في الـــيوم الأول قـــد حدّد أن مشعل إسلامي. ظن عبد الرحمن أن زميله لم يكن بكامل وعـــيه عـــندما كـــان يـــشرح له الإصرار المنهجي الذي يميّز فلسفة جماعة الإخوان المسلمين. كبيرة في أهدافها، كانت تلك خطة لإلباس الجامعة عباءة إسلامية.

مـــتطلعاً نحـــو المستقبل، ومحقاً تماماً كما تبين لاحقاً، توقّع الزميل: "هل ترى حـــرمك الجامعـــي المتحرر والتقدمي، وكل تلك الشابات في ملابسهن التي تكشف أجـــسادهن؟ سيتغير كل ذلك؛ جماعة الإخوان تعمل في المدارس الابتدائية الآن، وفي خـــلال خمـــسة عـــشر عاماً، ستمتلئ هذه الجامعة بطالبات يضعن الحجاب ورجال ملتحين يرتدون دشداشات"[12].

مثابراً على منهاجه الدراسي، الذي وصفه عبد الرحمن بأنه "التاريخ الفلسطيني، الوضع الراهن، والمؤامرة الصهيونية"، كان الأستاذ معجباً للغاية بخالد مشعل؛ بالرغم مـــن الفجـــوة السياسية بينهما. كان يجد مشعل ذكياً عندما يمطر أستاذه بكل لطف بأســـئلة تكشف كلاً من قراءاته المكثّفة وتعطّشه للمزيد من الفهم عن مأساة شعبه. بقي عبد الرحمن عضواً مخلصاً في فتح، بالرغم من أنه دخل لاحقاً في خصام شخصي مع عرفات. لكن بتنحية السياسة جانباً، صنّف الأستاذ خالد بأنه ألمع الطلاب الذين مـــرّوا علـــيه. "هناك الكثير من الطلاب الممتازين والجيدين في علم الاجتماع. كان الطالب النابغة الوحيد الذي رأيته في خلال تسعة عشر عاماً من التدريس"[13].

أصـــبح الشيخ عبد القادر رئيساً في المهجر لعدّة مئات من أعضاء عائلته الكبيرة الـــذين شـــدّوا الـــرحال إلى الكويت بعد حرب العام 1967. لكن مثل تلك المكانة الاجتماعية لم تمنع عنه صدمة مفاجئة في العام 1979 عندما تخلت عنه زوجته الثانية. رحّـــبت به فاطمة، التي أظهرت طيبة جديرة بالملاحظة، في منـــزلها مع أسرته الثانية المكـــوّنة من ثلاثة صبيان وابنتين، والذين دمجتهم مع أبنائها لتشكّل عائلة واحدة من أحد عشر شخصاً.

مثل العديد من العائلات الفلسطينية في المهجر أو تحت الاحتلال، كان الفتيان جميعهم متعطشين للعلم والسفر. ذهب مفيد، الابن البكر لأسرة الوالد الثانية، للدراسة في الولايات المتحدة وتزوج أميركية. أما ماهر فدرس الهندسة في بريطانيا، وعمل في ألمانيا وجنوب أفريقيا قبل أن يصبح مديراً للموارد البشرية في الأردن والخليج. أما هاشم فأصبح مدير مبيعات في دبي، وسينتهي الأمر بمتقال بإدارة متجر لبيع السيارات في ألاباما، وكان مُقدّراً لهشام أن يصبح محاسباً بارزاً في مصرف مرموق في أبو ظبي. أما خالد فسيترقى ليصبح قائد حركة المقاومة الفلسطينية حماس، رجلاً على لوائح المطلوبين في كل من إسرائيل والولايات المتحدة ولاعباً أساسياً في تحديد مصير شعبه. لكن ذلك في المستقبل.

لدى انتقاله من المراهقة إلى الشباب، كان خالد مشعل يبدو مثل كلا والديه. كان لديه أنف والده وعيناه الغائرتان، لكنه كان في وجه أكثر شبهاً بوالدته. عندما أنهى دراسته الجامعية، كان لدى والدته سبب وجيه للخوف من أن ابنها البكر يتجه نحو حقل مظلم وخطير.

لم تكن فاطمة تجرؤ على سؤاله، لكنها تساءلت عن معنى النظرات الغريبة من زوّاره عندما كانت تقاطعهم في اجتماعاتهم خلف أبواب موصدة لتقدّم لهم الشاي والقهوة. كانت تلك النظرات تظهر عندما تحثّهم على الاهتمام بدراستهم، وكان واضحاً أن الفيزياء والتجارة لم يكونا موضع نقاش. أصبح مشعل كتوماً، ويرد على تساؤلاتها غير المباشرة عن نشاطاته بالطلب إليها أن تتضرع إلى الله (عزّ وجل) أن يوفقه ويحميه. بدأ يخطب أمام تجمّعات طلابية في مساجد الكويت، وكان ينوب أحياناً عن والده في المسجد. فجأة، أخذ يسافر إلى الخارج بانتظام، غالباً إلى الولايات المتحدة، حيث أصبح شخصية معروفة في دائرة محاضرات النشطاء الفلسطينيين.

في المنزل، واجه والدته أخيراً بطلب كشف لها المدى الذي كان ابنها قد قطعه على طريق الالتزام الإسلامي. بعد عقود، كانت لا تزال تستطيع اقتباس محادثة، كلمة بكلمة، كانا قد أجرياها في أثناء انتقالهما بالسيارة على أحد طرق مدينة الكويت الرئيسية السريعة:

"يا أمي، أريدك أن تصغي السمع. سأطلب من الله (عزّ وجل) شيئاً وأريدك أن تقولي *آمين*".

سألت: "ما الذي تريده؟".

ردّ ابنها، واضعاً نفسه ضمن التيار الأكثر تشدداً في الفكر الإسلامي: "أن يقبلني شهيداً من أجل فلسطين".

ردّت: "يا بني، لا يمكنني قول *آمين* على ذلك. هذا صعب للغاية".

أصـــرّ الابن. أخيراً، توصلت الأم إلى حل وسط. لكنها لم تتعدَّ التعبير عن رغبة في أن يعيش طويلاً وأن يستشهد عجوزاً[14].

مـــن بـــين كل الصبية، سيرقص مفيد لاحقاً على حافة النار التي كان يبدو أنها تـــشتعل آنذاك في ذهن خالد مشعل. لكن خالد فقط سيزداد أهمية حتى يصبح على القائمة الأميركية *للإرهابيين العالميين*.

5

"هل فقدتم عقولكم يا رجال؟"

كانت إسرائيل تخسر في حربين - عسكرياً في لبنان واقتصادياً في الداخل - عندما أصبح شمعون بيريس التكنوقراطي رئيساً للوزراء في أيلول من العام 1984.

كان غزو إسرائيل الأحمق لجارتها الشمالية في العام 1982 قد كلّفها حياة حوالى سبعمئة جندي إسرائيلي ودفع باقتصاد البلاد المعتل أصلاً إلى حافة الهاوية[1]. لإنقاذ الوضع، كان على بيريس أن يلوذ بالفرار من لبنان. في الوقت نفسه، كان عليه عقد صفقات واقعية في الداخل. عقد إحدى تلك الصفقات على الجبهة الداخلية مع وزير دفاعه إسحاق رابين، منافسه اللدود في حزب العمل. إذا كان بيريس يرغب بإقناع وزرائه والرأي العام بالحاجة إلى إجراء تخفيضات كبيرة في الميزانية، سيكون عليه أولاً خفض حصة الدفاع المهمة للغاية. وافق رابين، لكن موافقته كانت مشروطة؛ ينبغي أن يتعهد رئيس الوزراء بالمقابل بعدم التدخل في إدارة رابين لوزارة الدفاع[2]. لم يكن هذان الرجلان يستطيعان العمل معاً، وكان رابين مصمماً على إدارة الأمور بطريقته الخاصة في وزارته.

وافق بيريس، الذي لم تكن لديه خيارات أخرى، على ذلك. كان ومستشاروه يواجهون ما يكفي من مشكلات في محاولة لإنقاذ ما تبقى من معجزة إسرائيل الاقتصادية بعد الاستقلال. كان عجز ميزانية 1984 قد وصل إلى مليار دولار، وارتفع التضخم إلى ألف بالمئة، وكانت مساعدة واشنطن البالغة 1.5 مليار دولار قد رفعت مجمل المعونات الأميركية خلال تلك السنة إلى حدٍّ حسّاس سياسياً بلغ ألف دولار لكل إسرائيلي[3].

في صيف العام 1985، كانت هناك حالة من الغضب نتيجة مقاطعة فظّة لأحد اجتماعات مستشاري بيريس، وهم مجموعة متجانسة من الأكاديميين الذين جاؤوا معه عندما تقلّد منصبه ليشكّلوا *فريق المئة يوم*.

قلّة كانوا يمتلكون الجرأة للاندفاع عبر بوابة جناح رئيس الوزراء في القدس بتلك الطريقة. لكن ذلك الشخص، الذي كان يصرخ فيهم في أثناء اندفاعه من دون استئذان عبر الباب، كان أميركياً مشاكساً. كان دان كرتزر، دبلوماسياً في الثلاثين من العمر من سفارة الولايات المتحدة في تل أبيب. كانوا يعرفونه جيداً، لكن المستشارين حدّقوا به آنذاك من دون أي انفعال عندما أخذ كرتزر، من دون تمهيد، يؤنّبهم: "هل فقدتم عقولكم يا رجال؟ ألا تتعلمون أبداً من التاريخ؟ هل تعرفون ما تفعلونه في غزة بينما نتكلم؟"[4].

كان كرتزر يعمل قبل ذلك في القاهرة – كان هناك عندما تم اغتيال أنور السادات في العام 1981 – كان حزب الله آنذاك، الإسلامي أيضاً والمرتبط بإيران، يصول ويجول في لبنان. وكان الإسرائيليون، كما يرى كرتزر، يخدعون أنفسهم – أو يتعرضون للخداع – إذا صدّقوا ادّعاء الأصوليين في غزة بأن اهتمامهم الوحيد كان الأمور الدينية للناس. مدركاً أن إسرائيل كانت جزيرة في بحر إسلامي، وعُرضة لمخاطر نهضة إسلامية متأثرة بثورة آية الله الخميني في العام 1979، كان كرتزر قد قام بعدّة زيارات إلى غزة، وحقّق فيما اعتبره تطوراً استثنائياً[5].

رافعاً يده لإيقاف الأميركي، قال أحد مستشاري بيريس: "دان، ما الذي تتكلم عنه؟". هدأ كرتزر، لكنه تابع بتقديم تفاصيل عن نشاطات في غزة لرجل يدعى شموئيل غورين، وهو عميل سابق للموساد كان منسّقاً لعمليات وزير الدفاع رابين في الأراضي المحتلة.

كانت غزة مجتمعاً تعرّض لمعاملة قاسية حتى قبل أن تحتل إسرائيل القطاع في حرب العام 1967. كان الأصوليون قد عانوا الأمرّين تماماً مثل نظرائهم في جماعة الإخوان المسلمين في مصر؛ وكان ذلك يعني أن النشطاء الذين ورثتهم إسرائيل كانوا متمرّسين على العمل السري. لم يكن زعيمهم يبدو رجل ثورة؛ الشيخ المقعد الذي يلازم كرسيه المدولب أحمد ياسين.

في العام 1965، دخل ياسين السجن لتعاطفه مع الإخوان المسلمين بعد اعتقاله من قبل الاستخبارات المصرية. آنذاك، كلاجئ في غزة البائسة، لم يكن يعتبر الوجود الإسرائيلي في الأراضي المحتلة احتلالاً عادياً. كان يعتقد أن ذلك الاحتلال محاولة إسرائيلية حثيثة لطمس هوية الفلسطينيين تماماً. بالرغم من ذلك، رأى ياسين فرصة

يمكـــن اســـتغلالها، وتمكّنه من نشر الفكر الإسلامي. وما دام يتحرك بهدوء، لم تكن إسرائيل تمنع نشاطاته.

كما بن شالوم هراري، وهو مستعرب بارز عمل مع سلطات الاحتلال في غزة، كـــان موقف إسرائيل يستند إلى تفكير تاريخي لوزير الدفاع موشيه دايان. "لا بأس بالإسلاميين ما داموا لا يطلقون النار ويفجرون القنابل، وما دام لم يكن هناك قلاقل. قال دايان إنه ينبغي علينا معاملة الإسلام كما نعامل المسيحية"(6).

مع جواز سفر يحدد تاريخ ميلاده في العام 1929 - يجعله ذلك بمثل عمر ياسر عرفات - كان ياسين خطيباً يستطيع تحيّن الفرصة المناسبة. الطريقة التي قيّم بها ياسين نتـــيجة حـــرب العام 1967 كانت أن اليهود قد التزموا بدينهم وانتصروا. في الوقت نفـــسه، كانت العقائد العلمانية والقومية للجيوش العربية ومنظمة التحرير الفلسطينية بقـــيادة ياســـر عرفات قد جلبت الهزيمة للعرب. تبع ذلك ضرورة استعادة المعتقدات والقيم الإسلامية للفلسطينيين قبل أن يقوموا بأي ثورة ناجحة.

وجدت رسالة ياسين أذهاناً منفتحة في أثناء إلقائه خُطباً في مساجد مخيّمات اللاجئين. يتذكر أحد تلاميذ ياسين الأوائل، الذي تأثر ببساطة وحس دعابة لغة الخطـــيب المُقعد: "في المدرسة والجامعة كان يستحوذ علينا عبد الناصر بالقومية العربية. كان يتكلم عن الهزيمة المُذلة للعرب من قبل مثل تلك الدويلة الصغيرة. في المخيّمات، كان يتكلم إلى حشود من مئة شخص، وربما مئتين. كان بعضنا يتغلغل في تلـــك الـــتجمّعات، يـــبحث عـــن أشخاص لامعين وأذكياء تتم دعوتهم إلى اجـــتماعات أصغر في منازل خاصة"(7). في تلك المنتديات الأكثر إلفة، كان يتم تعريف الأعضاء المحتملين على كتابات عملاقي جماعة الإخوان المسلمين - حسن البنا، مؤسس الحركة؛ وسيد قطب، قائدها الفكري - كان يتم تشجيع الأعضاء الجدد على نشر فكر الجماعة شفاهة في العائلة والحلقات التعليمية للأيديولوجيات العلمانية الزائفة.

توقـــف ياسين عن محاولة التشكيك بمنظمة التحرير الفلسطينية علانية. كانت هجمات عرفات على إسرائيل من الأردن وسورية ومعركة الكرامة أسطورية آنذاك. يـــتابع التلميذ قائلاً: "لم نكن واثقين من أن عرفات سيحرّر فلسطين، لكنه استطاع على الأقل الادعاء بأن رجاله كانوا لا يزالون يقاتلون الإسرائيليين".

في العام 1973، سمحت إسرائيل لياسين بإنشاء مظلة لكل نشاطات الإخوان في غـزة **المجمّع الإسلامي**. كان ذلك مركزاً إسلامياً متكاملاً؛ مسجداً، عيادة، حضانة، قاعة احتفالات، مركزاً تدريبياً للنساء والفتيات، ومقراً للجنة الزكاة القوية التي كانت تتلقى أموالاً محلية وأجنبية، لقد استفاد ذلك المركز من عودة الناس للالتزام بالإسلام في الأراضـي المحـتلة. في العشرين سنة التي تلت حرب الأيام الستة، تضاعف عدد المساجد مرتين في الضفة الغربية ليصل إلى 750، وثلاث مرات في غزة ليصل إلى 600 ، والتي كان 40 بالمئة منها تقريباً تحت سيطرة المجمّع الإسلامي التابع لياسين.

احتـشد مرشـحون إسلاميون لتحدّي سيطرة منظمة التحرير الفلسطينية على مـنظمات مهنـية وتجارية ومؤسسات اجتماعية، وأزاحوا فتح ومسؤولين علمانيين آخـرين عندما حصلوا على ما بين 35 و45 بالمئة من الأصوات. رافق بعض حملات الثمانينـيات للسيطرة على الجامعات واتحادات الطلاب أعمال عنف.وكانت أعداد الجرحـى بالمئات. كان بين هؤلاء محمد حسن صوالحة، محاضر في جامعة النجاح في نابلس، الذي تم إلقاؤه من نافذة في الطابق الثالث[8].

مـنع الإسرائيليون المبادرات الاجتماعية لفتح ومنظمة التحرير الفلسطينية. لكن إسـلاميي ياسـين حصلوا على موافقة رسمية لما أصبح في الواقع البنية التحتية المبكرة لدولـة – ضمن – الدولة، والتي تتضمن مدارس، عيادات، مساجد، جمعيات خيرية، ومراكـز اجتماعية، تطورت جميعها لتؤلف شبكة إسلامية واسعة يتم من خلالها نشر فكر وتوجيه سياسي.

لم تكـن الفجـوة السياسية بين الإخوان المسلمين ومنظمة التحرير الفلسطينية بشأن الجهاد نفسه، وإنما حول مسألة التوقيت. كان عرفات وقادة فصائل آخرون في مـنظمة التحرير الفلسطينية قد اختاروا الكفاح المسلح لاستعادة فلسطين منذ أواخر الخمـسينيات، لكـن ياسين بقي ملتزماً بفكر الإخوان أن التحرير يأتي فقط نتيجة لـبرنامج طويل ومكثّف من التعليم الأيديولوجي، والديني، والنفسي. بالمختصر، كما كان يرى الأمر، كانت راية الإسلام هي التي أخرجت الصليبيين من القدس المقدّسة في القرن الثاني عشر؛ وبمواجهة تكرار فشل العرب العلمانيين، كانت هناك حاجة إلى الروح المعنوية نفسها في أواخر القرن العشرين. حتى عند ذلك، كان ياسين يعتقد أن الفلـسطينيين لا يمكـن أن يكونوا سوى رأس حربة. لمساعدتهم في طرد اليهود من

فلسطين، كانوا بحاجة إلى أن يقوم الإخوان المسلمون بإنشاء دولة إسلامية في الدول المجاورة.

أخطأ الإسرائيليون تماماً في قراءة الموقف. اعتقدوا خاطئين أن منظمة ياسين ستقوّض ما كان دعماً مطلقاً تقريباً للعقيدة العلمانية والقومية لمنظمة التحرير الفلسطينية، ولهذا سمحوا لما يقوم به الشيخ بالازدهار[9]. كان هناك إنكار تام لمزاعم الفصائل الفلسطينية العلمانية بأن إسرائيل كانت في الواقع تموّل الإسلاميين، لكن في منتصف الثمانينيات كان الحاكم العسكري الإسرائيلي لغزة العميد إسحاق سيغيف سيصف استراتيجية مدروسة لتعزيز موقع الإسلاميين على حساب منظمة التحرير والشيوعيين الفلسطينيين بالقول: "منحتني الحكومة الإسرائيلية ميزانية منحتها السلطة العسكرية للمساجد"[10].

في حزيران من العام 1982، كان أرييل شارون، وزير الدفاع الإسرائيلي، قد شن حرباً عسكرية خاطفة على لبنان، وسيطر على المشهد آنذاك حصار قاسٍ مدته ثمانية وثمانون يوماً لمنظمة التحرير الفلسطينية في بيروت. في النهاية، أبرمت واشنطن صفقة لفتح ممر آمن تم من خلاله إجلاء قيادة عرفات التي يبلغ تعداد أفرادها ألفي شخص إلى تونس، على بعد أكثر من ألف ومئتي ميل على ساحل شمال أفريقيا، وتوزّع أكثر من عشرة آلاف من مقاتليه في سبع دول عربية مختلفة[11].

بعد تلك الأحداث أصيب الدبلوماسي الأميركي دان كرتزر بالدهشة من التناقض الصارخ في مزاج الناس عندما كان يقود سيارته وحيداً في أرجاء غزة. بعد إخراج عرفات من بيروت، أحكم الإسرائيليون الطوق على فتح الواهنة ومؤيديها القوميين. لكن كان هناك نشاط إسلامي جديد؛ نساء يضعن الحجاب، رجال يطلقون لحاهم، مساجد جديدة في كل مكان، وحتى جامعة إسلامية. اشتكى أنصار عرفات لكرتزر من الضغط الذي يتعرضون له من قبل الإسرائيليين. لكن الإسلاميين لم يكونوا بحاجة إلى إجراء حوار مع الأميركيين. كانوا راضين بما كان الإسرائيليون يسمحون لهم بتحقيقه على الأرض.

كان شمعون بيريس في منصبه منذ أقل من سنة آنذاك، لكنه كان منشغلاً تماماً بلبنان وتحدي إنقاذ الاقتصاد الإسرائيلي. اشتكى مستشاروه، الذين استاؤوا من سماع محاضرات من دبلوماسي متعالٍ من واشنطن. بالرغم من أن الدفاع كان منطقة

محظّــرة، إلا أن رئــيس الــوزراء أرسلهم لرؤية رابين، الذي أسمعهم عندها محاضرة أخــرى؛ هذه المرة عن ذكاء عميل الموساد السابق شموئيل غورين، الذي كانت مكيدته الماكرة بالاستفادة من الإسلاميين لتقويض سلطة منظمة التحرير الفلسطينية ناجحة جداً. قدّم أحدهم تقريراً بعد عودهم إلى بيريس: "ثم قيل لنا أن نذهب للقيام بعملنا"[12].

عــندما واجه كرتزر أول مرة مسؤولين عسكريين إسرائيليين بارزين في غزة، أنكــر هؤلاء وجود خطة غورين؛ لكنهم أقرّوا لاحقاً أن الأميركيين كانوا على حق. اعتقدوا أن بمقدورهم إنشاء ثقلٍ موازٍ لعرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية، لذا سمحوا بتدفق الأموال للإسلاميين من الدول العربية؛ بينما لم يحصل مؤيدو عرفات العلمانيون على شيء.

كانــت تلــك سياســة متعمدة. لكن كرتزر لم يكن يتوقع العثور على وثيقة سياسية عندما اندفع إلى مكتب رئيس الوزراء. كان يعرف جيداً الموقع الذي يتمتع به الجــيش الإسرائيلي واعتماده على ما وصفه هو نفسه بسياسة الثرثرة بدلاً من عملية اتخــاذ قرار رسمية وموثقة[13]. لكن، بعد أن قاطع اجتماع رجال بيريس في العام 1985، تركهم مع ملاحظة عن الإسلاميين: "هل تعتقدون حقاً أنكم تستطيعون تطويع هؤلاء الرجال؟"[14].

ما بدأ كسياسة تساهل ديني، وقد كانت إسرائيل تأمل بأن تستطيع من خلالها كــسب بعض الاحترام في العالم الإسلامي بعد سحقها للجيوش العربية في العام 1967، ســرعان ما أصبح استراتيجية لاستغلال الفجوة المتسعة بين الفلسطينيين الإسلاميين والعلمانــيين، وصــب النار على زيت العنف العربــي - العربــي. كان ذلك يتم بالتــرغيب والترهيب. في خلال سنوات معينة، لم يكن لدى الإسرائيليين قوة بشرية كافية على الأرض في غزة، حتى إذا كانت لديهم رغبة في تحدّي الإسلاميين. لم يكن لــديهم ما يكفي من خبراء اللغة لترجمة الخُطب التي يتم إلقاؤها في المساجد الخاضعة لــسيطرة الإســلاميين أو حتى القيام بدوريات كافية في القطاع، خاصة أن الواجب الديني لقوات الأمن اليهودية يحتم على أفرادها الغياب دفعة واحدة[15].

في غزة المحتلة، ورثت إسرائيل نظاماً كانت الإدارة المصرية فيه قبل العام 1967 قــد حاولــت كــبح جماح الأصوليين؛ تعيين ودفع رواتب جيش صغير من الأئمة المــرتبطين بهــا. على أي حال، كان هناك تحوُّل جديد: بالرغم من أن الإسرائيليين

سمحوا بتدفق الأموال، إلا أن أولئك الأئمة الذين لم يكونوا متوافقين مع الإخوان المسلمين تمت إزاحتهم من الطريق أو منحهم راتباً ثانياً ليتنحوا أو يقدّموا خُطباً يكتبها آخرون[16]. إذا لم يكن الإسلاميون يستطيعون السيطرة على مسجد تسمح إسرائيل بوصول أموال له، كانوا يمنحون معنى جديداً تماماً لعبارة حقائق جديدة على الأرض ببناء مسجد خاص بهم؛ غالباً في يوم واحد فقط. كان الإسرائيليون موظفو إدارة الاحتلال الدينية يأتون من مستعمرات يهودية قريبة؛ وكانوا بحاجة هم أيضاً إلى الراحة يوم السبت، وهو اليوم الذين كان يختاره النشطاء الإسلاميون لجعل مئات العمال ينتهون من تشييد بناء ليكون مسجداً للعائلة أو الحي في أقل من أربع وعشرين ساعة[17]. أوضح المستعرب الإسرائيلي هراري لاحقاً: "في صبيحة يوم الأحد، كان شعبنا يستفيق ليرى مسجداً حيث لم يكن موجوداً يوم الجمعة". كان كرتزر، الدبلوماسي الأميركي، مشدوهاً أيضاً، وقال: "فجأة، يكون هناك مبنى أخضر وأبيض حيث لم يكن موجوداً في الأسبوع السابق".

عندما حاول الإسرائيليون انتقاء قيادة فلسطينية بأنفسهم، سيطر عليها ياسين وأتباعه في الإخوان المسلمين. بعد ما اعتبره البعض انهيار منظمة التحرير الفلسطينية- عندما تم إخراج عرفات من بيروت من قبل القوات الإسرائيلية بقيادة أرييل شارون، الرجل الذي يدعوه الإسرائيليون البلدوزر - انبثق بعض العلمانيين فعلاً كقادة محتملين في الأراضي المحتلة[18]. لكن تل أبيب استخفّت بهم، واختارت تمويل وتعيين مجالسها المحلية أو بلديات القرى، والتي وصل عدد أفرادها إلى مئتي شخص تم منحهم أسلحة وتدريبهم من قبل قوات الأمن الإسرائيلية[19]. كان الإسرائيليون يعتقدون أنهم يوظّفون متعاونين[20]، لكن مثل الأئمة الذين عيّنتهم إسرائيل، سرعان ما وقعت بعض تلك المجالس تحت نفوذ ياسين الإسلامي[21].

كان ذلك قد ترك كرتزر محتاراً. ومع عرفات وقواته يضمّدون جراحهم في تونس البعيدة، كانت هناك فرصة لإسرائيل لتشجيع قيام قيادة محلية مستقلة برأيها وعلمانية. بدلاً من ذلك، كان يتم إطلاق العنان للإسلاميين.

لم يكن كرتزر وحيداً في قلقه بشأن إلى أين قد يقود ذلك. كان فيليب ويلكوكس، أحد موظفي القنصلية الأميركية في القدس، قلقاً من شائعات متواصلة بأن إسرائيل تدعم سراً الإخوان المسلمين[22]. في وكالة الاستخبارات المركزية،

استنتجت المحللة مارثا كيسلر أن تل أبيب تلعب بالنار. قالت لاحقاً: "لا أعتقد أنهم كانوا يدركون مدى خطورة ما سيؤول إليه الوضع"[23]. تم إحباط محاولة لمسؤولين في البنتاغون لجعل وكالة استخبارات الدفاع تقوم بتحليل ظاهرة الإسلاميين الفلسطينيين نتيجة تدخل أصدقاء إسرائيل في إدارة ريغان[24].

لم يكن ذلك مفاجئاً كثيراً. في ذلك الوقت، كانت وكالة الاستخبارات المركزية قد بدأت أكبر عملية سرية تقوم بها واشنطن على الإطلاق - حملة تبلغ تكلفتها عدّة تريليونات من الدولارات يتم من خلالها تسليح وتدريب أصوليين إسلاميين لتشكيل قوات بالوكالة ضد الاتحاد السوفياتي في أفغانستان. أرغمت العملية السوفيات الملحدين على الانسحاب، وأنهت أخيراً الحرب الباردة.

بعد أن ابتعدت واشنطن عن حرب المجاهدين الأفغان في الثمانينيات، انبثق جيل من المحاربين الإسلاميين المبتهجين بالنصر الذين انغمسوا في الجهاد، وبحثوا عن أعداء كفّار جدد. انحدرت أفغانستان لتصبح أحد مستنقعات آسيا الوسطى والتي ظهر منها أسامة بن لادن والقاعدة.

كانت الولايات المتحدة تتّبع استراتيجية عدو عدوي صديقي نفسها التي كان الإسرائيليون يطبّقونها في الأراضي المحتلة. المفارقة أن إسرائيل كان لها دورها في خطة واشنطن في أفغانستان. حالما تم إماطة اللثام عن تجربة غورين في غزة، كانت إسرائيل تقوم نيابة عن أميركا بتقديم السلاح سراً للإسلاميين في أفغانستان[25] وإيران[26]. كان الأميركيون يحرّكون نماذج عن جيوش على لوح تخطيط الحرب الباردة في البنتاغون، ويحققون دعوة الرئيس دوايت أيزنهاور في العام 1957 لإطلاق جهاد إسلامي ضد الشيوعية. كانت وكالة الاستخبارات المركزية بحاجة إلى تأكيد فكرة الحرب المقدّسة ضد موسكو في تعاملها مع الأنظمة العربية، كما كان أيزنهاور قد أخبر مرة اجتماعاً لتحديد استراتيجية البيت الأبيض[27].

منذ نهاية العقد، كانت إسرائيل محاطة بنوعٍ من النزاعات يمكن أن يجعل القفّازات الحرارية شرطاً أساسياً لأي تعامل مع الإسلاميين. في مصر، المجاورة إلى الجنوب، بدا أن اغتيال الرئيس أنور السادات في العام 1981، حيث كانت رحلة السلام التي قام بها إلى القدس في العام 1977 قد أثارت غضب الإسلاميين العارم، لا وزن له في حسابات غورين. في سورية، المجاورة إلى الشمال، كان الرئيس حافظ

الأســـد قد أخمد للتو آنذاك ثورة للإخوان المسلمين، وقضى على الآلاف منهم[28]؛ بالـــرغم مـــن ذلك كان غورين وفريقه يعتقدون ساذجين أن إسرائيل يمكن أن تحقق المستحيل، بربط الأصوليين بأجهزتها السياسية والأمنية.

بالمقابل، في ما يخص الجارة إلى الشرق، راقب الإسرائيليون بإعجاب نادر كيف اســـتطاع قائـــد عربـــي مثل الملك حسين تقديم مثال يحتذى عن طريقة التعامل مع إســـلاميي الأردن. كـــان الملك حسين قد نأى بنفسه جانباً عن أنظمة عربية أخرى بالتعامل والتعاون مع الإسلاميين، وجدّد بالتالي أوراق اعتماده الإسلامية، في الوقت نفـــسه ســـيطر عليهم في إطار مؤسساتي. كان ذلك بكل تأكيد ميثاق عيش مشترك ساعد، من وقت إلى آخر، حسين والإسلاميين الذين كان لديهم أعداء مشتركون في مصر، سورية، والعراق. فسّر أحد أقرب مستشاري الملك الأمر: "كان يعرف أنه لا بـــد مـــن وجود أرضية مشتركة للتعايش مع الجزء الأكبر من الإسلاميين؛ لكنه كان يستطيع دائماً التعامل بقسوة مع المتطرفين"[29].

كان المصريون قد ارتكبوا أخطاء تكتيكية سمحت لعدد من الجماعات الإسلامية بالظهور من كادر الإخوان المسلمين بسبب الحظر الحكومي الصارم على المنظمة الأم بعـــد محاولـــة اغتيال الرئيس جمال عبد الناصر في العام 1954. استنتج مستشار آخر لحسين: "كان رد الفعل قاسياً، وينبغي للمرء البدء من هناك لتحديد أسباب الخطأ".

في غـــزة، لم يكـــن هناك أحد يميل للإصغاء إلى أولئك الذين يرون بوضوح ما يفعله الإسلاميون. انتبهت منظمة التحرير الفلسطينية إلى المخاطر قبل وقت طويل من الإســـرائيليين. لاحظ نبيل شعث، وهو أحد المنفيين من غزة في معسكر عرفات، أن قائـــده يستشيط غضباً من تشجيع إسرائيل للأصوليين ليكونوا بديلاً لمنظمة التحرير الفلـــسطينية. سيعلّق شعث بكثير من الأسى بعد عدّة سنوات: "لكن ذلك كان خطأ كل الذين راهنوا على الإسلاميين؛ فقد كان الأصوليون يتكيّفون معهم، لكنهم كانوا دائماً يعملون لتحقيق أهدافهم"[30].

بمـــراقبة الأحـــداث على الأرض، لاحظ المستعرب الإسرائيلي هراري إصرار عـــرفات آنـــذاك علـــى اعتـــبار منظمة التحرير الفلسطينية الممثل الوحيد للشعب الفلسطيني، وهذا ما حققه في قمة للقادة العرب في الرباط، العاصمة المغربية، في العام 1974. كان يتم تفسير تصميم عرفات على أنه محاولة لقطع الطريق على ادّعاء الملك

حسين أنه يتكلم باسم الفلسطينيين. لكن، من وجهة نظر هراري، كان لدى عرفات حافز آخر يتمثّل في قطع الطريق على الإسلاميين[31].

لم تكن إسرائيل لتساعده على ذلك. يتذكر هراري جهداً لم يدم طويلاً للتوصل إلى هدنة عندما اشتعل العنف الأهلي. "لكن لم يتذمر أحد فعلاً، لهذا لم نفعل شيئاً... [حتى] عندما انتشر العنف إلى حرم الجامعات في الضفة الغربية. أتذكر أن ضباطاً عند معبر إيريز [على الطرف الشمالي لقطاع غزة] استدعونا من مقر القيادة ليقولوا لنا إن طلاباً من غزة تقلّهم حافلة يرغبون في العبور إلى الضفة الغربية لمساعدة الإسلاميين في مشاجرة هناك. قلت: "اسمحوا لهم بالذهاب، سيقومون فقط بضرب بعضهم بعضاً".

منذ بداية العام 1978، كان المسؤولون العرب الصوريون في غزة قد حذّروا الموظفين الإسرائيليين من عواقب أعمالهم[32]، لكن حكومتهم، أصرّت على ادّعائها بأن التحالف غير المقدّس كان مظهراً معقولاً للحرية الدينية.

في العام 1987، وضع مراسلون نسخاً عن تقرير سري جديد على مكاتب أكثر من مئتي شخصية في الحكومة، الأمن، والجهاز الإداري؛ أبرز صانعي القرار في إسرائيل. ربما كان ممكناً وصفها بأنها وثيقة "نعم، نعم، لكن". نعم، كانت الحماسة الدينية متقدة في الأراضي المحتلة؛ نعم، كان الإسلاميون يريدون حكومة بأسلوب إيراني في كل فلسطين التاريخية؛ لكن رسالتها كانت أن الإسلاميين لا يشكلون تهديداً أمنياً مباشراً.

كتب الجنرال شايكي إيريز، الحاكم العسكري لغزة، في مقدمة التقرير: "[إنهم] يريدون التركيز على عملية الفوز بالقلوب والعقول... ولاحقاً فقط [سوف] يبدأون كفاحاً نشطاً ضد إسرائيل"[33]. لم يكن يعرف الكثير حقاً.

6

سيرك عرفات

عـــندما تخـــرّج خالد مشعل في قسم الفيزياء في العام 1978، كانت إمكانيات العمل في الكويت جيدة لغير الكويتيين. لكن مع انقضاء عقد الثمانينيات، سيتبين أن تلك كانت فترة رائعة للأمر الرئيسي الذي كان يسعى إليه ذلك اللاجئ الفلسطيني، ألا وهو الاستعداد للجهاد.

عندما اقترب وقت التخرّج في العام 1978، خشي أصدقاء مشعل بأن ينعكس إهمالـــه لدراسته على نتائجه النهائية. لكن حتى مع كل اهتماماته الدينية والسياسية، كانـــت علاماتـــه كافية ليتم تعيينه مدرّساً للفيزياء في النظام التعليمي الكويتي، الذي كان حينها حصناً للاجئين لأن ربع اجمالي المدرّسين في الإمارة كانوا فلسطينيين[1].

في الـــسنة الثالثة لامتهانه التعليم، قرّر مشعل أن عليه الزواج. لم تكن مسألة أنه التقـــى، أو حتى رأى، امرأة أراد أن تكون زوجته؛ وإنما كان ذلك قراراً مبدئياً يتعلق بمـــرحلة أخرى فيما كان، ثقافياً وسياسياً، يصبح حياة منظمة لشاب مسلم. باعتناقه الكامـــل لفكـــر الإخوان المسلمين المحافظ، وجد مشعل تعزيزاً روحياً وفلسفياً للفكر الفطري المحافظ للتقاليد القبلية والثقافية للضفة الغربية، والتي كانت، بعد أربع عشرة ســـنة في الإمارة الخليجية، لا تزال الغراء الذي يجمع عائلته معاً. سيقول عزّام تميمي: "لا أعتقد أن خالد تأثر بأي شيء"[2].

بعـــد أن عبّر عن رغبته في الزواج، تم إبلاغ مشعل عن رجل من قرية بورين، قرب نابلس – رجل صالح – لديه بنات بعمر الزواج. من دون معرفة سواء بالبنات أو العائلة، اتـــصل مشعل هاتفياً بالأب. شرح مشعل لاحقاً: "أخبرته أنني سمعت أنباء طيبة عنه من صـــديق مشترك، الذي قال إنه إذا تعرّفنا إلى بعضنا بعضاً، ربما يمكنني الزواج من إحدى بـــناته"[3]. التقـــيا خارج مسجد في المدينة واتفقا، كما تقضي العادات، أن تقوم والدته وإحـــدى شقيقاته بزيارة منـــزل الرجل. بعد ذلك، نقلت نساء عائلة مشعل أنباء إيجابية عن الاجتماع مع إحدى بنات صالح، وهي شابة تدعى أمل.

كان يبدو طبيعياً تماماً لذلك المدرّس الذي يبلغ من العمر آنذاك خمسة وعشرين عامـــاً أن يكون الطريق إلى أمل عبر والدها. كانت عائلتها تعيش في الكويت، لكن مشعل اعتبرهم من الضفة الغربية. تمت دعوته مع كلا والديه لتناول الشاي مع عائلة صـــالح - خلال الزيارة، كان متوقعاً أن تدخل أمل الغرفة، ربما لتقديم البسكويت أو ســؤال مـــشعل عمّا إذا كان يحب السكر في الشاي - كانت القاعدة أنه يستطيع اختلاس نظرة واحدة فقط، لكن الشاب صدم الآباء الأربعة بالإسهاب في الحديث مع أمـــل. كـــان مطلوباً منهما في تلك الأمسية، كلٌ على حدة، أداء صلاة *الاستخارة*، الواجبة لاتخاذ قرار مهم. قال: "شعرنا أن الأمر مناسب".

تزوجا في العام 1981. لكن التقويم الذي عاشا وفقاً له كان فلسطينياً أكثر منه مـــيلادياً أو هجرياً. في أي شهر تزوجا؟ سيقول: "ذكرى حرب الأيام الستة". ومتى كانت ولادة فاطمة، ابنتهما البكر؟ كان الجواب: "يوم غزو شارون للبنان".

كـــان ذلك في 6 حزيران من العام 1982، عندما بدا أن إخراج منظمة التحرير الفلـــسطينية مـــن أي بلد في محيط فلسطين هزيمة كبيرة لكل الفلسطينيين. ستجعل المـــسافة البعـــيدة عن وطنهم المقاومة صعبة للغاية. كان ذلك صحيحاً بالتأكيد فيما يخـــص عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية. لكن، من وجهة نظر خالد مشعل، كان نفـــي عـــرفات واحداً من سلسلة ظروف دولية تتالت في توقيت دقيق ليصبح ممكناً إطلاق مبادرة جديدة كانت تدور في ذهن مدرّس الفيزياء في الكويت.

كانت هناك أحداث عالمية وضعت عناصر من الحركة الإسلامية في تقاطعات مهمة لحسابات السياسة الخارجية، من الرياض إلى واشنطن. كانت الحرب الباردة لا تزال تحدد معـــالم كـــل اســـتراتيجية جيوسياسية (جغرافية - سياسية)، لهذا عندما افتتحت وكالة الاســـتخبارات المركزية قسمها الجديد لمكافحة الإرهاب في منتصف الثمانينيات، كانت أهـــدافها الجماعات الإرهابية اليسارية العلمانية[4]. كان تجنيد واشنطن لمتطوعين إسلاميين للجهـــاد ضد الاتحاد السوفياتي يعني أنها تدرّب مقاتلين جدداً في الوقت نفسه الذي تقوم بـــرعاية جهـــود متواصـــلة لجمع الأموال من مجتمعات مسلمة حول العالم. في الولايات المـــتحدة وحدها، كانت هناك عشرات مراكز التجنيد وجمع الأموال من أجل أفغانستان. بطـــريقة مماثلـــة، في الأراضي المحتلة الفلسطينية، كان الإسرائيليون قد توصلوا إلى اقتناع مفاده أنه بين كل الفلسطينيين، يمكن على الأقل تحمّل الإسلاميين.

كانت واشنطن تنفق مليارات في أفغانستان. بيّن شخص بارز في جماعة الإخوان المسلمين الفلسطينية في ذلك الوقت الأمر بالقول: "معظم الأحزاب الإسلامية في الوطن العربي لديها علاقات مع الإخوان المسلمين. كان الخليجيون ينفقون الملايين في محاولة لشراء الإخوان وقت نشوب الثورة الإيرانية [في العام 1979]. كانوا بحاجة إلى حصنٍ ضد طهران".

مراقباً الإقليم والعالم، كان بمقدور مشعل أن يشعر بالرضا. كان لدى الإسلاميين هامش للحركة في الأراضي المحتلة، وكان المحتلون الإسرائيليون يسمحون لهم آنذاك، بشكل لافت للنظر، بتنظيم أنفسهم وتلقّي مساعدات كبيرة من الخارج. كان المقاتلون الإسلاميون في أفغانستان، المجاهدون، يحصلون على تغطية إعلامية جيدة، والتي شرعنت جمع الأموال للإسلاميين في الشرق الأوسط، أوروبا، والولايات المتحدة. بالمقابل، أصبح ممكناً تماماً جمع أموال لفلسطين في ظل ذلك الجهد الأكبر لجمع معونات لأفغانستان، والذي كان يستهدف بنجاح مسلمين من الطبقتين الثرية والوسطى يعيشون في دول العالم الأول، لكنهم لا يزالون يشعرون بضرورة أداء فريضة الزكاة.

كان الجزء الوحيد المفقود من الصورة أمام مشعل هو إمكانية تحرك الإخوان المسلمين بحرية في الكويت، بحيث يستطيع وخليته المكوّنة من حوالى عشرة زملاء إسلاميين العمل بأنفسهم من دون قيد. لكن في هذا السياق أيضاً، كان النظام الكويتي يتحرك في الاتجاه الذي يريده مشعل.

كانت الكويت تعتمد على اللاجئين الفلسطينيين، الذين كان لهم تأثير كبير على تطور تلك الإمارة الصغيرة، التي تم تصنيفها، في وقت ما، بأنها رابع أغنى بلد في العالم[5]. كان أول الأفعال الكويتية المبكرة بعد اكتشاف آبار النفط في العام 1936 استقدام مدرّسين من فلسطين[6]. بتعطّشهم التقليدي للتعليم وحاجتهم الماسّة إلى ملاذ في العام 1948، ومجدداً في العام 1967، كان الفلسطينيون قوة عمل جاهزة للكويت، وهو ما جعل بالمقابل الإمارة واحدة من أكثر مجتمعات الشتات الفلسطيني تماسكاً ونشاطاً[7]. عندما تباهى الفلسطينيون بالمساهمة التي قدموها للإمارة، أثنى أمير الكويت الشيخ جابر الصباح على ذلك بقوله: "كان البناء على أكتاف الفلسطينيين"[8].

لكن الفلسطينيين بقوا، بالرغم من امتنانهم لرفاهيتهم المادية في الكويت، يشعرون بأنهم غرباء. بعد عقود من وصولهم أول مرة، كتب محرر صحيفة *الوطن*

اليومـــية مـــساعد الصالح بفظاظة: "ننظر إليهم كغرباء"[9]. ازداد القلق الكويتي بعد نـــشوب أزمـــات جديدة في أنحاء الإقليم، سواء أكانت أيلول الأسود في الأردن أو الحـــرب الأهلية اللبنانية، حيث كان عرفات الجامح طرفاً فيها. كانت هناك شكوك بأن الفلسطينيين ربما يحاولون إثارة قلاقل في الكويت[10]. قلقين من تعريض وظائفهم أو حقـــوق إقاماتهم للخطر، استمر العديد منهم في تقديم تبرعات للقضية الفلسطينية[11]، لكـــنهم أحجموا عن القيام بأنشطة علنية فقد خضع أولئك الذين شاركوا فيها لمراقبة السلطات.

في الـــستينيات، تم وصـــف حضور الإخوان المسلمين في الكويت بأنه غير ذي أهمـــية من قبل دبلوماسيين ووكالات استخبارات أجنبية[12]. لكن بعد تهديد عرفات للسلطة في عمّان والنتيجة الدموية لذلك في العام 1970، اختار أمراء الكويت النوع نفـــسه مـــن الضمانة الذي لجأ إليه ملك الأردن حسين. لقطع الطريق على ليبرالية يـــسارية ناشـــئة بين الكويتيين أو أي ضغط من الفلسطينيين العلمانيين، سمح النظام للإخوان المسلمين بأن يمدّوا جذورهم في المجتمع. كان ذلك اتفاقاً مهماً والذي تضمّن إنـــشاء شـــركة استثمار برأسمال قدره مليار دولار سيصبح لاحقاً مركز شبكة من المؤســـسات الـــتجارية، الاجتماعية والخيرية الإسلامية. في وقت لاحق، سيتم اتهامه بتمويل منظمات إسلامية تلجأ إلى العنف في المنطقة[13].

كان على الفلسطينيين العمل بحرص، وكان معظم نشاطهم يتم سراً. بحث كلا المعـــسكرين العلماني والديني عن أعضاء لتوسيع قاعدتي دعمهما، ومن أجل التمويل، الـــذي كان يُقال للمانحين إنه مخصص للعمل الخيري في الأراضي المحتلة. كانت فتح تجنّد بكثافة طلاباً منذ عقدين، وقد حافظت على تفوّقها بقوة.

وســـط الـــصخب الـــذي رافق رحلة السلام التي قام بها الرئيس المصري أنور الـــسادات إلى القدس في العام 1977، كان خالد مشعل قد ترأّس قائمة من المرشحين الإســـلاميين الـــذين تحدّوا ما كان سابقاً حكراً على فتح في انتخابات اتحاد الطلاب الفلسطينيين. كما كان الشبان الغاضبون من الإخوان المسلمين يرون الأمر، تعرضت محاولتهم لاختراق ذلك المستوى المنخفض من بنية السلطة الفلسطينية لمكيدة مباشرة مـــن قبل رجال عرفات. قام أنصار الرجل العجوز، الذين كانوا لا يزالون يسيطرون علـــى الاتحاد، ببساطة بإلغاء الاقتراع. استخف مشعل بالأمر: "لم تكن الانتخابات

حقيقة لأن عرفات كان يقرر دائماً من يتولى المسؤولية. إنهم يعتقدون أن كل المؤسسات تخص فتح... [و] ينتابهم القلق من إمكانية فوزنا"[14].

مستفيداً من معرفة كانت قد أثارت إعجاب أسد عبد الرحمن، كان مشعل يجد متعة بالغة في المنافسة الأيديولوجية القوية بين الفصيلين، وقد تفوق على أنصار عرفات في مناظرات جامعية كانت تنتهي أحياناً بمشاجرات عنيفة بين المتنافسين[15]. عاقدين العزم وبمرور الوقت، انفصل أعضاء الكتلة الإسلامية ليشكّلوا هيئتهم الطلابية المستقلة؛ الجمعية الإسلامية للطلاب الفلسطينيين، التي أصبح مشعل رئيسها. أثار ذلك تشكيل هيئات منفصلة عن اتحادات الطلاب الفلسطينية التي كان يسيطر عليها عرفات في كل أنحاء الشتات. انتشرت فروع لجمعية مشعل الدينية الجديدة في الإقليم وفي مجتمعات لاجئين في الولايات المتحدة، ألمانيا الغربية، والمملكة المتحدة. بالمقابل، أضحت فروع الجمعية تلك مقراً لجماعات دعم واسعة، مثل الجمعية الإسلامية من أجل فلسطين، التي باشرت أعمالها في الولايات المتحدة في العام 1981.

أصبح خالد مشعل منشغلاً بما وصفه *بناء وتنويع المؤسسات* لما كان يراه آنذاك *مشروعاً قومياً إسلامياً من أجل فلسطين*[16]. استطاعت عدّة وكالات استخبارات في المنطقة أن تستنتج لاحقاً أن عمله في التدريس – خاصة الساعات الخاصة – كان غطاءً مفيداً فيما كرّس هو كل ساعة من عمله للمشروع[17]. لكن، بلباقة مفرطة، كان يبدو أن مشعل يعارض تماماً أي اقتراح بأن عمله كان مجرد غطاء لنشاطاته السرية، وبيّن قائلاً: "لم يكن دوري الآخر على حساب عملي في التدريس... [و] استقلت من التدريس في اللحظة التي كان فيها المشروع يتطلب المزيد من وقتي"[18].

استقال مشعل من مهنة التدريس في العام 1984. كان قد انتهى عندها من وضع البنية التحتية الأساسية لحركة سيتم إطلاقها بعد ثلاث سنوات فقط ضد القوات الإسرائيلية التي تحتل غزة والضفة الغربية. سيصبح مشروعه جهازاً عالمياً يمتلك عدّة ملايين من الدولارات، ومزوّداً بالسلاح والرجال، المال والدبلوماسية. سيصبح خالد مشعل قائده. مفسّراً ذلك النشاط لاحقاً، حدّد أصله: "كان البناء بالتوازي بين الضفة الغربية وغزة. لكن منصة الإطلاق كانت السياسات الطلابية في الكويت [حيث] مهّدت إجراءات سريعة الطريق لهذا المشروع الجديد".

بعـــد أن أصـــبح عـــوده صلباً نتيجة المشاجرات الجامعية وشعوره بالضيق من ســـخرية الفـــصائل العلمانـــية أن جماعة الإخوان المسلمين اختارت درباً سهلاً، مع إصرارها على الاهتمام بالحاجات الدينية والأخلاقية للفلسطينيين قبل أن تدخل في أي صراع مسلح، أعاد مشعل قراءة تاريخ الإخوان المسلمين.

ســـيدّعي أن جماعة الإخوان، وليس فتح، هي التي قدّمت للفلسطينيين المقاومة المـــسلحة. كـــان أعـــضاء في الإخوان من مصر قد حملوا السلاح ضد البريطانيين والصهاينة في الثلاثينيات والأربعينيات، وانبثق من صفوفهم مؤسسو فتح الذين أطلقوا منظمتهم من الكويت في الخمسينيات. كانت حجة مشعل أن فتح في الواقع مجموعة منشقّة، وقد انفصلت نتيجة إحباطها من الفلسفة التدريجية للإخوان. تباهى مبتهجاً: "نحن الجذر، وفتح مجرد فرع"[19].

زاعمـــاً امتلاك الجذور التاريخية للمقاومة المسلحة، أثار مشعل تحولاً جذرياً في تفكـــير الإخوان المسلمين. كان يرغب في استئناف الحرب. مجادلاً أن فتح استولت على مشروع الإخوان التاريخي، كان مقتنعاً آنذاك بعدم وجود تناقض بين القتال من أجـــل فلـــسطين وعيش حياة متديّنة[20]. حثّ الأصوليين على الانضمام إلى معركة اســـتعادة فلسطين كجزء من الوطن الإسلامي، *الأمة*. أصبح تحرير القدس ومقدّساتها عناصر أساسية في استعادة روح الإسلام. قال مدرّس الفيزياء الشاب لزملاء خليته من المفكّرين: "إنها أرض مقدّسة؛ أولى القبلتين كانت في القدس؛ إنها بلدنا، ووطن آبائنا. ينبغي أن يكون لنا دور في تحرير فلسطين"[21].

كـــان أنصار فتح ومنظمة التحرير الفلسطينية غاضبين آنذاك من ولاء الإخوان المـــسلمين الثابت للنظام الملكي الأردني بعد أيلول الأسود، ووصفهم المستمر لمنظمة التحريـــر الفلسطينية بأنها أداة في أيدي الأنظمة العربية المتصدّعة. كان الإخوان يرون أن حـــالات فـــشل وتراجع منظمة التحرير عقاب إلهي لطرائقها العلمانية. بالمقابل، ســـخرت منظمة التحرير الفلسطينية من الإخوان لبقائهم بعيدين عن الكفاح المسلح؛ وتابع قائدها توبيخ الإخوان والطلب منهم تحديد الوقت المناسب للكفاح المسلح.

ثم زاد الإخوان المسلمون الرهان. اتهمت الجماعة قادة منظمة التحرير الفلسطينية المنفيين بتبذير موارد ثمينة بالاشتراك في أزمات ونـــزاعات غير فلسطينية في الإقليم – بزيارة عواصم عربية يتم فيها اضطهاد إسلاميين، والسماح لأنفسهم بالتعامل مع قادة

الكـــتلة الـــشرقية والاتحاد السوفياتي الملحدين، فيما يخوض الفلسطينيون العاديون في الأراضي المحتلة حرب خنادق يجسّدها المسدس على ورك عرفات الذي يمشي مختالاً. في خـــضم ذلـــك كله، كان مشعل ينتقد متعمداً شخصاً يراه كثيرون في فتح رمزاً دنيوياً: ياسر عرفات.

كانـــت جماعـــة الإخوان المسلمين المصرية، بالفعل، البوتقة التي انبثق منها كل هؤلاء. في القاهرة في خلال الخمسينيات، كان عرفات شاباً غُراً يبلغ من العمر آنذاك ثلاثـــة وعشرين عاماً عندما انضم للمعركة. كناشط طلابـــي، كان قد نظّم عريضة مكـــتوبة بالدم، كوثيقة نيابة عن الفلسطينيين الذين تم ترحيلهم من أرضهم. في ذلك الـــوقت، لم يكـــن خالد مشعل قد ولد بعد؛ بالرغم من ذلك كان يشمّر حينها عن ساعديه استعداداً لحرب فلسطينية جديدة، وأوضح أنه ينبغي تنحية عرفات.

لم يكن مشعل وحيداً في الدفاع عن ضرورة استئناف الإخوان المسلمين للقتال. مـــنذ بداية العام 1980، كان بعض أعضاء الإخوان المسلمين، المحبطين من سياسات الحركة السلبية، قد انشقّوا عنها لتشكيل مجموعة قتالية صغيرة تدعى الجهاد الإسلامي الفلـــسطيني. في انتهاجهم لحملة جريئة من العمل لتحقيق هدف الإخوان بإقامة دولة إســـلامية، ألهـــب هؤلاء مخيلة إسلاميين شباب في غزة والضفة الغربية بنجاحهم، مما حـــثّهم علـــى تحـــدّي قيادة الإخوان كي توضّح لماذا كانت حركتهم الوحيدة بين التنظيمات الفلسطينية التي تعتقد بضرورة الامتناع عن اللجوء إلى العنف[22].

في الكـــويت، كانـــت مجمـــوعة تتفق معه في الرأي وتتألف من حوالى عشرة أشـــخاص مهـــتمة بدعوة مشعل إلى تحقيق اختراق تنظيمي يغيّر الصراع الفلسطيني. كانت هناك جهود مبكرة لربط بعض الجماعات الإسلامية في الشتات. سيعمل عشرة الكـــويت آنذاك على فكرة المدرّس لإقامة أول مؤتمر لوفود الشتات والداخل والذي ســـيقدّم استراتيجية الإخوان المسلمين الجديدة في مواجهة إسرائيل. كان مشعل هو الـــذي شكّل تفكيرهم الجماعي في وثيقة حثّت القيادة الإسلامية الرسمية في الكويت على قبول حملة المقاومة الجديدة.

في العـــام 1983، تقاطـــر حوالى ثلاثين وفداً من الداخل والشتات إلى عمّان، واســـتفادوا مـــن شبكة الإخوان المحلية الواسعة من الخدمات الاجتماعية، التعليمية، والدينية للتخطيط للجهاد تحت بصر إدارة المخابرات العامة للملك حسين. جاؤوا من

الـــولايات المـــتحدة، وأوروبا، والمملكة العربية السعودية، والخليج العربـــي. كان العرض الذي سمعوه من وفد كويتي قوي يحبس الأنفاس؛ لم يكن شيئاً أقل من هجوم شامل على ياسر عرفات، الرجل الذي يعتبره معظم العالم *السيد فلسطين*.

بـــشكل غـــريب، كان يبدو أن عرفات ينجو دائماً من الهزيمة والإذلال. كان القـــادة العرب قد اعتبروا منظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلـــسطيني وفـــتحوا مكاتبهم لها. تخطّى كارثة طرد منظمة التحرير الفلسطينية من الأردن في العام 1970، تأقلم مع حالات الغيرة المثيرة للشفقة والمصالح المتناقضة للقادة العـــرب، وأخمـــد احتجاجات من أولئك الفلسطينيين في الأراضي المحتلة الذين كانوا غاضبين من تدخّله في الشؤون الإقليمية بدلاً من التركيز على محنتهم المأساوية.

لكن في افتتاح مؤتمر عمّان السري، وصف مشعل عرفات بأنه قائد فاشل. وجّه اللوم إلى رجل فتح القوي لطرده من لبنان قبل سنة، والذي كما قال كان السبب في تـــراجع الكفـــاح المسلح الفلسطيني. سيقول بعد سنوات: "كان هناك قلق كبير في أذهـــان الكثيرين على مستقبل الحملة والوطن. لم يكن الأمر يتعلق بما يحدث في لبنان فقـــط. كانت هناك أحاديث متزايدة عن تفاوض من أجل التوصل إلى تسوية. كان ينبغي إطلاق نشاط بديل داخل الأراضي المحتلة. كان منوطاً بنا كإسلاميين مسؤولية تعـــويض ذلـــك؛ كان علينا تقديم نموذج جديد عن المقاومة يشكل مساهمة إضافية للمعركة مع إسرائيل"[(23)].

إذا كـــان هـــناك وقت مناسب لتقديم عرض عن الحساسيات الإسلامية المهملة للفلـــسطينيين، سيكون عندئذ. بعد نفي منظمة التحرير الفلسطينية وفتح بفاعلية عن المـــنطقة، بدا أن الحلم الذي راود العديد من الفلسطينيين مدة طويلة قد تلاشى. كان الفلسطينيون الإسلاميون في أنحاء الشتات قد نظّموا أنفسهم تقليدياً في الفرع الوطني مـــن الإخوان المسلمين لأي بلد لجأوا فيه. اقترح مشعل أن يتم جمع الفلسطينيين في كل فرع وطني ضمن مشروع فلسطيني عالمي تحتضنه حركة الإخوان العالمية.

أقرّ مؤتمر عمّان خطة مشعل الشاملة، التي اقترحت أيضاً أن يعمل الفلسطينيون الإســـلاميون في كل أنحاء المعمورة على جمع الأموال والمعونات من أجل القضية. إما لأنهـــا كانت متعاطفة مع الحركة دينياً، أو لأنها كانت منهكة من لعبة رمي الأطواق الـــتي لا تنتهـــي في سيرك عرفات، كان سيتم حث حكومات عربية وإسلامية، إلى

جانـب رجـال أعمال أثرياء، على تقديم كل ما هو ضروري لإيجاد بديل لعرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية. كان ينبغي حشد الإخوان المسلمين والإسلاميين في كل أنحـاء العـالم خلف حملة المقاومة الأصولية التي ستنأى بنفسها عن الفصائل العلمانية الفاشلة – في عيون الناس وأمام الله – كان ذلك جريئاً حقاً.

ذهب مشعل بعيداً في أسلوب حياته السري الجديد. بناءً على نشاطه الطلابـي المبكـر، كـان قد أصبح خطيباً معروفاً في مجتمعات الشتات، وهو دور منحه غطاءً لنشاطاته السرية الأخرى. كان قد دخل الولايات المتحدة، وأوروبا، ودولاً أخرى في المـنطقة بـصفة محاضر، فيما كان هدفه الرئيسي جمع الأموال وتأسيس البنية التحتية للجهاد القادم. بعد مؤتمر العام 1983 في عمّان، كانت كل نشاطات الإخوان المتنوعة المتعلقة بفلسطين تتم برعاية جهاز فلسطين ومقره الكويت؛ الذي منح مشعل سيطرة كبيرة على تمويل النشاطات في الأراضي المحتلة.

عـندما كـان مشعل يعيش تحت سقف والديه، كانت والدته قد تساءلت عن اجـتماعاته التي لا تنتهي؛ بالرغم من ذلك، كانت قرّرت أنه من الأفضل ألاّ تسأل عـنها[24]. لكنه عندما تزوج بأمل، شعر بحاجة إلى أن تعرف عائلة زوجته أنها تتزوج الحـركة أيـضاً. لم يكن دور الزوج في وضع الأسس لمقاومة متشددة معروفاً سوى لدوائـر محددة من الإخوان المسلمين، وبعد أن ائتمن كلاً من حماه وزوجته المستقبلية على السرية، اعتقد مشعل أن من اللباقة – والأدب – أن يكشف بعضاً مما يقع تحت غطـاء عمله في تدريس الفيزياء. نشأت العروة مع حماه مباشرة تقريباً، وأخذ صالح يـرى أن صـهره الجديد سيملأ فراغاً كان موجوداً في حياته مذ استشهد أحد أبنائه عندما كان يقاتل مع منظمة التحرير الفلسطينية في لبنان. قالت أمل لمشعل لاحقاً إنها كانت تصلّي لتحظى بزوج يعمل من أجل دينه والقضية الفلسطينية[25].

مـن أجل الحفاظ على عهدها بالتزام الصمت، سرعان ما وجدت أمل نفسها تحـضّر العـشاء بانتظام لواحد من أقوى الخطباء – الفلاسفة الإسلاميين في القرن – الشيخ عبد الله عزّام الأشعث – الملتحي[26]. بالرغم من أن مشعل كان قد ابتعد عن نشاطه الجامعي في الكويت، إلا أنه حظي بفرصة آنذاك لدراسة الدكتوراه مع تركيز علـى تعقـيدات الجهـاد العالمـي. كان عزّام يصبح بسرعة خبيراً في كل ذلك – المسوّغات الدينية، التجنيد، التمويل، وإدارة الأموال عند نقلها في حقائب، السياسة،

والدبلوماسية - لكن الأهم من كل ذلك أن عزّام كان يستطيع تعليم الصبر والتخطيط لشاب في عجلة من أمره.

كان عزّام يلعب دوراً تنظيمياً مهماً في النزاع الأفغاني، لكن وجوده في آسيا الوسطى كان خطأً. كان يعتقد أن أفغانستان تقدمت على فلسطين لسبب تكتيكي فقط يتمثّل بأن النزاع الأفغاني يمكن أن يؤدي إلى قيام دولة إسلامية حقيقية تكون رأس جسر فيما قد يصبح نظاماً عالمياً إسلامياً جديداً. في الوقت نفسه، جادل عزّام بأن القضية الفلسطينية خضعت لسيطرة العلمانيين - الشيوعيين والقوميين - إلى جانب من وصفهم بأهم *مسلمو الحداثة*[27].

مع ارتفاع نجم الإخوان المسلمين في الكويت، كان خالد مشعل مثل عدّاء تتابع، يتمركز وينتظر عزّام لتمرير العصا، ليستوعب أسلوب الأخير الأكثر تطوراً في إدارة الجهاد الخاص بفلسطين. بعد قيامه بعدّة زيارات إلى الكويت لجمع الأموال، أصبح عزّام زائراً منتظماً لمنزل مشعل. رداً على انتقادات هؤلاء الفلسطينيين الذين كانوا يدّعون أن عزّام يخوض الحرب الخطأ وأن عليه توجيه طاقاته الجهادية نحو الأراضي المحتلة، كان مشعل يعتذر نيابة عن عزّام، ويشرح أن الجهاد في أفغانستان يعدّ فرصة للعمل في وقت ليس للإسلاميين فيه دور قتالي في المقاومة الفلسطينية. أكّد عزّام ذلك في كتاباته: "أفغانستان... لا تعني أننا قد نسينا. فلسطين قلبنا النابض، وتأتي حتى قبل أفغانستان في أذهاننا، وقلوبنا، ومشاعرنا، وإيماننا"[28].

لطالما كانت فلسطين تستحوذ على تفكير عزّام. ولد الشيخ قرب بلدة جنين في الضفة الغربية في العام 1941، وكان قد فرّ بعد حرب الأيام الستة؛ أولاً إلى الأردن، قبل أن يصبح رحالة جهاد في المنطقة والعالم. أكبر بخمسة عشر عاماً من مشعل، كانت لديه روح قتالية ظهرت باكراً قبل ابن الحادية عشرة الذي هربت عائلته أيضاً من الاحتلال الإسرائيلي للضفة الغربية. كان مظهر عزّام مثيراً للاهتمام - كتفين عريضتين مع شعر أبيض يتخلل لحيته الطويلة الداكنة، كانت قدرته على التمييز بين الفروق الدقيقة في الصراع قد تكلّفه حياته أخيراً، لكن عزّام كان شديد التمسك بمبادئه مثل شعاره: *الجهاد والبندقية وحدهما - لا مفاوضات، لا مؤتمرات، ولا حوار*[29].

قاتل ذلك الرجل من جنين قبل أن يفكر في ذلك. لدى وصوله إلى الأردن كلاجئ، كان عزّام مفيداً في الحركة التي أعقبت حرب العام 1967 لدفع الإسلاميين

للقـــتال إلى جانب منظمة التحرير الفلسطينية[30]. بالاتفاق مع عرفات، تولى الإخوان المـــسلمون مـــسؤولية عدد من معسكرات تدريب فتح في وادي الأردن. داعياً إياها *قـــواعد الـــشيوخ*، درّب عـــزّام رجاله على الأسلحة قبل أن يطلق عمليات حرب عصابات إسلامية فقط ضد إسرائيل[31].

لكن مغامرته تلك كانت قصيرة الأمد. قال البعض إن إغلاق المعسكرات كان نتـــيجة الـــضغط المتزايد من حكومات أخرى، مثل مصر، على الإخوان[32]. لاحظ آخرون شيئاً تكتيكياً دقيقاً: مستشعرين إمكانية اندلاع اشتباكات أيلول الأسود التي كانـــت تلوح في الأفق بين النظام الأردني ومنظمة التحرير الفلسطينية، كان الإخوان مُلـــزمين بالـــتوقف حتى لا يصبحوا ضحية ولاءاتهم المتناقضة[33]. كإسلاميين، كان مـــتوقعاً مـــنهم الوقوف إلى جانب الملك حسين ضد عرفات؛ وكفلسطينيين، كانوا مُرغمين على دعم منظمة التحرير الفلسطينية ضده.

غيّـــر عـــزّام مساره. اختار دراسة الشريعة الإسلامية في الأزهر، وسار على درب ســـيجعله واحداً من أكثر العلماء المسلمين نفوذاً في العصر الحديث. كان من أطلق فتوى جعلـــت طائرات محمّلة بالمسلمين الشبان من الشرق الأوسط ودول المغرب تتوافد على أفغانـــستان، علـــى أرضية أن قتال الاحتلال السوفياتي لأرض إسلامية واجب إسلامي. انـــتقل إلى باكستان في العام 1980 وأصبح مثلاً أعلى ومستشاراً لأسامة بن لادن قبل أن يـــدخلا في صراع على السلطة والأفكار. كان عزّام من أنشأ مركز تجنيد بيشاور الذي استولى عليه بن لادن ليكون قاعدة لشبكة القاعدة التي يتزّعمها؛ وعندما احتاجت وكالة الاستخبارات المركزية إلى المساعدة في جمع الفصائل الأفغانية المتصارعة معاً، كان عبد الله عزّام من استعانت به الوكالة الأميركية[34].

لـــبعض الـــوقت، انتشرت أفكار عزّام بقوة نتيجة ملايين الدولارات التي كان يـــوزّعها بـــن لادن. عندما كانت هزيمة السوفيات تلوح في أفغانستان، حثّ عزّام القـــوات الإســـلامية هـــناك على التحول إلى فلسطين، لكن بن لادن، مع زمرة من المصريين الذين أرادوا إنهاء الحرب العالمية، تدبّروا تهميش عزّام في ذلك الوقت. خرج من مجالس القاعدة لأنه رفض إصدار فتاوى تحظر محاولة قلب الأنظمة الإسلامية.

أصبح عزّام عضواً حسّاساً في دائرة الجهاد العالمية لتجنيد الأفراد وجمع الأموال، خاصة في الولايات المتحدة[35].

لكن عزّام كان يجمع الأموال من أجل فلسطين أيضاً. في العام 1988، كان المتحدّث الرئيسي في مؤتمر للجمعية الإسلامية من أجل فلسطين في مدينة أوكلاهوما[36]. وصف مهندس الشبكة الإسلامية الأميركية الذي أصبح جزءاً من استراتيجية مشعل العالمية دور عزّام بأنه أساسي في بناء المشروع الفلسطيني، وبيّن قائلاً: "كانت التبرعات ضخمة. كان عزّام يعتقد أن الفلسطينيين الذين اكتسبوا خبرة في الجهاد الأفغاني ينبغي أن يعودوا إلى فلسطين للجهاد... كانت خطته بعد هزيمة السوفيات الانتقال إلى الأردن مع مقاتلين يختارهم بعناية ثم يرسلهم إلى الأراضي المحتلة". متذكراً الإثارة التي رافقت عمليات جمع الأموال في الولايات المتحدة، كشف قيادي بارز كثير الترحال من حماس في غزة: "كنت هناك عندما جمع عزّام 250,000 دولار في ليلة واحدة في نيوجرسي"[37].

كانت قلّة من الفلسطينيين الذين قاتلوا في أفغانستان معروفين لمراقبين إسرائيليين أو آخرين بأنهم عادوا إلى الأراضي المحتلة، باستثناء واحد منهم فقط. في العام 1986، اكتشفت السلطات الإسرائيلية خلية إسلامية صغيرة كانت قد جنّدت امرأة عمرها تسعة عشر عاماً كاستشهادية. لدى استجوابها، تبيّن أن صانع القنبلة كان مهندساً من بلدة طولكرم في الضفة الغربية، وقد كشف تفاصيل عن المعسكر الذي كان قد تلقى تدريبه فيه في أفغانستان، وعن مدرّبيه الذين كان بينهم، كما قال، عملاء من وكالة الاستخبارات المركزية[38].

في غياب مجموعة فلسطينية كان عزّام يتخيل أنها ستأتي من أفغانستان، كانت عملية تأسيس جهاد مسلح مرتبط بالإخوان المسلمين في الأراضي المحتلة تسير ببطء وربما تنتهي بكارثة. في مؤتمر عمّان السري في العام 1983، كان واضحاً أن إنشاء المشروع وإطلاقه سيتطلبان وقتاً. لكن، حتى إذا كان ذلك في أذهانهم فقط، سعى المنظّمون للحصول على مصداقية يحيكون من خلالها قصة ربما تنافس النسيج الثري لفتح والفصائل الأخرى.

كان أول من حفرا اسميهما على لوح شرف الشهادة من الإخوان هما جواد أبو سليمة وصائب ذهب[39]، وكلاهما من غزة وطالب في جامعة بير زيت في الضفة الغربية. لقي أبو سليمة وذهب حتفهما، وأُصيب عشرون آخرون بجروح، عندما تصدت القوات الإسرائيلية لمسيرة احتجاجية في تموز من العام 1986. كانت تلك

أولى الاحتجاجات التي يقرّها قادة الإخوان المسلمين على أمل تنفيس الغضب والمشاعر المكبوتة في صفوف أنصارهم الشباب.

كان الأكثر إثارة للاهتمام والأقل وضوحاً مهمة الإسلاميين العسكرية الأولى. مجهولة لمعظم الوفود، قرّرت حلقة ضيقة قبل مؤتمر عمّان إيصال أموال للشيخ أحمد ياسين في غزة لتدريب وتسليح مجموعات قتالية صغيرة من الإخوان. في أولى رحلاته لجمع أموال، حصل مشعل على مبلغ 70 ألف دولار نتيجة اتصاله بمجموعة من الكويتيين الذين كان ووالده يعرفاهم جيداً من العمل في المسجد في الكويت. في وقت كان فيه الإخوان المسلمون بأمس الحاجة إلى المال، تبرّع هؤلاء الكويتيون بسخاء استجابة لدعوة مشعل[40].

استعمل ياسين المال كما ينبغي. تم إرسال رجال إلى الأردن للتدرّب سراً، والاتصال بمورّدين غير قانونيين يمكنهم الوصول إلى مخازن الأسلحة الإسرائيلية[41]. على أي حال، واجه رجال ياسين المشترون جهتين ثابتتين في النزاع الفلسطيني: أشخاصاً من أبناء جلدتهم يتعاونون مع المحتلين، وعملاء الاحتلال الذين قدّموا أنفسهم بنجاح على أنهم تجار سلاح. كانت النتيجة اعتقال ياسين، الذي، بعد اتهامه بالتخطيط لتدمير دولة إسرائيل، تم الزج به في السجن.

في ذلك الوقت، كان الشيخ يشكل حالة فريدة لسجّانيه الإسرائيليين. لم يكونوا معتادين وجود إسلامي بين آلاف الفلسطينيين العلمانيين في عهدتهم. ترافقت تلك الحيرة مع اتهامات من فتح، التي كان لها مآخذ على الإخوان المسلمين: مع افتقارهم لأي سجل يوثّق هجماتهم على الإسرائيليين، كيف يمكن لهم نشر شائعات تقول إنهم يتسلحون في الواقع لقتال فتح، وليس إسرائيل؟ في الوقت المناسب، سيكون لديهم سجلهم الخاص من الأعمال التي تدل على طريقتهم في الجهاد، لكن، بعد أكثر من عشرين عاماً، بقي المستعرب الإسرائيلي الذي عمل في غزة في ذلك الوقت، شالوم هراري، مقتنعاً أن أسلحة ياسين كانت موجهة حقاً نحو فتح. أصرّ هراري: "كان قد حصل على الأسلحة منذ سنة، لكنه لم يكن يطلق النار علينا؛ كان هدفه فصيل عرفات"[42].

كانت تلك شائعات فتح المغرضة، كما أعلن الإخوان. على أي حال، ربما كانت تلك كارثة[43]. ستصبح آلة مشعل العالمية الجديدة لجمع الأموال والمساعدات

عنصراً أساسياً في الجهاد الجديد، لكنها ستواجه صعوبة كبيرة في عملها بغياب قيادة ياسين المميزة وإدارته الحكيمة لشبكات المجتمع الإسلامي في الأراضي المحتلة. تم الحكم علـــى ياسين بالسجن ثلاثة عشر عاماً بتهمة التخطيط لتدمير إسرائيل. لكن، بشكل مـــدهش، سيعود الخطيب بعد حوالى سنة إلى غزة، يجوب أزقّتها وطرقاتها القديمة في كرسيه المدولب القديم.

7

المشروع الفلسطيني

كـــل يوم، بعد انتهاء أبناء جباليا من دراستهم، كان يمكن العثور عليهم خلف مبانٍ يحطمون الحجارة إلى قطع صغيرة يمكن رميها بسهولة. كانوا يتخذون بعد ذلك مواقعَ عند تقاطعات أشد مخيمات اللاجئين بؤساً وأكثرها اكتظاظاً بالسكان في غزة. في ذلك اليوم بالذات، كانت مواجهتهم الأولى قصيرة وسريعة. كان الهدف مجموعة مـــن الجنود الإسرائيليين الذين يقومون بإصلاح الأسلاك الشائكة التي تحيط بمنشآت عـــسكرية. خـــلال ثوانٍ، خرجت ناقلتا جند مدرعتان من المبنى نحو طرقات المخيم المـــوحلة. ســـارتا بالاتجاهين، مثل فيلين غاضبين، لكن حجارة الأطفال سقطت مثل مطر غزير. طاردهم الجنود سيراً على الأقدام، لكن من دون حماسة.

اســـتمر الصغار في الاستفزاز. بكل تأكيد، في خلال ثلاثين دقيقة كانت هناك معـــركة تدور رحاها. شكّل مزيد من ناقلات الجند الإسرائيلية المدرّعة تعزيزات. ثم أخرج الإسرائيليون واحدة من ابتكاراتهم الخاصة: مدفع حجارة. في أرضٍ كان فيها الـــرجم عقابـــاً تقليدياً، كانت قوة الاحتلال قد ابتكرت آلة يمكنها إطلاق حجارة بسرعة وقوة أكبر من قوة أي طفل.

مـــنح المبتكـــرون لهذا السلاح الوحشي اسماً غريباً *دبابة الحجارة*. كانت ماسورتها واسعة القطر تبرز من علبة مدرّعة في مؤخرة عربة دولاباها الأماميان تقليديان؛ فيما يلتف حـــول دولابيها الخلفيين جنـــزير، مثل دبابة. في الداخل، كان ممكناً رؤية جنود يقومون بتعبئة صناديق من الحجارة في وعاء متصل بآلية الإطلاق. كان مداها حوالى مئة ياردة[1].

كانت *دبابة الحجارة* تسيطر على المشهد كله، وتقذف بالغبار وقطع الصخور. لم يكـــن الجنود يكترثون لازدحام الطريق بحوالى مئة من تلميذات المدرسة الابتدائية العائدات إلى منازلهن لتناول الغداء. كانت كل حجرة تزن حوالى عشر أوقيات وتهبط حـــولهن، خارج الطريق وتخترق أسقف المنازل. لقد حثّت الفتيات الخائفات الخطى بحثاً عن ملاذٍ آمن.

لكن *الشباب*، كما يُطلق عليهم، وقفوا بثبات وكشفوا عقم الآلة. مُظهرين شجاعة جديرة بالاحترام، سار فتيان يافعون بعمر عشر سنوات واثنتي عشرة سنة في خط متعرج لتفادي قصف الحجارة، واستعدّوا لشن هجومهم الخاص. أخيراً، أغلق المشبك الحديدي على النافذة الأمامية لإحدى مركبات الدعم الإسرائيلية. أسفرت عدّة أحجار أخرى عن تحطيم النافذة الأمامية، وتم إرغام المركبة و*دبابة الحجارة* على الانسحاب.

ارتفع الهتاف عالياً، وشاركت به الفتيات وبعض الأمهات اللواتي كنّ يعبرن الطريق. هبّ الجميع آنذاك إلى العمل: الأمهات، الفتيان، والفتيات جميعاً قذفوا الحجارة، ابتهلوا لله، وشتموا رئيس الوزراء الإسرائيلي آنذاك. صرخوا: "شامير، أخرج من هنا يا كلب!".

كانت هناك بعض الإصابات الطفيفة. أخيراً، تم اعتقال سبعة أطفال ومراهقين، وغادر الباقون لإنجاز فروضهم المنزلية. كان ذلك يوماً آخر في السنة الثالثة من حرب الحجارة.

رسمياً، أصبحت تلك الثورة التي استمرت ستة أعوام الانتفاضة. انفجرت كحملة عنيفة من المقاومة الشعبية - العصيان والإضراب، المقاطعة والاعتصام الأهلي - لكن رماة الحجارة هم الذين أثاروا اهتمام العالم بأزمة أخذت تراوح مكانها منذ عشرين عاماً، وتنزف مرة على الأقل في حياة كل جيل. في العام 1948، كانت حرب استقلال إسرائيل (النكبة)؛ في العام 1967، حرب الأيام الستة (النكسة)؛ وفي العام 1987، كانت تلك هي الانتفاضة الأولى. في ست سنوات حتى نهاية العام 1993، قتلت قوات الأمن الإسرائيلية ألفاً ومئة فلسطيني[2]. لقي مئات آخرون حتفهم على أيدي إخوانهم الفلسطينيين على خلفية اتهامات بالتعاون مع قوات الاحتلال[3].

بعد عقود من الإهمال والاضطهاد من جانب المحتل الإسرائيلي، وفشل ممثلي منظمة التحرير الفلسطينية، لم يعد بوسع الفلسطينيين بعد ذلك كبت غضب عارم بوجه حملة إسرائيلية قاسية من العقاب الجماعي للمقاومة الفلسطينية - سجن واحتجاز أعداد كبيرة من الناس؛ مصادرة الأراضي وتدمير المنازل؛ منع التجول والنفي؛ ضرائب قاسية وحرمان اقتصادي - كان لا بد من وجود صمّام أمان.

كانت الانتفاضة احتجاجاً على القمع الإسرائيلي وفشل عرفات، ومنظمة التحرير الفلسطينية، والحكومات العربية في تقديم ما هو متوقع منها. كانت لغة فصيل فتح الذي يهيمن عليه عرفات غنية، قاسية، ومبالغاً بها؛ إلا أنها بالرغم من ذلك لم تحقق شيئاً. كلاجئين وسجناء في منازلهم، كان الفلسطينيون قد تمسكوا بالمكان وبالهوية وترعرعوا على الإحساس بهما. رفض العالم الاعتراف بذلك، لكن مجرد شعورهم بأنهم أمة جعلهم يتماسكون تحت الاحتلال.

كانت النتيجة أن آراء قيادة منظمة التحرير الفلسطينية المنفية والبعيدة قد فقدت مصداقيتها. كان المزيد من المستوطنات الإسرائيلية البغيضة ينتشر مثل فيروس في أرضهم. في الوقت نفسه، كانت هناك حملة سياسية جديدة وبشعة في إسرائيل تدعى ترحيل، وتؤيد نقل الفلسطينيين من الضفة الغربية وغزة بالقوة إلى شرق نهر الأردن، ووضعهم في عهدة الملك حسين؛ بالتالي نقل المشكلة.

اندلعت الشرارة الأولى للانتفاضة نتيجة حادث مروري في غزة في كانون الأول من العام 1987. كان القطاع يشهد توتراً ملحوظاً. في الأيام السابقة، كانت المعنويات مرتفعة نتيجة هروب ستة مقاتلين فلسطينيين من سجن في غزة يخضع لإجراءات أمنية مشدّدة، ومقتل ستة جنود إسرائيليين في معسكر للجيش الإسرائيلي شمالي البلاد بعد وصول قاتلهم الفلسطيني إلى وسطهم باستعمال طائرة شراعية. لكن كان هناك غضب أيضاً من موت أربعة فلسطينيين في مواجهة دامية مع القوات الإسرائيلية. كان هناك توقع أيضاً بأن تتخذ إسرائيل خطوات صارمة لأنها أوضحت للغزّاويين بأن الهاربين من السجن ربما يكونون خلف سلسلة جديدة من الهجمات على الإسرائيليين. تضمنت تلك الهجمات اغتيال ضابط شرطة عسكرية إسرائيلي بارز، هو النقيب رون تال، وقبل يومين من الحادث المروري، شهدت ساحة فلسطين في مدينة غزة موت تاجر البلاستيك الإسرائيلي شلومو ساكال طعناً بالسكين.

في 8 كانون الأول، جنحت شاحنة يقودها إسرائيلي عمره عشرون عاماً ويدعى هرتزل بوتشوفزه نحو حركة السير بالاتجاه المعاكس قرب موقع أمن إيريز المكتظ بالناس على الطرف الشمالي لقطاع غزة. توفي أربعة عمال فلسطينيين وتعرّض سبعة آخرون لإصابات في الحادث. كان ثلاثة من الضحايا من جباليا القريبة، أكبر المخيمات الثمانية البائسة وأكثرها اكتظاظاً باللاجئين الفلسطينيين في غزة. ترافق

وصـــول أنباء الحادث إلى المخيّم مع سريان شائعة لا أساس لها من الصحة أن سائق الشاحنة الإسرائيلي شقيق شلومو ساكال، وأن الاصطدام المريع لم يكن حادثاً، وإنما عمل انتقام مدبّر.

انفجر الغضب المكبوت أولاً في جباليا ثم انتشر مثل النار في الهشيم ليشمل كل قطاع غزة قبل أن ينتقل إلى الضفة الغربية. خرج الرجال إلى الشارع، وخلفهم تماماً، نـــساء وأطفال. كذخيرة ضد جيش يمتلك دبابات ومدافع، اقتلعوا حجارة الأرصفة واستعملوا صناديق القمامة. مزّق رجال كانوا في الماضي قد هابوا السلطة الإسرائيلية قمصانهم آنذاك واندفعوا في الشوارع عاريي الصدور. تجرأ الإسرائيليون على إطلاق النار[4]، وبعد أن فعلوا ذلك، كانت كل جنازة مثل صرخة قوية للناس لكي يخرجوا إلى الـــشوارع، وللمزيد من الشركات كي تغلق أبوابها تحدّياً لأوامر إسرائيلية بإبقائها مفتوحة، ولرمي المزيد من الحجارة على قوة أجنبية كانت قد فرضت نفسها على كل مظاهر حياة الفلسطينيين.

أراد الجمـــيع امتلاك الانتفاضة. لكن في الحقيقة، كانت ثورة عفوية عبّرت عن غضب دفين وفاجأت الجميع؛ إسلاميين وعلمانيين، فلسطينيين وإسرائيليين على حدٍّ سواء.

في تـــونس، درس عـــرفات الموقف بدقة. ظهرت عوامل قلقه المعتادة: ما هي التداعـــيات علـــى قيادته؟ كيف يمكنه السيطرة على مثل تلك الأحداث المتفجرة من بعـــيد؟ كان ذلك غير متوقع أبداً، وغير مخطط له؛ ولم يكن أحد من أعضاء القيادة المنفية قد أمر به أو حتى توقعه[5].

حالمـــا بـــدأت الانتفاضة، أساء معظم الناس تقدير قوتها. منحها محمود عباس، الـــرجل الـــذي سيصبح بعد وفاة عرفات لاحقاً قائد فتح، *شهرين أو ثلاثة*[6]. بعد أســـبوعين فقـــط، قدّم شموئيل غورين، المسؤول الذي أشرف على وضع استراتيجية إسرائيل التي تقضي بالتعامل مع الإسلاميين في مكيدة لتقويض سلطة منظمة التحرير الفلسطينية، تقريراً قال فيه إن الشعب منهك؛ كان كله يحتضر[7]. مرتبكاً آنذاك، اتخذ عـــرفات قـــراراً كـــان نموذجياً لما فعله دائماً في مثل تلك الحالات: سيسير مع رماة الحجارة، ويرى إلى أين قد يأخذونه. في ليلة 10 كانون الأول عام 1987، بثّت إذاعة منظمة التحرير الفلسطينية، التي كانت تتخذ من بغداد مقراً لها آنذاك، صوته الأجش

فـيما كان يحثّ على الثورة[8]. لم يكن عرفات يعرف أن أيادي أخرى أيضاً تعمل لإحكام السيطرة على الاحتجاجات.

قـبل لـيلة، كان سبعة رجال قد التقوا في منـزل آيل للسقوط في منطقة جورة الشمس في غزة – منـزل الشيخ أحمد ياسين – بعد الزج به في السجن في العـام 1984، لم يلـبث الخطيب كثيراً في زنـزانة سجنه الإسرائيلي حتى أُطلق سراحه في تبادل للأسرى تم من خلاله تسليم 11,50 فلسطينياً مقابل ثلاثة جنود إسـرائيليين كانـت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين – القيادة العامة بقيادة أحمد جـبريل تحتجـزهم[9]. كـان بين ضيوف ياسين طبيب، وصيدلاني، وأكاديمي، ومهندس، ومدرّسون. اتفقوا جميعاً على أن الوقت قد حان لإشهار حركة المقاومة التي وضعوا أسسها في مؤتمر عمّان السري للإخوان المسلمين قبل أكثر من أربعة أعوام.

وقّـع الإسلاميون أولاً بياناً يحث على الثورة لكن لم يتم إعلانه حتى 14 كانون الأول، بعـد أربعـة أيام من بث خطاب عرفات الإذاعي[10]. اختاروا اسم حركة المقاومة الإسلامية – اختصاراً حماس. كان ياسين وقادة الإخوان الأكبر سناً مترددين، وقـرّروا الإعـلان عن منظمة واجهة خشية أن يعرّضوا جماعة الإخوان المسلمين أو المركز الإسلامي الذي يديره ياسين بعناية لمواجهة شاملة مع الإسرائيليين. لكن بالنظر من بعيد في الكويت، استنتج خالد مشعل أن ما كان يصبح الانتفاضة يشكل "لحظة مناسبة لإعلان مشروع يولد آنذاك"[11].

قدّر شالوم هراري أن الحادث المروري القاتل عند إيريز كان عود الثقاب الذي أشـعل قـشاً مكدّساً. قال: "بدأت الانتفاضة الأولى بأسلمة الشوارع. كنا نستطيع رؤيتهم يفرضون أيديولوجيتهم وطريقة عيشهم. سيطروا على الشوارع وأحرقوا محال المـشروبات وقـتلوا الغانـيات – المئات منهن – كان عرفات يرسل خلاياه لقتل إسلاميين بارزين؛ وكان الإسلاميون يضربون ويطعنون نشطاء فتح".

كـان الإهمال الإسرائيلي لحاجات الفلسطينيين الأساسية في حياهم اليومية قد تـرك فـراغاً استغلته جمعيات ياسين الخيرية. باستعمال الأموال التي كانت ترسلها مـنظمة خالـد مشعل الخارجية، كان الإسلاميون يبنون المدارس ورياض الأطفال، ويقدمـون حـصص الطعـام وقروضاً للطلاب. في مجتمعات خالية من المخدرات،

والبغاء، والقمار أصبحت المساجد التي يسيطر عليها ياسين أماكن للسياسة كما هي أماكن للعبادة. باستثناء لوحات سياسية ودينية، كان الإعلان محظوراً تماماً.

كـــان هـــراري قد قدّم تقارير بكل تلك التغييرات الجذرية والمخاطر التي كان وزملاؤه يروها آنذاك في الإسلاميين، لكنها كانت تمر مرور الكرام. قال: "إن لم يكن هـــناك دمـــاء وأزمة، لن تكون هناك نتائج سياسية، عسكرية، أو أمنية... وفي تلك المرحلة، لم يكن الإخوان المسلمون يطلقون النار على أحد بعد"[12].

تم ذكـــر حمـــاس أول مرة في وسائل إعلام أجنبية في العام 1988 عندما نقلت أسوشـــيتد برس شعاراقا التي ظهرت على أسوار مدينة غزة[13]. كان عرفات حينها ثائراً تعب من الحرب بعد ثلاثة عقود من الصراع الذي اتّسم بفوضى عارمة. نشرت حمـــاس ميثاق *عدم الاستسلام* في آب من تلك السنة، قبل بضعة شهور فقط مما رأت أنه صك استسلام من قائد فتح: اعترافه بدولة إسرائيل وإدانته للعنف.

قـــرأ مشعل الموقف بأن عرفات كان يرمي بآخر أوراقه. بالتوازي، كان إعلان قائـــد فـــتح عن قيام دولة فلسطينية في الأراضي المحتلة فقط، بدلاً من كل فلسطين التاريخية، غير ذي جدوى. إلى جانب عدم قدرة عرفات على السير على الأرض التي أعلـــن اســـتقلالها، لم يكن الكثير من مواطني دولته يستطيعون الاحتفال لأنهم كانوا خاضعين لحظر تجول إسرائيلي[14].

أول مـــرة تم فـــيها اقتباس كلام شخص يتحدث نيابة عن حماس كان في وقت إعـــلان الميثاق تقريباً، عندما أطلق الشيخ محمد أبو طير، رجل دين شاب متشدد في القـــدس، تحذيـــراً ضد إسرائيل عبر صفحات *شيكاغو تريبيون*، قائلاً لمراسلها ستيفن فـــرانكلين: "لـــن نترك لهم حبة تراب واحدة"[15]. كان عنوان *تريبيون*: **الأصوليون يجدون محراباً فلسطينياً**.

هذا ما كان. بذلت حماس ومنظمة التحرير الفلسطينية جهوداً لتفادي النـــزاع الـــذي سرعان ما أصبح فتّاكاً. لبعض الوقت، كان التظاهر سيد الموقف عند التعامل مـــع وســـائل إعلام ناطقة بالإنكليزية. لكن الفصيلين كانا يهاجمان بعضهما بقوة في حـــروب كرّاســـات عـــربية في الأراضي المحتلة وعلى صفحات الصحف العربية في المـــنطقة. لم يكن أحد فوق الشبهة. تكبّد تقرير داخلي مفصّل لحماس عن مستشفى جديد في جنين، في الضفة الغربية، عناء تحليل الولاء الإسلامي لكل فرد يعمل فيه –

سواء أكان عضواً في الحركة أو متعاطفاً معها - والذي كان يتم تصنيفه بعدها على أنــه *أخ*، *جيد*، أو *يميل لنا* قبل أن يستنتج واضع التقرير أن القوى الإسلامية تسيطر على المستشفى ولجنة العمل الخيري المحلية التي قامت بتمويله[16].

بالرغم من جهود عرفات المتواصلة للتعاون مع حماس، فإن ياسين بقي متحفّظاً بعد أن سار أنصاره على درب الحرب ضد فتح وبالقدر نفسه ضد الإسرائيليين. ورد في تقريــر تقييم إسلامي للأوضاع في جنوبــي غزة في العام 1992: "يتآمر عرفات وأتــباعه ضدنا... يتفق الجميع أنه ينبغي مواجهة ومعاقبة فتح، وأن أعضاءها يختبئون في أوكارهم... ينبغي أن نكون مستعدين وجاهزين مع... أسلحة"[17].

رفــضت حمــاس الاشتراك في قيادة الانتفاضة الموحّدة التي أنشأتها كل فصائل مــنظمة التحرير الفلسطينية. كان عرفات يعيق دائماً مستوى التمثيل الذي تطالب به حماس ثمناً لانضمامها إلى منظمة التحرير الفلسطينية، ويدّعي أن حماس الناشئة تحاول الــسيطرة على أقوى هيئة في كل التاريخ الفلسطيني. كان التنسيق بين الفصائل على الأرض محدوداً[18]، لأن حماس أصرّت على تمييز وإدارة أعمالها الخاصة في الانتفاضة.

في غــضون ذلك، كانت سلطة ياسين تتسع. وبينما كانت المؤسسات المدنية المحــدودة في الأراضي المحتلة تنهار، كانت الحشود تتجمّع عند منــزل ياسين يومياً، تستلهم منه الإرشاد الروحي، وتطلب منه التوسط في تسوية النــزاعات. لجأ عرفات إلى قيادة الإخوان المسلمين في مصر لتكبح جماح هذه القوة الجديدة الخطيرة، لكن من دون جــدوى. كانت الانتفاضة ثورة جعلت حماس تتحدّى بشكل خطير ما كانت مــنظمة التحرير الفلسطينية تدّعيه منذ وقت طويل بأنها تجسّد وحدها أحلام الشعب الفلسطيني.

اجــتمعت آنــذاك عناصر متعددة متنوعة من التنظيمات الإسلامية - سياسية، إعلامــية، أمنــية، شبابية، وأحدثها، الأسرى الذين تحتجزهم إسرائيل - تحت راية حماس[19]. أدار خالد مشعل خزانة الحرب من الكويت.

كانــت وسيلة الاتصال الرئيسية الشعارات المكتوبة على الجدران: رسائل وتعلــيمات عبر الكتابات على الجدران، التي يقوم بطلائها شبان مقنّعون لتفادي حظر إسرائيلي على الرسم. أطلق عليها السكان المحليون اسماً مستعاراً هو صحيفة وول ستريت.

تم تـــشكيل الجناح العسكري لحماس في العام 1991 تحت اسم كتائب القسّام، تيمـــناً برائد المقاومة سوري المولد الذي كانت خُطبه خلال الثلاثينيات في حيفا قد ألهـــبت مـــشاعر والد مشعل. بعد سلسلة من عمليات الطعن القاسية، المعروفة باسم حرب السكاكين، وكان اعتقال إسرائيل لحوالى سبعمئة فلسطيني يشتبه بعلاقتهم مع حماس قد دفع الكثير من أنصارها للعمل سراً[20]. كانت خلايا كتائب القسّام الأولى قـــد انبثقت من صفوفهم. كان هؤلاء الأعضاء الأوائل مؤمنين ويرون أن ليس لديهم ما يخسرونه.

كانـــت أسلحة حماس الأولى مشتراة أو مسروقة من الإسرائيليين، أو تم تهريبها إلـــيهم. بعـــد عـــدّة اشتباكات نارية، ظهر أن إحدى عمليات حماس الأولى كانت اســـتعمال أداة متفجرة، والتي قتلت مارين كيملمان وهي سائحة كندية في السادسة عشرة من العمر، على شاطئ تل أبيب في العام 1990. استنتج محققون إسرائيليون أنه تم تجميعها من الكبريت، الفحم، ومواد ملتهبة، وقد فجّرها موقت من غسّالة قديمة.

تبـــنّت الحـــركة الجديـــدة التكتـــيك نفسه الذي استعمله الجيش الجمهوري الأيـــرلندي، وأنكرت أي علاقة عملياتية بين جناحيها السياسي والعسكري. كانت قاســـية مـــثل الجيش الجمهوري الأيرلندي مع كل من يساند أعداءها. أصدر ياسين أوامـــر صارمة بحق أولئك الذين يتعاونون مع المحتلين الإسرائيليين: "أي مخبر فلسطيني يعترف بالتعاون مع السلطات الإسرائيلية، اقتلوه مباشرة"[21].

اتخـــذت إســـرائيل إجراءات صارمة فوراً. كانت فتح ومراقبون آخرون قد فسّروا مجـــدداً ظـــروف الاعتقال المخففة التي خضع لها مئات من شخصيات حماس البارزة بأنها إثـــبات على مدى التعاون المبكر بين الإسلاميين وقوات الاحتلال الإسرائيلي. كان أربعة مـــن الرجال السبعة الذين حضروا اجتماع إطلاق الحركة في منـــزل ياسين بين المعتقلين الـــذين زاد عددهم على المئة في بداية 1988. بيّن مراقب في غزة في ذلك الوقت: "كانت الشخـــصيات الإســـلامية الرئيسية موظفون بارزون في الإدارة أو يدورون في فلكها. من خـــلال التنظيم، كانوا قد عرّفوا عن أنفسهم بأنهم مستوعب لأشخاص يعارضون فتح أو هم مستعدون لتقويضها. كانوا يستطيعون آنذاك التجمّع بالمئات"[22].

استناداً إلى عمق تنظيمي ولوجستي مذهل، كشفت حماس عن فوائد سنوات من التخطـــيط المـــسبق عندما تحدّت كل محاولة إسرائيلية للقضاء على قادة الحركة. في

أوقـــات معينة، كان لديها ما يصل إلى أربعة مستويات من قادة الظل، وعند القضاء علـــى أحـــد المستويات، كان التالي يأخذ مكانه - يمتلك القدرة نفسها، لكنه أكثر تـــشدداً مـــن ســـابقه - يتذكـــر قائد بارز في ذلك الوقت لاحقاً: "كنا نتوقع أنهم ســـيحاولون إلحـــاق الضرر بنا بموجات من الاعتقالات، لهذا كان علينا امتلاك ذلك الكـــادر الـــرديف. كان مهماً جداً لنا أن نعلن دائماً عن وجود قائد جديد بعد يوم واحد فقط من مقتل أو اعتقال أي شخص"[23].

أثـــارت إسرائيل تنديداً عالمياً بها بتصعيد الأمور في العام 1992 عندما اعتقلت مئات معظمهم من قادة حماس، قيّدتهم بالأغلال معصوبـــي العيون، قبل أن ترمي بهم في ثلـــج الـــشتاء في مرج الزهور على الطرف اللبناني من حدود إسرائيل الشمالية. ظهرت عواقب ذلك العمل غير المتوقع مجدداً. عالقين خارج إسرائيل والأراضي المحتلة بقـــوة النيران الإسرائيلية، خيّم المنفيون على سفح جبل مكشوف طيلة حوالى سنة، ورفـــضوا الانـــتقال من حيث يمكنهم على الأقل رؤية أرضهم. ضمّت حتى أميركا صـــوتها إلى حملـــة، حققـــت نجاحاً أخيراً، في الأمم المتحدة وأماكن أخرى، تطالب بالسماح لهؤلاء بالعودة إلى منازلهم.

أصـــبحت محنتهم مشهداً لافتاً يمكن من خلاله للكوادر التلفزيونية تقديم حماس إلى العـــالم. مع أعضاء بأعمار تتراوح بين ستة عشر إلى سبعة وستين عاماً، تضمنت المجموعة سبعة عشر محاضراً جامعياً (يحمل العديد منهم درجة الدكتوراه)، أحد عشر طبيـــباً (كان بعضهم اختصاصيين بارزين)، أربعة عشر مهندساً، ستة وثلاثين رجل أعمال، وخمسة صحفيين. بالإضافة إلى ذلك، كان هناك أكثر من مئة طالب جامعي ومئتي إمام ملتحٍ[24].

تـــساءل عـــبد السلام المجالي، وهو مسؤول أردني كان يزور واشنطن في ذلك الـــوقت، ما إذا كانت إسرائيل تحاول ابتكار وحشٍ خاص بها. في اجتماع في البيت الأبيض، قال المجالي للرئيس جورج بوش: "إذا كانت إسرائيل تعتقد أن حماس جماعة إرهابية ولبنان ملاذاً للإرهاب، لماذا أرسلت رجال حماس إلى لبنان؟"[25].

كان ذلك سؤالاً وجيهاً. كان حزب الله، حركة المقاومة الشيعية، راسخ الجذور عـــندها في جنوبـــي لبنان ولديه خبرة كبيرة في أعمال المقاومة. أكّد عضو بارز من حمـــاس في غـــزة لاحقاً أن المنفيين تلقّوا تدريبات من نظرائهم في حزب الله؛ تقنيات

عسكرية بشكل عام، لكن بشكل خاص، تعليمات بشأن استخراج متفجرات من معدّات حربية قديمة واستعمال مواد كيميائية متوفرة لتحضير عبوات ناسفة محلية الصنع. "كان رجالنا مثل الإسفنج. كان الترحيل نقطة حاسمة فقد منحنا تجربة مشتركة مع حزب الله"[26]. بعد خمسة عشر عاماً، قال عيسى النجار، أحد السبعة الذين كانوا قد التقوا في منزل ياسين في غزة، متحمساً بشأن نتيجة غير متوقعة تخصه: "كانت تلك هي المرة الأولى التي أرى فيها الثلج!"[27].

توقف ياسين عن العمل لنيل الحرية فجأة في العام 1989. عندما أسرت خلية جديدة من حماس جنديين إسرائيليين وأعدمتهما، اعتبرت إسرائيل أن ياسين كان مصدر التعليمات والأموال لتلك العملية. بعد استجواب مطوّل، الذي ادّعى ياسين أنه تضمن تعذيبه وابنه عبد الله البالغ من العمر ستة عشر عاماً[28]، صدر حكمان بالسجن على الخطيب - مدى الحياة وخمسة عشر عاماً إضافية. ونظراً لصحته الواهنة وعمره، كان مُقدّراً لياسين الموت خلف القضبان.

كان الرئيس جورج بوش يظن أن كل شيء بخير عندما أوى إلى فراشه مساء 1 آب 1990. في أول تقرير تلقاه من وكالة الاستخبارات الأميركية عن حشد صدّام حسين لحرسه الجمهوري، كان الرئيس واثقاً من أن القوات العراقية، بعد حرب قاسية استمرت سنوات مع إيران، منهكة للغاية لتجازف بغزو الكويت[29]. ثم، في اللحظة الأخيرة، غيّرت الوكالة رأيها، وحذّرت من أن الهجوم كان وشيكاً. راغباً في الحصول على المزيد من النصائح، قام بوش بإجراء عدد من الاتصالات الهاتفية مع الشرق الأوسط، وتكلم مع الرئيس المصري، والملكين السعودي والأردني، وأمير الكويت. قالوا جميعهم لبوش إنه يستطيع الركون إلى الراحة. كانوا يعتقدون أن صدّام لن يجرؤ على غزو جارته الجنوبية الصغيرة[30].

لكنه فعل ذلك. في مدينة الكويت، استفاق والد مشعل الشيخ عبد القادر ليجد أن الدبابات والقوات العراقية اجتاحت بلد منفاه في الساعات التي سبقت الفجر وسيطرت على الدولة كلها في غضون خمس ساعات فقط. بعد خمسة وعشرين عاماً من الغزو الذي أخرجه وعائلته من الضفة الغربية، أخذ عبد القادر يتجول آنذاك في الشوارع المليئة بقوات عراقية مسلحة وسط عمليات سلب ونهب للمنازل، والمصارف، والشركات الكويتية[31].

في الساعات الأولى التي أعقبت اقتحام العراقيين لحدود الدولة، كانت قافلة من السيارات الفارهة قد حملت مئات من أفراد العائلة الكويتية الحاكمة إلى الطائف الخصبة الوادعة، وهو منتجع جبلي فخم يقع في الجهة الغربية البعيدة من المملكة العربية السعودية[32].

كان الشيخ عبد القادر قد عاش في الكويت نصف حياته، وفاطمة والأولاد الآخرون عاشوا فيها أكثر من عشرين سنة. كان سيتم رميهم على قارعة الطريق مجدداً. كانت الدولة طيلة أكثر من ثلاثة عقود بقعة لتعايش رائع: احتياطيات النفط الكبيرة في الكويت مع المهارات الإدارية والمهنية للفلسطينيين الذين كانوا قد أصبحوا العمود الفقري للاقتصاد. كان بينهم ياسر عرفات الشاب. طيلة عقود، كان الفلسطينيون قد حوّلوا مئات ملايين الدولارات سنوياً إلى عائلاتهم مباشرة وإلى أقرباء آخرين كانوا لا يزالون رازحين تحت الاحتلال الإسرائيلي للضفة الغربية وقطاع غزة.

لكن آنذاك، كان عرفات يُفسد كل شيء. في حين كانت أكثر مغامراته طيشاً كقائد لشعب يقاتل غزو واحتلال أراضيه، دسّ عرفات أنفه في هذه الأزمة الجديدة إلى جانب صدّام، المعتدي الذي تسبب غزوه للدولة بخوف واشمئزاز عواصم عربية أخرى كانت منظمة التحرير الفلسطينية تعتمد عليها للحصول على معظم تمويلها. لم يقم قائد منظمة التحرير الفلسطينية سواء بإدانة الغزو أو إطلاق دعوة واضحة لانسحاب العراق منها.

بعد انتهاء القتال وعودة العائلة الحاكمة الكويتية، في شباط 1991، أدّى موقف عرفات إلى عدم الترحيب بالفلسطينيين بعد ذلك في الكويت. بقي أقل من 10 بالمئة من اللاجئين الفلسطينيين الأصليين البالغ عددهم أربعمئة ألف أو سُمح لهم بالعودة. كجنسية، اعتبرهم السلطات الكويتية آنذاك خطراً أمنياً. كان أولئك الذين بقوا في الكويت ضحايا لجماعات محلية قيل إنها كانت تحظى بدعم السلطات. كانت هناك تقارير عن عشرات عمليات القتل الثأرية، وألقى مراقبون دوليون بظلال من الشك على سلسلة من المحاكمات الصورية غير المقنعة *لمتعاونين* فلسطينيين[33].

بغياب خالد – الذي كان في إجازة في عمّان، مع أمل وأولادهما – وقع عبء اتخاذ القرار في عائلة مشعل على شقيقه الأصغر، المهندس ماهر. بفضل ثرثرة عرفات، كان لدى الفلسطينيين على الأقل غطاء لأن العراقيين الغزاة كانوا يعتبرونهم حلفاء.

منتهــزاً فرصـــة تـــوغل قوات الاحتلال العراقي في البلاد، نظّم ماهر بهدوء أشقاءه وشقيقته، وأمرهم بالاستعداد لإشارته بأن وقت الرحيل قد حان.

في فجر 16 آب، شكّلوا قافلة من أربع سيارات، وضعوا فيها أولادهم وأبويهم، وخـــرجوا بهدوء من مدينة الكويت على الطريق الوحيد المفتوح لهم شمالاً إلى العراق، قـــبل أن يتجهوا غرباً عند بغداد إلى عمّان. كانت الطرقات مليئة بقوافل الحافلات، والشاحنات، والسيارات المحمّلة بعرب وعمّال آسيويين خائفين يهربون من الكويت، والعراق، ودول مجاورة فيما كانت نُذر الحرب تلوح في الأفق.

عـــندما كـــان والداه وعائلته الكبيرة يهربون شمالاً، كان خالد مشعل يتحرك بالاتجـــاه المعـــاكس، محاولاً تفادي ما كان يبدو ضربة قاتلة لحماس. كان قد تم قبل ثلاث سنوات إماطة اللثام عن الحركة في الأراضي المحتلة، لكن مركزها السري كان يعمل من الكويت منذ حوالى ثماني سنوات. نظراً إلى علاقة عرفات الوثيقة مع صدّام، لم يكن مشعل ليخاطر باكتشاف العراقيين لمقر حماس في الكويت، أو إمكانية وصول الأموال، وقوائم المانحين، وملفات المنظمة السرية الأخرى إلى عرفات مكافأة له على تبرير ما لا يمكن تبريره في غزو صدّام.

تـــرك أمـــل والأولاد في عمّان، انتقل مشعل بالطائرة أولاً إلى بغداد ثم غيّر الـــسيارة ثلاث مرات في طريقه جنوباً إلى الكويت. زيادةً في التمويه، انضم إلى حفـــنة مـــن رجـــال الأعمال الفلسطينيين القلقين، الذين كان يعرف بعضهم، والعائدين إلى الدولة لمعرفة إن كان شيء قد تبقّى من تجارهم بعد عمليات السلب العـــراقية الـــتي حـــدثت في الأيام الأولى. وصلوا إلى مركز حدود صفوان قرب منتـــصف اللـــيل. كان حظر التجول العراقي قد دخل حيز التنفيذ فعلاً، لكنهم اجـــتازوا الحـــدود، وقطعوا المسافة الباقية ليصلوا إلى مدينة الكويت عند الساعة 2:30 بعد منتصف الليل(34).

تولى مشعل القيادة وعرض على المجموعة الإقامة معه تلك الليلة، ليضمن بذلك بقـــاءهم معه، والحفاظ في الوقت نفسه على غطائه. قرّروا أن القيام بمحاولة للوصول إلى حـــيه – الـــسالمية، التي كانت في منطقة وسط المدينة – خطيرة للغاية. بدلاً من ذلك، توجهوا إلى منـــزل إحدى خالات مشعل. كانت تعيش في الفروانية، المعروفة للسكان المحليين بالضفة الغربية بسبب تركز الفلسطينيين فيها، والتي كانت أقرب إلى

الطريق الذي يصل إلى المدينة من الشمال. كانت الخطة أن يبقوا في منزل خالته حتى يتم رفع حظر التجول.

كانوا عند آخر منعطف - كادوا يصلون - عندما اعترض طريقهم نقطة تفتيش عراقية. صدرت لهم أوامر بأن يرفعوا أيديهم، ويتوقفوا تحت تهديد السلاح، وكانوا على وشك أن يتم اعتقالهم قبل أن يقبل أفراد الدورية المنفعلون ادّعاءهم بأنهم فلسطينيون يحملون جوازات سفر أردنية، عائدون لتفقد سلامة عائلاتهم وأعمالهم. كان كل ذلك صحيحاً، باستثناء الرجل الملتحي من حماس، الذي كان سيعدّ صيداً ثميناً للعراقيين، إن هم عرفوا من يكون.

في اليوم التالي، وسط فوضى عارمة وخوف كبير، كان مشعل لا يزال يستطيع التحرك بحرية نسبية خلال ساعات رفع حظر التجول. أخذ سيارته من منزل عائلته قرب شاطئ البحر، ثم التقى على عجل بآخرين في القيادة السرية لحماس. لم يكن هناك الكثير من النقاش - كان صدّام قد انتهى للتو من حرب قاسية استمرت ثماني سنوات ضد النظام الإسلامي في إيران، وكان ياسر عرفات أحد أصدقائه القليلين في العالم - كانت الحقيقة الجديدة، كما وصفها مشعل، أنه لا مستقبل لحماس في الكويت تحت الاحتلال العراقي. تم فرز الملفات بسرعة، وتدمير ما لم يكن أساسياً لاستمرار العملية من مكان آخر؛ ووضع ما هو ضروري في سيارته من أجل رحلة العودة عبر الصحراء إلى عمّان.

كان سهلاً على حماس أن تعيد تمركزها في العاصمة الأردنية، وهو موقع رائع كقاعدة متقدمة للحركة خارج الأراضي المحتلة. خرج العشرات في حركة نزوح الفلسطينيين الكثيفة من الكويت. ربما كانت خلية حماس والإسلاميون العائدون يتصفون بالاعتدال، لكن بشكل عام كانت هذه الموجة من الوافدين الجدد تثير قلق سكان عمّان مع حاجتهم إلى السكن والعمل، والذين فرضوا في الوقت نفسه ما وصفه المحليون بأنه طرائقهم الخاصة؛ التسوق في النهار، تناول الطعام في الليل، والقيام بنزهات.

كان أول ما لاحظه العمّانيون عن وجود حماس في مدينتهم هو الموسيقى القوية في اجتماعات الحركة المناهضة للأميركيين، والتي جذبت حشوداً كبيرة إلى المدرّج الروماني القديم في عمّان فيما كان الائتلاف الذي تقوده الولايات المتحدة يشد الخناق على صدّام حسين قبل تحرير الكويت في الأسابيع الأولى من العام 1991. ربما لم يكن

الملك حسين ليتساهل أصلاً مع مثل ذلك التصرف، لكن شعبه كان يناصر صدّام بقوة واقتصاده يعتمد على العراق بشدة، وكانت تلك إحدى المناسبات النادرة التي استنتج فيها أن سلامة عرشه أهم من الرعاية الأميركية.

سرعان ما أصبحت المدينة محوراً لحماس. كانت آنذاك إحدى العواصم حول العالم التي تُستعمل قاعدة للعمليات من قبل الدكتور موسى أبو مرزوق، رئيس المكتب السياسي لحماس، الذي دفع دوره العلني في المنظمة الكثيرين في المنطقة لتسميته *السيد حماس*. ستصبح عمّان آنذاك قناة لجمع التبرعات من مسلمين في الولايات المتحدة، وأوروبا، والخليج العربي. كانت رأس جسر يتم من خلاله نقل السلاح إلى الأراضي المحتلة.

كان مجتمع اللاجئين الفلسطينيين في الأردن الأكبر في العالم، ويقدم عمقاً وغطاءً لعدد من النشاطات السرية. كانت الاتصالات مع الأراضي المحتلة ممتازة، وهناك راحة عاطفية ونفسية في القرب الجغرافي من فلسطين. في الوقت المناسب، ستصبح عمّان مركزاً لإيصال الأوامر التي تقضي بشن هجمات استشهادية مدمّرة ضد أهداف في إسرائيل.

رسمياً، لم يكن هناك سوى مكتب واحد لحماس في عمّان، المكتب السياسي بقيادة أبو مرزوق. لكن بعد أن وصل آخرون – معظمهم مواطنون أردنيون – من الكويت، تم افتتاح عدّة مؤسسات أخرى لا تحمل أسماء. أدار خالد مشعل ما بدا أنه مكتب تجاري عادي في شارع الحدائق، غربي المدينة، وكانت مطبعة ومكاتب الحركة الأخرى تعمل تحت جناح الإخوان المسلمين وجمعياتها الخيرية المتنوعة.

لكن، بطريقة ما، كانت حماس موجودة دائماً في الأردن لأن جذور الإخوان المسلمين كانت عميقة هناك. في ذلك الوقت، كان يبدو منطقياً تماماً أن يخضع مشعل لإشراف الأمانة العامة للإخوان الأردنيين. أساساً، كانت تلك حركة تجميلية للتغطية على نشاطات حماس الحسّاسة، مثلما كانت إقراراً باحتضان الإخوان الأردنيين الحماسي لخطة مشعل الجريئة قبل عقد تقريباً لإنشاء مشروع مخصص للفلسطينيين داخل الجماعة.

لكن مع التدفق المفاجئ لهؤلاء الإسلاميين عاقدي العزم إلى العاصمة الأردنية المريحة لهم، أصبح قصر الملك حسين حذراً ومتيقظاً. في الوقت المناسب، قرّر أنه

بحاجة إلى بعض الشد في علاقته مع الوافدين الجدد. في مرحلة ما مُنع أبو مرزوق، غير الأردني، من دخول البلاد. كانت الأعصاب مشدودة أيضاً بعد اكتشاف مخابئ أسلحة، بالرغم من أنها كانت تساوي حوالى 1.5 مليون دولار، إلا أنها كانت مخبأة في عدّة مواقع سرية في عمّان. تبعثرت مجموعة حماس حتى هدأت الفورة، كان أبو مرزوق في واشنطن في ذلك الوقت وانضم إليه بعض الآخرين هناك؛ وغادر مشعل إلى لندن، التي أصبحت قاعدته لبضعة شهور[35].

كانت هناك بعض الاعتقالات، وطاولت جميعها أشخاصاً من الضفة الشرقية، حيث يستمد النظام الملكي دعمه القوي. تم سجن هؤلاء الأشخاص ثم إطلاق سراحهم بهدوء، لكن ذلك العمل دفع نظام حسين للإصرار على وجود اتفاق رسمي لتنظيم عمليات حماس في المملكة. كان اختيار مكان لإقامة الاجتماع الذي سيتناول تلك القضية مسألة حسّاسة قليلاً، نظراً للأزمة بين حماس ومنظمة التحرير الفلسطينية، والتوتر الذي نشأ عن ذلك في مجتمعات اللاجئين الفلسطينيين في الأردن. قال أحد موظفي القصر البارزين في وقت مبكر من النقاش بشأن الأسباب الكامنة خلف الاجتماع المقترح مع حماس: "لا يمكننا الاجتماع بهم هنا [في القصر]. سيعرف الجميع، ينبغي أن يبقى الأمر سراً".

كانت المجموعات الفلسطينية المختلفة تُعتبر مثل العرب الرحَّل في المنطقة، يستضيفها قادة يتلاعبون بها لما فيه مصالحهم الخاصة. كان الأردن قد اكتوى بنيران استضافة عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية بعد حرب العام 1967 مع إسرائيل، لكن بقبوله لحماس، كان الملك حسين يعرف أنه يستطيع توجيه إهانة قاسية، وإن كانت متأخرة، لعرفات. في الوقت نفسه، كان يستطيع استعمال حماس كورقة في الدبلوماسية التي لا تنتهي لأزمة الشرق الأوسط.

قال المسؤول البارز من قِبل القصر الذي تم تعيينه للقاء حماس لزملائه: "كانوا بحاجة إلى قاعدة آمنة، وسيكون عليهم دفع ثمن للحصول على ذلك المكان هنا أفضل من أماكن أخرى".

كان اجتماعاً غير اعتيادي لإدارة شؤون الملك. كان العاج المحفور والحلي الفضية تزيّن مكتب مسؤول بارز، معتاد السفر إلى الخارج، وكانت شبكة النافذة الحديدية تطل على حديقة مورقة ربما تؤدي إلى أمن القصر. لكن عندما حان الوقت

لوضع قانون لرجال من حماس، تمت دعوهم إلى منــزل خاص في منطقة محمية جيداً وســط المدينة، حيث يستمتع مسؤولون بارزون وعائلاهم بحماية على مدار الساعة يفرضها طوق من الرشاشات المحمولة على سيارات جيب.

تم إرسال وسيط موثوق به بالسيارة لإحضار أبو مرزوق ومحمد نــزال، وكان أحــد أفــراد فريق حماس الآخرين الذين جاؤوا من الكويت. بعد تقييمهم، سيقدم مــسؤول القصر لاحقاً تقريراً بأن نــزال رجل عادي؛ رجل بدا محرجاً وغير ماكر سياســياً. بالمقارنة، كان أبو مرزوق داهية وسياسياً أكثر تميّزاً، إسلامياً بكل وضوح، لكن مع إدراك وفهم لما يجري في العالم[36].

جلسوا جميعاً في الضوء الخافت لمصابيح أرضية ضعيفة. فيما كانت شابة بدوية كحلاء العينين تنظر إليهم من لوحة إطار مذهّب فوق كتفه اليسرى، شرح المسؤول الــشروط الــتي يمكــن من خلالها شرعنة وجود حماس السري: "الأمر بسيط جداً، يمكنكم إنشاء مكتب معلومات وعلاقات عامة هنا، لكن لا يمكنكم فعل شيء يعرض علاقــة الأردن مــع إســرائيل للخطر... لا هجمات على الضفة الغربية، لا إعلان مسؤولية عن عمليات من الأراضي الأردنية، افعلوا ذلك من سورية أو قطر، إذا كنتم تــريدون ذلك. لا يمكننا تحمُّل ذلك؛ ولن نسمح به. إذا كنتم تريدون أن لا تكونوا أعداء لنا، افعلوا ما ننهاكم عنه!". لم يكن يريد جواباً مباشراً؛ وبدلاً من ذلك، سمح لهما بالانصراف ليفكّرا في تحذيره. ذكّرهما قائلاً: "نحن مع أي صوت يطالب بالحقوق الفلسطينية. اذهبا وفكّرا في هذا، وعودا مع التزام ثابت".

كــان نــزال هو الذي اتصل به في خلال أيام لقبول شروط الملك. حالما تم إبــلاغ حسين، وقّعت حماس وثيقة كانت قد أعدها إدارة المخابرات العامة. كانت حماس *مقبولة* آنذاك رسمياً.

كانــت نتائج الأزمة الكويتية سيئة لكل من الملك حسين وياسر عرفات، عدوه القــديم. كــان كــل منهما، لأسبابه الخاصة، قد وقف مع صدّام حسين في غزوه للكــويت، ودفــع كل منهما الثمن. في الولايات المتحدة، اهم الرئيس بوش الملك حسين بأنه *خائن*[37]، وتوقفت المساعدات عن الوصول من الخليج العربــي التي كان الملــك يعتمد عليها، في حين كان يحاول معالجة مشكلة ثلاثمئة ألف فلسطيني تدفقوا إليه من الخليج بحثاً عن منازل ووظائف.

كان عرفات في القارب نفسه. قطع العديد من مؤيديه التاريخيين تدفق الأموال إليه، الأمر الذي استفادت منه حماس كثيراً[38]. بالرغم من ذلك وملتزمين بدعم القضية الفلسطينية، حرّر العديد منهم شيكات لحماس إقراراً بشيئين. الأول، أن حماس لم تكن منظمة التحرير الفلسطينية؛ والثاني، أنها كانت ذكية بما يكفي لتبنّي مقاربة حذرة لغزو صدّام للكويت. عارضت حماس حشد جيوش بقيادة الولايات المتحدة في أراضٍ عربية، لكنها بخلاف عرفات عارضت أيضاً غزو الكويت.

لم يكن لدى حماس، على أي حال، وقت للاحتفال. عاد عرفات للوقوف على قدميه فقط بعد أن اجتاح تسونامي الأمل الشرق الأوسط بعد توقف الأعمال القتالية في الكويت. بدا أن قراراً من البيت الأبيض لتجديد البحث عن سلام *قابل للعيش* سيُكتب له النجاح - مبدئياً، على الأقل - قبل انقضاء العام، ذهبت الوفود إلى طاولة مؤتمر في مدريد، ثم إلى محادثات مكثّفة في واشنطن.

وصل المفاوضون إلى طريق مسدود، لكن في ذلك الوقت تدخل الدبلوماسيون النرويجيون بهدوء وفتحوا قناة ثانية سرية بين عرفات والإسرائيليين. كان من نتيجة ما سيصبح اتفاقية أوسلو الاتفاق على عودة عرفات إلى غزة قائداً لشعبه. في البداية، كان سيسيطر على القطاع فقط؛ ولاحقاً، على قطع صغيرة من الأرض حول مدينة أريحا في الضفة الغربية، ثم على مراكز أخرى في الضفة الغربية، التي كانت ستصبح تحت سيطرته بموجب عملية معقدة من الحكم الذاتي.

كان ذلك حلاً سيئاً لمشكلة مستعصية. كان عرفات سيصبح رئيساً، لكن لم تكن هناك دولة. كان سيتم التعامل مع الأمور الجوهرية - التي توضح عادات شعبه وبلده - لاحقاً، وتتضمن عاصمة الدولة وحدودها. تم أيضاً تأجيل البت بموضوع المستوطنات الإسرائيلية، وحق اللاجئين أو أبنائهم بالعيش ضمن الحدود غير الموجودة لهذا الكيان الجديد. بالرغم من موطئ القدم الصغير هذا في الأراضي المحتلة، ألقى الاتفاق أيضاً على كاهل عرفات مسؤوليةً لم تستطع قوات الأمن الإسرائيلية بكل قوتها تحقيقها طيلة عقود، حتى عندما كانت تسيطر بالكامل على الأراضي المحتلة: إيقاف الإرهاب (وفقاً للتعبير الإسرائيلي)[39]. لكن عرفات خرج بانتصار لا يُقدّر بثمن. حتى الإسرائيليون، الذين كانوا طيلة عقود سابقة قد غضوا الطرف عن الإسلاميين على أمل تدمير عرفات، قبلوا آنذاك منظمة التحرير الفلسطينية باعتبارها الممثل الوحيد للشعب الفلسطيني.

بعـــد ذلك التحول، بحثت حماس وشبكة دعمها العالمية عن موطئ قدم جديد. كانـــت هـــناك جلسة نقاش مبكرة لنشطاء حماس في مكان أميركي غير متوقع على الإطـــلاق: قاعـــة الاجتماعات (ب) في كورتيارد ماريوت، وهو فندق غير معروف مـــبني من قطع طينية ملونة على مرمى حجر من مطار فيلادلفيا الدولي في بنسلفانيا. كان يجلس حول ما يدعوه موظفو الفندق طاولة الساحة الخاوية بعض من أهم ممولي حمـــاس. كـــان بين هؤلاء شخصيات بارزة من جهتين تدعمان حماس في الولايات المـــتحدة: الاتحاد الإسلامي من أجل فلسطين ومؤسسة الأرض المقدّسة، اللتان كانتا تجمعان ملايين الدولارات في الولايات المتحدة لمصلحة الحركة.

عـــند تخطيطه لذلك المؤتمر الفكري، الذي أُقيم في عطلة أول أسبوع من تشرين الأول 1993، حاول شكري أبو بكر الرئيس التنفيذي لمؤسسة الأرض المقدّسة إبقاء عـــدد المشاركين منخفضاً، خشية أن يلفتوا الأنظار إليهم. حذّر خلال مؤتمر هاتفي طـــويل مـــع اثنين من المشتركين: "عدد كبير، يا أخي، سيثير الشبهات... سيلفت الانتـــباه". قـــرّروا ألا يتجاوز عدد المشاركين ثلاثة وعشرين شخصاً، والذين كان علـــيهم أن يـــركبوا طائرات أو يقودوا سيارات من مدن مختلفة في الولايات المتحدة وكـــندا، كانت هناك ضرورة للإسراع بتنفيذ الأمر لأن الحجز المبكر كان سيمنحهم حسماً بنسبة 45 بالمئة على سعر غرف ماريوت[40].

كان ينبغي الإشارة إلى حماس بالرمز فقط؛ تم حفظ الكلمة في الأذهان، وكانت بسمة. مع بداية الجلسة الأولى، وبعد ذكر حماس، أصبح أبو بكر أكثر حدّة، وأصدر تعلـــيمات محددة. أنّبهم قائلاً: "رجاءً، لا تذكروا اسم بسمة صراحة. لقد اتفقنا على القـــول إنهـــا الأخت بسمة. وخشية أن يكشف أي منهم أنهم يجتمعون كأعضاء في حمـــاس، أضـــاف: "الجلـــسة هنا ورشة عمل مشتركة بين مؤسسة الأرض المقدّسة والاتحاد الإسلامي من أجل فلسطين. هذا هو الإطار الرسمي... أعني، من فضلكم، في حال سأل أحد"[41]. مرّت دقائق ثقيلة قبل أن يوبّخ أبو بكر زميلاً آخر نطق الحرف الأول مـــن الأحرف التي تشكل حماس ح – مجدداً، وقال له: "ألم نقل إننا لن نذكر الكلمة؟"[42].

داخـــل قاعة الاجتماعات (ب)، تحولت كل العيون نحو الأخ أبو أسامة، الذي كان قد عاد للتو من زيارة إلى الأراضي المحتلة، والتي تزامنت مع تغطية إعلامية واسعة

عن اتفاقيات أوسلو وعودة ياسر عرفات الوشيكة إلى غزة رئيساً للسلطة الفلسطينية، كما دُعيت الحكومة الفلسطينية الجديدة. ما تبع ذلك أصبح تحليلاً استمر ساعات طويلة، وكان كل شيء واضحاً في أذهان رجال حماس الجالسين حول الطاولة في فيلادلفيا. كان عبد السلام هو الذي عبّر عمّا كان يجول في بالهم: "هذا شيء جديد علينا جميعاً".

أحدهم وكان المشاركون في المؤتمر يخاطبونه باسم الأخ جواد اعتبر أن اتفاقيات أوسلو ليست سوى مكيدة من الإسرائيليين وعرفات الذين يعملون معاً لقطع الطريق على حماس وضرب الحركات الإسلامية في أماكن أخرى من الإقليم. تساءل عن القوة الكبيرة في أيدي قوات عرفات الأمنية، وتوقّع بدقة النتيجة المحتملة لذلك: "نحن على مفترق طرق تاريخي... ستتسع دائرة الأعمال الانتقامية ضد أفرادنا، ومنظماتنا، ومؤيدينا، ومساجدنا، وممثّلينا، ووسائل إعلامنا، وفتياننا، وفتياتنا، ونسائنا، [و] علاقاتنا مع إخوتنا في أقطار عربية أخرى"[43].

كانت قوة الشرطة بإمرة عرفات موضوعاً تكرر في النقاش. توقّع عبد الحليم الأشقر، بدقة أيضاً، أنه سيتم ضم حوالى خمسين ألف مؤيد لفتح إلى قوة عرفات الأمنية الجديدة. في ذلك، رأى الأخ جواد أن هناك أوقاتاً حالكة تنتظرهم: "عندما يمتلكون السلطة - علماً، جيشاً، أموالاً، وظائف، وهويات شخصية - ما الذي تتوقع أنه سيحدث؟ سيكونون مجرمين قتلة، يا أخي"[44].

تكلم الأخ جواد مطوّلاً، قبل أن يتوصل إلى فكرة واقعية لحركة مقاومة جديدة. ومحذّراً من أن واشنطن وعواصم أخرى قد تعتبر أن الأراضي المحتلة لم تعد *محتلة*، قال: "لن يكون لكم بعد الآن حق بالمقاومة. سيتم تصنيفها [المقاومة] بأنها إرهاب... كيف ستقومون بالجهاد؟".

حذّر من مواجهة حتمية بين حماس وقوات عرفات الجديدة في غضون عام، لكن النقاش استمر من دون توقف وشارك فيه الجميع حول فكرة أن أوسلو حرفت *مسار القضية*. كان مطلوباً جعل الاتفاق ينهار. كان ينبغي استغلال فشل السلطة الفلسطينية، اتهام قادتها بسرقة أموال الشعب، "تجريدها من ثقتها بنفسها". ثم، مسلّطاً الضوء على قدرة الحركة على مخاطبة ناخبين مختلفين في الوقت نفسه، بيّن أحد الحاضرين التحدّي الإعلامي الذي يواجهونه. كان ينبغي عليهم جعل الفلسطينيين

يشكّون بمصداقية وأمانة السلطة الفلسطينية، وأن يستفيدوا من أسباب قلق الوطن العربي بشأن سلامة المقدّسات الإسلامية في القدس، وأن تتركّز اللغة في الولايات المتحدة على "حقوق الإنسان، العدالة وأشياء من هذا القبيل".

كانوا يعتقدون أن لديهم ما يكفي في أطباقهم بينما كانت حماس، بكلمات أحد المندوبين، "تعيد ترتيب أوراقها". لكن لا، كانت هناك بعض الإثارة بشأن الإفطار. كان حسن، وهو شاب يافع، قد خرج لشراء بعض الطعام وسلك طريق العودة آنذاك إلى ماريوت، حيث كانت غرفهم تتوزع في الطابقين الثالث والرابع. في مكالمة تمت من غرفة إلى أخرى، أبلغ عمر أحمد يحيى المدير التنفيذي لمؤسسة الأرض المقدّسة، هيثم مغاوري أن حسن جلب لهم كعكاً محلّى. لم يعجب ذلك مغاوري، واشتكى قائلاً: "يُفترض أن نحصل على حُمّص وأطعمة مماثلة لتناولها على الإفطار والغداء. الكعك المحلّى لا يغني ولا يسمن من جوع"[45].

كان يُفترض أن مثل ذلك الكعك يشغلهم فقط لأنهم كانوا غافلين عن أزمة أكبر بكثير. في الواقع، كان مكتب التحقيقات الفيدرالي قد زرع أجهزة تنصت في المكان. تم تسجيل كل كلمة قيلت، في جلسات المؤتمر والاتصالات من غرفة إلى أخرى. كان مصوّرو المكتب في الجوار، يلتقطون صوراً للحاضرين في أثناء دخولهم وخروجهم. وبعد عدّة أيام، عاد محققو المكتب إلى ماريوت، أخذوا نسخاً عن إيصالات بطاقات الائتمان وفواتير غرفهم التي حصلوا على خصم خمسين بالمئة على أسعارها. حصل مكتب التحقيقات الفيدرالي على كل شيء، ما عدا قوائم الغسيل.

8

المهندس الملتحي في خلية نيويورك

عـــندما دق ناقـــوس الخطر بأن إرهابياً محتملاً يحاول دخول البلاد، كان الكثير معلقـــاً بما كانت ناديا العشّي قد أخفته بين ملابسها الداخلية عند وصولها إلى مطار جون أف. كنيدي الدولي. كان لدى زوجها موسى أبو مرزوق جواز سفر يبدو مثل لـــوحة مغـــادرة دولية. كان قد دخل وخرج من نيويورك مرات كثيرة في السنوات الخمـــس عـــشرة الماضية، ويعتقد أنه يعرف الروتين. لكن بالنسبة إلى ناديا وأولادها الستة، كان مبعث راحة لهم وصولهم إلى الولايات المتحدة بعد رحلة طويلة عبر لندن مـــن الشرق الأوسط. كانت والأولاد قد ركبوا طائرة من عمّان، فيما بدأت رحلة زوجهـــا من دبـــي. كانوا جميعاً مرهقين - كان يعالج نفسه من إصابته بالسكري، وكانت بحاجة إلى أسبرين - كان الأولاد متعبين.

كانـــت ناديـــا قـــد فازت ببطاقة خضراء في يانصيب دائرة الهجرة والجنسية الأميركـــية في العام 1990، وهو دورة حظ رسمية يتم فيها اختيار خمسين ألف مرشح محظـــوظ كل عام من قائمة أشخاص ينتظرون السماح لهم بالعيش والعمل في البلاد. نتـــيجة لـــذلك، أصـــبح أبو مرزوق أيضاً مؤهلاً للحصول على بطاقة مماثلة وكل ميزاتها - كانت فرصة من الذهب الخالص لمنفي فلسطيني لا دولة له، على ما يبدو - لم يتم إصدار البطاقة A41685264 إلاّ بعد أن قامت دائرة الهجرة والجنسية بالتحقق مـــن قانونية إقامة أبو مرزوق في الولايات المتحدة، كطالب ورجل أعمال منذ العام 1982. كـــان أربعة من أولادهما مواطنين أميركيين بالولادة، وقد عاد الوالدان آنذاك بعـــد أن أقامـــا بـــضعة أعوام في الشرق الأوسط، يخططان للحصول على الجنسية الأميركية وينويان شراء منـــزل في بروكلين.

كانت الساعة الحادية عشرة عندما حطّت رحلة الخطوط الجوية البريطانية 117 في صبيحة أحد أيام تموز 1995. كان المخرج 7 يعج بالنشاط عندما قاد أبو مرزوق عائلـــته إلى مركز فحص الجوازات. من خارج مكتب الموظف، لم يكن أبو مرزوق

يستطيع رؤية شاشة الحاسب عند فحص جواز سفره اليمني. لكن المزاج تغير عندما أبرز نظام مراقبة الإرهاب تطابقاً مع اسم وتاريخ ميلاد المهندس الفلسطيني. لم يتم طرح أسئلة، لكن تم انتزاع جوازات سفر العائلة وإرسالها بسرعة إلى مكان آخر، والطلب منهم الانتظار. أخيراً، رافقهم ضابط جمارك إلى سير دوّار حيث طُلب منهم أخذ حقائبهم الأربع. ثم قدّم شخصان لم يكن أحد من أفراد العائلة قد رآهما في خلال ساعات الانتظار الطويلة نفسيهما: العميلان جوزيف همل ومايكل تي. دوغرتي. كان مكتب التحقيقات الفيدرالي قد تكفّل بالقضية.

رافق العميلان أبو مرزوق إلى غرفة استجواب، حيث حققا معه لصلاته مع حماس. مع بداية العام، كانت واشنطن قد بدأت تضييق الخناق على حماس، وأعلنت أنها حركة إرهابية. كان الرئيس بيل كلينتون قد أصدر أمراً تنفيذياً لتجميد أصولها وحظر كل التعاملات التجارية معها والتبرعات لها[1]. راوغ أبو مرزوق قليلاً. أقرّ بأنه ناشط سياسي متوسط المستوى لكنه أنكر جمع أموال، تدريب أو تجنيد أشخاص نيابة عن الحركة في الولايات المتحدة أو الخارج. أنكر نقل أموال إلى حماس من الولايات المتحدة، بشكل غير مباشر على أي حال. لكن أبو مرزوق كشف فعلاً أنه كان ينتقل نتيجة انتهاء إذن إقامته في الأردن قبل شهرين بسبب علاقاته مع حماس.

استمرت تلك المواجهة الأولى الغريبة بين المهندس والسلطات الأميركية حوالى سبع ساعات. من العدل القول إن همل لم يكن يعتقد أن لديه إرهابياً كبيراً بين يديه، لأن أبو مرزوق، ربما عن غير قصد منه، منحه انطباعاً بأنه يتعامل مع مغفّل. عندما حان وقت تقديم وثائق المحاكمة، استعمل أبو مرزوق ومحاميه من نيويورك، الاستفزازي والمثير للجدل ستانلي أل. كوهين، لغة حادة في ردّهما على همل، الذي بالرغم من أنه لم يستعمل كلمة خبير في شهادته الخطّية، إلا أنه دلّ على ذلك ضمناً في تحديده لواجباته مع وحدة مكافحة الإرهاب في مكتب التحقيقات الفيدرالي. لكن حتى إذا استطاع المحامي وموكّله إحداث ثقوب في وثيقة همل لأحداث ذلك اليوم، إلا أنهما كانا غافلين على ما يبدو عن أن تهماً خطيرة تتعلق بالإرهاب، أعدّها محامون إسرائيليون، كانت في الطريق إليهما[2].

ربما كان خالد مشعل قد صدّق أنه يمتلك مشروع حماس. لكن موسى أبو مرزوق المتجول لم يكن يرى الأمر على تلك الحال. بصفته تلميذاً مخلصاً للشيخ أحمد

ياســين، معلّمه، كان أبو مرزوق يرى أنه يدير المكتب السياسي في عمّان نيابة عن الخطيب الأسير. في حروب أجنحة حماس الداخلية، كان مشعل كويتياً وغريباً؛ فيما كــان أبو مرزوق غزّياً ومن أهل الدار بالرغم من أنه كان بكل وضوح يعيش خارج غــزة. كــان ياسين قد رأى شيئاً مميزاً في الشاب أبو مرزوق عندما جلس مع أول مجموعة انتقاها الرجال الذين كان الخطيب قد وزّعهم بعناية بين حشود مسجد غزة بحثاً عن شبان موهوبين بعد حرب العام 1967.

في الــوقت المناسب، سيصبح أبو مرزوق شخصية بطولية في حماس. منذ بداية الثمانينــيات، كانت الولايات المتحدة موطنه، لكنه كان في حركة دائمة من الشرق الأوسط وإليه، يدير معظم شؤون حماس من منازله المختلفة في الولايات المتحدة – في سبرنغفيلد وفولز تشرش، الواقعة شمالي فيرجينيا على عتبة واشنطن وفي الساحة الخلفية لوكالة الاستخبارات المركزية في لانغلي القريبة – لم تستقر عمليات المكتب السياسي في عمّان إلاّ بعد أزمة الخليج 1990-1991.

تم إبعـــاد أبو مرزوق من الأردن في أيار 1995 لأن النظام هناك، بالرغم من الاتفـــاق الموقـــع بين الملك حسين والحركة الإسلامية، كان يتعرض لضغوط من إسرائيل والولايات المتحدة للعمل ضد حماس. في البداية، واجهت حماس إبعاد أبو مرزوق من الأردن برباطة جأش. تم استدعاء عدد من أعضاء المكتب لاجتماع في وزارة الخارجــية في عمّان لشرح الخيارات المحدودة المتاحة أمامهم بتعبيرات فظّة. إذا أثاروا مشكلة، وقد يؤدي ذلك إلى إلغاء الاتفاق الذي يعمل المكتب السياسي بموجبه في الأردن.

لكـــن، إذا أردنا قول الحقيقة، كان زملاء أبو مرزوق معتادين رؤيته يعمل من قاعـــات الانتظار في مطارات المنطقة والعالم أكثر من رؤيته خلف مكتب في عمّان. كانت الهواتف، أجهزة الفاكس، والبريد الإلكتروني كلها تعمل في العاصمة الأردنية. توقعـــوا أن يستمر أبو مرزوق بعمله كما في سابق عهده، ولم يكن هناك نقاش عن حاجة إلى تعيين بديل كرئيس للمكتب السياسي. لكن، عندما استكشف أبو مرزوق إمكانية إعادة توطين عائلته في المنطقة – في دول مثل الإمارات العربية المتحدة، مصر، أو الـــسودان – كانـــت الأنظمـــة تتردد في قبول مسؤول في حماس. عندما ضاقت الخيارات أمام أبو مرزوق، لاحت أميركا في الأفق.

كلما كان يُسأل، كان سميح البطيخي يتظاهر بالصدمة من الادعاء بأن الأردن ربمـــا يكون قد أبعد أبو مرزوق. باعتباره رئيساً لاستخبارات الملك حسين منذ بداية العام 1996، كان البطيخي ماهراً في القيام بمناورات تبدو عادية تماماً. بيّن لدبلوماسي أجنبـــي مبرراً تقريباً: "اسمع، لم يكن واحداً منا. لكن أن نطرده؟ أبو مرزوق؟ لا. لا. لا. لا!" توقـــف عن الكلام، أمعن في التفكير بينما كان يشعل سيجاراً صغيراً مفضلاً لديه، وأخذ نفساً عميقاً قبل أن يتابع. "لأنه لم يكن مواطناً أردنياً، طلبنا منه ببساطة ألا يعود إلى هنا... عندما كان في الخارج".

في إدارة المخابرات العامة، أو ما يدعوه المحليون المخابرات، تم تصنيف إبعاد أبو مرزوق ضمن خانة *إلقاء عظمة لكلاب تنبح*. خلال أي من الاجتماعات الدورية بين المـــسؤولين الأردنـــيين والإسرائيليين، كان الإسرائيليون يشتكون بمرارة بشأن وجود حماس في عمّان. سينقل مدير أحد أجهزة الاستخبارات العربية الذي كان قد سنحت لـــه فرصة لقاء ياسر عرفات عن رئيس منظمة التحرير الفلسطينية شكواه المريرة من وجـــود حمـــاس في عمّان. وعندما جاء الأميركيون إلى المدينة، عبّروا عن شكواهم المريـــرة، ونقلوا شكوى الإسرائيليين وعرفات المريرة بهذا السياق. عندما وصل *النباح* إلى مستوى معين، كان ينبغي إلقاء عظمة للكلاب[3].

كـــان سيبدو سيئاً أن يقوم الأردنيون بإبعاد بعض مواطنيهم المرتبطين بحماس، لهـــذا كان على غير الأردني أبو مرزوق أن يغادر حتى يبقى الأردن حليفاً مسؤولاً. كـــان اتفـــاق الملـــك مـــع حماس قضية شائكة. وكانت حملة مروّعة من العمليات الاستـــشهادية الـــتي نظّمتها حماس آنذاك في إسرائيل قد سلطت الأضواء على وجود مجموعة القيادة في عمّان، الأمر الذي جعلها تلعب في الوقت بدل الضائع. لكن كان لقضية إبعاد أبو مرزوق تأثير جانبـــي أكيد: أثارت نقاشات بين الوكالات الأميركية والإســـرائيلية بـــشأن إضافة اسم أبو مرزوق إلى قائمة دائرة الهجرة والجنسية لمراقبة الإرهاب في كل المراكز الحدودية للولايات المتحدة[4].

شخصية ماكرة، بشعره الأبيض وملابسه الأنيقة، ربما كان سميح البطيخي ثاني أقـــوى شخـــصية في كل الرابط بين الشرق والغرب الذي يشكل كوكتيل الأردن. للإشـــراف على عملية خداع مدهشة – في بلد يمكن وصفه بأنه لقاء صحراوي بين كافكـــا (فرانـــــز) وأوريل (جورج) – كان الملك حسين يحتاج إلى شخصية محلية

تحمـــي مصالحه في أثناء غيابه في زيارات دورية إلى البيت الأبيض وحضوره حفلات استـــقبال كان يستمتع بها كثيراً في لندن وعواصم أخرى. كانت تلك الشخصية هي البطيخـــي. إذا ظهرت مشكلة في أثناء وجود الملك في الخارج، كان يتم إحالتها إلى رئيس المخابرات العامة.

كـــان البطيخـــي يُسعد أولئك الذين يلتقي بهم اجتماعياً، لكن ملفات وتقارير مراقبـــي حقوق الإنسان كانت تضم معلومات مزعجة عن مصير بعض الذين كان يـــتم اقتـــيادهم إلى مقر قيادته على الطرف الغربـــي من المدينة. عندما تكلم ديف مانـــرز، رئـــيس محطـــة وكالة الاستخبارات المركزية في عمّان، عن إعجاب زوجته بالبطيخي، كان مفهوماً أنه يشير إلى السعادة التي شعرت بها في أثناء تناولها المشاوي في الصيف. عندما وصف مانرز البطيخي بأنه "أروع ضابط استخبارات في العالم"[5]، كـــان لكلماته وقع وتأثير كبيران. كان واضحاً أن مانرز لم يكن يشير إلى شبه رئيس المخابرات العامة بالممثل ستيوارت غرانجر.

لم يكن الملك حسين من صنف الطغاة الدمويين في المنطقة الذين كانوا يديرون دولاً بوليـــسية. لكـــن المـــدافعين عن الديمقراطية وحقوق الإنسان اشتكوا دائماً من قشعريرة تسري في أجسادهم عندما يغادرون عمّان، حاملين معهم تقارير أخرى عن اتهامات بالتعذيب وسوء المعاملة. لم تكن هناك حرية ذات معنى للصحافة، البرلمان، أو النقابات[6].

كانـــت إدارة المخابـــرات العامة توجّه عادة أعضاء برلمان الملك حسين بشأن الطـــريقة التي يصوتون بها، وليس قادة أحزابهم؛ وكان ممكناً احتجاز حتى شعراء مثل سمير قودة عشرة أيام لتحليل معنى قصائدهم قبل أن يتم سجنهم لعام[7]. كانت تقارير إدارة المخابـــرات العامة تتضمن تمحيصاً لطلبات شغل مناصب في الجامعات، وسائل الإعلام، والسلك الدبلوماسي.

كان تبرير النظام لكل ذلك، في بلد ملكي قبلي أكثر منه ديمقراطية مؤسساتية، أنـــه ينبغي موازنة حقوق الإنسان مع اعتبارات أمنية حقيقية. كانت مراقبة حركات مثل حماس تتطلب يقظة وحنكة كبيرتين. يتذكر كل الأردنيين تهديد عرفات للعرش في العام 1970، وكان كثيرون يفهمون اعتقاد النظام أن الأردن يقع في قلب إعصار إقليمـــي: صدّام حسين المصاب بجنون العظمة إلى الشرق؛ العنف المتفجر في إسرائيل

والأراضـــي المحتلة إلى الغرب؛ وإلى الشمال والجنوب، نظامان تختلف العلاقات معهما بين مد وجزر وفقاً للمزاج السائد.

لم تكـــن لدى حسين نية بالسماح للإسلاميين بالاستيلاء على السلطة. لكن، ضـــمن القـــواعد الـــتي كان قد وضعها، كان الإخوان المسلمون المعارضة السياسية الوحـــيدة المسموح لها بالعمل في الأردن. في بداية التسعينيات، كانت تسيطر على ما يقـــرب من نصف أفراد الشرطة العسكرية وكان لها عدّة وزراء في الحكومة. التزمت الجماعة بمعتقداتها لكنها قبلت على مضض إطار عمل الملك حسين لديمقراطية خاصة بدلاً من المواجهة، وحقّه بتعديل قانون الانتخابات وأي قوانين أخرى بما يراه مناسباً للـــسيطرة علـــى قوتها ونفوذها. كان الملك حسين يعتقد أن كلاً من المملكة العربية الـــسعودية ومـــصر قـــد فشلت في تعاملها مع الإسلاميين – الرياض، لأنها منحتهم تفويـــضاً مطلقـــاً لفعـــل ما يرغبون به؛ ومصر، بسبب تشدّدها وتكتيكات العصا والزنـــزانة في التعامل معهم –.

كان الملك الأردني يصرّ على وجود أرضية مشتركة للتعامل. كان يسجن مثيري المـــتاعب، لكن بالمعايير الإقليمية لم تكن حربه ضد المد الإسلامي المتصاعد قاسية، مما ميّـــزها عن سياسة غض الطرف من قبل السعوديين واليد الثقيلة للمصريين. لم يكن حسين يخاف الإخوان المسلمين، لكن كان على قيادتها العمل ضمن نطاق معين.

بالطبع، كان هناك سبب آخر لاستضافة حماس. في العام 1988، كان يبدو أن الملـــك حـــسين قد تخلى أخيراً عن أمله بضم الضفة الغربية إلى مملكته. لكن مصالح الأردن الوطنـــية كانـــت تتطلب منه الاستمرار في الجلوس إلى طاولة ما يدعى عملية ســـلام الـــشرق الأوسط. من أجل ذلك، بقي يكافح مثل مقاتل متمرّس على حرب العصابات، وفاز لأنه لم يخسر.

كان جيرانه يستغربون طريقة كلام الملك حسين معهم ومع الغرب بشأن طريقة الـــتعامل مع التيار الإسلامي. كانوا يذكّرون مبعوثيه بأن الأردن كان قد استضاف عـــبد الله عـــزّام، مطلق الفتوى المثيرة للجدل بإقرار الجهاد الأفغاني، وكان يذبل في زنـــزانات حسين علاّمة متشدّد مخيف آخر هو أبو محمد المقدسي، الذي كان يرعى في ذلـــك الـــوقت تابعاً ونـــزيلاً متعصباً لن يتم إطلاق سراحه في المنطقة إلى ما بعد الحرب التي قادتها الولايات المتحدة ضد العراق في 2003: أبو مصعب الزرقاوي(8).

لإسكات أصوات محلية، منح النظام الأردني وزناً لتلك الوافدة من الخارج. كان أحـد تلك الأصوات هو القسم العربـي لإذاعة مونتي كارلو، والتي كانت بوصفها فرعاً من وكالة الصحافة الفرنسية تقدم تقارير تعدّها الصحافية المدخّنة النشيطة للغاية رندا حبيب، التي كانت قد وصلت إلى قمة مهنتها منذ مقابلتها الأولى في العام 1972 مع ملك الأردن.

في الاجـتماع الأول معهـا، دخلت رندا حبيب التي كانت آنذاك في الأربعين من العمـر بهـدوء، خجولة نوعاً ما. كانت خريجة العلوم السياسية والإدارة، تعقص شعرها الأحمـر خلف رأسها، وكانت قوة معظم تقاريرها تعتمد على طريقة طوّرتها لقراءة ذهن الملـك حسين بتحليل تعليقاته وأفعاله التي تبدو عادية عند اتخاذه لأي قرار رئيسي. عندما كـان الأمر يتعلق بالسهولة التي تحصل بها على المعلومات من أولئك الذين حولها، كانت تبتسم وتقدم تفسيراً لذلك: "آه! تعرف الرجال الشرقيين!. يمكنك دائماً تحطيم صمتهم".

في منطقة كانت قناة الجزيرة الفضائية الجديدة لا تزال تتلمس خطاها فيها، كان كـثيرون يتوقفون في أماكنهم عندما يسمعون صوت رندا حبيب المميز على الموجة المتوسـطة لإذاعة مونتي كارلو. في العام 1991، عندما كانت تتناول طعام العشاء في مطعم في الموصل، شمالي عراق صدّام حسين آنذاك، أحضر النادل فتاة يافعة من المطبخ لتؤدي خدعة تتقنها، والتي كانت تقليداً ممتازاً لجملة إنهاء البرنامج التي كانت حبيب تشتهر بها: "هذه رندا حبيب من إذاعة مونتي كارلو في عمّان".

كانـت قـوة تقاريرها الإذاعية قد وصلت إلى مستوى جديد في العام 1989، عـندما أشـعلت زيادات الأسعار واتهامات بالفساد شرارة أعمال شغب عاصفة في مدينة معان، جنوبـي الأردن المتململ. وسط تعتيم إعلامي وقمع شديد للقلاقل في أثـناء تـواجد الملك في الخارج، خرجت حبيب على الهواء لتقول إن الشعب يحتاج ببـساطة إلى أن يسمع من ملكه لا أن يرى شاحنات محمّلة بالجنود تشق طريقها نحو المدينة. قدّمت الملكة نور للملك حسين النصيحة نفسها - بشكل شخصي[9] - لكن مسؤولي البلاط الغاضبين اتهموا رندا حبيب بالتحريض على الشغب الذي لقي فيه اثنا عشر شخصاً حتفهم وتم اعتقال عشرات آخرين.

كانت قد فعلت ذلك بطريقة ما. في المدة التي أعقبت ذلك، والتي تضمنت قيام الملـك بإجراء تعديل حكومي، وتنظيم أول انتخابات في البلاد منذ أكثر من عقدين،

انطلق بعض المحتجين شمالاً إلى عمّان لشكر مراسلة وكالة الصحافة الفرنسية، وقال لها أحدهم: "تقاريرك الإذاعية جعلتنا ننجح في ذلك!".

لم تكن سمعة رندا حبيب بتقديمها لتقارير جريئة وتواجدها في قلب الحدث مقتصرة على الأردن فقط. احتجاجاً على سجن أحد أقربائه في منتصف التسعينيات، استولى لواء عراقي على دبابة عسكرية وتقدم بها إلى سجن أبو غريب سيئ الصيت. قبل أن يبدأ الهجوم، توقف لإجراء مكالمة هاتفية عبر الأقمار الاصطناعية مع شخص كان يعتقد أنه سيقول للعالم ما يحدث في عراق صدّام: رندا حبيب.

لاحقاً، عندما أعدمت أجهزة صدّام الأمنية صهريه في شوارع بغداد، تلقت مراسلة في عمّان مكالمة هاتفية من شاهد عيان فيما كانت الرصاصات تنطلق نحو الرجلين. كانت تلك رندا حبيب أيضاً. وعندما توصل صدّام إلى اقتناع بأن عليه الاستعانة بمراسل أجنبي لتعزيز مصداقيته، كانت حبيب هي من لجأ إليها.

كانت كل تساؤلات، استفسارات، وتدخلات الملك حسين تتطلب جيشاً من الموظفين، ولم يكن هناك شيء متروك للمصادفة. افترضت رندا حبيب أن إدارة المخابرات العامة هي التي تراجع ملفاها باستمرار. كان تعرف أهم يسترقون السمع على كل المكالمات الهاتفية، وكشفت جهودهم لتجنيد بعض موظفي مكتبها لنقل تقارير عن آخر تحركاها وطريقة تفكيرها[10]. افترضت حبيب أن اختفاء بعض أغراضها الشخصية – صورة من مكتبتها، قطع حلي صغيرة من فوق مكتبها – بشكل غريب كان رسائل متعمدة حتى تعرف أها تخضع للمراقبة. حوّلت الأمر إلى تسلية، وكانت تترك نسخاً من وثائق حسّاسة في مكان تعرف سلفاً أنه سيتم العثور عليها فيه، فقط ليعرف هؤلاء أها تعرف أهم يراقبوها.

استطاعت حبيب افتعال مشكلات معهم لأها كانت تحظى بالحماية. مرة، عندما لامست الحدود الحمراء في أحد تقاريرها، اقترح البعض في إدارة المخابرات العامة تقديمها لمحكمة عسكرية. أوقفهم رئيس الوزراء آنذاك، مستغرباً: "هل أنتم مجانين؟ لا يمكن المساس برندا حبيب!"[11].

لم يكن آخرون يشعرون بالاطمئنان نفسه. اكتشفت مراسلة أخرى القوة الخفية لآلة إدارة المخابرات العامة بعد أن خضع عملها لتدقيق مسؤول بارز في الإدارة. قال لها: "المرأة مثل قلم رصاص، حالما تكسره لا يمكنك إصلاحه أبداً"[12].

كـــان أبـــو مرزوق يرتدي ملابس جديدة؛ ثوباً برتقالياً لسجين لدى سلطات الولايات المتحدة. وفي الوقت الذي أعلنت فيه المدّعي العام الأميركية جانيت رينو أنه تم اعـــتقاله في مطـــار جون أف. كنيدي، كان في زنـــزانة انفرادية في مركز المدينة الإصلاحي في مانهاتن. هبّت العاصفة النارية فوراً.

أثـــارت تهديـــدات حماس بالثأر قلقاً رسمياً في الولايات المتحدة، ألهبت مخاوف متـــزايدة من هجمات ونتيجة لذلك تم رفع الإجراءات الأمنية في كل مطارات البلاد إلى *المـــستوى 2*. بغـــض النظر عن أبو مرزوق، كانت السلطات قد اعتقلت آنذاك أردنـــياً على علاقة بتفجير مركز التجارة العالمي في 1993، وكان الحكم بحق عشرة رجـــال اتُهمـــوا بالتخطيط لنسف معالم نيويورك على وشك الصدور آنذاك إذ تمت إدانتهم في محاكمة كانت تقترب من نهايتها.

كـــان الأميركيون لا يزالون مذهولين من عمل الإرهاب المحلي المروّع الذي لم يكـــن له في الواقع أي علاقة مع الشرق الأوسط: قيام تيموثي ماكفي في أيار بتفجير المـــبنى الفيدرالي المسمّى ألفريد بـــي. مورا في مدينة أوكلاهوما، وهو عمل لقي فيه 168 شخصاً حتفهم وأُصيب 800 آخرون بجروح. ما زاد من القلق الأمني هو قرب وصول أكثر من 150 من قادة العالم إلى نيويورك لافتتاح أعمال الجمعية العامة للأمم المـــتحدة، وكـــان البابا يوحنا بولص الثاني على وشك زيارة المدينة أيضاً. كان يتم استجواب مسافري شركات الخطوط الجوية عن محتويات حقائبهم، كما ازداد عدد الدوريات في المحطات ومرائب السيارات.

في 13 آب 1995، أوقـــف تهديد بوجود قنبلة في سيارة، العمل في مطار جون أف. كنيدي في نيويورك. تم إقامة حواجز في مرائب السيارات، ورفع سلال القمامة من الأماكن العامة، وقطر السيارات بعيداً. لم يكن مسموحاً بدخول قاعات الانتظار إلاّ للركاب الذين يحملون تذاكر سفر[13]. كانت *واشنطن بوست* قد نقلت التهديد بإحداث *مجزرة* في مطار جون أف. كنيدي[14].

ظهـــرت عبارات تهديد على نوافذ مركبات يستعملها موظفو برامج مساعدات الأمم المتحدة في الأراضي المحتلة. تم تحذير "كل أميركي قذر" بأنه سيُخطف ويُقتل إذا لم يُطلـــق بسراح أبو مرزوق[15]. كان هناك بيان من حماس في الأراضي المحتلة يظهر تحدّياً: "تتحمّل الإدارة الأميركية المسؤولية الكاملة عن أي ضرر قد يقع على الدكتور

أبو مرزوق [إذا تم تسليمه إلى إسرائيل]"[16]. تلقى كلينتون وشخصيات بارزة أخرى رسائل تحذير. تلقى أورين هاتش، رئيس لجنة العدل في مجلس الشيوخ، رسالة تهدده شخصياً عبر فاكسه الخاص: "سيثير استمرار احتجازه أو تسليمه إلى إسرائيل موجة من الاعتداءات ضد الولايات المتحدة في أماكن مختلفة من العالمين العربي والإسلامي. قد ينجم عن ذلك عواقب وخيمة"[17].

أكّد دبلوماسي إسرائيلي لمراسلين أن السجين "رأس حماس... صيد ثمين"[18]. كانت دائرة الهجرة والجنسية تُعدّ وثائق لإعلام المحاكم الأميركية عن إنذار إسرائيلي بشأن استراتيجية إرهاب حماس. لم تكن الحركة قد نفّذت من قبل أعمال عنف خارج إسرائيل والأراضي المحتلة المتنازع عليها، لكن دائرة الهجرة والجنسية كانت تعتمد آنذاك على تقارير من مسؤولين إسرائيليين تدّعي أن أبو مرزوق، الذي كان يتمتع بحق قانوني للدخول والخروج من البلاد، كان على الأرجح مشتركاً في نشاط إرهابي في الولايات المتحدة[19].

كانت هناك محادثات لتسليم الرجل بين مسؤولين في واشنطن والقدس، لكن الأميركيين أرادوا أدلة قاطعة حتى تصمد القضية ضد أبو مرزوق في محاكم الولايات المتحدة. عن غير قصد، كان أبو مرزوق سيقاتل في معركتين. في وسائل الإعلام، كان عليه تحدّي القضية الإسرائيلية التي انبثقت ضده. لكن في المحاكم كان يكافح على جبهتين إضافيتين: الاعتراض على حق واشنطن في تسليمه إلى إسرائيل؛ وفي الوقت نفسه، قرار دائرة الهجرة والجنسية بإرغامه على العودة إلى أبو ظبي. نقلت *جيروساليم بوست* عن المتحدثة باسم دائرة الهجرة والجنسية كارول فلورمان: "نعتقد أنه متورط في نشاطات إرهابية... أحد قادة حماس البارزين. نعتقد أنه ليس من حقه التواجد في هذا البلد"[20].

بالرغم من كل براعة المسؤولين في التكلم إلى مراسلين، كان هناك أشخاص في كلا البلدين يعتبرون أن القضية ضد أبو مرزوق لن تكون سهلة. في واشنطن، انتابهم الشك في إمكانية الاستمرار في الإجراءات القانونية على قاعدة نشاطات الفلسطيني الماضية في الولايات المتحدة، بالرغم من إجراء تحقيق شامل في السنوات الأربع عشرة التي كان قد قضاها كطالب في كولورادو ولويزيانا، وكرجل أعمال على أعتاب واشنطن. أقرّ مسؤولون إسرائيليون، بينهم بعض المستشارين القانونيين البارزين

للحكـــومة، سراً أنه ربما لا تكون لديهم أدلة كافية لربط أبو مرزوق بأعمال إرهابية معيـــنة[21]. فوق كل ذلك، كان هناك سبب آخر للقلق في القدس يتعلّق بالخوف من قيام حماس بشن هجمات انتقامية إذا نجحت عملية التسليم وتمت محاكمة أبو مرزوق في إسرائيل[22].

مـــنذ العـــام 1993، كان موظفو مكتب التحقيقات الفيدرالي قد لاحقوا الرؤوس الكـــبيرة مـــن مؤتمر حماس في فيلادلفيا. بعد أربعٍ وثمانين ساعة من اعتقال أبو مرزوق، كانـــت أشرطة التسجيل تدور في دالاس وتكساس في أثناء حديث رجلين حضرا مؤتمر فيلادلفيا على الهاتف – شكري أبو بكر ورئيس مؤسسة الأرض المقدّسة المولود في غزة، غسّان العشّي، الذي كان أيضاً نسيب أبو مرزوق. في هذه المكالمة واثنتين لاحقتين، كان العـــشّي حزيناً للغاية بسبب الاعتقال في مطار جون أف. كنيدي، وكان كلاهما حادّاً في ردود أفعاله لما كانا يعتبرانه خضوع السلطات الأميركية لضغوط من اللوبـــي اليهودي.

عندما أخبر العشّي أبو بكر أنه استطاع التحدّث إلى ناديا هاتفياً، بدا أنه يوحي بأنها لم تكن حتى تعرف دور أبو مرزوق في حماس. قال: "لا تعرف حتى ما يجري. لم تـــسمع شيئاً. لمّحت لها بأنهم يقولون إنهم اعتقلوا شخصاً من حماس في المطار وأشياء من هذا القبيل"[23]. تابعا الكلام لتحليل بيان المدّعي العام جانيت رينو بشأن القبض على أبو مرزوق، لكن أبو بكر توقف عندها في منتصف الجملة، كاشفاً بالتالي لعملاء مكتب التحقيقات الفيدرالي الذين قرأوا لاحقاً نص الحديث أنه والعشّي كانا يعرفان أن المكتب يسترق السمع. "نتكلم الآن ويتم تسجيل كل هذا".

في غـــياب اتهامات مباشرة ضد أبو مرزوق، استنتجا أن فريق رينو كان يستغل عامـــل الوقت. استبعد كلا الرجلين احتمال ترحيل أبو مرزوق، لكن ستنقضي ثمانٌ وأربعون ساعة أخرى قبل أن يناقشا إمكانية تسليمه إلى إسرائيل. العشّي: "هناك أنباء مـــزعجة بأن الحكومة الإسرائيلية تطلب ذلك... ليس رسمياً، لكن رابين أصدر بياناً قـــال فيه: *نحن نجهز الوثائق، لأننا نريده*". هدّأ أبو بكر من روع العشّي المنـــزعج، وبـــدا أنـــه يلمّح إلى نقاش سابق ضمن الحركة عن حكمة أبو مرزوق في السفر إلى الولايات المتحدة أصلاً. اشتكى قائلاً: "قلنا لك إن هذا سيحدث".

كـــان قانون الولايات المتحدة يمنح إسرائيل ستين يوماً لإمعان النظر في موقفها. لم تكـــن هـــناك حاجـــة إلى العمل بسرعة، لكن بعد ثلاثة أيام فقط من اعتقال أبو

مرزوق، قرّرت إسرائيل على مستوى عالٍ السعي لتسلُّمه رسمياً. كان رابين، مع وزير خارجيته شمعون بيريس ومسؤولين بارزين في وزارة العدل والأجهزة الأمنية، قد رموا النرد[24].

كانـــت قضايا التسليم تستمر سنوات. كانت فصول قضية جوزيف دوهرتي، عـــضو الجيش الجمهوري الأيرلندي، قد تتالت ثماني سنوات قبل أن يتم تسليمه إلى الـــسلطات البريطانية لمحاكمته بشأن ضلوعه بقتل جندي بريطاني في بلفاست[25]. في حالة فلسطينيين تلاحقهم إسرائيل في الولايات المتحدة، كانت النتائج متفاوتة. كانت هـــناك قضيتان في الثمانينيات، نجم عن الأولى محاكمة المتهم بنجاح وسجنه، فيما تم إطلاق سراح المتهم الثاني بعد أن قدّم استئنافاً لقرار محكمة البداية.

في الـــيوم الـــثامن من احتجازه، حاول أبو مرزوق التخفيف من خسائره بأن عرض ببساطة مغادرة الولايات المتحدة وعدم العودة إليها، لكن مسؤولي دائرة الهجرة والجنـــسية قالوا في جلسة استماع للمحكمة في سجنه في مانهاتن إن العرض غير ذي معـــنى إن لم يُقرّ أبو مرزوق بأنه متورط في الإرهاب[26]. بالرغم من ذلك، في الوقت نفسه، كان المحققون في الولايات المتحدة يتحولون بعيداً عن دور أبو مرزوق في تنفيذ أعمـــال إرهابية، إلى التحقيق في تحويله أموالاً إلى حماس لأنه كما بيّن مسؤول فضّل عـــدم الكشف عن اسمه: "لم يكن هناك أبداً أي دليل على تورط ذلك الرجل المعتقل بنشاط إرهابـــي"[27].

لم يكن واضحاً الطرف الأكثر سعادة في علاقة المحامي - الموكل تلك، هل كان أبو مرزوق، المشتبه به الفلسطيني البالغ من العمر خمسة وأربعين عاماً، أم ستانلي أل. كـــوهين، محاميه الأميركي اليهودي البالغ من العمر واحداً وأربعين عاماً الذي يحب الـــسير علـــى حافـــة الهاوية؟ كان كوهين قد مثّل مثيري شغب، وشيوعيين، وثواراً محـــتملين بيـــنهم شخص هدّد بقتل الرئيس الأميركي[28]. لكن في أذهان البعض في الـــصحافة الأميركـــية، كان أبو مرزوق أكثر الأشخاص الذين مثلهم كوهين إثارة للجـــدل حتى ذلك الوقت، وقد قال المحامي الملتحي مسترسل الشعر أن قبوله الدفاع عـــنه ليس سوى انعكاس للتقليد اليهودي *بالسباحة ضد التيار*[29]. لكنه كان عُرضة لانتقادات قاسية على المواقع الإلكترونية التي تدعم إسرائيل، وتلقى عشرات مكالمات الـــشتم والتهديد، والتي تراوحت بين اتهامات بكراهية ذاتية لليهود إلى تهديد بوضع

رصاصة في رأسه. تحمّل كوهين كل ذلك، وبيّن قائلاً: "أعتقد أن موكلي كبش فداء، رهينة في لعبة سياسية دولية كبيرة"[30].

في اليوم الأول في مطار جون أف. كنيدي، كان عميلا مكتب التحقيقات الفيدرالي همل ودوغرتي قد عملا على أساس أن ارتباط أبو مرزوق بحماس ربما يشكل أرضية لمنعه من دخول الولايات المتحدة. اتهم همل أبو مرزوق بإخفاء قيامه بدور قيادي في الشؤون السياسية والمالية لحماس، والأكثر أهمية بمعايير توجيه اتهام مباشر، بمحاولة إخفاء أمتعة كان قد نقلها على متن الرحلة 117. عندما سُئل إن كانت الحقائب الأربع على سَير دوّار "كلها حقائبك"، كان قد أجاب "نعم"، كما قال العميل.

كان في حوزة أبو مرزوق عدد كبير من البطاقات شائعة الاستعمال، التي أخرجها من محفظة كان يضعها في جيب سترته - كانت بطاقات ائتمان، مصرفية، وهاتفية - لكن، ما عدا جوازات السفر التي أضحت آنذاك في أيدي عملاء مكتب التحقيقات الفيدرالي، ادّعى همل أن أبو مرزوق أنكر أنه يحمل أي وثائق سفر، أموال أو سجلات مالية، شهادات ولادة أو زواج أخرى. لم يصدّقاه.

سأله العميل دوغرتي: "عناوين؟ أرقام هواتف المنازل التي كنت تعيش فيها في عمّان، القاهرة، أو دبي؟". لا شيء.

"دفتر هواتف أو عناوين؟". أدلى همل بشهادة قال فيها إن أبو مرزوق أخبره عدّة مرات أنه لا يمتلك أياً من تلك الأشياء.

"إذا كنت تحاول الإقامة مجدداً في الولايات المتحدة، ينبغي أن يكون لديك أرقام للاتصال بأصدقاء، شركاء تجاريين، أو أقرباء في حال الضرورة؟". لا.

قال همل إن أبو مرزوق ادّعى إنه يستطيع الحصول على تلك المعلومات من فندقه.

"هل لدى زوجتك دفتر عناوين؟". لا.

كان همل يشك أيضاً في ادّعاء المهندس أنه لا يجني أكثر من 35,000 إلى 40,000 دولار سنوياً، لأن تقريراً أعدّته دائرة الجمارك الأميركية أشار إلى ملايين الدولارات التي مرت عبر حساب مرزوق المصرفي بين عامي 1989 و1990.

في ذلك الوقت، تم إعادة أبو مرزوق إلى غرفة الانتظار، كان ممكناً أن ينتهي كل شيء هناك. لكن عندما دخل دوغرتي مجدداً ليسأل أبو مرزوق عن مبلغ 8,000

دولار كـــان قد صرّح عنها للجمارك عند دخوله، لاحظ العميل حقيبة صغيرة تحت مقعد أبو مرزوق كانت بين قدميه. كان تحت المقعد المجاور علبة ملحقة بالحقيبة. أراد دوغـــرتي أن يعـــرف لمـــن كانتا، والأكثر أهمية ما إذا تم تفتيشهما. قال أبو مرزوق لدوغرتي إنهما له. أشار إلى أن المحتويات *أوراق* وادّعى أنه تم تفتيش الحقيبتين من قبل، كمـــا ورد في شـــهادة همل لاحقاً. لم يكن ذلك صحيحاً، كما قال العميل. لم يكن موظـــف الجمـــارك الذي فتّش حقائب العائلة في وقت سابق قد أُحيط علماً بهاتين الحقيبتين الصغيرتين.

أخـــذ العمـــيلان الحقيبتين إلى غرفة استجواب، ووجدا أن العلبة تحتوي على شـــيكات فارغة، شهادات ميلاد لأبو مرزوق والعائلة، وما وصفاه بأنها *وثائق سفر مخـــتلفة منتهـــية الصلاحية*. أيضاً، كانت الحقيبة الصغيرة تضم وثائق لثلاثة حسابات مـــصرفية، أحـــدها في الولايات المتحدة والآخران ما وراء البحار. قبل أربعة شهور فقط، كان الرصيد في أحد تلك الحسابات يشير إلى 490,000 دولار. ربما يكون أبو مرزوق قد فهم آنذاك أنه يواجه مشكلة ما، لكنها ستزداد سوءاً.

بعـــد الانتهاء من العلبة والحقيبة الصغيرة، قرّر العميلان تفتيش كل أفراد العائلة بتجـــريدهم مـــن ملابسهم؛ حتى الابنة البالغة من العمر ثلاث سنوات. تم استدعاء موظفـــتين مـــن مكتب دائرة الهجرة لاصطحاب زوجة أبو مرزوق، ناديا، إلى غرفة خاصـــة حيث طُلب منها أن تتجرد من ملابسها. حالما نـــزعت ما وصفه همل بأنه *ملابسها الداخلية* سقط دفتر العناوين على الأرض. عندما اندفعت الموظفتان إلى همل ودوغـــرتي، كان العميلان متأكدين من أنهما وجدتا شيئاً مهماً. كانت هناك مئات الكلمات العربية المكتوبة بخط اليد: أسماء، عناوين، وأرقام هواتف؛ لزملاء، أصدقاء، وأقـــرباء؛ في الـــولايات المتحدة وخارجها. بالمختصر، كانت لديهما قصة حياة أبو مرزوق.

أخـــيراً، تم الـــسماح لناديا والأولاد بالذهاب. تم إرسال دفتر العناوين للترجمة والتحلـــيل مـــن قبل خبراء مكتب التحقيقات الفيدرالي بحماس ومجموعات إرهابية أخرى؛ وفي غضون ذلك، تم وضع أبو مرزوق في زنـــزانة سجن.

في التقرير الذي ورد عن محتويات دفتر العناوين، ركّز همل على حفنة فقط من مئات الأسماء. وصفهم بأنهم "إرهابيون مؤكدون ومحتملون". تضمنت القائمة حسن

الترابي، المتشدد السوداني الذي كان قد دعا أسامة بن لادن إلى السودان؛ أحمد محمد يوسف، وهو دبلوماسي سوداني سابق أُشير إلى تورطه في خطط لاغتيال الرئيس المصري حسني مبارك وتفجير مقر الأمم المتحدة في نيويورك؛ وجورج حبش، الذي كانت جبهته الشعبية لتحرير فلسطين مسؤولة عن سلسلة من عمليات خطف الطائرات التي انتهت بشكل مروّع في الأردن. كان ينبغي التمييز بين حبش وأحمد جبريل، قائد الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين - القيادة العامة، وهي مجموعة انشقت عن الجبهة الشعبية لتقوم بعمليات حرب عصابات خاصة بها ضد إسرائيل. بشكل ماكر، قال همل إن *خبراء* مكتب التحقيقات الفيدرالي كانوا قد اكتشفوا أيضاً إشارة مشفّرة إلى ياسر عرفات.

آنذاك، تحت أبصار جيش من المحققين ووسائل الإعلام، اكتُشف أن أبو مرزوق كان قد ترك بشكل مفاجئ بعض الآثار في السنوات التي استأجر فيها منزلاً في الشارع الجنوبي السادس في فولز تشرش. كانت تلك جزءاً من واشنطن الكبرى لكن في فيرجينيا، خلف حدود الولاية. لم يحصل أبو مرزوق على شهادة قيادة؛ لم يدفع ضرائب ملكية؛ ولم يكن جيرانه يعرفون الكثير عنه، ما عدا رؤيتهم له بين الفينة والأخرى يجزّ العشب[31]. كان يقدم بطاقة تعريف باسم مؤسسة موستان الدولية، لكنها لم تكن تكشف عن طبيعة عمل الشركة. لم تكن موستان مدرجة في دليل الهاتف المحلي، أو مسجّلة محلياً.

كان أبو مرزوق قد حصل على شهادة الإجازة في إدارة التشييد والتنمية الصناعية من جامعة ولاية كولورادو في العام 1984. ثم انتقل إلى روستن، لويزيانا للشروع في دراسة الدكتوراه في الهندسة الصناعية في جامعة ولاية كولومبيا. هناك، لم يكن ما يتذكره الجميع عن التوالي بين التضخم والانكماش الاقتصادي في دراسته ينطبق على صورة الإرهابي المتشدد في مأزقه آنذاك. أحد أساتذته السابقين أخبر *واشنطن بوست*: "لم يُظهر ذلك النوع من القيادة هنا... لم يكن طالباً لامعاً"[32].

آنذاك، بعد أن علموا بطلب الاستخبارات الإسرائيلية، تابع المحققون الفيدراليون عملهم على أساس أن أبو مرزوق أدار من مقر إقامته في فولز تشرش عمليات حماس في الأراضي المحتلة. أخيراً، عبر محاميه، أقرّ أبو مرزوق أنه كان قد جمع مبالغ كبيرة من المال، لكنها كانت مخصصة لدور الأيتام، والمدارس، وبرامج خيرية أخرى في الأراضي

المحتلة، كما قال - هذا بالرغم من ادّعاء همل أن أبو مرزوق كان قد أنكر سابقاً مثل ذلـــك النشاط. معاً، كان المحامي والموكل يعملان آنذاك على وضع رد من عشرين صـــفحة، ســـطراً بـــسطر، على سجل همل لأحداث 25 تموز - يوم وصل المهندس وعائلته إلى مطار جون أف. كنيدي.

ادّعى أبو مرزوق أنه وناديا العشّي قاما بفتح حقائبهما وإغلاقها بشكل منفصل مـــرات عديدة تحت أعين مسؤولين مختلفين من دائرتي الهجرة والجمارك الأميركيتين. كان قد أخرج جوازات سفرهم من إحدى تلك الحقائب؛ وفي مرحلة أخرى، أخرج دواءه منها. لم يكن هناك جهد من جانبه لإخفائها.

جـــادل بـــأن قضية الحقائب الأربع هي *كل* أمتعتهم كانت سوء فهم بسيط. عندما رافقه أحد الضباط إلى سَير دوّار، وطلب منه تحديد حقائبه، أقسم أبو مرزوق آنذاك أنه كان قد أجاب بصدق عندما قال "نعم" بعد أن سأله الضابط إن كانت كل الحقائب الأربع تعود له. قال إنه كان يعتقد أن الضابط سأله إن كانت تلك الحقائب الأربع الوحيدة التي تعود له على *السَير الدوّار*.

لاحظ أبو مرزوق أن همل ناقض نفسه فيما يتعلق بقضية الأموال. كان قد اتهم أبـــو مرزوق بإنكار حيازة نقود، بالرغم من أن شهادة العميل الخطّية أكّدت أن أبو مـــرزوق كان قد أعلن لموظف الجمارك أنه يحمل 8,000 دولار، وهو مبلغ لم يكن مطلـــوباً التصريح عنه لكنه عرضه طواعية للموظف عندما فتح إحدى الحقائب التي كـــان متهماً بمحاولة إخفائها. قال أبو مرزوق أيضاً إن الرقم اللافت للنظر في أحد حـــساباته المصرفية - 490,000 وحدة من عملة معينة، والتي أثارت حفيظة همل - كانت لدراهم إماراتية أقل قيمة، وأنها تساوي أقل من 120,000 دولار.

كانـــت قـــضية دفتـــر العناوين تتعلق بفوضى عائلية رافقها جهل همل للثقافة والعادات العربية، كما أقسم أبو مرزوق. كان أبو مرزوق معتاداً السفر مع نسخة من دفتـــر عناوينه، وترك الأصلية في منـــزله في عمّان. في تلك الحالة، كان قد ترك عن غير قصد النسخة في دبـــي عندما سافر إلى لندن. من دون أن يعرف، كانت زوجته قد عثرت على النسخة الأصلية في عمّان ودسّتها في إحدى حقائبها. في أثناء توقفها في لندن، كانت قد استعملت الدفتر لإجراء مكالمة هاتفية إلى عمّان، ثم وضعته تحت حـــزام صـــدريتها، كما قال، لأن الثوب التقليدي الذي كانت ترتديه ذلك اليوم،

الجلباب، لم يكن له جيوب. بعكس ادّعاء همل أن الدفتر وقع إلى الأرض عندما كانت تنزع ملابسها، أصرّ على أن ناديا العشّي كانت قد سلّمته للمرأة المسؤولة عن تفتيشها لأنه "لم يكن لديها مكان آخر تضعه فيه"(33).

لكن لم تكن هناك طريقة لتفسير وجود بعض أسماء وأرقام هواتف المتطرفين أو المتشددين في الدفتر. حاول أبو مرزوق قلب تلك الحقيقة لمصلحته، وجادل قائلاً: "مع بعض الأسماء *المثيرة للجدل*، سعى [همل] مرة أخرى لاستبدال الواقع بالخيال، الحقيقة بالإثارة... تعريتي تحت أسوأ ضوء"(34). كان همل بالتأكيد متردداً في التشدد مع أبو مرزوق. كان متوقعاً من العميل الذي يمتلك سنتين من الخبرة في العمل مع وحدة مكافحة الإرهاب التابعة لمكتب التحقيقات الفيدرالي أن يعرف، أنه في كثير من الأحيان، تتم مخاطبة ياسر عرفات أو الإشارة إليه بأبي عمار - رسمياً وبشكل غير رسمي، في وجهه ومن خلف ظهره، في الصحف وعلى شاشات التلفزة. كان قوله بأن هناك "إشارة مشفّرة" للاسم يرخي بظلالٍ من الشك على عمل همل المهني، وقدرة خبراء الإرهاب في مكتب التحقيقات الفيدرالي الذين كانوا قد حلّلوا الدفتر، أكثر مما تثيره شركة أبو مرزوق من تساؤلات.

بالرغم من تاريخ عرفات المتقلّب، إلا أن وضع اسم قائد منظمة التحرير الفلسطينية على لائحة الإرهابيين المؤكدين والمحتملين بدا غير منطقي، لأنه قبل أسابيع فقط من توقيع همل على شهادته الخطّية، كان عرفات قد حل ضيفاً على البيت الأبيض، حيث وقّع وإسحاق رابين رئيس وزراء إسرائيل ما وصفه الرئيس بيل كلينتون بأنه "اتفاقية سلام شجاعة وتاريخية". ثم اشترك عرفات ورابين في واحدة من أشهر المصافحات في التاريخ.

كانت تلك نقطة حاول أبو مرزوق ومحاميه الاستفادة منها. باتهامه لهمل بأنه يلجأ إلى "لغة مبتدئ... لااتهامي"، جادل أبو مرزوق أن عميل مكتب التحقيقات الفيدرالي يحاول تضليل المحكمة بمجموعة صغيرة منتقاة من الأسماء التي تدغدغ المشاعر من دفتر عناوينه. "فشل [همل] تماماً بأن يلاحظ أن بين [مئات] الأسماء وأرقام الهواتف تلك هناك عدد من رؤساء الدول وكبار المسؤولين الحكوميين والقانونيين من كل أنحاء الشرق الأوسط". أورد بعضاً من الأسماء التي كان همل قد أغفلها: "رئيس البرلمان الأردني وعدداً من أعضائه، وزيري التعليم العالي والإعلام الأردنيين، رئيس

اتحاد الصحفيين الأردنيين، رئيس البرلمان الفلسطيني، رئيس وزراء تونس، وزير الإعلام السوري، أعضاء في البرلمان اليمني، رؤساء أجهزة أمنية في الكويت، الأردن، ومصر... وغيرهم كثير.

فيما يتعلق بقضية ملايين الدولارات التي مرّت عبر حسابه قبل بضع سنوات، أصرّ أبو مرزوق على أن تلك الأموال كانت قد *جاءت* إلى الولايات المتحدة، كما هو معروف لدائرة الدخل ووكالات أميركية أخرى تراقب نشاطات الشركة الأميركية مكّة للاستثمار، التي كان أبو مرزوق يحصل على التمويل لها من الشرق الأوسط.

استمر أبو مرزوق وكوهين في المعركة بمحاولة التقليل من شأن خبرة همل، واتهما عميل مكتب التحقيقات الفيدرالي بأنه "خبير في الشؤون الفلسطينية، [الذي] يثبت مجدداً أنه ضائع تماماً ولا يفقه شيئاً يتعلق بمشكلات، وسياسة، وديناميكية الشرق الأوسط"[35]. لكن في لحظاته الأكثر عزلة، في أثناء جلوسه وحيداً في زنزانته في مانهاتن إلى جانب سجين ياباني يجهش بالبكاء في الزنزانة المجاورة[36]، لم يكن بوسع أبو مرزوق إلاّ أن يتساءل عن حكمة المخاطرة بالمجيء إلى الولايات المتحدة في ذلك الوقت. بعد إبعاده من الأردن، كان يبدو محتملاً أنه حتى إذا لم يضعه الأميركيون على قائمة الإرهاب، سيضغط الإسرائيليون عليهم.

بعد أسبوعين من اعتقاله، مثل أبو مرزوق أمام جلسة استماع للمحكمة الفيدرالية في مانهاتن، حيث اتهمه المدّعون بجمع مئات آلاف الدولارات لحماس والسعي لشراء أسلحة من أجل *الحرب المقدّسة*. كان المدّعون يتصرفون بناءً على دليل قدّمته لهم السلطات الإسرائيلية، واتهموا أبو مرزوق أيضاً بأنه قد أشرف على تجنيد وتدريب إرهابيين في الولايات المتحدة. بعد أيام، طلبت إسرائيل رسمياً أن يتم تأجيل أي إجراء من الولايات المتحدة لإعادة أبو مرزوق ببساطة إلى البلد الذي كان قد بدأ منه رحلته، الإمارات العربية المتحدة، قبل وصوله إلى نيويورك من أجل أن تقدّم طلباً تفصيلياً لتسليمه إليها، والتي زعمت آنذاك بأنه يثبت تورُّط موسى أبو مرزوق في جرائم قتل، والتسبب بأضرار جسيمة وإصابات خطيرة لعدد من الأشخاص[37].

تشكّلت الوثيقة الإسرائيلية الرسمية، التي وقّعها آيريت كوهين من قسم العلاقات الدولية في وزارة العدل، من وصف مخيف لأعمال عنيفة ضد أكثر من 200 مدني؛

كان 46 منهم قد لقوا حتفهم، وتعرّض أكثر من 140 آخرين لإصابات مختلفة. كان ينبغي أن يخضع أبو مرزوق للمحاكمة في إسرائيل، كما قال كوهين، "القتل، ومحاولة قتل، والقتل الخطأ، وإلحاق الأذى عمداً، وإلحاق الأذى والتسبب بإصابات متنوعة في ظـــروف مختلفة والتآمر لارتكاب جرائم تحمل الصفة الجنائية"، التي نجمت عن عشر هجمـــات لحمـــاس في خلال أربع سنوات[38]. بغض النظر عن التفاصيل، تصاعدت الهجمـــات قوة وتعقيداً من قنبلة الشاطئ التي قتلت سائحة كندية تبلغ من العمر ستة عـــشر عامـــاً في تـــل أبـــيب في 1990 إلى مقتل اثنين وعشرين شخصاً في هجوم استشهادي على حافلة في تل أبيب بعد أربعة أعوام.

أكثـــر من ألف صفحة من شهادات المحققين الإسرائيليين المرافقة، مع سجلات استجواب عناصر حماس الذين اعتقلتهم القوات الإسرائيلية، شكّلت وثيقة مخيفة عن العمـــل الداخلـــي لحملـــة العـــنف المتزايدة التي كانت حماس تشنّها ضد الاحتلال الإســـرائيلي لغـــزة والـــضفة الغربية. طالب كوهين في عرضه الاستهلالي في اثنتين وعـــشرين صـــفحة بمحاسبة أبو مرزوق، باعتباره قائداً لحماس، جنائياً لأنه كان قد "ســـاعد وحـــرّض، قدّم استشارات، حثّ ودفع آخرين – أعضاء في حماس – على ارتكاب تلك الأعمال الإجرامية"[39].

بقـــي موقف أبو مرزوق القانوني قوياً، لكنه تعرض لوعكة صحية في منتصف تشرين الثاني. اشتكى من دوار شديد وكانت يداه ترتعشان بشكل لا يمكن السيطرة عليه في بعض الأحيان. لم تكن نوعية الغذاء في السجن الأميركي تناسبه وكان تراجع وزنه مصدر قلق طبيبه[40]، الذي اشتكى من أنه لم يكن مسموحاً لأبو مرزوق سوى إجراء تمارين يومية قصيرة قبل الفجر على سطح مبنى السجن[41]، الذي يقع بين مقر قيادة شرطة نيويورك والمجمّع القضائي الفيدرالي، ومبنى البلدية في مانهاتن.

بالرغم من كل التهديدات الرهيبة من حماس، احتفظ القضاة في محكمة المقاطعة الأميركـــية برباطة جأشهم. في 7 أيار 1996، وافق القاضي كيفن دوفي على الطلب الإســـرائيلي بتسليم أبو مرزوق. في قراره من ثلاث وثلاثين صفحة، كتب دوفي بأن "هـــناك احتمالاً أن يكون أبو مرزوق يعرف عن خطة حماس لتنفيذ هجمات عنيفة، وإجرامية؛ وأنه يكون قد اختار القائمين عليها وقدّم الأموال اللازمة لتنفيذها"[42]. إلى جانـــب ذلك، تحدّى القاضي توقع ستانلي أل. كوهين بأن القضية ستستمر سنوات

عديـــدة، وهمـــس بملاحظة في إذن المحامي: "يتوقع السيد كوهين تأخير الإجراءات برفضه امتثال أي جدول تضعه هذه المحكمة. التأجيل ينتهي الآن"(43).

عند صدور قرار الاستئناف بعد عدّة شهور، أيّدت القاضية كيمبا أم. وود قرار دوفي، دون تحفّظ. لم يكن لدى أبو مرزوق، كما يبدو، أي مكان يذهب إليه، سوى قفص اتهام محكمة إسرائيلية.

9

العنف هو السلاح الوحيد

كفلسطيني يقطن منذ وقت طويل في بريدجفيو، على الطرف الجنوبي من شيكاغو، كان محمد صلاح يسافر كثيراً إلى وطنه، مستعملاً جواز سفره الأميركي.

لكن في العام 1993، اعتقلت السلطات الإسرائيلية صلاح في أثناء تجواله في الضفة الغربية وفي جعبته حوالى 100,000 دولار نقداً في حقيبة. صيدٌ ثمين، تم اقتياده مباشرة للاستجواب لدى جهاز الاستخبارات الداخلية الإسرائيلية، الشين بيت. في المقابلات التي تلت ذلك، تبيّن أن صلاح كان قد أنهى جولة ناجحة لنقل أموال من الولايات المتحدة إلى الأراضي المحتلة في آب من العام 1992، والتي وزّع خلالها أكثر من 100,000 دولار. بعد خمسة شهور، عاد رجل مبيعات السيارات المستعملة المولود في القدس، وكان يخطط لإيصال أكثر من 600,000 دولار لحماس في رام الله، ونابلس، والخليل؛ يبدو أن نصفها على الأقل كان مخصصاً لعمليات عسكرية. كان يسحب أموالاً من مبلغ 300,000 دولار موجود في حسابه في مصرف لاسيل تالمان في شيكاغو، إيلينوي، وكان يتوقع إيداعاً آخر بمبلغ 350,000 دولار. لكن اعتقاله فجأة أوقف كل شيء، بعد ثلاث جولات فقط لتوزيع أموال وصل مجموعها إلى 140,000 دولار[1].

ادّعى صلاح لاحقاً أن كل شيء تقريباً في خمسمئة صفحة من وثيقة استجوابه غير صحيح، لأنه أُجبر على الإدلاء به تحت تعذيب جسدي وذهني[2]. بعد التذكير بوصف منظمات حقوق الإنسان لنظام الشين بيت في تعذيب، إساءة معاملة، وإذلال معتقليها، أقسم محمد صلاح أنهم أبقوه عارياً لمدد طويلة، وهدّدوه بتصويره بتلك الوضعية إن لم يتعاون[3]. كان يُرغم على الجلوس على كرسي أطفال، ثم تم تقييده به - ارتفاعه ثماني بوصات - لأوقات طويلة. كان سجّانوه يضربونه بشكل متكرر ويجعلونه يستمع إلى موسيقى بمستويات "تصم الآذان". أحياناً، كما ادّعى، كانوا يضعون كيساً فوق رأسه ويحرمونه من النوم لثمانٍ وأربعين ساعة متواصلة. كانوا قد

حـــذّروه بأن عملاء إسرائيليين ومن مكتب التحقيقات الفيدرالي سيؤذون عائلته في الولايات المتحدة إذا لم يكشف عن التسلسل الهرمي لقيادة حماس.

ستـــستعمل إسرائيل لاحقاً اعتراف صلاح في أثناء الاستجواب في محاولة لحث محكمـــة أميركـــية على تسليمها موسى أبو مرزوق لمواجهة تهم تتعلق بالإرهاب. في مـــوافقة نهائـــية على التسليم في العام 1996، لم يتأثر القاضي كيفن توماس دوفي من محكمة مقاطعة نيويورك بادّعاء صلاح أنه تعرّض للتعذيب. كان معظم ما قاله صلاح في أثـــناء استجوابه قد تُرجم من مقابلة أُجريت بالعربية إلى وثيقة مكتوبة بالعبرية، ثم تُـــرجمت مجدداً إلى الإنكليزية. لكن القاضي دوفي جادل بأن جزءاً طويلاً وحاسماً من اعتـــراف صلاح للإسرائيليين، الذي كتبه بيده وباللغة العربية، يحمل "علامات أكيدة على صدقية لا يمكن تجاهلها"[4].

كـــان قد تم الحصول على الوثيقة المكتوبة بخط اليد من صلاح في عملية تحقيق معقّدة، تعرض فيها صلاح للخداع نتيجة اعتقاده أن سجناء آخرين في مبنى زنـــزانته كانوا معتقلين من حماس أيضاً. في الواقع، كانوا سجناء يتعاونون آنذاك مع إسرائيل. اعتـــرف ندّاف – اسم مستعار لرئيس وحدة تحقيقات الشين بيت في رام الله، والذي تم إخفاء هويته لأسباب أمنية عندما ضمت السلطات الإسرائيلية وثيقته عن نشاطات صـــلاح إلى كـــومة من الوثائق في قضيتها ضد أبو مرزوق – بإعداد المكيدة. جعل المحققـــون صـــلاح يعـــتقد أنه يفشي سره إلى أعضاء آخرين من حماس محتجزين في الـــسجن نفسه. قال ندّاف: "لفعل ذلك، وجّهنا سجناء آخرين كانوا يتعاونون معنا لـــتقديم أنفـــسهم كنشطاء من حماس. أقنعوا صلاح بأن يأتمنهم على سره فيما يتعلق بالهدف الحقيقي لنشاطاته. بناءً على طلبهم، قدّم وصفاً مطولاً".

في إقـــراره لاحقـــاً بأنه تعرض للخداع، سرد صلاح ثانية كيف تم وضعه في زنـــــزانة مع سجناء فلسطينيين قدّموا أنفسهم بأنهم معتقلون من حماس، ويمكنه الثقة بهم. قال صلاح إنهم هدّدوه على أرضية أنهم يشكّون بتعاونه مع الإسرائيليين. كاشفاً المكيدة، بيّن: "قالوا إنني إذا لم أثبت لهم أنني لست خائناً، سأتعرض وعائلتي للأذى". كـــان الاختبار الذي وضعوه لصلاح ليثبت حُسن نواياه يتطلب منه كشف ما يعرفه عـــن قيادة وأعضاء حماس: "أخافوني، وقدّموا لي ورقة وقلماً لاستعملهما، فيما كانوا يطلقون تهديداتهم"[5]، هذا ما كتبه صلاح في شهادة خطّية لاحقة، قدّمها أبو مرزوق

في جلسة استماع محكمته الأميركية في محاولة فاشلة لتقويض القضية الإسرائيلية ضده.

بغض النظر عن إماطة اللثام عن التكتيكات التي يستعملها المحققون الإسرائيليون، أدّت اعترافات محمد صلاح إلى سلسلة من الاعتقالات وعمليات الاستجواب، التي تكاملت جميعها لتوفر مشهداً نادراً لعمليات حماس في الأراضي المحتلة.

كان بوسع الإسرائيليين آنذاك مطاردة الرجال المحليين الذين كان صلاح قد سلّمهم أموالاً، ثم ملاحقة الصف التالي من القيادة، رجال مثل موسى دودين، وهو طالب في جامعة الخليل استعمل 45,000 دولار كان صلاح قد منحه إياها لشراء مجموعة صغيرة من الأسلحة: بندقيتي عوزي، وبندقية صغيرة، وكلاشينكوف، وأم 16 قصيرة الماسورة، والتي خبأها في قناة للماء قبل توزيعها.

عندما ألقى الإسرائيليون القبض على موسى دودين، زوّدهم بالمقابل بأسماء مجموعة من زملائه، الذين كانوا يتجولون في أنحاء الضفة الغربية في فولكسفاغن سيدان، وأسلحتهم مخبأة تحت مقاعدهم. ثم أدلى بأسماء مجموعة أخرى، كان قد هاجم معها دورية إسرائيلية قبل أن يفقد أعصابه ويؤمر بتسليم أسلحته إلى رجل مقنّع يقود بيجو 305. كانت تلك هي التفاصيل الدقيقة التي كانت حماس المشغوفة بالسرية تخشى انكشافها، والمعلومات الأولية التي كانت السلطات الإسرائيلية متلهفة للحصول عليها.

بقي اعتراف صلاح بحد ذاته دائماً موضع شك من الناحية القانونية، نظراً إلى ما وصفه لاحقاً مسؤول بارز في إدارة كلينتون بأنه معاملة حجرة *النجوم* على أيدي محققيه[6]. على أي حال، سرعان ما أدرك الإسرائيليون - بعد حصولهم على دفتر هواتف صلاح، الذي يحتوي على أسماء وأرقام الأشخاص الذين يتعامل معهم محلياً وفي الولايات المتحدة - أن صلاح يعتقد أنه قام بحماية قاعدة بياناته. تداخلت معظم التفاصيل، فيما أصبح وثيقة مطبوعة من ثلاث وستين صفحة عن مغامرة صلاح في الأراضي المحتلة، مع وثائق عن تمويل وطريقة عمل حماس التي حصل عليها الإسرائيليون لاحقاً من شخصيات أخرى في الحركة كان صلاح قد كشفها. حصل مكتب التحقيقات الفيدرالي أيضاً على وثائق مصرفية في الولايات المتحدة تؤيد ما قاله صلاح عن طريقة نقل الأموال إلى حسابه وتحويلها لاحقاً إلى إسرائيل. بالمقابل،

قـــدّم الإســـرائيليون وثائق مصرفية كشفت أسلوب توزيع الأموال على الأرض في الشرق الأوسط[7]. كانت الصورة على وشك أن تكتمل.

في اعتـــرافه، وضـــع صـــلاح أبو مرزوق في قلب عمليات حماس في الولايات المـــتحدة والأراضـــي المحـــتلة، والـــذي كان يقوم بتنظيم الأموال وتوجيه العمليات العسكرية. كان أبو مرزوق هو الذي قام بتجنيده، في مرحلة مبكرة من الانتفاضة، لما وصفه بهيئة برلمانية. كان أبو مرزوق قد حاول أيضاً جعل صلاح قائداً عسكرياً دائماً في الأراضـــي المحتلة وهو عرض كان قد رفضه، كما أصرّ صلاح، لأنه كان في غمرة بناء منـــزل في شيكاغو وحماس لا تدفع جيداً لتغطية التزاماته.

لكـــن، بعمله المستقل، كانت أولى مهماته بذل جهد لتجنيد أفراد من صفوف مجـــتمع الشتات في الولايات المتحدة للقتال في الأراضي المحتلة. بدأ مع سبعة وعشرين مرشـــحاً، الـــذين تم اختبار خبرتهم الميدانية، مثل توجيه طائرات بالتحكم عن بعد، المبـــيدات الحـــشرية الـــزراعية، واســـتعمال المواد الكيميائية الأساسية لصنع قنابل ومتفجـــرات. قال صلاح: "لم نحقق نجاحاً يُذكر. لم يظهر الخبراء المطلوبون... لتلك الأعمال".

كـــان يساعد صلاح في عمله ذاك *الأخ يوسف* من الأردن وشخصان آخران يمـــتلكان خـــبرة في القتال، وكانوا قد جاؤوا إلى الولايات المتحدة من لبنان. لكن، باســـتثناء ثلاثـــة متطوعين، تم إيقاف البرنامج بسبب الرقابة التي فرضتها السلطات الأميركـــية علـــى المجتمع الإسلامي بعد غزو العراق للكويت. استمر هؤلاء المجندون الـــثلاثة الجـــدد بالتدريب على استعمال المتفجرات على يدي فلسطيني كان قد قاتل كمجاهد في أفغانستان، لكن البرنامج توقف تماماً عندما اعتقل الإسرائيليون صلاح.

غـــافلاً عـــن مكيدة السجن التي نصبها له المحققون الإسرائيليون، أطلع صلاح نـــزلاء زنـــزانته على مؤامرة لاغتيال المفكر الفلسطيني البارز ساري نسيبة لدوره في محادثـــات الـــسلام الـــتي تـــدعمها الولايات المتحدة بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلـــسطينية. قال إن أبو مرزوق كان قد وافق على ذلك في البداية، لكن تم إيقاف العمل بخطة الاغتيال. تحدّث صلاح بالتفصيل إلى زملائه السجناء عن جهوده لتعزيز صفوف قيادة حماس المحلية بعد موجة أخرى من الاعتقالات الإسرائيلية. ثم كان هناك مـــا يمكن أن يصفه أنصار حماس بأنه *العمل المعتاد*: طريقة الرد على استفزازات فتح؛

طـــريقة تقديم الفروع والخلايا المحلية لتقارير عن نشاطاتها؛ وطريقة كبح جماح القادة المحليين الذين يقررون، من تلقاء أنفسهم، استعمال أموال مخصصة لأغراض عسكرية في مشاريع أخرى.

كـــان أحـــد أفراد حماس الذين كشف عنهم صلاح يدعى أبو صعب، ويرأس ميليـــشيا حماس في غزة. قال صلاح إن أبو صعب كان قد التمس منه الحصول على أموال إضافية لسد فجوة كبيرة في أسعار الأسلحة النارية في السوق السوداء.

في رام الله، كـــان أحد الأشخاص المعروف بأبـــي خالد قد سعى إلى الحصول علـــى نصيحة صلاح بشأن حكمة مخططه في إعدام ثلاثة مهندسي طرق إسرائيليين. كان يرغب في أن تدفع عملية القتل إسرائيل للسماح لمبعدي العام 1992 بالعودة من جـــنوب لبـــنان. لكن من دون تكلّف، قال صلاح للرجل من رام الله: "اقتلهم وخذ أســـلحتهم". كان يحاول أيضاً التحقيق في النفقات *الوهمية* لفرع نابلس – الذي كان قد أظهر ديوناً بقيمة 290,000 دولار – وأفضل طريقة لتدبير ديون غزة الكبيرة التي تجاوزت مليون دولار.

كـــان من الصعب رؤية كيف أمكنه – وكل الحركة فيما يخص تلك القضية – تدبُّـــر الأمر تحت ضغط لا ينتهي. مثلاً، كانت حماس تحتاج إلى ملجأ سري وأسلحة لمقاتلـــيها في غـــزة، وكان ينبغي إيصال مدرّب عسكري إليهم من لبنان. كان لدى مـــورّد محلي لمعدّات طبية حساب في مصرف سويسري، لكنه طالب بعمولة 2 بالمئة لنقل الأموال عبر حسابه إلى حماس.

عالقاً آنذاك في السجن، كان شعور صلاح بالإذلال كبيراً عندما تم إرغامه على تعـــداد الأخطاء التي وقع فيها في أثناء تأديته لمهمته. تضمنت تلك الأخطاء عودته إلى الـــضفة الغربية في توقيت غير صحيح؛ غلطته في حمل دفتر عناوين؛ كان قد *نسي* أن حمـــاس محظـــورة في إســـرائيل وأن الاتصال بأعضائها جريمة؛ وإذا كان عليه حمل معلومات، كان ينبغي له إخفاؤها في كبسولة؛ وكان قد نظّم كثيراً من الاجتماعات مـــع الـــسكان المحليين في وقت كانت فيه زيارة الأميركيين الفلسطينيين إلى إسرائيل والأراضي المحتلة تخضع لمراقبة مشددة من قبل الإسرائيليين.

في الأسابيع الأولى من محنته، كان صلاح مرتاحاً لعدم إفشائه معلومات كان قد التـــزم بحفظها قبل وصوله إلى فلسطين. كانت تتعلق بتفاصيل رسم تخطيطي حصل

علـــيه أبو مرزوق في خلال إحدى زياراته إلى مبعدي حماس في جنوبـــي لبنان. كان الرسم يدل على قبر سري وضع فيه مقاتلو حماس جثة إيلان سعدون، رقيب إسرائيلي كانـــوا قـــد اختطفوه في العام 1989. قبل اعتقاله، كان صلاح قد فشل في جهوده الخاصـــة لتحديد موقع القبر، الذي كان يُفترض أنه قرب يبنه، على الطريق الساحلي القديم المؤدي إلى غزة.

عـــرض آنـــذاك علـــى الإسرائيليين صفقة - مقابل مساعدهم في استعادة جثة سعدون، أراد إطلاق سراح ثلاثمئة سجين من حماس، بمن فيهم أولئك الذين كان هو السبب في اعتقالهم، وإعادة 100,000 دولار من أموال حماس التي تمت مصادرها منه. رســـم صلاح ما استطاع أن يتذكره من الخريطة على ورقة، بما في ذلك نقاط علام رئيـــسية: شجرة كبيرة وجدار في منطقة يبنه. رافق فرق البحث الإسرائيلية في رحلة استمرت اثني عشر يوماً، والتي تضمنت الحفر إلى عمق أكثر من ستة أقدام قرب عدّة جدران، لكنهم لم يستطيعوا العثور على الجثة.

إنـــه متفائل دائماً، كان صلاح واثقاً من أن جواز سفره الأميركي يشكّل فعلاً بطاقـــة *الخروج من السجن*. توقع وصول دبلوماسي أميركي لإنقاذه. بدلاً من ذلك، أُغلقـــت عليه بوابات حبس إسرائيلي ليقضي حكماً بالسجن خمس سنوات قضت به محكمة عسكرية إسرائيلية.

بالعـــودة إلى شـــيكاغو، كان قد تم تحويل أكثر من 350,000 دولار إلى حساب صـــلاح في مصرف لاسيل تالمان الذي كان يشترك فيه مع زوجته، أزيتا. كان أشخاص وصـــفهم مكـــتب التحقيقات الفيدرالي بأهم مساعدون مقرّبون لموسى أبو مرزوق قد أودعـــوا حوالى مليون دولار في الحساب. في الأسبوع الأخير من كانون الأول من العام 1992، تم تحـــويل 300,000 دولار مـــن حساب مصرفي في فيرجينيا باسم أبو مرزوق وشـــخص آخر. جاءت بقية التدفقات النقدية من مصادر في جنيف ودبـــي. لكن إيداعاً واحداً بقيمة 99,985 دولاراً أذهل العملاء الفيدراليين. كان قد تم تحويله باسم غازي أبو بـــسمة. كاســـم، كانـــت بسمة معروفة بما يكفي، لكنها كانت أيضاً الاسم المستعار لحماس - الإشارة المشفّرة التي يشير بها البعض ضمن حماس إلى الحركة -.

بعد أربعة أيام فقط من اعتقال صلاح في إسرائيل، كانت هناك محاولة للحصول على الأموال التي في حسابه.

حـــاول شـــخص وصفه مكتب التحقيقات الفيدرالي بأنه مجهول صرف شيك بقـــيمة 299,950 دولاراً، والـــذي كان يُفترض أن صلاح المسجون قد وقّعه. كان المستفيد ناصر الخطيب، الذي يعمل في الولايات المتحدة كأمين سر خاص لموسى أبو مرزوق. رفض المصرف صرف الشيك، واستنتج مكتب التحقيقات الفيدرالي لاحقاً أن الكتابة بخط اليد لم تكن لصلاح.

بعـــد ثلاثـــة أيام من خدعة الشيك تلك، كانت زوجة صلاح، أزيتا، هي التي ظهرت على مسرح الأحداث.

سحبت مبلغ 750,000 دولار، ووضعته في حساب جديد في مصرف ستاندارد آنـــد ترست. بعد شهرين، سحبت 97,067.93 دولاراً لدفع قسط منـــزلهما، الذي كـــان باســـم صلاح، بالرغم من أنها كانت تعرف أن الأموال موجودة في الحساب لـــتوزيعها علـــى جمعيات خيرية أجنبية. قال العميل الخاص روبرت رايت في شهادته الخطّية: "قالت أزيتا صلاح إنها قرّرت الاحتفاظ بالأموال لنفسها بعد اعتقال زوجها في إســـرائيل. قالت إنها نقلت الأموال إلى حساب جديد لأنها خشيت من أن تحاول حكومة الولايات المتحدة مصادرتها"[8].

في الأراضـــي المحتلة، قام الإسرائيليون باعتقال آخرين اختاروهم من قائمة من أربعـــين اسماً كانت في دفتر عناوين صلاح. أحد المعتقلين كان بسام موسى، مدرّس خـــاص وناشط من الصفوف الدنيا لحماس من خان يونس، في جنوبـــي قطاع غزة. نجـــم عـــن اســـتجوابه سجل مذهل عن جهود حماس على الأرض للنجاة من حملة إسرائيلية ضد المنظمة.

في العام 1991، كان بسام موسى قد وافق على أن يصبح قائداً رديفاً، في حال قامت إسرائيل بحملة أخرى من الاعتقالات لشخصيات بارزة من حماس. جاء دوره بعـــد سجن مئات الإسلاميين في بداية العام 1992. كان الرجل الذي جنّد موسى في حماس قد هرب إلى السودان قبل أن يتم اعتقاله، لكن ليس قبل أن يعرّف المدرّس إلى أحـــد قادة حماس البارزين في غزة، غانم حشاش. قيل لموسى إنه إذا اختفى حشاش، ســـيكون مطلـــوباً منه تولي مسؤولية القيادة. عندما فعل ذلك، كانت مهمته الأولى التواصـــل مـــع قادة آخرين نجوا من الاعتقال؛ أو رديفين آخرين كانوا مثله مبتدئين يأخذون مواقع السجناء. كان ذلك التواصل يتم عبر ما يدعونه *صناديق بريد خاصة*،

في كـــل أنحـــاء القطـــاع، يتم إيداع ملاحظات مكتوبة بخط اليد فيها والتي يأخذها مراســـلون موثوق بهم لإيصالها إلى الشخص المناسب. كان الأمر بدائياً، لكن أثبت نجاحه.

تبنّى موسى أفضل تكتيكات الانتفاضة، التي كان قد تدرّب عليها. عندما عقد اجتماعات مباشرة بين قادة الصف الثاني، كان مطلوباً منهم التحقق من هوية بعضهم عـــبر محادثـــات مشفّرة، أحياناً بجلوسهم في أماكن معينة في مسجد الشيخ شعبان أو بقـــراءة *سورة* معينة من القرآن الكريم في مساجد أخرى معينة في غزة. كانت الخلايا صغيرة ولا تعرف بعضها بعضاً، والجميع يحمل أسماء مستعارة. ومن هؤلاء كان بسّام موسى أبو مجاهد.

عندما كانت أنباء أو تعليمات تصل عبر الفاكس من الخارج، كان يُطلب منهم تصويرها، خمس أو ست نسخ في كل مرة، وتوزيعها على أشخاص يقومون بدورهم بتصوير خمس أو ست نسخ منها، وهكذا "حتى يتلقى كل رجل في الشارع نسخة"، كما قال بسام لمحققيه. كان يستفيد من خدمات مراسل شخصي، "يستطيع إبقاء فمه مغلقـــاً"، وكـــان يغيّر بانتظام صناديق البريد الخاصة، التي يستعملها لتوزيع أموال أو تعلـــيمات لرفاقه. في إحدى المراحل، بينما كان يستعمل علبة كوكا كولا فارغة، في منطقة تبعد حوالى ثلاثة أرباع الميل إلى الجنوب من محطة وقود على الطريق بين رفح وخان يونس، كان شخص ما يستعمل علبة سفن - أب على جزء آخر من الطريق. في وقـــت آخـــر، استفاد موسى من ثقب في الجدار بين الحجيرتين الثانية والثالثة في حمامات الرجال في مسجد الرحمة.

كانـــت الأقـــسام المختلفة من حماس تتواصل داخلياً ومع بعضها بعضاً عبر صناديق بريد خاصة، ما عدا الجناح العسكري، كتائب القسّام، التي كانت تدير عملـــياتها بنفـــسها. كـــان بسام موسى يتواصل مع قائد الميليشيا أبو صعب عبر صـــندوق بـــريد في خزّان ماء في المقصورة الثالثة من الحمامات العامة في مسجد الجامعة الإسلامية.

جاءت بعض الأموال من الخارج بدفعات 50,000 دولار من حسابات مصرفية في سويـــسرا ومـــصر، والـــتي وزّعها بسام موسى للعمليات العسكرية، *والدعوة*، والأعمال الاجتماعية والخيرية.

كـــشف موسى أيضاً قناة أخرى لجمع الأموال من الخارج: أكاديمي محلي هو الدكـــتور فـــارس معمّر، الذي كان يرسل بين الفينة والأخرى فاكساً يقول فيه إن الأمـــوال قد وصلت إلى غزة. طيلة أكثر من عام، جاء أكثر من حوالى نصف مليون دولار عـــبر الدكـــتور، والـــتي كانت منفصلة عن مبلغ 370,000 دولار للمشاريع الاجتماعية و400,000 دولار إضافية لكتائب القسّام.

عـــندما ســـأله محققون إسرائيليون عن إشاراته المتكررة إلى *حماس الخارج*، بيّن موســـى أنه كان يشير إلى *رأس حماس* أبو مرزوق، الذي كان يعمل عادة، كما قال، من الأردن. قال: "تلقيت عدّة رسائل بالفاكس... منه".

بعـــد اعـــتقاله، الذي حدث بعد أيام فقط من اعتقال محمد صلاح في رام الله، حـــاول موســـى، لكنه فشل، في نقل رسالة مشفّرة عبر محاميه لقريبه فتحي صبحي *لحـــرق الأشياء*[9]. قال موسى لمحقق: "كان سيفهم أنني أشير إلى الأرشيف، لكنني لم أفهم لماذا لم يحرقه".

اســـتغل الإسرائيليون فشل صبحي في القيام بذلك العمل لقمع حماس. قدّم أبو حامد، وهو ضابط استخبارات آخر من الشين البيت كان قد عمل متخفياً تحت اسم مـــستعار لأسباب أمنية، تقريراً عن اعتقال اثنين من مقاتلي حماس قرب خان يونس، بعـــد أيام فقط من اعتقال المدرّس بسام موسى. بيّن أبو حامد أن أحد المقاتلين *أعلمه* بوجـــود مجمـــوعة ثميـــنة من وثائق حماس مخبأة في برميل مدفون في منـــزل قريب. "لاحظـــت بعد الكشف عن البرميل، أنه [المقاتل] فتحه وأخرج منه عدداً من أكياس النايلون التي قال إنها أرشيف حماس"[10].

كان بين مئات الوثائق رسالة تقلل من شأن أي معلومات يكشف عنها معتقلو حمـــاس لمحققـــين إسرائيليين، كما حدث مع صلاح عروري، عضو آخر كان قد تم اعـــتقاله نتيجة فشل صلاح في مهمته. أخبر عروري المحققين معه كيف نقل اثنين من الـــرجال المطلوبين للإسرائيليين من الضفة الغربية إلى غزة[11]، بتكديس أوراق حمّام قيمـــتها ثلاثـــة آلاف دولار حولهما بينما كانا يجثمان في صندوق شاحنة متجهة إلى غزة. لكن الرسالة التي تم العثور عليها في أرشيف حماس كانت محاولة يائسة للحصول علـــى مـــساعدة مـــن مـــنظمة تترنح وسط موجات متعاقبة من عمليات الاعتقال الإسرائيلية. كان سببها بسام موسى.

في رســـالة كتبت في تشرين الأول 1992، مؤلفة من سبع صفحات موجهة إلى أبــو مـــرزوق. اشــتكى موسى من أنه لا يتلقى أموالاً لبرنامج حماس الواسع، وأن 100,000 دولار فقــط كانت قد وصلت للقيام بعمليات عسكرية، التي أشار إليها برمـــز *الأداة الإيجابية*. كانت الأحوال سيئة جداً حتى إن أعضاء حماس كانوا يبيعون ذهـــب زوجاتهم من أجل الاستمرار في العمليات، كما قال. استشاط بعض أعضاء الفروع المحلية غضباً، وهدّدوا بأن يشقوا طريقاً خاصة بهم. كان هناك إحراج كبير في كـــتائب القسام لأن تاجراً كان يعرض آلاف الأسلحة، ومن دون أموال لم يكونوا يـــستطيعون مواصـــلة أعمالهم. أخبر موسى أبو مرزوق: "نحن بأمس الحاجة إلى كل قرش يُفترض أن نحصل عليه من أجل دعم ميليشياتنا *ودعوتنا*".

بالـــرغم من الضغط الإسرائيلي المكثّف، كانت حماس تقاتل بضراوة أيضاً على جبهة أخرى هذه المرة. كان كل من الإسلاميين ومنظمة فتح بقيادة عرفات يخوضون معـــركة طاحـــنة للسيطرة على عدد من المجموعات والتنظيمات المختلفة التي كانت مجالـــسها المنتخبة تشكل قواعد اجتماعية وسياسية قوية. كان النـــزاع قد وصل إلى ذروتـــه في العـــام 1992[12]. مدعومة من فصائل علمانية أخرى في منظمة التحرير الفلـــسطينية، سيطرت فتح على نقابات المهندسين، والأطباء، والمحامين في غزة، لكن حمـــاس اكتـــسحت غرفة التجارة. في الضفة الغربية، سيطر الإسلاميون على الهيئات الـــتجارية والطلابية في الخليل، إلا أن الهلال الأحمر ظل خارج دائرة سيطرتهم. كان الفلـــسطينيون مذهـــولين عندما انتقل النـــزاع إلى رام الله، وكانت حماس من أحرز نـــصراً في غـــرفة الـــتجارة، التي كانت لوقت طويل حصناً للقوميين العلمانيين أو النصارى.

تـــنافس الجانبان بقوة في كل قاعة محاضرات، وداخل كل حرم جامعي، وصولاً إلى آخـــر مقعد في كل غرفة تجارة. وجهت حماس ضربات قوية في نـــزالات القوة تلـــك إلى درجـــة أن وفد منظمة التحرير الفلسطينية العلمانية، الذي كان يشترك في مفاوضـــات سلام مع الإسرائيليين في العام 1992، كان قد طلب بأن تقوم إسرائيل بتأجـــيل الانتخابات في الأراضي المحتلة. كان المخطط الإسلامي يصبح أكثر قوة[13]. في وقت الاشتباكات العنيفة بين المنظمتين بشأن التزام عرفات بالتفاوض للتوصل إلى اتفاقـــية سلام[14]، كان هناك شعور متزايد بأن الفلسطينيين بحاجة إلى الاعتماد على

أنفسهم أكثر. كانت مصداقية إسلاميي حماس إكسيراً قوياً صهر الوطنية والقومية، مع قلوب وأذهان يملؤها الإيمان، فيما كان، بالنسبة إلى كثيرين، جوهراً مغرياً للجهاد.

كان الاختراق الدبلوماسي في أوسلو قد أثار من جديد اهتماماً دولياً بقي ساكناً مدة طويلة، وآمالاً أيضاً، بالتوصل إلى تسوية سليمة لأزمة الشرق الأوسط. كانت إحدى النتائج الثانوية هي تدفق المزيد من الدبلوماسيين وخبراء الاستخبارات إلى المنطقة، وتوقفوا جميعاً في الأردن. لكن كل من حاول التوسط لعرفات لدى ذهابه لرؤية سميح البطيخي في إدارة المخابرات العامة في عمّان سرعان ما تراجع عن ذلك. أصبح *وسواس عرفات* تعبيراً من كلمتين يلخص انعدام ثقة الأردن العميقة التي امتدت طيلة عقود بقائد منظمة التحرير الفلسطينية[15].

لكن سواء أكان جديراً بالثقة أم لا، كان لدى عرفات آنذاك جائزة نوبل للسلام على رف موقده؛ بشكل سابق لأوانه كما سيتضح لاحقاً. لتحقيقه اتفاقية أوسلو، كان قد اشترك في الجائزة مع شخصين آخرين. الأول، إسحاق رابين الذي كان، بصفته وزيراً للدفاع الإسرائيلي في بداية الثمانينيات، قد شجّع الإسلاميين على تقويض سلطة فتح، لكنه أصبح آنذاك رئيس الوزراء الإسرائيلي الذي سيعترف بعرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية. كان الفائز الثالث شمعون بيريس، وزير خارجيته، والذي كان، بصفته رئيساً للوزراء في منتصف الثمانينيات، قد وافق على طلب رابين بعدم التدخل في شؤون الدفاع عندما كان ذلك الأخير يغض الطرف عن نشاط الإسلاميين. كان إقناع هيئة التحكم النرويجية شيئاً، والتحدي الذي واجهه عرفات آنذاك بإقناع شعبه أن اتفاق أوسلو كان محاولة تستحق الجائزة شيئاً آخر تماماً.

كانت حماس، خصمه الرئيسي، تمثّل كل ما كان عرفات قد تخلّى عنه بعد خروجه من الثلاجة الدبلوماسية. من ناحية المبدأ، احتفظت حماس بحق استعمال العنف كسلاح شرعي في الصراع، وادّعت أن *كل* فلسطين التاريخية وطن لشعبها. كانت ترى في نبذ العنف والتفاوض على الأراضي، بطريقة ما، هما *البطاقة الأخيرة* التي يمكن اللعب بها فقط عندما يعرف الفلسطينيون بدقة ما سيحصلون عليه بالمقابل. أثبتت شخصيات بارزة من حماس مهارة كبيرة في التكتيك السياسي، اتهمت عرفات

بالخيانة في الوقت نفسه الذي قدّمت فيه عروضاً غير مباشرة لهدنة طويلة الأمد وأموراً من هذا القبيل. لكن قادتها حرصوا دائماً على عدم ظهورهم كمن يقدم تنازلات سياسية مثل عرفات، وأن الإسرائيليين لن يحصلوا على شيء منهم.

في وقت كان فيه عرفات هائماً على وجهه خلف بحار محفوفة بالمخاطر، كانت أوسلو طوق نجاة. كان بحاجة إلى اتفاق لتأمين موارد تنمية دولية ربما تساعد على وقف ارتفاع المد الإسلامي الذي يقوّض قاعدة سلطته في كل أنحاء الأراضي المحتلة. كان أحد آخر مبالغ التمويل التي حصلت عليها منظمة التحرير الفلسطينية قبل كارثة الكويت مبلغ 50 مليون دولار من صدّام حسين. كان عرفات يعلم أنه يقدم على مغامرة عندما أجاز المحادثات في الغابة النرويجية، لكنه كان يعرف أيضاً أنه مفلس. كان قد تم تسريح موظفي منظمة التحرير الفلسطينية بالآلاف، ولم يحصل مقاتلو عرفات الذين تبعثروا منذ إبعاده من بيروت في العام 1982 على رواتبهم طيلة سبعة شهور. كانت دفعات الخدمة الاجتماعية لمخيمات اللاجئين في المنطقة قد توقفت، وتوقف كذلك العمل في أقسام منظمة التحرير الفلسطينية، بما فيها وحدة المعلومات بالغة الأهمية[16].

كان هناك شعور انفعالي لكنه أكيد بالنصر عندما استقر عرفات وحاشيته في غزة لإنشاء السلطة الفلسطينية في منتصف العام 1994، وفقاً للاتفاق مع الإسرائيليين في مفاوضات أوسلو. لكن بدلاً من كل المساعدات الاقتصادية التي وُعدوا بها في مؤتمر دبي بشأن التعاون في حوض المتوسط، أو الديمقراطية، سرعان ما اكتشف الغزّاويون أن الأوضاع لن تتغير كثيراً. ما زاد من المخاوف التي تم التعبير عنها في ورشة عمل حماس في فندق كورتيارد ماريوت في فيلادلفيا قبل عام، هو أن قوات الأمن الفلسطينية الجديدة كانت مليئة بآلاف من أنصار فتح من الخارج. حصل أصدقاء عرفات المقرّبون في الخارج على حصة الأسد من الوظائف والعقود، مما سمح لهم بتبديد مبالغ طائلة من أموال المساعدات الخارجية على بناء قصور فاخرة لهم وتأمين تعليم في الخارج لأبنائهم. شارك هؤلاء في صفقات تجارية مريبة مع رجال أعمال إسرائيليين مختلفين كانوا قد أتقنوا الاستفادة من الفساد.

كان عرفات قد عاد إلى الوطن غريباً. لكنه كان عاقد العزم على فرض نفسه وأساليبه على مجتمع ممزق وغير مستقر لم يكن قد عرف سوى الاحتلال منذ العام

1948. كـــان ذلك مكاناً عدائياً وثائراً، استطاعت فيه حماس تثبيت أقدامها بصفتها القوة السياسية المتماسكة الوحيدة[17].

لم يـــستطع عرفات خلع عباءة الثائر القديمة، أو الابتعاد عن النـــزعة العربية في إنـــشاء دولة رجل - واحد ونتيجتها الحتمية: الفساد. اعتمد على حوالى اثنتي عشرة قوة أمنية متسلطة ومتنافسة فيما بينها لتعزيز سلطته. كان يدعمها نظام قضائي يعتمد علـــى محاكمات صورية خلف أبواب موصدة، والتي كانت لا تدوم أحياناً أكثر من دقائـــق معـــدودة[18]. كـــان الرد على انتقادات وسائل الإعلام يتم باتهام المحررين بالتحـــريض علـــى الفتنة وإصدار أحكام بحقهم تصل إلى السجن أعواماً طويلة[19]. عـــندما انتقد راجي صوراني، رئيس المركز الفلسطيني لحقوق الإنسان في غزة والذي يحظـــى باحترام واسع، إطار العمل القانوني الفلسطيني الجديد، جاءته قوة من الشرطة في منتصف الليل واعتقلته من سريره. كان عرفات قد أعاد إنشاء نسخة من إقطاعية الأيـــام الحالكة التي أدارها في بيروت[20]. لكن بمواجهة تحدٍّ محلي، لجأ عرفات إلى ما اعتبره البعض لعبة مزدوجة، استمرت سياسة اعتقالات اليد الحديدية، لكن كان يتم إطـــلاق ســـراح البعض ممن يُدانون في محاكمه الصورية بعد وقت قصير من صدور أحكام بحقهم.

بعـــيداً عن أي انتقاد، نال قائد منظمة التحرير الفلسطينية مديحاً ودعماً دوليين، خاصة من واشنطن[21]. كان من الأشياء التي مسّت كرامة موسى أبو مرزوق في أثناء وجوده في زنـــزانة في نيويورك ينتظر استكمال إجراءات طلب تسليمه إلى إسرائيل، هـــو احـــتجازه في المديـــنة فـــيما كـــان عرفات محور اهتمام خمسة أيام من العمل الدبلوماســـي، في أثـــناء احـــتفال نيويورك والعالم بالذكرى الخمسين لإنشاء الأمم المتحدة.

مراقباً المشهد السياسي بعد أوسلو من عرينه الجديد في عمّان، شعر خالد مشعل أن هناك سبباً آخر يدعو للقلق - بعيداً عن مشكلات الميزانية - والذي كان قد دفع بعـــرفات للإسراع على طريقي مدريد وواشنطن، قبل تحوُّله المثير إلى أوسلو. لم يكن كـــثيرون لـــيأخذوا رأي مشعل على محمل الجد آنذاك، لكنه شعر بأن قائد منظمة التحريـــر الفلـــسطينية كان قد أدرك متأخراً أن حماس تمتلك قيادة، انضباطاً داخلياً، ودعماً شعبياً لمواجهة عرفات وحركة فتح في الأراضي المحتلة.

في بادئ الأمر، أُصيب الملك حسين بالصدمة مما حدث في أوسلو. بعيداً عن أي اعتبارات جيو - سياسية، كان غاضباً لأسباب شخصية. من ناحية، كان قد وجد نفسه خارج دائرة أوسلو، بالرغم من دوره الأساسي في إطلاق العملية السلمية في كل من مدريد وواشنطن؛ ومن ناحية أخرى، كان عرفات قد اختطف منه دوره العزيز على قلبه بصفته الشخصية العربية في احتفالات السلام.

علانية، كان فظّاً عدم الانضمام إلى جوقة المهنئين، لكن سراً كان الملك يرى في أوسلو اتفاقاً سيئاً. لدى سماعه أنباء أوسلو أول مرة، قال الملك لمعاونيه: "ينبغي أن نسعى إلى تحقيق السلام وليس تسوية جزئية"[22].

لكن حسين قام بعد ذلك بحركته المذهلة. إذا كان عرفات قد توصل إلى ما يعتبره الجميع معاهدة فلسطينية مع إسرائيل، عندها سيكون الطريق مفتوحاً للأردن للقيام بالشيء نفسه، كما استنتج. كان ذلك هدفاً منذ وقت طويل للملك، وهكذا، بعد أسبوعين فقط من توقيع اتفاق أوسلو، سمح ببدء مفاوضات لتوقيع معاهدة مماثلة في خلال اجتماع سري مع رئيس الوزراء إسحاق رابين في ميناء العقبة على البحر الأحمر.

لم يكن لدى خالد مشعل وقت ليلتقط أنفاسه. كانت حماس قد سحبت القوة من قرار عرفات، كما رأى الإسلاميون الأمر. فجأة، كانت حماس بحاجة أيضاً إلى التعامل مع حقيقة أن الأردن، البلد المضيف لحملتها في الأراضي المحتلة، كان يستعد للقفز إلى الأحضان الإسرائيلية بتوقيع معاهدة مماثلة، والتي تُنهي رسمياً حوالى ثلاثة عقود من العداء مع إسرائيل، ولكشف ما كان حتى ذلك الوقت، علاقة حسين السرية الطويلة مع جيرانه الغربيين.

كان هناك تصعيد مدروس في وتيرة عمليات حماس بعد أن وقّعت إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية اتفاقاً يمنح الفلسطينيين حكماً ذاتياً محدوداً في غزة والضفة الغربية في احتفال في البيت الأبيض في أيلول من العام 1993. لم يكن توقيت وطبيعة رد حماس مصادفة. لتحطيم مصداقية عرفات واتفاق أوسلو، كانت حماس بحاجة إلى زعزعة استقرار نظام منظمة التحرير الفلسطينية الجديد المقترح. لهذا، في صبيحة أول يوم للسلام المزعوم، حاول بهاء الدين النجار البالغ من العمر تسعة عشر عاماً تفجير مركز الشرطة المركزي في غزة، وكان ذلك واحداً من أربع هجمات في

غضون ثلاثين ساعة[23]. لكن حماس كانت بحاجة أيضاً إلى إثارة غضب الإسرائيليين، ومن أجل القيام بذلك، ستقوم الحركة بإدخال سلاح جديد مروّع إلى النــزاع.

بعــد اعــتقال أبــو مرزوق في مطار جون أف. كنيدي، ادّعى عميل مكتب التحقــيقات الفيدرالي جوزيف همل أن أبو مرزوق كان قد اعترف بمعرفته لفلسطيني يبلغ من العمر واحداً وعشرين عاماً ويدعى يحيى عيّاش. مضى همل إلى أبعد من ذلك، وادّعــى أن أبــو مرزوق وصف عيّاش بأنه "بطل، ورجل رائع"[24]. سيكون هناك جــدال حول هذه النقطة، هل كان ذلك رأي أبو مرزوق، أم أنه قال إنه رأي الكثير مــن الفلسطينيين؟ على أي حال، كانوا يتكلمون عن رجل خطّط لوحده لموجة من أعمــال العــنف المروّعة التي اجتاحت إسرائيل والأراضي المحتلة. كانوا يدعونه *المهندس*.

في نــــزاع كانــت فيه الدماء وحدة القياس الأولى، أثارت عملية استشهادية وقعت خارج مقر قيادة الجيش الإسرائيلي، في بيت إيل في الضفة الغربية في 4 تشرين الأول مــن العــام 1993، أثــارت اهتمام وسائل الإعلام، بالرغم من جهود سابقة لأجهــزة الأمن الإسرائيلية لإحباط مثل تلك الهجمات[25]. كان سائق سيارة محمّلة بالمتفجرات، ويدعى كمال بني عودة وعمره عشرون عاماً، الوحيد الذي لقي حتفه، لكــن ثلاثــين راكباً في حافلة إسرائيلية أصيبوا بجروح[26]. كانت معظم الإصابات طفيفة، وليس بينها ما يهدد الحياة. لكن مجرد حقيقة أن ثلاثين شخصاً أصيبوا بجروح وربما كانوا لقوا حتفهم كانت كافية لجعل شعب حذر يدرك أن عملية بيت إيل هي الخامــسة في سلسلة من العمليات. كانت الأخرى فاشلة أيضاً لكن فقط لأن سائقي تلك السيارات المحمّلة بالقنابل لقوا حتفهم.

مثل كل أعضاء الخلايا العسكرية في كتائب القسّام التابعة لحماس، كان عيّاش يــتوارى عــن الأنظــار في وجه موجة أخرى من الاعتقالات. ورع دينياً ومهندس إلكتــرونيات بالتدريب، عاد عيّاش إلى كتبه بعد فشل العمليات الأولى، عمّق فهمه للمتفجــرات يدويــة الصنع، وصقل معرفته بشأن أفضل الطرائق لتوجيه قوة انفجار أدواتــه البدائــية من أجل إحداث أكبر ضرر ممكن. في غضون ذلك، تدخلت طبيعة دورة العــنف في الإقليم لتمنح قادة عيّاش في حماس آخر عنصر ضروري لشن حملة تفجــيرات مــروّعة، وضرب الروح الإسرائيلية وهوسها بمصيرها الوجودي. ووفقاً

للأحـــداث آنـــذاك، كانت تلك القنابل المبكرة غير الفعّالة تستهدف عملية السلام وعرفات بقدر ما تستهدف رابين. كانت حماس بحاجة إلى سكين للمضي قدماً.

عندما كانت حماس على وشك تكثيف عملياتها، جاء هجوم مروّع من الجانب الآخـــر ليعدّ المشهد لارتفاع مذهل في أعداد القتلى. في الساعات الأولى من صبيحة أحد أيام رمضان، في أواخر شباط من العام 1994، نهض الطبيب المولود في بروكلين بـــاروخ غولدشتاين من سريره في كريات عربة، وهي مستوطنة إسرائيلية تطل على مديـــنة الخليل في الضفة الغربية. مرتدياً ملابس جنود الاحتياط، قاد سيارة إلى الحرم الإبراهيمي القديم في *كهف البطاركة* (مغارة الأولياء). ومسلحاً ببندقية جليل (طبرية) آلية، وهي النسخة الإسرائيلية من إيه - كي 47، مرّ غولدشتاين عبر نقطة تفتيش أمن إسرائيلية، ودخل المسجد المكتظ بالمصلّين، ثم فتح النار عليهم. إلى أن لقي حتفه ضرباً حـــتى الموت من قبل حشد المصلّين الغاضبين، كان الطبيب - المستوطن المتطرف قد قـــتل ثلاثـــين فلـــسطينياً. وفي خلال الاحتجاجات التي تلت ذلك، ستقتل القوات الإسرائيلية اثني عشر آخرين[27].

كـــان عـــيّاش يميل لما يعتبره قضية الثأر العربـــي النبيلة. في الأسبوع الأول من نيـــسان، بعد أن قتل استشهادي تسعة إسرائيليين، وجرح خمسة وأربعين في العفولة، شمالي إسرائيل، أعلنت حماس أنها كانت العملية الأولى من خمس هجمات انتقامية لما حدث في الحرم الإبراهيمي[28]. قال البيان: "[سيجعل كل واحد منا] الصهاينة يبكون دماً على موتاهم"[29].

بعـــد أســـبوع، لقي ستة حتفهم وأُصيب خمسة وعشرون بجروح عندما فجّر استـــشهادي شحنته الناسفة في حافلة في الخضيرة. في تشرين الأول، تم تفجير حافلة أخـــرى في تل أبيب حيث مات اثنان وعشرون شخصاً وجُرح ثمانية وأربعون. بعد شـــهر، قـــاد استشهادي دراجة هوائية إلى مستوطنة يهودية في نتزاريم في غزة، وقتل ثلاثة جنود إسرائيليين وجرح أحد عشر. في تموز من العام 1995، قبل يوم من اعتقال أبـــو مرزوق، لقي ستة مدنيين إسرائيليين حتفهم في هجوم استشهادي على حافلة في رمات غان، قرب تل أبيب.

شكّل كل ذلك تحولاً جذرياً في سياسة حماس، والتي كانت تتطلب ذهناً قاسياً وأعـــصاباً من فولاذ. أقر مسؤول بارز في حماس لاحقاً بقيادة عيّاش لكتائب القسام،

وحـــاول تفسير المنطق المرعب في حملة عيّاش الدموية بتعبيرات واضحة لكن بسيطة: "القـــوة هي السلاح الوحيد الذي يجعل الإسرائيليين ينـــزفون، ولدينا دائماً أشخاص مستعدون للقيام بذلك"[30].

رفض عرفات ورابين السماح بحرف عملية السلام عن مسارها، لكن إجراءاتهما الصارمة الانتقامية كانت رهيبة. اعتقل كل من الإسرائيليين وقوات الأمن الفلسطينية الجديـــدة الـــتابعة لعرفات مئات ممن يشتبه بانتمائهم لحماس. كان هناك توقع واسع النطاق بأن عدد أفراد كتائب القسام في ذلك الوقت يبلغ أكثر من مئة مقاتل، يعملون في خلايا صغيرة مستقلة، ويقاتلون حتى الموت، مما يقلل من فرص أعدائهم في القبض عليهم.

حظر عرفات المظاهرات في الشوارع، وطبّقت إسرائيل أساليب استجواب أكثر قسوة. في تشرين الثاني، أثارت قوات عرفات غضب الفلسطينيين عندما فتحت النار، وقـــتلت أربعة عشر محتجاً في مظاهرة في غزة، مما جعله يتحمّل مسؤولية واحدة من أعلـــى معدلات موت الفلسطينيين منذ بداية الانتفاضة قبل سبع سنوات. كلما كان عـــرفات يرضخ للضغط الإسرائيلي والأميركي باعتقال المزيد من الإسلاميين، بدا أن حملة الإسلاميين لتحطيم مصداقية السلطة الفلسطينية تنجح أكثر.

وصف مساعدو عرفات سياسته في التعامل مع حماس بأنها *الجزرة والعصا*. لكن، بغـــياب ودٍّ ظاهـــر وأعمـــال بـــراغماتية لإرادة طيبة، كانت العلاقة بين الفصيلين الفلسطينيين الرئيسيين - فتح وحماس - محكومة بالعصا، من دون الجزرة. كان الشك المتـــبادل ومبدأ أن خسارة طرف ربح لطرف آخر هي التي ستحكم العلاقة منذ ذلك الوقت فصاعداً.

في تلك الأثناء، أصبح كل شيء شخصياً. اتهمت حشودٌ عرفات بأنه خائن بعد احـــتجاجات غاضبة بشأن موت شخصية إسلامية بما كان يُفترض أنه انفجار سيارة أعـــدّ لـــه عملاء إسرائيليون. كانت هناك تقارير بأن حشوداً متدافعة انتزعت علامة عرفات المميزة، الكوفية، من على رأسه[31]. لم يكن واضحاً أبداً إن كانت تلك هي الحادثـــة الخاصة التي علقت في أذهان رجال أمن عرفات، لكن بعد سنوات من ذلك كـــان حرّاســـه القدامى لا يزالون يشتكون من الإهانة التي وجهها أنصار حماس إلى عرفات بإرغامه على الهروب من مسجد في غزة. بعد أكثر من عقد، بقيت آثار تلك

الحادثـــة ماثلة في ذهن أحد كبار مساعديه. ومشتكياً من أن عرفات تعرض للهجوم في أثناء تأديته الصلاة، قال: "حاولوا إلقاء القبض عليه؛ هرب في سيارة أجرة، لكن لم يكن لديه وقت لاستعادة حذائه أو كوفيته"[32].

في بضع سنوات فقط تسارعت فيها الأحداث منذ بدء الانتفاضة، كانت حماس قد حققت أكثر مما حققته منظمة التحرير الفلسطينية في خلال أكثر من عشرين عاماً. تمامــاً كما كان الشاب خالد مشعل قد خطّط في الكويت في بداية الثمانينيات، كان ذلك *نموذجاً جديداً من المقاومة*. كانت حماس قد أصبحت قوة لا يمكن تجاهلها.

10

القليل من الغموض مفيد

كانت فاتنة بملابسها الوردية. عندما خرجت رانيا قدري من منزلها ذلك اليوم، حرّكت نسائم عمّان سروالها المصنوع من الكتان الوردي؛ وكان قميصها الوردي الفاتح مزيناً بخيوط ذهبية وأصداف زرقاء. حتى حقيبة يدها من صنع غوتشي التي تتدلى على كتفها المكشوفة كانت وردية اللون. وكانت تضع نظارة شمسية مرصعة بأحجار من صنع إيف - سان لوران فوق أنفها حتى وقت معين من اليوم، ثم تستبدلها بنظارة أكثر لفتاً للأنظار من صنع شانيل.

في أوائل الثلاثينيات من عمرها، كانت رانيا قدري قد انتقلت كثيراً بالنسبة إلى مراقب عادي لتعد عشرات الماسات في عقدها الذهبي. مرة، في مناسبة شهيرة عندما قدّم أحد خدم منزلها قبعات بيسبول للضيوف الصغار الذين يحضرون حفلة ذكرى مولد أحد أبنائها بجانب حوض السباحة، كانت قد انقضّت على كومة من القبعات، وأخذت واحدة في نوبة رعب كبير. بدا أن اسم إحدى العلامات التجارية التي تحبها كثيراً قد وجد طريقه من دون قصد إلى قبعات الحفلة. وكان أن صرخت: "ليس برادا".

عندما كانت قدري تغادر المنزل صباح كل يوم، كان سائقها خليل يتجه إلى سيارة لاند روفر زرقاء خلف بوابة أمامية تزينها أوراق تعريشة عنب. مشدوداً مثل سَير شفرة، كان خليل يحمل دفتر هواتفها النفيس، ثلاثة أو أربعة هواتف خليوية... وقارورة قهوة *المدام* العملاقة. "أحبها فقط بالطريقة التي أُعدّها بها"، وبيّنت أنها تدخل منازل ومكاتب مسؤولين حكوميين بالهدوء نفسه الذي تدخل به أماكن تواجد المشتبه بأنهم إرهابيون، مسؤولون حكوميون فاسدون، أو شيوخ القبائل.

كانت رانيا قدري قد درست القانون قبل أن تمتهن العمل الصحافي في مدينة تقع على تقاطع طرق الوطن العربي. كانت مقصد المراسلين الأجانب الذين كانوا يقصدون بابها عندما تلوح أزمة في الأفق حتى إنه كان كافياً أن يقول هؤلاء لسائقي

سيارات الأجرة في فندقي فور سيزنز أو إنتركونتيننتال: "منزل رانيا". بالرغم من كل تلك المظاهر البرّاقة، كانت قدري مراقبة حكيمة، وناقدة لمجتمعات عربية ومحللة بارعة لمشكلاتها ونقاط ضعفها المتداخلة ببعضها، وثقافاتها وتقاليدها الغنية. زائرة دائمة لمخيمات الفلسطينيين، حيث كانت تقضي ساعات تناقش أموراً سياسية في أثناء جلوسها على الأرض في منازل اللاجئين، وكانت تنزعج كثيراً من الفساد المتزايد والجشع في الأردن.

سواء أكان المراسلون من *نيويورك تايمز* أو *واشنطن بوست*، سي أن أو سي بي سي كندا، كان تحليل الصحافيين الذي يستند إلى معرفة واسعة وإطلاع كبير يتشكل غالباً في أثناء تناول القهوة العربية والكعك إلى طاولة قدري العارمة بالفوضى، حيث كانت تستقبل الجميع من لاعبين سياسيين بارزين إلى شيوخ القبائل إلى كثيرين يكونون قد سمعوا أنها ربما تساعدهم على الخروج من ورطة ما. كان دفتر هواتف قدري موضع حسد الجميع. كانت تقول للوافدين الجدد الذين يحدّقون بذهول في مجموعة أدواتها المذهلة: "حتى باربي لديها عقل". كان الزوّار يستغربون من قراءتها المكثّفة بشأن المستجدات الراهنة، والتي كانت تظهر أحياناً في قرارها الشخصي في تحديد الوقت المناسب للذهاب إلى مقر المخابرات تحمل طبقاً من الكعك... أو تحدق في رجال الأمن المحليين الذين ربما يرغبون في اعتقالها أو المكوث في مكانها لإدارة عملها.

كانت قدري زائرة دائمة لمكتب حماس الرئيسي، في مبنى صغير خلف فندق عمرة، على طرف الحي الدبلوماسي. كانت قد وجدت أن موسى أبو مرزوق شخص معتدل، أكثر ذكاءً من الوافد الجديد خالد مشعل. كانت تقول عن مشعل: "إنه الأقل إثارة للاهتمام بينهم. كان أبو مرزوق يقوم دائماً بتقديمه، لأن الناس على ما يبدو لم يكونوا يتذكرونه". عندما تم اعتقال أبو مرزوق، أصبح مشعل القائم بأعمال رئيس المكتب السياسي. لكن، كما كانت قدري تفهم الأمر، كان ذلك إجراءً موقتاً ويبقى أبو مرزوق الرئيس. قرّرت أن مشعل "مجرد رجل تسيير أعمال، تم اختياره لقدراته المتواضعة، لهذا يستطيع أبو مرزوق استئناف القيادة لاحقاً". بالرغم من ذلك، أنبأها حدسها أن تراقب مشعل عن كثب.

كان مشعل قد جاء إلى عمّان بهدوء شديد في العام 1990 حتى إن كثيرين لم يلحظوا وجوده في البداية. كانت تلك خطة متعمّدة. كان أبو مرزوق وأشخاص

آخـــرون واجهة للتعامل مع الحكومة، والتحدّث مع الدبلوماسيين، وتزويد المراسلين بالمعلـــومات. اســـتمر مشعل، من ناحية أخرى، بالعمل خفية، كما كان قد فعل في الكويت.

كـــان لأبـــو مـــرزوق أسلوب معين. مثل معظم قادة حماس البارزين، لم يكن يـــدخن. كان أنيقاً دائماً، يقدّم لزائريه القهوة العربية التقليدية المحلاة فيما كان يفضل بيبـــسي المخصصة للحمية أو نسكافيه، التي كان يحلّيها بقطعة من كانديرل. وصف أحد الأجانب مظهر الأصولي الملتحي بأنه حسن *الهندام*. إذا وضعت زائرة يدها على قلبها، وهي علامة على تحية من دون مصافحة في الوطن العربـــي، كان أبو مرزوق عادة ينحني إلى الأمام ويمد يده ليصافحها بطريقة غربية تقليدية.

كـــان مكـــتب أبو مرزوق مزيّناً بسور من القرآن الكريم وصور مؤطرة للشيخ الـــسجين أحمـــد ياســـين. لكن تجهيزات وأثاث المكتب كانت ما يعتبره العمّانيون المحافظـــون *خليجياً تماماً*، مع طغيان اللون الأسود المزركش بالأحمر. كان أبو مرزوق يحـــتفظ بمـــسدس في خـــزانة الملفـــات، وكان مكتبه يعج بالنشاط دائماً نظراً لقيام مسؤولين حكوميين وأشخاص آخرين بزيارته. قالت قدري: "عندما كنا نتكلم معه، كنا ندرك أننا نتكلم إلى قائد حماس".

كانت السلطة في حماس غير واضحة المعالم وموزّعة على عدّة أشخاص بصورة مـــتعمدة. كان يناسب قيادة المنظمة البعيدة التي تعمل سراً أن تركز وسائل الإعلام العالمـــية علـــى الشيخ ياسين المسجون في الأراضي المحتلة، جمعياته الروحية والخيرية واستشهاديي وقنّاصي كتائب القسام.

كانت هناك مراكز ثقل شخصية للسلطة؛ والتي تضمنت ياسين، بصفته مؤسساً للعمليات راسخة الجذور في غزة، ومشعل، واضع الخطة الاستراتيجية التي تم قبولها في مؤتمر عمّان والقوة المحركة خلف مشروع الكويت. كان ياسين قد نصّب أبو مرزوق كـــأول رئيس للمكتب السياسي، على أمل أن يمنح حماس حضوراً ظاهراً بعيداً عن متـــناول أيدي الإسرائيليين، وأن يقوم، مع أولئك الذين حوله، بموازنة الثقل الداخلي الذي يمثّله الكويتيون.

كـــان أعضاء المكتب السياسي، بالمقابل، مبعثرين نظراً لوجود ممثلين لحماس في عمّان، طهران، دمشق، وبيروت. كان بعض الممولين البارزين في مجتمعات الشتات -

في الولايات المتحدة خاصة – مؤثرين أيضاً. طلب أحد أعضاء المكتب السياسي الذي كان يقوم بزيارة لمكتب وكالة الصحافة الفرنسية في عمّان إجراء مكالمة هاتفية، قبل أن يستطيع والصحافية رندا حبيب التحدّث بشأن سوء معاملة حماس لزملائها في الوكالة في الأراضي المحتلة. بعد أن غادر الرجل، ضغطت حبيب على زر إعادة الاتصال لتكتشف أن الشخص من حماس الذي تم الاتصال به كان في ذلك الوقت في إحدى المقاطعات البريطانية القريبة من لندن.

بالنسبة إلى مراقبين خارجيين، كانت هناك سلطة أكثر غموضاً في حماس تتمثل في مجلس الشورى، وهو مجلس استشاري يتم تعيين أفراده الستين أو أكثر مع الإبقاء على هويتهم سراً. في مكانة أعلى من القيادات المحلية، العسكرية، والمكتب السياسي في بداية التسعينيات، كان معظم هؤلاء شخصيات دينية، وجاء تصفهم تقريباً من فروع وطنية أخرى للإخوان المسلمين في أرجاء المنطقة[1]. كان مجلس الشورى يضع الخطوط العريضة للسياسة، مثل الاشتراك في الانتخابات؛ يقيّم الأداء الداخلي؛ وينتخب لجنة عالية المستوى يتم تعيين أعضاء المكتب السياسي منها. في شرحٍ لدور القيادة الخارجية المهيمن، يبين أحد قادة حماس البارزين في غزة: "لهذا السبب نقول إن فلسطين هي قضية إسلامية مئة بالمئة، *وليست* قضية فلسطينية مئة بالمئة"[2].

كانت عملية اتخاذ القرار في حماس تستند إلى مبدأ *الشورى*، الذي يصرّ على إجراء مشاورات داخلية شاملة قبل التوصل إلى قرار، ثم يكون الجميع بعد ذلك ملزمين بدعمه. كانت النية حماية المنظمة من طموح أفراد بعينهم أو تصلب في آرائهم، لكن عندما وصل مشعل وفريقه من الكويت في العام 1990، تساءل البعض في حماس إن كانت العاصمة الأردنية تتسع لكل من خالد مشعل وموسى أبو مرزوق.

بخلاف أبو مرزوق، لم يظهر مشعل على الساحة أمام الرأي العام. كانت تفاصيل المناقشات السياسية ومقدار كبير من النشاط الداخلي في حماس تظهر في وسائل الإعلان الناطقة بالعربية وفي سجلات محاضر الحركة الداخلية، وهي أشياء كانت محط اهتمام الإسرائيليين. لكن الغائب عن النقاش وعن كل اعتبارات القيادة كان اسم مشعل، حتى بعد وصوله إلى عمّان. بعد أن تعرض لاحقاً لضغوط بشأن ابتعاده عن الأضواء في المراحل الأولى، سيقول مشعل فقط: "القليل من الغموض مفيد. يعلم رفاقي والله ما كنت أفعله"[3].

لكن العديد في عمّان لم يفهموا دور القادم من الكويت. يشرح إسلامي أردني بـــارز: "قيل لنا إنه يقوم باتصالات دولية. كان يتولى العلاقات مع منظمات إسلامية أخرى وبعض فصائل منظمة التحرير الفلسطينية. كان يحاول إقامة علاقات مع أنظمة مختلفة، لكن لم يكن أحد يعرف حقاً من يكون أو ما يقوم به"[4].

أحـــياناً بـــصحبة آخرين، وفي أحيان أخرى وحيداً، كان مشعل يتكلم جيداً. لكـــن، بالنـــسبة إلى الـــبعض، لم يكـــن هناك إحساس بأنهم يستمعون إلى قائدهم المـــستقبلي. كـــان معـــروفاً عـــنه أنه يستفيد من عملية *الشورى* لما يرى أنه مهم لاحتـــياجات الحركة، يستعرض سراً كل الخيارات قبل أي اجتماع، ثم يحث الجميع على أن يدلوا بدلائهم قبل اتخاذ أي قرار. مزاجه لطيف، كما يقولون، وأنيق بشكل يوافـــق ذوقه في ارتداء بذلة وقميص بياقة. لاحظ زميل مقرّب في ذلك الوقت: "في الـــبداية، لم تكن هناك شخصية مميزة، أو أناقة. لكني، بعد أن تعرفت إليه، رأيت فيه طاقـــة كامـــنة لقد أذهلني بنشاطه في العمل، وهو رجل من الحركة لا يبدو أن لديه برنامجاً شخصياً"[5].

أيـــنما كان مشعل يذهب، كان ملف ذكائه يتبعه. بعد وقت قصير من وصوله إلى عمّان، تم تقديم تقرير إلى مكتب المخابرات المسؤول عن مراقبة كل من الإخوان المـــسلمين وحماس في الأردن عن ذكاء الكويتي. تنبّه العملاء الأردنيون إلى ما قيل لهم إنهـــا ثلاثـــة مظاهر رئيسية في نشاطات مشعل: التمويل، والتسليح، والبنية التحتية العـــسكرية[6]. في العام 1994، كان في كوالالمبور وإسلام أباد، يحشد الدعم ويسعى لإقامـــة مؤتمـــر كبير لرجال الدين المسلمين بشأن مصير القدس. وبالعودة إلى مكتب المخابرات في عمّان، لاحظ العملاء أنه عندما ذهب مشعل إلى جنوبـــي لبنان لزيارة مـــبعدي حمـــاس، تجنّب الطرق العامة، وسلك بدلاً من ذلك طرقاً مخصصة لانتقال القوات العسكرية السورية.

تقريـــر إســـرائيلي عن حماس في منتصف التسعينيات، والذي يوصف بأنه *رأي خـــبير* من داخل أجهزة الاستخبارات، لم يذكر مشعل سوى مرة واحدة بين قوسين عـــندما وضع قائمة بأسماء قادة المكتب السياسي، ولم تكن هناك إشارة لعضويته، أو دوره، في *جهـــاز فلسطين* الذي كان يتخذ من الكويت مقراً له[7]. وصف مطّلعون لاحقاً واجبات مشعل في ذلك الوقت بأنها كانت *الاتصالات والتمويل*. لكن ضابطاً

بـــارزاً في أحد أجهزة الاستخبارات العربية أضاف عنصراً ثالثاً بالإشارة إلى ما كان زمـــلاؤه الأردنيون يدعونه *الخط السري*. كان ذلك، كما قال، نقطة تقاطع القوى داخل حماس التي تمنح مشعل سلطة كبيرة. كان لا يزال يحمل كيس النقود لما أصبح المـــشروع الكـــويتي بعد انتقاله، وأحد أفراد لجنة عسكرية *خارجية* مؤلفة من ثلاثة رجـــال تشرف على عمليات كتائب القسام. كان ذلك يعادل، كما استنتج هؤلاء، تمتعه بحق النقض (الفيتو) الذي جعل من مشعل أقوى شخص في قيادة حماس[8].

يـــتفق المطّلعون داخل حماس على ذلك. ويبيّن عضو كان مقرّباً من مشعل في منتـــصف التـــسعينيات: "الرجل الأول هو الذي يسيطر على المال، لأن ذلك يجعله يـــسيطر علـــى الأسلحة. في حماس، كان ذلك الرجل هو مشعل. كان يخبر الجناح العسكري عن العمليات المطلوب تنفيذها". سيصفه البعض في قوات الأمن الإسرائيلية بأنه "رئيس وزراء حماس"[9].

لم يبدأ مشعل بالظهور رسمياً كأحد قادة حماس حتى العام 1995. كان بين أولى مهماتـــه العامـــة الانتظار في وزارة الخارجية الأردنية حتى إبلاغه بأنه سيتم إبعاد أبو مـــرزوق[10]. فـــيما كـــان أبو مرزوق يحزم حقائبه استعداداً لمغادرة عمّان - رحلة ســـتؤدي أخيراً إلى وقوعه بين أيدي السلطات الأميركية - لم يكن هناك شعور بأن مـــشعل يتوق للحصول على منصبه[11]. كما كان البعض يرى الأمر، كان يتم إبعاد أبو مرزوق من قبل النظام الأردني وآلة مشعل على حدٍّ سواء، التي كانت قد وصلت من الكويت، وتحتشد خلفه. آخذاً بعين الاعتبار أن الكويت كانت أكبر قواعد حماس خـــارج الأراضي المحتلة حتى الغزو العراقي لها، قال قائد بارز في الإخوان الأردنيين: "جاء كل الغرباء من الكويت، ما عدا أبو مرزوق"[12].

كانـــت هناك، على أي حال، إشارة ماكرة إلى طموح الرجل الخفي المتصاعد. كان مشعل قد غيّر اسمه[13]. حتى ذلك الوقت الذي كان يبلغ فيه أربعين عاماً ونيِّفاً، كان يتم اختصار اسم مشعل المؤلف من سبعة أجزاء إلى خالد عبد القادر، تماشياً مع العـــادة العـــربية في نسبه إلى والده. بدا أن خليطاً من الغرور، وعلم النفس، وتقاليد المقاومـــة قـــد اجتمعت آنذاك. كان اعتماد اسم مستعار شائعاً بما يكفي بين مقاتلي عرفات. لكن، بغياب أي أعمال قتالية بطولية في مسيرة حياته، اعتمد مشعل أسلوب المقاومة من دون تمجيد.

كـــان مشعل وأبو مرزوق يشكلان جملة من التناقضات. كفلسطينيين، كانت عائلـــتاهما قد عانتا كثيراً من الاحتلال الإسرائيلي لوطنهما. بالرغم من ذلك، مقارنة بالسهولة النسبية لخروج مشعل من الضفة الغربية وترعرعه في الكويت، كانت الحياة بالنـــسبة إلى أبو مرزوق قد بدأت في ظروف تقليدية لمخيم لاجئين. ولد على أرض خـــيمة في مخيم للاجئين في رفح، على الطرف الجنوبـــي من غزة التي كانت تسيطر عليها مصر، في العام 1951. بعد أن أرغمتهم القوات الإسرائيلية على إخلاء أراضيهم تحـــت تهديـــد السلاح، انطلق والده المزارع، والدته، وخمسة إخوة عبر جنوبـــي ما سيـــصبح إســـرائيل طيلة أربعة شهور قبل أن يحط الرحال بهم أخيراً في مخيم مكتظ بإدارة الأمم المتحدة في رفح[14].

بحلـــول ذكـــرى مـــولده السادسة عشرة، كان أبو مرزوق ناشطاً إسلامياً ملتزماً، وبعد عام أرسله معلّمه الشيخ أحمد ياسين إلى القاهرة. بعد دراسة الهندسة في كلـــية حلوان للهندسة والتقنية، تخرّج في العام 1976. كانت أولى أعماله في الإمارات العربية المتحدة، لكن أبو مرزوق بقي متأثراً باحتياجات غزة الملحّة. في العـــام 1978، عـــاد ليصبح أحد مؤسسي جامعة ياسين الإسلامية ويتزوج ناديا العشّي، التي كان ياسين قد اختارها من صفوف الإخوان المسلمين لتكون زوجة مناسبة لأبو مرزوق.

في بدايـــة الثمانينـــيات، غامـــر أبو مرزوق في البدء بحياة جديدة في الولايات المتحدة. عاشا في البداية على مدّخراتهما ومنح تعليمية من حكومات الإمارات العربية المتحدة، ومصر، والكويت درس كل من الزوج والزوجة في جامعة فورت كولينـــز في ولاية كولورادو. في الوقت نفسه، كانا يقومان بإنشاء عائلة ويديران سلسلة مربحة مـــن مـــشاريع شراء – و – تجديد العقارات. باعتباره أحد جامعي أموال ومنظمي حماس، ساعد أبو مرزوق في إنشاء الاتحاد الإسلامي من أجل فلسطين، وهو مجموعة دعـــم مؤثرة في الولايات المتحدة، التي تم إنشاؤها بتوجيه من خالد مشعل[15]. ساهم بمـــبلغ 210,000 دولار في الـــرأسمال الأولي لمنظمة جمع الأموال الأميركية الرئيسية لحمـــاس، مؤسسة الأرض المقدّسة التي تتخذ من تكساس مقراً لها[16]. من منـــزله في فيرجينيا، تحت ظلال جبل واشنطن، كان أبو مرزوق قد أدار معظم العمليات الخاصة بدعم حماس في أواخر الثمانينيات وأوائل التسعينيات.

إن لم يكن أي من ذلك عملاً بطولياً، فقد تفوق أبو مرزوق على نفسه في العام 1989، عــندما كان له الفضل وحيداً في إنقاذ حماس من الدمار. كان العام الثاني من الانتفاضة ومعلّمه ياسين في السجن مجدداً. كانت إسرائيل تحاول القضاء على الحركة بــشن حملة اعتقالات واسعة لنشطائها عندما توقف أبو مرزوق عن دراسة الدكتوراه في لويزيانا وعاد إلى غزة.

عندما تم اعتقال ناشط حماس سيد أبو مسامه في بداية العام 1991، منح المحققين الإسرائيليين تقرير شاهد عيان عن الطريقة التي استطاع بها صديقه القديم أبو مرزوق تحــصين جــذور المنظمة وهياكلها بفاعلية لإبقائها على أقدامها حتى أرغم الضغط الدولي إسرائيل على السماح لكبار القادة بين المبعدين إلى الجنوب اللبناني بالعودة[17]. بعــد تعيين أبو مسامه كعضو في فريق القيادة الجديدة، كان أبو مرزوق قد قسّم غزة إلى خمــس مــناطق، وعــيّن قائداً لكل منطقة. أصبح هؤلاء الخمسة معاً لجنة إدارية مركزية جديدة. كما يتذكر أبو مسامه: "في إقليمه، [كان يجب على كل قائد] تنظيم ثــلاث لجان – أمنية، نشاطات، ودعائية – ستقوم تلك اللجان بما يُطلب منها وتقدم تقارير إلى الشخص المسؤول". منع أبو مرزوق تجنيد الأفراد وجهاً لوجه. كان ينبغي أن يتم كل شيء عبر صناديق بريد خاصة، لأنه كما قال أبو مرزوق: "إذا تم اعتقال شخص ما، لن يستطيع الإبلاغ عن الذي قام بتجنيده".

بالنسبة إلى المال، وزّع أبو مرزوق بادئ الأمر دفاتر شيكات فارغة من مصرف أميركــا، والتي كان قد وقّعها كلها. قال أبو مسامه: "كان يكفي أن أكتب المبلغ"، قبل أن يبيّن أنه كان يكره هذا النوع من التعاملات، وطلب بدلاً منه أموالاً نقدية. في الــوقت المناسب، بدأ مراسل غامض بتسليم أموال نقدية. كشف أبو مسامه: "كان يقــول لي إنــه [أبو مرزوق] أرسله... بهذه الطريقة تسلّمت ما مجموعه 100,000 دولار". لاحقــاً، اعتــرف الإســرائيليون أنهم لم يكتشفوا مدى جهود أبو مرزوق الإنقاذيــة إلى مــا بعد القيام بسلسلة اعتقالات في العام 1991 كان بينها رجل أبو مرزوق الأول، أبو مسامه[18].

كــان أبو مرزوق مؤهلاً بشكل فريد للذهاب إلى غزة في وقت الأزمة. بوصفه غــزّاوياً وتلمــيذ ياسين، كان الشخصية القيادية الوحيدة التي لا تثير الشبهات مثل الغــرباء. لأنه من *أهل الدار*، كان إنجاز هيئات أبو مرزوق الجديدة نقل سلطة حماس

الفعّالة إلى *غرباء عن الدار*، والذين كان دورهم حتى ذلك الوقت دعم العملية *الداخلية* التي كانت تتخذ قراراتها بنفسها. لحماية حماس من التدمير على أيدي الإسرائيليين ومنظمة التحرير الفلسطينية، كان على *الغرباء عن الدار* أن يتحولوا إلى أصحاب قرار(19).

بعد استقرار المكتب السياسي في عمّان في العام 1990، كان الجميع يعتبرون مشعل وأبو مرزوق وجهين لعملة حماس: أحدهما استراتيجي يمتلك رؤية للمستقبل؛ والآخر رجل عملي يتمتع بالطاقة المطلوبة لجمع أموال في فيرجينيا في أسبوع، وفي التالي، الذهاب إلى غزة في مهمة جريئة، لينتشل العملية من على حافة الهاوية. لكن المتاعب لاحت في الأفق بعد أن بدأت الفجوة السياسية تتسع بينهما.

كانت حماس قد حصّنت نفسها بفاعلية لتبقى. على أي حال، كانت هناك نقاشات داخل الحركة بشأن قدرتها على البقاء، خاصة بعد عودة ياسر عرفات إلى أجزاء من الأراضي المحتلة في منتصف العام 1994 وإطلاق قواته الأمنية ضد حماس، التي كانت لا تزال تتعرض لضغط كبير من الإسرائيليين.

في إسرائيل، كان يحق لمؤسستي الأمن والاستخبارات أن تشعرا بالثقة بالنفس. منذ العام 1989، كانتا قد أبقتا القائد الروحي واسع النفوذ، ياسين، خلف القضبان؛ وكان الأميركيون ماهرين في إلقاء القبض على أبو مرزوق في مطار جون أف. كنيدي في العام 1995. مع الحملة الإسرائيلية من عمليات الاغتيال على الأرض، كان عقد حماس ينفرط تدريجياً. تساءل محللون ومفكرون: إلى أي حد يمكن للحركة أن تصمد في وجه مثل تلك الضربات من دون أن تعاني من خلل تنظيمي خطير؟

في سفارة الولايات المتحدة في تل أبيب، كان السفير مارتن إنديك يعتقد أن الأمر لا يتعلق باحتواء حماس فحسب. وفقاً لرؤيته للأمور، كانت الحركة في ورطة حقيقية، وبدا أن لغته الفظّة مناسبة نوعاً ما للوضع الأمني. قال لزملائه: "إنهم محاصرون من قبل قوات السلطة الفلسطينية بناءً على أوامر من عرفات. من ناحية عملياتية، ربما يكون أمرهم قد انتهى".

دبلوماسياً، كان هناك شيء على غير ما يرام في مثلث الشرق الأوسط؛ إسرائيل، الأردن، والولايات المتحدة. كانوا جميعاً حلفاء مقرّبين، لكن فيما كانت واشنطن والإسرائيليون غاضبين من حماس، كان حليفهم الملك حسين لا يزال

يستضيف الحركة، التي كانت بمثل سوء منظمة التحرير الفلسطينية بقيادة عرفات في أيامهـــا الأولى المروعة. كان الملك قد رضخ لشكاوى الإسرائيليين والأميركيين بإبعاد أبو مرزوق، لكنه كان يتلقى آنذاك تقارير عن نهج متشدد أكثر صلابة يعتمده مشعل بغياب أبو مرزوق.

كان سفير الولايات المتحدة إلى الأردن، ويسلي إيغان، دبلوماسياً عملياً يجد أنه مـــن الملائـــم العمل كدبلوماسي أميركي في بلاد يعاملها موظفو واشنطن البارزون باســـتخفاف. في ماضـــيه، كان قد عمل كسفير إلى بيساو، عاصمة غينيا - بيساو الـــصغيرة للغاية في غرب أفريقيا. كذلك كان قد عمل في سفارات بلاده في القاهرة، جوهانـــسبرغ، ولشبونة. كان إيغان شديد الحرص، ويتقيد في عمله بقاعدة شخصية ثابـــتة تتعلق بعدم الاحتفاظ أبداً بمفكّرة، أو كتابة ملاحظات يمكن أن يستولي عليها محققـــون أو تكـــون سبباً في استدعائه للمحكمة[20]. كان السفير يحتفظ بأسراره في رأسه.

بعد قضاء أكثر من ثلاثة أعوام في منصبه في عمّان، اكتشف إيغان أنه يحب كلاً من الملك والبلد. كانت عمّان تفيض نشاطاً، لكن إيغان وزوجته فيرجينيا كانا يجدان الوقت، كلما بدا أن الهدوء سيعم، لإرضاء شغفهما المشترك بالآثار. كان إيغان يتكلم عـــن قضاء وقت طويل بين الآثار النبطية في البتراء، التي وصفها الشاعر جون ويليام بورغن بأنها "مدينة وردية - حمراء بنصف عمر التاريخ نفسه".

كانت المشكلة الوحيدة هي البعد. تقع البتراء على بعد ثلاث ساعات بالسيارة إلى الجـــنوب مـــن العاصمة. كان إيغان بعيداً يزور الآثار في العام 1995 عندما ظهر حـــسين كامل، صهر صدّام حسين والرجل المسؤول عن برامج الأسلحة العراقية، في عمّـــان مدّعـــياً أنه يريد كشف كل شيء. كان غياب إيغان عن الأحداث في ذلك الـــوقت قـــد أثار استغراباً ملكياً. سيمزح الملك حسين بالقول إنه إذا كان إيغان في البتراء، سيظهر شيء مثير بالتأكيد في عمّان.

حـــتى لو كان إيغان يشعر بمتعة في الذهاب إلى البتراء، فإن واجبه الرئيسي كـــان التواجد دائماً في العاصمة. كان يتلقى تعليمات دائمة من واشنطن للضغط علـــى الملك حسين، كل الوقت، بشأن حماس. كان قد *استمر في إزعاج* حسين طيلة ثلاثة أعوام.

في المكتب الملكي أو إلى مائدة الطعام، كان إيغان يلقي على مسامع الملك محاضرات عن التضارب، كما تراه واشنطن، في إيواء حماس وما وصفه السفير بأنه "دور حسين الأساسي الإيجابي بخلاف ذلك في محاولة التوصل إلى سلام في الشرق الأوسط". كان الملك يقول إن أنصار حماس في عمّان أردنيون. "لم يفعلوا شيئاً سيئاً في الأردن؛ أو في إسرائيل يمكن تتبّع آثاره إلى الأردن. لا يمكنني اعتقال بعضٍ من رعيتي وإبعادهم بكل بساطة"(21).

بينما كان إيغان يحاول التفاوض مع الملك في عمّان، وصل مصير أحد قادة حماس البارزين في نيويورك إلى مفترق طرق في بداية العام 1997. كان موسى أبو مرزوق يقبع في سجنه منذ اعتقاله في العام 1995، ويكافح جهوداً إسرائيلية لتسليمه. بعد قرار القاضي دوفي في العام 1996 بقبول الطلب الإسرائيلي، كان محامو أبو مرزوق قد قدّموا سلسلة من طلبات الاستئناف لإلغاء التسليم. لكن آنذاك، بعد قضاء أكثر من ثمانية عشر شهراً في زنزانة سجن أبعادها ستة أقدام بثمانية في مانهاتن، غيّر قائد حماس تكتيكاته جذرياً في محاولة لخداع الإسرائيليين، الذين لم يكن يعتقد أن لديهم قضية حقيقية ضده.

أعلن أبو مرزوق، الذي كان على رأس قائمة المطلوبين الإسرائيلية بعد الشيخ أحمد ياسين منذ ما يزيد على عقد، أنه أسقط كل طلبات الاستئناف. كان مستعداً للذهاب إلى إسرائيل لمحاكمته كإرهابي أمام محكمة إسرائيلية؛ شرط أن يكون لدى الإسرائيليين دليل. في إفادة لمحكمة الاستئناف الأميركية، حيث تم رفض آخر طلبات استئنافه، سخر من العدالة الأميركية، وأخبر المحكمة أنه قد استنتج أن فرصته أمام قضاة من القدس ربما تكون أفضل من المثول أمام إخوانهم في نيويورك. مزيّناً موقفه بإعلانه أنه مستعد للذهاب إلى إسرائيل والاستشهاد هناك، نبّه المحكمة وإدارة كلينتون إلى التفاصيل. أشار إلى أن: "قانون الولايات المتحدة يمنح مهلة لتسليمي إلى إسرائيل خلال ستين يوماً من سحب استئنافي"(22).

كخطة للفت الانتباه، حقق ذلك نجاحاً كبيراً. أدّى احتمال تسليم أبو مرزوق فعلاً إلى الإسرائيليين إلى تجدد تهديدات حماس للولايات المتحدة، وبالرغم من ذلك كان المسؤولون المذهولون في واشنطن مرغمين على انتظار رد من إسرائيل. وسط توقعات بأن أبو مرزوق يحاول التلاعب على مخاوف الإسرائيليين والأميركيين من رد

فعـــل ســلبـــي من جانب حماس للتعجيل بإطلاق سراحه، أعلنت *نيويورك تايمز* أن الفلسطيني *قنبلة دبلوماسية موقوتة*[23].

بـــدأت واشـــنطن فـــوراً عملية نقل السجين إلى عهدة الإسرائيليين. تم توجيه دبلوماســـيين أميركـــيين في تل أبيب للحصول على ضمانات إسرائيلية بشأن طريقة معاملـــة أبـــو مرزوق. قيل لواشنطن في برقية دبلوماسية سرية مؤرخة في 29 كانون الـــثاني، والتي نقلتها سفارة الولايات المتحدة عن حصيلة المحادثات بين السفير إنديك ووزيـــر العـــدل الإسرائيلي تساحي هنغبـــي: "لدينا تأكيدات واضحة من حكومة إسرائيل أنها ستعامل أبو مرزوق بشكل إنساني وتمنحه حقوقاً قانونية كاملة"[24].

لكن بعد كل تأكيدات إسرائيل المتكررة لتسلم أبو مرزوق، كانت هناك إشارة إلى التردد في التماس شخصي من هنغبـــي بأن تؤخر واشنطن ترحيله قدر الإمكان في مهلة الشهرين المحددة للتسليم.

في إســـرائيل، كان المزاج السياسي والحكومة قد تغيرا بطرائق مؤثرة منذ اعتقال أبو مرزوق. كان إحضاره للمحاكمة في إسرائيل آنذاك يبدو عملاً محفوفاً بالمخاطر. مـــن باب الحيطة، حذّر إنديك واشنطن أن الأمور ليست واضحة المعالم كما تبدو. ذكرت البرقية: "لقد بدأت حكومة نتنياهو تتخبط في هذا التطور الجديد في قضية أبو مرزوق التي ورثتها من حكومتي بيريس ورابين".

كـــان قد تم انتخاب المتشدد بنيامين نتنياهو قبل بضعة شهور، وبالرغم من أنه كان بمقـــدور حكومـــته أن تغسل يديها من هذه القضية الصعبة وما يرافقها من مخاطر أعمال إرهابـــية – على أساس أن حكومتين سابقتين بدأتا الأمر – كان نتنياهو بحاجة إلى العمل عـــبر دهاليـــز الـــسياسة الداخلية. كانت قضية أبو مرزوق كبيرة على إسرائيل. كانت حكومـــتها قـــد أخبرت العالم أنه واحد من أسوأ الإرهابيين، وتم استثمار موارد قانونية، أمنية، ودبلوماسية في الوصول إلى ذلك الحد. كان السماح لأبو مرزوق بالإفلات في مثل تلـــك المـــرحلة المتأخرة يتطلب العمل بحرص شديد. مع زيادة التوقعات بشأن مصير أبو مرزوق، نقلت وكالة البرق اليهودية عن مصادر في السلطات الإسرائيلية قولها إن إسرائيل لا تـــزال تحتجـــز الشيخ الموقر ياسين. كما قال أحدهم، لماذا سيسمحون لأبو مرزوق بـــالإفلات مـــن قبـــضتهم؟ قال الرئيس السابق للشين بيت، كارمي جيلون، للوكالة: "مستحيل. إنها ليست مسألة مصالح سياسية. إنها مسألة قانونية"[25].

كـــان نتنياهو السياسي الذي طالب بعدم إطلاق سراح الإرهابيين أبداً، وكان بـــرنامجه السياسي في التشدد ضد الإرهاب هو الذي منحه الفوز في الانتخابات[26]. لكـــن يُقـــال إن مستشاريه كان لديهم فهم أفضل لدورة العنف القوية التي أعقبت اغتيال قائدين عسكريين فلسطينيين من قبل من يُفترض أنهم عملاء إسرائيليون. كان أحدهما منسق العمليات الاستشهادية في حماس، *المهندس*، يحيى عياش. انتقاماً لاغتياله، وقعـــت أربع عمليات استشهادية، التي لم تقتل قرابة سبعين إسرائيلياً فقط وإنما زادت أيـــضاً من الغضب الشعبـــي الذي دفع الناخبين الإسرائيليين إلى منح قيادة الحكومة لنتنياهو في أيار 1996[27].

في منتـــصف شباط، كانت هناك تسريبات إخبارية في القدس عن أن واشنطن وتـــل أبـــيب تعملان بهدوء على طرائق لحل مشكلة أبو مرزوق. في واشنطن، أُحيط مراســـلون علماً بغضب واشنطن من الإحراج الذي أوقعهم فيه تغير موقف إسرائيل. ثم، في عمّان، انبثق عن لقاء في وقت متأخر من الليل بين السفير إيغان والملك حسين حل للمشكلة عندما أعلن العاهل "أنا سأستقبله". مرتاحاً، قال دبلوماسي إسرائيلي في واشنطن لأحد المراسلين: "لم يكن قراراً سيئاً. إنهم يعرفوننا، ويتعاونون معنا؛ والملك حسين يعرف كيف يتعامل مع هؤلاء الأشخاص"[28]. فجأة، أصبح أبو مرزوق حراً، ونأت إسرائيل بنفسها عن أزمة مخيفة.

لكـــن لم يكـــن كـــل شيء كما يبدو في الظاهر. كانت العواصم الثلاث قد انخـــرطت بالتأكـــيد في جـــولة من حك الظهر المتبادل في أثناء مناقشتها لمشكلة أبو مـــرزوق بينها. لكن ما لم يكن واضحاً من تلاعب بمن، وإلى أي حدّ. في كل الدول الـــثلاث، كانـــت التعليقات العلنية لمسؤولين حكوميين مقبولة كما هي، واستطاعوا قصر الأمر على الاعتقال من قبل الأميركيين، ثم إطلاق سراح أبو مرزوق.

جاء بنيامين نتنياهو إلى السلطة في إسرائيل في جو من الأسى والشك بعد اغتيال رئيس الوزراء إسحاق رابين. كان رابين قد توفي في أمسية أحد أيام تشرين الثاني في العـــام 1995 بعـــد إطلاق النار عليه عن قرب من قبل متعصب يهودي من الجناح اليمـــيني في محاولـــة لتدمير عملية سلام أوسلو. موت رابين، كما قال أحد الموالين لحـــسين في عمّـــان، قضى على عملية السلام المترنحة. غابت آنذاك الثقة الفريدة من نـــوعها والاحترام المتبادل بين قائدين في منطقة كان يبدو أنها أصبحت أكثر اعتياداً

لتاريخها القاسي. في يوم جنازة رابين، تكلم الملك حسين إلى رندا حبيب مراسلة وكالة الصحافة الفرنسية في جناحه في فندق الملك داوود في القدس. تغلبت عليه مشاعره، وأخبرها عبر دموعه: "لدي انطباع بأنني اليوم، بطريقة ما، دفنت السلام أيضاً"[29].

معتقداً أن الطريقة الوحيدة لإيقاف تدهور عملية السلام برمّتها كان تعزيز قوى الاعتدال، قرر الملك حسين أن على حماس أن تتصف بالاعتدال، وأن تشترك في المفاوضات التي كانت قد تراجعت منذ الاختراق الذي حققه النرويجيون في العام 1993. لكن إذا كان عليه دفع حماس باتجاه مختلف أكثر مسؤولية، ينبغي أن يكون ذلك تحت قيادة جديدة، وهذا ما استنتجه بثقة كبيرة. كان ذلك إطار العمل الاستراتيجي الجريء الذي أدرك من خلاله ملك الأردن أنه ارتكب خطأً في الاستجابة للضغط الأميركي والإسرائيلي بإبعاد أبو مرزوق في المقام الأول.

لم تكن تقارير الاستخبارات الأردنية عن قيادة خالد مشعل لمكتب حماس السياسي تناسب تلك السياسة. بعد تدقيق استمر أكثر من عام، كانت تقييمات المكتب المسؤول عن الإسلاميين لدى سميح البطيخي تصف مشعل بأنه سطحي، وسريع الانفعال، ويفتقر للمرونة. كان يفتقد المصداقية، وفقاً للتقارير، وفشل في استيعاب عنصر المصالح المشتركة للعلاقة بين النظام الملكي الأردني والحركة. صرخ البطيخي على أحد ضباطه البارزين: "كلمة إسرائيل غير موجودة في قاموسه الأيديولوجي"[30]. كان هناك ادّعاء أيضاً بأن مشعل يتحرك خارج حماس وتركيزها على الأراضي المحتلة، في محاولة لإنشاء قاعدة سلطة محلية ضمن الفرع الأردني للإخوان المسلمين.

كانت خطة حسين لإعادة تشكيل قيادة حماس خطيرة وطموحة في الوقت نفسه. كان يمكن لحركة واحدة غير صحيحة أن تثير غضب حماس والجناح الأردني القوي من الإخوان المسلمين. في الوقت نفسه، يمكن أن تؤجج غضباً عارماً في المجتمع الضخم لمخيمات اللاجئين الفلسطينيين. على أي حال، رأى الملك أن خطوته ضرورية، لإحداث حقيقة تفاوضية جديدة ولتعزيز دوره كصانع إقليمي للسلام ومدافع عن مصالحه الوطنية الخاصة. استنتج أن أبو مرزوق كان توافقياً بطبعه، وهو رجل كانت جذوره الغزّاوية وعلاقته الوثيقة مع ياسين والأشخاص حول الشيخ قد

جعلــته قــناة مهمة مع قيادة حماس المحلية الأكثر نفوذاً في الأراضي المحتلة. كان أبو مــرزوق قد سافر حول العالم ويفهم طرقه. كانت لديه بطاقة خضراء؛ وكان بعض أولاده مواطنين أميركيين. واستطاع الأميركيون تعرُّفه في خلال مدة اعتقاله.

لكن إذا كان ممكناً الاستفادة من كل خصائص المهندس السجين، كانت خطة الملك بحاجة إلى تعاون آخرين على ثلاث جبهات رئيسية. أولاً، كان عليه إعادة أبو مرزوق إلى الأردن. ثانياً، حالما يصل إلى هناك، ينبغي أن يستعيد القيادة. أخيراً، حالما يــستعيد وضــعه السابق، ينبغي أن يفهم أنه يدين للقصر في إنقاذه من الإسرائيليين والأميركيين.

إلى أي حدّ كانت تلك الخطة الأردنية جزءاً من عملية اتخاذ قرار اشتركت فيها العاصمتان الأخريان يبقى موضع تساؤل. قال السفير إيغان لاحقاً إن أحداً لم يناقشها معــه، لكــنه افترض أنها طُرحت في خلال نقاشات بين واشنطن وإسرائيل[31]. كان أحــد مستــشاري نتنياهو صريحاً عندما قال: "أخبرنا البطيخي عن الخطة لإضعاف حمــاس. كان الملك حسين يراهن على أبو مرزوق، الذي كان ذهنه قد أضحى أكثر انفتاحاً في خلال تواجده في الولايات المتحدة. كان مشعل أكثر تشدداً بكثير..."[32].

شــعر إيغــان بصدمة. ربما بشكل ساذج لدبلوماسي محترف، حاول شرح ما وصــفه بأنــه *تضارب بسيط* لرؤسائه في وزارة الخارجية. "تطلبون من الملك حسين إغلاق مكاتب حماس في الوقت نفسه الذي تقولون له: *من فضلك، خذ أبو مرزوق قائد حماس منا؟*. هذا جنون". لكن بأسلوب متحفّظ لدبلوماسي خبير، سيشرح إيغان لاحقــاً أن احتجاجه لم يكن له تأثير. قال: "علمت أن أبو مرزوق سيصل في الوقت المناسب".

مــرتدياً لــباس السجناء الموحد، وهو الثوب البرتقالي المعروف، شعر أبو مرزوق بــبهجة النصر عندما ترجّل من طائرة عسكرية أميركية في عمّان في 6 أيار. أبقى مرافقوه المسلحون يديه وقدميه مكبّلة بالأصفاد طيلة الرحلة التي استغرقت إحدى عشرة ساعة من نــيويورك. لكــن قــبل أن يغادر زنــزانته في مانهاتن، كانت كلماته قد أبهجت الملك حــسين. في مقابلــة مطــوّلة قبل أسابيع من إطلاق سراحه، أكّد أبو مرزوق للصحافي رودجــر غــيس أنه لا يزال رئيس المكتب السياسي لحماس[33]. ادّعى بعد أربع وثمانين ساعة من وصوله إلى عمّان: "سأؤدي الدور نفسه، وأقوم بالنشاطات نفسها"[34].

كـــان أبو مرزوق يرغب باستعادة منصبه. بغض النظر عن ماضيه الاستثنائي، كـــان يـــرى نفـــسه بطـــل حماس المظفّر، الذي كان قد تحدّى السباع الإسرائيلية والأميركـــية في عقـــر دارها وعاد سالماً، مرفوع الرأس، فيما تململت القوة العظمى وربيبـــتها في الـــشرق الأوســـط إحراجاً أمام العالم. كانت تلك، كما اعتقد، صفة القـــيادة. كان يرى في نفسه مزيجاً من الصفات المذهلة وأراد من الآخرين أن يصدّقوا ما يقوله علانية[35]. كان محاموه قد أخبروا محاكم نيويورك أنه في الحقيقة سفير حماس إلى العالم، وقال بنفسه لمراسلين إنه جيري آدمز الشرق الأوسط.

لكن كانت هناك مشكلة، واسمها خالد مشعل. عند اعتقال أبو مرزوق في العام 1995، تم ترشيح مشعل لشغل المنصب الفارغ بالوكالة. لكن في العام 1996، عندما لم تكـــن هناك طريقة لمعرفة مصير أبو مرزوق، تم انتخاب مشعل رسمياً ليكون رئيساً للمكتب السياسي. تعرض أبو مرزوق لصدمة مضاعفة؛ لم يرفض مشعل التنحي لدى عودته فحسب، وإنما كانت هناك قضية أُثيرت ضده في غيابه أيضاً.

أولاً، كـــان هناك تساؤل بشأن حصافته عندما اعتقد أن الذهاب إلى الولايات المـــتحدة ســـيكون آمـــناً. كان قد فعل ذلك بالرغم من معارضة زملائه في المكتب الـــسياسي الـــذين نصحوه بأقوى العبارات أن وتيرة إجراءات واشنطن ضد حماس تتـــصاعد[36]. كان يبدو عملاً طائشاً من أبو مرزوق أن يصل إلى مطار جون أف. كنيدي بعد أربع وعشرين ساعة فقط من عملية استشهادية مات فيها ستة إسرائيليين وأُصـــيب واحد وثلاثون آخرون بجروح قرب تل أبيب؛ وذلك بعد ستة شهور فقط مـــن بدء واشنطن إجراءات رسمية ستنتهي، بعد بعض الوقت، بوضع حماس وقيادتها على *قائمة المنظمات الإرهابية*.

كانـــت هناك مشكلة سياسية داخلية أخرى أيضاً. لغاية اعتقاله، كان أبو مـــرزوق رئـــيس المكتب السياسي الوحيد الذي عرفه رفاقه. في غيابه، على أي حـــال، كانوا قد اختبروا لغة قيادة أكثر جماعية، وأقل تسلطاً بدت مناسبة أكثر لمؤســـسات حماس التي تعتمد نظام *الشورى*[37]. ملاحظاً أن الوقت كان متأخراً جـــداً علـــى اســـتعادة أبو مرزوق لزمام القيادة، بيّن أحد زملائه: "بحلول ذلك الوقت، كان هناك تيار قوي يدعم مشعل. همّش أبو مرزوق نفسه بتهميش العديد من الشخصيات الأخرى".

كانت تلك مناورات سياسية. كانت المجموعة حول مشعل معروفة بالكويتيين. كانـــوا جمـــيعاً فلسطينيين، لكنهم كانوا يقطنون في الكويت. تكتّلت مجموعة ثانية، معظمهم من غزة، حول أبو مرزوق. لم يكن المحللون يشعرون بوجود *الكويتيين* حتى بدأوا يتجمعون ضد *غزّاويّي* أبو مرزوق في عمّان في العام 1990[38]. يبيّن أحد أنصار أبو مرزوق من غزة: "كان ياسين يساند أبو مرزوق بقوة. لم يكن الرجل العجوز قد التقـــى مشعل أبداً من قبل، لكن أبو مرزوق كان ابن غزة"[39]. عندما سُئل لماذا تم اختـــيار مشعل في غياب أبو مرزوق، أجاب مواربة: "لا أعرف. كان هناك أشخاص أكبر عمراً، أشخاص أفضل. لقد كان مشعل محظوظاً".

رد أحد أنصار مشعل: "لم يأت خالد مشعل من فراغ. كانت لدى أبو مرزوق صـــلات قوية مع منظمة الداخل. لكن حماس الخارج كانت تُدار من الكويت وبتلك الطـــريقة، كـــان مشعل ركيزة أكبر بكثير من أبو مرزوق. ولأنه من الضفة الغربية، استطاع مشعل بناء تحالفات قوية مع قيادة حماس في الضفة الغربية"[40].

بالتأكـــيد، كانـــت هـــناك قضايا سياسية أيضاً. في أثناء التحضير لإجراء أول انتخابات فلسطينية في العام 1996، كان مراقبو الشرق الأوسط على أهبة الاستعداد، ينتظـــرون من حماس أن تقرر إن كانت ستقبل عملية أوسلو بالمشاركة في التصويت التاريخـــي. كـــان هناك نقاش مستفيض وعسير، وفي الحث على المشاركة، وجد أبو مـــرزوق نفسه على الجانب الخاسر. لاحقاً، وبالرغم من قرار الحركة بالامتناع عن المـــشاركة، كـــان قد أجرى مقابلات داخل السجن في نيويورك عارض فيها قرار الأكثرية بالمقاطعة[41].

ربمـــا كـــان التأييد الذي تلقّاه عندما كان معتقلاً قد راق للملك حسين، لكن ذلـــك تـــرك بعضاً من زملاء أبو مرزوق يشعرون أنه ربما كان يتحرك بالاتجاه غير الـــصحيح. نُقـــل عـــن خليل الشقاقي، مدير المركز الفلسطيني للأبحاث والدراسات السياسية في مدينة نابلس في الضفة الغربية، قوله: "إنه قائد الجناح الأكثر براغماتية في حماس. من دونه، سيكون صعباً على حماس القيام بالخطوة الأساسية للتحول إلى قوة سياسية. من دونه، هناك الكثير من المتشددين الذين سيتولون زمام الأمور"[42]. في ما يمكـــن أن تكون أقسى ملاحظة ضده، أطلق البعض في الحركة على أبو مرزوق اسماً مستعاراً جديداً: السيد سي – آي – أيه (وكالة الاستخبارات المركزية).

كان مساعدو الملك يعتقدون أن خطتهم لإعادة أبو مرزوق إلى منصبه تعمل بنجاح، حتى إن كانت تفتقر إلى دماثة العاهل المعتادة. قدموا تقارير بأن أبو مرزوق كان قد أعلن بأنه فهم ما يدين به وأنه يعتقد أن بمقدوره التحدّث باسم حماس. داخل حماس، على أي حال، كانت هناك شكوك عميقة تساور زملاء أبو مرزوق من الوقت الكبير الذي يقضيه في المخابرات ومكاتب مسؤولين حكوميين بارزين. معتقداً أن باستطاعته الاعتماد على علاقة أقدم من حماس نفسها، كان النظام قد أُوضح أنه سيتعامل فقط مع أبو مرزوق. تتذكر رانيا قدري لاحقاً: "كان مشعل رئيس المكتب السياسي، لكن لم تكن لديه السلطة للتدخل بين ياسين وأبو مرزوق. فيما يخص الملك حسين، كانت القناة مع أبو مرزوق قناة مع الشيخ ياسين. أوضح النظام أنه لن يتعامل مع مشعل بينما يمكنه الوصول إلى ياسين عبر أبو مرزوق"[43].

بالرغم من الجرح الذي أصاب كبرياء مشعل، تراجعت المنظمة إلى الخلف عندما قرر الملك ورئيس استخباراته التعامل مع أبو مرزوق؛ ودعوة نائب قائد حماس وعائلته إلى القصر وتزويده برقم هاتف الملك المباشر. في الواقع، لم يكن لدى حماس الكثير من الخيارات. عند مواجهته بذلك، وصف أبو مرزوق لقاءاته مع النظام بأنها *اجتماعية*، لكنه أقر أن الأحاديث وجهاً لوجه أو عبر الهاتف مع مضيفيه الأقوياء غالباً ما كانت تتطرق إلى أسئلة حول رد فعل حماس على مجموعة مختلفة من الظروف. و لم يكشف عن التفاصيل.

كان هناك شعور بأن عام 1997 سيمثّل نقطة تحول منذ بداية شهر آذار. في ذلك الوقت، كان رئيس الوزراء الإسرائيلي الجديد بنيامين نتنياهو قد أصبح مصدر إحراج للملك حسين. بسرعة كبيرة، بدا أن نتنياهو قد نسي الدعم الذي تلقّاه في وقت حرج من القائد الأردني. في المدة التي سبقت الانتخابات الإسرائيلية في أيار 1996، كان الملك حسين قد دعا نتنياهو إلى عمّان، وهو يعرف جيداً أنه يمنح القائد المتشدد لحزب الليكود فرصة ليقدّم نفسه للناخبين الإسرائيليين كشريك أكثر قبولاً لدى حليفهم العربي الأوثق مما كان عليه شمعون بيريس، الذي كان قد بذل جهوداً كبيرة لإنهاء ولاية الراحل رابين كقائد للبلد[44]. معتقداً أن نتنياهو رجل يمكن التعامل معه، كان حسين قد طلب من قادة عرب آخرين منح رئيس الوزراء الجديد فرصة.

شعر الملك حسين بالخيانة مبكراً. أضرم قيام نتنياهو بمصادرة أراضٍ لبناء مستوطنة يهودية جديدة مثيرة للجدل على مشارف القدس غضب الملك حسين في الوقت نفسه الذي أصبح فيه ذلك واحداً من سلسلة أسباب لانهيار محادثات السلام بين عرفات ونتنياهو. استشاط حسين غضباً، وشعر أنه خلال ثمانية عشر شهراً منذ اغتيال صديقه رابين، كانت اتفاقية السلام التي وقعها بشجاعة كبيرة مع إسرائيل قد أضحت مهملة. في آذار من العام 1997، كان يبدو أن مصادرة الأراضي تتسع عندما كتب حسين لنتنياهو، محذّراً من مخاطر إذلاله المتواصل للشعب الفلسطيني. عاتبه قائلاً: "أشعر [أنك تريد] تدمير كل ما عملت لبنائه بين شعبينا"[45].

بعد أربعة أيام من رسالة حسين إلى نتنياهو، انتفض أحد جنود الملك، قتل سبع طالبات إسرائيليات وجرح ستًّا أخريات في أثناء قيامهن برحلة مدرسية إلى جزيرة على نهر الأردن. أغضب حسين المحطم الفؤاد الكثيرين في الوطن العربي بعبوره النهر وزيارته منازل الضحايا السبع. في كل منها، جلس على ركبتيه ليعتذر. أمر بأن يتم بث كل زياراته لمنازل تلك العائلات عبر التلفزيون الأردني، وسراً، أرسل شيكاً بقيمة مليون دولار كتعويض[46].

حل الصيف، وكانت رائحة المتاعب عالقة في الهواء مثل مادة متفجرة. كان يبدو أن نتنياهو غافل عمّا يجري من حوله. مُظهراً المزيد من الغطرسة التي أخافت حينها حسين، خرج رئيس الوزراء على الأثير في الأسبوع الأخير من تموز، وأعلن أن غياب هجمات رئيسية كان إثباتاً أنه يستطيع الوفاء بوعده الانتخابي بتحقيق السلام والأمن[47].

بعد ثمان وأربعين ساعة فقط، في 30 تموز، ازداد قرع طبول الحرب. فجّر استشهاديان نفسيهما معاً في سوق محنيه يهودا الشهير في القدس، قتلا 16 إسرائيلياً وجرحا 178. لاحظ مراقب أميركي ثاقب النظر عندما ذهب إلى مسرح الحدث الدامي أحد ملصقات رئيس الوزراء الجدارية، التي كانت لا تزال مكانها من الحملة الانتخابية قبل سنة: "نتنياهو، يحقق سلاماً آمناً"[48].

في المدة التي أعقبت التفجيرين المتزامنين، رفض عرفات اتهامات نتنياهو بأن السلطة الفلسطينية فشلت في تحقيق تعهداتها الأمنية. متحدّياً مطالب رئيس الوزراء المتكررة بتضييق الخناق على حماس، شرع عرفات في تثبيت موقعه، الذي أصبح

محفوفاً بالمخاطر في عيون الفلسطينيين. شارك في مؤتمر مع وفود من فصائل متشددة، رحّب بها وبعبد العزيز الرنتيسي من حماس بقبلات تقليدية. في خطاب له، أثار عرفات ذكريات عن الانتفاضة، وحذّر من أن الفلسطينيين مستعدون لاستئناف العمليات ضد إسرائيل. ملأ ذلك نتنياهو رعباً، لكن ذلك بالضبط ما كان يريده عرفات ضمن جمهور ناخبيه المحليين.

بعد أسابيع فقط من الهجومين المتزامنين، ارتفعت وتيرة العنف كثيراً. في الأسبوع الأول من أيلول، أدّى هجوم استشهادي ثلاثي على محال ومقاهي على طول سوق بن - يهودا المرصوف بالحجارة في القدس إلى مقتل 5 وجرح 181 آخرين. كانت كلتا العمليتين من تنفيذ حماس. طالب البيان الذي أعلن مسؤولية الحركة عن تلك الهجمات الأخيرة بإطلاق سراح القائد الروحي للحركة، الشيخ أحمد ياسين. قال نتنياهو بعد زيارة الناجين في مستشفى شعاري تزدك في القدس: "لا يمكننا الاستمرار على هذا النحو. عندما [عرفات] يحتضن ويقبّل حماس، بدلاً من محاربتها، الرسالة هي أن حماس يمكنها ضرب إسرائيل من دون عقاب"(49).

بعد يوم فقط، قيل للإسرائيليين الخائفين من تجدد الهجمات إن اثني عشر جندياً إسرائيلياً من الكومندوس لقوا حتفهم في كمين داخل لبنان، في أثناء قيامهم بمهمة ليلية غامضة أمر بها نتنياهو. كأمة، كانت لديهم أفضلية عسكرية وتكنولوجية ضخمة، وآلة دبلوماسية كبيرة في العالم. لكن ذلك لم يكن على ما يبدو يشكل درعاً ضد هجمات فتّاكة في الداخل وغزوات خارجية يمكن أن ينجم عنها خسائر فادحة.

في القدس، تنقّل نتنياهو مسعوراً تقريباً بين اجتماعاته. بعد خروجه من لقاءات مع قادته العسكريين والأمنيين، كان يجري مقابلات مع وسائل الإعلام، يحذّر من إجراءات قاسية جديدة ضد الفلسطينيين. لكن رئيس الوزراء شغل نفسه أيضاً بجلسات طويلة مع مستشارين، راجع خطته بالتخلي عن درب الخطوة - فخطوة لإنشاء دولة فلسطينية تم تحديد معالمها في أوسلو في العام 1993، مقابل عرض اقبل - أو - ارفض الخاص به، الذي كان ينبغي أن يعرف أنه غير مقبول كما هو مثير للاستفزاز.

كان نتنياهو يريد أن يقبل الفلسطينيون فقط نصف الضفة الغربية المتنازع عليها، إلى جانب استمرار وجود معظم المستوطنات الإسرائيلية المثيرة للجدل. كان يعتقد آنذاك أن

السلطة الفلسطينية ينبغي ألا تكون أكثر من شبه دولة، مثل بورتوريكو أو أندورا؛ من دون سلاح أو جيش؛ وأن إسرائيل ينبغي أن تحتفظ بالسيطرة على حدودها، أجوائها، ومواردها المائية الثمينة. أخيراً، فيما يخص القضية الملتهبة بسيطرة العرب على القدس، كان نتنياهو يعتقد أن الفلسطينيين ينبغي أن يكونوا ممتنين إذا سمح لهم بإنشاء كيان جديد يمكنهم من خلاله العناية بالمقدّسات الإسلامية في المدينة المتنازع عليها[50].

عانى الفلسطينيون من رد فعل نتنياهو العقابي على تفجيرات القدس. تم منع عشرات آلاف العمال من الوصول إلى أماكن عملهم داخل إسرائيل ؛ إيقاف تحويل عائدات الضرائب الضخمة إلى السلطة الفلسطينية؛ وبدا أن ياسر عرفات ينوء تحت أعباء عملية أوسلو الثقيلة. بالعودة إلى 1993، كان عرفات قد قبل اتفاقاً جعله في الواقع كفيلاً لأمن إسرائيل. آنذاك، بدعمٍ من واشنطن، كان نتنياهو يطلب منه العمل لتحقيق ذلك. في الوقت نفسه، أثارت مطالب من شعب عرفات بجني ثمار أوسلو حملة لمكافحة الفساد ضد عرفات وأتباعه.

مع وصوله إلى شفير الهاوية بعد تفجيرات تموز، نظرياً على الأقل، عاد عرفات إلى نصوص أوسلو بعد هجوم أيلول، اعتقل عشرات من ناشطي حماس، وأغلق ست عشرة من مؤسسات الحركة الخيرية والتعليمية في غزة. في عمّان، تم إلقاء إبراهيم غوشة العليل، المتحدث باسم حماس، في السجن لتجاوزه خطوط النظام الحمراء بعد هجوم 4 أيلول في القدس. استعد باقي أعضاء المكتب السياسي للقادم من الأحداث.

مثلما لم تكن حماس تضرب خارج حدود فلسطين التاريخية، لم يكن الإسرائيليون يطاردون أعضاءها خارج إسرائيل والأراضي المحتلة. لكن قلقاً من أعمال انتقامية إسرائيلية وشيكة طفا على السطح في اجتماع لأعضاء المكتب السياسي مساء 24 أيلول. مجتمعين في منزل محمد نزال، كان رد فعل آني وليس اختراقاً أمنياً محظوظاً هو الذي حثّ سامي خاطر على إثارة موضوع سلامة خالد مشعل. قال: "أنت هدف للموساد، يا أخ خالد. سيقع شيء ما. ينبغي أن تتوخى الحذر".

كان مشعل منزعجاً من نذير الشر الذي خيم على الغرفة، وفكر في عمق قبل أن يجيب. قال أخيراً: "لا، من هو الذي بكامل عقله في القدس سيسمح للموساد بتعريض الاتفاقية مع الأردن للخطر من أجل القضاء على أيٍّ منا؟". أغلق النقاش في الموضوع، مؤكداً لهم أن لا شيء مماثل يمكن أن يحدث في عمّان.

في الأيـــام الـــتي أعقبت الهجوم الاستشهادي الثلاثي، جاءت وزيرة الخارجية الأميركـــية مادلين أولبرايت إلى المنطقة، ثم غادرتها خالية الوفاض. بالرغم من أجواء التشاؤم الكامل، كتب الملك حسين مجدداً لنتنياهو. من دون سابق إنذار، أورد القائد الأردني ملاحظـــة تفـــاؤل، وكانت لديه معلومات سرية للغاية ينقلها. أخبر حسين القائـــد الإسرائيلي أن حماس مستعدة للتفاوض بشأن *هدنة* مدتها ثلاثون عاماً. عندما كانـــت الاســـتعدادات قائمة لتسليم تلك الرسالة الاستثنائية باليد إلى ديفيد سيلبرغ مدير محطة الموساد السرية في السفارة الإسرائيلية في عمّان، قال أحد الضباط المقرّبين من سميح البطيخي إن رئيس الاستخبارات كشف عن لحظة نادرة من المتعة الحقيقية. مـــشيراً إلى مشعل وكل الآخرين، الذين كان يقول عنهم مجتمعين إنهم صقور حماس، قـــال البطيخي لأولئك الذين حوله: "سيكون هؤلاء الناس في الستين من عمرهم في الوقت الذي ينتهي فيه هذا؛ ربما يكونون قد ماتوا"[51].

كـــان هناك كلام عن *هدنة* في الماضي، لأوقات أقل عادة. لكن لم يكن هناك مثل ذلك العرض الرسمي من قبل، وبرعاية ملك الأردن. قدّر حسين أنه ستمر أربعة أيام – ربما أكثر – قبل أن يسمع الرد من نتنياهو.

11

"لقد استعملوا أداة غريبة"

عندما كانت ترتدي ملابسها للذهاب إلى العمل يوم الخميس أواخر أيلول 1997، كـــان ذهن رندا حبيب في مكان آخر. كان والد صديقتها قد توفي وستكون هناك تعزية عـــربية تقلـــيدية في ذلـــك اليوم؛ النساء في الصباح والرجال بعد الظهر. كعلامة على الاحتـــرام، اختارت كنـــزة بيضاء وبذلة سوداء بسيطة. كانت حبيب تعيش في الرابية، قـــبالة الـــدوّار السادس في عمّان، وتقود سيارتها بنفسها إلى العمل كل يوم، نـــزولاً إلى الحي القديم، في رحلة تستمر عشر دقائق أو خمس عشرة دقيقة وفقاً لحركة السير.

كانت حبيب منتبهة للوقت عندما وصلت إلى مكتب وكالة الصحافة الفرنسية، وهـــو مـــبنى جمـــيل قديم كان في ما مضى منـــزلاً خاصاً على زاوية شارع إبراهيم المويلحـــي، قـــبالة الـــدوّار الثاني تماماً. كانت حبيب تخطط للذهاب إلى عزاء عائلة صديقتها قبل الساعة 10:45 صباحاً على أبعد تقدير.

كان كل شيء هادئاً. كانت قد تجاوزت مكتب الاستقبال وتغلق الباب خلفها عـــندما سمعـــت الهاتف يرن؛ وبعد ثوان، نادتها مساعدتها التي تعمل معها منذ وقت طويل ريبيكا: "محمد نـــزال. يقول إن الأمر عاجل".

كانـــت حبـــيب تعـــرف نـــزال جيداً، وتأوهت. بصفته ناطقاً صحافياً باسم حمـــاس، كان يتصل باستمرار، يشغل ساعات من وقتها لشرح آخر مواقف حركة المقاومـــة. كان آخر ما تريده حبيب في ذلك الوقت أن يجعل نـــزال أذنيها خدرتين. لكن الحاسة السادسة للمراسلة تنبّهت، وتلقت المكالمة من مكتب الاستقبال.

كـــان نـــزال غاضباً. متجاوزاً العادة العربية بإلقاء تحية مطوّلة، انطلق بسرعة يلقي بياناً رسمياً على الهاتف: "أريد إخبارك أن خالد مشعل كان ضحية محاولة اغتيال".

أصيبت حبيب بالذهول. كان مشعل نجماً ساطعاً في سماء حماس، وكانت محاولة القـــضاء عليه على الأرض الأردنية بمنـــزلة إعلان حرب. استعادت رباطة جأشها، وسألت إن كان مشعل قد نجا.

قال نــزال: "نعم. إنهّ هنا، إلى جانبـي. هاجموه عندما كان يدخل المبنى".

سألت حبيب، وهي تجد صعوبة في تصديق الأمر حتى عندما كان ذهنها يعمل على القصة التي ستكتبها: "هل حاول أحد إطلاق النار عليه؟".

قال نــزال: "لا".

ســألت حبــيب وقد بدأت تستغرب من اقتصاد نــزال في الكلام: "هل كان هناك انفجار؟".

قال لها نــزال: "لا لقد استعملوا أداة غريبة". بالعربية، كان ذلك اختياراً غريباً للكلمات.

بعــد دقائــق، عندما سيكون على حبيب صياغة ذلك بالفرنسية في تقرير من خمسة أسطر إلى وكالة الصحافة الفرنسية في باريس، سيكون الأمر أكثر إثارة. لكن، آنذاك، طلبت المراسلة من نــزال: "دعني اتكلم مع مشعل".

مــثل باقي المجتمع الصحافي في عمّان، لم تكن حبيب تعرف مشعل جيداً. على الهاتــف، بــدا أنه متماسك ورصين. لكنه بدا في الوقت نفسه مصدوماً وهو يؤكد شــيئين – كــان اللــذان هاجمــاه أجنبــيين، كما قال، ويعملان لمصلحة وكالة الاستخبارات الإسرائيلية، الموساد.

كانــت حبــيب لا تــزال متشككة لكنها طرحت على مشعل سؤال المراسل الأساســي: "مــاذا حدث؟". حاول مشعل أن يشرح: "شعرت بشيء في أذني، مثل همسة". أصدر صوت هسيس. "حاولوا حقني بتلك الأداة الغريبة، لكني تحركت، لهذا لم ينجح الأمر".

بينما كانت حبيب تغلق السمّاعة، تساءلت عن تلك القصة وطريقة كتابتها. إذا كانــت هــناك قصة، ما هي تفاصيلها؟ كان خالد مشعل يبدو سليماً. لم يكن ممكناً أخــذ ادّعائــه بأن اللذين هاجماه ينتميان إلى الموساد على محمل الجد لأن حماس تلوم الإسرائيليين على كل شيء. لم يكن أي من مشعل أو نــزال يستطيع أن يشرح بدقة هذا الادّعاء عن *أداة غريبة*. وأين هم شهود العيان على محاولة الاغتيال المزعومة تلك؟ غير مشعل الذي يبدو أنه بخير.

بالرغم من ذلك، تأثرت برغبتهما الملحة في إيصال القصة إلى الرأي العام، وحتى أكثــر من ذلك، بموافقتهما، إذا بثّت خبر الهجوم، على التخلي عن إصرارهما المعتاد

علــى عدم الاقتباس عن مسؤولي حماس بالاسم. آنذاك، كانت تلك الحكاية الغريبة ســتخرج من فميهما، وليس على لسان حبيب. لكن إذا كانا محقّين، ستكون لديها قصة مذهلة.

وقفــت حبـيب في ردهــة استقبال مكتب الصحافة الفرنسية تمعن التفكير في التفاصــيل لكــنها كانت بالفطرة تصدّق القصة. أقرّت في قرارة نفسها، من حيث كانــت تقف، أن القصة ضعيفة. لكن ما أقنعها بها أخيراً كان الآتي: إن كان مشعل ونــــزال لفقّاهـــا، كانــا سيأتيان بشيء أقل غموضاً وأكثر إثارة للاهتمام. كانا سيقدّمان حكاية أكثر واقعية من صوت الهسيس الغامض ذاك في أذن مشعل.

في قرار مفاجئ، عادت حبيب إلى مكتبها، وضغطت على لوحة مفاتيح. كتبت أول تقرير قصير بعد الحادية عشرة صباحاً بالتوقيت المحلي. اعتماداً على فطرتها مجدداً، احتاطت للأمر بالاتصال بباريس لتحذّر مكتب الأخبار من أن قصة غريبة على وشك أن تظهر. قالت: "لكن استعدوا للأمر".

حــصل مــشتركو وكالة الصحافة الفرنسية حول العالم على الخبر العاجل عند الــساعة 11:14 صــباحاً، بتوقيت عمّان، وبعد دقائق من ذلك كانت إذاعة مونتي كارلــو تبثّه في أرجاء المنطقة. "25 أيلول/عمّان: لم يتعرض رئيس المكتب السياسي لحمــاس، خالــد مشعل، لأذى بعد تعرضه لمحاولة اغتيال اليوم، بحسب ما قال ممثل حماس محمد نــزال لوكالة الصحافة الفرنسية في عمّان. لكن حارس مشعل الشخصي أُصيب بجروح في الهجوم".

بعد ثلاثين دقيقة، بثّت حبيب بعض التفاصيل الجديرة بالملاحظة في تقرير مطوّل عــن الهجــوم: "قال نــزال إن الشرطة الأردنية ألقت القبض على مهاجمين وثلاثة شــركاء لهــم. تعرض مشعل للهجوم حوالى 10:15 صباحاً عندما كان يترجل من ســيارة ليدخل مكتبه. قال نــزال إن رجلين غير معروفين بملامح أجنبية – أحدهما ملــتحٍ، والآخر يضع نظارة – اقتربا من مشعل ملوّحين بما يبدو أنها أداة متفجرة، مما استدعى تدخل حرّاس مشعل الشخصيين. هرب المهاجمان، لكن الحرّاس الشخصيين لاحقــوهما فيما كان ثلاثة شركاء لهم ينتظرون بالقرب من المكان. تدخلت الشرطة الأردنــية، واعتقلت الخمسة جميعاً. هذا أول حادث من نوعه ضد أحد قياديي حماس في الأردن".

في الواقـــع، حدّد تقرير حبيب ما كان فقط بداية حلقة مذهلة من حرب سرية ستشترك بها أخيراً حكومات وأجهزة استخبارات إسرائيل، الولايات المتحدة، وكندا. ســـتمتد تأثيراها لتشمل برامج تجسس الموساد والعالم السري للعقاقير القاتلة المحظورة وصولاً إلى الرئيس بيل كلينتون في البيت الأبيض.

كانـــت بدايـــة يوم الخميس هادئة في عمّان، لأنه أول يومي العطلة الأسبوعية. كانـــت الساعة العاشرة صباحاً عندما انطلق مشعل إلى مكتبه في شارع وصفي التل، مركز تجاري مكتظ، في حي تلاال علي. كان أبو ماهر، سائقه، خلف المقود؛ ومعهما أبناء مشعل الثلاثة الصغار - عمر، وليد، وبلال - الذين خرجوا للقيام بنـــزهة. كان خلفهـــم، في سيارة ثانية، محمد أبو سيف، الحارس الشخصي لمشعل. كان أبو ماهر سيوصل مشعل إلى خارج المكتب ثم يأخذ الصبية إلى حلاق محلي ليقص شعرهم.

بعد انطلاقهم بقليل، اتصلت أمل زوجة مشعل عبر هاتفه الخليوي لتحذّره بأنها قـــد لاحظـــت، بعد أن غادر المنـــزل، غرباء ليسوا عرباً بجوار شقتهم. عندما أنهى مـــشعل المكالمـــة، انتبه سائقه إلى هيونداي خضراء رآها في المرآة الجانبية ربما كانت تلحق بهم. لكنها أدركتهم بعد ذلك، تجاوزتهم، واختفت عن أنظارهم.

عـــندما اقتـــربوا من صف الأعمدة الذي يشكل واجهة المبنى المؤلف من خمسة طوابـــق في الـــضواحي الغربية حيث يقبع مكتب مشعل في الطابق الرابع، شعر قائد حمـــاس أن هناك شيئاً ليس على ما يرام. كانت الهيونداي الخضراء قد جعلته يتحفّز. تـــرجل من السيارة لكنه سلك من دون وعي منه الطريق الأطول، ودار حول الجزء الخلفي من المركبة في دربه إلى الرصيف العريض المسقوف.

كان هناك شاب، أشقر، ملتحٍ، ويضع نظارة يقف على بعد حوالى خمسة أمتار من الرصيف، متحفزاً كما لو أنه مستعد للقفز. كان يرتدي سروال جينـــز وقميصاً مفتوحاً عند العنق. كانت يده اليمنى ملفوفة بما يبدو أنه شاش جراحي. عندما خرج أبو ماهر من السيارة، تساءل إن كان الشاب قد تعرض لإصابة ما. عندما لمست قدم مـــشعل حافـــة الرصيف، اندفع الأشقر نحوه. كانت إحدى يديه قد لمست الأرض لنصف ثانية، لكن الأخرى كانت مستعدة للعمل، ورفع نفسه كما لو أنه يريد ضرب الجانب الأيسر من رأس مشعل. لكن قبضته المشدودة المغلّفة بضمادة توقفت عند أذن مشعل.

ادّعى عدد من شهود العيان لاحقاً أنهم سمعوا في ذلك الوقت صوت انفجار صغير. قفز أبو ماهر مباشرة لمساعدة مشعل، ألقى بثقل جسده على المهاجم الأشقر، وأوقعه على الرصيف.

حدث الأمر بسرعة. فيما كان أبو سيف يوقف سيارته عند الرصيف، حاول المهاجم وشريك له داكن البشرة، قوي البنية، والذي كان يتوارى خلف عمود، الهرب لكن ليس قبل أن يركض الحارس الشخصي لمشعل من سيارته ويوقع الرجل داكن البشرة على الأرض. الغريب أنه عندما وقف ذلك الرجل على قدميه، رمى بعلبة صودا على أبو سيف قبل أن ينطلق هارباً من المكان[1].

طارده الحارس الشخصي على الأقدام. مقترباً من الرجلين، أدرك أن المهاجمين كانا يحاولان الوصول إلى سيارة هروب. كانت على بعد حوالى مئتي ياردة إلى الشرق من المكان الذي وقع فيه الهجوم على مشعل، مركونة خارج مطعم سروات الواقع على حافة منطقة مليئة بالشوارع الجانبية الملتوية، التي يمكن العثور فيها بسرعة على مسار للهروب إلى شارع المدينة المنورة والاندماج في حركة السير الكثيفة لمسالكه الأربعة. كان السائق جاهزاً للانطلاق آنذاك.

كان أبو سيف حاضر البديهة ليخفف سرعته مدة كانت كافية ليكتب رقم لوحة التسجيل على يده – 5473. حفظ نوع ولون المركبة. لكن سلوك طريدتيه حيّره – لماذا لم ينظرا إلى الخلف؟ بالرغم من الصراع على الرصيف، بدا أنهما يعتقدان أنهما أنجزا مهمتهما ويرغبان فقط في الهروب. لكن بينما كان أبو سيف الأعزل يُجهد نفسه للحاق بهما، كان يستمد الشجاعة من إيمانه العميق: "الله معي!".

استدار أبو سيف بعد أن سمع سيارة خلفه. تحركت ذراعاه بشكل مثير فقد كان يقف في وسط الشارع، مما أرغم السائق على الضغط على المكابح. فتح أبو سيف باب الراكب الأمامي بقوة، دفع نفسه إلى الداخل، وصرخ على السائق: "هناك مشكلة – السيارة الخضراء! الحق السيارة الخضراء!" بشكل مدهش، امتثل السائق الشاب. ضغط على دواسة الوقود، مطارداً الهيونداي التي كانت تنطلق مسرعة عبر الشوارع الخلفية، وتجاوزت المسجد المحلي متجهة نحو شارع المدينة المنورة.

فجأة، توقفت الهيونداي وقفز منها الشخصان اللذان هاجما مشعل. انطلقت السيارة مجدداً بينما كانا يندفعان نحو حركة السير جرياً على الأقدام، وتوقفا لبرهة

علـــى الرصيف المرتفع الذي يتوسط الطريق قبل أن يصلا إلى الرصيف على الطرف الآخر. خشي أبو سيف أن يفقدهما بعد أن انطلقا بسرعة كبيرة، وتحركا باتجاه حركة الـــسير كمـــا لو أنهما يتوقعان أو يأملان وصول سيارة هروب ثانية لنقلهما إلى بر الأمان.

شـــدّ أبو سيف قبضة الباب بقوة، وصرخ على السائق غير المعروف لكن المطيع بـــأن يـــتوقف. عـــندما ضغط على المكابح، قفز أبو سيف من السيارة. مثل رجل مهووس، انطلق بخط مستقيم عبر الطريق، مندفعاً فوق أرض قاسية مكشوفة، ثم عبر حـــركة السير، مسرعاً خلف طريدتيه. كانا قد سبقاه بثلاثين ياردة، لكن بعد حوالى 200 يـــاردة، قلّص أبو سيف المسافة بينهم، مطلقاً الشتائم فيما كان يركض. صرخ: "جبناء! كلاب!".

أخـــيراً، اقترب أبو سيف منهما وعبر الثلاثة جميعاً حديقة سوق تجاري، الذي يقـــع علـــى الطـــرف الغربـــي من شارع المدينة المنورة. مذعورين، غيّر المهاجمان طـــريقهما إلى داخل الحديقة. صرّح أبو سيف لاحقاً: "مثل كلبين مجروحين، لم يكن لـــديهما مكان يذهبان إليه". أمسك بالرجل داكن البشرة من ياقته، بينما كان يحاول عبور جسر للمشاة فوق قناة ري صغيرة.

عـــرف أبو سيف أن كلا الرجلين لم يكن مسلحاً. لاحظ أنه في خلال الوقت القـــصير الذي قضياه في الهيونداي الخضراء، كان الرجل الأشقر قد نـــزع ضمّاداته عن يده وذراعه. فيما كان أبو سيف يحاول إحكام قبضته على ملابس طريدته، جاء إليه الأشقر، وضربه على رأسه بأداة حادة.

ترنّح الحارس الشخصي. أُصيب بجرح بالغ في رأسه وسالت الدماء على عينيه، ممـــا شـــوّش رؤيته. لكنه تشبث به، وبقبضة ثقيلة لكم أبو سيف وجه الرجل فأوقعه أرضاً وهو يصرخ.

اندفـــع الأشـــقر نحـــوه مجدداً. تدحرجا تحت الجسر، واستقرا في حوالى عشر بوصات من ماء موحل. متخبّطاً في الوحل، أمسك أبو سيف بحجر في قبضته وضرب به رأس الرجل الآخر. كانت الدماء تسيل من جروح الاثنين آنذاك.

كافح الرجال الثلاثة للوقوف على أقدامهم، ولاحظ أبو سيف للمرة الأولى أن حشداً قد اجتمع حولهم. لكن لم يتقدم أحد للمساعدة. كان لا يزال يمسك بالرجل

الأشـــقر من خلف عنقه، وفيما كان الشريك يبذل جهوداً متكررة لتوجيه ضربة له، كان الحارس الشخصي يستعمل الرجل الأشقر كدرع.

لأن ذلك اليوم كان قبل الجمعة، عطلة المسلمين الدينية، كان أبو سيف صائماً، وسرعان ما جعله ذلك، إلى جانب فقدانه للدم، يشعر بدوار. تعثر الثلاثة مجدداً، وبعد أن وقعـــوا في الطين، رمى أحد المهاجمين بنفسه على أبو سيف، وثبّته بالأرض. تحرر الـــثاني وكـــان يعود مترنحاً نحو الشخصين الآخرين ويداه تمسكان بحجر كبير عندما تدخل أخيراً سعد نعيم خطيب[2]، الذي كان ماراً في المكان.

كـــان خطـــيب، البالغ من العمر ستة وثلاثين عاماً والضابط في جيش التحرير الفلسطيني التابع لياسر عرفات والمتمركز في الأردن، في سيارة أجرة في طريقه لزيارة والده. كان قد عبر آنذاك دوّار الواحة، المخرج الشرقي الذي سيجعله يتجاوز مكتب مشعل، ويمر قرب مدرسة عمر المختار عندما لاحظ الحشد الصغير حول ثلاثة رجال راشدين يتعاركون في حديقة سوق.

قفـــز خطيب حتى قبل أن تتوقف سيارة الأجرة تماماً. عندما كان يجري نحو المتصارعين، سمع أبو سيف يصرخ قائلاً: "قتلا خالد مشعل - إنهما من الموساد!". أولاً، قفـــز خطـــيب على حامل الحجر، أوقعه أرضاً بضربة قوية من ركبته على معدة الرجل. ثم، بعد أن فقد أبو سيف على ما يبدو وعيه، أمسك خطيب بملابس الرجل الآخر، الذي كان أبو سيف قد ثبّته بالطين. جعل الرجل يقف على قدميه وكان يُحكم ذراعه خلف ظهره عندما لاحظ أن شريكه يزحف مبتعداً على يديه وركبتيه.

اســـتفاد آنذاك من تدريب جيش التحرير الفلسطيني على القتل وتقنيات القتال. كان خطيب يعتقد أنه يعرف ما يكفي عن فرق الموساد، لم يكونوا يعملون لوحدهم، وكانت هناك فرصة كبيرة بأن يكون مراقبون إسرائيليون أو رجال دعم بين الحشد. سمـــع صوتاً غريباً يقول: "انتظر الشرطة"، وخشي أن يكون أحد يحاول توفير الوقت للمهاجمين بجعل باقي أفراد الحشد يقفون متفرجين. بتدبّر، كان سائق سيارة الأجرة قد انتظر، وأبقى العدّاد يعمل.

دفـــع خطـــيب آنـــذاك الرجال الثلاثة إلى المركبة - أبو سيف، يشعر بالدوار وينـــــزف في مقعـــد الراكب الأمامي؛ الأجنبيان محصوران معه على المقعد الخلفي.

طلب خطيب من السائق التوجه إلى أقرب مركز شرطة، والذي كان في الشميساني، قريباً من مكان حيث يقطن مشعل.

لكن حالما غادروا المنطقة، بدأ ينتابه القلق من وجود عملاء آخرين للموساد في الحشد الذي تدافع حول السيارة في أثناء مغادرتها، والذين ربما سمعوا تعليماته للسائق. لهذا وضعهم على مسار جديد، واتجهوا إلى الجنوب الغربي بعيداً عن مركز المدينة نحو وادي السير، حيث يقبع مبنى كبير للشرطة تحت جسر أسمنتي على طريق عام عند الدوّار التاسع.

لم تكن رحلة مريحة. كان أبو سيف يجلس في المقدمة، يطلق الشتائم من فوق كتفه على القتلة المفترضين. تمتم الحارس الشخصي غاضباً مراراً وتكراراً: "أوغاد! كلاب!". أخيراً، في نوبة غضب، لجأ المقبوض عليهما إلى اسميهما المستعارين، والتمسا من خطيب بإنكليزية ثقيلة إسكات أبو سيف. تظاهر خطيب بأنه لا يفهم الإنكليزية، لكنه كان طيلة ذلك الوقت يستمع إلى جدال بين الرجلين في المقعد الخلفي بشأن الإعلان أنهما سائحان كنديان بريئان اعتدى عليهما الشقي الذي يجلس في المقعد الأمامي.

في وادي السير، طلب خطيب سيارة إسعاف لتنقل أبو سيف إلى المستشفى، واقترح أن يرافقه حارسان مسلحان. لكن شعر رأسه قفّ عندما ظهر أجنبيان فجأة، أحدهما يحمل آلة تصوير فيديو، وطلبا الدخول إلى مركز الشرطة على أساس أنهما صحافيان.

هل كان أحد يلحق بهم؟ حذّر الحراس على بوابة المبنى: "لا بد من أنهما من الموساد. كيف استطاع أي صحافي أن يعرف أن هذين الرجلين هنا؟".

بعد إرسال أبو سيف إلى المستشفى، كان دور خطيب في الأحداث قد ازداد لدرجة أنه، بدلاً من السماح له بمراقبة ما يجري فقط، استطاع المشاركة كضابط في جيش التحرير الفلسطيني في استجواب وتفتيش الأجنبيين لاحقاً. عندما وصل ملازم شرطة لاحقاً إلى المركز، أصبح خطيب مساعده الأول. وقف خطيب بثبات أمام الشخص الذي معه حقيبة صغيرة مربوطة بإحكام حول خصره، وعندما طلب الرجل الذهاب إلى الحمام، صرخ خطيب: "لا تسمح له! إنه يريد التخلص من شيء ما".

في خرق استثنائي لتقاليد عمل الشرطة المعروفة، لم يعترض ملازم الشرطة عندما تقدم خطيب لتفتيش الشخصين بنفسه. حاول أحد رجال الشرطة المحليين، تعاطفاً مع

ادّعـــاء الشريك بأنهما سائحان كنديان كانا قد تعرضا لاعتداء، الطلب من خطيب ورجـــال الشرطة الآخرين التوقف عن معاملة المحتجزين بقسوة. لكن خطيب، الذي كان يعرف أن رجال سميح البطيخي سيصلون قريباً، ذكّر الشرطي قائلاً: "هذا ليس مـــن شأنك سيصل رجال المخابرات إلى هنا قريباً". عندما اكتشف جواز سفر كندياً في جيب كل رجل، أخرجهما خطيب وقرر وضعهما في جيبه.

إلى جانـــب حقيقة أن الرجلين حاولا استعمال حجر كبير لتهشيم رأس رجل محلـــي يدّعـــي أنه الحارس الشخصي لخالد مشعل، كان هناك شيئان لا يمكن أن يمرا مرور الكرام. كانت مرافق ورُكب المحتجزين ملفوفة بضمادات بإحكام، مثل ملاكم محتـــرف في أثناء دخوله إلى الحلبة. وكانت الحقيبة التي يضعها أحدهما حول خصره تحتوي على أداة غريبة تشبه آلة تصوير.

كـــان يـــبدو أن تلك هي الأداة التي كان يحملها الأشقر في يده الملفوفة بضماد عـــندما قفز على خالد مشعل في وقت مبكر من ذلك اليوم. كان لونها رمادياً معدنياً داكناً، وبحجم علبة لفائف التبغ. من النظرة الأولى، كانت تبدو مثل آلة تصوير، لكن لاحقـــاً، أشار شرطي كان موجوداً عند التفتيش أنه لم يكن لها شاشة تصوير أو أيٍّ مـــن الميزات الأخرى التي يمكن العثور عليها عادة في آلة تصوير. بدلاً من العدسات، كان هناك بروز غريب الشكل من وسط أحد أسطحها المستوية. كان ملازم الشرطة قد صادرها، مفترضاً أنها دليل، فيما تم اقتياد الشخصين نفسهما إلى زنـــزانة.

عـــودة إلى مسرح الحادث في شارع الحدائق، كان أبو ماهر قد اتصل بصديق ليـــصطحب أولاد مشعل المنـــزعجين إلى والدهم قبل أن يأخذ قائد حماس إلى مكان يختبـــئ فـــيه. سمع القيادي في حماس محمد نـــزال عن الهجوم أول مرة عندما اندفع مراســـل إلى مكتبه، معلناً عن محاولة الاغتيال، وقال وهو يحاول التقاط أنفاسه: "الأخ خالـــد ينتظرك قرب منـــزلك - يريدك هناك الآن". كان نـــزال المكتئب متأنياً في حركته كما في كلامه، لكنه أسرع قدر ما يستطيع، وشق طريقه إلى منـــزله. هناك، وجـــد أن مشعل يختبئ في مكان قريب في سيارة مركونة. شرح لاحقاً: "جاء الأخ خالد إلى منـــزلي لأنه كان خائفاً من ذهاب فريق دعم من الموساد إلى منـــزله".

لكـــن نـــزال كـــان متـــشككاً بشأن ادّعاء مشعل أن اللذين هاجماه كانا إســـرائيليان. وبينما كان مشعل الذي يبدو سليماً يسرد قصته بصوتٍ خافت، طرح

نــــزال أسئلة: "ربما كان شخصاً يريد إخافتك فقط؟ كانوا سيستعملون مسدساً لو كانوا يريدون قتلك... كيف تأكدت أنهما من الموساد؟".

في تلك المرحلة المبكرة، كان الدليل الوحيد على تورط الموساد هو شعور مشعل الداخلي. أصرّ على أن المهاجمين كانا أجنبيين ويبدوان يهوديين. ضغط عليه نــزال: "حسناً، إذا كنت واثقاً، ينبغي أن ننشر القصة، أخبر وسائل الإعلام!".

لكــن مــشعل تردد. كان يأمل أن يصل آخرون من أعضاء المكتب السياسي لحماس، وأراد استعراض التكتيكات بشكل أوسع قبل أن يعتمد استراتيجية نــزال. لم يكن هناك يقين بشأن طريقة تصرف النظام الأردني إزاء اتهام مباشر من حماس ضد إسرائيل.

ضغط عليه نــزال: "ليس لديك وقت. تردد الآن وستخسر هذه المعركة".

سأل مشعل: "ماذا تريد أن تفعل؟".

أجاب نــزال: "سأتصل برندا حبيب".

كانــت خبرة حبيب مع السلطات في عمّان تشكل الطريقة التي تتعامل بها مع التقاريــر الإخبارية. كانت تفضل نقل الخبر على مراحل. كان ذلك أسلوباً يناسب الخدمة المتواصلة على مدار الساعة لهيئة مثل وكالة الصحافة الفرنسية التي تقدّم أجزاء متفــرقة مــن قصة تتطور. لكن الأكثر أهمية، أن حبيب استعملت ذلك كأداة لمنح الــسلطات المحلية فرصة لنفي أو إنكار تقاريرها قبل أن تمضي قدماً. كانت تتأكد من بــث كلماتهــا علــى الهــواء وبرقياً بالعربية، والفرنسية، والإنكليزية قبل أن تتصل بالمسؤولين الأردنيين.

في مــا يخص قصة مشعل، قالت لنفسها: "لا أحتاج إلى تأكيد من الأردن على تقريــر أولي لــرجل يقول إن شخصاً حاول قتله". لكنها كانت بالتأكيد بحاجة إلى إجابــة لأن مــشعل، في الواقع، كان يتهم إسرائيل بتمزيق نص وروح اتفاقية سلام تاريخية كانت قد وقعتها مع الأردن في العام 1994. كانت بحاجة إلى رد فعل رسمي، والكثير من المعلومات الأخرى عمّن حاول قتل من في شوارع عمّان الصغيرة الوادعة.

قامــت بإجــراء اتصالات هاتفية. لم يكن المسؤولون في وزارة الإعلام يعرفون شيئاً. وأقنعها رد الفعل عندما اتصلت بسميح البطيخي، رئيس إدارة المخابرات العامة القــوية الــتي تعــرف كل شيء، وقال لها إنه لا يعرف شيئاً أيضاً، سوى ربما سماع

تقريـــرها عبر إذاعة مونتي كارلو. كان البطيخي في مكتبه، ومتلهفاً، كما اعتقدت، لتلقّي مكالمتها. بعد أن أخبرته بالقليل الذي تعرفه، شعرت حبيب أنه اندهش كثيراً. بـــدا قلقـــاً عندما أنهى المكالمة معها، وقال: "سأتصل بك لاحقاً". كانت واحدة من المكالمـــات العديـــدة الـــتي أجراها البطيخي مع موسى أبو مرزوق، وطلب منه فيها السيطرة على محمد نـــزال الذي، كما ادّعى آنذاك، كان ينقل الأكاذيب والهراء إلى رندا حبيب.

توقـــف البطيخي قليلاً ليتلقى مكالمة من اللواء نصوح محيي الدين، مدير الأمن العام في عمّـــان. كان محيي الدين يعتقد أنه ينبغي للبطيخي سماع تقارير عن الأحداث الغريبة الـــتي وقعت في حي تلاع علي من العاصمة. لكن لا شيء مما قاله اللواء كان يبدو منطقياً للبطيخي: "كان خالد مشعل يصطحب أولاده إلى مكان ما... اقترب منه أجنبيان، شعر بـــشيء علـــى عنقه... صراخ وصياح في الشارع، ثم عراك... ادّعاءات بتورط الموساد. طاردهما حرّاس حماس. بدا أن أحد المهاجمين يتجه إلى السفارة الإسرائيلية".

أمعن البطيخي النظر في ثلاثة عوامل كان محيي الدين قد أخبره بها: وجود سياح أجانـــب، يـــد الموساد، ورجل يندفع نحو السفارة الإسرائيلية. تنهد، وأضاف عاملاً رابعاً: حماس.

قـــرر: "ســـوء فهم". لكنه طلب من مدير الأمن العام عزل السجينين، وقال: "ينبغي أن نعرف أصل القصة. إذا كانا سائحين، ستكون هناك إجراءات قنصلية".

بعـــد إمعـــان الـــتفكير في الأمر، لم يستطع البطيخي تجاهل البعد الإسرائيلي للمـــشكلة الـــتي أضحت أمامه آنذاك. كان يكره حماس، وينبغي التعامل مع حركة المقاومـــة بحـــرص شديد. لكن كيفما كان يقلّب الأمر، كانت تلك بالتأكيد مجرد مـــشاجرة في الـــشارع. تحسباً لأي شيء، كانت حماس ستعمل على تضخيم الأمر. كانـــت نقطـــة الـــبداية للإسلاميين، دائماً، هي أن وكالة الاستخبارات المركزية أو الموساد الطرف الجاني. كان البطيخي بحاجة إلى حقائق.

في خلال وقت قصير، بدأت الحقائق تتضح. تكلم محيي الدين عبر الهاتف مجدداً، وقال: "إنهما كنديان".

لم يكـــن ذلك ما توقعه البطيخي تماماً، لكن تحليله الأولي للأمر كان لا يزال بعيداً، ولا يقترب، من أنها أزمة. رد: "لكن ليس لدينا سجل عن الكنديين بأنهم أشرار".

بعـــد خمـــس دقائق، كان البطيخي يعرف معلومات أكثر عندما عاود الاتصال بحبيب: "رندا، بالله عليك! تعرفين حماس... لم تكن هناك محاولة اغتيال. كانت مجرد مـــشاجرة بـــسيطة بين كنديين ومرافق أردني". كما لو أنه يريد إثبات أن القصة لا أساس لها، قال لها: "لم يكن مشعل حتى موجوداً في مكان المشاجرة".

لكن بشكل غير مباشر، كان البطيخي يؤكد ادّعاء نـــزال بأن للقصة موقعين. وبالكـــشف عن أن السائحين كنديان، كان البطيخي قد فتح مجالاً جديداً لتساؤلات المراســـلة، الـــتي هبّت للعمل مباشرة. سيتم بالتأكيد إبلاغ السفارة؟ بعد وصولها إلى طريق مسدود في الصباح، كان لديها آنذاك دليل جديد تلاحقه.

بعد أن تحركت آلة إدارة المخابرات العامة للعمل، ربما كان البطيخي قد أرسل بـــشكل اعتيادي اسمي السائحين إلى مكتب الارتباط في السفارة الكندية، لكنه قرّر عـــدم القـــيام بذلك. كانت إدارة البطيخي تقوم بما يُفترض بها، وتحاول فعل ذلك بأســـلوبها السري المعتاد، لكن حماس لم تكن تجعل الأمر سهلاً. كان مشعل معروفاً جيداً للبطيخي، ويثير مع صديقه محمد نـــزال الكثير من الضوضاء في وسائل الإعلام؛ وكان الشخص الوحيد الذي لم يتصل به البطيخي، متعمداً، خالد مشعل.

كانت القصة بكاملها، كما اعتقد البطيخي، هراء مبالغاً به. لم يتم العثور على أســـلحة؛ ولم تكن هناك إشارة إلى استعمال أحد الأشخاص لسلاح. عندما تضمن التقريـــر الـــتالي الذي وصل إلى مكتبه ادّعاءً غريباً بشأن نوع من الرذاذ الكيميائي، اتسعت عيناه دهشة. منذ توقيع اتفاقية السلام في 1994 بين الأردن وإسرائيل، وحتى قـــبل وقت طويل من ذلك، كانت إدارة المخابرات العامة على علاقة عمل طيبة مع الموساد. كان البطيخي يعتقد أن مدير الموساد داني ياتوم شريكاً حقيقياً في القتال ضد الإرهاب. كانت القنوات مفتوحة أمام ياتوم للمجيء إلى مبنى إدارة المخابرات العامة القابع على قمة إحدى التلال في عمّان لعرض قضيته إذا كان يرى حاجة إلى تضييق الخـــناق علـــى مشعل. كان الأردنيون، على الأرجح، سيستجيبون له. كان الموساد يعرف جيداً رأي الملك حسين الراسخ أنه يبدو منطقياً وجود قيادة حماس الخارجية في عمّان، حيث يمكن للبطيخي ورجاله مراقبتهم.

كـــان انتخاب المتشدد بنيامين نتنياهو قبل عام رئيساً لوزراء إسرائيل قد أرخى بظلاله على المراقبين العرب والمشاركين في عملية سلام الشرق الأوسط، لكن حسين

كـــان لا يـــزال يلـــتمس من كل الأطراف منح نتنياهو سليط اللسان فرصة، وكان الإســـرائيليون يعرفون ذلك أيضاً. كان استقبال نتنياهو سيئاً في المنطقة. كان قد فقد ثقـــة حسين، لكن الملك وإدارة المخابرات العامة كانا مترددين في إطلاق حكم نهائي علـــيه. كـــان نظام عمّان ضد أي شيء معادٍ للإسرائيليين، ومن ضمن ذلك الجناح المتـــشدد في حماس. بقي يوازن بين الحقيقة والخيال، أخبر البطيخي أحد ضباطه: "لا أعـــتقد أن الموساد سيكون غبياً جداً، ومتهوراً جداً ليحاول شيئاً مثل هذا... ولماذا سيحاول القيام بذلك في الأردن؟".

لكن إذا كان البطيخي يعتقد أنه يستطيع إبقاء الأمور سراً، كانت رندا حبيب، في وكالـــة الصحافة الفرنسية على الطرف الآخر من المدينة، تكشف عن القصة. في الـــساعة 1:23 بعد الظهر، نشرت حبيب معلومات جديدة. كانت مترددة في إنكار ذلك، لكنها أبرزت ملاحظات البطيخي القاسية. في غضون ذلك، كانت قد عادت إلى نــــزال، الـــذي كان في منـــزله مع مشعل؛ وكانا متمسكين بقصتهما. مجازفاً بمـــواجهة مـــصاعب نتـــيجة مخالفة أمر رئيس الاستخبارات، قال لها نـــزال آنذاك: "بالفعل، كانت هناك محاولة اغتيال. لم تكن تلك مشاجرة مع سياح".

عندما حاولت الاتصال بمسؤولين حكوميين آخرين، سرعان ما أدركت حبيب أن النظام يواجه أزمة آنذاك. لم يكن أحد موجوداً، وقال لها موظف في مكتب مسؤول بارز في لحظة غفلة: "إنه في اجتماع عاجل مع الملك". بدأت أجراس إنذار حبيب تقرع حالاً.

كـــان البطيخـــي قـــد تلقى تقريراً آخر. في استجواب أوّلي، ادّعى المحتجزان الكـــندياين أنهمـــا يقيمان في فندق إنتركونتيننتال. كانا يقومان بجولة في المدينة، كما قالا، عندما هاجمهما مواطن شرير. لكن محيي الدين أضاف إنهما يبدوان، بالنسبة إليّ، بريئين، خائفين كثيراً من الظروف التي وجدا نفسيهما فيها.

عـــاد ذهن البطيخي إلى جغرافية مكان المشاجرة. كان العراك قد وقع على بعد قـــرابة الميل من السفارة الإسرائيلية، وأكّد عدد من المستجدات خلال نصف ساعة مـــضت ادّعـــاء نـــــزال المبكر أن واحداً أو اثنين من الشركاء كانا قد سلكا ذلك الطريق. هل كانت تلك مجرد مصادفة؟

ثم انبـــثقت تفاصيل أكثر وضوحاً من شهود عيان. كان رجلان آخران قد فرّا بالتأكـــيد من القتال. شوهدا يقفزان في سيارة أجرة تتجه نحو السفارة. كمحترف،

كـــان البطيخي لا يزال يجد صعوبة في رسم صورة كاملة للأمر، لكن فكرة اندفاع رجلـــين نحو السفارة الإسرائيلية، بدأت ترجّح مصداقية قصة حماس. ثم قام البطيخي بشيئين: قرر عدم إبعاد الموساد عن اللعبة، واتصل بالملك حسين.

"*ســـيدنا*"، شرع باستعمال الكلمة العربية التي يخاطب بها أعضاء الحلقة الضيقة ملـــك الأردن. قـــدّم البطيخــــي للملك تقريراً موجزاً عن الحقائق، مشدداً على أن التحقيق قائم منذ أقل من ساعة وأن العديد من الأسئلة لا تزال من دون أجوبة. كان العنصران الرئيسيان لأذني الملك هما أن حماس طرف، وربما يكون الموساد طرفاً أيضاً. قـــال البطيخـــي للملك: "لا يمكننا الجزم بأنه الموساد لأننا لا نعرف، لكننا نتحرّى الأمر". استمع الملك بهدوء قبل أن يُنهي الاتصال قائلاً: "ينبغي أن اسمع منك مجدداً".

بعـــد ســـاعة من إدراكها أن النظام يواجه أزمة، بثّت رندا حبيب تقريراً بشأن تطور جديد عبر وكالة الصحافة الفرنسية: "قال نـــزال إن حارس مشعل الشخصي المصاب يُعالج في مدينة الملك حسين الطبية".

ثم كـــان لديها سبب لتتوقف. نتيجة ضغط من مراسلين تسابقوا للحاق بسبقها الـــصحفي، أصـــدرت وكالـــة الأنباء الحكومية، بترا، بياناً باسم وزير الإعلام سمير مطـــاوع. هاجم الوزير حبيب، واتهمها قائلاً: "قصة وكالة الصحافة الفرنسية زائفة تمامـــاً. كـــان الكـــنديان يتسوقان عندما تعرض لهما سائق مشعل. تطور الوضع إلى مـــشاجرة؛ كان الطرفان يرميان حجارة على بعضهما بعضاً. لم تجد الشرطة سلاحاً في سيارة الكنديين وإنما محفظة فقط".

رمـــي حجارة؟ سائحان أجنبيان يتسوّقان في تلال علي الرتيبة؟ لم يكن أي من ذلـــك يـــبدو منطقياً. سرعان ما اتصل الوزير بحبيب هاتفياً، وعاتبها قائلاً: "كيف يمكـــنك القـــيام بذلك؟ لماذا تصدّقين حماس فيما سائق مشعل هو الذي هاجم هذين السائحين؟".

لم يكـــن التقـــريع المبطّن في كلام الوزير المنمّق غائباً عن حبيب. كانت أولى ملاحظاته أن سائق سيارة مشعل كان مجرد فلسطيني من الضفة الغربية، وليس أردنياً من الضفة الشرقية. ظهر ارتباكه في إيراده لكلمة عامّية نابية تستعملها نساء عربيات لوصف سلوك غير ملائم من رجل – *تحركش* – في شرحه لمضايقة السائق *للكنديين سيّئي الطالع*. كان استنتاج الوزير الذي لا لبس فيه أن السائق كان قد قام بعمل غير

لائق لاثنين من الأجانب الأبرياء اللذين كانا طيبين بما يكفي لإنفاق عملتهما الأجنبية في عمّان.

مثلما كانت حبيب تميل لتصديق الرجال من حماس لأن قصتهم تفتقر للخيال، استنتجت أن إنكار الوزير خيالي أكثر من اللازم. لكن محرّريها في باريس عقدوا اجتماعاً قصيراً لمناقشة الوضع. عندما اتصل بها أحدهم للتأكد من الموضوع، تشبثت حبيب بموقفها، وقالت للفرنسي: "لا تستبعد ما قاله خالد مشعل".

تفقدت الشرطة الأردنية وكالات تأجير السيارات. لكن عندما لم تكن هناك وكالة قامت بتأجير سيارة لكنديين، تقدم ما بدا أنه قصة خيالية من حماس خطوة نحو الحقيقة. كان لكل السفارات الأجنبية لوحات دبلوماسية رسمية. وكان لدى السفير الإسرائيلي الوافد حديثاً، عوديد عيران، مركبة خاصة مضادة للرصاص، لكن البطيخي كان يعرف أن مجموعة واحدة من الأجانب في عمّان كان مسموحاً لها استعمال سيارات مستأجرة تحمل لوحات خضراء اللون كغطاء أمني ألا وهي وحدة الموساد السرية في السفارة الإسرائيلية.

عندما اتصل الملك حسين بعد ذلك، استطاع البطيخي سماع القلق في صوته. أبلغ البطيخي أن اتصالاً هاتفياً قد ورد للتو إلى القصر من رئيس وزراء إسرائيل، بنيامين نتنياهو. قال الملك: "سيرسل داني ياتوم للقائنا بشأن قضية عاجلة".

عندما سأل حسين نتنياهو عن سبب الزيارة العاجلة، وحتى الغامضة لمدير الموساد، لم يكشف رئيس الوزراء عن تفاصيل كثيرة، وقال فقط إنها ربما تتعلق بعملية السلام[3]. تساءل الملك في تلك اللحظة إن كان ذلك أول رد فعل غير رسمي على رسالته قبل ثلاثة أيام، والتي ينقل فيها لنتنياهو عرضاً سرياً من حماس للتوصل إلى *هدنة*[4]. لكن البطيخي لم ينتظر ليقفز إلى استنتاج كان يبدو واضحاً: "إذاً، فعلوها حقاً".

وافق حسين على استقبال مدير الموساد في باب السلام، منزله العائلي في الضواحي الشمالية للمدينة. كان يريد من البطيخي أن يحضر اللقاء. شعر الأردنيون أن تلك ستكون مواجهة صعبة. فيما قام أحد مساعديه بإلغاء كل مواعيده، اتصل البطيخي باللواء محيي الدين، وأصدر إليه أوامر عبر خط الهاتف قائلاً: "الكنديان عميلان إسرائيليان، اعزلهما. لا تخبر مساعدك عن مكان احتجازهما! وحاصر السفارة!".

كـــان أمر حصار السفارة الإسرائيلية سابقة لا مثيل لها. عادةً، كان يتم وضع عدد صغير من الحرّاس الأردنيين في محيط ما كان أكثر بعثة أجنبية إثارة للحساسية في العاصمة الأردنية. وعادةً، كان مطلوباً من أفراد كادر عربتي جند أردنيتين مصفّحتين إبقاء عيونهم مفتوحة تحسّباً لتهديدات خارجية لتلك البعثة الدبلوماسية الحسّاسة. كان كـــل شـــيء قـــد انقلب رأساً على عقب آنذاك. بسرعة كبيرة، كانت تلك المدافع الرشاشـــة مـــن العيار الثقيل موجهة نحو السفارة. كان ضيوف النظام الأردني، كل كادر إسرائيل الدبلوماسي في عمّان، قد أصبحوا فجأة يشكلون تهديداً أمنياً.

كان مجالي وهبـــي، وهو موظف مدني إسرائيلي بارز، متواجداً بالمصادفة في عمّان لمتابعة أعمال حكومية، ويحتاج إلى دخول السفارة. لكنه تعرض لإهانة من قـــبل دورية عسكرية أردنية. كان قد خرج للتو من اجتماع مع الملك حسين لم تكـــن فيه أي إشارة إلى ذلك التوتر الجديد في العلاقات الذي يمكن أن ينجم عنه تلقّـــيه لمثل تلك الإهانة. قال لاحقاً، وهو يتذكر طوقاً من عشرات الجنود حول المـــبنى الإسرائيلي: "قال الجنود إنني مجنون لمحاولتي الدخول إلى هناك"[(5)]. وصلت وحدات دعم عسكرية وفرق من المخابرات إلى المكان. كانت أوامرها تقضي بمنع دخول أحد أو خروجه.

للمرة الأولى منذ افتتاح البعثة الإسرائيلية في العام 1994، كانت عيون وأسلحة الأردنيين موجهة نحو المبنى، وليس بعيداً منه. كجزء من عملية أوسلو، كان عدد من الدول العربية الصغيرة قد وافق على استقبال تمثيل إسرائيلي محدود على أراضيه، لكن البعـــثة الدبلوماسية في عمّان كانت واحدة من بعثتين إسرائيليتين كبيرتين في الوطن العربـــــي (الأخـــرى في القاهرة)، وكانت سهماً جيوسياسياً بالغ الأهمية على أي خـــريطة للمنطقة. فجأة، تم تطويقها. الأسوأ من ذلك أن الملك حسين هادئ الطباع عـــادة هـــو الذي كان يصدر الأوامر ويقرر مصير أولئك المحاصرين في الداخل: "لن يذهبوا إلى أي مكان"[(6)].

دب النـــشاط في مكتب البطيخي المترف، المنار بأضواء خافتة. تم بسرعة فرض تعتـــيم على ما يجري لإبعاد جيش المراسلين الذي كان يضغط بقوة عبر الهاتف؛ بمن فـــيهم قائدة المجموعة، رندا حبيب. كانت مشاجرة الرصيف تتطور إلى أزمة دولية. كانت طريقة معالجتها ستحدد مصير النظام الملكي الأردني.

لم يكـــن لـــدى البطيخي سوى معلومات عامة عمّا جرى، و لم يكن مستعداً بعـــد - ليس علانية بالتأكيد - لتوجيه أصابع الاتهام إلى الموساد، لأنه لم يكن يعرف آنـــذاك كيف ستخرج كل الأطراف من تلك الأزمة، وبأي شروط. بالفطرة، كانت وكـــالات مـــثل إدارة المخابـــرات العامـــة - ووكالـــة الاستخبارات المركزية أو الاســـتخبارات السوفياتية، فيما يخص تلك المسألة - تعيش بذهنية الحصار. ربما كان بمقـــدور ضـــباط الاستخبارات المحنّكين التباهي بالأمر، والادّعاء أنهم يستيقظون كل صباح مستعدين لأزمة مثل تلك، لكن في قرارة نفسه كان البطيخي يعرف أن الأردن لم يكن قد واجه أبداً من قبل شيئاً مثل تلك القصة التي كانت آنذاك تشغل عمّان.

مسرعاً من مكتبه في الطابق الثاني، قفز البطيخي إلى سيارة لتقلّه على عجل إلى بـــاب الـــسلام، الواقـــع في منطقة ملكية على كتف وادي الأردن، إلى الشمال من العاصمة. كان القصر الأنيق الجديد يطل على الطريق الواصل إلى مدينتي سلط وجرش القديمـــتين. كانـــت الملكة نور قد وضعت تصميمات لموقد ضخم مزّين بالفسيفساء ومساحة فارغة لصور السلالة الهاشمية. كانت الحديقة مزينة بحجارة، يفوح منها شذا أزهار البرتقال والياسمين، وتفيد كمساحة خاصة في الهواء الطلق لمطالعة الملك ومكتبته الـــرائعة. كانـــت نور السورية - الأميركية تجد أيضاً متعة في الحدائق، مع الكثير من أشـــجار النخـــيل والجهنّمـــية (نبات متسلق له أزهار ثلاثية صغيرة) لتذكيرها بأيام طفولتها في سانتا مونيكا، كاليفورنيا. ما من شيء كان ليخمد الغضب البركاني الذي اعتمل في البطيخي عندما كانت السيارة التي تقلّه تشق طريقها عبر الضواحي المربعة والدائرية للعاصمة.

في تلـــك اللحظـــة بالذات، كان النشاط الحراري فوق وادي الأردن يشير إلى وجـــود طائرة خفيفة عبرت الأجواء الإسرائيلية آنذاك متجهة شرقاً إلى عمّان. كان راكبها الوحيد مدير الموساد داني ياتوم.

على الأرض تحته، كان هناك دائماً تناقض صارخ بين التشدد الأمني الإسرائيلي البطـــيء علـــى الجانب الغربـــي من نهر الأردن، وموقف أكثر تساهلاً على الجانب الأردني. لكـــن، بعـــد الهجوم على مشعل مباشرة، كان حرّاس الحدود الأردنيون قد أصـــبحوا أكثر تنبهاً. كان غريباً أن يلقى العقل المدبر لمحاولة الاغتيال الفاشلة استقبال الـــسجاد الأحمر عندما حطّت طائرته على مهبط عسكري آمن في عمّان، لأنه جاء

كـــضيف رسمـــي للملك حسين. في غضون ذلك، كان مواطنوه الإسرائيليون الذين يعبرون المراكز الحدودية بكلا الاتجاهين يخضعون لأقسى تدقيق منذ سنوات، مخافة أن يكونوا بطريقة ما متورطين في المكيدة الإسرائيلية.

لم يكن بوسع ياتوم أن يرتاح. كان يتوقع نوع الاستقبال الذي ينتظره في باب الـــسلام. قبل أسبوع فقط، كان قد جاء إلى الأردن لقضاء عطلة مع عائلته في العقبة علـــى البحـــر الأحمر. كان الملك حسين قد استقبله في قصره الصيفي على الشاطئ، واقتطع وقتاً خلال الأيام الأخيرة من عطلته لزيارة زملائه في إدارة المخابرات العامة في عمّـــان. تم استقباله بحفاوة، وكانت هناك أحاديث ودّية عن أمور روتينية واستعراض لعملـــهما الاستخباراتي المشترك. لكن ياتوم لم يكن قد كشف لهم أياً مما كان يخطط لفعله في عمّان.

12

ينبغي أن يحيا مشعل

كانــت والــدة خالد مشعل، فاطمة، في منــزلها على سفح تل في الضواحي الغــربية لعمّــان عندما اتصل صديق ليخبرها بشأن تقرير رندا حبيب الأخير لوكالة الصحافة الفرنسية. اتصلت الأم بسرعة بكنّتها، أمل، التي أكّدت لها أن مشعل بخير. اقترحت أن يقوم حماها وحماتها، اللذان كان في السبعين من العمر آنذاك، بالمجيء إلى منــزلها وانتظار عودته من منــزل محمد نــزال.

لكــن في الوقت الذي تم فيه إحضار سيارة أجرة لنقل العجوزين إلى الشقة في الشميساني، كانت صحة خالد مشعل ستشهد منعطفاً نحو الأسوأ.

في منـــــزل نــزال، كان مسؤولو حماس يناقشون أفضل السبل لمواجهة أزمة قدّروا أنها ستنتهي لمصلحتهم. بالرغم من رعب كل ما حدث في الصباح، بدا مشعل بــصحة جــيدة وكان لدى السلطات الأردنية سجينان سينكشف بكل تأكيد أنهما إســرائيليان. في أثناء تناول الغداء، أدهشهم مشعل جميعاً عندما حاول تفسير تأثير ما كان يصفه آنذاك بأنه أداة كهربائية: "كان هناك طنين في أذني اليسرى وسرى شيء مثل صدمة كهربائية أو شعور بالرعشة في جسدي". ثم سرد مرة أخرى شعوره بشأن المواجهة السريالية الآنية مع المهاجم الأشقر. قال لمستمعيه: "نظرنا إلى بعضنا. شعرت بأنه خائف، ربما لأن الخطة كانت تقتضي منه الاقتراب مني".

لكــن بعــد ذلك، وفجأة، شعر مشعل بأنه مرهق. شارد الذهن، طلب من نــزال استعمال الحمّام. كان يشعر بصداع حاد يتزايد، وبحاجة ماسة إلى التقيؤ. بالنسبة إلى شخص كان على عجلة من أمره للاتصال برندا حبيب في وقت مبكر ذلــك اليوم، كان نــزال آنذاك بطيئاً في إدراك ما يجري. في البداية، افترض أن مشعل يعاني من شيء تناوله. فكّر لبرهة في التأثير الشافي لكوب من الليمون. قام بعــدها بعمــل مهم جداً في ذلك اليوم. أعلن نــزال: "أخ خالد، ستذهب إلى مستشفى".

سرعان ما تم اختيار الأخ سامي خاطر، غير المعروف نسبياً أنه عضو في المكتب السياسي، لاصطحاب مشعل إلى المستشفى الإسلامي. كان ذلك اختياراً منطقياً. كان المستشفى منشأة طبية متطورة تقع في وسط العبدلي. لكن بالنسبة إلى رجال عاشوا بذهنية حصار خاصة بهم، كان يمثّل ملاذاً آمناً خاصاً؛ كانت جماعة الإخوان المسلمين تمتلك، وتدير، وتعين موظفي المستشفى الإسلامي.

بالرغم من ذلك، مثل وهم يتحول إلى حقيقة أمام أعينهم، تحركوا جميعاً ببطء في تلك اللحظات الأولى. تم الاتفاق على بقاء أبو مرزوق مستعداً في مكتبه قرب فندق عمرة، للتعامل مع النظام وأي أسئلة قد يتم طرحها عن أحداث الصباح، وأن يعود نزال إلى مكتبه، حيث جيش وسائل الإعلام، الذي كان يخيم سابقاً أمام وزارة الإعلام، يثير صخباً عالياً.

عندما كان سامي خاطر يساعده في الخروج من سيارته والتوجه إلى قسم الدخول في المستشفى الإسلامي، كان مشعل لا يزال بكامل وعيه. لكنه سرعان ما بدأ يشعر بدوار، يعاني مما كان يشك في أنه تأثير عقار قوي. عندما عمل دماغه بحثاً عن تفاصيل، افترض أن التقيؤ كان سببه حقنة غامضة تم توجيهها نحوه خلال المواجهة الغريبة خارج مكتبه. كان مشعل بين أيادي الأطباء عندما بدأ يفقد وعيه بشكل كامل.

كانت المراسم تقتضي أن يصل كل من يرغب الملك برؤيتهم قبل أن يدخل إلى الاجتماع. كان سميح البطيخي أول من وصل إلى باب السلام. عندما وصل داني ياتوم الذي يتعرق كثيراً من إسرائيل، تم اصطحابه إلى حيث يجلس البطيخي من قبل مدير مكتب الملك الخاص، اللواء علي شكري. اجتمعوا في غرفة الجلوس الرئيسية، وفيما كان ياتوم يجلس بجانب البطيخي على واحدة من الأرائك الثلاث، تفحّص مدير المخابرات المعالم المضطربة لنظيره في الموساد. كان اللون قد اختفى من وجهه، وبدا غير مرتاح.

بعد جلوس ياتوم على الأريكة نفسها، هاجمه البطيخي عن قرب قائلاً: "آمل أنك لست هنا بسبب ما حدث في عمّان هذا الصباح؟".

لم يقل الإسرائيلي شيئاً. اعتبر البطيخي تكشيرته المتألمة إثباتاً. كان الموقف على وشك الانفجار.

دخـــل الملـــك حسين، وحالما جلس على كرسي ذي ذراعين فتح ياتوم فمه، وقال: "فعلنا ذلك. سيموت خلال أربعٍ وعشرين ساعة. أطلقنا عليه مادة كيميائية. لا يسعكم فعل شيء حيال الأمر".

كـــان الملك يتمتع بسمعة أنه سيد الدبلوماسية. كان يبقى غالباً صامتاً لإخفاء غضبه؛ يبتسم لإخفاء شعوره بالأسى؛ وبالرغم من أنه كان مقتصداً في الكلام، إلا أنه كان يوحي بالكثير. كان البطيخي وشكري يراقبانه آنذاك، يحاولان احتواء صدمتهما عـــندما لجأ الملك إلى عادة الإمساك بفكّه، لكن بقوة لم يكن أي من هذين المسؤولين قد شاهدها من قبل في أعوام خدمتهما للقصر.

جالـــت عينا حسين ببطء في الغرفة، واستقرت على كل رجل بدوره فيما كان يطرح على نفسه ألف سؤال. لكن واحداً فقط ظهر على وجهه: "ماذا فعلوا؟".

كانـــت لحسين طريقة في إدارة اجتماع بإيماءات وإشارات دقيقة كان موظفوه يفهمـــونها جيداً، لكن غير واضحة للغرباء. كان اللواء شكري الرجل الذي يسجل الملاحظات بصمت، لكن جلالته أشار إلى البطيخي الانفعالي والعصبـــي لشن هجوم كلامي.

بـــدأ البطيخي يصرخ على مدير الموساد. "غداً؟ سيموت صباح غد؟ ستكون جنازته بعد صلاة الجمعة؟ سيخرج كل الأردن في تلك الجنازة! أقول لك، إذا مات، يمكـــنك توديـــع اتفاقية السلام! داني، لا يمكن أن يموت... أنتم تعرّضون كل شيء للخطر".

كـــان البـــيت الأبـــيض قد وضع حماس على قائمة المنظمات الإرهابية بسبب معارضـــة الحـــركة لعملية السلام. بالرغم من ذلك، قبل ثلاثة أيام فقط، كان الملك حـــسين قـــد بعـــث شخصياً برسالة إلى رئيس الوزراء نتنياهو يقول فيها إن حماس مـــستعدة لإيقـــاف هجماتهـــا على إسرائيل في سياق هدنة تمتد ثلاثين عاماً. كانت إسرائيل آنذاك، حليف أميركا الذي كان قد حثّ واشنطن على محاصرة حماس بسبب لجوئها إلى العنف كسلاح، تعترف أنها تلجأ إلى إرهاب الدولة ضد حماس؛ لكن على الأراضي الوطنية لحليف آخر للولايات المتحدة، الأردن. لم يكن ممكناً تخيُّل ذلك.

كـــان معظم الأردنيين متشككين للغاية من علاقة ملكهم الوثيقة مع السلطات في القـــدس، *مدينته* المقدّسة التي مُنعوا من الدخول إليها منذ هزيمة العرب عام 1967.

كـــان الملـــك حسين يعتقد بقوة بالتفاوض لتحقيق سلام فلسطيني - إسرائيلي، لكن آنذاك، في عمل متهور واحد، كانت تل أبيب قد منحت كل أردني سبباً وجيهاً لعدم الثقة سواء بالإسرائيليين أو أولئك - مثل ملكهم - الذين قدّموهم كشركاء حقيقيين في الـــسلام. أســـوأ من ذلك، كانت الانتخابات البرلمانية الأردنية ستُجرى بعد ستة أســـابيع، وكان موت مشعل سيمثّل فردوساً انتخابياً لمرشحين إسلاميين. كان هؤلاء الفاشلون من الموساد قد أشعلوا ناراً فعلاً.

كان بمقدور البطيخي أن يتخيل ما سيكون عليه الأمر. ستنضم حشود ضخمة من المصلين يوم الجمعة إلى قائمة المعزّين بمشعل. سيشعل غضبها لهيباً. كانت الحماسة الدينـــية والوطنية تشكلان مزيجاً حارقاً؛ ولن يصدق أحد أن الملك والمخابرات ليس لهما يد في اغتيال مشعل.

ســـترى عامـــة الـــشعب أن النظام يتعاون مع الإسرائيليين ضد حماس، صوت الحقـــوق الفلسطينية الجديد الثابت الذي كان قد انبثق بعد عقود من فشل آخرين في تحقـــيق تقـــدم في القضية الفلسطينية. كان عبء الفشل يقع على طبقة إقليمية تضم شخـــصيات ليـــست أقـــل شأناً من الملك حسين نفسه. ثم كان هناك القادة العرب الآخـــرون، الذين استفادوا من محنة الفلسطينيين لمصالحهم الخاصة، لم يقولوا شيئاً عن مـــنظمة التحريـــر الفلسطينية الفاسدة وقائدها الأسطوري ياسر عرفات، الذي وعد كثيراً وفعل قليلاً.

سيصرُّ أصحاب نظرية المؤامرة على أن إسرائيل ما كانت لتجرؤ على التصرف بـــذلك الشكل في عمّان من دون إيماءة بالموافقة على الأقل من النظام وبعض التعاون التكتيكـــي من وكالاته. كيف يمكن لفريق الموساد بخلاف ذلك الدخول إلى المكان بتلك السهولة؟ كيف قاموا بإدخال السم؟

كـــان كـــل ما يراه البطيخي يمثّل كابوساً. كان على حسين آنذاك إنقاذ حياة خالد مشعل لإنقاذ نفسه. لم يكن الملك ليستطيع أبداً تبرئة نفسه في عيون شعبه إذا لم يـــنجُ قائـــد المقاومة. في ذلك الوقت، سيكون قادة حماس البارزون مثل أبو مرزوق ومحمـــد نـــزال في المستشفى الإسلامي، ويخططون بجانب سرير مشعل الذي يحتضر. سيشكل نشطاء الإخوان المسلمين حشداً متزايداً من الأنصار المذهولين والغاضبين في أروقة المستشفى، المستعدين لصب الزيت على نار الموساد لحرق الهاشميين.

كـــان ياتوم متأكداً بدم بارد من الطبيعة المحتومة لمصير مشعل. قال للمجتمعين: "لقد تم تسميمه وستتدهور كل وظائفه الجسدية. لن يكون هناك سبب واضح للوفاة. قُضي الأمر. لقد أُصيب وسيموت في الصباح. الأفضل أن نتعامل مع العواقب".

كـــان البطيخـــي يفكّر من دون شك في العواقب بنفسه، خاصة ادّعاء حماس المعـــروف سلفاً بأن مهاجمي مشعل كانا من الموساد. اعترض بعنف قائلاً: "سيعرف كل الأردن أنكم قتلتموه!".

لم يُـــشر ياتـــوم إلى وجود علاج. كان الموت محتوماً، كما قال. يمكنهم أيضاً اعتبار الأمر نجاحاً آخر في حملة إسرائيل المنهجية باغتيال قادة فلسطينيين بارزين.

لم يكن البطيخي يصدق شيئاً من ذلك: "داني، ليس مسموحاً أن يموت! ينبغي أن يكون هناك ترياق - ينبغي أن تعطيه لنا".

لم يقل حسين في البداية الكثير، لكنه شرح بعد ذلك الخطر الداهم الذي يتهدد الاتفاقية، وبالتالي، إسرائيل ونتنياهو. استطاع أن يلاحظ أن ياتوم فهم جيداً أن فشل الإســـرائيليين في مهمتهما وإلقاء القبض عليهما قد منح الأردنيين اليد العليا. كانت الرسالة التي ينبغي على ياتوم نقلها آنذاك عبر النهر هي أن نتنياهو على وشك التعرض لهزيمة. حذّر الملك حسين ببلاغة رجل الموساد: "سيكون علي أن أتصرف".

حالمـــا كـــشف ياتوم عن قرب موت مشعل، أصبح الملك ورئيس استخباراته بأمسّ الحاجة إلى إنقاذ قائد حماس. طلبا من الإسرائيلي علاجاً - أي علاج - للرجل المحتـــضر. أخيراً، بدا أن ياتوم لان. لكن كان عليه استشارة نتنياهو أولاً، كما قال. هـــل يمكنه استعمال هاتف آمن، رجاءً؟ اصطحبه أحدهم إلى غرفة أخرى بقي فيها بمفرده.

عاد إليهم خلال دقائق. أعلن: "أحد أعضاء فريقنا في فندق إنتركونتيننتال لديه الترياق". أُصيبوا بالدهشة عندما أضاف جملة استثنائية: "إنها طبيبة".

كـــان المزيد من النقاش لا طائل منه. صرف الأردنيون ياتوم عندما طلب إذن الملك لاصطحاب العملاء الأربعة المحاصرين في السفارة الإسرائيلية ونقلهم إلى بلدهم معه. صرخ البطيخي: "لن يغادر أحد معك!"[1].

كانـــت نجاة الملك حسين سياسياً تعتمد على إنقاذ مشعل، وكان ذلك آخر ما وجّـــه إليه رجاله. تم تعيين اللواء شكري، المؤتمن على أسرار الملك، للتنسيق مع ياتوم

مـــرهق الأعـــصاب والسفارة الإسرائيلية للحصول على الدواء من الفندق ونقله إلى الأطباء الذين كانوا يعالجون مشعل آنذاك.

من القصر، غادر شكري وياتوم للحصول على الترياق فيما كان الملك ورئيس استخباراته يعملان على استراتيجية للتعامل مع الأزمة. كان القلق من حدوث فوضى وحـــتى اضطراب أكبر يسيطر عليهما، وكانت الطريقة الوحيدة التي رأياها للخروج بسلام من الأزمة هي أولاً بفرض تعتيم إعلامي على الأمر.

إلى جانـــب الملك حسين، والبطيخي، وشكري، كان هناك أردني واحد آخر ينبغـــي ضمه إلى الحلقة. كان ذلك ولي العهد المثقف حسن، شقيق الملك ومستشاره مـــنذ أمد بعيد. كان ممكناً إبعاد الوزراء من وقت إلى آخر، مثل وزير الإعلام الذي كان قد هاجم أولى تقارير حبيب الإخبارية. لكن لم يكن حتى رئيس الوزراء يعرف آنذاك ما يحدث.

كان على البطيخي أن يدفع الأطباء للعمل بسرعة. لكن أي أطباء؟ كانت هناك مشكلة أمنية كبيرة في دخول مشعل إلى المستشفى الإسلامي، حيث كان كل الأطباء والممرضـــين أعـــضاء فـــاعلين في الإخوان المسلمين. لم تكن هناك طريقة لإقناعهم باســـتعمال تـــرياق أو أي شيء مماثل يقدّمه الإسرائيليون، لمعالجة أحد أبناء جلدتهم الـــذي كـــان الإسرائيليون قد حاولوا قتله في صبيحة ذلك اليوم. ينبغي ألا يستهينوا بمطالب النظام بالحفاظ على السرية.

اســـتنتج البطيخـــي أنهم إذا أرادوا انتشال مشعل من براثن الموت، عليهم أولاً انتـــشاله مـــن أيدي الإسلاميين، ووضعه تحت رعاية أطباء موثوق بهم في مستشفى الـــنظام العسكري الرئيسي وهي منشأة تدعى مدينة الملك الحسين الطبية. كان هناك محتـــرفون عسكريون يعرفون أن عليهم عدم طرح أسئلة. كانوا يعرفون أنه ينبغي لهم عدم النطق ببنت شفة عندما يدعو النظام إلى الصمت، ومعتادين إطاعة الأوامر.

كان البطيخي يفهم أن الأمر سيتطلب مفاوضات شاقة لجعل حماس توافق على نقل مـــشعل. باءت أولى محاولات رئيس إدارة المخابرات العامة لتحقيق ذلك بالفشل. واجه فـــريق طبـــي أرسله مزوّداً بأوامر لتنفيذ ما يبدو أنه نقل *روتيني* معارضة من الإسلاميين، الذين منعوا الفريق من الوصول إلى غرفة مشعل. أجرى أحد نشطاء حماس اتصالاً بأبـــي مرزوق، وحذّره قائلاً: "إنهم يحاولون نقل الأخ خالد من المستشفى"[2].

كان على البطيخي القيام ببعض المكالمات الهاتفية الملحّة الأخرى. عثر على مدير وكالة الاستخبارات المركزية، جورج تينيت، مسترخياً على شاطئ ديلاور. قاطع عضو من الفريق المكلف بحراسة تينيت عطلة العائلة عندما جرى نحوه، عبر الرمال، يلوح بهاتف. كان هناك اتصال عاجل من الأردن(3).

تعرّف مدير وكالة الاستخبارات المركزية إلى الصوت. كان البطيخي، يخبره أن أصدقاء الأميركيين، الإسرائيليين، هم الأشرار في أزمة خطيرة جديدة. قال الأردني لتينيت إن الاتصال لا يزال من باب العلم بالشيء. لم يكن يعرف إلى أين ستفضي الأمور، لكن كان لديه إحساس أن عمّان ستحتاج إلى مساعدة واشنطن قبل أن تنفجر الأزمة. كان ينبغي إعلام تينيت بالأمر.

في السفارة الكندية في عمّان، كانت هناك حيرة كاملة. تابع موظفوها القضية حالما لفت أحد الموظفين انتباههم إلى تقارير إذاعية عن أن كنديين يقبعان حبيسين في سجن عمّان المركزي. كانت الإذاعة تبث تقارير عن حادثتين منفصلتين، ولم يكن يتم ربط احتجاز المواطنين الكنديين بالاعتداء على مشعل. لكن أحداً في عمّان لم يتكلم إليهما – لا وزارة الداخلية – ولا وزارة الخارجية. حتى الأميركيون التزموا الصمت حيال ما يجري.

ضغطت أوتاوا بقوة على موظفي سفارتها لتزويدها بمعلومات. كانت وسائل الإعلام في كندا تثير ضجة كبيرة عن كنديين يعملان كقاتلين إسرائيليين. ضغطت المعارضة على الحكومة، وطالبتها بمعرفة إن كان جوازا السفر حقيقيين، وإن كانت كندا قد منحتهما للموساد؟ كان ينبغي التأكيد للسفارات العربية في أوتاوا أن كندا ليست في وارد توجيه ضربة للقادة الفلسطينيين نيابة عن إسرائيل.

تم إرسال امرأة من الكادر القنصلي في عمّان بسرعة للتحقيق في الأمر. وجدت في مبنى سجن وادي السير أن المسجونين، وكان أحدهما عاري الصدر، يحملان علامات ضرب وكدمات. عقّد فحصها السريع لجوازي سفرهما مشكلة أوتاوا، لأنها استنتجت أنهما أصليان، وبالتالي أن هذين الرجلين كنديان بالفعل. لكن، بشكل غريب، رفضا عرضها بتقديم مساعدة قنصلية، والتمسا عدم نشر اسميهما.

عندما شرح حارس أردني أن أحد السجينين كان نصف عارٍ لأن قميصه تمزق في مشاجرة الشارع، اندفعت الدبلوماسية المتعاطفة إلى منزلها لتجلب أحد قمصان زوجها له.

كـــان الرجلان قد مرّا بتجربة عسيرة مع أبو سيف، حارس مشعل الشخصي، وسيـــشتكيان لاحقاً أنه تم حبسهما من دون وجه حق، لكنهما بقيا بالرغم من ذلك يرفضان الإجابة على الأسئلة. آنذاك، مع تسجيل كل شيء بآلة تصوير فيديو، واجها وقـــتاً عـــصيباً مجـــدداً من قبل المحققين الأردنيين، الذين كان بين ردود أفعالهم على صـــمتهما تهديـــدهما بنشر صورهما، وإنهاء كل ما تبقّى من مسيرتهما المهنية السرية. بالرغم من اعتراف داني ياتوم الصريح بالذنب، إلا أن الملك حسين أراد اعترافاً كاملاً من العميلين على الأرض.

بعد اتصاله بجورج تينيت في الولايات المتحدة، توجه البطيخي إلى مكتبه لرؤية أبو مرزوق، وكان يأمل بأن يقنعه بالموافقة على نقل مشعل إلى مستشفى آخر. نظراً إلى أن طـــريق البطيخـــي كـــان يمر بالقرب من مبنى السجن، قرر إلقاء نظرة على الـــسجينين بنفسه. عندما أخبراه بقصة غطائهما غير المتماسكة، شعر البطيخي ببعض الرضا عندما كشف أنه يعرف تماماً من يكونان، وأكثر من ذلك، أنه قد جاء للتو من اجتماع مع رئيسهما، مدير الموساد.

كـــان رئـــيس إدارة المخابـــرات العامة متوتراً للغاية حتى إنه لم يلاحظ وجود الدبلوماســـية الكندية، التي كانت قد عادت آنذاك مع قميص لأحد السجينين. كان رد الفعـــل علـــى عودتها مثيراً. قيل لها بفظاظة قبل أن يتم مرافقتها إلى خارج المبنى: "لقد انتهت مقابلتك".

كـــان مكتب البطيخي في الطابق الثاني من مبنى إدارة المخابرات العامة. جدرانه مغطاة بألواح خشبية وستائر النوافذ مسدلة دائمة، كان فيه أريكة وكرسي كبير يقبع في إحدى الزوايا. كان ذلك هو المكان الذي واجه فيه أبو مرزوق(4).

بالـــرغم من التوتر بين إدارة المخابرات العامة وحماس، كان البطيخي واثقاً من إمكانـــية الاســـتفادة من موسى أبو مرزوق. بخلاف خالد مشعل الذي كان يحتضر، كـــان يثق بنائب رئيس المكتب السياسي لحماس، ويعتقد أنه يستطيع أن يحصل منه علـــى ما يريد. قال البطيخي: "الطريقة الوحيدة لإنقاذ حياته هي بنقله إلى المستشفى العسكري. إذا أردت إنقاذه، ينبغي أن تتعاون معنا".

لكـــن أبـــو مرزوق تجنب قطع وعد بذلك. نـــزولاً عند رغبة قيادة حماس الجماعـــية، أخـــبر البطيخـــي أن ذلـــك ليس قراره وحده، وقال: "الآخرون في

المستشفى. ينبغي إقناعهم". كان البطيخي ممتناً لأن أبو مرزوق على الأقل بدا متفهماً.

غادر أبو مرزوق، لكنه اتصل هاتفياً بعد دقائق ليقول: "لا". لم يكن صعباً ترجمة ردّه من كلمة واحدة: لم يكن الإسلاميون يثقون بمستشفى الملك العسكري.

صرخ البطيخي، وحاول إيضاح جدّية الموقف، لكن أبو مرزوق لم يتزحزح.

ثم تلقى البطيخي اتصالاً من شكري. كان على الهاتف مع الدكتور يوسف قسوس، مدير الخدمات الطبية الملكية، وبدا أن هناك إحساساً جديداً بالحاجة إلى الاستعجال فيما كان يقدم تقريراً بما يحدث للبطيخي. كان الإخصائيون في معهد قلب الملكة عالية في مدينة الملك حسين الطبية قد حذّروا من أن كل دقيقة تضيع قبل وصول الترياق تقلل فرص مشعل في النجاة.

عندما وصلا إلى حيث يقطن ابنهما في الشميساني، أُصيب والدا خالد مشعل بالصدمة عندما وجدا أن شقته تعج برجال المخابرات. كانت الشرطة تحاصر المبنى كله. ازدادت الصدمة لأنهما، بالرغم من معرفتهما أن ابنهما كان ملتزماً بعمق بالصراع الفلسطيني، لم يكونا يعرفان أنه يعمل مع حماس المتشددة أو أن نشاطاته يمكن أن تبرر تعرُّضه لمثل عملية الموساد التي لا تُصدّق تلك.

في حوالى الساعة الرابعة بعد الظهر، وصل أحد أقربائهم، وقال لهم إن لديه تعليمات بنقلهم إلى المستشفى الإسلامي.

في تقرير تم نشره عند الساعة 4:09 بعد الظهر، نقلت رندا حبيب بياناً رسمياً زوّدها به محمد نزال، وأكّد فيه ادّعاء حماس أن الهجوم كان من تنفيذ الموساد. "تتهم حماس عملاء إسرائيليين... نؤكد مجدداً من دون تردد أنها كانت محاولة اغتيال فاشلة".

أرخت التطورات في المستشفى الإسلامي بعد ساعة من ذلك بظلال من الشك على صحة هذا التأكيد الأخير. عندما رفع محمد نزال السمّاعة لتلقّي مكالمة أخرى من حبيب، عرفت المراسلة فوراً الخوف في صوته. رفض نزال مجدداً نقل أي شيء باسمه، لكنه قدم المعلومات اللازمة لخبر جديد يؤكد قصة حبيب، التي شرعت بالقول في تقريرها: "خالد مشعل في المستشفى، يعاني دواراً وغثياناً بعد أن هاجمه كنديان بأداة غريبة".

كانت الساعة تقترب من الخامسة بعد الظهر عندما قرر الفريق البطيخي أن عليه التفاهم مع أبو مرزوق لوحده. طلب عقد اجتماع آخر في مكتبه.

كان أبو مرزوق هادئاً بشكل مثير للدهشة. دارت نقاشاته مع رئيس إدارة المخابرات العامة في حلقات مفرغة لا تنتهي، حتى تبيّن للبطيخي أخيراً أن الرجل الجالس على الطرف الآخر من طاولته يعتبره شبحاً ثقيل اليد مهمته كبح جماح حماس. كان البطيخي والملك يعتقدان أن أبو مرزوق في جيبتهما، لكن رئيس المخابرات كان يستطيع آنذاك رؤية معضلة الرجل الآخر. بصفته الرجل الأبرز الذي يعتقد أن بمقدوره استعادة موقعه في حماس، لم يكن بوسع أبو مرزوق أن يضع نفسه في موقف يعتبره فيه زملاؤه بأنه مؤيد تماماً للمخابرات. لكن لم يكن هناك مجال أمام البطيخي لإفشاء كل ما يعرفه في هذه القضية.

خطر للبطيخي أن أبو مرزوق ربما يستجيب لصوت آخر، أكثر تعاطفاً. رفع سماعة الهاتف: "الملك، رجاءً... *سيدنا*، لدي أبو مرزوق هنا، لكنه يواجه صعوبة في إقناع جماعته بنقل خالد مشعل إلى المدينة الطبية".

أخيراً، كان تدخُّل الملك كافياً بالنسبة إلى أبو مرزوق. كان ذلك الإثبات على أن مُحسنه الملكي مهتم شخصياً بمحاولة إنقاذ مشعل سبباً في جعله يلين. لكن في ذلك الوقت بالذات وجه له البطيخي صفعة محسوبة – عصا لجزرة الملك. حذّر مع بعض الوعيد: "إذا لم يتعاون رجالك في النقل، سيكون كل ما يحدث بسببكم وليس بسببنا".

غادر أبو مرزوق إدارة المخابرات العامة. استطاع بعد عودته إلى المستشفى الإسلامي التكلم بشكل مقنع مع زملائه بشأن طلب جاء من الملك، وليس من المخابرات المخيفة. عاود أبو مرزوق الاتصال بالبطيخي، ووضع ثلاثة شروط. أولاً، ينبغي أن يكون وفد إسلامي بجانب سرير مشعل طيلة الوقت؛ ثانياً، سيكون لحماس الحق في دعوة أطبائها لفحص المريض طيلة الوقت؛ وأخيراً، لن يتم منع الزوّار الإسلاميين من دخول مدينة الملك حسين الطبية.

وافق البطيخي على الشروط كلها. جعله أبو مرزوق ينتظر فيما كان يشترك في نقاش نهائي مع الإسلاميين وأطباء المستشفى الإسلامي. عندما عاد إلى الخط، قال للبطيخي: "حسناً، انقله".

غارقاً في فراغ خطير غير معروف، لم يكن مشعل واعياً للأصوات المجهولة حول سريره، والتي كانت تناقش إمكانية نقله. أخيراً، وافقوا جميعاً، باستثناء شخص واحد مؤثر فقط: والدته. كانت فاطمة تريد إبقاءه في المستشفى الإسلامي في مركز المدينة، الذي كان الوصول إليه أيسر. حتى عندما كان يتم وضع مشعل على نقّالة، استمرت في إثــارة جلــبة بــشأن الأمر. في النهاية، تمكن المريض الذابل من رفع مرفقه قليلاً لإسكات احتجاجاتها. التمس قائلاً: "أمي، لا تسببــي مشكلة".

ضــمن مديــنة الملك حسين الطبية، كان معهد قلب الملكة عالية مخصصاً عادةً لأفــراد العائلة المالكة وشخصيات مهمة من المنطقة. فيما كان مديره، الدكتور بسام عكاشــة، يستعد لتولّي حالة مشعل بنفسه، تساءل عن القدر ولماذا تبدو حياة مريض غــير معــروف مهمة جداً لملكه. كان الجرّاح قد خرج للتو من عملية قلب مفتوح اســتمرت وقتاً طويلاً عندما اتصل اللواء شكري قبل نصف ساعة، لكنه لم يكشف الكثير عندما قال له: "يرغب الملك حسين في نقل حالة محاولة قتل إلى المعهد".

مركّــزاً انتــباهه على حالة المريض الغامض، طرح عكاشة سؤالاً واحداً: "هل سيكون نقله آمناً؟".

رد شــكري بصوت أكد لعكاشة البالغ من العمر خمسين عاماً أن الاستعجال أملته ظروف أخرى غير طبية: "إنه في المستشفى الإسلامي. إنه ضعيف جداً. يتنفس بصعوبة بالغة، لكن ينبغي أن ننقله إليك".

لم تكــن تلــك عملــية نقل مريض عادية. كانت سيارة الإسعاف التي شقّت طــريقها عبر ازدحام حركة السير في المساء - أولاً عبر المنطقة الجبلية للمدينة القديمة قــبل أن تــصل إلى طرق عامة واسعة - من وحدة الملك الصحية الشخصية. عندما دخلــت أرض مديــنة الملك حسين الطبية الواسعة، كانت ترافقها مركبات الشرطة والجــيش بصافراتها المعروفة من الأمام والخلف. مربوطاً في الجزء الخلفي من المركبة، استطاع مشعل سماع الضوضاء فيما كان يصحو ويغيب عن الوعي.

عندما توقف الموكب خارج مركز الاستقبال في الطابق الأرضي، كان اثنان من أبــرز إخصائيي البلاد ينتظران في مكتب قرب وحدة العناية المشدّدة القلبية في الطابق الــثاني. كــان عكاشة قد اتصل في وقت سابق بكبير أطباء التخدير، الدكتور سامي ربابة، في منــزله للبحث في مضادات السموم، لكن بعد دقائق، عاد إلى الخط وطلب

حـــضور ربابـــة بشكل عاجل إلى مستشفى النخبة. كان عكاشة قد أصدر تعليمات بإحـــضار المريض إلى وحدة العناية المشدّدة القلبية مباشرة. آنذاك، عندما انفتح باب أحد المصاعد، تم إدخال النقالة التي تحمل مشعل إلى غرفة معالجة. وعندما انفتح باب مصعد آخر، أسرع حرّاس مسلحون إلى مواقعهم في الأروقة وكل نقاط الدخول إلى وحدة القلب.

وســـط تلك الإجراءات الأمنية المشدّدة، لم يكن واضحاً أبداً من يتكلم في أثناء توجـــيه ملاحظات، تفقد شاشات المراقبة على عجل، وإصدار تعليمات بلغة حادة. صرخ شخص: "لا يستطيع أن يتنفس - أنبوب!".

فـــيما كان الفريق الطبـــي والتمريضي يجتمع حوله، باشر الإخصائيان العمل، أدخلا أنبوباً جديداً في حنجرة مشعل الذي كان على وشك الدخول في غيبوبة، على أمـــل أن يساعد ذلك في تحسين تنفسه الضعيف بشكل خطير. وضعا المريض إلى آلة تنفس ميكانيكية، على حين كان شكري يشرح التفاصيل المعروفة. "لقد حقنه عميل إسرائيل بنوعٍ من السم. لا نعرف ما هو".

كـــان خالد مشعل رجلاً صلباً، موفور الصحة. لكن عكاشة كان مذهولاً من الـــضعف والنحول الذي بدا عليه. كان ربابة فضولياً لأن يعرف أخيراً رجلاً كان قد سمع اسمه في الأخبار. آنذاك، عندما بدأ جهاز تنفس مشعل بالتوقف عن العمل، أخذ المريض يلتقط أنفاسه بصعوبة بالغة. حاول ربابة أن يجعله يتكلم - أصدر إليه أمراً بأن يتـــنفس، وحاول يائساً انتشاله من نوم عميق وقاتل - قبل أن يدفعوا الأنبوب عميقاً في حنجرته، كان مشعل صاحياً بما يكفي ليزوّد ربابة بمعلومات مشوشة نوعاً ما عن الهجوم؛ عن ضجيج غريب وأداة غير معتادة.

أصدر عكاشة أوامر بأن يتم تجريد مشعل من ثيابه. ثم بدأوا فحصاً دقيقاً لجسده النحيل الصدر والبطن، والعنق، والرأس، والذراعين والساقين. لم تكن هناك علامات. لم يكن يبدو أن أحداً قد لمسه. كان عكاشة بأمس الحاجة إلى العثور على ثقب صغير في جلـــد مـــشعل يشير إلى مكان إبرة حقن، لكن لم يكن هناك أثر له. كان المريض يذبل بسرعة. تمتم عكاشة: "إذا توقف تنفسه، سيموت في غضون ثلاث دقائق!".

كـــان أمـــراً غير اعتيادي لمراسلة وكالة إخبارية أن تتلقى معلومات أولاً فأولاً بـــشأن قصة لم تنته بعد، وأن تضطر، بعد أن توقف ذلك السيل، إلى تجميع أحداث

اليوم لتخرج بقصة كاملة. يدعوها البعض في المهنة *تغليفاً*. عندما بدأ الغسق يحل على العاصمة الأردنية، جلست حبيب لإنجاز تغليف اليوم. عند الساعة 6:26، نشرت القصة مع إضافة عنصر جديد واحد فقط: "أنكر متحدث باسم السفارة الإسرائيلية في عمّان، روي غيلاد، أن إسرائيل متورطة في أي هجوم على خالد مشعل. قال: "لا يدهشني اتهام حماس، ولا يستحق الإجابة عنه".

كانت تلك أمسية لا يمكن فيها للإعلاميين في عمّان الذهاب إلى منازلهم. سمعت رانيا قدري عن الأزمة أول مرة في اتصال هاتفي من جو كونتريراس، رئيس مكتب الشرق الأوسط في *نيوزويك*. متصلاً من مكان آخر في المنطقة، قال لها إن وكالة الصحافة الفرنسية تبث تقارير عن أن الموساد ربما قتل خالد مشعل. أصرّت قدري من وحي وعيها السياسي: "لا، هناك شيء غير صحيح؛ ينبغي أن يكون أبو مرزوق الهدف".

كانت رندا حبيب تعمل بكامل طاقتها في مكتب وكالة الصحافة الفرنسية منذ عدّة ساعات، وسرعان ما حاولت قدري اللحاق بها. كانت تقارير حبيب المبكرة عبر وكالة الصحافة الفرنسية عن سائحين كنديين دخلا في مشاجرة في عمّان قد أشعلت ناراً تحت مديري التحرير في سي - بي - أس كندا. تم إرسال صحافي إلى عمّان، لكنهم كانوا بحاجة إلى المزيد، ولهذا اتصلوا بقدري. بطريقة التلفاز، ما كانت سي - بي - أس بحاجة إليه هو صور أي صور. استدعت قدري مصوّراً مستقلاً، وشرعت في تحضير تقارير عن القصة بنفسها.

في السفارة الكندية، خلف الواجهة الزجاجية العاتمة لمبنى جوهرة الشميساني في شارع عبد الحميد شومان، طلب موظف استقبال بأدب من قدري الانصراف. كانت المحطة التالية مبنى الشرطة في وادي السير، حيث كان السائحان الكنديان معتقلين. مبتدئاً في مجال الأخبار، اقترب المصوّر من المبنى يحمل آلة تصويره بشكل ظاهر للعيان. تم احتجازه في المركز. عندما حاولت قدري إنقاذه، تم احتجازها هي الأخرى.

حصلت رندا حبيب على أولى المعلومات الموثقة عن مدى تدهور صحة مشعل في الوقت نفسه تقريباً الذي احتجزت فيه الشرطة رانيا قدري؛ قبل السابعة مساءً بقليل. بعد انتقاله من المستشفى الإسلامي إلى مدينة الملك حسين الطبية مع المريض، اتصل سامي خاطر الخائف بمحمد نزال: "نحتاج إليك هنا - الوضع سيئ! إنه

خطـــير!". ثم عـــاد نـــزال إلى حبيب، التي نقلت بدورها النبأ إلى باريس: "قال ممثل حمـــاس محمـــد نـــــزال إن حالة خالد مشعل سيئة للغاية وقد تم نقله من المستشفى الإســـلامي في عمّـــان إلى مدينة الملك حسين الطبية الأفضل تجهيزاً. يتنفس بصعوبة ويعاني من نقص الأكسجين في دمه".

بعـــد دقائـــق، استطاعت مراسلة وكالة الصحافة الفرنسية الاتصال أخيراً بالسفارة الكـــندية. كـــان لدى حبيب شعور أن ستيف بينيت، السكرتير الأول، يشق طريقه عبر حقل ألغام – لم يكن لديه الكثير مما يدلي به، لكنه تكلم بتردد كبير – وعرفت أنها ينبغي أن تُطلعـــه على آخر المستجدات. رسمياً، قدّم لها المعلومات التي تتوقعها من أي دبلوماسي أجنبـــــي لديـــه مواطنون محتجزون. اقتبست لاحقاً كلام بينيت في متابعة الساعة الثامنة مـــساءً لقـــصتها: "التقى أحد العاملين في السفارة مع الكنديين في السجن. كانت إصابة أحدهما طفيفة... كانا قد تورطا بمشاجرة في الشارع، لكن ليست هناك تفاصيل".

لكـــن لم يمضِ وقت طويل حتى عاودت الاتصال بالسفارة. قدّم لها بينيت هذه المـــرة بعـــض المعلـــومات، الـــتي لا تفـــيد سوى كخلفية للأحداث. كان زملاؤه الدبلوماســـيون قـــد عادوا من مركز الشرطة بإرباك كبير، كما قال، لأن السجينين الكـــنديين رفـــضا التكلم معهم. لم يكن يعني أنهما قالا: "لا، شكراً، لسنا بحاجة إلى استشارة قنصلية". كان يعني بالضبط ما قاله – كان يجلسان في زنـــزانة، يحدّقان في الفراغ، ويرفضان أن يفتحا فميهما.

عـــندما كـــان بينيت لا يزال على الخط، تساءلت حبيب بصوت مرتفع: "لماذا ســـيرفض أجنبـــــي محتجز في الوطن العربـــي الكلام مع مبعوثٍ من سفارته؟ هذا غريب، أليس كذلك؟".

رد بينيت: "نعم. لا نـــزال نحاول فهم الأمر".

بحلـــول الـــساعة التاســـعة مساءً، كانت جماعة الإخوان المسلمين الأردنية قد احتـــشدت خلـــف حماس. تحركت آلة علاقاتها العامة بنشاط محموم، وطالبت بأن تكـــشف الـــسلطات الأردنية مباشرة عن هوية مهاجمي مشعل. كان محمد نـــزال بكامـــل اســـتعداده. في بـــيان جديد باسم حماس، أعلن: "حكومة الكيان الصهيوني برئاســـة الإرهابـــــي نتنياهو مسؤولة بشكل كامل. هذا الاعتداء الجبان يعزّز فقط تصميمنا على متابعة الكفاح".

لم تكن تستطيع تجاوز باب المستشفى لتطرح أسئلتها الخاصة، لهذا بدأت حبيب آنذاك التعاون مع نزال كواسطة لها. أقنعته بتطبيق شروط اتفاق أبو مرزوق مع البطيخي، الذي تم بموجبه نقل مشعل، والطلب من الأطباء إبلاغه - نزال - بحالة مشعل.

بدا الأطباء، كما قال لها نزال لاحقاً، مضطربين. لم يذكروا شيئاً عن أي سم؛ وقالوا له إنه لأسباب لا يفهمونها تماماً، فإن جهاز التنفس لدى مشعل ينهار بسرعة. لم يكن نزال بعيداً عن الحقيقة عندما حوّل عبارات طويلة لأحد الأطباء عن صحة قائد حماس إلى جملة واحدة مفيدة: "خالد مشعل يحتضر".

سرت قشعريرة في جسد رندا حبيب. كان كل ثقل الإنكار الرسمي ذلك اليوم عن تقاريرها قد ارتفع عن كاهلها. "القصة صحيحة"، نادت حبيب زملاءها بينما كانت تكتب بسرعة سطراً آخر عن المكيدة: "لقد صادرت السلطات الأردنية الأداة التي استعملها المهاجمان، لكنها متكتمة جداً بشأن طبيعتها".

في وقت باكر، كانت قد أرسلت زميلها المصور جمال إلى المستشفى الإسلامي. لحسن الحظ، كان قد وصل في الوقت الذي يتم فيه وضع مشعل، مربوطاً إلى نقّالة، في سيارة إسعاف. شعرت حبيب بصدمة من الصور التي أحضرها جمال. هتفت عندما رأت الصور على شاشة حاسب جمال الإلكتروني: "أعرف الميت عندما أراه". كان المريض في الصور ساكناً من دون حراك. كانت لحية مشعل السوداء الكثّة الشيء الوحيد الظاهر من ملاءات المستشفى الزرقاء الباهتة. كانت أداة بلاستيكية زرقاء تبرز من نهاية أنبوب أخضر في فمه. وكانت هناك أداة بلاستيكية أخرى لتمنع اختناقه بلسانه. كانت ذراع مشعل اليسرى تستلقي ثقيلة على صدره. عندما كان يتم نقله إلى سيارة الإسعاف، قامت ممرضة بإلقاء بطانية عليه.

في المستشفى العسكري، قام الكادر الطبي بربط مشعل إلى شاشة مراقبة القلب. كانت أدوات أخرى تحلل دمه، تختبر سموم الكبد والكلية وتضمن وصول الكميات الصحيحة من الأوكسجين وثاني أكسيد الكربون إلى دماغه. كان والدا مشعل قد وصلا مع مجموعة من الأقرباء القلقين، الذين اشتركوا جميعاً في محاولة لإبقاء مشعل مستيقظاً يتكلم، ويتنفس.

لكـــن مـــشعل لم يكن يدرك أنه يحتضر. مثلما يفعل أي مؤمن مسلم عندما لا يكـــون بخـــير، قـــرأ آيات من القرآن الكريم في ذهنه. تذكر لاحقاً أنه لم يفكر في العبارات الواجب ذكرها عند احتضار المرء.

بعد النظر إلى منضدة تحمل شاشات، استنتج الدكتوران ربابة وعكاشة أن الذي يشبه رأسه الرصاصة، باستثناء التنفس غير الموجود تقريباً، كانت كل إشارات مشعل الحيوية الأخرى قوية؛ ضغط دمه، معدل ضربات قلبه، ونبضه.

كان عكاشة يتحدر من إحدى أكثر العائلات الطبية ثقة. كان والده قد ساهم في توليد كل الأطفال الملكيين وتدرب الابن أولاً في مستشفى غايز، لندن، ولاحقاً في هيوســـتن، تكـــساس، حيث أنهى معظم دراسته الجامعية عن القلب. كان ربابة قد تـــدرب في لـــندن أيضاً. كان مطلوباً منهما آنذاك القيام بعمل استثنائي وإنقاذ حياة المريض الذي كانا يعتقدان أنه شخصية فلسطينية مهمة جداً.

قالـــت لهم والدة مشعل، فاطمة، إن الله سيحمي ابنها. لكن، نظراً لأنهما أكثر ارتـــباطاً بالدنـــيا، ركّـــز الطبيبان على المهمة بين أيديهما بثقة مهنية رائعة. استنتج عكاشـــة: "إنه لا يتنفس، لهذا لا بد من أنهم رشّوا عليه مادة تثبّط عملية التنفس. لم تكـــن حقـــنة، لكـــن مهما يكن فإن جهازه ينبغي أن يكون مرخياً عضلياً. لهذا لا يتنفس".

كان الطبيبان يسيران على غير هدى. لم يكن هناك حتى ذلك الوقت أي إشارة علـــى الترياق الذي وعد به داني ياتوم. على أي حال، كان الطبيبان مصممين على إجـــراء تقيـــيمهما الـــسريري الخـــاص بهما، بدلاً من قبول تشخيص من جاسوس إســـرائيلي. في هـــذا علـــى الأقل، كانا متفقين مع زملائهما المحترفين في المستشفى الإسلامي. بالاستفادة من عملية الإقصاء، بدا أن السم إما بنـــزوديازبين – أي شيئاً من عائلة المخدرات التي تضم أيضاً الفاليوم وليبريوم – أو أحد المسكّنات.

قـــدما لمشعل خليطاً من الأدوية عبر الوريد – ناركان – عقار يستعمل على نطاق واســـع بعد العمليات الجراحية ويعكس تأثيرات التخدير؛ وأنكسيت، الذي يُبطل مفعول المخدر. كان مشعل بين أيديهما منذ ثلاثين دقيقة كاملة وبدآ يفهمان الصورة السريرية.

تخيلا أيضاً العواقب الوطنية للفشل. لم يكونا بحاجة إلى أن يعرفا كيف تم حقن مـــشعل أو بمـــاذا ليفهما أنه ينبغي لهما إبقاؤه يتنفس من أجل إبقائه حياً. مهما تكن

المـــادة التي تلقاها، كان تأثير التسكين كبيراً. كان كل من ناركان وأنكسيت فعّالاً لبضع دقائق فقط، لهذا كان عليهما الاستمرار في ضخ المزيج عبر جسده.

أخيراً، أخبرا مشعل أن بمقدوره أن يستريح؛ كان سيغط في النوم فيما تقوم آلة بتنظيم تنفسه. بقيا ساهرين إلى جانب سريره، وكانا يأملان بأن تساعده أجهزة دعم الحـــياة في العـــيش حتى يصبح لديهما فكرة أفضل عمّا كان يقتله. عندها، يمكن أن تـــصبح المعالجة محددة أكثر من مزيج ناركان - أنكسيت العام الذي كانا يأملان بأن يمنع السم الإسرائيلي غير المعروف من تحقيق هدفه حتى ذلك الوقت.

مـــسلحين بنـــصيحة ومساعدة داني ياتوم، لم يجد الأردنيون صعوبة في وضع أيديهم على عيِّنة من الترياق. كان ياتوم قد وجّههم إلى مدير محطة الموساد في عمّان، وهـــو معروف تماماً لرجال البطيخي، الذي كانت مهمته ذلك اليوم قطع أشواط في مـــسبح فـــندق إنتركونتيننتال، للإيحاء بأن الموساد يقضي يوماً هادئاً. كان قد أخبر شكري آنذاك أن الطبيبة قد هربت إلى واحدة من عدّة غرف آمنة، والتي تم حجزها في فندق ميريديان في حال كان فريق الموساد بحاجة إلى الهروب من فندق إنتركون.

كانـــت الطبيبة في الواقع قد غيّرت فندقها، وفي الوقت الذي وصل فيه شكري وعدد آخر من أفراد الحرس الملكي لإلقاء القبض عليها، كانت تقضي وقتها في مقهى قـــريب. تم اعـــتقالها بسرعة، وعندما فتّش الحراس حقائبها، وجدوا محقنتين مليئتين بـــسائل، شبيهتين بالمحقنة قصيرة الإبرة التي يستعملها مرضى السكري لحقن أنفسهم بالأنسولين.

مباشـــرة، علـــى أي حال، انتشر مزيج من الشبهة والارتياب الشائعين تماماً في الشرق الأوسط. كانت مصادرة المحقنتين، اللتين قالت المرأة إنهما تحتويان على ترياق المادة التي تم رش مشعل بها شيئاً، لكن تصديقها - أو تصديق ياتوم في هذه المسألة - كان شيئاً آخر تماماً.

حذّر البطيخي شكري: "فكّر في الأمر. كيف يمكننا تصديق طبيب كان جزءاً من مكيدة؟".

رد اللواء شكري: "نعم. ينبغي أن نعرف المادة التي رشّوه بها".

عـــندما أحـــضر شكري وأربعة من أفراد الحرس الملكي الطبيبة الإسرائيلية إلى المستـــشفى، أكّدت أنها عميلة للموساد كانت جاهزة للعمل، كما شرح داني ياتوم

للملـــك حسين، في إنتركون. سمراء جميلة، كانت تبدو متجهمة وقلقة عندما دفعها أحد الحرّاس إلى زاوية أريكة زائري عكاشة.

طلب منها عكاشة الكشف عن المادة التي تم رشّها على المريض.

قالت: "لا أعرف"، وأصرّت على أن أحداً لم يقل لها شيئاً سواء عن طبيعة السم أو الترياق إلاّ أن أحدهما سيبطل تأثير الآخر[5].

قـــال لهـــا عكاشة: "يبدو أنه بخير". متذكراً حقيقة أن آلة تقوم بتنظيم تنفس مـــشعل، تساءل عكاشة عن نوع الاستجابة التي يمكن استخراجها منها عندما يخبرها أن ضحية الموساد لا تزال حية. لكنها حدّقت في الفراغ، ولم تنبس ببنت شفة.

مـــستعرضين خـــيارهما، أصبح البطيخي وشكري - وفي النهاية فريق الأطباء حـــول مشعل - رهينتي خيالهما. أقنعا نفسيهما أنه يبدو ممكناً، في أثناء تقديمها لذلك الترياق، أن تستطيع الطبيبة الإسرائيلية تقديم سم إضافي يُنهي مهمة الاغتيال، في حال لم يكن مشعل قد مات بعد.

ازداد قلقهما أكثر من تقرير عاجل جاء عبر مكتب البطيخي، يشير إلى أن طبيباً إســـرائيلياً كـــان قد اتصل في الواقع بالفريق الطبـــي في مدينة الملك حسين الطبية، يعـــرض اقتـــراحاً غريباً مفاده أن فصل مشعل عن الجهاز الميكانيكي يبقيه حياً. كان ذلـــك سيُنهي أيضاً عمل الموساد القذر. ولقد كان ذلك غريباً جداً حتى إنه زاد من الشكوك بشأن كل ما قد يقوم به الإسرائيليون.

أرســـل عكاشة، الذي لم يكن ليخاطر في تلك المرحلة، المحقنتين المليئتين بسائل لتحلـــيلهما فـــوراً في مخابر حكومية. قال للعميلة الإسرائيلية: "لن نستعملهما قبل أن نختبرهما. ربما يكون عقاراً للقضاء عليه تماماً".

في أمـــسية الخميس تلك، كانت هناك ضربة حظ أخرى بوجود الدكتور والتر ويلسون، الأميركي البالغ من العمر خمسة وخمسين عاماً، في عمّان والذي كان رئيس قـــسم الأمـــراض المعدية في مايو كلينك الشهيرة عالمياً في روشستر، مينيسوتا. كان الملك قد عانى أخيراً من حمّى غامضة وأعراض غريبة أخرى؛ وتم إحضار ويلسون إلى عمّان للعمل مع الفريق الطبـــي الملكي.

طلـــب الملك آنذاك من ويلسون العمل على حالة مشعل، التي كان فريقه المحلي يـــتابعها عـــن كثب بعد دخوله أخيراً في غيبوبة عميقة. سُمح لويلسون قليل الكلام

بفحص مشعل فقط بعد أن دقّق نـــزال، خبير حماس غير الطبـــي، في أوراق هويته. أكّد ويلسون لنـــزال: "لمعالجته، ينبغي أن نعرف نوع السم الذي استخدموه"[6].

تـــساءلوا عـــن الطريقة التي يمكن من خلالها الحصول على معلومات موثقة من الإســـرائيليين؟ كانـــوا بحاجة إلى وصف دقيق للمادة الكيميائية التي تم استعمالها في الهجوم.

كانـــت تجتاح الملك حسين نوبة من الغضب في الوقت الذي اتصل به البطيخي لإطلاعـــه علـــى تلـــك العقـــبة الأخيرة في السباق لإنقاذ مشعل. قال الملك بحدّة: "سنجعلهم يقدموها لنا. نحتاج إلى تلك الصيغة".

كـــان الملـــك ومـــساعدوه يضغطون على الأطباء طيلة الليل. بقي شكري في المستـــشفى، يلاحق عكاشة وربابة مثل ظليهما فيما كانا يشرفان على العناية بمشعل ويتابعان نقاشاً بشأن مخاطر استعمال الترياق المأخوذ من عميلة – طبيبة الموساد. كان كـــل مـــن حـــسين والبطيخي يتصلان هاتفياً كل نصف ساعة، للتأكد أن القيادي الفلسطيني لا يزال على قيد الحياة.

بعـــد انكـــشاف أحـــداث اليوم المثيرة، كان نتنياهو قد حاول مرتين الاتصال بحـــسين. كان الملك قد رفض تلقّي كلتا مكالمتيه، مفضلاً بدلاً من ذلك نقل رسالة إليه. قال: "إذا مات مشعل، سنواجه جميعنا مشكلة مستعصية. من الأفضل أن تتأكد من عدم موته"[7].



13

"من هو خالد مشعل؟"

كان الدبلوماسي الكندي ستيف بينيت مصمماً على معرفة شيء ما عن القاتلين الكنديين المشتبه بهما. كانت حفلة كوكتيل في السفارة البريطانية للاحتفال بذكرى *معركة بريطانيا* فرصة للضغط على آخرين في الحلقة الدبلوماسية. لكن البريطانيين لم يكونوا يعرفون شيئاً. اضطر تالياً إلى طلب عقد اجتماع مع وزير الداخلية نذير راشد، والذي وصفه لاحقاً في تقرير إلى أوتاوا بأنه كان "متوتراً، وكدراً، وغير بناء أبداً"(1). لم يلق التماسه بالحصول على صور للرجلين ونسخ عن بصمات أصابعهما آذاناً صاغية. وضع بينيت بعد ذلك في حسبانه السويسريين، الذين كانوا قد دعوا الكثير من أفراد الحلقة الضيقة في عمّان إلى حفل استقبال في دار السفارة بمناسبة العيد الوطني السويسري.

كان لبينيت جسد لاعب ركبي والذي يحمل أيضاً حزاماً أسود في الفنون القتالية. كان موضع إعجاب في البعثة الكندية كزميل يمكنه تحقيق اختراق عندما يفشل كل شيء آخر. كان الضغط من أوتاوا قد أصبح لا يُطاق. لم يكن بوسع رئيس الوزراء جان كريتيان التعامل مع هجمات المعارضة ووسائل الإعلام التي تدّعي أن الحكومة كانت متورطة في مكيدة إسرائيلية لقتل خالد مشعل.

نظراً لأهمية المسألة، لجأ بينيت إلى تكتيكات غير دبلوماسية أبداً في الحفل السويسري. تناول شراباً، وجال بعينيه على حشد من الشخصيات الأردنية رفيعة المستوى. دسّ نفسه بعد ذلك بين الضيوف قريباً من الشخص الذي يستهدفه، حيث اشتكى بصوت عالٍ من إبقاء أوتاوا خارج دائرة الضوء في وقت حرجٍ جداً لحكومته. عندما لمح الأمير رائد بن زيد، رأس العائلة الملكية العراقية المنفية، الذي كان يعرف أنه مؤتمن على أسرار الملك حسين، اقترب منه بينيت أكثر ورفع صوته. طلب أن يعرف: "لماذا تعامل عمّان أصدقاءها الكنديين بتلك الطريقة؟ هناك مصاعب كبيرة في الوطن. تصرّ أوتاوا على الحصول على أجوبة. السفارة لا تمتلك أياً منها".

قدّر بينيت أن الفظاظة تؤتي ثمارها. في صبيحة اليوم التالي، دعاه شخص غامض في اتصال هاتفي إلى عقد لقاء سري سيفضي أخيراً إلى سلسلة من الاجتماعات، أولاً مع اللواء علي شكري ولاحقاً مع الملك حسين نفسه. في البداية، تم توجيه بينيت لجعل سائق السفارة يقلّه إلى أحد الشوارع الخلفية في العاصمة - بجانب مرسيدس - بنز فضية. نقله سائق المرسيدس الأردني بعد ذلك إلى مكتب سمح له شكري فيه بتفقّد جوازي السفر. مثل زميلته سابقاً، استنتج بينيت، بعد فحصه غير العلمي، أن الوثيقتين أصليتان بالفعل. لم يكن ذلك ما تريد أوتاوا سماعه.

لكن بينيت انتقل بعد ذلك إلى زنزانتي الحجز في المقر المركزي لإدارة الأمن العام في عمّان، حيث تم نقل المجرمين من مبنى الشرطة في وادي السير. سُمح لبينيت بمقابلة الرجلين كل على حدة. رفض كلاهما الكشف عن هويته، التي كانت وفقاً لمكتب التسجيل في إنتركون شون كيندال، ثمانية وعشرين عاماً، الرجل الأشقر الذي هاجم مشعل، وباري بيدز، ستة وثلاثين عاماً، مرافقه داكن البشرة. كانت تلك التفاصيل مع معلومات عن ثلاثة أشخاص آخرين يحملون جوازات سفر كندية وصلوا إلى الفندق في الوقت نفسه. كان الاثنان يتكلمان بلكنة إسرائيلية قوية لكن، بعد الإصغاء جيداً، استنتج بينيت أن أحدهما كان قد تعلم الإنكليزية في أستراليا.

تحت أعين الحرّاس الأردنيين المرتبكين، قام بينيت بعد ذلك بإخضاع كل رجل لوحده لاختبار فريد فيما يتعلق بكندا. هل يستطيع تسمية شارع في كندا كان قد عاش فيه طفلاً، أو بلدة ذهب فيها إلى المدرسة؟ لا؟ ربما يستطيع تذكّر اسم أحد مدرّسيه؟ لا، أجاب كلاهما.

في أساسيات الجغرافيا الكندية، لم يكونا يعرفان شيئاً. لم يكن لدى الرجلين أيضاً معرفة جيدة بالرياضة الكندية. قبل أربعة أعوام، كان فريق بلو جيز من تورنتو قد جعل قلوب الكنديين تخفق بقوة عندما تفوق على كل الفرق الأخرى في الولايات المتحدة ليفوز ببطولة العالم. في ذلك الوقت، كما يُقال، حتى الموتى في قبور كندا قاموا للاحتفال. حدّق هذان الكنديان المزعومان ببلاهة في بينيت، وسألا: "بلو ماذا؟".

ربما كان سؤاله الأخير قاسياً، لكن الدبلوماسي كان مصمماً على إنهاء الأمر. طلب منهما أداء بعض المقاطع من "او كندا"، النشيد الوطني. دندن بينيت بالجملة

الافتتاحـــية: "او كندا! وطننا وأرضنا...". بعد فشلهما في الانضمام إليه، بدت عليه علامات الرضا لأن الرجلين كانا محتالين.

كـــان أي إحـــراج لأوتـــاوا أقل ما يدعو بنيامين نتنياهو للقلق. كانت الأربع والعـــشرون ساعة التي مرّت بين الأسوأ في مسيرته المهنية المضطربة، وكان يعرف أنه بانتهاء الأزمة، ربما تنتهي رئاسته للوزراء أيضاً.

كـــان ينبغي أن يكون الأمس يوماً للانتصار. في غضون أسبوع، ستعطل بلاده ثلاثة أيام بمناسبة رأس السنة اليهودية. وفقاً للتقاليد، كان رئيس الوزراء يزور الموساد في الأيام التي تسبق العطلة للإشادة بمساهمة الوكالة في تحقيق الأمن الوطني.

كـــان الموظفـــون مجتمعين آنذاك في إحدى قاعات الطعام عندما دخل موكب سيارات رئيس الوزراء المصفّحة إلى مقر الموساد قرب هرتزليا، على الساحل شمالي تل أبـــيب، ظهيرة يوم الخميس. لو أن كل شيء حدث كما كان مخططاً له في الأردن، لكـــان وصـــل بعد وقت قصير من بث إشارة مشفّرة تعني "تم إنجاز المهمة" من محطة الموســـاد داخل السفارة الإسرائيلية في عمّان. بدلاً من ذلك، قام داني ياتوم المشوّش والخائـــب بتحيـــته. وبدلاً من مرافقة رئيس الوزراء إلى الاحتفال، قام المدير بتنحيته جانباً لنقل أنباء مزعجة من عمّان. شرع بالقول: "لدينا مشكلة"[2].

كـــان قرار القيام بأعمال انتقامية ضد قيادة حماس - أينما كانوا في العالم - قد تم اتخـــاذه أولاً في اجتماع طارئ لمجلس الوزراء الإسرائيلي بعد عمليتين استشهاديتين قـــبل شـــهرين تقريباً، في 30 تموز، لقي فيهما ستة عشر شخصاً حتفهم في أسواق القدس. كان نتنياهو قد خرج من ذلك الاجتماع ليعلن: "سأنال من هؤلاء الأوغاد، وإن كان ذلك آخر شيء أفعله"[3].

فـــيما كان ياتوم يكشف عن مدى فشل المهمة السرية في عمّان، كان نتنياهو يستمع بصمت، وفضحت قطرات من العرق تشكّلت على جبينه قلقه المتزايد. كان اثـــنان مـــن عملاء الموساد خلف القضبان في الأردن. كان حوالى ستة آخرين رهن الاعتقال أو ملاحقين من قبل السلطات المحلية، سواء المتجهين إلى الحدود أو المختبئين في منـــــزلٍ آمـــنٍ للموساد، أو ربما في السفارة الإسرائيلية في عمّان. كان يُعتقد أن عمـــيلين آخـــرين، أحدهما يتخفّى ككندي يبلغ من العمر ثلاثين عاماً ويدعى غاي إيرس، قد هربا من عمّان وربما يكونان في طريق عودتهما إلى البلاد.

كانت تقارير ما قبل العملية من ياتوم وساعده الأيمن مدير العمليات، المعروف فقط باسم إتش، ذكرى بعيدة. كان الفريق قد بدأ يجتمع في عمّان قبل أسابيع. وصلوا على متن طائرات من مدن مختلفة حول العالم، كان خمسة منهم على الأقل قد تنكّروا كسائحين كنديين. وكانت الطبيبة، الإخصائية بأمراض القلب من منطقة النقب جنوبي إسرائيل، وأحد زملائها الرجال، قد سجلا نفسيهما في الفندق على أنهما زوج وزوجة.

كان وجود طبيبة متخصصة أساسياً في عملية التخطيط؛ كان ينبغي أن تكون مستعدة مع الترياق، لإنقاذ أيٍّ من زملائها الذي ربما يتعرض مصادفة للعقار القاتل. وكان قد تم حجز غرف أخرى في فندق ميريديان، في شارع الملكة نور، تحسباً لحاجة أيٍّ من أعضاء الفريق إلى انسحاب سريع من مسرح الأحداث.

كان أفراد الفريق قد استفادوا من أحد المارة الآمنين على أرصفة تل أبيب ليمثل دور خالد مشعل في تمارينهم على أداء المهمة. فيما كان أحد العملاء يشتت انتباه الهدف عندما يفتح *عن غير قصد* علبة كوكا - كولا يكون قد هزّها بقوة في أثناء اقترابه والهدف من بعضهما بعضاً على الرصيف، كان على عميل آخر أن يمر متجاوزاً الهدف من الطرف الآخر. مستعملاً رذاذاً مطوّراً، مخفياً داخل آلة تصوير سائح، كانت مهمة العميل الثاني رش الجرعة القاتلة من السم في أذن الهدف.

في جولات الاختبار، كان الماء بديلاً للسم. سيكون عميل ثالث موجوداً كقائد ميداني. تم تدريب الثلاثة على التواصل باستعمال تعابير الوجه. كانت لديهم تعليمات واضحة بشأن الظروف التي ينبغي وفقاً لها التوقف عن متابعة العملية، وكانت إحداها وجود أيٍّ من مرافقي مشعل المعتادين.

كان ياتوم قد أكد لنتنياهو أن الخطأ غير وارد. كان هناك الكثير من التخطيط واعتناء كبير بالتفاصيل. وكان قد تم انتقاء الفريق من صفوف كيسارا، واحدة من ثلاث فرق اغتيال متخصصة في الموساد. كانت المهمة تتطلب منهم التواجد في الشارع بضع ثوانٍ فقط.

بعد بعض الوقت، وفقاً للخطة، سيبدو أن مشعل يتعرض لنوبة قلبية. لكن لتزويد الموساد بغطاء أكبر، تم اللجوء إلى حيلة أكثر تماسكاً، لإبراز حسن التخطيط الذي كان رئيس الوزراء، وبصراحة العالم، يتوقعه من منظمة إسرائيل الأمنية. لدى

معرفتهم أن إدارة المخابرات العامة بقيادة سميح البطيخي قد أشرفت على تركيب آلات تصوير مراقبة في إنتركون ويمكنها الوصول إلى الشرائط ولديها فريق من المخبرين الذين زرعتهم بين موظفي الفندق، تم توجيه مدير محطة الموساد في عمّان - الذي لم يكن يعرف بشأن خطة الاغتيال - لقضاء وقته في قطع أشواط في مسبح الفندق. كانت الخطة أن رؤية صوره، مسترخياً تماماً في وقت توجيه الضربة لمشعل، سيبعد الموساد عن دائرة الأحداث في حال كان هناك تحقيق عن سبب الموت الغامض لخالد مشعل.

لكن آنذاك، بدلاً من عرض الجاسوسية المعتاد للموساد، بدا أن ما حدث فعلاً في عمّان هو عمل هواة. كانت الخطة الذكية بقيام العملاء الثلاثة بالتواصل فيما بينهم باستعمال تعابير الوجه قد تداعت تماماً، لأن مشعل وسائقه حجبا الرؤية.

في خلال مطاردة واعتقال كيندال وبيدز، استطاع أربعة آخرون كانوا موجودين في المكان التسلل بعيداً إلى ملاذ آمن نسبياً في منزل للموساد في عمّان. لكن ياتوم كان قد أصدر إليهم بعد ذلك أوامر بالانتقال إلى السفارة[4].

عندما فرض الأردنيون طوقاً عسكرياً حول السفارة، كانوا يتصرفون ببساطة بدافعٍ من إحساسهم. كان عدّة شهود قد ادّعوا أنهم رأوا أعضاء في الفريق ينطلقون بسيارة أو يركضون باتجاه البعثة الإسرائيلية. كان العملاء قد اتجهوا في الواقع إلى منزل آمن، لكن، بناءً على أوامر لاحقة من ياتوم، بعد إلقاء القبض على كيندال وبيدز، عاد العملاء أدراجهم إلى السفارة قبل أن يتم تطويقها. كانوا قد جعلوا أنفسهم سجناء الجيش الأردني.

بالرغم من ذلك، كانوا يعتقدون بادئ الأمر أنه تم رش السم بنجاح وأن مشعل سيموت، وبالتالي أنهم أنجزوا هدف مهمتهم. كان العميلان قد نقلا خبر *نجاحهما* إلى عضو في فريق الهروب قبل أن يدركا أن حارس مشعل الشخصي يجدّ في أثرهما[5].

واشنطن في الخريف جميلة، ولم يكن الأسبوع الأخير من أيلول من العام 1997 مختلفاً. كانت العاصمة الأميركية هادئة نسبياً. كان صراع الكونغرس الدائم بشأن التمويل السياسي قد اشتعل مجدداً، وبعد ثلاثين سنة من إطلاق ميديكيد (برنامج الرعاية الصحية)، تم الاتفاق على برنامج رعاية صحية أفضل لملايين الأطفال. كانت شركات التبغ الكبيرة قد رفضت اتفاق مسؤولية قانونية جديداً. كانت تشيلسي

كلينـــتون اليافعة قد ذهبت إلى الجامعة - ستانفورد - لكن المشهد السياسي للرئيس كلينتون كان مشوشاً آنذاك بفضيحة باولا جونـــز الجنسية. لم تكن الفضيحة الموازية بشأن علاقته مع المتدربة في البيت الأبيض، مونيكا ليونسكي، قد خرجت للعلن بعد.

في الـــيوم الـــذي سبق محاولة اغتيال مشعل - الأربعاء - كان الرئيس والسيدة كلينـــتون قـــد توجها إلى منـــزل ريفي. وكانا قد خططا لقضاء أربعة أيام محمومة، ســـيعملان في خلالهـــا مـــن ليتل روك، بلدهما. في ذلك الوقت، كان فريق *الجناح الغربـــي* يلتقط أنفاسه.

نظـــراً لفرق التوقيت، كان بيل كلينتون نائماً في الساعات الأولى من الأزمة في عمّان. في الوقت الذي كان يتم فيه نقل مشعل بين المستشفيين - بعد الظهر في عمّان وعـــند الـــصباح في ليتل روك - كان كلينتون يشارك باحتفال في الذكرى الأربعين لتـــسعة ليـــتل روك. كانـــت اركنساس تستعيد مجدداً ذكريات حركة التحرر من العنـــصرية في الخمـــسينيات عندما أرسل الرئيس أيزنهاور ألف جندي لمرافقة تسعة طلاب سود إلى صفوفهم في ثانوية ليتل روك المركزية[6].

لم يكن مألوفاً أن يقوم قائد أجنبـــي بالاتصال مباشرة بالبيت الأبيض. غالباً ما كان الملوك، والرؤساء، ورؤساء الوزراء، والجنرالات يتكلمون عبر الهاتف؛ لكن فقط بعد أيام من المفاوضات بين سفرائهم في واشنطن وموظفي البيت الأبيض الذين، مثل مساعد الرئيس بروس ريدل، "يقومون بتشحيم السكّة"[7].

عـــندما اتـــصل الملك حسين هاتفياً، لم يكن أحد يعرف تماماً كيف يتعامل مع اتـــصاله. كـــان كلينتون على منصة في اركنساس للاحتفال بتسعة ليتل روك؛ وكان مستـــشاره لـــشؤون الأمن القومي، ساندي بيرغر، مشغولاً في مكان آخر. تم تحويل اتـــصال الملك حسين إلى ريدل، الذي عمل في وكالة الاستخبارات المركزية عشرين عاماً وكان يشغل آنذاك منصب مستشار الرئيس لشؤون الشرق الأدنى. لكن، بخلاف إعلانـــه أن هناك "أزمة في الشرق الأوسط"، رفض القائد الأردني التوسع في الشرح. كـــل ما كان بمقدور ريدل فعله هو تسجيل ملاحظة ليقوم الرئيس بالاتصال هاتفياً بالملك عندما يتسنّى له الوقت. أخبر ريدل المرتبك قليلاً ساندي بيرغر عندما استطاع أخيراً الاتصال به: "كل ما قاله هو أنه يريد التكلم إلى الرئيس".

يقلق عملاء الاستخبارات إذا لم ترن الهواتف، ولم يتكلم الناس. يصغون السمع ويتــصرفون وفقــاً لذلك، لكن إذا كان هناك هدوء، ربما يأخذون قسطاً من الراحة ويذهــبون لأداء بعض التمارين الرياضية. كان ذلك ما يفعله ديف مانرز صبيحة يوم الجمعة. كان مدير محطة وكالة الاستخبارات المركزية في عمّان البالغ من العمر أربعين عامــاً ونيِّف قد تلقى اتصالاً في اليوم السابق من مخبر محلي الذي، في أثناء سرده لعدد من القضايا، ذكر هجوماً غريباً على مسؤول من حركة حماس يقيم في عمّان. كانت التقارير في وقت لاحق من ذلك اليوم مشوّشة ومتناقضة.

كـــان مانرز يشق طريقه عبر حركة سير الصباح الخفيفة، وقرّر أن قضية حماس ليست بمستوى يجعله يهتم بها، فيما كان اليوم أول يومي العطلة الأردنية. سأل نفسه: "فلسطيني هوجم من قبل شخص مجهول. ليست قصة حقيقية، أليس كذلك؟"[(8)].

كان يتجه إلى القاعة الرياضية في السفارة، لكنه لم يكن قد وصل بعد إلى المبنى الدبلوماســي الأميركي بجدرانه العالية عندما رنّ هاتفه الخليوي. كان محمد ذهبــي، وهــو مساعد تنفيذي لسميح البطيخي، يلتقط أنفاسه بصعوبة ويقول: "فوراً! تعال الآن يريد منك المدير الذهاب معه لرؤية جلالته!".

كـــان مانرز يحب إزعاج الناس بملابسه البسيطة. كان عادة يرتدي سروالاً من الجينــــز وقمــيص بولـــو فضفاضاً. لكنه آنذاك كان يرتدي قميصاً قصير الردنين وســـروالاً رياضــياً فضفاضاً، بحيث اعتقد أنه لا يناسب تماماً معايير الملابس الملكية. أسرع إلى المنـــزل وغيّر ملابسه – إلى سروال الجينـــز وقميص البولو المعتادين – ثم قاد سيارته إلى مقر البطيخي في ضواحي المدينة.

كـــان واضحاً أن هناك شيئاً غير اعتيادي. بدلاً من الإجراءات الأمنية المشدّدة الـــتي كانـــت تـــتطلب منه التوقف والخضوع لتفتيش دقيق، تم فتح البوابات، رفع الحواجـــز، والـــتلويح لمانـــرز بالدخول. قبل أن يوقف المحرك، كان رجل البطيخي، ذهبـــي، يسرع إليه نـــزولاً على الدرج: "الباشا لم يستطع الانتظار. ينبغي أن تلحق به بسيارتك... اذهب، اذهب، اذهب!".

سأل مانرز: "ما الذي يجري؟ لماذا الجميع مضطربين للغاية؟".

قـــال ذهبـــي لرجل وكالة الاستخبارات المركزية: "لا أعرف. لكن الأمر مهم اذهب بسرعة!".

كـــان الملك حسين في القصر. عندما وصل إلى هناك، وجد مانرز أن ما ينتظره كان أكثر غرابة من الذعر الذي رآه في مبنى إدارة المخابرات العامة. تم اصطحابه إلى غرفة استقبال كان فيها علي شكري والابن البكر للملك حسين، الأمير عبد الله.

شيئان أثارا استغرابه؛ لم يكن البطيخي هناك، وكان مانرز يفهم أن صبيحة يوم الجمعـــة تكون للاسترخاء، إلا أن الأمير كان بملابسه العسكرية الكاملة. سأل: "ما الذي يجري؟".

كان الأمير عبد الله هو الذي ردّ متردداً، قائلاً: "لست واثقاً تماماً".

استدار مانرز إلى شكري. كرّر: "حسناً - ما الأمر؟".

قال اللواء شكري: "سنخبرك في غضون دقائق. نحن بانتظار ويس".

ويـــس؟ وفقـــاً لمعلومات مانرز، كان ويسلي إيغان السفير الأميركي، وزوجته فيرجينـــيا، في جولة أخرى من تنقيباتهما الأثرية المنتظمة في البتراء. إذا كان الملك قد طلب عودته إلى المدينة، لا بد من أن الأمر خطير. ضحك في قرارة نفسه عندما تذكر تهكم الملك بشأن نشوب أزمة في العاصمة عندما يكون إيغان في البتراء. لكن عندما كشف شكري أن حسين كان قد أرسل مروحية، بدلاً من الطلب إلى السفير العودة بالسيارة، فهم مانرز أن شيئاً خطيراً جداً يجري آنذاك.

كـــان الـــسفير إيغان ينقّب منذ شروق الشمس. بعد ساعتين من العمل، وفي حـــوالى الساعة الثامنة صباحاً، كان محاطاً بكومة من التراب، ما يدعوه علماء الآثار الممارسون *عائقاً*؛ عندما انحنى عضو من فريق حرسه الأردني من فوق حافة الحفرة التي كان يعمل فيها، وأعلمه أن الملك يرغب منه في العودة إلى عمّان الآن.

بيـــنما كـــان الحارس يتكلم، كان يمكن سماع *واب - واب - واب* لمروحية تقتـــرب، وبعـــد ثوان ظهرت إحدى مروحيات البوما المخصصة للقصر فوقهم. بعد إعلامـــه بالأمر الملكي، كان كل ما يستطيع إيغان فعله هو القفز إلى الطائرة مباشرة. لكـــن فيرجينـــيا كانت امرأة تتمسك بالشكليات؛ أصرّت زوجته على أن يعود إلى الفندق ليستحم ويرتدي ملابس أنيقة تناسب حضور اجتماع في القصر.

حاول مانرز فتح حديث صغير، لكن أحداً لم يشترك به. تسلّى بخاتمه الذهبـــي المزخرف، الذي يحمل حجراً كبيراً من الياقوت الأزرق، ورقم 76، العام الذي كان مانرز قد تخرج فيه في أكاديمية البحرية الأميركية في أنابوليس، ميريلاند. جلس الجميع

واجمين تماماً حوالى ثلاثين دقيقة قبل أن يكسر حاجز الصمت صوت مروحية تهبط في الخـــارج. مـــرتبكاً، لكن يبدو أنيقاً في سرواله النظيف وسترته الرياضية، رمق إيغان مانرز بنظرة ساخرة عندما دخل. لكن لم يكن هناك وقت ليتبادلا حتى بضع كلمات فقد كان حسين والبطيخي في أعقاب السفير.

دخـــل الملـــك بأســـلوبه المعتاد. لكن مانرز أُصيب بالدهشة من مظهر صديقه البطيخي. قال مانرز لاحقاً: "كان مكتئباً، وحزيناً. ومحطماً حقاً".

عندما نظر نحو الملك، لاحظ رجل وكالة الاستخبارات المركزية شيئاً مختلفاً تماماً عـــن الهـــدوء الشديد الذي كان يتوقعه من حسين - سجل مانرز ملاحظة ذهنية لما سيصفه لاحقاً بأن الملك كان يبدو مثل "قط أكل كناري" - وعلى حين كان الملك حسين والبطيخي يسردان أحداث الساعات الأربع والعشرين الأخيرة، أصبح واضحاً أن أقوى رجلين في الأردن كانا يتصرفان بطريقتين مختلفتين تماماً. كان جلياً أن الملك حـــسين - غاضباً كما كان - لم يكن يصدّق حظّه الجيد: بعد أكثر من عام على خيانة نتنـــياهو وخداعه وبعد عقود من قيام البعض في المؤسسة الإسرائيلية بالحط من قدر مملكته الصغيرة لكن الموقرة، لم يكن ليرضى بأقل من إذلال كامل لبنيامين نتنياهو.

شرح الملك حسين لإيغان: "يجب أن يتدخل الرئيس في هذا". لم يتوقف لالتقاط أنفاســـه، بـــيّن الملك بعد ذلك كيف ولماذا يجب على كلينتون أن يرغم نتنياهو على الكـــشف عن الصيغة الأصلية للسم الذي كان فريق الموساد قد استعمله ضد مشعل وبسرعة.

متحكماً بمزيج من الغضب المتصاعد والمرارة، أعلن الملك أن موت مشعل على أرضه سيعرِّض الاستقرار للخطر، وينبغي أن يفكر نتنياهو ملياً في موضوعين خطيرين. إلى جانب استحالة إنقاذ اتفاقية أوسلو التي كانت قد دخلت في حالة غيبوبة آنذاك، لا بـــد مـــن أن القائـــد الإسرائيلي كان يحاول زعزعة استقرار السلالة الهاشمية، ربما كمقدمة لجعل الأردن وطناً بديلاً للدولة الفلسطينية الجديدة.

سأل حسين المجتمعين: "هل نتنياهو ملتزم حقاً باتفاقيتنا، أم أن تلك هي محاولته لتدميرها؟ لماذا هذه السكين في الظهر؟".

وجد الملك صعوبة أكثر في تصديق أن الموساد كان الأداة في تلك الأزمة. كان قـــد استضاف قبل أيام فقط مسؤولين بارزين من الموساد ووزارة الدفاع الإسرائيلية

لمناقـــشة جهودهم المشتركة في محاربة الإرهاب. كان حسين مقتنعاً آنذاك أن هؤلاء العملاء الجالسين إلى طاولته كانوا يعرفون بأمر المكيدة ضده.

عدّة مرات، وضع حسين يده بشكل مثير على جبينه، مشتكياً من نتنياهو: "أنا ببساطة لا أفهم ذلك الرجل".

كـــان مانرز سريعاً في الاتفاق معه. قال: "كل شيء مستغرب تماماً. ينبغي أن تتساءل إن كانت تلك رسالة متعمدة، كما تتوقع، يا صاحب الجلالة".

مثل لاعب شطرنج ماهر، انتقل الملك حسين ليشرح للمجتمعين الأفضلية التي يتمـــتع بها. كان على إيغان أن يفهم أنه لا يزال بحاجة إلى التكلم مع رئيس الولايات المـــتحدة. ثم زاد الملـــك حسين الرهان. متأكداً من أنه لن يتم استقبال الإسرائيليين، باعتـــبارهم سبب الأزمة، في البيت الأبيض، طلب حسين أن يستقبل كلينتون وفداً أردنياً بأسرع وقت ممكن. كانت الطائرة الملكية جاهزة، لكن، كما أشار، كان يجب علـــى إيغـــان التحرك بسرعة لضمان أن يتلقى كلينتون اتصالاً هاتفياً من حسين في عمّان ويستقبل الوفد الذي تم التخطيط لإرساله إلى واشنطن، والذي سيكون برئاسة شقيقه ولي العهد الأمير حسن.

كان الملك حسين يصدر أوامر بلغة حادة. كان يجب على البطيخي مرافقة ولي العهـــد، وكـــذلك مانرز. صرخ قائلاً: "ينبغي أن يسمع الرئيس مباشرة كيف ننظر بجدّية إلى هذا الحادث".

أومأ إيغان برأسه، وقال مانرز لنفسه: "يبدو أنني سأسافر إلى واشنطن".

فـــيما كـــان الأميركيان يستعدان للمغادرة، عاد الملك حسين إلى النقطة الرئيسية؛ ينبغـــي إرغام نتنياهو على تقديم تفاصيل كاملة عن كلٍّ من الترياق والسم. لم يكن الملك قـــد نطـــق بجملة واحدة تقريباً من دون ذكر قائد حماس. عندما انفض الاجتماع أخيراً وتوجه إلى رواق القصر، ركب السفير إيغان السيارة مع مانرز للعودة إلى السفارة.

عـــندما أغلـــق بـــاب الـــسيارة، نظر إيغان من دون انفعال إلى رجل وكالة الاستخبارات المركزية وسأل: "من هو خالد مشعل هذا؟".

باللجوء إلى ترتيبات عامة، كان المسؤولون في واشنطن يجدونه عندما يحتاجون إلـــيه - بالتأكـــيد بين المواعيد وعادة في سيارة مراسم تنطلق مسرعة ضمن موكب سيارات صاحب.

إضـــافة إلى كـــونه القائد الأعلى للجيش، كان كلينتون أكبر جامع أموال للحزب الديمقراطـــي، وكانت طريقة معالجته لقضية مشعل ستصبح مثالاً يحتذى لأجنحة الحزب الكبير. يوم الجمعة، كان قد قطع رحلة مدتها سبعون دقيقة جواً إلى هيوستن في تكساس لحضور غداء تبرعات في قصر تيلمان فرتيتا، صاحب مطاعم مليونير يبلغ من العمر أربعين عاماً. بعد أقل من ساعتين، شارك كلينتون في احتفال للمأكولات البحرية، وبعدها، فيما كـــان يتموضع لالتقاط صور شخصية مع الضيوف، جمع أكثر من 600,000 دولار من جيوب حوالى سبعين من أغنى أنصار الحزب الديمقراطي في هيوستن[9].

أعـــادت الطائرة الرئاسية (طائرة سلاح الجو الأولى) كلينتون إلى ليتل روك بعد العاشـــرة مـــساءً بقليل بالتوقيت المحلي من يوم الجمعة. كان قد مرّ آنذاك يوم على الهجوم على مشعل.

كان كل من الملك حسين ونتنياهو يتسابقان لإسماع ما لديهما لكلينتون. تماماً كمـــا كـــان الملك قد تخلى عن المراسم ليتصل شخصياً بالبيت الأبيض، كذلك فعل أيضاً رئيس الوزراء كما كان سيكتشف دينيس روس في وقت باكر جداً من صباح يوم الأحد. بصفته مبعوث كلينتون الشخصي إلى الشرق الأوسط، كان روس يسافر كـــثيراً، مما يعني النوم لليالي عديدة على متن طائرات أو في فنادق أو مباني السفارات. لهـــذا كانت فرصة أن ينعم بالنوم، في سريره الخاص، في منـــزله بميريلاند، ذات طعم خاص، على الأقل حتى اتصل نتنياهو هاتفياً.

كانت الساعة حوالى السابعة صباحاً عندما تلقّى روس اتصالاً من البيت الأبيض ينقل إليه أن رئيس الوزراء الإسرائيلي بحاجة إلى التكلم معه عبر خط آمن. كان ذلك كل ما تطلّبه الأمر، لم يكن روس بحاجة إلى مزيد من المعلومات ليفهم أن هناك أزمة. نظـــراً لمعـــرفته عادات نتنياهو الشخصية، كان روس يدرك أن القائد الإسرائيلي ينام عادة بعد ظهيرة يوم الأحد. تمتم لنفسه: "إنه يوم الأحد. الساعة الثانية بعد الظهر في القدس ونتنياهو ليس في سريره. لدي مشكلة".

شـــرع نتنـــياهو، الذي كان يحاول التقاط أنفاسه ويبدو أحياناً مشوشاً، في ما سيـــصبح حديـــثاً صعباً، على الأقل لأن رئيس الوزراء افترض أن روس كانت لديه تفاصـــيل مـــا حدث. لم يكن روس يعرف شيئاً. من دون إلقاء أي تحية، بدأ نتنياهو يشرح وجهة نظره: "يهدّد الملك بقطع العلاقات".

"ما الذي تتكلم عنه؟".

"حاولنا قتل خالد مشعل، إنه في المستشفى".

"أخبرني ماذا فعلتم".

بينما كان روس يصغي، استعرض نتنياهو ما قامت به بعثة الموساد الفاشلة، وتوقف قليلاً حيث كان قد بدأ عندما رفع روس سمّاعة الهاتف: "إذا لم نعطه الصيغة والترياق، سيقطع العلاقات".

كان روس مباشراً. لم تكن هناك خيارات. "ليس لديك خيار، أليس كذلك. أعطه ما يريد".

لكن نتنياهو ضغط بالاتجاه المعاكس. كان يريد حلاً آخر. كان يكره حتى التفكير في اقتراح روس أن تقوم إسرائيل بإرسال أطباء كمستشارين للفريق الطبي الأردني الذي يحاول إبقاء مشعل على قيد الحياة.

كان روس لا يزال في سريره، إلا أنه كاد يقع منه عندما فاجأه نتنياهو باقتراح أنه إذا كان الملك يريد إنقاذ مشعل، ينبغي أن يرسله للمعالجة في مستشفى إسرائيلي جيد. بعد إرساله للقتلة، بدا أن نتنياهو يصدّق أنه سيكون مؤتمناً آنذاك على حياة الضحية.

ثم بالغ نتنياهو كثيراً، ومضى قدماً على غير هدى في الاتجاه المعاكس: "لكن... إذا كنا مستعدين للتعاون، لست واثقاً أنه سيقبل مساعدتنا...".

سأل روس: "ما الأكثر أهمية بالنسبة إليك؟".

قال نتنياهو، وكان خوفه المتزايد واضحاً للدبلوماسي الأميركي: "ينبغي أن يتكلم الرئيس كلينتون معه".

قال روس: "يمكن أن أحاول تحقيق ذلك. لكن قل لي في ماذا كنت تفكر؟".

"حاولنا قتله بسبب هجمات حماس".

"هل تقول إنكم حاولتم قتله في عمّان. هل خطر لك أن خطأ ربما يقع؟".

بعد صمت طويل، رد نتنياهو: "لا...".

سأل روس: "كيف تستطيع أن تكون غير مسؤول؟ ألا تفهم أهمية العلاقة مع الأردن لكم؟ إذا حشرتم الملك حسين في زاوية، لن يكون لديه خيار سوى الرد على تلك الشاكلة...".

في تلــك المــرحلة، توقف نتنياهو ببساطة عن الكلام. كان على الأميركي أن يتحدث عبر خط الهاتف عدّة مرات ليتأكد من أن رئيس الوزراء لا يزال على الطرف الآخر.

"إذا كانت لديك مشكلة مع مشعل، لماذا لم تتحدث مع الأردنيين؟ على الأقل، كانوا سيعتقلونه بالتأكيد، وربما كانوا أبعدوه أيضاً لم يكن ليستطيع العمل من الأردن بعد ذلك".

لم تكن هناك إجابة من طرف نتنياهو. صمت فحسب.

لكــن كان هناك صوت خافت كافٍ لكي يستنتج روس أن خط الهاتف بقي مفــتوحاً. كان لكل منهما أهداف تختلف عن الآخر. كدبلوماسي خبير، كان روس يحاول أن يجعل نتنياهو يشرح لماذا يعتقد الإسرائيليون أن *عليهم* القضاء على مشعل في عمّــان. لكن كل ما كان يسمعه هو التماس نتنياهو الغريب بعض الشيء بأن تنتشله واشنطن من فوضى من صنع يديه.

غــير مدركٍ على ما يبدو أنه يكرّر كلامه، لجأ رئيس الوزراء إلى لازمة: "قطع العلاقــات... ينبغــي أن يتصل كلينتون بالملك... قطع العلاقات... ينبغي أن يتصل كلينتون بالملك".

قال له روس: "أفهم ما هو على المحك هنا، لكن أنت السبب في هذه الفوضى. إذا لم تكن تريد أن ينفذ الملك تهديده، سيكون عليك أن تتعاون".

"إنه يحتجز اثنين من رجالي".

قال روس بعناد: "لا يمكنني إنقاذ الوضع إلا إذا فعلت ما يطلبه حسين".

أنهى روس المكالمة، واتصل مباشرة بساندي بيرغر. بعد انتهاء حديثه مع بيرغر، اتــصل بمارتن إنديك، سفير واشنطن في تل أبيب. فيما كان روس يسرد حديثه مع نتنــياهو، كــان أول رد فعل من إنديك شعوره بالصدمة: "أحمق! إذا سقطت تلك الاتفاقية، سيكون ذلك حريقاً ثلاثي الأبعاد".

بعــد وقت قصير من انتهاء تلك الأحاديث، تلقّى رئيس الولايات المتحدة أول اتــصال هاتفــي استثنائي في سلسلة ستستمر اليوم كله. قبل التاسعة من صباح يوم الأحد، كان كلينتون في الجو في رحلة بالمروحية تستمر خمساً وثلاثين دقيقة من ليتل روك مــتجهاً نحــو الجنوب الغربــي إلى هت سبرنغز، البلدة التي قضى فيها الرئيس

شبابه، لرعاية حملة يتبرع فيها كل مشارك بخمسة وعشرين دولاراً لإصلاح مدرسته القديمة. بحلول الظهيرة، كان مقرراً أن يعود إلى ليتل روك، ويتجه إلى ملعب البيسبول راي ونـدر من أجل حملة جمع تبرعات أخرى للحزب الديمقراطي مع قائمة ضيوف تـزيد على ستمئة شخص. لكن كلما كان كلينتون يركب سيارته في ذلك اليوم - ثماني مرات على الأقل، كما ستكشف مذكراته لاحقاً - كان ينخرط في عمل يبدو حساساً للغاية ولا يمكن تضمينه في مقتطفات من وثائق رسمية يمكن نشرها بعد عقد من الزمن[10].

تم إنهـاء كـل شيء هاتفياً. اتصل إيغان من عمّان، وأصرّ على بيرغر في البيت الأبيض وديفيد ولش في وزارة الخارجية أن تتم تلبية مطالب الملك. كان ينبغي أن يتم إرغام نتنياهو على تقديم سجل مفصّل عن تركيبة وخصائص السم، إضافة إلى ترياق فعّال، قبل إخضاع مشعل لعلاج أكثر تحديداً.

ألحّ إيغـان: "الآن، يسيطرون على حالته فقط؛ ينبغي أن تحصلا على الترياق!". لكـن بيرغـر قال للسفير إن الأمر ليس بتلك البساطة. كان أمام كلينتون يوم مليء بالنشاطات العامة، و لم يكن جعله يتحدث عبر خط آمن سهلاً كما يبدو.

قال إيغان لبيرغر: "تصرّف. ينبغي أن يتكلم هؤلاء الرجال".

طيلة يوم الأحد، ارتفع مؤشر حرارة المفاوضات لدرجة أن بيرغر النشيط دائماً نقـل فـريقه إلى *قاعـة الأزمـات* وهي مركز الاستخبارات الرئيسي تحت الجناح الغربـي، والـتي كانت منذ أزمة الصواريخ الكوبية عينَي وأذنَي رئيس الولايات المتحدة على العالم في أوقات الاضطرابات. كانت كل المكالمات تتم عبر خطوط آمنة مـا عدا بعض المكالمات من دينيس روس وإليه. نظراً إلى تزامن تلك الأزمة مع موعد مـباراة كـرة قدم ابنته البالغة من العمر تسعة أعوام، شوهد روس عدّة مرات يبتعد مـسرعاً عن الخطوط الجانبية للملعب في ضواحي واشنطن العاصمة، لاستقبال مكالمة أخرى عبر هاتف خليوي عادي جداً[11].

مع قيام السفير إيغان واللواء شكري بالعمل كضابطي اتصال في عمّان، استطاع الملك حسين في النهاية التحدث مع الرئيس كلينتون. لم يكن غضب الملك العارم قد هدأ بعد. شعر ريدل، وآخرون يصغون السمع، بثورة غضبه فلم يكن الحبر قد جف بعد على ورق اتفاقية السلام، وبعد أن خرج الملك حسين بشجاعة كبيرة من الخيمة

العـــربية لتوقيعه هذه الاتفاقية مع إسرائيل، قام فريق أخرق من الموساد بمحاولة اغتيال في وضح النهار في شوارع عاصمة الملك. قال حسين بحدّة لكلينتون المؤيد لإسرائيل، الـــذي كـــان يُعدّ عرّاب اتفاقية العام 1994: "إنه أمر لا يساعد على تحقيق السلام، أليس كذلك؟"[12].

كـــان الملك حسين يعرف كيف يلوي ذراع كلينتون. أوضح أنه على وشك إلغـــاء اتفاقـــية الـــسلام، والـــتي تمثل حجر الزاوية في عملية مستمرة. على الجانب الأميركي، أشار ريدل ناصحاً بأن الملك حسين لم يكن يخادع؛ وأن الاتفاقية التي كان كلينتون قد وقعها عرضة للخطر. حذّر ريدل: "لا يمكن أن نتركه يبدو ألعوبة بأيدي الإسرائيليين، ولا يمكن أن تصبح السفارة الإسرائيلية في عمّان وكراً للقتلة".

أرســـلت البعثة الأميركية في عمّان تقارير عبر قنواها الآمنة تفيد فيها أن الملك حسين كان يهدد بشنق السجينين الإسرائيليين وأن مسؤولين بارزين في البلاط الملكي كانـــوا يحـــثّون الملك حسين على السماح لابنه البكر بقيادة عملية مغاوير لاقتحام الـــسفارة الإسرائيلية في عمّان؛ مع دعوة وسائل الإعلام الأجنبية لمشاهدة ما يجري. كان موظفو القصر مشغولين في وضع الترتيبات مع شبكات التلفزة الأردنية ليخاطب الملك حسين الأمة وليكشف التفاصيل الدنيئة لمكيدة الموساد وكيف أن نتنياهو غالى في تقدير نفسه.

كانت الشهور الأولى من رئاسة كلينتون قد شهدت تحقيق اختراق أوسلو المثير لتحقيق السلام في الشرق الأوسط. لكن تعنُّت كل الأطراف وعمليات حماس الأخيرة كانت قد وضعت كل العملية في غرفة الإنعاش. كان تهديد الملك حسين آنذاك بالرد على استفزاز نتنياهو بإلغاء الاتفاقية علناً يمثّل ضربة قاصمة لتلك العملية. صرخ الملك حـــسين الغاضـــب عـــبر خط الهاتف: "أنت تعرف أن هؤلاء الناس لم يجرؤوا على التصرف بهذا الشكل عندما لم تكن هناك اتفاقية. كيف يمكننا التعاون معهم مجدداً؟".

عـــرف كلينـــتون أن الملـــك كان في موقف لا يُحسد عليه. إن لم يعش مشعل، ســـيكون حليف واشنطن العربـــي المخلص مكشوفاً وغير حصين أمام أعدائه. كان كل شيء عرضة للخطر، وصديق جيد يطلب المساعدة، لهذا وافق كلينتون على مد يد العون بجعـــل إســـرائيل تقدم كلاً من صيغة السم والترياق. أخذ على عاتقه أيضاً الضغط على نتنياهو ليلتزم ببنود كل ما تم الاتفاق عليه بين البلدين والالتزام بإحياء عملية السلام.

قـــال كلينتون للملك حسين فيما كان الملك يسرد تفاصيل ما كان نتنياهو قد حـــاول القيام به في عاصمته: "لكن، ينبغي أن أقول - هذا الرجل غير معقول أبداً". بعـــد سماحه للملك بالتنفيس عن غضبه قدر ما يحتاج، حصل كلينتون بالمقابل على التـــزام من العاهل الأردني بتطبيق بنود أي اتفاق قد ينجم عن ذلك وبذل جهد كبير ليكون قاطرة جر عملية سلام الشرق الأوسط.

موافقاً، ترك الملك الرئيس محذّراً إياه: "[ينبغي أن تعرف أن] حياة عملية السلام معلقة بحياة هذا الرجل. إذا مات، سيموت السلام معه"(13).

عادةً، لم يكن الملك ليتكلم بتلك الفظاظة؛ لكن عندما سمع دينيس روس بذلك الحـــديث، فهم ما كان على المحك بالنسبة إلى العاهل. سيتذكر لاحقاً: "كان الملك حـــسين يـــصرخ علـــى كلينـــتون. شعر بأنه مكشوف تماماً. كيف يمكنه أن يثق بالإسرائيليين مجدداً؟ كان غاضباً، ويشعر بالمرارة، والإحراج". سيتكلم القائدان عدّة مـــرات أخرى يستغل فيها الملك لحظة قوته، فيما يحاول الرئيس - ويفشل في معظم الأوقات - تهدئة روع الملك الغاضب.

لم تـــتوقف الاتصالات الهاتفية من الملك حسين إلى البيت الأبيض، ومن البيت الأبـــيض إلى كلينتون في أركنساس (مع بيرغر، روس، أو ريدل على الخط، سواء مع كـــل بمفـــرده أو اثـــنين منهما أو جميعهم في المؤتمر الهاتفي) ومن كلينتون إلى الملك حسين، ومن نتنياهو إلى روس، ومن بيرغر إلى نتنياهو، ومن سفارة الولايات المتحدة في عمّـــان إلى وزارة الخارجية ووكالة الاستخبارات المركزية ودينيس روس في ملعب في ميريلاند. لكن في كل تلك المكالمات، لم يتكلم بيل كلينتون إلى نتنياهو. تم إسناد تلك المهمة إلى ساندي بيرغر سيئ الطالع، مما جعل بروس ريدل يدلي بملاحظة بارعة في إحدى المراحل: "بيبـــي طفل بيرغر!".

جـــاء بيرغر لإدارة الأزمات. كان كل شيء مصنفاً بأنه *عاجل*، وعندما كانت قـــضية اليوم تصبح عاجلة فعلاً - كما هي حال مسألة مشعل - كان الرجل ينشط تمامـــاً. قـــال أحد موظفيه المرهقين: "كان ذلك يجعل حياة الناس حوله تعيسة، لكن ذلك يعني عدم إغفال أي شيء".

جالساً إلى الطاولة الكبيرة في *قاعة الأزمات*، كان بيرغر يعمل على الهواتف. إذا فـــشل مـــنطق حجته في منح الانطباع اللازم، كان يلجأ إلى قوة صوته. لاحظ أحد

المساعدين وهو يغادر *قاعة الأزمات*: "سينجح ساندي في ذلك، إنه يصرخ عبر الهاتف".

تجدر الملاحظة أنه في تلك مرحلة لم يكن أحد في البيت الأبيض مستعداً للدفاع عن نتنياهو. كان واضحاً أنهم يفهمون جميعاً إلى أي حد فشل الإسرائيليون في مهمتهم. نُقل عن أحد الموظفين الذي كان قد قضى وقتاً في *قاعة الأزمات* لاحقاً ذلك اليوم: "كان ساندي ثابتاً تماماً في موقفه بأن على بيبي الاستجابة لمطالب الملك، فهناك ثمن باهظ ينبغي لإسرائيل أن تدفعه".

مذهولاً من هول الإثارة التي تنكشف أمامه، شبّه موظف كان قد انضم حديثاً إلى كادر ساندي بيرغر في البيت الأبيض الأمر بفيلم لجيمس بوند. "إنه مثل فيلم شائق؛ بلد بحاجة إلى ترياق من آخر لمعالجة مرض لا يفهمه. والساعة تمضي".

وضع الملك حسين منتصف ليل الأحد كموعد نهائي لاقتحام السفارة الإسرائيلية واعتقال العملاء الإسرائيليين الأربعة الذين كانوا يختبئون داخل المبنى. بحلول ذلك الوقت، سيكون قد مضى أكثر من ستين ساعة على الهجوم على مشعل. في الوقت نفسه، حذّر بأن كل العلاقات بين إسرائيل والأردن ستُقطع.

كان عوديد عيران، سفير إسرائيل إلى عمّان، جديداً تماماً في عمله حتى إنه لم يكن قد قدّم أوراق اعتماده للملك. لكن سواء أكان معتمداً أم لا، لم يكن يبدو أن السفير سينسى رد الفعل عندما حاول الشرح لشكري أن نتنياهو لا يزال يرفض الكشف عن صيغة العقار الذي تم استعماله على مشعل، على أساس أنه "سر دولة".

قال عيران لمدير مكتب الملك: "هذا مستحيل. لا يمكننا القيام بذلك".

مذهولاً، سأله شكري: "هل يمكنك تكرار ذلك؟".

عندما كرّر السفير ما قاله، انفجر شكري قائلاً: "لماذا تقولون في إسرائيل إنه سر دولة، وفي العراق تدعونه سلاح دمار شامل؟ نحاول إنقاذ شخص هنا، لا قتل أحد"[14].

كانت المفاوضات تدور في مثلث عالمي، مع قيام عمّان وواشنطن بالضغط على القدس. بعد تلقيه تعليمات ثابتة من البيت الأبيض، كان نتنياهو يعرف جيداً أنه حتى إذا امتثل لمطلب الملك حسين بتسليمه الصيغة السرية، لم يكن على الأرجح ليخرج من الأزمة من دون أضرار. لكن نتيجة انخراطه الكبير في المكيدة التي خطط لها بنفسه بالاشتراك مع داني ياتوم، كان رئيس الوزراء بحاجة آنذاك إلى إشراك آخرين في عملية

اتخـــاذ القرار، وربط أكبر عدد يستطيع ربطه من الأسماء إلى عملية حسّاسة لإيقاف الرمال المتحركة التي كان قد أغرق محاور الدولة فيها.

تم إصـــدار تعلـــيمات دقـــيقة إلى مجموعة منتقاة من المسؤولين الإسرائيليين في صـــبيحة يوم الأحد. وصلوا تباعاً، وكان عليهم حضور اجتماع عند الساعة التاسعة مساءً في قاعة مجلس الوزراء، قبالة مكتب رئيس الوزراء في القدس. كان على بعضهم اســـتعمال باب جانبـــي لدخول المبنى؛ ولم يكن مسموحاً للعسكريين بارتداء بزّاهم الرسمية. بالرغم من أنها كانت ساعة متأخرة من ليلة عطلة نهاية الأسبوع، إلا أن خطر تنبّه وسائل الإعلام إلى جلسة الاجتماع العاجلة تلك كان قائماً. إذا تسرّبت القصة، قد تصبح الأضرار فادحة[15].

حـــتى ذلك الوقت، كانوا قد استطاعوا التعتيم على وسائل الإعلام بشكل فعّال داخل إسرائيل. لكن تقارير رندا حبيب كانت تتكدّس على مكتب كل محرر، بالرغم مـــن الـــرقابة الصارمة التي فرضها النظام، إلا أن طرح أسئلة كان أمراً لا مفر منه. كانت هناك بعض التقارير، التي استندت إلى ما كانت وسائل الإعلام الأجنبية تنقله من عمّان، وقد استطاعت الرقابة الإسرائيلية حظرها.

كان نتنياهو قد استدعى المجلس الوزاري المصغّر. كان بين أولئك الذين جلسوا علـــى مقاعـــدهم في قاعة مجلس الوزراء وزير الدفاع إسحاق مردخاي، وزير البنى التحتـــية أرييل شارون، المدّعي العام إلياكيم روبنشتاين، رؤساء أجهزة الاستخبارات الإســـرائيلية الـــثلاثة – الخارجـــية، الداخلية، والعسكرية – وعدد من المستشارين والمسؤولين الرسميين. كانوا مجتمعين ليقرّروا ما إذا كان يجب على إسرائيل أن تمتثل ما أصبح إنذاراً نهائياً من واشنطن لتسليم تفاصيل السم.

لم تكـــن هـــناك حاجة إلى القول إنها إذا امتثلت، ستكون إسرائيل تعترف بأنها مـــتورطة، ســـراً، بنوع من أبحاث الحرب الكيميائية التي تشبه ما كان يقوم به صدّام حـــسين وقادة كريهون آخرون. شعر بعض الحاضرين أن نتنياهو كان يشعر بخوف كـــبير ظهـــر علـــى سلوكه في وقت مبكر من ذلك اليوم. لدى سؤالهم عمّا حدث لمشعل، قيل لهم بفظاظة: "في المستشفى على وشك الموت".

حاول أحد المسؤولين الذين حضروا الاجتماع تلخيص ما جرى لاحقاً، وقال: "كنا قد قرّرنا قتل الرجل، وكدنا نفعل ذلك. كان يُقال لنا آنذاك إنه في سبيل إنقاذ

علاقتنا مع الملك حسين، ينبغي أن ننقذ الرجل الذي حاولنا قتله. لم يكن قراراً سهلاً... كان الجميع يدركون العواقب السياسية والعملية لإنقاذ مشعل".

كان هناك نوع من الازدراء للضغط الآتي من واشنطن في سيل لا ينقطع من المكالمات الهاتفية. أضاف أحد الحاضرين الآخرين: "كنا نفهم جيداً الفوضى التي كنا نتخبط فيها، لم نكن بحاجة إلى تشجيع كبير من البيت الأبيض".

بغض النظر عن الطريقة التي تدارسوا بها الأمر، رأوا في النهاية أن لا مفر لهم. في خلال دقائق من اتخاذهم لقرار جماعي بالتعاون وتسليم الترياق وتركيبة السم السرية، تم نقل النبأ إلى واشنطن عبر القنوات المعتادة.

إذا كان كلينتون سينقل النبأ شخصياً إلى الملك حسين، كان على فريق الجناح الغربي استغلال الوقت المناسب لتحقيق ذلك. في *قاعة الأزمات*، كان لدى ساندي بيرغر فرصتان للتكلم مع الرئيس قبل موعده العلني التالي، حملة جمع الأموال للحزب الديمقراطي في ملعب البيسبول في ليتل روك. كان كلينتون سيقضي عشر دقائق في السيارة بين المدرسة والصعود إلى القارب الرئاسي في هت سبرنغز في نهاية رحلته، وعشر دقائق أخرى في موكب السيارات الذي كان سيقّله من مهبط آدامز في ليتل روك إلى حملة جمع الأموال في ملعب راي ويندر.

تمت الاستفادة من نافذة الدقائق العشر الأولى لنقل المستجدات إلى الرئيس الذي بدا مرتاحاً نوعاً ما للقرار الذي تم اتخاذه في القدس. وفي الأخرى، تم إيصاله بالقصر في عمّان، حيث شاركه الملك حسين الأكثر لباقة آنذاك شعوره بالراحة في الوقت نفسه الذي أشار إلى أنه سيبقى متأهباً لأي طارئ.

قال الملك عدّة مرات: "شكراً لك سيادة الرئيس. شكراً جزيلاً لك".



14

إخراج أرنب من قبعة الملك

في ساعات الاضطراب بعد الهجوم على خالد مشعل، كان بنيامين نتنياهو يعتقد في قـــرارة نفـــسه أنه بطريقة ما سينأى بنفسه وبحكومته عن الكارثة. كان يعرف أن الناخـــبين الإسرائيليين قد يعاقبونه لخرقه الاتفاقية مع الأردن، لكنه كان يعرف أيضاً أنهـــم ســـيعاقبونه مرتين إذا فشل في إنقاذ العميلين الإسرائيليين المسجونين آنذاك في عمّـــان، أو زملائهمـــا الذين يمكن للقوات الخاصة الأردنية إخراجهم من السفارة. كانت تلك أولوية.

عـــندما عاد داني ياتوم خالي الوفاض من عمّان بعد ظهيرة يوم الخميس، والذي سرعان ما لحق به أمين سر مجلس الوزراء داني يينه، اختبر نتنياهو شعوراً نادراً بالنسبة إلى قائد إسرائيلي يتعامل مع الفلسطينيين على عتبة بابه ومع جيرانه العرب. كان ذلك عـــندما فـــشل مدّعيه العام، إلياكيم روبنشتاين، الذي كان يحظى بمكانة خاصة في العاصـــمة الأردنية، في جعل الملك يصغي إليه. أخيراً، فهم رئيس الوزراء أنه في ذلك الوقت لم تكن له اليد العليا. كان ميزان القوى قد مال في غير مصلحته.

كـــان نتنـــياهو يفهم مأزقه بشكل جيد جداً. لكن ربما يكون ضابط ارتباطه العسكري شمعون شابيرا هو الذي أشار إلى مخلّصه الوحيد على الأرجح ألا وهو رجل متمـــرّس بفـــنون الدبلوماسية، لكنه أيضاً محارب سفّاح بذهنية ماكرة للغاية. حثّ شـــابيرا نتنـــياهو آنذاك على استدعاء إفرايم هالفي من بروكسل، حيث يعمل سفيراً لإسرائيل لدى الاتحاد الأوروبـــي.

بالرغم من كل مظهره الدبلوماسي، كان لهالفي جانب آخر. طيلة حوالى ثلاثة عقـــود قبل ذهابه إلى بروكسل، كان شخصية راسخة في الموساد، حيث قضى آخر خمـــس ســـنوات من خدمته نائباً للمدير. بمرور الوقت، وخاصة عند التفاوض على الاتفاقـــية الأردنـــية، كان شابيرا قد لاحظ علاقة هالفي الشخصية العميقة مع الملك حـــسين. بعد أن شاهد الاحترام الذي يكنه هو والملك لبعضهما بعضاً، عرف شابيرا

تمامــاً لمــاذا كان هالفي معروفاً بأنه *أب الاتفاقية*. كان مفيداً أيضاً أن هالفي يعرف الموساد عن ظهر قلب.

وافــق نتنياهو مباشرة. كانت تلك حالة عاجلة جداً لا يمكن إضاعة ساعة ثمينة أخرى. عندما جرت المكالمة الهاتفية الأولى، في وقت متأخر من ظهيرة يوم الخميس في أوروبــا، كــان هالفي في جولة تسوُّق مع زوجته. كانا على متن قطار متجهين إلى أنتفيرين، لشراء أثاث للمنــزل الذي يتوقعان الانتقال إليه في إسرائيل بعد انتهاء عمله في غــضون بضعة شهور. لم يقدم شابيرا تفسيراً، أو تفاصيل؛ وإنما طلب ببساطة من السفير العودة إلى البلاد مباشرة.

بوصفه شخصية قوية ومستقلة، رفض هالفي. لم يكن ليعود حتى يوافق رئيسه، وزير الخارجية ديفيد ليفي، على تلك المهمة المفاجئة الغامضة. ردّ شابيرا: "ذلك غير ممكن. ليفي في نيويورك".

كان واضحاً أن الاستدعاء عاجل. لكن هالفي الفظ وسريع الغضب تمسك بموقفه. كان قد سافر مرة من قبل بناءً على طلب عاجل من رئيس الوزراء، الذي لم يكــن قد ناقش القضية أولاً مع وزير الخارجية، وكانت النتيجة توبيخاً علنياً لهالفــي![1] أخيراً، تم إرسال عميل موساد من واشنطن إلى مقر الأمم المتحدة في نيويورك لإبلاغ ليفي عن الأزمة والحصول على موافقته الرسمية لاستدعاء هالفي ليــساعد في إنقاذ عنق نتنياهو السياسي. كانت القدس بحاجة إلى شخص يتمتع بمهارات نادرة لحل مشكلاتها، بالرغم من أن البعض في غرفة الاجتماعات في مقر الموساد كان يعارض أن يأتي شخص آخر لينظّف الفوضى التي تسبّبوا بها، إلا أن إفــرايم هالفي ربما كان الإسرائيلي الوحيد المؤهل لإنجاز المهمة. وكان على الأقل واحداً منهم.

لم تكــن هــناك رحلات مباشرة من بروكسل إلى مطار بن غوريون الدولي في إســرائيل. نظراً لحالة الاستعجال في القدس – أو ربما حالة اليأس – كانت هناك محاولة لتحويل مسار طائرة شحن 747 تابعة لشركة العال لنقل السفير من بروكسل. لكــن في وقــت وصولها إليه، سيكون مطار زافنتيم مغلقاً في الليل. بحث هالفي عن طائــرة خاصــة لكنه توقف عندما عرف أن التكلفة ستكون 80,000 دولار ليسافر بسرعة وأمان.

كان ذلك مناسباً للسفير على أي حال. كانت الرحلة التجارية التالية في صبيحة يـــوم الجمعة. عبر قنواته الخاصة، كان قد حصل على معلومات عن جنون الموساد في عمّان. كان إفرايم هالفي بحاجة آنذاك إلى بعض الوقت للتفكير[2].

مـــا الذي يمكن أن يقدّمه هالفي وينال رضا الملك حسين؟ إن كان الملك يريد الخروج من تلك الأزمة سالماً من دون أذى وعرشه آمن، سيكون على القائد الأردني استرضـــاء أربعة قطاعات شعبية غاضبة، إما بتقديم شيء لكل منها أو شيء مميز جداً لبعضها بحيث يصعب على الآخرين ألا يهتفوا له.

وفقاً لتحليل الملك الخاص، كان الأردنيون بشكل عام غاضبين. كان يعرف أنهم لا يـــرون الكـــثير لأنفـــسهم في الاتفاقـــية الـــتي كان قد وقّعها مع إسرائيل. كان الإسلاميون - ممثلين بحماس والإخوان المسلمين - يرون أنفسهم ضحايا الإسرائيليين. كانـــوا يريدون آنذاك الانتقام. كانت احتجاجات ياسر عرفات ستثير المعارضين إذا حصل حسين على تنازلات إسرائيلية تعزّز من قوة حماس. وستزيد الأنظمة في المنطقة التي كانت قد استخفّت بإيمان حسين بالسلام مع إسرائيل من مستوى سخريتها إن لم يُخرج الملك أرنباً مميزاً من قبّعته.

فـــيما كـــان هالفي يستعرض المصاعب التي ستعترضه، كان الملك حسين يضع نفـــسه في قلب الأزمة في عمّان. تكلم إلى الأمير حسن، شقيقه؛ عقد اجتماعات مع الفريق البطيخي؛ وتبادل الأفكار مع اللواء شكري.

كـــان البطيخي يشرف على قناة الاتصال الرسمية الرئيسية مع القدس، لكن كانـــت هناك قنوات خلفية أخرى، كان بعضها يستند إلى سنوات من اللقاءات الـــسرية قـــبل توقـــيع الاتفاقية في العام 1994. كانت قنوات أخرى مبنية على علاقات شخصية تطورت خلال اجتماعات دبلوماسية، وسياسية، وتجارية رسمية بعـــد التوقيع التاريخي. مع تعلُّق مشعل بين الحياة والموت، جرت اتصالات هاتفية محمـــومة في كلا الاتجاهين عبر الوادي، فيما كان صانعو السلام يبحثون عن أي فكرة قد تؤدي إلى حل.

بـــدا الأمـــر كله مهمة مستحيلة. لكن، بعد الوصول إلى شفير الهاوية، تهللت أســـارير الملـــك حسين أخيراً. كانت هناك ورقة يمتلكها الإسرائيليون، لكنها كانت رابحـــة كانـــت تحمل وجه الشيخ أحمد ياسين. كان ينبغي أن تكون حرية المؤسس

والقائد الروحي لحماس المحتجز في السجن حجر الزاوية في اتفاق يجب أن يكون متقناً إن أراد الملك حسين امتصاص غضب رعيّته.

بوصـــفه الرمـــز الحي للمقاومة الإسلامية، كان ياسين المُقعد الشخصية الفلسطينية الأبـــرز والأكثـــر وقاراً بين آلاف المعتقلين في سجون إسرائيل. كان إطلاق سراحه يمثّل تـــنازلاً كبيراً ينبغي الحصول عليه من نتنياهو، لكن كان ذلك هو الثمن الذي ينبغي دفعه لكسب حرية الإسرائيليين المعتقلين لدى الأردنيين وأولئك المختبئين في السفارة الإسرائيلية في عمّـــان. كانت حرية ياسين ستعد انتصاراً ليس من قبل الفلسطينيين في الأراضي المحتلة فقط، وإنما من قبل الفلسطينيين الذين يشكلون أكثر من نصف عدد سكان الأردن أيضاً.

من دون شك، كانت حرية ياسين ستزعزع استقرار عرفات بشكل كبير. لكن كيف يمكن لقائد منظمة التحرير الفلسطينية أن يشتكي، خاصة إذا كان الإسرائيليون يائسون جداً ويعتقدون أيضاً أنها فكرة جيدة؟

كان هالفي رجلاً حذراً مقتصداً في استعمال الكلمات، ويستطيع الإطراء بمديحه على آخرين ليجعلهم يشعرون بأنهم يحظون باحترامه. ليس واضحاً إن كان قد وصل لـــوحده إلى الحـــل المـــثالي نفسه مثل الملك حسين أو كان قد تم فتح الموضوع في المكالمـــات الهاتفية المتواصلة من عمّان وإليها، وربما حتى إلى بروكسل، قبل أن يصل أخيراً إلى الأردن لرؤية الملك صبيحة يوم الأحد.

لـــدى عودته إلى إسرائيل بعد ظهيرة يوم الجمعة، بعد أربع وعشرين ساعة فقط مـــن الهجوم على مشعل، تم اصطحاب هالفي مباشرة إلى مقر الموساد[3]، حيث شعر الجمـــيع بوجـــوده فوراً. فزع زملاؤه السابقون عندما أصرّ على أنه لا يريد الحصول علـــى معلـــومات عمّا كان قد جرى في عمّان. بدلاً من ذلك، كان يريد أن يعرف الأفكار التي خرجوا بها لإعادة كل عملائهم أحياء.

كان واضحاً لهالفي أن مؤسسة الاستخبارات الإسرائيلية لم تكن تستوعب مدى خطـــورة الوضـــع. كانوا يعتقدون أنها مجرد أزمة أخرى سيتجاوزونها. بدا أنهم غير قادرين على فهم مدى شعور الملك الأردني بالخيانة، أو مخاطر وعواقب وصفه بالخائن في بلده، في حال قبل أي تسوية بسيطة لفوضى الموساد.

كان ذلك فُتاتاً. كانوا قد فكّروا في تقديم أجهزة رؤية ليلية للدبابات العسكرية الأردنـــية، أو ربما تطوير بعض مقاتلات سلاح الجو الأردني القديمة[4]. استنتج هالفي

بسرعة أنهم يفكرون في شكل خاطئ تماماً؛ كانوا يبحثون عن طريقة لحل مشكلتهم، وليس لحل مشكلة الملك حسين. عندما سأل عن شيء أفضل، لقي صمتاً مطبقاً وامتعاضاً مستتراً.

كرّس هالفي أول أربع وعشرين ساعة من وجوده في إسرائيل لجعل أبرز الشخصيات السياسية والأمنية في البلاد تفهم ما كان على المحك. تم اتهامه بأنه متشائم أكثر من اللازم، وبالفشل في فهم أن الملك ربما سيتراجع عن تهديداته إذا منحته إسرائيل إعانة لميزانية دفاعه الهزيلة، أو شيئاً من ذلك القبيل. لكن هالفي كان مؤيداً تماماً لوجهة النظر القائلة إن الاتفاقية التي كان قد ساعد في التفاوض عليها مع الأردن تمثّل حجر الزاوية في استراتيجية إسرائيل الدبلوماسية طويلة الأمد. كانت هناك حاجة إلى تقديم تنازل كبير.

عندما رمى بإسم ياسين على الطاولة، لقي هالفي صمتاً مطبقاً قبل أن ينفجر في وجهه كل من زملائه ورؤسائه. أمطروه بكل الأسباب التي تجعل من إطلاق سراح البطل الفلسطيني الكفيف والمُقعد أمراً مستحيلاً وغير ملائم أيضاً.

كانت تلك الإشارة قد جاءت أخيراً من واشنطن في خلال الحوار المستمر مع إسرائيل، لكن نتنياهو كان قد قال للأميركيين إن حرية أحمد ياسين ستقوض بشكل كبير أمن إسرائيل[5]. لن يقبل الشعب الإسرائيلي أبداً، الذي كان لا يزال غافلاً عن تلك الأزمة، إطلاق سراح ياسين من الزنزانة التي يتوقعون أن يقضي باقي أيامه فيها.

إلى جانب الجانب الأخلاقي، كان الذين اجتمع بهم هالفي يعارضون ذلك سياسياً أيضاً. كان إطلاق سراح ياسين سيؤثر سلباً على ياسر عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية، اللذين كانا، شكلياً على الأقل، شريكي إسرائيل الرسميين في عملية السلام. إذا كان سيتم إطلاق سراح ياسين، كما جادلوا، كان ينبغي تسليمه إلى عرفات، وليس إلى الملك حسين.

حذّر هالفي أنه من دون عمل بحجم إطلاق سراح ياسين، سيمتنع الملك حسين عن التعاون مع إسرائيل. في تلك الحال، يمكنهم أن يتوقعوا توقف كل التعاون الدفاعي والأمني الحيوي بين البلدين. كان ذلك، كما جادل، تطوراً محتملاً سيعرِّض كلتا الحكومتين - الإسرائيلية والأردنية - للخطر.

بعد وصولهم إلى طريق مسدود، قرّر فريق الموساد تمرير فكرة ياسين إلى نتنياهو. رفضها الأخير فوراً.

في اليوم التالي، الأحد، كانت الأزمة ترخي بظلال ثقيلة على نتنياهو. كانت تواجهه آنذاك ثلاث دول تطالبه بحل: الأردنيون الغاضبون، الذين تم انتهاك حرمة بلادهم؛ الكنديون، الذين كانوا غاضبين بشأن جوازات السفر؛ والأميركيون القوة العظمى، الذين كانوا يخوضون معركة خاسرة في جهودهم لإنعاش عملية سلام الشرق الأوسط والغاضبين أيضاً من غباء مكيدة الاغتيال الفاشلة.

كان نتنياهو مرغماً على تغيير موقفه. إلى جانب الضغط الكبير من واشنطن لتقديم الترياق والصيغة الكيميائية للأردن مباشرة، كان عليه تسليم ربما أكثر القادة الروحيين الفلسطينيين وقاراً لإنقاذ عملية السلام التي كانت على وشك الغرق. كان إطلاق سراح ياسين خطوة بغيضة جداً على نتنياهو والتي ستؤرقه للأبد، لكنه كان غارقاً في ورطة من صنع يديه و لم يكن هناك سوى طريق واحد للتخلص منها.

كان القائد الإسرائيلي مهتماً أساساً بعملائه المحتجزين والتأثير الداخلي لتلك الأزمة على حياته السياسية. لكن كل مستشاريه كانوا يرون أن الكثير على المحك. كان ينبغي أن يكون أي شيء تقدمه إسرائيل لإصلاح الأمر مهماً وجوهرياً جداً. أخيراً، في صبيحة يوم الأحد، تراجع رئيس الوزراء، واتصل بهالفي هاتفياً ليمنحه سلطة واضحة بعرض إطلاق سراح الشيخ ياسين. نظراً لكونه رجلاً حذراً، أصرّ هالفي على أن ينطق نتنياهو اسم ياسين على الهاتف، حتى لا يكون هناك تراجع لاحقاً[6].

في وقت متأخر من يوم السبت، في حوالى منتصف الليل تقريباً، حلّقت طائرة خفيفة من الغرب إلى الشرق، فوق وادي الأردن، قبل أن تحط على المهبط العسكري نفسه الذي حطّت عليه طائرة داني ياتوم عندما وصل إلى عمّان قبل ثمانٍ وأربعين ساعة.

كان هناك شخص واحد ينتظر على المدرّج بيدٍ ممدودة عندما خرج طبيب إسرائيلي من الطائرة ومشى نحوه[7]. وكانت الوثيقة التي تتألف من صفحتين والقوارير الصغيرة التي تم تسليمها تحمل قيمة لا تُقدّر بثمن. كانت صيغة الموساد الكيميائية السرية للغاية والمزيد من الترياق الثمين في أيدي الأردنيين آنذاك. بالنسبة إلى الملك حسين، على أي حال، كانت تلك مجرد خطوة أولى.

بحلــول صــبيحة يوم الأحد في عمّان، كان هناك ابتهاج حذر وشعور موقت بالارتــياح في مدينة الملك حسين الطبية. كان الرجل من مايو كلينك قد عاد لتفقّد حالــة الشخــصية الفلسطينية المهمة، وكان فريق عكاشة متفائلاً للغاية بشأن حالة الــرجل، حــتى مــع الإزعاج الذي يسببه عشرات الرجال من المخابرات، حماس، والإخــوان المــسلمين في الأروقة والحرّاس المسلحين الذين يحومون بأسلوب المغاوير حول غرفته.

كــان مــشعل قــد تلقى حتى ذلك الوقت علاجاً من مزيج سريري نصح به الطبيــبان الأردنيان، بسام عكاشة وسامي ربابة، لكن الأطباء كانوا آنذاك بحاجة إلى اختراق يؤكد أن علاجهم الحذر للحالة مناسب.

كــان شــكري قد قدّم في وقت سابق محقنتي الترياق اللتين صودرتا من طبيبة الموساد. كانت العيّنة الأولى من الترياق التي تم تحليلها تحتوي ناركان، أحد العقارين اللذين يتم حقنهما في جسد مشعل. عندما تم تحليل عيّنة جديدة من الترياق، جاءت على متن طائرة من إسرائيل بناءً على أمر من واشنطن، تبين أنها ناركان. كان عكاشة مسروراً للغاية عندما جاءت عيّنات الاختبار فقد كانوا على الدرب الصحيح.

أخــيراً، قــرر الفريق الطبــي أن الوقت قد حان لبدء عملية إنعاش مشعل من سباته الإلزامي. بحذر شديد في البداية، بدأ ربابة فصل جهاز التنفس الاصطناعي قبل فجر يوم الأحد.

لم يكــن بوسع الأطباء سوى تخمين كمية العقار القاتل في جسد مشعل، لكن، سواء بسبب فشل الإسرائيليين في تحديد الجرعة أو طريقة المعالجة، استنتج ربابة طبيب التخديــر أنهــا لم تكن كافية. قال: "لو أنه كان أكبر سناً أو أقل وزناً، لكان واجه مشكلة أكبر. عمره ووزنه – حوالى مئة كيلوغرام – ساعدا في صموده حتى وصلناه بجهاز التنفس الاصطناعي"[8].

حــتى ذلك الوقت، كانت أقرب لحظة لمشعل من الموت عندما تعرض لحادث ســير في الكــويت قبل بضع سنوات. لكن وفقاً لعكاشة، كانت محاولة الاغتيال قد أخذته إلى "النفق المظلم مع ضوء يشع من الطرف الآخر. كان ذلك وشيكاً".

ظهــر جــزء مكمّــل آخر من الصورة الصيدلانية عندما أرسل القصر الملكي لعكاشــة فاكــساً يتضمن وثيقة من صفحتين كان المراسل الإسرائيلي قد سلّمها مع

الترياق لسيل الأحد. كانت تلك هي الصيغة الكيميائية التي حصلت عليها حركة كمّاشة الرئيس كلينتون والملك حسين من براثن نتنياهو المترددة.

أخيراً، كان للسم اسم - ليفوفنتانيل - وقد أثار أسئلة أكثر مما قدّم أجوبة عن امتلاك الموساد للعقار، وتورُّط وكالة الاستخبارات الإسرائيلية في العالم الشرير للجاسوسية الصناعية وأبحاث العقاقير المحظورة.

بعد وقت قصير من وصول ذلك الفاكس، تلقى عكاشة اتصالاً هاتفياً غريباً، وقد أخبره عامل مقسم المستشفى أنه تم تحويله من القصر الملكي في عمّان. لم يعرّف المتصل عن نفسه بالاسم، لكنه قال إنه أستاذ جامعي يعمل في مستشفى إسرائيلي مرموق، وادّعى أنه كاتب الوثيقة التي كانت آنذاك بين يدي عكاشة. تابع المتصل ليزوّد الجرّاح الأردني بالمعلومات الاستثنائية نفسها، التي كان قد تم تزويد وكالة الاستخبارات المركزية بها، حول طريقة حصول الموساد على العقار[9].

كان ليفوفنتانيل، كما بيّن، نتاج بحث فاشل أجرته شركة جانسن البلجيكية للمستحضرات الصيدلانية، والتي كانت بالمقابل مملوكة للعملاق الصيدلاني الأميركي جونسون آند جونسون وقد كان يُستعمل على نطاق واسع لمعالجة الألم الشديد بعد العمليات الجراحية.

كان إجراءً شائعاً في صناعة العقاقير أن يتم تعديل الصيغة الكيميائية لمنتج ناجح على أمل اكتشاف عقار آخر قابل للتسويق يمكن أن تكون له تأثيرات أقل أو مختلفة. كان ليفوفنتانيل، كما قيل لعكاشة، من ذلك الصنف لكن تبيّن أنه فعّال أكثر من اللازم ولهذا باء بالفشل.

كان فنتانيل الأصلي عقاراً تركيبياً يشبه المورفين، لكنه كان أقوى بمئة مرة تقريباً من المورفين. تقليدياً، كان العلاج بالفنتانيل يتم بحقنة تقليدية إلى نسيج عميق. يعمل كمسكّن ومخدّر معاً، كان عقاراً فعالاً للتخفيف من الألم، لكنه يؤثر أيضاً على وعي المريض وجهازه التنفسي. عندما كان يتم حقن كميات ضئيلة منه، كان دم المريض يصبح مثل *سيارة أجرة* سريعة جداً تنقل خلال ثوانٍ جزيئات مجهرية من فنتانيل إلى *مقصده* الدماغ. يتصل هناك بمستقبلات يمكنها محاكاة عمل النهايات العصبية للسيطرة على آلية الألم والخلايا العصبية التي تأمر الجسد بالتنفس. كانت تلك الوظيفة الأخيرة، بعيداً عن بيئة إنقاذ الحياة في مستشفى هي التي تحوِّل فنتانيل ومشتقاته الأكثر

فــتكاً إلى عقاقير قاتلة. استنتج عكاشة: "عندما تتوقف الضحية عن التنفس، يكون الأمر مثل حكم بالإعدام".

كـــان عكاشة حينها في أوج عطائه المهني ويقدم استشارات على نطاق واسع، لكنه لم يكن قد سمع من قبل بليفوفنتانيل. كانت قواعد البيانات التي تفقّدها تخلو منه تمامـــاً. تساءل عكاشة كيف كان استطاع الأستاذ الغامض، الذي قال إنه يتصل من إسرائيل، أن يعرف ذلك القدر عن ليفوفنتانيل إن لم يكن العقار موجوداً في السوق. قـــال الجرّاح الأردني لاحقاً لزملاء مندهشين: "كان يعرف كل تفاصيله الدقيقة، لهذا لا بد من أنه كان مشتركاً في اختباره".

اســـتنتج عكاشـــة من تلك المحادثة أن الموساد قد حصل بطريقة ما على صيغة العقـــار المحظور من داخل شركة جانسن وجلبه إلى مختبر إسرائيلي حيث تم تصنيعه. وفقاً لأسلوب عمل الموساد، كان ليفوفنتانيل عقاراً مغرياً لأن الموت الذي ينجم عنه لم يكن ليترك آثاراً ظاهرة، مما يجعل من المستحيل معرفة السبب الذي أدّى إليه.

ربما كان يُنظر إلى استعمال الموساد للعقار على أنه حادثة واحدة في مجال أسلحة الـــدمار الشامل لولا جعجعة نتنياهو بشأن حماية سر وطني، وآراء مجموعة صغيرة من خبراء المسكّنات في الولايات المتحدة. كانت تلك الدلائل تشير إلى شيء أكثر سوءاً.

كان آخرون قد تعاملوا مع فنتانيل من قبل. في السبعينيات، كانت مختبرات العقاقير المحظـــورة علـــى الساحل الغربـــي لأميركا قد كشفت الصيغة السحرية، وتلاعبت بها لإنـــتاج عقار *بياض الصين* القاتل. كان يمنح متعاطيه شعوراً قوياً بالهلوسة مثل ضربة فيل، لكـــنه لم يتـــرك آثاراً يمكن اكتشافها في تحليل السموم لأكثر من مئة متعاط للممنوعات عُزي السبب في موتهم في جنوبـــي كاليفورنيا إلى ما يدعى عقاقير غريبة[10].

في مختـــبرات سرية أخرى في الولايات المتحدة والخارج، تم التلاعب بالصيغة في الـــبحث عن عقار يمكن للسلطات العسكرية والمدنية استعماله للسيطرة على حشود مـــثل نوع من الرذاذ الضخم، الذي يشير إليه خبراء الأمن بأنه سلاح "أقل من قاتل" أو "مهدّئ".

تم تطويـــر العديـــد من مشتقات الفنتانيل في مؤسسات تجارية شرعية. كانت مختبرات جانسن في بلجيكا تنتج ألفانتانيل وسوفنتانيل، لاستعمالهما على البشر؛ فيما يتم تسويق كيرفونتانيل لتهدئة حيوانات ضخمة. لكن فاعلية معظم المشتقات كانت

شـــديدة حـــتى أن جرعة صغيرة كانت تُعدّ زائدة. تم استبعاد معظم تلك المشتقات؛ اعتـــبر الباحـــثون الذين توصلوا إليها أنها تشكل خطراً كبيراً عند استعمالها على أي تطبيق صيدلاني تجاري.

عالمـــياً، كان ذلك حقل معرفة تخصصية جداً. ربما لم يكن أكثر من اثني عشر عالماً يعملون بها في أيٍّ من الاقتصاديات المتقدمة، وكانت الحكومات تمتلك الكثير من المعلومات التقنية أو تحتفظ بها سراً. لكن نظراً للمنافسة الشديدة، كان الجميع يراقبون بعـــضهم بعـــضاً مثل صقور؛ ولجأ البعض على الهامش إلى حيلة أبحاث قديمة لمعرفة الـــتطورات الجديدة من دون الحاجة إلى القيام بجهد شاق. باستعمال أسماء مؤسسات غير معروفة غالباً، كانوا يطلبون رسمياً حقوق *إعادة طبع* أفضل الأبحاث، وهي عملية كانوا يحصلون بموجبها على وثائق تفصيلية لعمل منافسيهم، الذين كانوا متوقعين أن يتم نشرها لفائدة أوسع قطاع ممكن من القرّاء. على أي حال، لم يرَ الكثير من أوراق البحث ضوء النهار مجدداً.

أُصـــيب أحد خبراء المسكّنات الأميركيين بالذهول مما وصفه بأنه سيل كبير من تلـــك الطلـــبات من إسرائيل والاتحاد السوفياتي السابق، والتي لاحظها أول مرة في الـــسبعينيات. أضـــاف: "مـــن تفاعلي مع أشخاص في وكالات أميركية، أعتقد أن الإسرائيليين... كانوا يتابعون عن كثب طرائق جديدة لإنتاج تلك العقاقير"[11].

كانت الصلة السوفياتية مثيرة للفضول. لاحقاً، ستكون هناك مزاعم بأن الموساد كـــان قـــد جـــنّد علماء من ضمن موجة اليهود السوفيات الذين استقروا حينها في إسرائيل، لإنشاء مصرف للسموم وغازات الأعصاب التي حرّمتها المعاهدات الدولية[12]. في العام 2002، عرف العالم المدى الذي كانت الأبحاث السوفياتية السرية قد وصلت إليه، عندما ضخت السلطات الروسية كميات من غاز غامض في مسرح في موسكو في محاولـــة لإنهـــاء محـــنة رهائن كان محاربون من الشيشان قد احتجزوا ألفاً منهم. اســـتعمل الروس آلية إطلاق الرذاذ نفسها التي كان الإسرائيليون قد استخدموها ضد خالـــد مـــشعل وإن يكن على نطاق أوسع. كانت الخلاصة المروّعة مقتل 129 من الرهائن سيِّئي الطالع.

في الـــبداية، أنكرت السلطات الروسية أن يكون الغاز سبب الوفيات. لكن بعد أربعة أيام من الضغط المكثف من قبل عائلات الضحايا، أقر وزير الصحة الروسي بأن

"مادة تستند إلى أحد مشتقات الفنتانيل" قد استُعملت بهدف "تحييد" الإرهابيين[13]. لــدى إخضاع عينات بول من ضحايا موسكو لأفضل تحليل متوفر[14]، لم يتم العثور علــى أيٍ مــن مــشتقات الفنتانيل. في غياب مشتقات معروفة تجارياً مثل سفنتانيل وكيرفنتانــيل، استنتج خبراء أن سلطات موسكو كانت قد ابتكرت مشتقاً خاصاً من فنتانيل لم يكن ممكناً اكتشافه في الغرب.

كــان الدكتور عكاشة يدرك عامل الجذب الفني في هذا العقار للموساد: لن تكون هــناك فرصة كبيرة لكشف يد القاتل لأن تشريح الجثة لن يكشف على الأرجح السبب الحقيقــي للوفاة. سأل: "إذا لم تكن تبحث عن ليفوفنتانيل، لن تجده. يمكن أن تستنج أن هــناك نوعاً من المسكّن، لكن كيف ستعرف ما الذي ينبغي أن تبحث عنه؟ يندلع شجار في الــشارع ويــذهب الرجل إلى منــزله من دون أن يشعر بأن هناك شيئاً على غير ما يــرام. خلال مدة وجيزة، يشعر بالنعاس ويقول إنه سيأخذ غفوة فقط. لكنه لا يستيقظ أبداً؛ يسري مفعول العقار في أثناء نومه. إنها جريمة قتل، لكن لا أحد يعرف".

لم يكن هناك بحث معروف عن الفاعلية السريرية لتقديم الدواء عن طريق الأذن، ووفقاً لما كان عكاشة يراه، لم يكن الأمر يبدو منطقياً من الناحية الطبية. كانت طبلة الأذن البــشرية تــشكل غشاءً نسيجياً يغلّف الأذن بفاعلية، مما يجعلها وسطاً بطيئاً لامتصاص أي عقار. الأفضل من ذلك، كما فكّر، هو رشّ المادة في فم مشعل، حيث يحدث الامتصاص عبر سطح اللسان في خلال ثوانٍ، أو عبر الجلد، الذي يسهّل أيضاً نقلــه بــسرعة إلى الــدورة الدموية. لكن، ليفهم عكاشة من أين جاء الموساد بتلك الطــريقة، كــان عليه أن يعكس تحليله. كان قد تدرّب على إنقاذ الحياة، وفشل في التفكير في إمكانية ليفوفنتانيل في أيدي قاتل.

كــان قرار الموساد بضخ العقار عبر أذن مشعل ذكياً للغاية. كانوا يريدون قتل مــشعل، لكنهم أرادوا أن يموت في الوقت المناسب. أرادوا أن يعمل العقار ببطء. في وضــع مــثالي، كان مشعل سيقضي على الأقل بضع ساعات بعد مواجهة الشارع *الــبريئة* في موقع بعيد عن مسرح الأحداث. في تلك الظروف، سيكون من الصعب علــى عائلته وزملائه ربط موته بغريب مسّه بشكل عارض في الشارع صبيحة ذلك اليوم. لكن الخطة كانت تعاني من خلل قاتل. نظراً إلى حقن العقار عبر الأذن، كانت الساعات التي تسبق موت مشعل المتوقع ستصبح أيضاً ساعات يمكن إنقاذه فيها.

كانت رندا حبيب منهكة. عادةً، كان هناك منطق في تقسيم وقتها بين المكتب والمنـــــزل. لكـــنها كانت تعيش في المكتب منذ أربعة أيام آنذاك، مقيدة على مدار الساعة إلى مكتبها المغطّى بلوح زجاجي. كان شعرها مربوطاً إلى الأعلى مما يشير إلى حالة *أزمة* لكل من حولها، وكانت تدخّن أكثر من المعتاد لتهدئة أعصابها. لكن حتى في وســط تلــك الأزمــة، وجدت وقتاً لتمارس من دون تركيز لعبة سوليتير على حاسوبها المكتبـــي بينما كانت تنتظر أن يرفع أولئك الذين اتصلت بهم سمّاعة الهاتف.

كـــان مكتـــباً رحباً، ودافئاً لون جدرانه أبيض وأثاثه وتجهيزاته سوداء مع زينة حمـــراء. إنـــه مـــرتب عـــادة، كان المكتب يبدو آنذاك حفرة مليئة بالملفات ودفاتر الملاحظـــات المـــرمية في كل مكان على أرضه الواسعة. كما هي حال أي صحفي يسعى وراء قصة مثيرة كبيرة، بالنسبة إلى رندا كانت القصة – ووحدها القصة – التي تستحق الاهتمام.

كانـــت رندا قد نقلت عملياً كل تطور في تلك القصة حتى ذلك الوقت. كان هـــناك حديثها المبكر مع مشعل، الذي دلّ لأول مرة على تورط الموساد في الأمر، ثم أبلغتها زوجته أن مشعل موصول بجهاز تنفس اصطناعي. لاحقاً، كان هناك تأكيدها المـــثير للدهشة أن الخبراء الأردنيين يفحصون أداة غامضة، كانت مصادر مطّلعة قد أخبرتها أن القصد من استعمالها كان قتل مشعل. كانت تلك الأداة، كما فهمت بعد ذلـــك، ســـتقتل قائـــد حماس من دون ربط موته بمشاجرة صباح الخميس في شارع الحدائق ومن دون أي تأثير غير مناسب على العلاقات بين الأردن وإسرائيل.

في وقت متأخر من صبيحة يوم الأحد، بعثت حبيب بتقرير يقول إن قائد حماس قـــد بدأ يفيق من غيبوبته القسرية التي كان قد دخل فيها منذ أكثر من يومين. ستمر أربعة أيام أخرى قبل أن يستطيع مشعل التنفس من دون مساعدة، لكن رندا – لأول مـــرة مجدداً فيما يخص تلك القصة – نقلت عن زوجة مشعل، أمل، أنه في صباح يوم الأحد، أذهل مشعل الجاثمين بجانب سريره عندما نهض ومشى عدّة خطوات، قبل أن يعود إلى السرير مجدداً.

كـــان حـــرس الحـــدود الأردني قد وُضع في حالة تأهب آنذاك، لكن رؤية يهـــودي يرتدي بذلة فضفاضة يعبر جسر اللنبـــي معدنيّ الهيكل في صبيحة يوم أحـــد كانـــت لا تزال تحبس الأنفاس. كان ذلك إفرايم هالفي أنيق المظهر. جاء

وحيداً سيراً على الأقدام. بالنسبة إلى غرباء، ربما كان يبدو عملاً طائشاً أن يعبر عميل إسرائيلي سابق وسفير حالي بارز أياً من الحدود الإسرائيلية. لكن هالفي كان يعرف جيداً أنه خاضع لمراقبة إلكترونية مضاعفة، إسرائيلية وأردنية تحسباً من محاولة أي شخص إلحاق الأذى به. استمتع بالمشي، لكن وصوله بطريقة خاصة كان يبعث أيضاً برسالة محددة إلى مضيفيه الأردنيين. كان يقول: "نعرف بعضنا، ونثق ببعضنا".

أقلّت سيارة تم إرسالها من القصر هالفي إلى المنزل الصغير في المجمّع الملكي وسط عمّان، حيث استقبله ولي العهد الأمير حسن ورئيس إدارة المخابرات العامة، الفريق سميح البطيخي. فيما كان يتم اصطحاب الإسرائيلي إلى غرفة استقبال، شعر بالراحة من صداقته الطويلة مع ولي العهد وشقيقه، الملك، لكن البطيخي قائد الأمن لم يكن شخصاً معروفاً بالنسبة إليه. الغريب أن توقيت تعيين البطيخي رئيساً لإدارة المخابرات العامة ومغادرة هالفي الحلقة العليا للموساد إلى بروكسل كانا يعنيان أنهما لم يلتقيا أبداً. لكن هالفي كان يشعر بالغضب العارم الذي يشع من الرجل الأشيب.

كان هالفي وزوجته ضيفين معتادين في قصور حسين. كان كل ذلك في الحسبان لدى إدارة المخابرات العامة، لكن حالما استقبل رئيس الاستخبارات الأردنية هالفي، قرّر أن يعامله بما يستحق. بتقدير البطيخي، كان الإسرائيلي "صهيونياً ذكياً" يستطيع مثل داني ياتوم أن يأمر باغتيال خالد مشعل، ثم يذهب إلى منزله لتناول العشاء مع عائلته وينام هانئاً في الليل.

شرع الأردنيون في العمل مباشرة، وكشفوا لهالفي للمرة الأولى معظم التفاصيل الدقيقة عن هجوم يوم الخميس السابق على مشعل. إلى جانب غضبهم المفهوم، كان ما سمعه هالفي منهم يدل على شعور عميق بأن قادة الموساد البارزين يعتبرون نظراءهم الأردنيين أغبياء جداً ويستطيعون تخطيهم بمثل ذلك التخطيط غير الدقيق. كانوا منزعجين بالقدر نفسه من خلاصة مفادها أن الموساد كان يعتقد على ما يبدو آنذاك أنه يستطيع العمل متمتعاً بحصانة في الأردن. اشتكى ولي العهد أنه لا يزال يعاني من نوبات دوار من مجرد التفكير بشأن ما كان الإسرائيليون قد اقترفوه.

تحـــيّن هالفي اللحظة المناسبة، وتركهم ينفّسون عن كل الغضب الذي يشعرون بـــه. أخيراً، عندما اعتقد أن الأمر سيكون مقبولاً، طلب الإذن ليقوم بنفسه أو أحد زملائـــه في الـــسفارة في عمّان بزيارة سجيني الموساد. رفض البطيخي بشكل قاطع. طلب هالفي بعدها إطلاق سراح عملاء الموساد الأربعة الذين كانوا لا يزالون مختبئين في الـــسفارة. في وجه رفض أكثر تشدداً من قبل البطيخي، أعاد هالفي صياغة طلبه للسماح له ببساطة الذهاب إلى السفارة الإسرائيلية. قبل البطيخي ذلك أخيراً، وقال: "نعم"، يمكن لهالفي فعل ذلك.

تم تجهيز سيارة لتقلّه إلى مقر البعثة الإسرائيلية، حيث أكّد مدير الموساد السابق، خـــلال اجتماع قصير، للعملاء الأربعة القلقين أنه سيفعل كل ما بوسعه لإخراجهم بسرعة. وجّههم قائلاً: "كونوا مستعدين للتحرك بسرعة".

عـــندما عاد هالفي إلى القصر، كان الملك حسين قد انضم إلى المجموعة. أُصيب هالفي بالصدمة مما اعتبره حزناً عميقاً، وليس أي شعور بالغضب، في صديقه. شرح الإســـرائيلي لاحقـــاً: "كـــان ذلك ظاهراً في عينيه. كان الألم يعتصره. كان يتكلم بالطـــريقة الهادئـــة نفسها التي تكلم بها بعد توقيعنا لاتفاقية أوسلو مع منظمة التحرير الفلسطينية من دون معرفته".

بالنـــسبة إلى الطرفين، ربما كان متوقعاً أن إثارة مصير الشيخ السجين ياسين في تلك المرحلة التي كان فيها الموقف السياسي متوتراً أساساً تكافئ رفع المسمار من قنبلة يدويـــة. بالرغم من ذلك، كما تبين لاحقاً، كانت أرضية العمل التي عمل عليها كلا الطرفين قبل ذلك الاجتماع تؤسس لظروف يمكن فيها طرح القضية بيسر وسهولة في الحـــوار، نظـــراً لكونها أمراً حتمياً. لكن الأردنيين كانوا يرغبون في المزيد. أوضحوا بجلاء أنهم يحتاجون إلى ما يمكن وصفه بأنه خلاصة "ياسين – زائد". سيتذكر هالفي لاحقـــاً: "أعلن [الملك حسين] أنه سيقبل العرض بإطلاق سراح الشيخ ياسين إضافة إلى آخرين، يتم تحديدهم لاحقاً"[15].

محـــاولاً الـــتخلص مـــن الموقـــف بشكل دبلوماسي، أشار هالفي إلى أنه ليس مسموحاً للأزمة بأن تتفاقم. معترفاً بأن إسرائيل تعي جيداً أنه سيكون عليها أن تدفع ثمـــناً باهظـــاً لحلها، اقترح عقد اجتماع على أعلى مستوى، حثّ أن يكون في تلك اللـــيلة نفـــسها. وافق حسين واستأذن هالفي بالانصراف. عاد بسرعة إلى السفارة،

حيث استطاع الحصول على خطٍّ آمن، ونجح في ليّ ذراع نتنياهو للموافقة على ما يبدو أنها مواجهة عالية المخاطر.

عاد هالفي بعدها إلى القصر، ودارت نقاشاتهم في حلقة مفرغة. الملك حسين، الأمير حسن، البطيخي وصديقهم الإسرائيلي. كانت تلك هي اللحظة التي اختارها هالفي للقيام بمغامرة محسوبة. اشتكى للعاهل من أن البطيخي كان قاسياً بشكل غير معقول في تعامله مع العملاء الستة.

بشكل خاص، استنتج الإسرائيلي أنه ليست هناك فرصة للفوز بإطلاق سراح فوري للعميلين المعتقلين في السجن. لكنه وضع نفسه تحت رحمة الملك، والتمس السماح بإخراج الأربعة الذين كانوا لا يزالون يختبئون في السفارة. بالمحصلة، سُمح للطبيبة بمغادرة البلد بعد تسليم المحقنتين.

كان الملك حسين مغامراً أيضاً. كان يعرف أنه من غير المرجح أن تضع السلطات الأردنية يديها على هؤلاء الأربعة من دون أن تشق طريقها بالقوة إلى داخل مبنى السفارة. كان الملك يعرف أن إسرائيل بلد يدخل حرباً من أجل إنقاذ حياة حفنة من جنوده. لكن كان فشل عملية الموساد هو الذي جعل الإسرائيليين اللذين يقبعان في سجنه يدخلان إلى زنزانتيهما ويرميان المفاتيح بنفسيهما. كان بمقدور جلالته أن يكون كريماً.

كريم أكثر من اللازم، كما فكّر البطيخي. كانت الاستراتيجية التي يفضّلها تقضي بتشديد كل أنواع الضغط على الإسرائيليين. عاد هالفي آنذاك مرة ثالثة إلى السفارة ونظّم مجيء مروحية تابعة لسلاح الجو الإسرائيلي مباشرة لتقلّه والعملاء الأربعة من عمّان. كان مصمماً على مغادرة الأرض قبل أن يحدث أي تغيير في المواقف. أقلعت المروحية من السفارة بعد ثلاثين دقيقة من مغادرة هالفي القصر الملكي في وقت متأخر من بعد ظهيرة يوم الأحد.

بعد إيصال العملاء إلى مقر الموساد، طار هالفي إلى القدس، حيث لم يكن لديه وقت ليلتقط أنفاسه مجدداً قبل أن يجمع أبرز أعضاء الحكومة الإسرائيلية لإطلاعهم على خلاصة ما حدث معه في عمّان. بعد انتهاء شرح هالفي المطوّل، انتقل المجتمعون، مجدداً تحت غطاء من السرية، إلى مهبط المروحيات في الكنيست، مبنى البرلمان الإسرائيلي في القدس. كان طاقم المروحية الذي ينتظرهم مستعداً للإقلاع.

دخــل فــريق مجلس الوزراء الإسرائيلي الأجواء الأردنية بعد منتصف الليل، في الــساعات الأولى مــن يوم الاثنين، 29 أيلول، وتسلل عبر وادي الأردن متجهاً نحو عمّــان. مــع تعتــيم كل الأضواء لمنع تعرُّفهم، كانوا جميعاً متحفّزين[16]. توترت الأعــصاب فيما كانت المروحية الكبيرة ترتفع وتنخفض في الظلام، وكل من عليها ينظــر إلى الخارج بحثاً عن أي علامة ترحيب من السلطات الأردنية. كانوا يعتقدون أنهم سيلقون معاملة سيئة.

ينتظــرون علــى الأرض، استنتج الأردنيون أن زوّارهم المهمين ضلّوا طريقهم. كان قائد المروحية الإسرائيلية قد حصل على إحداثيات للمهبط الملكي في الهاشمية، في الــضواحي الغربية لعمّان. لكن سلطة الطيران المدني الأردنية قالت إن المروحية بعيدة تمامــاً عن مقصدها وهي تطير فوق المفرق، على بعد حوالى ثلاثين ميلاً إلى الشمال الشرقي من نقطة الهبوط المعيّنة.

في عتمة المروحية الداخلية، ازداد قلق إفرايم هالفي فيما كانت كل دقيقة تطول أكثــر لتصل إلى التالية. بوصفه خبيراً في الكثير من الأزمات الأمنية الوطنية، جالت عيــناه في أنحــاء القمرة المكتظة، واستعرض رئيس وزرائه، والوزيرين أرييل شارون، إســحاق مــردخاي، وإلياكيم روبنشتاين، إضافة إلى ضباط عسكريين ومسؤولين حكوميين رفيعي المستوى مما جعله يمتلئ رعباً. كرجل مخابرات تحول إلى دبلوماسي، استطاع هالفي رؤية مأساة تنشأ.

كــان الأمــر منافياً لكل المحاذير الأمنية أن يسافر رئيس الوزراء وحتى أحد وزرائــه على متن المروحية نفسها. بالرغم من ذلك، كانوا جميعاً هناك - تقريباً نــصف أعــضاء مجلــس الوزراء تحت رحمة شفرة دوّارة واحدة، معرّضين لخطر الاصطدام بطائرة أخرى أو الارتطام بخطوط الكهرباء المنخفضة في أثناء تلمّسهم طريقاً للهبوط في الظلام. كانت الاحتمالات مخيفة للغاية - أراد هالفي العودة إلى القدس.

نظــراً إلى أنــه لم يكن يستطيع رفع صوته فوق هدير المحرك، كتب على عجل ملاحظــة على ورقة لرئيس الوزراء، قال فيها: "لنعد أدراجنا". لكن بنيامين نتنياهو كــان قــد قطــع شوطاً طويلاً. كانت إجابته التلويح بيده في الهواء عدّة مرات - "مستحيل! مستحيل!".

أخيراً، حلّقت مروحية أردنية إلى جانب الطائرة الإسرائيلية لتقودها إلى مهبط الهاشمية. على بعد بضع دقائق فقط من هناك، كان المكان الذي تم اختياره لعقد ذلك الاجتماع الاستثنائي مزرعة صغيرة يمتلكها مدير مكتب الملك، علي شكري. نظراً لتأخر الوقت، وموقعها البعيد، ووجود مبنى للحرّاس الملكيين بالقرب منها، كان الملك حسين يعتقد أنها آمنة بما يكفي لمثل ذلك الفريق من الزوّار المهمين جداً. لكن، بالرغم من أن رئيس وزراء إسرائيل كان قد ركب مروحية في الليل لرؤيته، كان الملك حسين لا يزال غاضباً حتى أنه اختار عدم المشاركة في ذلك الاجتماع، مفضلاً توجيه صفعة محسوبة لنتنياهو. بدلاً من ذلك، أرسل ولي العهد الأمير حسن، والبطيخي، وشكري.

عندما وصل الإسرائيليون إلى المزرعة، لم تتم دعوتهم للدخول. لم يتم تقديم شيء لهم ليأكلوه، أو طبق مكسّرات، ولا حتى شراب. ربما كانت تلك هي المرة الوحيدة التي يصل فيها وفد أجنبي كضيف لدى الملك حسين ولا يلقى حسن ضيافة عربية تقليدية. فيما كان يتم اصطحابهم إلى طاولة صغيرة تحت خيمة قماشية تهتز في نسيم أيلول العليل، لم تكن هناك آداب مجاملة على الإطلاق.

كان نتنياهو في موقف دفاعي، لكنه حاول الاعتذار أيضاً. تحمّل المسؤولية الكاملة عمّا كان قد حدث، وقال إنه لا يرغب في أن يؤثر ذلك سلباً على عملية السلام. لكن البطيخي، خاصة، لم يعتبر أن كلمات رئيس الوزراء "اعتذار". ما سمعه كان محاولة من نتنياهو لتقويض العلاقة كلها، في الوقت نفسه الذي حاول فيه تبرير العملية على أنها ردٌّ على هجمات حماس ضمن إسرائيل. عندها حاول ولي العهد إعادة الاجتماع إلى حدود الأعراف الدبلوماسية، قام نتنياهو بمحاولة فاشلة لتهدئة غضب البطيخي العارم. قال لرئيس إدارة المخابرات العامة: "أيها الفريق، أرى أنك تعتبر الأمر شخصياً جداً. رجاءً لا تفعل ذلك؛ هذه الأحداث تقع".

كانت تلك غلطة لأن البطيخي كان بالفعل يعتبر الأمر شخصياً جداً. ربما كانت قناة الاستخبارات التي يديرها هي الأهم في العلاقات بين الحكومتين، حتى في القضايا السياسية، وكان الإسرائيليون يحاولون آنذاك التقليل من شأن رجاله. لطالما كان الفريق البطيخي يوصف بأنه أول رئيس لإدارة المخابرات العامة لم يكن نموذجه

العملياتي متمحوراً حول كراهية إسرائيل؛ وكان مثل الملك يعتقد بشدة بالاتفاقية. كان قد عمل جاهداً لتفعيل رؤية الملك حسين عن السلام والتعاون بين جارين صعبين، بالرغم من انتقاد كل رجل وامرأة تقريباً في الأردن. كان الموساد قد أفسد ذلك كله، وأنتج ظروفاً سيبدو فيها الملك في موقف لا يحسد عليه، أمام شعبه والمنطقة بأسرها.

كان الفريق يعرف أنه يطلق الرصاص نيابة عن ملكه. بغياب الملك حسين، لجأ إلى رد عربي فظ على سخرية نتنياهو عندما قال "هذه الأحداث تقع". أخبره: "سأقول لك لماذا أنا غاضب. هذا العمل يشبه لقاء شخص ما، ومنحه ثقتك، وبناء صداقة جديدة معه، ودعوته إلى المنزل، وفي اللحظة التي تدير فيها ظهرك، ينام مع زوجتك".

كان البطيخي قد احتاط للأمر مقدّماً بالاعتذار لولي العهد حسن عن اللغة البذيئة التي يخطط لاستعمالها، لكنه بالرغم من ذلك شعر بضربة قوية على ركبته تحت الطاولة في تلك اللحظة. كان الأمير حسن يقول: "انتهينا. لقد أوضحت فكرتك".

كانت فكرة البطيخي عن شعور الرجل العربي بالشرف، والثقة، والكرامة بين الأصدقاء، وكما تبيّن، لم تنته بعد. وضع البطيخي آنذاك اسماً على الطاولة كان والملك حسين يريدان معاقبته شخصياً على الفوضى التي تسبب بها الموساد في عمّان. أعلن البطيخي: "داني ياتوم انتهى. التعاون الاستخباراتي انتهى. لن أعمل معه أبداً مجدداً، حتى ولو أقالني الملك حسين!".

حتى قبل محاولة اغتيال خالد مشعل، ربما كان نتنياهو قد توقع رد فعل عنيفاً من الملك حسين إذا تخلى عن حرصه ومنح الأردنيين نصف فرصة. كان ينبغي أن تكون رسالة الملك القلبية المخلصة قبل خمسة شهور، التي يشكو فيها من ازدراء رئيس الوزراء الإسرائيلي لعملية السلام، تحذيراً كافياً. ما كان يؤذي مشاعر الملك حسين ومساعديه بعمق هو أن توقيت أعمال نتنياهو الأكثر سوءاً كان يتزامن مع زيارات لمسؤولين إسرائيليين بارزين إلى عمّان مما يوحي بأن الهاشميين خونة، ويقبلون أفعال إسرائيل الاستفزازية، كان هناك شك في أنها تقوم بذلك بشكل متعمد.

كان أحد تلك الأفعال مضيّ نتنياهو قدماً، قبل اثني عشر شهراً، ببناء نفق مثير للجدل تحت المسجد الأقصى في القدس، مما أشعل أعمال عنف لقي فيها حوالى سبعين شخصاً حتفهم - بعد أربع وعشرين ساعة فقط من استقبال حسين لمبعوث رفيع المستوى من القدس - كان فعل آخر، قال ضباط إنه بقي حاضراً في ذهن البطيخي، تأكيد القائد الإسرائيلي الشخصي للملك حين قبل ستة شهور أنه قد تخلى عن خطط لبناء آلاف المنازل الجديدة المخصصة ليهود على أراضٍ فلسطينية مصادرة معروفة بالعربية بجبل أبو غنيم وبالعبرية بهار حوما. كانت تلك الأخيرة ضمن سلسلة مستوطنات يهودية تطوّق القدس، وهو عمل دفع بالفلسطينيين إلى اليأس. بعد حصول الملك حسين على تلك الضمانة مباشرة، أعطى نتنياهو الضوء الأخضر للجرّافات. كان عليه مواجهة العواقب آنذاك.

وسط كل الغضب في مزرعة شكري، سجّل ولي العهد حسن رسمياً شكوى الأردن بأن الهجوم على مشعل في شوارع عمّان يعد خرقاً للاتفاقية بين البلدين. قال: "يتم تذكيرنا دائماً أن إسرائيل هي الدولة الديمقراطية الوحيدة في المنطقة... ونجد بالرغم من ذلك أن الدولة الديمقراطية الوحيدة في الإقليم متورطة بعمل إرهابي"(17).

عندما وافق المجتمعون بتعبيرات عامة أنه ينبغي التوصل إلى اتفاق أساسي يخرجهم جميعاً من تلك الورطة، خلط حسن والبطيخي أوراق اللعب. كانت المناسبات التي يمتلك بها الأردنيون كل أوراق الآس نادرة للغاية، لكن كانت تلك إحداها. كانت حماس قد بدأت عملية قانونية ضد عميلي الموساد المحتجزين، وطالبت بمحاكمة علنية ستؤثر سلباً للغاية على نتنياهو في إسرائيل. علاوة على ذلك، كان الملك حسين قد اتفق مع الرئيس كلينتون قبل يوم على أن يحاول عقد اتفاق يحقق ميزات كثيرة لعمّان حتى لا يضطر للاستسلام للمطالب المتزايدة في الأردن بإلغاء الاتفاقية. جالت عينا البطيخي على الوفد من القدس الذي يتململ إحراجاً: "ينبغي حماية قيادة الأردن. نحن الضحايا هنا، وأنتم ستدفعون الثمن".

قبلوا جميعاً ضرورة أن يستعيد خالد مشعل صحته بالكامل قبل المضي قدماً في أي محادثات تفصيلية. كانت الساعة حوالى الثالثة بعد منتصف ليل يوم الاثنين عندما عاد الإسرائيليون تحت جنح الظلام إلى بلدهم.

في قصتها لوكالة الصحافة الفرنسية عن عودة مشعل من باب الموت ليلة الأحد، كشفت رندا حبيب أنه تم نقل *الكنديين* المشتبه بهما إلى مكان حجز سري، وليس سجناً عاماً. وأضافت: "فرضت السلطات الأردنية تعتيماً إخبارياً كاملاً على عملها [تحقيقها في قضية مشعل]".

لاحقاً، وبالرغم من الحظر الإعلامي، بثت رندا حبيب تقريراً تذكر فيه أن التحقيق الرسمي الذي طالبت به حماس كان يتحرك بسرعة كبيرة. آنذاك، كان قد تم نقل الملف إلى المحكمة الجنائية العليا. كانت الرسالة الموجهة إلى نتنياهو فظّة، كان لا يزال ممكناً وضع رجليه في قفص الاتهام في عمّان لما سيكون، بالنسبة إلى الوطن العربي، اختباراً علنياً مثيراً لمهمة الموساد الفاشلة.

لكن كان في تقريرها أيضاً أول إشارة إلى أن التحقيق الأردني ربما يفقد زخمه. ذكرت رندا حبيب: "كانت السلطات الأردنية قد حذّرت الدولة العبرية وطلبت من الإسرائيليين تحديد الصيغة (الكيميائية). إذا وافقت إسرائيل، لن يثير الأردن ضجة كبيرة، وسيحل المسألة بشكل حكيم".

عبر النهر في إسرائيل، كانت وسائل الإعلام لا تزال خاضعة لأحكام الرقابة على المطبوعات. لكن سمادار بيري، صحافية بارزة في يومية يديعوت أحرونوت التي تتخذ من تل أبيب مقراً لها، كانت تحاول التملص من الحظر. لاعتقادها أن رندا حبيب هي الصحافية الأفضل في الأردن، أُصيبت بيري بالدهشة من تقارير رندا حبيب لوكالة الصحافة القرنسية، التي كانت تسمعها عبر إذاعة مونتي كارلو. لم تكن تعمل عندما سمعت التقارير أول مرة، وكانت تعتقد أنها غريبة ما عدا حقيقة أنها لحبيب.

كانت *جيروزاليم بوست* قد نقلت خبر الهجوم على مشعل في مقالة على الصفحة الثانية في اليوم التالي لوقوعه. غطّت الصحيفة ادّعاء حماس أنها كانت محاولة اغتيال، وأن السلطات الأردنية تحاول احتواء الموقف، وأن الحكومة الإسرائيلية ترفض التعليق. لكن بعد ذلك، توقفت التغطية عملياً في وسائل الإعلام الإسرائيلية. بتعبيرات الحرب الباردة، كان ذلك يوازي اعتقال فريق من وكالة الاستخبارات المركزية على أيدي البريطانيين، بعد فشل محاولة اغتيال في عزّ الظهر لشخصية سوفياتية بارزة في ساحة الطرف الأغر في لندن، و لم تأتِ *نيويورك تايمز* على ذكر الأمر أبداً.

اتـــصلت بـــيري بمكتبها في تل أبيب، وحثّت محرّراً بارزاً للحصول على تقارير وكالـــة الـــصحافة الفرنسية عن السلوك الغريب لجهاز الاستخبارات الإسرائيلي في عمّان. صرخ المحرّر عبر الخط: "هل أنتِ مجنونة؟".

اســـتمرت بـــيري في متابعة تقارير رندا حبيب. استنتجت أن التفاصيل كانت دقيقة للغاية ولا يمكن أن تكون ملفّقة. مقتنعة أن نتنياهو المثير للجدل في إسرائيل كان يحـــاول إخفاء أزمة وطنية بموجب قانون حظر النشر، عادت بيري إلى المحرِّر نفسه. قالت: "اسمع، لم تبتكر رندا حبيب تلك الأمور!"[18]. لكنه لم يحرّك ساكناً.

لجأت بيري إلى حيلة قديمة للصحافيين الإسرائيليين، واقترحت تجاوز الحظر بنشر مـــا كانت وسائل إعلام أجنبية، مثل وكالة الصحافة الفرنسية، تنقله من عمّان. قال المحرّر لبيري: "لا. رندا حبيب تهذي. من سيصدّق ذلك؟".



15

الثمن الذي دفعه بيبي

كان موسى أبو مرزوق قد عاد إلى القمة. فيما كانت حياة خالد مشعل معلّقة بين الحياة والموت، كان المهندس قد عاد إلى كرسي القيادة، وأدار في خلال الأزمة مكتب حماس السياسي في عمّان. هاجم الإسرائيليين بعنف، محذّراً من أنه إذا كان الهجوم على مشعل بداية حملة إسرائيلية لتوجيه ضربات لأهداف حماس خارج فلسطين التاريخية، فإن حماس ستضرب أيضاً أهدافاً إسرائيلية في كل أنحاء العالم.

لسبب وجيه، هاجم أبو مرزوق ياسر عرفات بقوة ومنظمة التحرير الفلسطينية أيضاً، محذراً من أنهما سيكونان هدفاً لعمليات نوعية جديدة للجناح العسكري لحماس إن لم يتراجع عرفات عمّا يفعله. في الأحداث التي أعقبت العمليات الاستشهادية الأخيرة، كانت قوات الأمن التابعة لعرفات قد اتخذت إجراءات صارمة في كل أنحاء الأراضي المحتلة، احتجزت العشرات من نشطاء حماس، وأغلقت العشرات من مؤسسات الحركة الاجتماعية، بما في ذلك عيادات طبية، وجمعية لتقديم المعونات الغذائية للمحتاجين، ومدارس داخلية للفتيات، ووكالة لتقديم مستلزمات الدراسة، ومحطة تلفزيونية خاصة.

كان أبو مرزوق سعيداً لعودة آلات التصوير والميكروفونات إلى حياته، ورؤية مراسلين يصطفّون عند بابه. كان يجد متعة في ذلك، خاصة مع مراسلين أميركيين يهود، والذين كان بعضهم يحرّفون ألقابهم حتى لا تشكل قضية شائكة عندما يلتقون مسؤولين بارزين من حماس. كان أبو مرزوق يستمتع باللهو معهم، ويطلب منهم توضيح كل مقطع من أسمائهم في أثناء قيامه بفحص بطاقاتهم بدقة. كان بعدها فقط يهوّن عليهم. "آه"، كان يشرع بالقول، ثم يتابع: "كان اسم محاميّ كوهين. هل تعرف أن كوهين هو حاخام اليهود؟".

لكن التسلية توقفت عندما جاء اتصال من سميح البطيخي في وقت مبكر من يوم الأحد. كان مدير المخابرات يريد رؤية أبو مرزوق.

بالــغ مديــر إدارة المخابرات العامة في أخذ وقته. من أجل وضع استراتيجية لتلك المناقــشة مع أبو مرزوق، كان البطيخي قد قرّر أنه لن يثير مباشرة احتمال إطلاق سراح الــشيخ أحمد ياسين. بدلاً من ذلك، ما كان بحاجة إلى معرفته هو الظروف التي يمكن من خلالها لحماس الموافقة على إيقاف تحرّكها القانوني ضد العميلين الإسرائيليين المحتجزين؟

كــان الملك حسين يمعن التفكير آنذاك في إجراء مخالف للقانون لإطلاق سراح رجلــي الموســاد. كانــت حماس، على أي حال، تطالب بأن يلتزم النظام السياسي بالقانــون ومقاضاة السجينين الإسرائيليين، اللذين كانت تعتبرهما إرهابيين. ولأنه غير أردني يعــيش في المملكــة بــرعاية حسين ويعرف جيداً أسلوب البطيخي، كان أبو مرزوق يشعر بأنه على وشك أن يتلقى طلباً بردِّ جميل الملك.

أخــيراً، فــضّ الرجلان الاجتماع للتشاور مع آخرين. عندما استأنفا مفاوضاتهما هاتفياً - أجريا أربع محادثات أو خمس محادثات خلال اليوم - لاحظ أبو مرزوق نبرة أكثر تــشدّداً في صــوت رجل إدارة المخابرات العامة عندما أخذ سقف المطالب يرتفع. كان البطيخي يريد من أبو مرزوق أن يُنجز مقايضة تقليدية، لكن ذلك كان يتطلب من رجل حماس أن يتكلم. بدلاً من ذلك، اختار الإصغاء. كان أبو مرزوق بحاجة إلى حماية موقعه، مفضّلاً أن يضع البطيخي اقتراحات محددة على الطاولة، والتي قد تقبلها حماس أو ترفضها.

كان رئيس إدارة المخابرات العامة يعرف أن حماس تعارض تماماً اتفاقية الملك مع إســرائيل وكامل عملية السلام المتعثرة. كانت المخاطرة بأن يجد أبو مرزوق إغراء في زيــادة الــرهان. باختــياره عدم التعاون مع النظام، واستعمال الهجوم على مشعل كأرضية لإشعال غضب معادٍ للنظام، كانت حماس تستطيع إرغام ملك الأردن على ضرب عصفورين نيابة عن الحركة بحجر واحد. إذا قامت حماس والإخوان المسلمون بتنظــيم احتجاجات شعبية كافية، ربما يكون حسين القلق ملزماً بإلغاء الاتفاقية مع إســرائيل، وهو ما سيكون بالمقابل انتكاسة مؤسفة لعملية سلام الشرق الأوسط التي يــرعاها كلينتون. كانت تلك قوة سيسعى أبو مرزوق للاستفادة منها، إلا بالطبع إذا قدّم النظام عرضاً لا يمكن لحماس أن ترفضه.

بعــد فشله في الحصول على عرض من أبو مرزوق، كان البطيخي مرغماً على لعب ورقة ياسين. كان الشيخ أحمد ياسين، الذي يكنّ له أبو مرزوق احتراماً خاصاً أكثر من أي شخص آخر، يقبع في سجن إسرائيلي منذ ثمانية أعوام.

سأل البطيخي بصوت خالٍ من أي تعبير: "ماذا إن تم إرغام نتنياهو على إطلاق سراح ياسين؟". اتسعت عيناه دهشة، ورد أبو مرزوق: "لن يوافق اليهود أبداً". قال ذلك وهو يعي تماماً أن الجواب الوحيد لمطلب إطلاق سراح ياسين بعد كل عملية استشهادية لحماس كان التشدد من قبل الإسرائيليين ضد قائدهم.

في تلك المرحلة، ربما كان مفيداً لو أن البطيخي كان يثق بأبو مرزوق بما فيه الكفاية ليخبره بالقصة الكاملة للترياق الإسرائيلي. كان القيام بذلك سيؤدي إلى تعمّق أبو مرزوق في التعقيدات الأوسع للأزمة، لكن كما كان البطيخي يرى الأمر، لم يكن ممكناً المجازفة بذلك. إذا باءت محاولته لإقناع أبو مرزوق بالفشل، يمكن أن تستغل حماس أي إشارة إلى مثل تلك الصفقة التي عقدها الأردن مع إسرائيل والولايات المتحدة لتُحرج النظام.

بدلاً من ذلك، أصرّ البطيخي على قضية إطلاق سراح السجين، محاولاً تهدئة الفورة: "وبعض السجناء الآخرين؛ إطلاق سراح ياسين وسجناء آخرين من حماس؟".

تساءل أبو مرزوق إن كان البطيخي قد فقد صوابه. لكن مدير إدارة المخابرات العامة، الذي كان يعرف أن مثل ذلك الاتفاق يحتاج إلى مباركة حماس قبل إطلاق سراح ياسين، أكّد له أنه جادٌ تماماً في ما يقوله.

براغماتي دائماً، حمل أبو مرزوق العرض عائداً به إلى زملائه، الذين قرروا بين بعضهم اختبار صبر البطيخي بطلب المزيد. بدأ البعض يتخيل إرغام إسرائيل على إطلاق سراح الآلاف من سجناء حماس.

في تبادل سابق للأسرى، تم إطلاق سراح مئات من السجناء الفلسطينيين مقابل بعض الإسرائيليين الذين كانت تحتجزهم القوات الفلسطينية. قرر رجال حماس آنذاك أن يضغطوا على الملك حسين للمضي قدماً بالمحاكمة الجنائية لعميلي الموساد إن لم تكن إسرائيل مستعدة لإطلاق سراح مئات السجناء الفلسطينيين.

كان أبو مرزوق قد مضى بعيداً جداً. سرعان ما دفعه البطيخي إلى الخلف، مذكّراً أن الملك حسين، في محاولة للحفاظ على شرفه وعرشه، كان أكثر اهتماماً بمصيره من أي ميزة قد تجنيها حماس من تلك الأزمة. قدّم البطيخي آنذاك بعض الحقائق المرّة – سيتم إطلاق سراح العشرات، وليس المئات؛ وينبغي لفريق حماس القانوني أن يغلق ملفاته – لن تكون هناك محاكمة علنية لرجلي الموساد في عمّان.

أخـــيراً، وافق أبو مرزوق مدركاً تماماً أن إطلاق سراح ياسين سيكون مكافأة رائعة لا يمكن تخيلها. لم يكن يعرف، لكن موافقة حماس على بنود الملك أتمّت الصفقة مـــع الإســـرائيليين، تماماً كما كان الملك حسين قد توقع. لم يكن الرأي الشعبـــي الأردني والإقليمي لينقلب ضد العاهل إذا كان الإسلاميون راضين.

آنـــذاك، فيما كان الملك حسين والبطيخي يضعان اللمسات الأخيرة على قائمة المطالـــب التي سيقدّماها للإسرائيليين، قرر الملك أنه سيكون بحاجة إلى بضع عشرات مـــن سجناء فتح لضمان سكوت عرفات أيضاً. وفي سياق الأمر، ينبغي أن يصرّ على إطـــلاق ســـراح كل الأردنيين من السجون الإسرائيلية. كان هناك شيء للجميع في ذلك الاتفاق.

بعـــد الاجتماع في مزرعة شكري، كان نتنياهو بأمسّ الحاجة إلى تأمين إطلاق ســـراح عميلي الموساد وتخفيف الضغط الآتي من واشنطن، وأوتاوا، وعمّان. بالرغم من ذلك، وبشكل غريب تماماً، قدّم الإسرائيليون بعد عودهم إلى عمّان مرة أخرى، في وقت متأخر من ليل الاثنين لعقد اجتماع آخر، قدّموا شيئاً جديداً بالكامل. كان إفـــرايم هالفي قد عاد إلى بروكسل، وامتنع كل الوزراء الذين قاموا بزيارة عمّان بعد منتصف ليل الأحد، عدا واحد منهم، عن المشاركة في الفصل الأردني لتلك القصة.

كـــان الاستثناء هو أرييل شارون، عضو المؤسسة الإسرائيلية الأكثر كرهاً لدى الفلسطينيين. باعتباره وزيراً للدفاع حينها، كان شارون قد شنّ غزواً في العام 1982 علـــى لبنان لتحقيق هدف معلن هو تدمير منظمة التحرير الفلسطينية. كانت خطته المتهورة في ذلك الوقت تقضي بترحيل الفلسطينيين في لبنان والضفة الغربية إلى الأردن بأعـــداد كـــبيرة لقلـــب النظام الهاشمي. كان ذلك سيؤدي إلى إنشاء دولة فلسطينية جديـــدة، التي اعتقد شارون الأحمق أنها ستحل كل مشكلات إسرائيل. كان مستعداً حتى لمساعدة الفلسطينيين على خلع الملك حسين.

لم يكن شارون صديقاً لعمّان لكن من الواضح أنه كان قد رأى شيئاً لا يحبه بعـــد توقيع الملك حسين ورئيس الوزراء إسحاق رابين اتفاقية السلام. عند تقديم المعاهدة للتصديق عليها في الكنيست، رفض شارون التصويت عليها، لكن لاحقاً، وبعـــد مـــراقبة شعبيته بين الإسرائيليين، أعاد تقديم نفسه كأفضل صديق جديد لعمّان في المنطقة[1].

وافــق نتنــياهو آنذاك، المحرج والذي يواجه شارون في لعبة قوة داخلية، على إرســال رجل الليكود القوي إلى الأردن لإجراء حوار مع القصر. إذا حقق شارون نجاحــاً في ذلــك، سيستفيد الجميع؛ وإذا فشل، يمكن إلقاء اللوم عليه. كانت تلك مكــيدة سياســية تقليدية من نتنياهو الذي كان يواجه مأزقاً. لم يتردد شارون، من جانبه، بانتهاز فرصة لسرقة الأضواء.

كان يرافق شارون في رحلته إلى الأردن صبيحة يوم الاثنين، بعد خمسة أيام من الهجوم على خالد مشعل، مساعده الماكر مجالي وهبــي. كان إسرائيلياً – عربياً، أحد أفراد طائفة الدروز في شمالي إسرائيل، وأحد القنوات الخلفية بين عمّان والقدس. كان وهبــي قد مُنع من الوصول إلى السفارة الإسرائيلية نتيجة الطوق الذي فرضه الجيش الأردني حــول المــبنى في يوم محاولة اغتيال خالد مشعل، لدى عودته إلى هناك بعد اجــتماع مع الملك نفسه. عندما طلب نتنياهو لاحقاً الاتصال بالملك حسين الساعة الثانية بعد منتصف الليل، كان وهبــي حاضر البديهة ليطلب رقماً غير صحيح، بدلاً من إزعاج الملك.

للاجــتماع بشارون ليلة الاثنين، اختار الملك حسين مكاناً مناسباً أكثر من مزرعة شــكري – قصر صغير في المجمّع الملكي في قلب عمّان، والذي كان يُستخدم لاستقبال ضــيوف ولي العهــد – كان الأمير حسن والفريق البطيخي ينتظران للترحيب بشارون ووهبــي عندما وصلا. مجدداً، كان الليل قد انتصف تقريباً عندما بدأ الاجتماع.

حالمــا دخل الملك حسين، جلس الوفدان الأردني والإسرائيلي في حجرة داخل القــصر، وتــبادلا حديــثاً قصيراً لمدة ثلاثين دقيقة. كان البطيخي منفعلاً، وقد جاء شارون مستعداً أيضاً للشجار. أخيراً، غادر شارون على متن طائرة. الخطأ الوحيد من جانب الإسرائيليين، كما ادّعى، كان فشل عميلي الموساد، وليس اختيارهما للهدف، أو الموقع. أعلن مستفزّاً البطيخي: "لو أنهما فعلا ذلك كما ينبغي، لكان مشعل ميتاً، وانتهى الأمر على ما يرام بالنسبة إلى الجميع".

لم يقــع البطيخــي في الفــخ. جال بعينيه، وطلب أن يعرف إن كان شارون، بحضور ملك الأردن، ينوي الاستمرار بكلامه غير المهذب كما كان قد بدأ.

منتبهاً إلى ملاحظته، طلب وهبــي من رئيسه الذي يتكلم العبرية استعمال لغة أكثر توفيقاً – كلمات مثل *آسف، اعتذار، وخطأ*[2] – لكن ملك الأردن استمع إلى

تلك العروض الكلامية، غمسها بالملح، وأعادها مباشرة. وبّخ ثور المؤسسة الإسرائيلية الهائج قائلاً: "كيف تعتذر بعد مثل تلك الغلطة؟ هذا الخطأ المروّع يهدد عملية السلام برمّتها".

في تلـــك المناسبة، كانت هناك بعض مظاهر الضيافة العربية، وتم تقديم الطعام للـــضيوف مـــن إسرائيل. فيما كانوا يتناولون الطعام، حاول وهبـــي دفع الاجتماع باتجاه مختلف. رفض شارون الاقتراح الذي همس به وهبـــي بأن يأخذ زمام المبادرة، لهـــذا قـــام وهبـــي بذلك بدلاً منه، أمتع وهبـــي الأردنيين بحكاية مسلّية عن زوجة شـــارون التي كانت قد اتصلت أخيراً من المزرعة، وأصرّت على تحويل مكالمتها إلى جلسة رسمية لمجلس الوزراء الإسرائيلي لتنقل لزوجها نبأ ولادة عجل بشكل ناجح.

بـــدا أن مناورة وهبـــي قد نجحت. أثار شارون اهتمام الملك بنظريته عن تقديم ماء شـــرب مثلج إلى أغنامه في محاولة لتحسين حليبها. بالمقابل، جحظت عينا شارون عندما شـــرح الملك حسين بعض الجوانب الأكثر تعقيداً لتربية الخيول. لكن الأمر كان يتطلب أكثـــر من مجرد حديث عن تربية الحيوانات لخداع الملك حسين. عندما اعتقد شارون أنه نجح في تحديد مصير العميلين، أشار الملك حسين بالكاد إلى البطيخي بنظرة ذات مغزى.

كـــان شارون نافد الصبر بشكل ملحوظ عندما كان البطيخي يشرح مطولاً حاجة الأردن إلى الخـــروج من الأزمة من دون آثار تذكر. عندما وضّح البطيخي مطالب عمّان المحـــددة، ظهر الارتباك على شارون. أولاً، تحول لون وجهه إلى الأحمر، ثم بعد ذكر اسم ياسين، استحال إلى أبيض. بالرغم من النقاش الأوّلي مع الإسرائيليين قبل يوم عن الحاجة إلى إطـــلاق سراح ياسين، بدا أن شارون قد أُصيب بالدهشة. كان هناك انطباع بأن لا فكـــرة لديه عن النقاش الذي دار مع رئيس وزرائه. انفجر قائلاً: "مستحيل! أيها الفريق، أنت تطلب المستحيل. لا يمكن حتى لرئيس وزراء إسرائيل فعل ذلك".

شدّد البطيخي، صوت سيده، الضغط وأوضح أن الأردن لا يقترح نفي ياسين إلى الأردن. قـــال وهـــو يرمـــي ورقته الرابحة: "سيعود إلى غزة. وسيكون للسجناء الآخرين الحق بالعودة إلى منازلهم وقراهم في غزة والضفة الغربية".

مـــرتبكاً، قال شارون إنه جاء إلى الأردن فقط للإصغاء إلى ما يقولونه. ادّعى أنه لا يرى علاقة محتملة بين هجوم الموساد على مشعل وإطلاق سراح الشيخ أحمد ياسين. لكن على أي حال، لم يكن مخوّلاً بتقديم تنازلات. كان عليه أن يعود إلى نتنياهو.

كانت الساعة حوالى الرابعة بعد منتصف الليل عندما غادر شارون مع وهبي، وقام بإسداء نصيحة إلى البطيخي بأن يكون أكثر واقعية. قال له: "لن يقبل نتنياهو. لهذا سيكون عليكم إعادة التفكير في الأمر".

دفع البطيخي بقائمة المطالب الأردنية إلى وهبي، وذهب إلى المنزل لينال قسطاً من الراحة. قرابة الساعة السادسة صباحاً، أيقظه رنين هاتف بجانب سريره. كان على الخط عامل مقسم إدارة المخابرات العامة، يطلب الإذن بتحويل مكالمة من القدس. جاء صوت أرييل شارون ثقيلاً عبر الخط: "أيها الفريق، لقد أبرمت اتفاقاً".

لم يترك البطيخي شيئاً للمصادفة. كان أبو مرزوق متفقاً معه والحكومة الإسرائيلية مستعدة لقبول مطالب الملك. كان البطيخي يستطيع أخيراً الانتقال إلى المرحلة التالية من استراتيجية الملك للتأكد من حسن تنفيذ نتنياهو للاتفاق، رحلة سريعة إلى واشنطن مع ولي العهد الأمير حسن لرؤية الرئيس بيل كلينتون، لضمان أن الولايات المتحدة تعرف بوضوح كل حقائق تلك الأزمة.

في خلال غيابه، مشّط رجال البطيخي المدينة في بحث متواصل عن كل مظاهر نشاطات *الكنديين* في عمّان. كانت عيونهم في كل مكان. وجدت رانيا قدري نفسها تحت الضوء مجدداً عندما اصطحبت بارتون غيلمان من *واشنطن بوست* إلى شارع الحدائق، في محاولة لإعادة بناء الأحداث في مسرح الجريمة. قادهما البحث عن شهود عيان إلى متجر أقمشة قريب. بعد دقائق قليلة، عادا إلى الشارع، يخططان لخطوتهما التالية، ولاحظت قدري عندها رجلين يدخلان المتجر. "مخابرات!"، هتفت قبل أن تسرع عائدة إلى المتجر لتجد الرجلين، مع دفتري ملاحظات مفتوحين، يسجلان تفاصيل بطاقتي العمل اللتين كانت والمراسل الأميركي قد تركاهما مع التاجر.

في مكتب وكالة الصحافة الفرنسية، بقيت رندا حبيب مستيقظة طيلة ليل الخميس. كانت كل كلمة علنية للملك آنذاك تعد إما رصاصة أو درعاً. كان حدس رندا قد أخبرها أن تطوراً مثيراً على وشك أن يقع عندما بدا أن حسين سيخرج عن خطابه في الزرقاء ليتطرق إلى قضية السجناء الذين تحتجزهم إسرائيل. كانت تلك هي الطريقة التي تجري بها الأمور في ذلك الجزء من العالم؛ إشارات علنية من قبل الملك تشكل مؤشراً للأخبار التي يتداولها المسؤولون خلف أبواب موصدة.

كانـــت هناك مساومة بشأن السجناء الذين يمكن إطلاق سراحهم. كان الأردنيون مـــتهكمين عـــندما اعترضـــت إسرائيل على بعض الأسماء التي قدّموها. عندما اعترض وهبـــــي، مجـــادلاً أن الـــبعض لديه "دم على يديه"، سخر منه سعيد خير أحد رجال البطيخـــي الـــبارزين. اقترح خير أنه إذا كان الأمر كذلك، ربما ينبغي لإسرائيل أن تحدد أسماء "أشخاص محترمين، طيبين في السجون الإسرائيلية" يجب إطلاق سراحهم.

أخـــيراً، تم الاتفاق على حوالى سبعين اسماً. كان العديد من الأردنيين يقضون أحكامـــاً بالسجن عشرين عاماً أو أكثر. حاول مسؤولون إسرائيليون تغيير اللائحة، قـــائلين إن الـــبعض كان معتقلاً *قبل* تنفيذ أعمال عنف ضد إسرائيل ولهذا لن يكون هـــناك قلـــق كـــبير أو إحراج لإسرائيل في رؤيتهم يخرجون أحراراً. لكن الأردنيين أوضحوا بجلاء أن معظم هؤلاء هم "قادة بارزون من حماس".

أصـــبح الملـــك حسين آنذاك واثقاً تماماً من نجاته من تلك الأزمة. علناً، استمر بالـــضغط علـــى بنيامين نتنياهو؛ بالرغم من ذلك، سمح في الوقت نفسه بالقليل من الأخذ - و - العطاء. آنذاك، كان يصرّ على أن توقيت إطلاق سراح عميلي الموساد ســـيتم لاحقاً. رفض جلالته أيضاً التماساً صريحاً من إسرائيل بمنع أوتاوا من الحصول على جوازي السفر الكنديين اللذين تمت مصادرتهما من العميلين.

بعـــد وضع الصفقة موضع التطبيق، بدأ الملك حسين تجهيز الأرضية لإنهاء قضية حمـــاس ضـــد العميلين الإسرائيليين، والتي كانت تعقيداً لا يرغب فيه. أعلن الملك، لدهـــشة رنـــدا حبيب، التي كانت معلوماتها عبر مصادرها الخاصة تشير إلى العكس تماماً: "ليس لدينا سلاح تم استعماله ضد خالد مشعل، ومن شهادات مرافقي مشعل، فشل المعتديان في إصابته مباشرة".

كـــان الملك حسين قد كشف بجملة واحدة البراغماتية التي تميّز العلاقة الصعبة، لكـــن الـــضرورية له، مع جيرانه الإسرائيليين. كان الكشف عن السلاح - وكل ما ســـينجم عـــن ذلك بشأن ابتعاد إسرائيل عن القضاء على أعدائها باستعمال رصاص وقـــنابل تقليدية - مشكلة لا يحتاج إليها بنيامين نتنياهو. في هذه المسألة، كان الملك حسين سيتكرّم عليه.

عـــندما غادروا عمّان في وقت متأخر من يوم الخميس، كان هناك بعض اللغط بشأن قضية مهمة تتناول معايير الهندام الملكية بين أفراد وفد الملك إلى واشنطن والذين

تم انتقاؤهم بعناية. كانت مغادرة أي من أفراد العائلة المالكة إلى الخارج تتطلب تنظيم وداع رسمـــي علـــى مدرج المطار من قبل أعضاء العائلة ومسؤولين آخرين. ظهرت المشكلة مع وصول مدير محطة وكالة الاستخبارات المركزية، ديف مانرز، الذي كان، نـــزولاً عند رغبة الملك حسين، سيرافق ولي العهد الامير حسن والفريق البطيخي في زيارتهمـــا إلى الولايات المتحدة. عندما اختلط الأميركي بأفراد الحشد الذين يرتدون بذلات رسمية مرتدياً سروال جينـــز قطنياً وقميص بولو، غضب بعض أفراد الحاشية من ذلك الخرق للمراسم. مشى علي شكري بسرعة، ودفع مانرز بسرعة على السلم الخلفي للطائرة، مع تعليمات بأن يتوارى عن الأنظار حتى يصبحوا في الجو.

كان الأردنيون مصممين على إسماع ما لديهم للرئيس بيل كلينتون. كان الملك حسين يعرف أنه يحشر رئيس وزراء إسرائيل في الزاوية ما دام يحتجز سجينيه المهمين، ثنائي الموساد. لكن أي ثقة بنتنياهو كانت قد تحطمت، ولم يكن الملك حسين ليترك شـــيئاً للمصادفة. كان يرغب في أن يتم إطلاع كلينتون شخصياً على التفاصيل حتى يـــستطيع الـــرئيس الأميركي، في حال ظهور أي مشكلة قد تطرأ في اللحظة الأخيرة علـــى مفاوضـــات عمّان مع الإسرائيليين، اتخاذ قرارات بناءً على معلومات مسبقة. كانـــت رغبة الملك حسين، في تلك المرحلة من الأزمة، أن يوضّح أقرب مساعديه – شـــقيقه الأمـــير حسن والبطيخي – مدى حاجته إلى دعم كامل من واشنطن. كان الملك حسين يفهم أيضاً القواعد الدبلوماسية للقاء شخصي مع الرئيس.

كان الأميركيون يفهمون ذلك أيضاً. كان هناك تلهف كبير في واشنطن عندما حطّـــت غلف – ستريم 4 على مدرج قاعدة أندروز الجوية، خارج بيلتوي، صبيحة يوم الأربعاء، وكان مدير وكالة الاستخبارات الأميركية جورج تينيت في استقبالهم. شق البطيخي ومانرز طريقهما لوحدهما إلى مقر قيادة وكالة الاستخبارات في لانغلي في حـــين قـــاد تينـــيت الـــسيارة بولي العهد إلى فندق ماديسون الأنيق، قبالة جادة ماساشوستس، قرب دوّار دو – بوت.

عقـــد البطيخي لاحقاً اجتماعاً عاجلاً مع تينيت في مقر وكالة الاستخبارات، وخـــصّص نصف ساعة لنظيره الكندي، الذي كان قد جاء بالطائرة من أوتاوا على أمـــل الحـــصول على مزيد من المعلومات من البطيخي المتكتّم بشأن سوء استعمال إسرائيل لجوازي سفر كنديين. لكن السبب الحقيقي لتلك الزيارة كانت قضاء ثلاثين

دقيقة حاسمة في المكتب البيضاوي كان موظفو الرئيس قد وضعوها على جدول أعمال الرئيس لأمسية يوم الأربعاء، 1 تشرين الأول.

استُقبل الأمير حسن والفريق البطيخي في البيت الأبيض من قبل الرئيس ومستشار الأمن القومي ساندي بيرغر، وزيرة الخارجية مادلين أولبرايت، والرجل الذي كان قد تلقى أول اتصال من الملك حسين إلى البيت الأبيض، بروس ريدل، مستشار كلينتون الخاص لشؤون الشرق الأدنى. كانت محتويات الحقيبة اللامعة التي بقيت بحوزة ولي العهد في خلال زيارته، سراً لا يمكن الإعلان عنه. وفقاً لعدّة روايات، كانت تحتوي *دليلاً* ضد الإسرائيليين، بينها شهادتا عميلي الموساد في خلال استجوابهما في عمّان. كانت هناك إشارات غامضة لتسجيل فيديو عن اعترافات الإسرائيليين. لكن كل الأسئلة اللاحقة عن محتويات الحقيبة وعن الأيدي التي انتهت إليها، لقيت صمتاً مطبقاً.

استمع الأميركيون بذهول عندما أوضح لهم الأمير حسن أولاً ثم البطيخي نتائج تحقيق إدارة المخابرات العامة حتى ذلك الوقت. وعد الرئيس بدعم الملك حسين، وعرض إلزام نتنياهو ببنود أي اتفاق قد يتم التوصل إليه. أخيراً؛ تعهد كلينتون أيضاً بالاستمرار في الضغط على نتنياهو لتعديل سلوكه، على أمل استئناف محادثات السلام المتعثرة بين السلطة الفلسطينية بقيادة عرفات وحكومة إسرائيل، والتي كانت نتيجتها حيوية للأردن. تكلموا جميعاً باحترام عن الملك حسين الغائب.

لم يكن الأمير حسن، الشقيق الأصغر للملك، أميراً عربياً من الطراز المعتاد. كان قد وصل إلى البيت الأبيض مرتدياً بذلة عمل محافظة تقليدية مع ربطة عنق معقودة بأناقة. كان معروفاً عنه أنه رجل مثقف، لكنه يتمتع بقدرة على شد مستمعيه بين بداية ونهاية جملة واحدة. كان خريج كريست تشرش، أوكسفورد، وشغل نفسه بالتعليم والعلوم. في الدين، كان عالمياً. كان الأمير حسن يستطيع التكلم إلى العرب واليهود، إلى الإنكليز، والفرنسيين، والألمان، وإلى الأتراك بلغاهم الأصلية. لكن اللغة الأقوى في اجتماعه داخل البيت البيضاوي كانت رمزية.

بالرغم من أنه لم يكن موجوداً، إلا أن الاجتماع كان لحظة استثنائية في حياة خالد مشعل. هناك في البيت الأبيض، مركز القوة العالمية من دون منازع منذ نهاية الحرب الباردة، كان رئيس الولايات المتحدة يستقبل أحد أكثر الأمراء تهذيباً في

الوطن العربي ليضمن، ليس موت الرجل الذي تتهمه إسرائيل بإرسال الاستشهاديين، وإنما بقاءه على قيد الحياة، على أمل أن تتحسن صحته. كان الأمير قد قطع نصف العالم لعقد اجتماع مع الرئيس شكّل نقطة تحوّل لمشعل بقدر ما كان لحماس. حتى ذلك الوقت، كان الرجل والحركة خارج نادي الشرق الأوسط، الذي كان أعضاؤه منخرطين في عملية شد - و - جذب في أوسلو. لكن مشعل وحركته أصبحا لاعبين أساسيين آنذاك.

بالنسبة إلى بنيامين نتنياهو، الغائب أيضاً، كان الاجتماع ينطوي على كثير من المشكلات. كان ريدل، أحد الذين حضروا الاجتماع، قد خرج منه محتاراً تماماً مما وصفه لاحقاً بأنه غباء رئيس الوزراء الإسرائيلي. قال لزملائه: "كان مستعداً لتعريض أفضل صديق لإسرائيل في المنطقة وأميركا للخطر. إضافة إلى كل ما كان قد فعله، كان ذلك شيئاً خطيراً، خرج عن السيطرة... كثير من الكلام، قليل من التفكير".

في الجو، في خلال رحلتي الذهاب والإياب من واشنطن، شهدت حالة سميح البطيخي النفسية تبدلات كبيرة. في لحظة، كان متفائلاً، يرغب في الاحتفال برد فعل كلينتون وإدارة الملك حسين الرائعة للأزمة. وفي لحظة أخرى، كان يصبح متشائماً، ويحذّر من أن مدير الموساد داني ياتوم سيدفع شخصياً ثمن عمل نتنياهو *الإجرامي*. أعلن أن كل التعاون الأمني بين البلدين قد توقف واستمتع بسرد كيف أمر بإغلاق محطة الموساد في عمّان. قال جازماً: "لا يمكنني التعامل مع مخادع. هل تعرفون الأشياء التي فعلتها لذلك الرجل؟ ويفعل ذلك بي؟ إنها خيانة. لا يمكنني التعامل معه! إذا أرادوا قتل مشعل، كان ينبغي أن يخبرونا بذلك".

ربما كان ذلك يشرح السبب الذي جعل محترفاً متمرّساً مثل البطيخي يعتبر الأمر شخصياً جداً. كما أن ذلك ترك ديف مانرز، في أثناء الطيران فوق الأطلسي، يتساءل إن كانت لدى زميله الأردني معلومات سرية عن مكيدة الموساد ضد خالد مشعل. ربما كانت لديه، لكنه كان قد افترض - أو ربما دُفع للاعتقاد - أن الإسرائيليين لن يحاولوا اغتياله في الأردن. كان البطيخي قد تذمّر سابقاً من نخيب الإسرائيليين بشأن قائد حماس. كان يقول آنذاك: "أقول لكم، إذا استطعت إثبات أن خالد مشعل متورط في العمليات، سأرمي به في السجن مباشرة".

كان مانرز يفهم تماماً عمق وتفاصيل علاقة إدارة المخابرات العامة مع الموساد، وقــد أشــفق على البطيخي لشعوره الشخصي بالخيانة. قال مواسياً صديقه الحزين: "وقاموا بذلك الفعل الشنيع في ساحة منــزلك".

تابــع البطيخــي قائلاً: "ماذا تفهم من ذلك عنهم وعن احترامهم لنا؟". كان واضحاً أن رئيس إدارة المخابرات العامة بحاجة إلى بعض الوقت ليسترد توازنه، لكن لم يكن ممكناً الانغماس في الإشفاق على النفس في تلك المرحلة.

كانوا بعيدين من عمّان منذ ثلاثين ساعة، قضوا معظمها بين الغيوم في غلف – ســتريم الملك. بعد التوقف في شانون، أيرلندا، لإعادة التزوّد بالوقود والمتابعة مباشرة إلى واشــنطن، لم تلمس أقدامهم الأرض سوى لفترة وجيزة قبل أن ترتفع الدواليب مجدداً ويغادروا على متن الطائرة عائدين إلى الوطن.

عــندما كان الأمير حسن والبطيخي في الولايات المتحدة، كانت الوقائع على الأرض في الأردن تنكشف بسرعة.

كان موسى أبو مرزوق قد ذهب إلى المستشفى بعد ظهيرة يوم الثلاثاء لينقل إلى خالــد مشعل الواعي آنذاك نتائج اجتماعاته مع سميح البطيخي بشأن إمكانية إطلاق ســراح الشيخ ياسين. ليل الثلاثاء، كان الملك قد مهّد للموضوع بإشارته إلى إطلاق سراح السجناء في خلال خطابه في الزرقاء. كانت تلك الأنباء قد لفتت انتباه كل من المراسلة رندا حبيب وخالد مشعل.

قــرّرت رندا حبيب البقاء في مكتبها لإجراء اتصالات هاتفية في الليل، وهكذا اســتطاعت تقديم تقرير إلى وكالة الصحافة الفرنسية حوالى منتصف الليل عن الإثارة الــتي كانــت ستنكشف في الساعات التالية. تعزّز إحساس مشعل الداخلي أن شيئاً يجري على قدمٍ وساق عندما أخبره كادر المستشفى أن يكون مستعداً لاستقبال زائر مهم، والذي سيصل بعد منتصف الليل.

قبل دقائق من الساعة الرابعة بعد منتصف ليل يوم الأربعاء، لم يكن كثيرون قد لاحظــوا آلــة الإعلام العسكرية في إسرائيل تضج بالحياة، لبضع دقائق فقط كانت كافــية لإصــدار بيان موجز في منتصف الليل: بسبب تدهور حالته الصحية، سيتم إطــلاق ســراح الــشيخ أحمد ياسين. في الوقت نفسه تقريباً، مستلقياً في سريره في مستشفى عمّان، أدرك خالد مشعل أن ملك الأردن يقف إلى جانبه.

لم يبق الملك طويلاً. سأل عن صحة مشعل والرعاية التي يتلقاها، لكن بدا أنه كان يزور المستشفى في تلك الساعة المتأخرة من أجل أعمال أخرى. بعد دقائق من مغادرة الملك لغرفته، سمع مشعل صوتاً بعيداً لمروحية تقترب. ارتفع الصوت كثيراً عندما اقتربت الطائرة لتهبط في أرض المستشفى. دفع مشعل نفسه إلى إحدى النوافذ.

في ضوء الغسق الخافت، كان الملك بنفسه يقف بثبات على حافة مهبط المستشفى فيما كانت الطائرة تقترب من الغرب، وقام قائدها الأردني بإنزالها في موقع يمكن فيه فتح باب القمرة ليواجه الملك. أسرع المساعدون الطبيون لإخراج نقّالة. كانت بطانية بنية مقلّمة تغطي جسد المريض الذي يشبه خيالاً. لكن أي مراقب فلسطيني، من بؤس الضفة الغربية إلى الصف أمام متجر لبيع الحلوى في شيكاغو، كان سيعرف منذ اللحظة التي يرى فيها إخراج كرسي مدولب من الطائرة أن الشيخ أحمد ياسين أصبح حراً.

كان ذلك هو الثمن الباهظ الذي تم إرغام إسرائيل على دفعه لقاء الخطأ الذي ارتكبه بنيامين نتنياهو عندما ظن أنه يستطيع تنفيذ عملية اغتيال في شوارع عمّان صبيحة يوم خميس في أيلول.

في واشنطن، قام البعض بفرك يديه يائساً عند إطلاق سراح ياسين. أعلن دينيس روس الكئيب أنها كانت "فكرة لم تعجبنا أبداً". لكنه وافق على تحليل بروس ريدل، الذي وصف ياسين بأنه "الرجل الذي نسّق العمليات الاستشهادية التي أدّت إلى انتخاب نتنياهو؛ وقدّر ريدل محقاً أن إطلاق سراح ياسين الوشيك سيكون بمنزلة "ديناميت سياسي" على كلا طرفي نهر الأردن. على أي حال، حذّر بأنه في حال رفض نتنياهو القيام بذلك، سيكون مصير اتفاقية إسرائيل - الأردن في مهب الريح. قال: "بالتأكيد كارثة، قد تكون قاتلة".

لم يكونا قد التقيا وجهاً لوجه من قبل. بالرغم من ذلك، كانا آنذاك - ياسين القائد الروحي ومشعل العقل الاستراتيجي خلف حركة حماس وأسلمة القضية الفلسطينية - في المستشفى نفسه، ليسا بعيدين كثيراً من بعضهما بعضاً. طيلة عقود، كانا قد عملا معاً بالتوازي - أحدهما *في الداخل* والآخر *في الخارج* - لاستعمال لغة خاصة يميّز بها الفلسطينيون الأراضي المحتلة عن باقي العالم.

طلب مشعل أن يتم اصطحابه فوراً إلى ياسين. رفض الممرضون ذلك، وجادلوا بأن مشعل لم يكن قد تعافى تماماً. تم استدعاء أطباء أيدوا رأي الممرضين، لكن مشعل لم يلــق بالاً لهم. بعد حوالى ساعة، تم وضعه على كرسي مدولب ودفعه على طول رواق إلى المبنى المجاور، حيث كان ياسين موجوداً.

بالرغم من طبيعة ذلك اللقاء، وكل ما كان يعنيه لولادة حماس من جديد، كان مــشعل صارماً بشكل غريب. وصف لاحقاً لغرباء ذلك الاجتماع، الذي ربما كان متوقعاً أن يكون عاطفياً، وحتى انفعالياً، وقال: "كانت مناسبة سعيدة، خاصة عندما تفكّــر في شــخص يكون، بالرغم من إعاقته، قد قاوم كل الضغوط والسجن لقيادة الحــركة في أوقات صعبة. كان شعوراً غامراً بالفخر والامتنان لله بأن محاولة اغتيالي كانــت السبب في إطلاق سراحه. كان نجاح حماس وفشل إسرائيل إثباتاً على إيماننا الإسلامي بقوة الله التي لا حدود لها"[3].

عــندما انتــشر نبأ وصول ياسين إلى عمّان، كانت هناك جلبة عندما تحول المستــشفى ومبانــيه الممتدة على مساحة واسعة إلى مكان انعقاد اجتماع إحياء حمــاس. أدار موســى أبــو مرزوق - عيناه تكادان تفيضان دموعاً للم شمله مع ياســين - ومحمــد نــزال العملية كلها عبر الهاتف الخليوي تحت ظل شجرة في حديقة المستشفى.

لكــن كان هناك ارتباك بشأن مصير ياسين بالتحديد في غزة، أصدرت عائلته بياناً أدانت فيه نقل الرجل العجوز من الأراضي المحتلة، وقالت فيه: "ينبغي السماح له بأن يموت في غزة". في تلك المرحلة، اختار الإسرائيليون إثارة مشكلة، ونشروا إشاعة تقول إنه لن يكون مسموحاً لياسين بالعودة إلى غزة.

كــان لدى الإسرائيليين جدول أعمال خفي آنذاك، يحرّكه قلقهم من أن يكون الأردنــيون قــد تخلّوا عن الصفقة كما فهموها. وفقاً للاتفاق الأصلي، كان ينبغي إطلاق سراح أحد عميلي الموساد المعتقلين عند وصول ياسين إلى عمّان في الساعات الأولى من يوم الأربعاء؛ وإعادة الثاني إلى إسرائيل حالما يعود ياسين إلى غزة، وهو ما كــان مخططــاً في يوم الأحد التالي. كان صحيحاً أن الأردنيين قد غيّروا خططهم، وقرّروا، نظراً لانعدام ثقتهم بالإسرائيليين، الاحتفاظ بكلا عميلي الموساد حتى تصبح عمّان راضية تماماً بإنجاز عملية نقل ياسين.

بالقـــاء ظـــلال مـــن الشك على عودة ياسين إلى غزة في تلك المرحلة، كان الإسرائيليون أكثر اهتماماً بنقل رسالة إلى الملك حسين مفادها أنه لا تزال لديهم ورقة يلعبون بها: كانت قواهم العسكرية على الأرض في غزة وسيطرتهم على المجال الجوي فوق الأراضي المحتلة تمنحهم قوة لمنع عودة ياسين حتى يتم تحرير الرجلين.

كان اعتبار أن الملك حسين هو مهندس مغادرة ياسين لفلسطين التاريخية، بدلاً مـــن استمتاعه بحريته في غزة، يشكل منعطفاً حاسماً توقعه أبو مرزوق، ليس لمصلحة الملـــك وإنما لمصلحة ياسين. كان حق ياسين بالعودة إلى غزة قضية جوهرية لحماس، وقـــد أصرّ أبو مرزوق على عقد اجتماع مع الملك، حتى يستطيع شرح تلك النقطة بالتفصيل للملك حسين بعد أن اتفق والبطيخي على عدد الأسرى.

عـــندما سمح البطيخي أخيراً لأبو مرزوق بالتكلم مع الملك حسين، كان لدى رجل حماس التماس واحد فقط. كان أكبر مخاوف الإخوة في حماس، بغض النظر عن أي موقـــف للأردنيين، أن الإسرائيليين يمكن أن يقوموا بحركة مضادة مثل تلك التي كانت تبدو آنذاك احتمالاً بعيداً. كما كانت حماس ترى الأمر، كان قائد روحي مثل ياســـين يؤمّن نقوداً للحركة سواء أكان في غزة أو في سجن إسرائيلي، لكن نفيه إلى عمّـــان ســـيكون مثل نفيه إلى أي مكان آخر. ربما يكون في باريس أيضاً. كان أبو مـــرزوق قـــد الـــتمس من الملك بصوت مرتفع قليلاً: "ينبغي السماح للشيخ ياسين بالعودة إلى منـــزله في غزّة!"[4].

لضمان حدوث ذلك، حصل الملك حسين على تعهّد مكتوب من الإسرائيليين يـــضمن أنـــه حتى في حال نقل ياسين خارج حدود إسرائيل الدولية في يوم إطلاق سراحه من السجن، سيكون حراً بالعودة إلى غزة، التي كانت تحت سيطرة إسرائيل. كان قد تم تدقيق وتمحيص كل بند من الاتفاق بالتفصيل.

كانـــت أول مرة عرف فيها ياسين بشأن احتمال إطلاق سراحه في الساعات الأولى من يوم الأربعاء، عندما دخل حرّاس إسرائيليون إلى زنـــزانته، وسلّموه رسالة مطـــبوعة. مـــوقعة مـــن الجنرال يوم توب ساميا، قائد المنطقة العسكرية الجنوبية في إسرائيل، وشرحت ترجمتها بالعربية أنه صدر عفو عن الشيخ أحمد ياسين. ثم جاء في الرسالة أنه، نتيجة اتفاق بين جلالة ملك الأردن حسين ورئيس وزراء إسرائيل بنيامين نتنياهو، سيتم نقل ياسين إلى الأردن؛ أن القائد الإسرائيلي وافق على الطلب الأردني

نظـــراً للحالة الصحية لياسين؛ وأن الملك حسين سيبعث طبيبه الخاص ومبعوثاً موثوقاً به في مروحية أردنية لمرافقة ياسين إلى عمّان.

اختُـــتمت الرسالة بالقول: "اتفق الملك مع رئيس الوزراء على منح ياسين وثيقة عفو وأوراق هوية، هذا ليس ترحيلاً ودولة إسرائيل ملتزمة بذلك".

بعـــد استيعاب محتوياتها، تم وضع ياسين في كرسيه المدولب ثم لفّه ببطانية بنية. في منتـــصف اللـــيل، تم إخـــراجه من السجن ووضعه في مروحية تابعة لسلاح الجو الأردني حلّقت به إلى الحرية.

في مدينة الملك حسين الطبية، شق الأطباء طريقهم عبر حشد من الزوّار لفحص رجل الدين العجوز. بدا أن لديه مشكلة في إحدى أذنيه، لكن بالنسبة إلى مقعد كان قد أمضى ثمانية أعوام في بيئة سجن قاسية، كان ياسين بصحة جيدة بشكل مدهش، وطلب في غضون ساعات أن يتكلم إلى شعب غزة. وضع موسى أبو مرزوق هاتف مستشفى إلى جانب وجنته الشاحبة، وعلى الطرف الآخر تم وصل السمّاعة بميكرفون في مقـــر اتحاد الصحافيين العرب، حيث نقلت مكبّرات صوت كلمات ياسين المتعبة إلى شوارع مدينة غزة الرثّة.

خـــرج صوته قوياً: "أيها الشباب والشابات، أولئك الذين قاتلوا وأولئك الذين بقوا في بلدنا، سنتابع طريقنا، الذي هو طريق محمد (ص). أحيِّي أولئك الذين ضحوا بأنفـــسهم حـــتى نـــرى الضوء في نهاية النفق. لن توقف حماس القتال حتى نحرّر كل فلسطين من النهر إلى البحر".

بعـــد ســـاعات، أجرت رندا حبيب مقابلة مع ياسين عبر الهاتف، وكان على القـــدر نفسه من التحدي. بدلاً من التمتع بحريته، شن الشيخ هجوماً على السلطات الإســـرائيلية وعلـــى عـــرفات لإغلاقهما مؤسسات حماس. بشجاعة تجاوزت قدرته الجسدية الضعيفة، نسب ياسين ضعف عرفات إلى خضوعه للضغط الإسرائيلي. كان انـــتقاده الـــلاذع لقائد منظمة التحرير الفلسطينية: "لم يجرؤ الإسرائيليون أبداً على إغلاق تلك المؤسسات عندما كنت أديرها".

كـــان الملـــك حسين آنذاك في موقف يشعر معه بالسعادة من أزمة كانت قد فُرضت عليه، لهذا اتصل بياسر عرفات بنفسه. كان التوتر ظاهراً، كان الملك حسين يعرف جيداً أن قائد منظمة التحرير الفلسطينية سيستشيط غضباً عندما يعرف أنه –

حسين - نجح في إطلاق سراح ياسين، تماماً كما كان يعرف أن عرفات سيكون مضطراً للابتسام أمام آلات التصوير ويهدي انتصاره لكل الفلسطينيين. كان عرفات قد اتصل هاتفياً مع واشنطن، واشتكى لدينيس روس. قال عرفات لمبعوث كلينتون الخاص إلى الشرق الأوسط: "لماذا ينبغي أن أدفع ثمن ذلك. سيثير ذلك مشكلات... هذا يُضعفني".

بعد إبلاغ عرفات أن كابوسه على وشك أن يستمر، وأن الشيخ أحمد ياسين سيعود إلى غزة حيث سيكون، مرة أخرى، شوكة في حلقه، قام الملك بعمل اعتبره البعض شهامةً، فيما اعتبره آخرون مكيافيلياً. أرسل الملك مروحية أخرى إلى الأراضي المحتلة، لإحضار عرفات هذه المرة، حتى يستطيع هو أيضاً الظهور في عمّان، حيث يمكنه الجلوس في ظل الملك حسين المنتصر في أثناء تهنئته لياسين.

ضاع الملك حسين وضيفه قائد منظمة التحرير الفلسطينية، وكانا قصيري القامة، في تزاحم وسائل الإعلام التي تهافتت على غرفة ياسين.

في مطار الملكة علياء، كان وفد استقبال آخر على أهبة الاستعداد للذهاب إلى ياسين عندما حطّت غلف - ستريم على الأرض بعد عودتها من واشنطن بعد 2:30 بعد الظهر بقليل من يوم الثلاثاء. رغبة منه بعدم تفويت أيٍّ مما يجري، أمر ولي العهد الأمير حسن البطيخي ومانرز بالصعود إلى سيارته فيما قفز هو خلف المقود بنفسه واتجهوا جميعاً إلى المستشفى للانضمام إلى دائرة الترحيب الرسمية بالشيخ ياسين.

ظهر عرفات بعد زيارة المستشفى ليعلن أن ياسين حليفه في عملية السلام. لكنه كان عرضة لانتقادات، وقام المراسلون بالضغط عليه بشأن تقبيله لقائد حماس المحرّر في الوقت نفسه الذي كانت فيه قواته الأمنية تهاجم أعضاء حماس ومؤسساتها في الأراضي المحتلة. انزعج عرفات لكنه شكر ياسين لدعمه عملية السلام؛ تفسير لا يمكن الحصول عليه من كلمات رجل الدين، التي كانت في أفضل حالاتها غامضة.

في 6 تشرين الأول، اجتمع حشد ضخم في المستشفى ليشهد مغادرة ياسين له. كانت عيونهم مثبّتة على مروحية أردنية تجثم، ساكنة، على مهبط مدينة الملك حسين الطبية. كانت مغادرة ياسين مخططة أصلاً قبل أربع وعشرين ساعة. أُعلن آنذاك أن إقلاع الطائرة سيكون الساعة الواحدة بعد الظهر. لكن على حين كان المراسلون يقضون الوقت في الحدائق، تجاوزت الساعة الواحدة؛ وتم إبلاغهم أن هناك تأخيراً آخر.

واقفة تحت أشعة الشمس، أمسكت رندا حبيب بهاتفها الخليوي بعد أن قرّرت أن تــصب جام غضبها على أي مسؤول أردني قد يجيب على اتصالاتها. وعلى حين كانت تحاول معرفة سبب التأخير، ابتعدت عن زملائها، وبضربة حظ فقط، انتهى بها الأمر أن تفعل ما لم يكن أي مراسل آخر يفعله.

يقع المستشفى على أحد تلال عمّان البارزة للعيان، وبدلاً من النظر إلى الحدائق وانــتظار المــروحية، استدارت حبيب لتجول ببصرها فوق عمّان. رأتهما آنذاك - مــروحيتان أخريان - كانتا تحومان فوق مقر المخابرات على التل المجاور، على بعد حــوالى نــصف ميل. لم تكن واثقة ما إذا كانتا إسرائيليتين، لكنها استنتجت أنهما أجنبيتان لأنهما، من مظهرهما الخارجي، لم تكونا تشبهان الطائرة التي تجثم في الحديقة، والتي كانت تعرف أنها أردنية.

كــشف أول مــسؤول تكلمت إليه عن وجود تعديل في اللحظة الأخيرة على المفاوضــات وأن ذلــك استدعى عودة كل من أرييل شارون ومساعده وهبــي إلى عمّــان. أجــرت المزيد من الاتصالات الهاتفية بشأن الطائرتين الغامضتين، وحوالى الساعة 2:30 بعد الظهر، بعثت برسالة عاجلة إلى باريس.

في بضعة أسطر حصرية مذهلة، مرة أخرى، كانت أول صحافي يكشف للعالم إطــلاق سراح فريق الموساد وعودته إلى إسرائيل على متن مروحية في خلال ساعة. نقــلاً عن مسؤول رفض الكشف عن اسمه، كانت قد حصلت على جوهر الاتفاق الــذي تم التوصــل إليه بعد عشرة أيام من المحادثات السرية التي أعقبت الهجوم على مــشعل. كــشفت آنذاك أن الملك حسين سيطلق سراح العميلين الإسرائيليين، لكن الثمن الذي ستدفعه إسرائيل لن يكون تحرير ياسين فحسب وإنما إطلاق سراح سبعين أسيراً أيضاً، فلسطينيين وأردنيين.

لــو أنه كان لديها وقت للبحث بشكل أكثر عمقاً، ربما كانت رندا حبيب قد اكتشفت أن الطائرتين الإسرائيليتين كانتا تجثمان، منتظرتين، في مجمّع إدارة المخابرات العامــة مــنذ الساعة السابعة صباحاً. كان نظراؤها في وسائل الإعلام الإسرائيلية قد اكتشفوا آنذاك أن الاتفاق في طريقه للتطبيق صبيحة ذلك اليوم، عندما تم اصطحاب أول عــشرين أسيراً سيُطلق سراحهم إلى قاعدة مروحيات عسكرية في وسط إسرائيل استعداداً لعودتهم إلى الأردن. كان هناك أحد عشر فلسطينياً وتسعة أردنيين[5].

كانــــت هناك معلومات أخرى جديدة فيما قالته مصادر رندا حبيب لها – كان قــــد تم إطـــلاق سراح عملاء الموساد الأربعة الذين لجأوا إلى السفارة، قبل أسبوع تقـــريباً – لكن لم يكن لديها وقت لإمعان النظر في ذلك لأنه عند الساعة 2:47 بعد الظهر كان هناك تصفيق مدوٍ من الحدائق عندما تم إخراج الشيخ أحمد ياسين مبتسماً على كرسيه المدولب إلى ضوء شمس بعد الظهر.

علـــى حـــين كانت الكوفية البيضاء الطويلة تتدلى فوق كتفيه النحيلتين، ظهر ياسين بأبهى حلة له. صرخ: "ينبغي أن يستمر الكفاح". في ذلك الوقت، علت على كلماته صرخات: "الله أكبر! الله أكبر!".

كمـــا يفعلون دائماً في المؤتمرات الصحافية العربية، اندفع المصوّرون إلى الأمام فـــيما كانـــت تجتاح الحشد موجات من المشاعر. كانت كل جملة من ياسين تلقى صـــرخة "الله أكـــبر" من نشطاء وأنصار حماس والإخوان المسلمين على الأرض ومن شـــرفات المستشفى، التي كانت مليئة بالمرضى والموظفين الغافلين عمّا يجري. صفّقوا وهتفوا لحماس والملك حسين. كان مستحيلاً على صف وسائل الإعلام سماع ياسين الواهن من ذلك الضجيج، وتولّى محمد نـــزال تكرار حديثه كلمة فكلمة.

هـــل كان صحيحاً أن ياسين أقر وقفاً لإطلاق النار؟ شرع ياسين بالقول على حـــين كان أحد دروسه الأخرى في الغموض: "نحن نريد السلام". وقال ياسين عبر نـــــزال: "لكـــن إذا كنا نستطيع استعادة حقوقنا بوسائل سلمية، لن نقبل احتلال أرضنا".

مـــاذا عن الخلاف بينه وبين عرفات؟ في تلك المرحلة، حاول حتى ياسين حادّ اللهجة جسر الفجوة بين حماس ومنظمة التحرير الفلسطينية. كرّر نـــزال: "لن نقبل بإراقة دماء الفلسطينيين لمصلحة أعدائنا".

كانـــت رنـــدا حبـــيب هــــي التي تدخلت آنذاك، بسؤال عكّر المزاج المنتشي بالانتصار: "ما هو شعور الشيخ ياسين عندما يعرف أن ثمن حريته كان حرية عميلي الموساد اللذين حاولا قتل خالد مشعل؟".

كـــان هناك صمت وذهول. نظر ياسين إلى رندا حبيب ثم استدار إلى نـــزال. قـــال الشيخ الجليل شيئاً لم يسمعه أحد، لكن نـــزال نظر إلى رندا حبيب بعد ذلك. سألها: "هل أنت واثقة؟ هل حدث ذلك؟".

عندما أومأت برأسها مؤكدة، وتكلمت عن مروحيتين تتجهان نحو سديم وادي الأردن، تبادل نــزال وياسين كلاماً على عجل. أعلن نــزال بعد ذلك أنه لن يكون هناك تعليق. كان المؤتمر الصحافي قد انتهى.

تم رفع ياسين من الكرسي المدولب إلى نقالة، وثبّته مساعدون في المروحية على حين كان الطيّار يشغّل محركها للإقلاع بها. صعد طبيبان ومساعد طبــي إليها لمراقبة ياسين خلال الرحلة التي تستمر أربعين دقيقة إلى قطاع غزة.

كانــت رندا حبيب قد شاهدت المروحيتين الإسرائيليتين، اللتين كانتا تحملان عميلــي الموساد اللذين تم إطلاق سراحهما على متنهما، تنطلقان من مجمّع المخابرات عــند الساعة 2:50 بعد الظهر وتتجهان غرباً نحو القدس. عند الساعة 3:05، أقلعت المروحية الأردنية، وياسين على متنها، متجهة إلى الجنوب نحو غزة. بعثت بتقرير عن كل مغادرة كنبأ مستقل، وبينهما، التفاصيل الأخيرة لاتفاق إسرائيلي - أردني بشأن المحاولة الفاشلة لاغتيال خالد مشعل.

كــان ســؤال رندا حبيب الأخير قد جعل ياسين ينطلق متشككاً. بالرغم من حــديث أبو مرزوق مع البطيخي بشأن صفقة إطلاق سراح ياسين، إلا أن حماس لم تكــن تعــتقد أن الملــك حسين سيكون كريماً جداً تجاه احتياجات الموساد والقيادة الإســرائيلية. بعد خروجه من المستشفى قبل يومين، كان خالد مشعل الشاحب قد تكلــم إلى المراســلين، وقــال لهم: "تصرّ حماس على مقاضاة ومعاقبة منظمي محاولة اغتيالي".

لكــن الجــو علــى المروحية الإسرائيلية التي نقلت العميلين اللذين تم إطلاق سراحهما كان متوتراً، وحتى متكلّفاً. بغض النظر عن الاسمين الكنديين المستعارين، لم يــتم تحديــد هوية العميلين علانية، سوى أنهما *إيه* و*دي*. بعد إطلاق سراحهما من زنــــزانتين أسفل مكتب سميح البطيخي، خرجا إلى ضوء النهار، وصوت المروحية وهــواؤها الساخن التي كانت مستعدة للإقلاع. كانا منــزعجين، ومشوّشين، وغير واثقين مما سيأتي تالياً.

كــان قــد قيل لهما إنهما سيذهبان إلى بلدهما، وكانت المروحية تبدو بالفعل إسرائيلية. لكن تبيّن أن مرافقهما الوحيد عربــي. كان ذلك مجالي وهبــي، الذي لم يــره العمــيلان أو يسمعا به من قبل. طيلة مدة الرحلة، طغى صوت المروحية على

الصمت الشخصي الثقيل الذي أرخى بظلاله على الثلاثة. شعر وهبي أن العميلين كانا خجلين من نفسيهما، وبالرغم من تأكيداته، رفضا التصديق أنهما حرّين حتى هبطت المروحية في مجمّع الموساد[6].

مع عودة ياسين إلى غزة وعميلي الموساد إلى إسرائيل، كان قد تم إنجاز المرحلة التالية من الاتفاق. قبل الساعة الخامسة من بعد الظهر، نقلت مروحية إسرائيلية السجناء الأردنيين التسعة إلى عمّان، وتم إطلاق سراح أحد عشر فلسطينياً في الوقت نفسه في رام الله. كان سيتم إطلاق سراح خمسين سجيناً آخرين في الأسابيع التالية[7].

عندما حطّت المروحية الأردنية في غزة، استقبل حشد من أكثر من خمسة عشر ألف شخص ياسين البالغ من العمر واحداً وستين عاماً. كانت معظم وسائل الإعلام الإسرائيلية تغطّي غزة هاتفياً من القدس أو تل أبيب، لكن قلّة منها كان لديها مراسلون جعلوا شغلهم الشاغل فهم حياة ومزاج الأراضي المحتلة، وبالنسبة إليهم، كان ينبغي عدم تفويت عودة ياسين الصاخبة.

عندما اختلطوا بالحشد، واجهتهم مجموعة من رجال الأمن الفلسطينيين المسلحين. أُصيب ناحوم بارنيا، صحافي في يومية *يديعوت أحرونوت* التي تتخذ من تل أبيب مقراً لها، بالدهشة عندما سأله أحد الفلسطينيين بعبرية متقنة: "من أنت؟".

رد عليه المراسل: "من أنت؟".

ادّعوا أنهم أعضاء في جهاز الأمن الوقائي التابع لياسر عرفات، لكن إتقانهم للعبرية كان مستغرباً. مدركاً نظرة المراسل الساخرة، شرح الفلسطيني أنه كان قد تعلّم العبرية في أثناء قضائه بعض الوقت في سجن إسرائيلي.

بعد كسر الجليد، قدّم رجل الأمن نصيحة، وقال: "يمكنك التجول في الجوار. لكن من فضلك لا تذكر أنك إسرائيلي ولا تتكلم بالعبرية".

قال له بارنيا: "بالتأكيد. سنقول إننا كنديون"[8].



16

صورة الموساد الأسطورية

سيختفي خالد مشعل لبعض الوقت. لدى خروجه من المستشفى بعد ثمانية أيام من الهجوم عليه، كان لا يزال شاحباً ومتعباً، لكنه كان قد نجا بأعجوبة. جهّز أنصار حماس منزلاً آمناً، واستفادوا من الإخوان المسلمين في عمّان لتقديم مكتب أكثر أمناً في واحدة من منشآهم غير المعروفة حيث يمكن لمشعل العمل مستتراً. لكن قبل أن يختفي عن الأنظار، جمع محمد نزال المراسلين لإجراء مقابلة عن انتصار مشعل.

متهماً إسرائيل بإرهاب الدولة، شكر رئيس المكتب السياسي لحماس الله على نجاته قبل أن يشن هجوماً عنيفاً على الإسرائيليين ومنظمة التحرير الفلسطينية. قال للمراسلين، بينما كان أعضاء من فريق حراسته الجديد المؤلف من خمسة أشخاص يحدّقون على الحشد: "كان واضحاً أن إسرائيل أرادت التخلص مني. [لكن هذا الهجوم] لن يثنينا عن متابعة كفاحنا". قال إنه أكثر عزماً مما كان عليه، وخصص معظم كلمات خطابه لرئيس الوزراء بنيامين نتنياهو ورئيس استخباراته داني ياتوم. أعلن مشعل على عجل قبل أن يصطحبه إلى ملاذه زملاءٌ كانوا قلقين من أن يسعى الإسرائيليون خلفه مجدداً: "[لقد] دمرا صورة الموساد الأسطورية".

شكّل الإخفاق الذريع في عمّان جرحاً عميقاً لمجتمع الاستخبارات الإسرائيلي. كان هناك سخط كبير في إسرائيل، لكنه لم يكن بشأن فاعلية أن تقوم الدولة بإرسال قتلة إلى الخارج وإنما بشأن فشلهم في إنجاز مهمتهم. كانت أسطورة تلك الدولة الفتية، التي زُرعت في بقعة معادية لها من العالم، تتطلب استعمال الموساد والمنظمات الشقيقة كأدوات في حكاية وطنية لا مكان للفشل فيها. كان للموساد حصته من الإحراج في الماضي، لكن إذا كانت أسطورته ستستمر كرادعٍ مخيفٍ كما ينبغي لها، كانت إسرائيل بحاجة إلى أن يراها الآخرون قوة تقضي على أعدائها بقسوة وفاعلية.

باعتبــاره المــسؤول السياسي عن هذه الثقة، كان بنيامين نتنياهو قد أعلن عن معــرفته الشخصية بنوعية الأعمال المطلوبة منه. في العام 1976، كانت إسرائيل قد أذهلت العالم بعملية دولية جريئة.

كانت طائرة للخطوط الفرنسية متجهة من تل أبيب إلى باريس، وعلى متنها مئة راكب، قد اختُطفت إلى مطار عينتاب في أوغندا. كان اسم مهمة الإنقاذ *الصاعقة*.

أنــزل أسطول من طائرات شحن هرقل التابعة للقوات الجوية الإسرائيلية رجالاً ومــركبات علــى أرض عينــتاب، حطّت هناك طائرة بوينغ 707 تحمل على متنها مستشفى، ولتنسيق هذه العملية المعقّدة، حامت 707 أخرى فوقهم في الليل كمركز قــيادة وســيطرة[1]. أضحى كل شيءٍ جاهزاً من دون أن يلاحظ محتجزو الرهائن. خــلال عملــية الإنقاذ، توفي ثلاث رهائن في تبادل لإطلاق النار، إلى جانب مغوار إســرائيلي واحــد. كان اسم ذلك الجندي يوناتان نتنياهو. كان شقيقاً أكبر لرئيس الــوزراء، الــذي ظهرت صورته آنذاك، بعد عمليته في شوارع عمّان، على غلاف الإيكونومست.

كــان كــل الإسرائيليين يعرفون حكايات عن جرأة الموساد. كان داني ياتوم تلمــيذاً في الخامسة عشرة من العمر عندما أصبح نجاح مهمة جريئة قام بها من سبقوه في ذلك العمل حجر الزاوية في هيبة الموساد الذي سيُعهد بقيادته إلى ياتوم بعد عقود. قــبل ســتة عــشر عاماً من عملية عينتاب، كانت هناك مهمة تتعلق بنواة الأعمال الوحــشية التي قامت بها ألمانيا النازية في خلال الحرب العالمية الثانية. على بعد آلاف الأميال من البلد، في شوارع بيونس آيرس، اختطف الموساد عامل مصنع قال إن اسمه ريكــاردو كليمنت. لكن هوية الأسير الحقيقية كانت أدولف إيتشمان؛ مجرم الحرب الــذي أشرف على نفي وإبادة ملايين اليهود في أثناء تنفيذه ما يعرف *بالحل النهائي* الذي وضعه أدولف هتلر.

انسلّ عملاء الموساد إلى الأرجنتين كأعضاء في الوفد الإسرائيلي المدعو لحضور الاحتفال بالذكرى المئة والخمسين لاستقلال الأرجنتين. في بلد يحمي مجرمي حرب، اخــتطفوا إيتــشمان مــن على رصيف إحدى الضواحي. ألبسوه بذلة عمال العال، وأشربوه شراباً كحولياً قبل أن يرشوا أنفسهم ببعض الكحول. متظاهرين أنهم غرباء ســكارى لم يستطيعوا التأقلم مع مشروب محلي قوي، قادوا أسيرهم عبر كل نقاط

التفتـــيش للوصول إلى الطائرة الإسرائيلية التي كانت مستعدة لإعادة الوفد الإسرائيلي الرسمـــي إلى الـــبلد، بعـــد وقت قصير من إقلاعها من قاعدة عسكرية في العاصمة الأرجنتينية. حوكم إيتشمان وأُعدم في نهاية المطاف[2].

مقارنـــة بعينـــتاب وبويـــنس آيريس، كانت المهمة التي حدّدها نتنياهو وياتوم لنفـــسيهما في عمّان تعادل الذهاب إلى متجر محلي للحصول على رغيف خبز. جاء أحـــد أقسى الانتقادات لمحاولتهما اغتيال خالد مشعل من زفي مالشن، عميل الموساد الذي اعتقل إيتشمان في العاصمة الأرجنتينية في العام 1960. بعمر السابعة والستين، تم اســـتدعاؤه وهـــو المتقاعد ليدلي بشهادته. شرع بالقول: "اللعنة على الفشل منذ الـــبداية". باســـتعمال كلمـــات مثل "طفولي"، "عمل هواة"، "غير عملي"، وحتى "أخرق"، استنتج مالشن أن الخطة كانت كافية لجعل "عميل جديد يتورّد خجلاً"[3].

أفاد قانون الرقابة على النشر مع العطلة الوطنية التي استمرت أربعة أيام، احتفالاً برأس السنة اليهودية وعطلة السبت، في منح نتنياهو وياتوم فرصة لالتقاط أنفاسهما؛ تعتيم إعلامي بتوقيت رائع، حاولا في خلاله الحد من الأضرار.

لم تـــصدر صـــحف مثل *يديعوت أحرونوت* التي تعمل فيها سمادار بيري يومي الجمعـــة والسبت بعد الهجوم مباشرة، الذي وقع يوم الخميس 25 أيلول. لكن نتيجة لـــضغط كبير من بيري، استجاب محرّروها، وسمحوا للمراسلة بكتابة مقال بناءً على تقاريـــر وســـائل إعلام أجنبية وبعض مما كانت قد عرفته من مصادرها الإسرائيلية الخاصة. ملأت القصة عمداً بمعلومات تجعل الرقيب يستعمل قلمه، على أمل أن تبقى المـــادة مليئة بتفاصيل ذات مغزى. أُصيبت ورئيسها بالذهول والاضطراب بعد عودة التقرير من الرقابة. تذكرت بيري لاحقاً: "كان سليماً – لم يُمس!"[4].

في العلاقـــة القائمـــة بين الحكومة ووسائل الإعلام الإسرائيلية، يحظى الرقيب الحكومي بدور يثير الفضول. كان قلق بيري ومحرّروها نابعاً من أسلوب ينقل الرقيب مـــن خلاله أحياناً تحذيراً مفيداً للمحرّرين أن هناك شيئاً غير صحيح في التقرير الذي يتعلق، لنقُل، بالدقة أكثر مما يتعلق بحاجة الدولة إلى إخفاء شيء ما. كان يترك المحرّر يعرف أن عليه عدم التطرق إلى القصة، بعدم المسّ بالتقرير نفسه.

قال المحرّر: "لا أريد التطرق إلى الموضوع". كانت تلك هي النقطة التي يمكن أن تنتهي بها تغطية *يديعوت أحرونوت* المؤثرة للقصة، على الأقل في ذلك الوقت، لو أن

رئيس الوزراء لم يتدخل شخصياً. كان اتصال هاتفي من نتنياهو إلى رئيس تحرير الصحيفة، يلتمس فيه عدم نشر الموضوع، قد أقنع القائمين عليها أن قصة بيري صحيحة. نُشرت يوم الأحد، تحت عنوان ملتبس قليلاً "الملك حسين يعتني شخصياً بمسؤول حماس الذي هوجم في الأردن".

تم إرسال بيري بعد ذلك إلى عمّان. لكن وسائل الإعلام الإسرائيلية استمرت في التعامل مع القصة بشكل عابر حتى اليوم العاشر، عندما واجهت الحكومة أخيراً إعصاراً سياسياً.

عنونت هآريتس **فشلٌ بعيد المدى**. وسط دعوات للاقتصاص من نتنياهو، عنونت *معاريف* **عملٌ خسيس في الأردن**[5]. طالب رئيس الوزراء السابق شمعون بيريس وقائد حزب العمل إيهود باراك باستقالة نتنياهو. كان مزيج قاتل من الغطرسة، والافتقار إلى الخبرة، والغباء الذي لطالما ميّز أفعال نتنياهو قد ظهر جلياً في تلك العملية، كما أعلنت داليا إسحاق عضو الكنيست عن المعارضة[6].

في وجه العاصفة، انطلق نتنياهو إلى الهجوم. رد محاولاً ربط ما حدث بالعمليات الاستشهادية في القدس، وليس برد فعله الطائش: "أُصيب مئات المواطنين الإسرائيليين بجروح. لقي واحد وعشرون إسرائيلياً حتفهم... أشعلت تلك الأعمال المثيرة للاشمئزاز غضب المجتمع الإسرائيلي. تلك أفعال إجرامية لا يمكن لأحد قبولها. كرئيس للوزراء، أنا مرغم على مكافحة هذا الإرهاب بأي طريقة"[7].

بدا أنه قد نسي التسوية المذلة التي تم إرغامه على قبولها، شبّه نتنياهو حكومته بشركة تأمين عليها أن تضمن نجاح غطائها الأمني 7/24 للإسرائيليين. تعهّد بأنه لن تكون هناك تسوية على حق إسرائيل في مطاردة قادة الإرهاب[8].

عندما دفع الانفعال أحد المراسلين ليسأله إن كان ينوي الاستقالة، تجاهل نتنياهو السؤال مرتين قبل أن يردّ بحدّة أن لا نية بذلك[9]. في انتقاد لافت للنظر، اتهم سفير إسرائيلي سابق إلى الأردن، الأستاذ شمعون شامير، رئيس الوزراء الإسرائيلي بأنه "يجهل تماماً جوهر السلام"[10].

ستصبح كل الأحداث التي تكشّفت في خلال ثمانية أسابيع بين قرار مجلس الوزراء الغاضب بملاحقة قادة حماس والفعل الذي يبعث على الاشمئزاز عندما فشلت مهمة الاغتيال في عمّان في عهدة لجنة تحقيق إسرائيلية خاصة ولجنتين برلمانيتين.

لكـــن العديـــد من الإسرائيليين المؤثرين لم ينتظروا النتائج الرسمية. جاء الانتقاد بمـــوجات كـــبيرة، ومـــن كـــل الجهـــات. أدلى صحافيون، وسياسيون، وخبراء، ودبلوماسيون أجانب كلٌ بدلوه في القضية.

كـــان هناك عملياً خطأ في كل مناحي المهمة؛ موقعها وتوقيتها، والضرر الذي تسببه للأردن، وقيمة مشعل كهدف وسهولة استبداله في قيادة حماس، وإطلاق سراح ياسين. لم يكلف الموساد نفسه عناء استطلاع موقع الهجوم، و لم يتم التخطيط لمسالك الهروب.

كـــان رئيس الوزراء قد وافق شخصياً على اختيار الهدف. كانت هناك مزاعم بأن الهدف الأول على قائمة ياتوم للمرشحين المحتملين كان القيادي الأكثر شهرة في حمـــاس موسى أبو مرزوق، الذي خرج أخيراً من سجن أميركي لأن إسرائيل فقدت أعـــصابها فجـــأة عندما حان وقت محاكمته في إسرائيل. ربما كان سفر أبو مرزوق المتكـــرر قد سمح بالقضاء عليه في قارة مختلفة. لكن نتنياهو كان قد فرض رأيه على رئـــيس اســـتخباراته. بدلاً من ذلك، كان قد حدد الهدف ليكون الأقل شهرة خالد مشعل، الذي نادراً ما يسافر خارج الأردن.

كان رئيس الوزراء قد صادق أيضاً على قرار ياتوم بدفع الموساد، للمرة الأولى، إلى اســـتعمال أداة غـــريبة في اختياره لطريقة موت مشعل. بالنسبة إلى خبراء الحرب الـــباردة، كانـــت تلك عودة بالزمن إلى الوراء؛ إلى إعدام المنشق البلغاري جورجي ماركوف في العام 1978 قرب جسر واترلو في لندن، على يدي قاتل غامض استعمل مظلـــة لإطـــلاق سهم صغير مليء بالراسين السام[11]. كان ياتوم واثقاً تماماً من أن محاكاتـــه في العـــام 1997 لهجوم لندن ستكون ناجحة، وقد تكبّد مشقة إعداد فيلم ليعرض على نتنياهو طريقة تنفيذ العملية وتأثير السم في جسد مشعل.

كان هناك تاريخ طويل من الاستشارات بين الحلقات العليا للحكومة الإسرائيلية قبل أن تتم المصادقة على مهمات مثيرة للجدل مثل تلك، وبينها هيئة رفيعة المستوى تعمـــل تحت اسم غامض هو *لجنة إكس*. لكن نتنياهو لم يُكثر من الاستشارات كما يُفتـــرض مع وزرائه البارزين أو. رؤساء أجهزة الاستخبارات الأخرى. في الأحداث الـــتي أعقـــبت ذلك، اتُهم بالسعي لتنفيذ عملية هادئة لكن سريعة لاستغلالها *كهدية* رأس الـــسنة لـــرفع الـــروح المعـــنوية الوطنـــية في وقت تجدّد الأزمات بالنسبة إلى

الإســـرائيليين. وصـــف شمعون بيريس، سلف نتنياهو كرئيس للوزراء، العملية بأنها "محض هراء"[12].

علـــى المستوى الشخصي، تم اتهام ياتوم بأنه هاوٍ يفتقر للكفاءة. كان أحد أبرز زملائه حاداً في انتقاده، واشتكى قائلاً: "كان الناس يعتقدون أن ياتوم حاد الذكاء. لم يكـــن لدى الاستخبارات العسكرية والشين بيت هدف مفيد جاهز، لهذا قال ياتوم: "إذا لم يكونا يستطيعان فعل ذلك، سأفعله أنا". كان يرغب بإثبات أنه يستطيع فعل ما كان آخرون يعتقدون أنها ليست فكرة جيدة حقاً"[13].

كان داني ياتوم رجلاً ذكياً. ربما كانت عادته بارتداء سترة جلدية قصيرة سوداء توحي بتكلّف شخصي، لكنه كان قد تخرّج في الجامعة العبرية في القدس بعدما درس الرياضـــيات، والفيـــزياء، وعلوم الحاسب. طيلة ثلاثة عقود، كانت لديه سيرة مهنية مميـــزة في الجيش ومحاربة الإرهاب قبل تعيينه في بداية التسعينيات مستشاراً عسكرياً لـــرئيس الوزراء إسحاق رابين. كان شمعون بيريس، خليفة رابين الذي تم اغتياله، هو الـــذي عيّن ياتوم مديراً للموساد قبل ثلاثة شهور فقط من الانتخابات العامة في العام 1996.

لكـــن ظهرت شكاوى مباشرة ضمن الوكالة بأن ياتوم، الرجل العسكري، لن يكون موضع ترحيب في الموساد. كان هناك استياء لأنه لم يكن قد تدرّب على ذلك الـــنوع مـــن العمـــل، لم يقض ليالي داخل سيارة باردة في مدينة غريبة للقاء مخبر أو اعتـــراض هـــدف قد يظهر أو لا يظهر[14]. قالوا ساخرين إن كل ما كان يعرفه عن الموســـاد هو مراقبة مهماته الخطيرة من أريكته الوثيرة كمستشار لرئيس الوزراء. من الإنصاف القول إن ياتوم كان قد عمل في وحدة محاربة الإرهاب تسعة أعوام، ساعد في إطـــلاق سراح رهائن محتجزين، وتسلل إلى بيروت لتفجير بعض الأشياء. لكن في بيئة الاستخبارات الإسرائيلية، لم يكن سجله ناصعاً لأن تعيينه، في نهاية المطاف، كان قراراً سياسياً[15].

بعمـــر واحد وخمسين عاماً، كان ياتوم طرفاً في علاقة معقدة مع نتنياهو. كانا يـــسهران معاً مرة واحدة في الأسبوع[16]. كان أحدهما سياسياً يفتقر للخبرة نسبياً، متعطشاً للنتائج؛ والآخر رجل عسكري معتاد إطاعة الأوامر لتقديم تلك النتائج وليس معتاداً مناقشة الطريقة التي يتم من خلالها التوصل إلى تحقيق تلك النتائج.

جادلت شخصيات استخباراتية بارزة أنه كمدير للموساد، ينبغي أن يكون لدى ياتوم الكثير من الحجج المقنعة لثني رئيس الوزراء العنيد عن رأيه: المكان أو الزمن الخاطئ؛ تعذر الوصول إلى الهدف؛ أو عدم أهمية الهدف نفسه. ينبغي أن يكون لدى مدير الاستخبارات الناجح دُرج مليء بمثل تلك الأعذار لتقديمها لسياسي عنيد يجب حمايته من نفسه.

قال أشخاص يعرفون ياتوم إن ميله إلى الموافقة على كل ما يُعرض عليه نابع من افتقاره للمخيلة. كان تقييم أحد المقرّبين منه: "إنه رجل عسكري. أصدر أمراً لداني باحتلال تل وسيحتل التل!"[17]. لاحظ آخرون اهتمامه بالتفاصيل في خلال مسيرته المهنية، كان مشغوفاً بتسجيل ملاحظات كثيرة في اجتماعاته. "ياتوم يكي"، شرح زميله القديم إفرايم لابيد، مستعملاً كلمة عبرية تعني "رجل التفاصيل"[18].

كان ياتوم جديداً نسبياً على عمل الاستخبارات، ونتنياهو أيضاً جديد نسبياً على منصب رئيس الوزراء. كان تدخل نتنياهو الشخصي في تلك العملية قد أزعج البعض في الموساد، الذين كانوا معتادين نمط العمل في الوكالة الذي يقضي بإخفاء التفاصيل العملية عن قادهم السياسيين. كان ذلك تقليداً يوفر الحماية لكلا الطرفين[19]. لكن نتنياهو كان يتصل مع ياتوم في كل ساعات الليل والنهار، ويطلب منه في كل مرة تقريراً مفصلاً عن التقدم الذي تم إحرازه[20].

علانية، كان نتنياهو ومستشاروه يتحدّثون بشكل طيب، وحتى حميم، عن ياتوم بعد ما حدث في عمّان. لكن في تسريبات لمراسلين، كان مدير الموساد عرضة لانتقادات شديدة. استنتج أحد مستشاري رئيس الوزراء بكآبة: "كان ياتوم هو الذي فشل في تحقيق ذلك. وعد بعملية هادئة وحذرة للغاية - كان ذلك شرط رئيس الوزراء للمضي قدماً. لم يكن مفروضاً أن يلاحظ أحد شيئاً. لم يكن أحد آخر ليتأذى - لم يكن مفروضاً أن يحدث إطلاق نار في الشارع".

أضحى معروفاً آنذاك أن نتنياهو لن يطلب استقالة ياتوم لكن إذا قدّمها، سيقبلها رئيس الوزراء. قال ناحوم بارنيا، المراسل الذي كان قد مزح بشأن كونه كندياً في غزة، لقرّائه كيف يمكن تحقيق تلك النتيجة المرجوة بأفضل طريقة ممكنة. عندما كان رئيس الوزراء يتكلم بشكل رسمي، كان يُغرق ياتوم بالمديح، كما لاحظ بارنيا. لكن الهدف الحقيقي كان إغراق ياتوم - على مراحل - "[افعل ذلك] ببطء

وحكمـــة"، كـــتب مبيّـــناً المنطق الاستراتيجي الذي فهم أنه سائد في مكتب رئيس الـــوزراء. "دع لجنة [التحقيق] تتولى الأمر. دع وسائل الإعلام تتولى ذلك، بتوجيه منا"[21].

بعد أكثر من أسبوع على محاولة إسرائيل قتل خالد مشعل، كان رئيس الوزراء الكـــندي جان كريتيان لا يزال عرضة لهجمات متواصلة في البلاد تتهم حكومته بأنها كانت ضالعة في مهمة الموساد الفاشلة. وكانت المخاطر أعلى مما هي عليه عادة لأن العملـــية كانت حلقة أخرى في تاريخ محرج لقيام قتلة إسرائيليين في الخارج بانتحال صفة مواطنين كنديين.

في العـــام 1973، كانت امرأة من فريق للموساد يقوم بمنهجية بتصفية عدد من الفلسطينيين المسؤولين عن قتل الرياضيين الإسرائيليين في أولمبياد ميونيخ كانت تحمل جـــوازِ ســـفر كندياً. تم إلقاء القبض عليها في ليلهامر، النرويج، وسجنها مع خمسة آخرين، بعد أن قتل فريق الاغتيال نادلاً مغربياً بريئاً لاعتقادهم الخاطئ أنه علي حسن سلامة، الشخصية المحورية في هجوم ميونيخ قبل عام. قبل أن تعترض ليلهامر تقدُّمهم، كـــان الموســـاد قد قضى بدمٍ بارد على أحد عشر هدفاً ادّعى أنهم شركاء في ذلك العمل.

كانـــت المـــرأة التي تم إلقاء القبض عليها سيلفيا رافائيل. مولودة في جنوب أفريقيا وعمـــرها خمـــسة وثلاثـــون عاماً، كانت ابنة نصرانية لأب يهودي، والتي هاجرت إلى إسرائيل عندما كانت في أواخر العشرينيات بعد أن قرأت *الهجرة* لليون أوريس. استقرت كصحافية مصوّرة كندية، وكانت بين أوائل عملاء الموساد الذين تسللوا إلى قواعد ياسر عرفات في الأردن ولبنان في الستينيات[22]. في ما يخص عملية ليلهامر، كانت قد انتحلت هوية باتريشيا روكسبورغ، التي اختفى جواز سفرها قبل بضعة شهور من على مكتبها في شركة حقوقية في مونتريال، حيث كانت تعمل أمينة سر قانونية[23].

في العـــام 1974، اختفـــى حـــوالى خمسين جواز سفر كندياً فارغاً من قبو في الـــسفارة الكندية في فيينا. في نيقوسيا بعد سنة، صادرت السلطات القبرصية أداة من فـــريق للموســـاد بعـــد أن أدّى تفجـــير وقع في أحد الفنادق إلى مقتل أحد القادة العـــسكريين الفلـــسطينيين. كان جواز السفر الذي استعمله أحد رجال فريق القتل الإسرائيلي يحمل رقماً تبيّن أنه لإحدى الوثائق الخمسين التي سُرقت من فيينا[24].

بعـــد انـــتهاكاتها في ليلهامر ونيقوسيا، كانت إسرائيل قد تعهّدت لأوتاوا أنها ســـتتوقف عـــن استعمال الغطاء الكندي. كانت قضية مشعل آنذاك قد أثارت لغطاً بـــشأن مزاعم جديدة ضد أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية، وادّعاءات شريرة بتواطؤ كندي في برنامج إسرائيل لعمليات قتل تجيزها الدولة.

كان شون كيندال وباري بيدز، اللذان انتحل هويتهما عميلا الموساد المحتجزان في عمّـــان، يهـــوديين كـــنديين يعيشان في إسرائيل، وطُلب منهما *استعارة* تفاصيل جوازي سفرهما لمصلحة أحد أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية[25]. لم تكن تلك وهذه قـــضيتين معزولتين. كشف كندي عمل سابقاً في إحدى المزارع التعاونية أن العملاء الإســـرائيليين كانـــوا قد جمعوا جوازات سفر في المزرعة التي كان يعمل فيها أواخر الـــسبعينيات وأوائل الثمانينيات[26]. سيوضح دبلوماسي كندي في المنطقة لاحقاً أن الـــسلطات الإسرائيلية كانت قد حصلت على جوازات سفر سارية المفعول ومنتهية الصلاحية بالضغط على حملة جوازات سفر كندية يعيشون في إسرائيل لإبداء رغبتهم بمـــنح هـــوياتهم للسلطات كاختبار وفاء لإسرائيل[27]. عندما نجح صحافي تلفزيوني كـــندي جريء باقتفاء أثر شون كيندال إلى منـــزله في القدس، رفض شون مبرمج الحواســـب فتح الباب. كان كل ما قاله من خلف الباب: "أنا ضحية بريئة في موقف ملتبس... ولا أرغب في إثارة الموضوع"[28].

كان آخرون أكثر فصاحة، وبالغوا بالقول إن أوتاوا لن تستطيع التراجع قبل أن تـــستعيد جوازي السفر اللذين تم استعمالهما في هجوم عمّان من السلطات الأردنية. أقنع اختبار الدبلوماسي ستيف بينيت للعميلين المعتقلين أوتاوا بأنهما لم يكونا كنديين، لكـــن كل الشكوك عن صحة جوازي السفر ومصدرهما اللذين سافر العميلان بهما تركت الحكومة الكندية عرضة للانتقاد.

جـــاء أكـــبر الأضرار من اتهامات خطيرة لنورمان سبكتر، يهودي كندي كان رئيـــساً لتحريـــر *جيروســـاليم بوست*. ألقى سبكتر الضوء على جانب غير معلن في العلاقة الإسرائيلية – الكندية لأنه كان قد عمل سفيراً لأوتاوا في تل أبيب بين عامي 1992 و1995. اتهم آنذاك حكومة كريتيان بمعرفة ما كان يجري ومحاولة التغطية على اســـتعمال إسرائيل لجوازي سفر كنديين مزيفين؛ ووصف "التعاون الوثيق" بالمستمر بين الموساد وجهاز سي – أس – آي – أس الكندي. لتوضيح وجهة نظره، ادّعى أنه

كـــان هناك اجتماع بين ضباط من جهاز الاستخبارات الكندي والموساد قبل أربعة أيام فقط من محاولة الاغتيال. عمّق ذلك من إحراج أوتاوا[29].

شـــرح الـــسفير الـــسابق أن تواطـــؤ جهاز الاستخبارات الكندي في أعمال الجاسوسية الإسرائيلية كان الثمن الوحيد الذي يستطيع دفعه للحصول على معلومات اســـتخباراتية مفـــيدة يقـــدّمها الإسرائيليون[30]. قال، مدّعياً التكلم من واقع تجربته الشخـــصية: "كانـــت الـــسلطات الكندية تعرف، بشكل عام، أن الموساد يستعمل جـــوازات السفر تلك. كان ذلك معروفاً لأشخاص في السفارة، وقد غضّوا الطرف عنه".

كـــان لادّعـــاءات ســـبكتر وقع كبير، وأعطت شرعية جديدة بالكامل لمزاعم فيكـــتور اوستروفسكي، عميل سابق للموساد كندي المولد. في كتاب نُشر في العام 1990، ادّعى اوستروفسكي أنه كان قد شاهد أكثر من ألف جواز سفر كندي فارغ في مشغل تزوير للموساد في إسرائيل. كانت معظم الشركات التي يستعملها الموساد كـــواجهات لعملائه في أنحاء العالم كندية، كما كتب[31]. ساخطاً ومكشوفاً، هاجم وزيـــر الخارجية الكندي لويد اسكورثي منتقدي أوتاوا، متهماً إياهم بابتكار مخاطر جديدة للمسافرين الكنديين بالتشكيك في جوازات سفرهم في الشرق الأوسط. حذّر دبلوماسي كندي في المنطقة من أن العنف قد يلحق الكنديين إلى الوطن. "إذا وقعت البـــيانات الشخصية التي استعارها الإسرائيليون في أيدي حماس، عندها في ليلة ما قد يفتح رجل بريء يحمل الاسم نفسه في وينيبغ بابه ليقضي عليه قاتل يسعى للثأر"[32].

بعـــد اســـتدعاء ديفـــيد بيرغر، سفير كندا لدى إسرائيل، للتشاور – عقوبة دبلوماســـية رمزية – ذهب اسكورثي إلى مقر الأمم المتحدة في نيويورك، حيث جمع ســـفراء من الدول العربية والإسلامية في محاولة لإبعاد حكومته عن الجنون الإسرائيلي في عمّان.

بقـــي الوضع على حاله حتى صباح 4 تشرين الثاني، بعد يوم من خروج مشعل مـــن المستشفى، عندما تلقّى السفير الكندي إلى عمّان مايك مولي، وسكرتيره الأول ســـتيف بينيت، تعليمات جديدة بالهاتف من النظام الأردني. كان عليهما الوقوف في الـــشارع الخلفي نفسه في عمّان حيث التقى سائق من القصر الملكي بينيت في الأيام الأولى من الأزمة. كانت المرسيدس – بنـــز الفضية نفسها هناك، ونقلتهما هذه المرة

إلى الجهة الشمالية الغربية من المدينة إلى منزل مبني بطراز كاليفورنيا المعماري على حافة تل يطلّ على وادي الأردن الجميل. تم اصطحابهما إلى داخل المكتب في باب السلام.

التقاهما مدير مكتب الملك الخاص، علي شكري، الذي تكلم ثلاثين دقيقة، لكنه لم يمنحهما بالرغم من ذلك جوازي السفر. متضايقاً بشدّة، تساءل مولي إن كانت الوثيقتان اللتان تحتاج إليهما أوتاوا بشدة موجودتين في حقيبة ألمنيوم. كان الوقت قرابة الظهيرة وشكري لا يزال يتكلم عندما انضم إليهم رجل قصير القامة يرتدي كنزة سوداء وسترة رياضية بيضاء مقلّمة بالأسود. كان الملك حسين، الذي طرح سؤالاً مناسباً: "هل أكلتما أم بعد؟ هل تأكلان الطعام العربي؟".

هكذا بدأت إحدى المغامرات البسيطة لدبلوماسيين أجنبيين في عمّان؛ غداء مع الملك. قادهم الملك حسين إلى شرفة مغطاة خارج مكتبه، حيث كانت هناك طاولة مليئة بصحون المازة، طبق كبير من الكباب، والكثير من الخبز المشروح. لم يكن هناك مشروب. في أثناء تناولهم للطعام، كان الملك حسين يرمي الفتات للقطط، وبالرغم من اضطرارهما لسماع قصة شكري عن القضية برمّتها، كان على الدبلوماسيين الكنديين الإصغاء على حين كان الملك يعيد سردها من جديد.

بعد بعض الوقت، توقف عن الكلام. بإشارة من الملك، فتح شكري حقيبة الألمنيوم، وقدّم دفترين صغيرين زرقاوين – سوداوين؛ ومرّرهما متجاوزاً مولي إلى الملك. قال ساخطاً: "كما تعرفان، كان الإسرائيليون وقحين ليطلبوا إعادة جوازي السفر هذين إليهم. أرادوا منحنا شيئاً مختلفاً تماماً لنعطيه لكما أيها السيدان. هل تصدّقان ذلك؟"[33].

أنهى مولي وبينيت غداءهما بأسرع ما يستطيعان من دون أن يبدوا فظّين. لدى عودهما إلى السفارة، رفع زميل لهما يرتدي قفّازين جوازي السفر من جيب بذلة مولي. بعد فحص قصير، تم وضعهما في مغلّف، سينقله باليد إلى أوتاوا أحد أعضاء فريق أمن السفارة. حجز أحد موظفي مولي لسفر المبعوث عبر أمستردام. لكن رسالة وصلت بعد ذلك من أوتاوا تصرّ على سفر المبعوث عبر باريس "لأنه ليست لدينا مساعدة كافية على الأرض في أمستردام". بكلمات أخرى، كان لديهم عملاء في فرنسا أكثر من العاصمة الهولندية.

لدى استعراض خيارات إيصال رجلهم وحمولته إلى مطار الملكة علياء الدولي في عمّان بأفضل طريقة ممكنة، والذي يبعد حوالى عشرين ميلاً إلى الجنوب من المدينة، قرّرا ألا يتركا شيئاً للمصادفة. تم إخراج سيارة مولي المضادة للرصاص من المرآب. بينما كانا يضعان اللمسات الأخيرة على خططهما، خيّم تحذير أوتاوا بأن الأمن ينبغي أن يكون سيد الموقف في التعامل مع جوازي السفر. تساءل أحد الحاضرين إن كان الأمر يتجاوز طاقتهم عندما نظر أحد رجال أمن السفارة إلى مولي وقال: "سعادة السفير؛ إذا أوقفنا أحد، سنقاتل!".

تم اتخاذ إجراءات خاصة أخرى. سُمح لمولي وبينيت بالوجود على أرض المطار لمرافقة رجلهما إلى طائرته. عندما هبط المبعوث من الطائرة في باريس، كان بانتظاره عملاء الاستخبارات الكندية الذين أمّنوا له الحماية طيلة مدة تواجده هناك لضمان صعوده وجوازي السفر إلى الرحلة التي ستقطع المحيط الأطلسي إلى أوتاوا.

لدى وصول جوازي السفر إلى العاصمة الكندية، خضعا لفحص علمي دقيق. أعلن لويد اسكورتي مرتاحاً أنهما "مزيفان تماماً... لم يكونا وثيقتين كنديتين".

نظراً إلى تاريخ إساءة استعمال إسرائيل لجوازات السفر الكندية، كان ردّ فعل أوتاوا بسيطاً بشكل مدهش؛ استدعاء قصير للسفير ديفيد بيرغر. لم يكن هناك تهديد – أو حتى إشارة – بقطع العلاقات التجارية، أو فرض شروط أقسى على منح سمات الدخول للإسرائيليين الراغبين بزيارة كندا. بالتأكيد لم يكن هناك اقتراح بوجود طلب لتسليم رجلي فريق الموساد –*أيه ودي* – لمواجهة اتهامات في كندا. أرادت أوتاوا، كما يبدو، ترك الأمر يمر بسلام.

كان الملك حسين يشعر بخيبة أمل مريرة من الدور الذي لعبه ياتوم[34]. كان ياتوم وعائلته يزورون القصور الملكية، ويقضون أحياناً الليل هناك. لكن عند مغادرته القصر الهاشمي في 25 أيلول بعد اعترافه بما فعله الموساد، أبلغ مسؤول أردني بارز ياتوم أنه ما دام بقي يترأس جهاز الاستخبارات الإسرائيلي، فإنه يُعدّ شخصاً غير مرغوب به في الأردن[35].

أسرع مبعوث الرئيس كلينتون إلى الشرق الأوسط، دينيس روس، إلى المنطقة خلال أيام من وقوع الهجوم، لكن الجمود في محادثات السلام استمر. من جانبهم،

استنتج الفلسطينيون أن لا شيء سيثني نتنياهو عن خططه لبناء مستوطنات أكثر وأكبر على أرضهم.

من دون خيارات أخرى، كان عرفات والسلطة الفلسطينية منخرطين في عملية السلام التي تدعمها واشنطن. لكن المفاوضات الحقيقية كانت قد أصبحت حوار عنف بين طرفين معارضين لصيغة أوسلو؛ حماس ونتنياهو[36]. كانت الرسالة لحماس وآخرين مما حدث في عمّان أن القوة هي اللغة الوحيدة التي يفهمها بنيامين نتنياهو.

وسط ذلك المأزق، تبخّر عرض الهدنة الذي قدّمه الملك حسين لنتنياهو في الهواء. كان إفرايم هالفي، الذي عاد إلى بروكسل لقضاء الأسابيع الأخيرة من عمله سفيراً هناك، قلقاً لأن قادته السياسيين أضاعوا فرصة نادرة لإشراك حماس بطريقة أكثر فاعلية مما كانوا قد فعلوا في حرب الشارع في أيلول. في عمّان، ادّعى مسؤولو القصر أن نظراءهم في الموساد أبلغوهم أن عرض الملك حسين المكتوب ليتوسط بنفسه في محادثات مع إسرائيل بشأن عرض حماس لهدنة مدتها ثلاثون عاماً قد وصل إلى القدس *قبل* الهجوم على خالد مشعل. لم تكن العاصمة الأردنية لتصدّق ببساطة ادّعاءات معاكسة من قبل نتنياهو ومستشاريه، التي لطالما تشبّثوا بها على أي حال. فهم الملك حسين الهجوم على خالد مشعل بأنه رد نتنياهو الفظ غير الرسمي على رسالته المهمة جداً.

لم يكن هالفي ساذجاً. كانت لديه تحفّظات أيضاً بشأن المدى الذي يمكن أن يصل إليه اقتراح الملك. بالرغم من ذلك، كان يعتقد أن هناك مسؤولية ملقاة على عاتق القيادة الإسرائيلية لاختباره بشكل جدّي. لم يكن هالفي يوافق على وجهة النظر السائدة على نطاق واسع في إسرائيل بأن القوة هي اللغة الوحيدة التي تفهمها حماس. كما كان يفهم الأمر، ربما كانت رسالة الملك حسين قد ساهمت في فهم إسرائيلي جديد لحماس كعنصر فاعل وقوي في المجتمع الفلسطيني. علّق لاحقاً: "لن نعرف أبداً، [لأنه] لم يكن هناك نقاش بتاتاً عن عرض الهدنة ذاك في وقت كان ممكناً تطبيقها فيه"[37].

كان أحد المظاهر الأكثر بروزاً للمنافسة الشديدة في العلاقة بين جهازي الاستخبارات الإسرائيلي والأردني هو الصراع الذي بدأ مباشرة، وسيستمر سنوات. كان الأمر يتعلق بمن يستطيع نسب الفضل إليه في تقديم العرض الهام الذي يتضمن الإشارة إلى إطلاق سراح الشيخ أحمد ياسين. ادّعى كلا الجانبين تقديمه للاقتراح.

قال هالفي إنها كانت فكرته[38]. كان يفهم جيداً أن على نتنياهو القيام بخطوة كبيرة ليرسل الإشارة الصحيحة إلى الملك حسين. لكن هل من المعقول أن يكون عرض إسرائيل الأول بتلك الجرأة؟ وإذا كان مسؤولون إسرائيليون بارزون قد ناقشوا الفكرة فيما بينهم ومع نظرائهم الأردنيين، لماذا لم يعلم شارون بذلك؟ قال مجالي وهبي إنه عندما طرح البطيخي اسم ياسين في اللقاء الحاسم ليل الاثنين في عمّان، أُصيب شارون بصدمة كبيرة حتى أنه عجز عن الكلام. قال وهبي: "لا أعرف إن كان تم طرح اسم ياسين عبر قنوات أخرى. لكن بالتأكيد كانت تلك المرة الأولى التي يسمع فيها شارون الاسم"[39]. أكّد البطيخي لاحقاً لزملائه أن عرض ياسين ظهر أولاً في اجتماع بينه وبين الملك حسين.

بينما كانت تلك المنافسة تدور بين الوكالتين، كان عليهما الانتباه فقط إلى رسالة مثيرة نُشرت في *جيروساليم بوست* قبل يوم من عودة ياسين إلى غزة، لتتذكرا أن اسم ياسين كان دائماً بالحسبان. كل ما كان مطلوباً لتفعيل الأمر هو لحظة يأس إسرائيلية.

كانت مؤلفة الرسالة إستير واكسمان والدة نخشون واكسمان، وهو جندي أسرته حماس قبل ثلاثة أعوام، وقد شكّكت في مجموعة قيم مواطنيها السائدة آنذاك. في وقت وقوعه في الأسر، شاهدت إسرائيل بأكملها نخشون يتوسل، في شريط فيديو أعدّته حماس وبثّته عبر تلفاز وطني، إطلاق سراح الشيخ ياسين ومئتين آخرين من سجناء حماس أملاً في الإبقاء على حياته. كان رئيس الوزراء آنذاك، رابين، قد رفض الصفقة، ولقي واكسمان حتفه في تبادلٍ لإطلاق النار عندما حاول مغاوير إسرائيليون إنقاذه. في رسالتها، خاطبت الأم بنيامين نتنياهو: "مبدأ عدم الخضوع للابتزاز تلاشى بعد ثلاثة أعوام من موت نخشون". موضّحة الفشل المزدوج في اغتيال مشعل ومحاولة إنقاذ ابنها، كتبت إستير واكسمان: "ربما كان ينبغي إطلاق سراح ياسين لإنقاذ حياة يهوديين اثنين، لكن بعد ثلاثة أعوام أضحى الوقت متأخراً جداً لإنقاذ حياة غالية واحدة؛ حياة ابني"[40].

كان رجلا الموساد قد عادا إلى إسرائيل وأفلتا من المحاكمة، لكن حماس والإخوان المسلمين كان لا يزال لديهم سبب كبير للاحتفال. في مساء 20 تشرين الأول – يوم اثنين بعد خمسة وعشرين يوماً من الهجوم على خالد مشعل – جاؤوا

بالمـــئات إلى قاعة احتفالات جبري في شارع الحدائق، على بعد بضعة مبانٍ فقط من المكان الذي وقع فيه الهجوم.

لم تكن هناك سوى بضع نساء في ذلك التجمّع، وكانت إحداهن رندا حبيب. كان الاتصال الهاتفي من مشعل ونـــزال إلى حبيب يوم الهجوم هو الذي أنقذ حياته. في حالـــة عاديـــة، كان متوقعاً أن يتصلا بشخص موثوق به من حماس أو الإخوان المـــسلمين، والذي ربما لم يكن ليحقق، في مثل تلك الظروف، إنجازاً يذكر. بدلاً من ذلـــك، كانا قد لعبا ورقة رابحة؛ الاتصال بصحافية لا يعرفانها حقاً، والتي بثّت تقريراً حول العالم قبل أن تحظى السلطات المحلية بفرصة للتعتيم عليه.

أرادت حماس وجود حبيب في الاحتفال لأن قصصها شكّلت الأساس لاستعادة مشعل عافيته. وهل هناك صحافي يضيّع فرصة معرفة القصة الداخلية لحماس من دون تكلّف؛ وإن يكن بطريقة حماس الخاصة؟

كانت رندا حبيب مندهشة من الصحة الجسدية التي بدا عليها مشعل المولود من جديد الذي تقدّم ونـــزال مستقبلي الضيوف.

كانـــت أمـــسية حماس عن الكفاح، الوطنية، والنصر على الإسرائيليين الذين انكشفوا أمام العالم. ملأت الأغاني، والشعارات، والإيقاع القوي لأناشيد الإسلاميين القاعـــة، واكتـــست الجدران بآيات من القرآن الكريم ورايات حماس. كانت لائحة الطعـــام تتألف من أنواع معروفة في الإقليم: مازة ومناسف من اللحم والأرز تبعتها حلـــويات كانـــت قاعة جبري مشهورة بها - بما فيها الشوكولاته *والكنافة* - وهي فطائر ضاربة إلى الحمرة مليئة بجبن نابلسي ومنقوعة بالقطر وماء الورد. لم يكن هناك مشروب، لكن الكثير من البيبسي وسفن - أب بقدر ما يستطيع الناس أن يشربوا.

كانـــت رندا حبيب مرغمة على الجلوس إلى طاولة النساء مع أمل، زوجة مـــشعل، وزوجـــات شخـــصيات بارزة أخرى من حماس والإخوان المسلمين. اكتشفت أنهن مرحات، وسعيدات، ومحجّبات. كانت حبيب الأنثى الوحيدة التي لم تكن محجبة.

بحذر - وحكمة، كما تبيّن - قال وزير الخارجية الكندي لويد اسكورثي إنه لا يـــستطيع إلاّ أن يـــصدّق تجديد إسرائيل لالتزاماتها السابقة *الأكيدة* بامتناع الموساد مستقبلاً عن منح عملائه غطاءً كندياً.

بعد أسابيع فقط من الأزمة في عمّان، اتصل ليزلي لويس، يهودي كندي يعيش في إسرائيل، بالسلطات الكندية ليخبرها أنه كان قد تلقى اتصالاً للتو مما يعتقد أنها واجهة للموساد[41]. إنه في الخمسينيات من العمر ويعمل محاسباً، اعترف لويس أنه كان قد تعاون مع الإسرائيليين في العام 1996، ومنحهم جواز سفره الكندي منتهي الصلاحية وأشكالاً أخرى من وثائق التعريف، بما فيها شهادة سياقته الكندية. لكن بعد محاولة اغتيال مشعل، كان قد رفض طلبهم الأخير لاستعارة جواز سفره الجديد. كانوا قد حاولوا أيضاً إقناع ابنته ديفورا بالسفر إلى كندا للحصول على جواز سفر، ثم العودة إلى إسرائيل حيث سيكون عليها تسليم وثيقة السفر الجديدة إلى الإسرائيليين[42].

كان على نتنياهو أن يتحمل تبعات قضية مشعل نيابة عن شعبه. كان ينبغي أن يدفع شخص ما الثمن، وفي اعتقاد الكثيرين، إن كان نتنياهو سيتلقى عقوبة طفيفة، كان على داني ياتوم أن يسقط.

سرعان ما تضرر ياتوم بتسريبات مؤذية أرخت بظلال من الشك على أدائه. اكتُشف في تشرين الثاني أن إسرائيل كانت على وشك دخول حرب مع سورية لأن أحد أبرز مديري ياتوم كان قد فبرك تقارير لتضخيم التهديدات الآتية من دمشق. كان الجاسوس قد احتفظ بالنقود التي كان يُفترض أن يدفعها لمخبرين طيلة أكثر من خمسة أعوام. لكن حتى مع تلك الصفعة الجديدة، رفض ياتوم الإقرار بأن أيامه مديراً للموساد أضحت معدودة.

قدمت لجنة التحقيق الإسرائيلية في قضية مشعل أخيراً تقريراً من 110 صفحات. لم يتم نشر الكثير من نتائجها رسمياً، لكن تسربت معلومات كافية ليعرف الإسرائيليون أن نتنياهو وياتوم كانا قد أدارا الهجوم على مشعل وحدهما. لم تكن هناك مفاجأة عندما انتقدت الصفحات القليلة من التقرير التي تم نشرها علانية في 14 شباط تعامل ياتوم مع المسألة. لكن كانت هناك صرخات ساخرة من المعارضة ومحللي وسائل الإعلام لقيام اللجنة بتبرئة نتنياهو.

كان ياتوم قد أصبح ياتم؛ بالعبرية، الكلمة تعني يتيم. كان مدير الموساد قد أضحى من دون غطاء سياسي. كانت شخصيات بارزة أخرى في الموساد تعمل مع عمّان قد استقالت آنذاك أو تمت تنحيتها جانباً. لكن ياتوم حافظ على موقفه، حتى

عندما واجه تمرداً من موظفيه بعد أن رفض الاستقالة. كان الأمر يتطلب مهمة فاشلة أخرى لتنحيته.

بعد أربعة أسابيع، باءت خطة لوضع أجهزة تنصّت على خطوط هاتفية يستعملها عملاء حزب الله في سبع مدن أوروبية بفشل ذريع. في لندن، لفت ثلاثة من العملاء الإسرائيليين الانتباه قبل أن يزرعوا الجهاز وكان عليهم الهرب من البلاد[43].

بعد أيام، ارتكب عملاء الموساد في بيرن عاصمة سويسرا المزيد من الأخطاء. كان هدفهم عبد الله زين، الذي يُعتقد أنه أحد قياديي حزب الله. كان خمسة من عملاء الموساد منشغلين بعملية تثبيت جهاز تنصّت على علبة الوصل الهاتفي في قبو بناء سكني حيث يعيش زين، في حي ليبفيلد. شاهدت سيدة يقظة اثنين من العملاء، اللذين كانا يقفان كثنائي ويراقبان الجوار. هرب أربعة، لكن تم إلقاء القبض على الرجل الذي يحمل جهاز التنصّت وحقيبة الأدوات[44].

أخيراً، استسلم ياتوم. لكن في رسالة استقالة لاذعة، رفض نتائج لجنة التحقيق التي حمّلته مسؤولية فشل الهجوم على مشعل. أقرّ ياتوم متردداً إنه يتحمل مسؤولية *عامة* عن نشاط الموساد.

مرة أخرى، تم استدعاء إفرايم هالفي لإصلاح الأمور. كانت مهمته كسفير إسرائيل لدى الاتحاد الأوروبي قد انتهت. بعد إفراغ صناديق الأثاث الجديد الذي كان وزوجته قد اشترياه في بلجيكا، تمت تسميته ليخلف داني ياتوم المستقيل مديراً للموساد.

بعد إسدال الستارة على عمل ياتوم في الموساد، وجد لاعبان آخران نفسيهما في وضع أفضل من ذي قبل. كان ملك الأردن حسين قد أبعد تهديداً خطيراً عن عرشه، وكانت حركة المقاومة الفلسطينية حماس قد ولدت من جديد ومستعدة للانضمام إلى المعركة من أجل فلسطين.

أصبح بنيامين نتنياهو أول رئيس وزراء لإسرائيل يكون مرغماً على الإقرار علانية بحدوث خلل في عمل الموساد. بعد خروجه من أقسى أزمة في حياته السياسية، أشار نتنياهو بإصبعه داخلياً؛ وأقرّ محاولاً التخفيف من وطأة الأمر: "لا أنكر أن صورة الموساد قد تأثرت ببعض المهمات الفاشلة"[45].



17

شقيق ضد شقيق

كانـــت العودة إلى الوطن فوضوية. بين الحماسة والهذيان، تدفق عشرات آلاف الغزّاويين عبر الشوارع والساحات الترابية، إلى استاد اليرموك الرياضي وحرم الجامعة الإسلامية، لرؤية الشيخ أحمد ياسين، الرجل العجوز الضعيف الذي لا يبدو عليه أنه عدوٌّ للسلام.

عـــندما كـــان طفـــلاً، تربّى ياسين على يدي والدته الأرملة في مخيم الشاطئ للاجـــئين، على بعد مرمى حجر من البحر المتوسط. كان قد تعرض للشلل من عنقه إلى الأسفل عندما كان عمره اثني عشر عاماً. بالرغم من إعاقته، أنجب أحد عشر ولداً وعمـــل مدرّساً؛ وفي الوقت نفسه كان قد بنى شبكة دينية وخيرية أصبحت العمود الفقـــري لحماس. في خلال كل ذلك، قدّم ياسين للغزّاويين منهجاً جديداً أكثر جذباً مـــن الفساد والرشوة اللذان اعتمدهما منظمة التحرير الفلسطينية والسلطة الفلسطينية بقيادة ياسر عرفات.

في الإثارة التي رافقت إطلاق سراح ياسين من السجن، جرفت العاطفة البعض وشـــبّهوه بآية الله الخميني في إيران. ربما كان مناسباً مقارنة السلطة الروحية الواسعة الـــتي كـــان قد مارسها على الأراضي المحتلة من زنـــزانة سجنه مع القيادة من المنفى بـــتلك التي مارسها نيلسون مانديلا من سجنه في جنوب أفريقيا. لكن شعاراً جدارياً ظهر قرب منـــزله كان يصفه بدقّة كبيرة. كان يحيّي ياسين بصفته *شيخ الانتفاضة*.

في الحادية والستين من العمر آنذاك، وصل ياسين إلى غزة في أوائل تشرين الأول مـــن العـــام 1997 مع المزيد من التعقيدات؛ مشكلة في العين، صعوبات في السمع، وعدم انتظام التنفس. كان هزيلاً، يتراخى أحياناً إلى جانب كرسيه المدولب، وعيناه الـــضعيفتان ضائعتان في الفراغ. كان جلده شاحباً وعظامه هشة، وبدا أنه يبقى على الكرسي فقط بثقل البطانية التي يلفّه بها أفراد عائلته القائمون على خدمته. بالنسبة إلى العديـــد مـــن الإسرائيليين، كان ياسين تجسيداً للشيطان. لكن بالنسبة إلى كثير من

الفلسطينيين، كانت كلمات الخطيب رقيق اللحية، حياتهم، وما كانوا يعتبرونه حب خدمتهم من دون أنانية تجسيداً لصراعهم.

بينما كان ياسين يتجول في قطاع غزة، ملأ قرع الطبول والأغاني، الدينية والوطنية، الجو. رقصت تلميذات المدارس بفساتينهن البيضاء الجميلة. احتشد شباب مع رايات تحمل صوراً لياسين وأبطال حماس الآخرين. ابتهلت حشود منتشية بالشكر لما كان ثاني نجاة مميزة لياسين من الأسر لدى الإسرائيليين. في 1984، كان قد حُكم عليه بالسجن خمسة عشر عاماً بعد اكتشاف مخبئه للأسلحة، فقط ليتم إطلاق سراحه في تبادل للأسرى بعد سنة. كان هناك مجدداً، يستمتع بحريته غير المتوقعة نتيجة اتفاق مثير للاهتمام. كانت شناعة ما رشح ستستمر بعض الوقت لتختفي بالنسبة إلى كل من الفلسطينيين والإسرائيليين على حدٍّ سواء.

لتقدير ما كان ملك الأردن حسين والرئيس بيل كلينتون قد حقّقاه، من الضروري العودة إلى الأسابيع الأولى من العام 1997، لرؤية الأراضي المحتلة كما كانت تبدو من مكتب داني ياتوم. بعد حوالى عام من تقلّده منصبه في الموساد، انتابت ياتوم مشاعر الاعتداد بالنفس عندما أخذ يراجع ملف حماس.

كان ياسين، مؤسس الحركة وقائدها الروحي، يقضي عامه الثامن من عقوبته في سجن كفار يونا الإسرائيلي. كان موسى أبو مرزوق، رجل ياسين الموثوق به في المكتب السياسي الذي يتخذ من عمّان مقرّاً له، محتجزاً لدى الأميركيين ويقبع في سجن مانهاتن استعداداً لترحيله إلى إسرائيل، حيث سيُسجن بالتأكيد، ويُرمى بالمفاتيح بعيداً.

كان هناك أيضاً خالد مشعل، القيادي الغامض من الكويت، الذي كان قد تسلّم القيادة الخارجية بعد سجن أبو مرزوق. وكان داني ياتوم سيقتل مشعل؛ تم رسم الخطة قبل عام، وعلّق تنفيذها. لقد كانت مسألة وقت فقط، كما قدّر ياتوم، قبل أن تتم تصفية مشعل.

بغض النظر عن تلك المحاولة الإسرائيلية للقضاء على رؤوس قيادة حماس، كانت زيادة الولاء الشعبي لعملية أوسلو قد ساعدت في تهميش حماس، وتحييد الحركة بفاعلية[1]. أيضاً، كانت قوات عرفات الأمنية قد أمضت العامين الأخيرين في تقويض حماس في الأراضي المحتلة، باعتقال قيادييها وأنصارها بالآلاف. وكانت أختام رسمية،

تتألف من قطع شمع أحمر، تميز أبواب عشرات من مؤسسات حماس التي كان عرفات قــد أغلقهــا. كــان ذلــك يثبت استعداداً قائد منظمة التحرير الفلسطينية لسحق الإســلاميين إذا اســتمروا في تحدّي سلطته في الأراضي المحتلة. اشتكى الشيخ ياسين علانــية من فاعلية حملة عرفات، وتحسّر على قيام الأجهزة الأمنية التابعة لقائد منظمة التحرير الفلسطينية بإفشال أكثر من 170 ضربة عسكرية كانت حماس ستقوم بها ضد إسرائيل في العامين الماضيين[2].

كانت واشنطن قد استنتجت أن جهاز الأمن الوقائي التابع لعرفات يعمل جيداً لــتقويض حمــاسٍ[3]. بالرغم من تفجيري القدس اللذين أثارا غضب نتنياهو، إلا أن دبلوماســيين أميركيين في إسرائيل قدّروا أن الجهود المشتركة لعرفات والإسرائيليين كانــت تدفــع حماس إلى حافة الانهيار المؤسساتي والعسكري. بيّن مسؤول أميركي بــارز: "لم يكن الأمر يتعلق فقط بوجود أبو مرزوق في السجن واعتقال الإسرائيليين لياسين. كانت حماس تشهد أسوأ سنة لها. لكن فشل الموساد في عمّان غيّر حظها"[4].

بفشلهما في اغتيال مشعل، كان نتنياهو وياتوم قد سحبا حماس من القبر. كان أبــو مرزوق بليغاً في تقييم الطريقة التي تغيّرت بها الظروف لصالح الحركة. قال: "إذا فــشل عــدونا، هذا يعني أننا أقوى من أي وقت مضى"[5]. كان ممكناً استبدال أبو مــرزوق علــى رأس قيادة حماس في الخارج في خلال فترة اعتقاله، لكنه كان حراً آنــذاك؛ وقد عاد مشعل، بديله، من الموت؛ وبعد محاولة الاغتيال الاستثنائية الفاشلة، كان الشيخ ياسين قد عاد إلى مكانه أيضاً.

علاوة على ذلك، كانت استراتيجية نتنياهو بإرغام عرفات على اتخاذ إجراءات صارمة ضد حماس قبل حصول الفلسطينيين على تنازلات إسرائيلية قد أصبحت أسمالاً بالــية، لأن الــتأثير المشترك لمسألة مشعل والانهيار المحتمل لعملية سلام أوسلو جعل حمــاس أكثر شعبية في الأراضي المحتلة وعرفات أقلَّ شعبية. وبغياب سلام يحقق فوائد للفلسطينيين، أصبح خطيراً جداً أن يستمر عرفات بالقيام بما كان، في عيون الكثير من أفراد شعبه، يعدّ عمل الإسرائيليين القذر في قمع حماس.

كــان ياسين غائباً عن غزة معظم سنوات الانتفاضة وكل عملية أوسلو، وهي مــدة شــهدت اضطراباً، تميّزت بتشكّل شخصية سياسية مستقلة، وكانت مُحبطة للفلسطينيين أيضاً. لدى عودته، وجد أن النسيان يكاد يلف مجتمعه وحركته.

المهـــم أن عـــرفات كان قد عاد إلى غزة أيضاً، ولم يكن التاريخ المشترك لهذين الـــرجلين يبشر بالخير. في الأيام الأولى لحماس، كان عرفات قد وصف أتباع ياسين بـــأنهم نمل يمكن أن يسحقهم تحت قدميه[6]، لاحقاً، بعد أن تلقى ياسين تشجيعاً من إســـرائيل في الثمانينيات لتقويض حركة فتح التي يهيمن عليها عرفات، اتهمته منظمة التحرير الفلسطينية بأنه خائن.

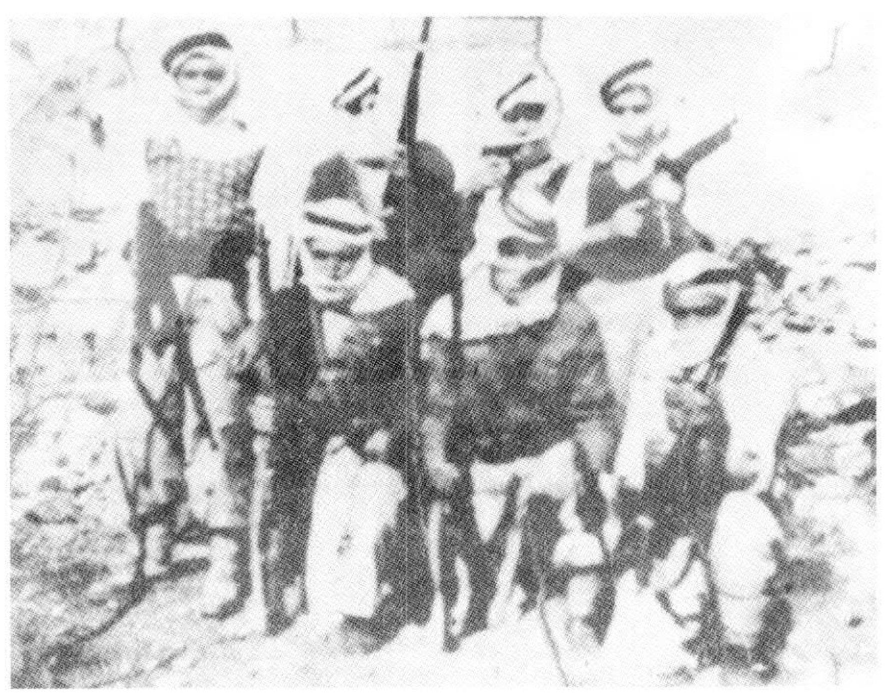
في خــــلال غياب ياسين في السجن، كان عرفات قد اعتمد استراتيجياً أوراقاً مختلفة، وتعهّد للأميركيين بأن يسيطر على حماس، إلى جانب فصائل مقاومة أقل شأناً والتي لم يكن مقاتلوها ينضوون تحت جناح منظمة التحرير الفلسطينية، وتأتي أوامرها من خارج الأراضي المحـــتلة. منذ سيطر عرفات على غزة وأجزاء صغيرة من الضفة الغربية في العام 1994، كان قد تعامل مع حماس مثلما كان الإسرائيليون يعاملون الفلسطينيين في الماضي. في العام 1995 ومجدداً في العام 1996، كان قد اعتقل أكثر من ألف ناشط ونصير لحماس.

كـــان يتم احتجاز أعضاء حماس ومعتقلين آخرين في زنـــزانات انفرادية، غالباً لـــشهور من دون محاكمة. كان التعذيب واسع الانتشار، ونجم عنه أربع عشرة حالة وفـــاة في السجن منذ عودة عرفات. كانت أصوات الفلسطينيين عادة عالية، لكن في عهد جديد من الخوف أصبح كثيرون مترددين في انتقاد النظام.

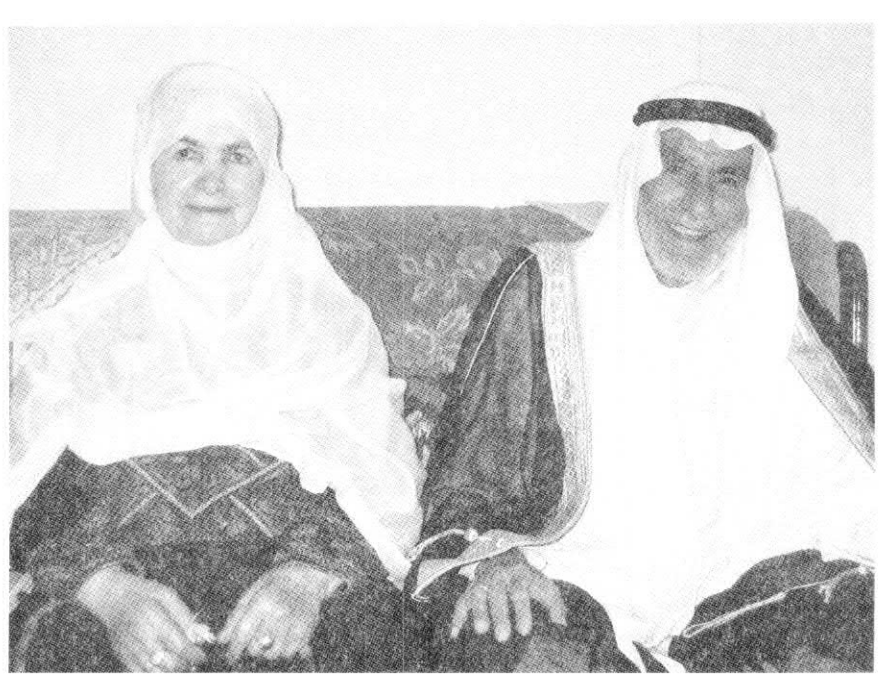
كـــان عـــرفات قد سيطر على المساجد التابعة لياسين، وحاول إغلاق الكثير من جمعيات حماس الخيرية. حذّر كرّاس لحماس، نُشر قبل إطلاق سراح ياسين، عرفات بأن المـــساجد: "قـــلاع تمثّل حصوناً للثورة ضد الفساد. وأن الحفاظ على استقلالية وحرية المساجد خط أحمر سيحافظ عليه شعبنا بقوة". من زنـــزانته، كان ياسين قد شن هجوماً عنيفاً، محذّراً من أن أي اعتداء على مؤسسات حماس "ينبغي أن يُقاوم بالعنف".

بالرغم من ذلك، كان ياسر عرفات يمسك آنذاك بيد ياسين الذي تم إطلاق سراحه حديثاً ويقول له مُطمئناً: "إن شاء الله، سنصلي معاً في المسجد الأقصى [في القدس]".

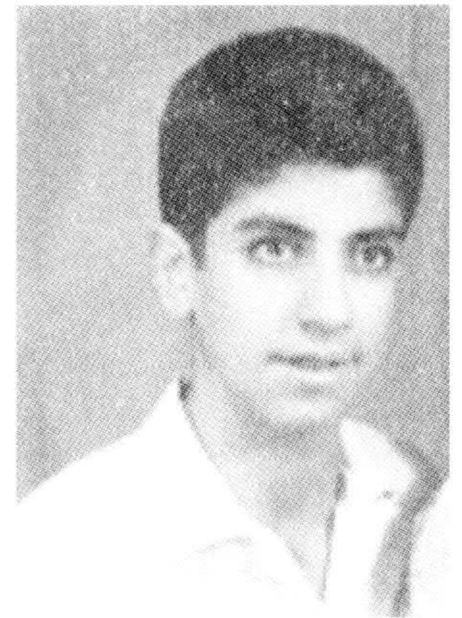
لم يتأثـــر ياســـين بتلك الإشارة التي تبدو مرْضية. مع وجود مئات من أعضاء حمـــاس الـــبارزين معـــتقلين في سجون عرفات، قلّل من شأن قائد منظمة التحرير الفلـــسطينية، وادّعـــى باستفزاز أن حماس تمثّل كل ما كان عرفات قد تخلى عنه في الكفـــاح ضد الإسرائيليين. سأل ياسين: "ماذا لديه غير ذلك؟[7] لقد حاول استعادة حقوقنا، لكن إذا لم يستطع ذلك ينبغي أن يتنحّى جانباً ويسمح لآخرين بالمحاولة"[8].



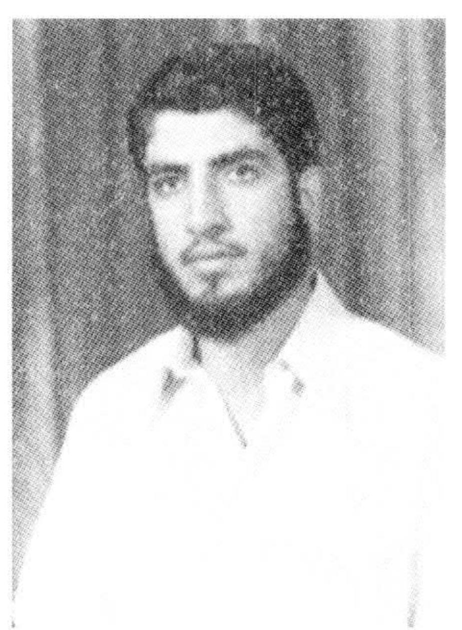
1936–1939: الثورة العربية. والد مشعل، عبد القادر، يشير إلى الشخص الذي يرتدي الكوفية في وسط الصف الأمامي لهذه المجموعة من المقاتلين الفلسطينيين ويقول: "هذا أنا". مجموعة صور عائلة عبد القادر.



آب 2007: فاطمة والشيخ عبد القادر، والدي خالد مشعل، في منزلهما في عمّان خلال مقابلة أجراها معهما المؤلف بول ماغوو.



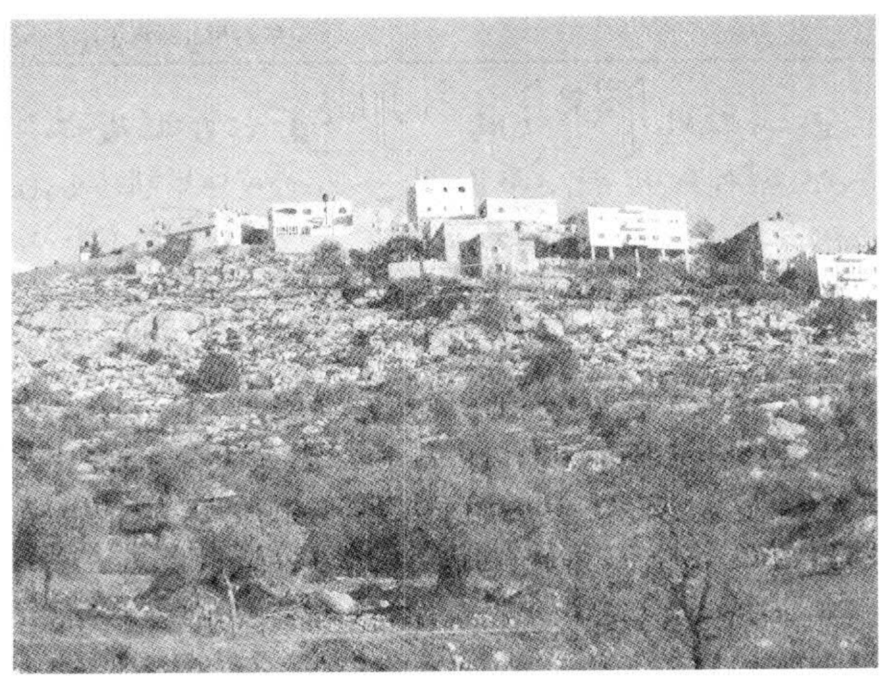
1971: بعمر خمسة عشر عاماً في مدرسة
عبد الله السالم الصباح في الكويت،
اختار خالد مشعل أن يكون إسلاميا.
أرشيف حماس.



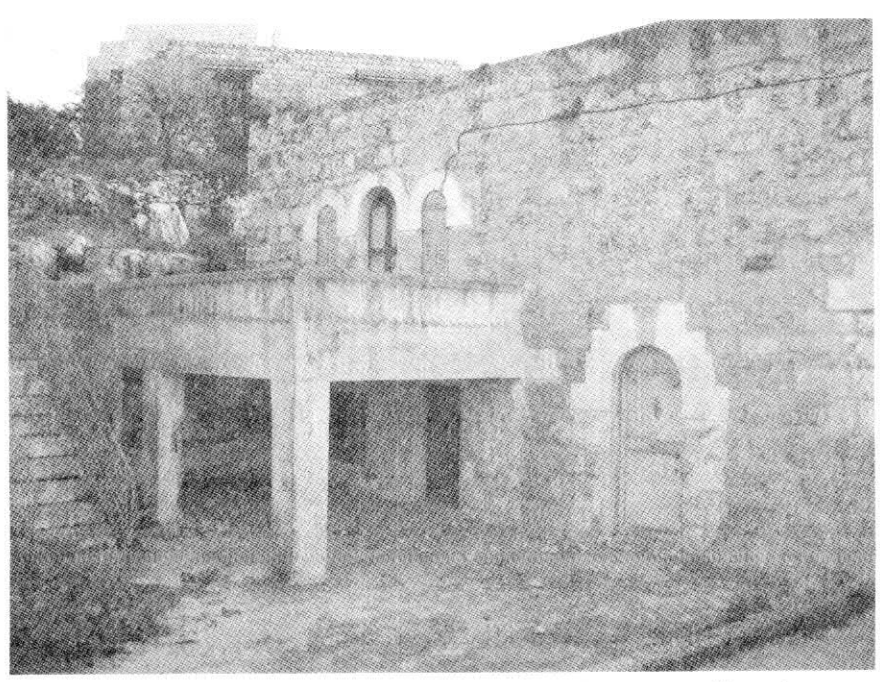
تشرين الأول 1977: خالد مشعل في السنة الأخيرة
من دراسته للفيزياء في جامعة الكويت.
أرشيف حماس.



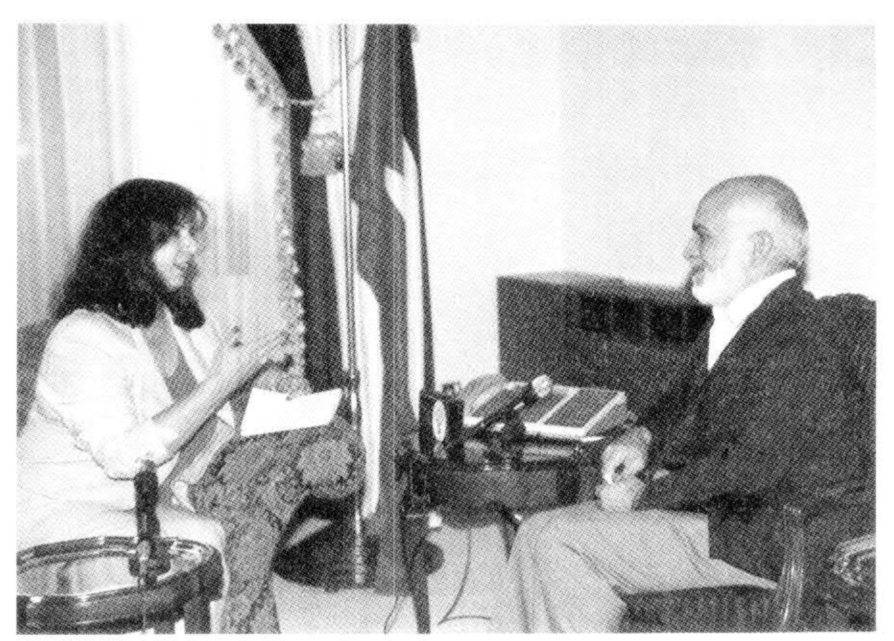
حزيران 1974: صف تخرج مشعل في مدرسة عبد الله السالم الصباح في الكويت
مشعل يقف خلف المدرّسين الجالسين وهو السادس من اليسار.
أرشيف حماس.



تشرين الثاني 2007: راس علي، في الطرف الشمالي من سلواد،
حيث عاش مشعل عندما كان طفلاً.
بول ماغوو.



تشرين الثاني 2007: منزل عائلة خالد مشعل المتداعي في سلواد، في الضفة الغربية.
بول ماغوو.



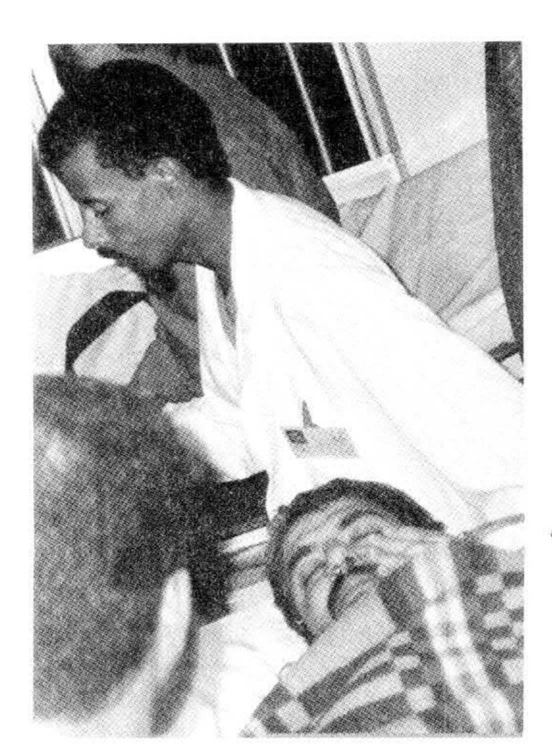
آب 1993: رندا حبيب، رئيسة مكتب وكالة الصحافة الفرنسية في عمّان،
تجري مقابلة مع ملك الأردن حسين.
مجموعة صور رندا حبيب.



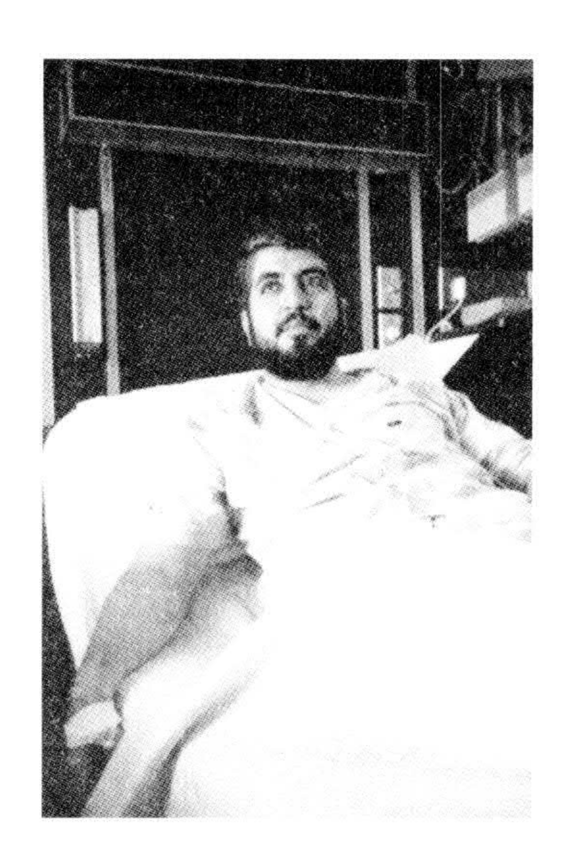
آذار 1997: خالد مشعل في مكتبه في عمّان.
أرشيف حماس.



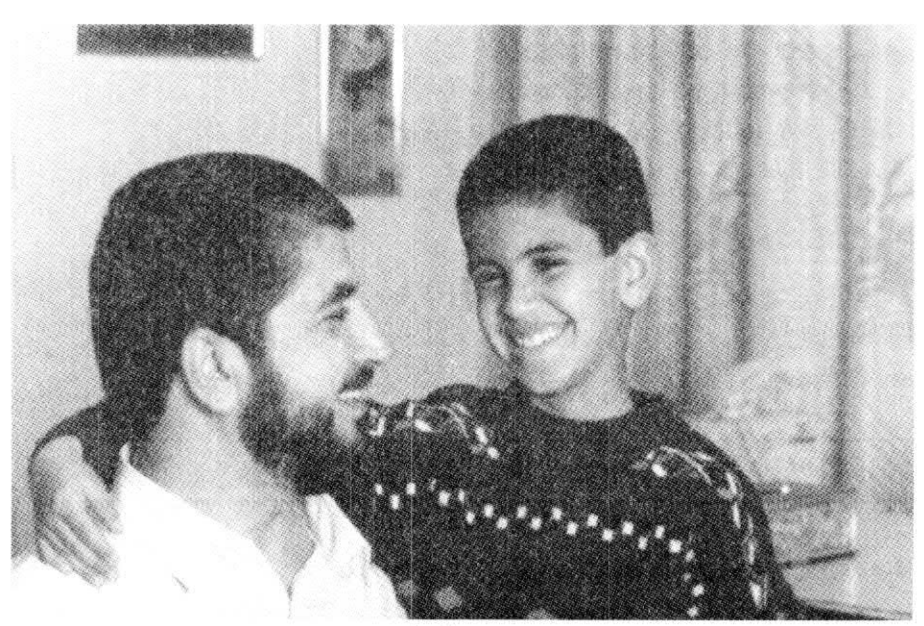
25 أيلول 1997: مشعل في غيبوبة أثناء نقله بين مستشفيين في عمّان بعد ساعات من محاولة الموساد الفاشلة لاغتياله.
وكالة الصحافة الفرنسية.



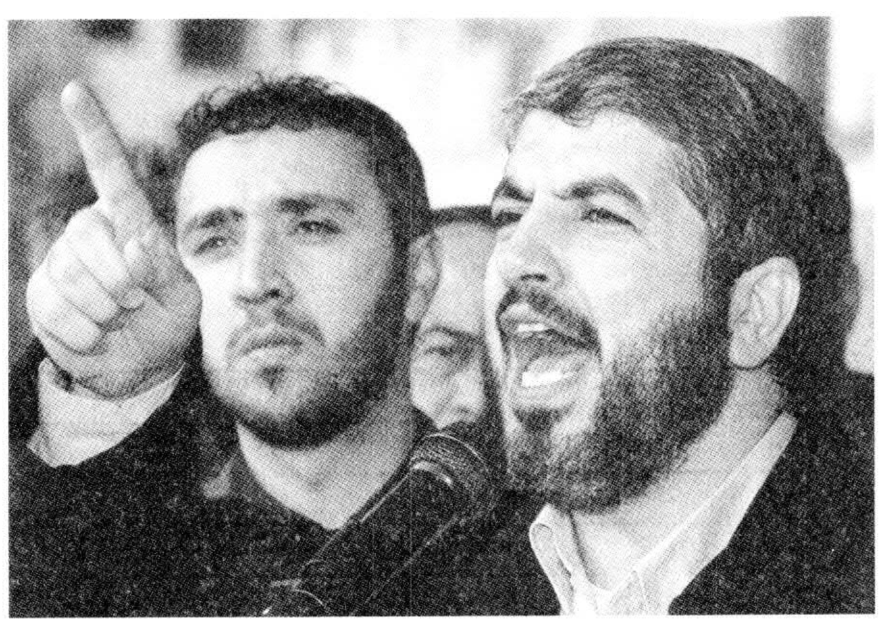
25 أيلول 1997: طبيب في المستشفى الإسلامي في عمّان يشرف على نقل مشعل إلى مدينة الملك حسين الطبية.
وكالة الصحافة الفرنسية.



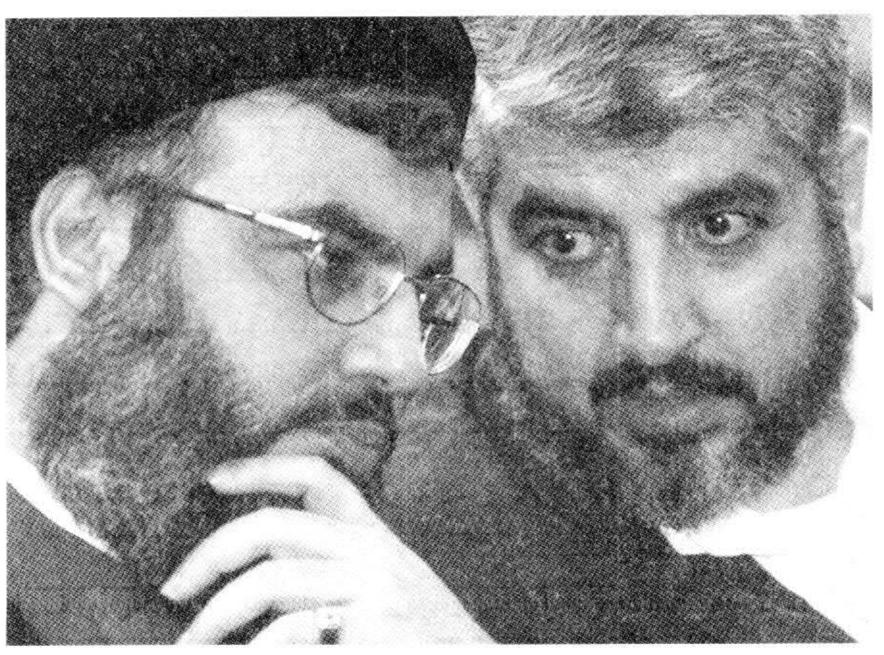
تشرين الأول 1997: بعد أيام من هجوم الموساد، كان مشعل لا يزال على سريره في مدينة الملك حسين الطبية.
أرشيف حماس.



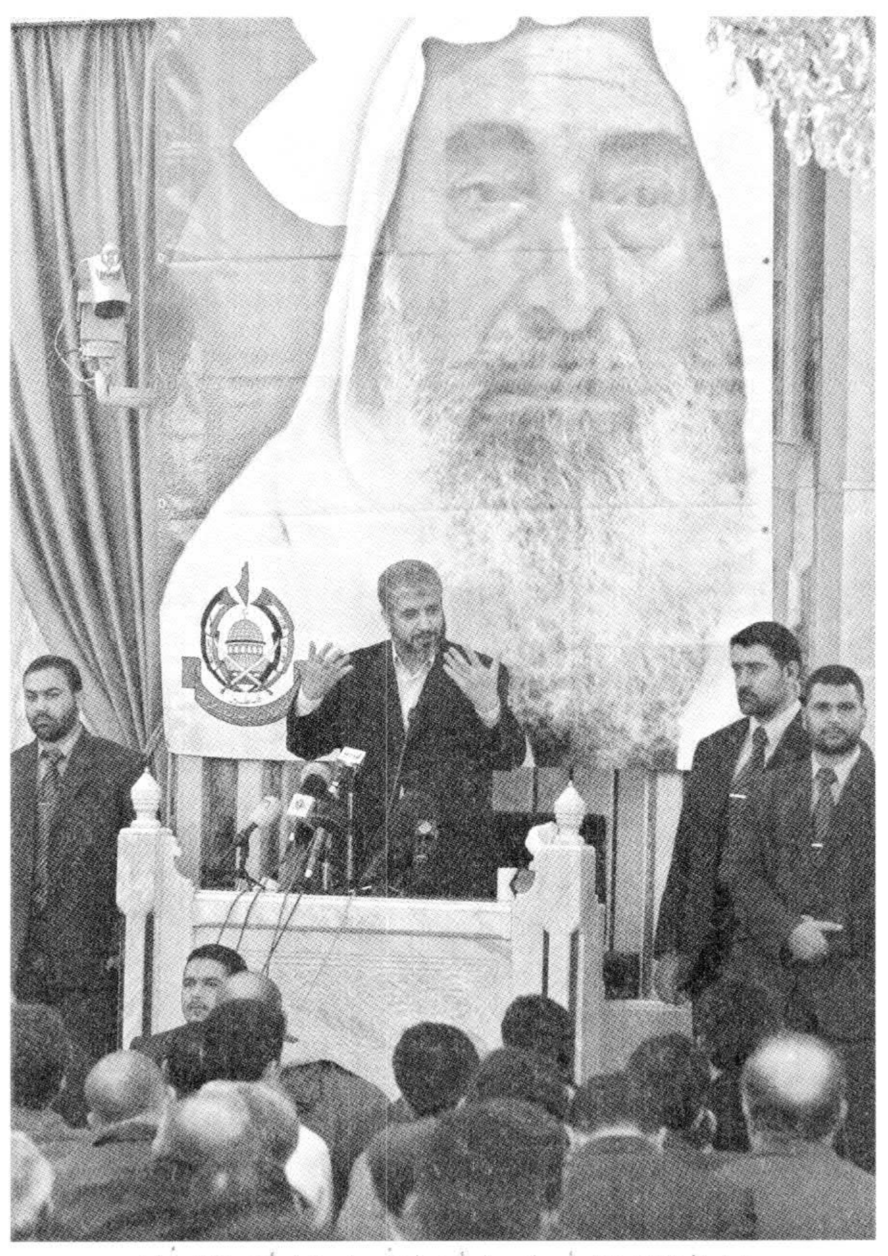
تشرين الأول 1997: مشعل مع ابنه البكر وليد، أحد أبنائه الثلاثة الذين شهدوا هجوم الموساد.
أرشيف حماس.



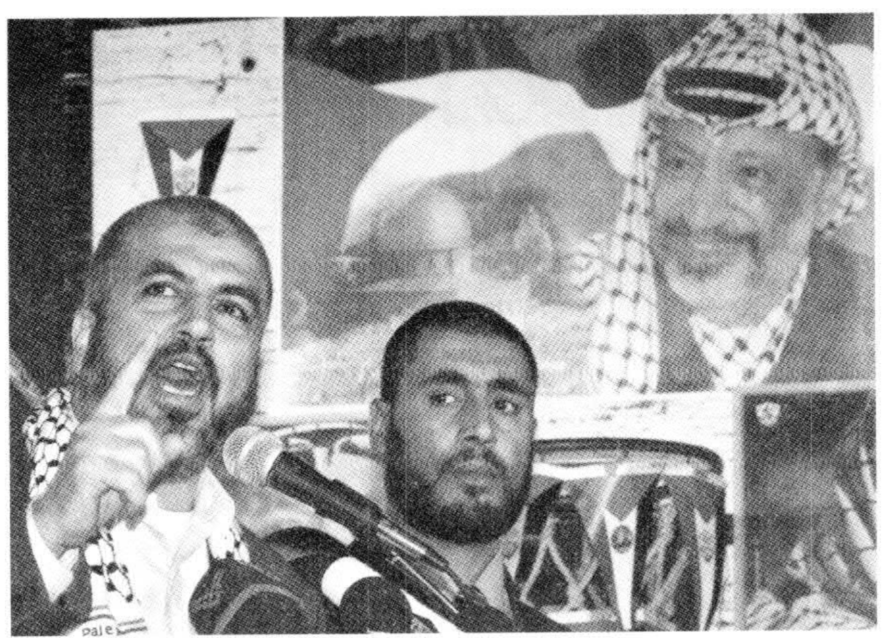
29 تشرين الثاني 2000: بعد شهرين من اندلاع الانتفاضة الثانية، مشعل يتكلم إلى حشد من اللاجئين الفلسطينيين في مخيم اليرموك بدمشق. أعلن: "المفاوضات عقيمة وعديمة الفائدة. الخيار الوحيد هو الاستمرار في الانتفاضة وتصعيد المقاومة".
أرشيف حماس.



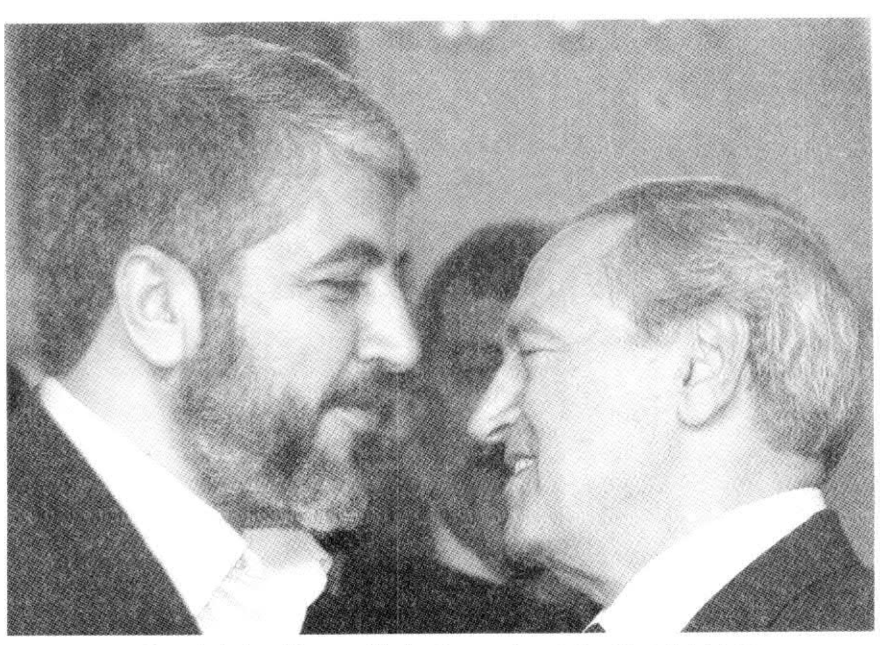
27 آذار 2005: حديث هادئ بين مشعل والأمين العام لحزب الله حسن نصر الله خلال مؤتمر لمسؤولين من كلتا المنظمتين في الأيام التي أعقبت قيام إسرائيل باغتيال الشيخ أحمد ياسين.
أرشيف حماس.



3 شباط 2005: شكل أربعة رجال أمن طوقاً حول مشعل أثناء إلقائه خُطبة خلال صلاة الجمعة في أحد مساجد طهران – حارس إلى اليسار، اثنان إلى اليمين، وآخر في الأسفل وأمام مشعل، ينظر إلى المصلّين.
أرشيف حماس.



11 تشرين الثاني 2005: محمد أبو سيف، الحارس الشخصي الذي قبض على اثنين من عملاء الموساد الذين هاجموا خالد مشعل في أيلول 1997، يقف إلى جانب مشعل في تجمّع حاشد لحماس بدمشق.
أرشيف حماس.



3 شباط 2006: نائب الرئيس السوري فاروق الشرع يستقبل مشعل في دمشق.
أرشيف حماس.



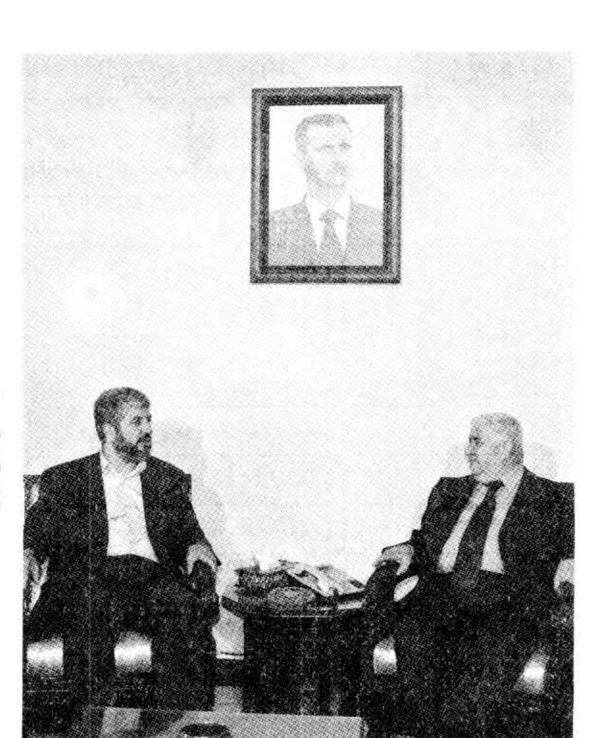
16 شباط 2006: في أنقرة، مشعل يتكلم إلى صحفيين بعد لقائه وزير الخارجية عبد الله غل. نقلت توركيش ديلي نيوز Turkish Daily News أن رئيس الوزراء رجب طيب أردوغان ألغى اجتماعاً كان مخططاً مع مشعل نتيجة ضغط من إسرائيل وحكومات أخرى.
أرشيف حماس.



21 شباط 2006: المرشد الأعلى للثورة الإسلامية في إيران آية الله علي خامنئي يستقبل مشعل بعد أسابيع من فوز حماس بالانتخابات.
أرشيف حماس.



21 شباط 2006: في طهران، الرئيس الإيراني محمود أحمدي نجاد يستقبل مشعل.
أرشيف حماس.



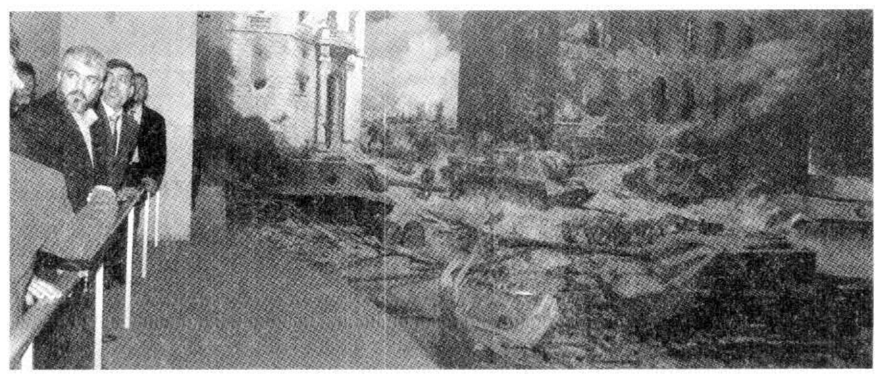
27 شباط 2006: مشعل يجري محادثات مع وزير الخارجية السوري وليد المعلم في دمشق.
أرشيف حماس.



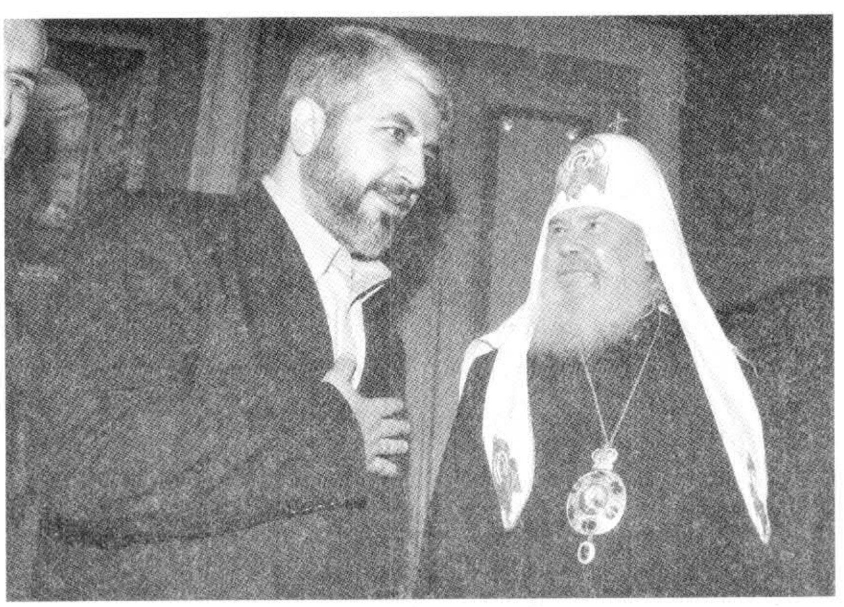
3 آذار 2006: خالد مشعل يعرض قضية حماس على وزير الخارجية الروسي سيرجي لافروف (ظهره لآلة التصوير) خلال اجتماع في موسكو - أول تصدع رئيسي في الحصار الدولي على حماس.
أرشيف حماس.



3 آذار 2006: مشعل ووفد حماس يعقدون مؤتمراً صحفياً بعد جولة مباحثات رسمية في موسكو. جلوساً من اليسار إلى اليمين: محمد نزال، موسى أبو مرزوق، خالد مشعل، سعيد صيام، وسامي خاطر. يقف خلفهم أفراد من أمن حماس - بينهم محمد أبو سيف (بلحية سوداء)، حارس مشعل الشخصي.
أرشيف حماس.



آذار 2006: كانت دعوة الرئيس الروسي فلاديمير بوتين لمشعل للسفر إلى موسكو بعد فوز حماس في الانتخابات أسمى اعتراف بالحركة الإسلامية خارج الشرق الأوسط. هنا، يتلقى مشعل معلومات عن تاريخ روسيا خلال زيارة إلى متحف عسكري في العاصمة الروسية.
أرشيف حماس.



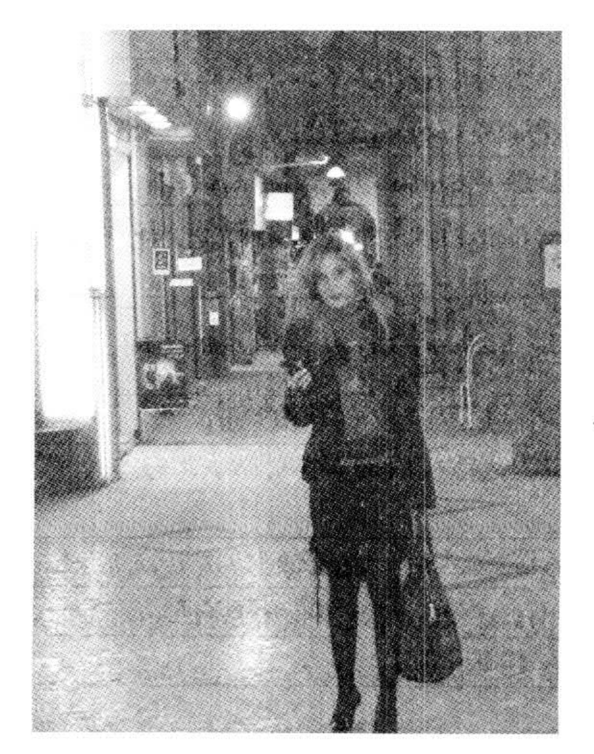
5 آذار 2006: في اجتماع مع رأس الكنيسة الأرثوذكسية الروسية، البطريرك ألكسي الثاني، سمع مشعل دعماً لقيام دولة فلسطينية – لكنه جاء مع تذكير قوي بأن تلك الدولة لا يمكن أن تقوم إلا عبر الحوار.
أرشيف حماس.



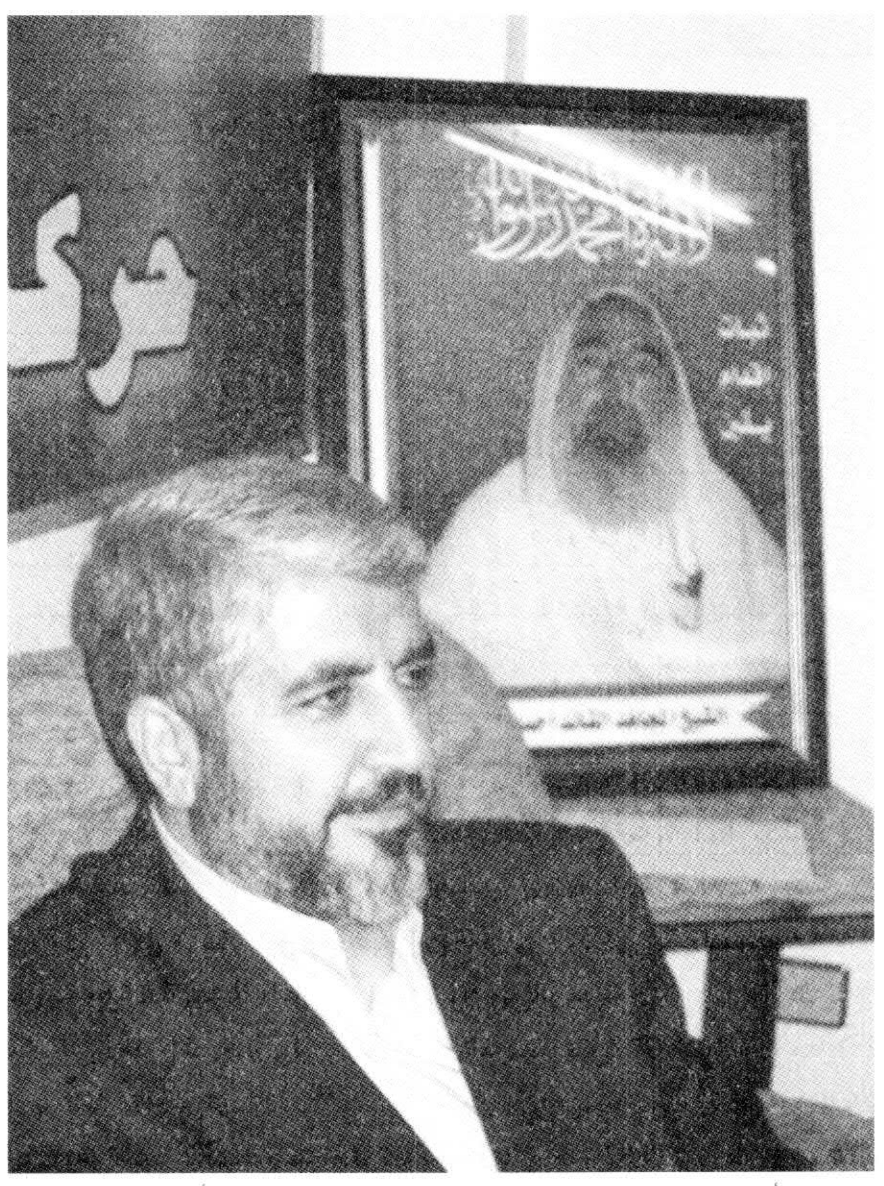
5 آذار 2006: كان مشعل وحماس محظورين من قبل معظم العواصم. لكنهما لقيا ترحيبا في موسكو، بعد أن حذّر الرئيس فلاديمير بوتين من عزل حماس. قال لمراسلين: "أنا مقتنع تماماً أن حرق الجسور في السياسة أمر في غاية السهولة، لكن ذلك لا يجدي نفعاً، ولا يحمل أملاً بالمستقبل".
أرشيف حماس.



27 آب 2006: بعد لقائه خالد مشعل في دمشق، قال القس جيسي آل. جاكسون لمراسلين إن مشعل أكَد له أن جلعاد شاليط، الجندي الإسرائيلي الأسير لدى أفراد المليشيا الفلسطينية منذ شهرين، لا يزال حياً.
أرشيف حماس.



أيلول 2007: قبل عشر سنوات تقريباً، عادت الصحافية رانيا قدري إلى مسرح الجريمة - الرصيف حيث هاجم عملاء الموساد خالد مشعل في 25 أيلول 1997.
بول ماغوو.



أيلول 2007: خالد مشعل خلال مقابلة في دمشق. خلفه صورة للشيخ أحمد ياسين، الزعيم الروحي لحماس الذي اغتالته إسرائيل في 22 آذار 2004.
بول ماغوو.

حـــتى مـــع تصعيد لهجتها الكلامية، بدا أن حماس تعرف أنها بحاجة إلى وقف ضـــرباتها، وأن الحـــرب مـــع فتح تمثّل انقساماً ستستفيد منه إسرائيل. عندما بدا أن الـــساحة أصبحت جاهزة للحرب الأهلية، حذّر محمد دحلان، رئيس أمن عرفات في غـــزة، مـــن عواقب ذلك على المعارضة من الإسلاميين. قال بحدّة، محذّراً من أن أي نشاط لحماس سيُعد عقبة أمام عملية السلام: "لا أكترث إن كانوا مسلحين أم لا".

كانـــت عـــودة ياســـين إلى غزة تتطلب من عرفات الاشتراك بفاعلية معه في الـــسلطة. كانت سلطة قائد منظمة التحرير الفلسطينية، الذي لُقّب في مرحلة مبكرة مـــن حياته العملية بالسيد فلسطين، قد تضررت - لكن ببساطة - كان يتنافس مع ياسين على الرقعة الفلسطينية نفسها.

اكتـــشف ياســـين أيضاً أنه في خلال غيابه القسري، كانت حماس قد تغيرت. كانـــت الميليـــشيا الرثّة التي أدارتها الحركة في أثناء وجوده في السجن قد تحولت إلى كتائب القسّام المتطورة، المنضبطة والفعّالة بقوة، والتي يمكن لهجماتها أن تقتل عشرات الإسرائيليين وتجرح مئات آخرين.

كانـــت هناك تغييرات عميقة أخرى. إذ كان العديد من قادة الإخوان المسلمين مـــن جيل ياسين - الذين استمدوا سلطتهم من ورعهم وتديّنهم - قد تم استبدالهم بجـــيل جديـــد من الثوار الإسلاميين[9]. وكان حرس ياسين القديم، الذي يضع البقاء علـــى قيد الحياة فوق المواجهة الصريحة مع الإسرائيليين، قد نُحّي جانباً من قبل محاور جديدة أكثر تشدداً، رجال أكثر انغماساً بالوطنية والسياسة من الدين. في الثمانينيات والتـــسعينيات، كـــان أبرز القادة شخصيات دينية؛ وفي العام 1997 كان حوالى 95 بالمـــئة من الحشد الجديد الذي خرج لتحية ياسين ورعاً لكنه يتمتع بوجهة نظر أوسع نطاقاً. كان أولئك خريجي الجامعات الذين أشار إليهم خالد مشعل بمثقّفي حماس[10].

إذا كانـــت حمـــاس القديمة محدّدة بالدورين الداخلي والخارجي للشيخ ياسين وتلميذه أبو مرزوق، فإن دخولهما السجن على جهتين متقابلتين من الكرة الأرضية في التسعينيات ترك فراغاً ملأه في الخارج خالد مشعل وفي الداخل عبد العزيز الرنتيسي، القـــيادي البارز في غزة وطبيب الأطفال الذي رفض، بالرغم من قضائه بعض الوقت في ســـجون إسرائيلية، التخلي عن أي من مطالب حماس الجوهرية أو تخفيف اللهجة الـــتي تتحدث بها. كانت القيادة الجديدة تغلي في مراجل الإبعاد إلى جنوبـــي لبنان

وبالصراع من أجل البقاء ضد السلطة الفلسطينية بقيادة عرفات والقوات الإسرائيلية. إنهم تكنوقراطيون (فنيون) أكثر من متدينين، كانوا رجالاً يمتلكون رؤية للحركة أكثر وطنية ويعملون بتنظيم أكبر مما كان عليه ياسين. إنه إن كان الشيخ إصلاحياً، سيكونون أكثر ثورية.

لطالما كان ياسين رجلاً صبوراً. كان قد اكتشف من آية في القرآن الكريم أن التاريخ المحلي يتغير على مراحل مدة كل منها أربعون عاماً. كان الفلسطينيين قد حُرموا أولاً من أرضهم في العام 1984، واندلعت الانتفاضة في العام 1987. لهذا استنتج أن الكفاح لاستعادة أرضهم المحتلة قد يستمر حتى العام 2027[11]. حتى نهاية الثمانينيات، كان ياسين قد تجنّب العنف، وأصرّ بدلاً من ذلك على أن واجبه يقضي بتجهيز الفلسطينيين، روحياً وأخلاقياً، للمسيرة الطويلة. لكنه رمى بنفسه بعد ذلك في الانتفاضة. آنذاك، بعد غياب استمر ثمانية أعوام، كان يتم تحليل كل كلمة ينطقها حتى آخر مقطع صوتي بحثاً عن دلائل حول طريقة إدارته لحماس.

أُصيبت كل الأطراف بالدهشة عندما حثّ ياسين على تجنُّب المدنيين الإسرائيليين في هجمات حماس. بعد ذلك، في أثناء حديثه إلى مراسلين أجانب في منزله بعد أسبوعين من عودته، أعلن أن حماس علّقت كل الهجمات على إسرائيل. سأل: "لقد توقفنا [مجدداً]. كنا قد توقفنا شهوراً مرات عديدة، لكن الإسرائيليين استمروا في هجماتهم. لماذا لا يتوقفون؟". مشدّداً على أنه يتكلم عن تهدئة وليس عن وقف لإطلاق النار، تابع قائلاً: "يرغم الاحتلال شبابنا على القتال. إذا توقف [الإسرائيليون]، سنتوقف"[12].

كانت الفكرة التي بدا أن ياسين يضعها على الطاولة تمثّل تحولاً جذرياً عن دعوة حماس لتحرير فلسطين من "النهر إلى البحر" - بكلمات أخرى، كل فلسطين التاريخية، من نهر الأردن في الشرق إلى البحر المتوسط في الغرب - ظهر أن ياسين يقترح آنذاك تعايشاً سلمياً، مع وجود الإسرائيليين على أحد جانبي الخط الأخضر- خط الهدنة عام 1949 بين إسرائيل والأراضي المحتلة - والفلسطينيين على الجانب الآخر. لكنه أضاف إنه من المبكر جداً بعد طردهم من أرضهم أن يمتنع الجيل الحالي من الفلسطينيين عن المطالبة بكل فلسطين التاريخية. كان ذلك قراراً سيتخذه الجيل المستقبلي. شرح قائلاً: "سنقبل ما يقبله ذلك الجيل".

لاحـــظ البعض تغييرات مهمة أخرى في خطاب حماس. كانت الإشارات الفظّة المعاديـــة للـــسامية أقـــل شيوعاً، وكان الخطاب الذي يوجهه ياسين لبنيامين نتنياهو يتـــضمن إشارات إلى اعتراف جديد بإسرائيل[13]. لاحظ المراقبون ابتعاد ياسين عن الجهـــاد كطـــريقة لتحقيق أهداف *سياسية* الأمر الذي يمكن أن تعتبره إسرائيل، إذا رغبت في ذلك، استعداداً للانخراط في حوار سياسي سلمي.

اعتـــبر ديفـــيد بـــار - إيلان، متحدث باسم نتنياهو، أن تعليق الشيخ "تطور إيجابـــــي". قدّر مسؤولو السلطة الفلسطينية المرتاحين أن تلك كانت نبرة جديدة، أكثر اعتدالاً، والتي ربما - كما كانوا يأملون - تشير إلى عودة مركز ثقل حماس إلى غزة بعيداً عن القيادة الخارجية الأكثر تشدّداً[14].

لكن، في غضون أيام، كان ياسين قد غيّر موقفه تماماً. كانت لحظة التسوية مجرد وهم. عندما كان حرم الجامعة الإسلامية ينبض بالحياة في خلال الأسبوع الثالث من عـــودته إلى غـــزة، قال ياسين لحشد من حوالى خمسة آلاف طالب: "ينبغي أن يختار شـــعبنا درب الجهاد لأننا إذا لم نقاتل، سيموت شعبنا. هذا العالم لا يفهم سوى لغة القـــوة"[15]. عـــندما طلب ياسر عرفات من حماس إيقاف عملياتها العسكرية، كان ياسين المجاهد الذي أجابه بنفاد صبر شخصاً تعب من تكرار كلماته. "كنت قد قلت مرات عديدة إننا ندافع عن أنفسنا ضد احتلال. طالما استمر الاحتلال، سيكون هناك كفاح". مستنداً إلى فتواه الإسلامية، توعّد قائلاً: "إذا قتل العدو مدنيين منا، سيكون من حقنا أن نقتل مدنيين منهم"[16].

يمكن تفسير تلك التحولات المثيرة في مواقف ياسين بالتزامه الغموض الذي كان قـــد تـــشبث به طيلة عقود، والذي يسمح له بالإنكار إذا أزعجت رسالته المتعمدة الـــسلطات الإسرائيلية. لكن كان واضحاً بما يكفي أيضاً لدى عودته أن هناك صراعاً داخلياً أظهره ياسين للعلن مع وجهة النظر الأكثر تشدّداً للقيادة الشابة التي كانت قـــد تسلّمت زمام الأمور في أثناء غيابه. كان هؤلاء رجالاً محترفين تشرّبوا الأفكار الثورية للانتفاضة.

شكّل ياسين آنذاك جوهر رسالته كتحذير من أن الأمر يعود إلى إسرائيل لتقرّر الطـــريقة الـــتي ستنتهي بها الأزمة. عمليات استشهادية؟ قال: "اليهود هم من سيقرّر ذلـــك. إذا أوقفـــوا هجماتهم على المدنيين، ومصادرة الأراضي، وتدمير المنازل، وإذا

أطلقـــوا سراح السجناء والمعتقلين، ستكون هناك هدنة بالتأكيد، إن شاء الله!"[17].
ماذا إن رفضت إسرائيل شروطه؟ قال للطلاب في الجامعة الإسلامية: "من غير الممكن أن يقف شخص من دون حراك على حين أرضه محتلة وشعبه ووطنه عرضة للإذلال. لدينا عدو واحد، وسنشن حرباً، ونقاتله حتى نستعيد أرضنا. لا لوقف إطلاق النار! أمة من دون جهاد لا يمكن أن تعيش!"[18].

علـــى السطح، كانت تلك أياماً سعيدة لحماس. لكن خلف الإثارة، كانت مسألة *الهدنة* حلقة في سلسلة جعلت الحركة تحظى بتقدير كبير بعد إطلاق سراح ياسين.

لم يكن مبدأ الهدنة غائباً عن حماس. في رسالة من السجن في العام 1994، كان ياسين قد أثار احتمال عقد *هدنة* تستمر ما بين خمسة عشر عاماً إلى ثلاثين عاماً[19]. في العـــام نفسه، كان أبو مرزوق قد كتب عن ذلك المبدأ في صحيفة أردنية، وكان كلا الرجلين، إلى جانب آخرين في الحركة، قد قدّموا الفكرة كحلّ للأزمة.

ضمن سياقها الإسلامي، كانت الهدنة معتقداً راسخاً؛ كانت تجعل السلام واجباً دينياً، لكنها لا تمثّل تنازلاً في القضية موضع النـــزاع. بكلمات أخرى، كانت *الهدنة* ستسمح للإسرائيليين والفلسطينيين بالعيش جنباً إلى جنب في مناطقهما الخاصة بكل منهما في ما كان فلسطين التاريخية، لكن الفلسطينيين لن يتخلّوا عن مطالبتهم بما كان قـــد أصـــبح دولة إسرائيل. لم يكن ذلك ما تم الاتفاق عليه في أوسلو، وكلما كان النقاش يدور حول ذلك الاحتمال، كانت إسرائيل ترفضه.

عـــندما طفت على السطح تقارير إخبارية عن *هدنة*، وأكّد الملك حسين علانية أنه قام بالفعل بكتابة رسالة إلى رئيس الوزراء الإسرائيلي يعرض فيها نيابة عن حماس "وضـــع حدٍّ للعنف مقابل مفاوضات على كل القضايا"، حاولت حماس طمر القصة بالإنكار. قامت الحركة بإجراء تحقيق داخلي خاص بها حول من قد يكون دفع الملك للاعـــتقاد أن بمقـــدوره الإشـــارة إلى ذلك الفعل الجريء نيابة عن حماس، بالتأكيد، اتجهت أصابع اللوم إلى موسى أبو مرزوق.

لكن، عند سؤاله من قبل شخصية بارزة في الحركة عمّا كان قد نقله إلى القصر الرئاســـي، أنكر المهندس أنه تعهّد بأي شيء خطّياً، سواء لسميح البطيخي أو للملك حسين. قالت الشخصية البارزة: "اعتقد أبو مرزوق أن البطيخي ربما يكون قد توصّل إلى بعض الاستنتاجات من محادثاتهما القصيرة ونقلها إلى الملك".

بغـــض النظـــر عن قضية عرض *الهدنة*، أثارت المحاولة الإسرائيلية لقتل خالد مشعل آنذاك أسئلة عن قابلية الاستمرار طويلة الأمد لمكتب الحركة الحيوي في عمّان والشخص الـــذي ينبغي أن يترأسه. بالتأكيد، أجّجت حرية ياسين شوق تلميذه موسى أبو مرزوق للقـــيادة. كـــان الأمر مسألة وقت فقط قبل أن يدخل أبو مرزوق في مواجهة مع مشعل بشأن من منهما سيكون صلة وصل حماس مع المنطقة والعالم؛ المصرفي أم جامع الأموال؟ من منهما، كقائد لحماس في الخارج، سيكون مسؤولاً عن القنبلة التالية؟

نظـــراً إلى أن الملـــك حسين كان في الحقيقة قد عمل جاهداً لتأمين عودة أبو مرزوق إلى عمّان، ولهذا ربما يسعى إلى استبدال مشعل في قيادة المكتب السياسي، لم تكـــن الحركة متحمسة كثيراً لمعرفة من كان في ذلك الوقت يمسك بالخيوط وإلى أي حـــدّ. لم يكونا لوحدهما. ظهرت أسئلة بشأن وجود ما وصفه البعض في عمّان بأنه حقيقة أخرى داخل الحركة وخارجها بينما كان مراقبون يستكشفون أحداثاً بدا أنها تنكشف بين أبواب الوهم.

أصـــبح أبـــو مـــرزوق عصبياً عندما سُئل إن كان يعرف أي مكيدة من الملك للتدخل بالتسلسل الهرمي لحماس. قال أبو مرزوق، مُظهراً انـــزعاجاً ملحوظاً، حتى بعد سنوات: "لم أستطع تقبُّل انتقاد الأخ خالد؛ فقد تم تعيينه لتلك المهمة [في المكتب الـــسياسي]. لو أنني كنت قبلت ما كان الملك حسين يفكر فيه، لكانت تلك مشكلة كـــبيرة لي وللمنظمة". لكن أبو مرزوق غيّر بعد ذلك اتجاهه: "ربما كان الملك يفضّل أن أكـــون رئيـــساً لحماس... إنها منظمة فلسطينية و لم يكن الملك حسين يحب رؤية أردنـــيين مـــسؤولين عنها". ثم، في تغيير آخر لمساره، قال: "لم أسمع أبداً أي اقتراح بضرورة عودتي إلى منصبي!"[20].

كانـــت المخاطـــر عالية والعواطف جيّاشة. كانت قد تم استعمال أحد أقوى العقـــاقير المكتشفة آنذاك في محاولة للقضاء على شخصية قيادية أصبحت، بغياب أبو مـــرزوق، معـــروفة تماماً في الحركة، وتحظى آنذاك باحترام وإعجاب كبيرين. أصرّ مصدر قريب من القيادة: "أرادوا إخراج مشعل من القيادة، وكانت الطريقة الوحيدة لفعل ذلك هو اغتياله بهدوء".

حقيقة أم خيال، أخذت الحركة كل ذلك في حساباتها الداخلية. ومتظاهراً بعدم التـــصديق، أطلق أحد المراقبين، الذي أقنع نفسه أن محاولة الاغتيال الإسرائيلية كانت

عنـــصراً مدروســـاً في مكيدة للنظام الأردني لتغيير الوضع القائم، أطلق شكوكه بهذه الكلمات: "أطلقوا سراح الأخ موسى وبعد أربعة شهور حاولوا قتل الأخ خالد؟".

مذهولاً من رفض مشعل التخلي عن القيادة، وبعد إطلاق سراحه من سجنه في الـــولايات المـــتحدة، تحـــيّن أبو مرزوق الفرصة المناسبة. لكن عندما أجرت حماس انـــتخابات داخلية في بداية العام 1998، تحدّى مشعل مجدداً، ووضع في الميزان ادّعاءه بأنـــه تفـــوّق ذكـــاءً على القوة المجتمعة للولايات المتحدة وإسرائيل بعد أن استطاع الإفلات من نيويورك، مقابل ندوب معركة مشعل بعد إفلاته من رصاصة داني ياتوم الصامتة.

كانـــت مواجهة حاسمة في تاريخ حماس، التي أضحت فيها ادّعاءات المرشحين التنافـــسية جزءاً من صراع استراتيجي أكثر أهمية. كانت الحركة منبوذة على الساحة الدولـــية، لكن مشعل بقي مقتنعاً أن قوّتها تنبع من المقاومة المسلحة. كان مقتنعاً أن العـــالم ســـيحترمها في النهاية، ولهذا سيسعى إلى إبرام تسوية بشروط أفضل لحماس. اعتـــرض أبـــو مـــرزوق وجادل أن انفتاحاً أكبر، مع تفكير وسياسات أكثر تحرراً، ســـتحظى حمـــاس بالاحتـــرام الذي تتلهف له. لقي دعماً من شخصيات محورية في الأراضي المحتلة التي كانت، نتيجة انشغالها بالأحداث والمصاعب اليومية على الأرض، أكثر انفتاحاً في ما يتعلق بمشاركة حماس في عملية السلام المشكوك بها والقائمة على اتفاق أوسلو.

رد مـــشعل بحجة تقول إن حماس لا تستطيع سلوك الطريق نفسه الذي سلكته مـــنظمة التحريـــر الفلسطينية وفتح. كانوا قد رأوا عرفات يعيد صياغة ميثاق منظمة التحرير الفلسطينية، يدين العنف كسلاح ويقلّص بشكل كبير حقه في الأرض. سأل مـــشعل: "إلى أين أوصله ذلك؟ أين هي الدولة المستقلة؟ لقد تحدث معها [إسرائيل] فهـــل انتهى الاحتلال؟"(21). ما كان فصيل مشعل يطرحه آنذاك هو استراتيجية أكثر دقـــة، تتطلب تعايشاً صعباً مع عرفات. لم يكن بوسع حماس الابتعاد عن قاعدة دعمهـــا الأساســـية، لهـــذا كان ينبغي أن تكون الهجمات على إسرائيل انتقاماً لاستعمال الأخيرة القوة بشكل مفرط؛ لكن ينبغي أن تتخذ في الوقت نفسه منحى مختلفاً. وخشية أن ينتاب الشك الكوادر، أضاف مشعل: "العمليات ضد الاحتلال مجيدة وشرعية"(22).

كـــان الغزّاويون هم من ينبغي أن يطالبوا بقوة بإعادة موسى كرئيس للمكتب الـــسياسي. قال أحد العارفين ببواطن الأمور في حماس، والذي كان شديد الإعجاب بالمهـــندس: "كان الأخ موسى الأقرب إلى الذهنية الغربية. يجعلك السجن أكثر - أو أقل - تشدّداً. أصبح موسى أبو مرزوق أقل تشدّداً في خلال سجنه في مانهاتن". قال أحـــد مؤيديه الآخرين إن أبو مرزوق كان أحد قادة المستقبل الذين انتقاهم ياسين، والـــذين أُرسلوا في الثمانينيات إلى الولايات المتحدة للدراسة وتعرُّف عالم ربما يفتح أذهـــانهم. قال: "عاد بعضهم إلى الأراضي المحتلة، وجلبوا معهم أفكاراً جديدة. كانوا أكثـــر براغماتية في رؤيتهم وسياساتهم. كانوا يفهمون أن الأشياء التي كنا نعتقد في الماضي أنه لا يمكن إنجازها إلاّ بالمقاومة يمكن تحقيقها بالمفاوضات أيضاً".

كانت القوى التي اصطفّت آنذاك - خلف مشعل من جانب وأبو مرزوق على الطرف الآخر - قد تواجهت من قبل، في العام 1996، في جدال داخلي مرير بشأن تقديم حماس لمرشحين في انتخابات أول برلمان فلسطيني. في ذلك الوقت، كان الشيخ ياســـين وأبو مرزوق قد دعما المشاركة، فيما رفضها مشعل. في رسالة تم تهريبها من سجن كفار يونا في إسرائيل، كان ياسين قد كشف عن استنتاج مهم بأن الوقت قد حـــان لانـــضمام حماس إلى العملية السياسية. سأل: "هل من الجائز أن يعمل مسلم كمراســـل في مكتب رئاسة الوزراء أو في البرلمان، لكنه لا يستطيع أن يصبح نائباً في البرلمان، حيث يمكنه خدمة دينه، مهنته، *وأمّته* بشكل أفضل؟"[23].

هل كان ذلك جائزاً؟ بعد مخاض عسير في الحركة، كان الجواب في ذلك الوقت "لا". كانت المشاركة في الانتخابات، كما جادل مشعل، سترغم حماس على التنازل للعب وفقاً للقواعد التي وضعها عرفات، ونتنياهو، وكلينتون. كان قد قال في تقييمه لاتفـــاق أوسلو المذلّ والمخزي "إن المشاركة في الانتخابات تعني المصادقة على الهيمنة الإسرائيلية. أيضاً، سيشوش ذلك على اختلاف حماس الواضح مع عرفات وفتح. إذا كانـــت حمـــاس ستتخلى عن راية المقاومة، تبتعد عن الجهاد، وتعمل مثل أي حزب سياســـي آخر، ستصبح رهينة أوسلو أيضاً". كان ينبغي أن يكون هناك توازن، لكن بمعايير حماس وليس بمعايير عرفات، الإسرائيليين، أو الأميركيين.

كان مشعل قد فاز في العام 1996، وفعلها مجدداً في العام 1998. لم تكن حماس تكشف عن أرقام التصويت، لكن خالد مشعل فاز أخيراً بانتخابات المكتب السياسي

في العام 1998. كان موسى أبو مرزوق القائد الذي أطلق سراحه الإسرائيليون، لكن مشعل كان القائد الذي حاولوا قتله وفشلوا في ذلك.

ضمنت نجاة مشعل البطولية آنذاك له قيادة المكتب السياسي، لكنها لم تؤثر على اعتقاد موسى أبو مرزوق أنه تعرض بطريقة ما للخداع ولذلك ينبغي أن يعود إلى منصبه. شرح زميل: "إنها نفسيته. في تقديره لذاته، كان لا يزال يعتقد أنه القائد. المشكلة أن محاولة الاغتيال جعلت الأخ خالد أقوى وحتى أكثر شهرة، وفاز بالانتخابات. ربما يكون أبو مرزوق ذكياً، لكن مشعل يتمتع بشخصية جذّابة... إنه مالكولم إكس الخاص بنا؛ إنه مثل لويس فرخان!".

وُلد خالد مشعل من جديد رجلاً مختلفاً من تجربته مع الموت. كان يرى أنه قد ولد من جديد، وكانت تلك وجهة نظر أعضاء الحركة. بين ليلة وضحاها، كان قد أصبح أشهر من نارٍ على علم؛ للفلسطينيين، الإسرائيليين، وكل الوطن العربي. نتيجة عمل الموساد، كان مشعل قد أصبح في عداد الأبطال الفلسطينيين. وكان لكل ذلك تأثير كبير عليه.

في خلال مقابلة بعد خروجه بقليل من مدينة الملك حسين الطبية، أُصيب الصحافي من عمّان ياسر أبو هلالة بالدهشة عندما انفجر مشعل باكياً بعد أن كشف عن شعور عميق بأنه قد ولد من جديد نتيجة تدخل إلهي[24]. قال للصحافي عدّة مرات: "لقد مُنحت حياة جديدة للقيام بدور جديد".

اندهش عملاء الاستخبارات الأردنية أيضاً من الشعور بأنهم يتعاملون مع إنسان جديد. قال أحدهم لاحقاً: "في كل مرة كنت تلتقيه بعد ذلك، تجد شخصاً مختلفاً إذ كان طموحه من دون حدود". سابقاً، كان أبو هلالة يعتقد أن مشعل رئيس تنفيذي عادي للطريقة التي يدير بها المكتب السياسي. لكن بعد تجربته في الاقتراب من الموت، استنتج الرجل من الضفة الغربية أنه محظوظ ولديه دور تاريخي جديد. كانت مهمته الأولى، كما قال لياسر أبو هلالة، إنهاء اعتماد الغزّاويين التقليدي على قيادة حماس.

مع قيام حماس آنذاك بتفضيل أحد قادتها على آخر، واجهت الحركة حقيقتين جديدتين. سلطة الشيخ أحمد ياسين العليا التي ضعفت بشكل كبير، والموقف السيئ الذي وجد موسى أبو مرزوق نفسه فيه بسبب تعامله مع البطيخي والنظام الأردني، والذي أثّر سلباً وبشكل دائم على طموحه. في ذلك الوقت، كان موسى أبو مرزوق

يتمتع بدعم كاف، معظمه في غزة، يضمن له موقعاً في فريق القيادة، لكن دوره منذ ذلك الوقت فصاعداً سيصبح أقل شأناً من دور مشعل.

حسابات نتنياهو وياتوم الخاطئة ثبّتت مشعل بفاعلية كقائد المستقبل. وبغض النظر عن التنافس الشخصي بين المرشحين، كانت تلك المنافسة الشديدة على زعامة المكتب السياسي قد أجابت عن سؤال حيوي طرحه مراقبون عندما تم إطلاق سراح ياسين: في ذلت الوقت، على الأقل، كانت حماس تفضل الرصاص على صناديق الاقتراع.

بعد أن استقر ياسين في منزله، حاولت حماس وفتح الحفاظ على حوار بينهما. كانت تلك الجهود قاسية وصعبة، لكنها تطرّقت بالفعل إلى بعض أساسيات التعايش تحت الاحتلال. تم إنشاء لجان اتصال للتعامل مع مسائل ذات اهتمام مشترك، مثل خدمة الفلسطينيين في السجون الإسرائيلية. لكن عند التطرق إلى قضية انضمام حماس إلى منظمة التحرير الفلسطينية، وصلت المفاوضات إلى طريق مسدود. كان عرفات يفضل تعيين أشخاص في المجلس المركزي لمنظمة التحرير الفلسطينية، بينما جادلت حماس بأن ذلك ينبغي أن يتم عن طريق الانتخابات. ادّعت حماس أنها تتمتع بدعم شعبي كافٍ يضمن لها 40 بالمئة من مقاعد المجلس؛ رد عرفات مدافعاً عن نفسه، وعرض أقلّ من الربع.

للحظة واحدة بدا أن هناك إمكانية لذوبان الجليد محلياً في غزة عندما اختار الشيخ - على النقيض مما كان أحد المراقبين قد وصفه بأنه "حاسة ياسين السادسة التي تجسّد إجماع الآراء المؤسساتي في حماس" - تجاهل نصيحة من مشعل بالإعلان عن قبوله دعوة ياسر عرفات لحضور اجتماع المجلس المركزي لمنظمة التحرير الفلسطينية. لكن مشعل انزعج من اعتبار حضور ياسين قبولاً من حماس بأن منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الوحيد للفلسطينيين.

أخيراً، تم إرغام الزعيم الروحي على الانسحاب بشكل محرج، وغادر الاجتماع بعد أن أصدر المكتب السياسي لحماس في عمّان بياناً قال فيه إن قرار ياسين بالحضور كان شخصياً وأنه لا يمثل حماس؛ لقد نفضوا أيديهم من الشيخ.

في الإطار الكلي للأمور، لم يكن ذلك ذا شأن يذكر. لكن، في عرف حماس، كان الأمر بالغ الأهمية في تلك المرحلة لأن الغزّاويين عرفوا أخيراً كيف تجري الأمور؛ كان المكتب السياسي الذي يتخذ من عمّان مقراً له الهيئة العليا التي تُصدر قرارات حماس.

بمـواجهة تعـنّت نتنياهو في العام 1998، انسحب عرفات من عملية أوسلو، وأثار غـضب الإسرائيليين باقترابه من حماس؛ إلى حد أنه في إحدى المراحل رحّب علانية بعبد العزيز الرنتيسي المتشدد من غزة بقبلات عربية تقليدية من رجل إلى رجل. بعد اثني عشر شـهراً مـن المغامـرة الفاشلة في عمّان، كان البعد الكامل لخطأ إسرائيل الاستراتيجي واضـحاً. بعـد حوالى عقد من محاولة إبقاء حماس خارج نسيج العلاقات الرسمية لأزمة الـشرق الأوسط، أكّدت إسرائيل أن حماس شريك أساسي، حتى وإن كان غير مرغوب فيه. بإيقاف المحادثات مع عرفات رداً على عمليات حماس، كان رئيس الوزراء نتنياهو قد سلّم الرافضين للتسوية بطاقة جديدة يلعبون بها ألا وهي حق النقض ضد أي تقدم[25].

بـدا أن الشيخ ياسين بصحة جيدة بعد تلقّيه علاجاً لأمراضه المختلفة في خلال رحلـة إلى الخـارج اسـتمرت أربعـة شهور في 1998؛ شكّل ذلك تسلية لمعلقين إسـرائيليين، الذين استمتعوا بتذكير نتنياهو بادّعائه، في ذروة قضية مشعل، أنه سيتم إطلاق سراح ياسين بسبب سوء حالته الصحية.

في مكان آخر، على أي حال، كانت وجهة النظر كئيبة إذ بقيت عملية السلام في غـرفة الإنعاش وكان الملك حسين مريضاً للغاية. بعد الهجوم على مشعل، كانت الملكة نور قد بدأت تشير إلى أعراض مقلقة ظهرت على زوجها - التي استدعت قيام إخصائيين من مايو كلينك بزيارة عمّان آنذاك - على أنها فيروس بيبي[26]. في الواقع، كانت تلك البداية المبكرة للسرطان الذي سيضع حداً لحياته.

تداخل برنامج استمر خمسة شهور من المعالجة الكيميائية للملك حسين في مايو كلينك في مينيسوتا مع محاولة ماراثونية من قبل الرئيس بيل كلينتون في تشرين الأول 1998 لكسر الجمود في عملية سلام الشرق الأوسط. توّجت تلك المحاولة تسعة أيام مـن المحادثات الاستثنائية في منطقة ريفية من واي على خليج تشيسابيك، على بعد حـوالى سبعين ميلاً إلى الشرق من واشنطن العاصمة. قاد نتنياهو الوفد الإسرائيلي؛ وترأس عرفات الجانب الفلسطيني. أرغمهم كلينتون أخيراً على إطار عمل متفق عليه، لكن لم يكن أحد من الحاضرين ليدعو ذلك اتفاقاً. بدلاً من ذلك، سُمّيت الوثيقة التي وقّعوا عليها مذكرة تفاهم واي.

كانت مذكرة التفاهم تنص على توسيع المنطقة الخاضعة لسيطرة الفلسطينيين في الـضفة الغـربية إلى أكثر بقليل من 17 بالمئة والسيطرة الجزئية إلى 22 بالمئة أخرى.

بالمقابـــل، كـــان على السلطة الفلسطينية إنجاز سلسلة من الالتزامات الأمنية التي تقع على كاهل الفلسطينيين فقط[27]. أكّدت تلك الاتفاقية الخلل في اتفاق أوسلو الأصلي الذي أثبت أنه غير قابل للتطبيق حتى ذلك الوقت؛ كان عرفات قد قبل بتلك المهمة الأمنـــية مقابل تنازلات إسرائيلية، في بيئة كانت كل الأطراف فيها تعرف أن نتنياهو قد سمح بتعاظم قوة حماس لإحباط تطبيق بنود الاتفاق عبر ادّعاءاته المعلنة أنه لن يمتثل إذا لم يعمل عرفات على إخضاع الحركة.

في أثـــناء توقيع الاتفاق، في احتفال في الغرفة الشرقية داخل البيت الأبيض، أثنى الجمـــيع على نتنياهو بصفته *معتدلاً* قبل أخيراً مبدأ الأرض مقابل السلام. هلّل الجميع لعرفات لإعلانه الحرب على حماس[28]. وحده الزمن كفيل بإيضاح ما إذا كان ذلك الاتفـــاق قد غيّر مجرى الأزمة التي كانت كل إشاراتها تؤكد توقُّع الشيخ ياسين بأن الأمر يتطلب عشرين سنة أخرى لحلّها.

مـــن أجل التوصل إلى تفاهم، لم يتجاوز المفاوضون ما كانوا قد أنجزوه في واي لأنهـــم شعروا بالخجل بعد أن تملّقهم رجل يحتضر. بعد أن وجد نفسه محاصراً بتعنّت كـــلا الطرفين، وشعوره أنه بأمسّ الحاجة إلى النصيحة، اتصل كلينتون هاتفياً بحسين عـــندما كان الملك ينتظر عملية زرع نقي للعظام في مايو كلينك. بالرغم من حالته، تطـــوّع حـــسين للتدخل وتم إرسال المروحية الرئاسية لإحضاره إلى مركز مؤتمرات واي.

صـــدم مظهر حسين عند وصوله كل الحاضرين الذين كانوا معتادين طلّة القائد الأردني الجمـــيلة المعـــتادة ومظهـــره الفاتن. كان الرجل الذي وقف أمامهم هزيلاً، مـــصفرّاً، وأصلع. كان خطر إصابة حسين بعدوى كبيراً جداً، وصدرت إليهم أوامر بغـــسل أيديهم بصابون خاص قاتل للبكتريا قبل تحيته. قال حسين لهم: "حان وقت إنهاء هذا".

لم تجـــرِ الرياح بما تشتهي السفن. بعد جلسة عاصفة أخرى، التي سُمع خلالها كلينتون يشير إلى القائد الإسرائيلي بأنه "ذلك المتباكي [الذي] لا يريد عقد صفقة"، حضر الملك حسين إلى واي مرة أخرى لحثّهم على التوصل إلى اتفاق[29].

في خـــلال ساعات من التوقيع الاحتفالي على مذكرة تفاهم واي في 23 تشرين الأول، تحرك عرفات مجدداً ضد حماس. تم اعتقال أكثر من مئة ناشط، ووضع الشيخ

ياسين تحت الإقامة الجبرية. وسط تحذيرات من حماس أنها ستحوّل أسلحتها ضد قوات عرفات الأمنية إذا مضت قدماً في إجراءاتها لتفكيك المجموعات العسكرية ومصادرة الأسلحة غير الشرعية، تم قطع الخطوط الهاتفية عن منازل ياسين وآخرين في قيادة حماس. أحاط رجال أمن بمنزل ياسين، وقاموا بتجريد حرسه الشخصي من أسلحتهم على حين كان آخرون مقنّعين يفتشون بين ملفاته وخزاناته[30].

رفع عرفات القيود المفروضة على ياسين في 24 كانون الأول، كإشارة حسن نوايا بمناسبة شهر رمضان المبارك، الذي توافق في العام 1998 مع احتفال النصارى بعيد الميلاد. لم يهدر ياسين وقتاً. سافر في اليوم التالي بسيارته اللاند روفر - هدية من الحكومة السعودية التي كانت معدّلة لوضع كرسي مدولب فيها - إلى الشاطئ، مخيم اللاجئين بجانب البحر حيث ترعرع. كانت المناسبة الذكرى الحادية عشرة لتأسيس حماس، ودُفع به بكرسيه المدولب أمام حشد يتعدّى العشرة آلاف من أنصاره الذين هتفوا له، وشرع القائد الروحي المسن بالقول: "ينبغي أن نمضي قدماً على درب الجهاد..."[31].

من المشاهد الإخبارية عند توقيع مذكرة تفاهم واي، عرف العالم أن مرض الملك حسين قاتل. لكن، عندما عاد إلى مملكته بعد حوالى نصف عام قضاها في مايو كلينك في مينيسوتا، كان شخص واحد فقط يعرف العاصفة النارية التي كان قد أعدّ لها ألا وهي رندا حبيب المهيبة، رئيسة مكتب وكالة الصحافة الفرنسية في عمّان.

بالرغم من مرضه، كان حسين الطيار الماهر يقود غلف - ستريم 4 طيلة رحلة العودة الأخيرة إلى الوطن من لندن إلى عمّان. تلقّى تحية وداع من طيارين في كل سلاح جو طار فوق أراضيه: أولاً، رافقته مقاتلة من السرب السادس في القوات الجوية البريطانية حتى غادر الأجواء البريطانية؛ ثم، بتعاقب سريع، رافقته طائرة تلو أخرى من القوات الجوية الفرنسية، الإيطالية، الإسرائيلية، والأردنية، في ما وصفته الملكة نور بأنه موكب في الجو[32].

بعد حكم دام حوالى خمسين عاماً، كان حسين الحاكم الوحيد الذي عرفه معظم الأردنيين. لكن كان مطلوباً منه آنذاك تسمية خليفة؛ كانت تلك من دون شك إحدى أهم اللحظات في كل تاريخ الأردن القصير.

كانت رندا حبيب قد أصابت الجميع بالذهول، وحطّمت أحلامَ الخليفة المفترض وفصيله من الأنصار الملكيين، بكشفها عبر وكالة الصحافة الفرنسية أن شقيق

الملـــك حسين، ولي العهد آنذاك حسن، لن يخلفه. على سرير الموت، كان حسين قد عـــيّن الأمير عبد الله، البالغ من العمر سبعة وثلاثين عاماً، وابنه من زواجه الثاني من الأمـــيرة الإنكليزية منى. أُصيبت نور الرصينة دائماً، والأمير حسن، وكل أفراد العائلة المالكة بالدهشة من قرار حسين جعل الخلافة أمراً واقعاً بتسريب النبأ إلى رندا حبيب قبل أن يأتمن أياً منهم على سره.

مع نهاية الخمسة شهور مما تبين، أخيراً، أنها معالجات غير ذات جدوى للسرطان في مايو كلينك، كان الملك حسين قد أجرى سلسلة من المكالمات الهاتفية مع حبيب. في أثناء استراحة رحلة عودته إلى الوطن في لندن في منتصف كانون الثاني 1999، عبّر الملـــك عن شكره للأسلوب الرصين الذي تتّبعه الصحافية في سرد قصصها. نصحها قـــائلاً: "تصرّفي وفقاً لما تمليه عليك مشاعرك". لكن كلماته الأخيرة إلى رندا حبيب هـــي التي أبرزت معرفتهما المشتركة بأن وضع رندا حبيب "كأفضل مصدر للقصر" كان على وشك الانتهاء. سأل الملك بلطف: "رندا، هل يمكنك نقل هذا النبأ؟"[33].

كـــان انتقال الخلافة خدعة حاكم يتمتع بسجايا نادرة. انتهى الأمر برسالة من أربع عشرة صفحة بدا أن حسين كان قد كتبها في ثورة غضب عارم. كان شكسبير ليفخر بها.

بالعـــودة إلى سنة 1965، كان تعيين حسن كولي للعهد أداة لحماية العائلة والعرش الهاشمـــي المعرّض للخطر. في ذلك الوقت، كان وريث حسين الشرعي ابنه البكر، الأمير عـــبد الله، يـــبلغ من العمر ثلاثة أعوام فقط. وكان ينبغي أن يكون هناك راشد جاهز في حـــال وفاة حسين؛ لذلك، كانت إحدى الثوابت في القضايا الأردنية الافتراض أن حسن ســـيخلف حـــسين، والذي كان يكبره بحوالى اثني عشر عاماً. لكن في رسالته المؤلفة من أربـــع عشرة صفحة، انتقد الملك المحتضر البالغ من العمر آنذاك ثلاثة وستين عاماً شقيقه الأصغر الذي كان قد وقف خلفه بصبر طيلة أربعة وثلاثين عاماً[34].

أدرك مـــراقبو العائلة المالكة في عمّان وجود حافزين وهدف واحد في القسوة التي تم بها خلع حسن. شعر حسين بأسى عميق لفشل شقيقه في إنكار تقرير إخباري إســـرائيلي أنـــه كـــان قد توقّع – بدقة كبيرة كما ستكشف الأحداث – أن الملك ســـيموت خلال ثلاثة شهور. كان حسين قلقاً أيضاً من أنه في حالة تنصيب حسن حاكماً، لن يستطيعا الاتفاق على الضمانات الضرورية لعودة الخلافة الملكية إلى أبناء

حسين بعد وفاة حسن. لهذين السببين، كان حسين بحاجة إلى تدمير صورة حسن في عيون الجيش والجهاز الإداري الحكومي، خشية أن يحاول الاستيلاء على الحكم من الملك الجديد قليل الخبرة، عبد الله.

أفاقت عمّان على طقس شديد الحرارة والرطوبة يوم الأحد 7 شباط، وبحلول وقت الغداء انفرج الجو، وهطلت على المدينة أمطار غزيرة. لاحظت الملكة نور أنه عندما قضى الملك حسين نحبه في خلال صلاة الظهر، وصل أحد عهود القيادة الاستثنائية إلى نهايته[35].

كانت جنازة الملك تشكّل تحدّياً لوجستياً وكابوساً أمنياً. وكان معظم أصدقاء حسين من كل أنحاء العالم، وبعض من أعدائه، سيشقون طريقهم إلى عمّان في أقل من أربع وعشرين ساعة، لأن تعاليم الدين الإسلامي تتطلب دفن الملك بأسرع وقت ممكن. وصل ملوك وملكات، رؤساء وزارات ورؤساء إلى هناك في الوقت المناسب. جاء قادة العالمين العربي والإسلامي للاشتراك في تشييع الجنازة. ترأس الرئيس بيل كلينتون وفداً أميركياً يضم أربعة رؤساء: جيرالد فورد، جيمي كارتر، وجورج بوش الذين سافروا على متن الطائرة الرئاسية.

كان ذلك حضوراً لافتاً فاق بكثير الأهمية النسبية للأردن البلد، لكنه كان مؤشراً على الاحترام الذي كان يحظى به ملكه الراحل. إلى جانب أفراد من العائلات المالكة اليابانية، والإسبانية، والهولندية، والبلجيكية كان بين المعزّين الأمير تشارلز وطوني بلير من بريطانيا، بوريس يلتسن من روسيا، غيرهارد شرودر من ألمانيا، جاك شيراك من فرنسا، والرئيس التشيكي فاكلاف هافل.

كان المراسم تقضي بجمع بعض المعزّين معاً - عقد كلينتون اجتماعاً قصيراً مع الملك المتوج آنذاك عبد الله. أصرّ رجال الأمن على فصل آخرين - مثل رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو، والرجل الذي كان قد حاول اغتياله قبل خمسة عشر شهراً، خالد مشعل من حماس. هناك على هامش جنازة الملك حسين الذي كان قد سعى دائماً لتحقيق السلام، كان هذان الشخصان يمثلان طرفي أزمة عنيدين. كان يتخبّط بينهما في أرضٍ منزوعة السلاح ياسر عرفات، مرتدياً زيه العسكري وكوفية سوداء - و - بيضاء، التي كان يحب أن تتدلى طياتها على كتفيه في ما يشبه خريطة فلسطين.

عـــندما سافر إلى عمّان لحضور جنازة الملك حسين، واجه نتنياهو ثلاث نقاط للفشل الإسرائيلي. لو أنهم توصلوا إلى تسوية مع الملك حسين بعد حرب الأيام الستة 1967، ربمـــا كانـــوا تفادوا التعامل مع عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية. لو أنهم توصـــلوا إلى تـــسوية مـــع عرفات والسلطة الفلسطينية، كانوا تخلصوا من المواجهة اللاحقـــة مع مشعل وحماس. كان عالقاً في جو عمّان الكئيب السؤال التالي: مع من ينبغي أن تتعامل إسرائيل إن كانت تصر على رفض التعامل مع حماس؟

كـــان كـــل منهم محارباً بطريقته الخاصة؛ حسين ونتنياهو، عرفات ومشعل. لم يحقق أي منهم إنجازات مهمة، لكن في تلك الملحمة القاسية، كان عدم الخسارة يمثّل فوزاً. من وقت إلى آخر، كان كل منهم يحقق انتصارات تكتيكية، لكن الإسرائيليين لم يستطيعوا تخليص أنفسهم من الفلسطينيين، و لم يستطيع كذلك الفلسطينيون تخليص أنفسهم من الإسرائيليين.

بعد ثلاثة عقود من الاستيلاء على ما أصبح الأراضي المحتلة، كان الإسرائيليون قـــد فرضـــوا وجودهم على الفلسطينيين، لكن ليس كما كان وزير الدفاع الأعور موشـــيه دايان قد توقع في العام 1967. بعد اثنين وثلاثين عاماً، كان الجانبان عالقين في محكمـــة طـــلاق، لكن الإسرائيليين كانوا قد فشلوا في الحصول على "مهر" أرض جيد من "العروس" الفلسطينية غير المحبوبة، كما جاء في استعارة الزواج التي لا تُنسى لرئيس الوزراء الإسرائيلي ليفي أشكول بعد حرب الأيام الستة.

18

تقييد بالأغلال وترحيل

نـــشر سميح البطيخي شبكة صيده في الأسبوع الأخير من آب عام 1999. بناءً علـــى أوامـــره بشن هجوم شامل على حماس، انقضّت قوات البطيخي الأمنية على عـــناوين في كل أنحاء عمّان، وصادرت ملفات وحواسب. تم إغلاق مكاتب الحركة الخمـــسة المنفصلة ووضع ملاحظة مكتوبة بخط اليد على باب كل منها. كانت تفيد بشكل حاسم **مغلق بأمر من المدّعي العام لأمن الدولة**[1].

تم اعـــتقال أكثر من اثني عشر عضواً، بمن فيهم محمد أبو سيف، الحارس الشخصي الذي كانت سرعة بديهته في العام 1997 قد جعلت الملك حسين يحظى بسجيني الموساد اللـــذين احتاج إليهما كي يذل إسرائيل بعد محاولة اغتيال مشعل. لكن قياديَّين بارزين من حماس هربا من هجوم البطيخي ألا وهما مشعل نفسه وموسى أبو مرزوق، الذي أضحى آنذاك نائبه. في الواقع، بدا أنه تم تحديد توقيت الغارات للسماح لهما بتفادي إلقاء القبض علـــيهما. كانـــت إدارة المخابرات العامة تعرف مكان وجود هذين الشخصين، واللذين كانا قد غادرا الأردن قبل ثمانٍ وأربعين ساعة إلى طهران.

بقـــي محمـــد نـــزال، صلة الوصل الرسمية مع نظام عمّان، حراً أيضاً. بعد أن ســـنحت لـــه فرصة مغادرة مكتبه والذهاب إلى منـــزله لتناول غداء متأخر، تلقى نـــزال هناك اتصالاً هاتفياً ينبّهه إلى الإجراء المتوقع. استطاع الاختفاء قبل أن يمسك به رجال المخابرات العامة، لكن البطيخي أبقى منـــزله تحت الرقابة لأسابيع. كانت تتم ملاحقة زوجة نـــزال أينما ذهبت، وتم استدعاء أفراد من عائلته الكبيرة للتحقيق.

بعد المحاولة الإسرائيلية لاغتياله، انتقل مكتب مشعل إلى منـــزل عائلته الجديد، الـــذي تم تحـــصينه ضد هجمات أخرى، وخضع لمراقبة مستمرة من إدارة المخابرات العامـــة. آنذاك، كان حماته السابقون هم الذين دخلوا منـــزله عنوة، وجعلوا زوجته أمـــل تفزع في أثناء قيامها بواجباتها المنـــزلية. قالت، تشتكي من عدم حصولها على أي تفسير: "فتّشوا كل أوراقه. أغلقوا المكتب، واعتقلوا أربعة من رجاله".

كانت أمل على قدر المسؤولية كزوجة أحد قادة حماس. كانت قد شعرت بالذهول من محاولة الاغتيال في العام 1997، لكن حتى مع ذلك، أدهشت قدرتها على التكيّف أخوة خالد المنتشرين في الأرض، والذين يعيش اثنان منهم في الولايات المتحدة. كان أحدهما مفيد البالغ من العمر تسعة وثلاثين عاماً، مهندساً يحمل إجازتين من جامعة ولاية أوكلاهوما، ويعمل في مجلس مدينة دالاس في تكساس. في الأيام التي أعقبت الغارات في عمّان، اتصل مفيد هاتفياً بشقيقه الأصغر مثقال، الذي يدير متجراً لبيع السيارات في ألاباما. مشيراً إلى زوجة أخيه بأم وليد (اسم ابن مشعل البكر)، بدا مفيد مندهشاً تماماً. أقسم: "بالله، بيني وبينك لقد تأثرت كثيراً. إنها رائعة. إنها رائعة. معنوياتها عالية، صدّقني"[2].

أجرى الشقيقان، مع إصغاء مكتب التحقيقات الفيدرالي لهما، حديثاً عائلياً حذراً تناول طيفاً واسعاً من القضايا. ضمن أشياء أخرى، ناقشا صحة والدهما المسن، وضرورة إرسال أموال إلى عائلة مشعل في أثناء غيابه عن الأردن، والصعوبة التي تلاقيها بنات مشعل في التركيز على دراستهن في خلال تلك الأزمة. لكن، قلقاً من أن تكون السلطات الأميركية تسترق السمع، انتاب الغضب مثقال الأصغر عندما كشف مفيد أنه اتصل بمشعل هاتفياً إلى طهران. "اتصلت بخالد؟ اتصلت به مباشرة؟!".

"آ - ها. مباشرة. لقد أجابوني فوراً".

"ليس هناك خوف؟".

" لم أتكلم معهم عن أي شيء".

"هه؟".

"تكلمت [فقط] عن وجود محنة والحاجة إلى الصبر. أعني، لم نتكلم. لم نقل شيئاً عن مكان وجود أبو وليد... مجرد دردشة".

كان مثقال يعرف أن مكتب التحقيقات الفيدرالي سيكون مهتماً بتلك المكالمة. أغضب قوله ذاك مفيد طليق اللسان.

سأل مفيد، وغضبه يزداد: "هه؟".

"المكالمة نفسها -". لكن كان ذلك كل ما قاله مثقال قبل أن ينفجر مفيد غاضباً. شرع بالقول في إشارة واضحة إلى مكتب التحقيقات الفيدرالي: "لعنة الله

عليهم! الله يلعن هؤلاء الكلاب! أعني، لا يمكنني حتى التكلم إلى شقيقي! ليذهبوا إلى الجحيم. ما الذي... ما الذي يمكنهم الحصول عليه؟ أعني، رقم هاتفي؟ ليذهبوا إلى الجحيم! أعني، ماذا يمكنني أن أفعل لهم؟ ينبغي أن أتكلم مع عائلتي، أم أننا سنتخلى عنهم؟... سأتابع الاتصال بهم".

هدّأ مثقال من روع مفيد، لكنه سرعان ما انفجر مجدداً، وشتم السلطات الأردنية. قال: "هؤلاء الأوغاد. الأوغاد... خدم الإسرائيليين...". استعاد مفيد بعد ذلك رباطة جأشه، وسأل عن أولاد مثقال وعن نتائج شقيقه في بعض الاختبارات آنذاك. "ماذا حدث لشهادتك؟". كان مفيد يرغب في أن يعرف ما حدث[3]، وانتقل الشقيقان بسهولة كبيرة من الصراع في الشرق الأوسط إلى عناء عيش الحلم الأميركي.

في عمّان، كان الملك عبد الله الثاني يخضع لاختبار مختلف تماماً. في تخلٍّ ذي معنى عن ثوابت سياسة والده، حاز تضييقه الخناق على حماس الثناء بوصفه "الخطوة الأكثر جرأة حتى ذلك الوقت"[4] من قبل شاب اعتلى العرش قبل وقت قصير. كان عبد الله قد كشف آنذاك عن احترام مدهش لياسر عرفات. شكّل ذلك بالتأكيد تحدّياً لحماس، وبقيامه بذلك، بدا أن الابن ينأى بنفسه عن إرث والده التاريخي. بيّن عبد الله: "كل جندي جيد يعرف أن عليه خوض معاركه في وقت ومكان من اختياره. كان ينبغي أن ألاحق هؤلاء الرجال عاجلاً أم آجلاً"[5]. أكّد مسؤولون أردنيون أن الغارات على حماس حصلت نتيجة تعاون أمني ثلاثي الأطراف[6]. بيّن المسؤول: "نحن نساعد الفلسطينيين في محادثات السلام مع إسرائيل"[7].

راقب الأميركيون النظام الأردني الجديد عن كثب، الذي كان يعتمد عليهم للحصول على مساعدات خارجية جوهرية. حطّت وزيرة الخارجية الأميركية مادلين أولبرايت الرحال في المنطقة في خلال أيام، لتجديد الجهود الرامية إلى بث الروح في مذكرة تفاهم واي. كانت تنوي زيارة عمّان، حيث أصبح واضحاً تماماً أن الملك عبد الله قد خضع للضغط المتواصل من واشنطن الذي كان والده قد قاومه طويلاً.

أصدر الأردن مذكرات اعتقال بحق مشعل، وأبو مرزوق، ونزال، وإبراهيم غوشة، الرجل العجوز والمريض المكلف بالعلاقات مع وسائل الإعلام الذي كان قد غادر الأردن مع مشعل، وأبو مرزوق، وأربعة من أعضاء الحركة. أصبح عضوان

آخـــران أقل شهرة في المكتب السياسي، سامي كثير وعزّت الرشيق، رجلين مطلوبين أيضاً.

باستثناء موسى أبو مرزوق، كان الآخرون مواطنين أردنيين. بدا أن استراتيجية البطيخي لإلغاء حماس من المشهد تستند إلى اعتقاده أن التهديد بأحكام سجن طويلة لـــدى عـــودتهم إلى الأردن ستمنع هؤلاء من العودة[8]. لكن، في تقليد لاستراتيجية موســـى أبـــو مرزوق في مانهاتن التي تحدّى المهندس من خلالها الإسرائيليين بترحيله لمـــواجهة المحاكمة، بعث مشعل برسالة من طهران. قال: "لم نفعل شيئاً غير قانوني. سنعود إلى الوطن، نحن لسنا غرباء... لسنا متسولين".

في مقابلـــة علـــى قـــناة الجزيرة، صعّد مشعل اللهجة، مُلقياً على مسامع الملك الجديـــد محاضـــرة عن لطف طرق والده الراحل. "حركة حماس التي كانت معروفة لوالدك الملك حسين، رحمه الله، هي حماس نفسها التي تعيش اليوم في الأردن". مذكّراً القائـــد الشاب بإنقاذ أبو مرزوق من السجن الأميركي، ثم تعامل الملك حسين الماهر مـــع محاولة الموساد لاغتياله، بيّن مشعل الاختلافات بين الأب والابن. "اتخذ [الملك حـــسين] موقفاً رجولياً مليئاً بالتصميم، والحكمة، والشهامة... لسوء الحظ، لقد تغير الموقف نحو حماس"[9].

كانت الإجراءات الصارمة في الواقع كابوساً للحركة. وسط زيادة الشكوك في الأراضـــي المحتلة، كان الأردن إلى حدٍّ كبير الأفضل بين الدول المجاورة لإسرائيل التي يمكـــن مـــن خلالها لحماس نقل السلاح والأموال. كان عدد اللاجئين الفلسطينيين الـــضخم فيه يقدّم غطاءً ممتازاً لقياديي حماس، وكانت الاتصالات وإمكانية الوصول إلى الأراضي المحتلة جيدة.

لكـــن تلـــك الإجراءات الصارمة لم تكن مفاجئة تماماً. كانت حماس قد تلقّت تحذيـــرات مبطّنة قبل أسابيع أنه إذا غادر قياديوها البلاد، ربما تجعل السلطات المحلية عودتهم صعبة. في الوقت نفسه تقريباً، كان مشعل قد خضع لتفتيش شخصي مذل في مطـــار الملكـــة علياء في عمّان، والذي افترض أنه رسالة من سميح البطيخي. لم يكن رجال أمن المطار ليجرؤوا على مسه من دون أوامر مباشرة من فوق.

الغـــريب أن المكاتب التي كانت حماس قد عملت من خلالها طيلة عقد تقريباً، تحت عيون إدارة المخابرات العامة، أضحت آنذاك تعمل بشكل غير شرعي في عمّان.

أصبح مستحيلاً فصل الحقيقة عن الخيال عندما بث مسؤولون رفضوا الكشف عن أسمائهم مجموعة من الادّعاءات لو أن نصفها فقط كان صحيحاً، لشكّل ذلك إثباتاً على خلاصة غير محتملة بأن وكالة استخبارات البطيخي كانت نائمة في ما مضى.

تضمّنت الادّعاءات القيام بمصادرة آلاف الصفحات من معلومات "خطيرة وحسّاسة" عن الأردن وأفراد مهمين في المملكة من مكاتب حماس؛ إن الحركة كانت تدرّب مجنّدين في مناطق نائية؛ اكتشاف مخابئ للأسلحة والمتفجرات في مناطق مختلفة من البلاد؛ تزوير جوازات سفر أردنية؛ وأن مشعل كان يجنّد إسلاميين من مخيمات لاجئين محلية وجامعات ليعملوا كجامعي أموال ومراسلين لنقل رسائل إلى الأراضي المحتلة.

بعد أسبوع، تم تشديد الضغط عندما تسبب المسؤولون أنفسهم الذين رفضوا الكشف عن أسمائهم بنشر الخوف في الأردن بادّعاءات عن اكتشاف دليل على عمل خلايا حماس العسكرية في الأردن. هدّدت تلك المزاعم بتكرار إراقة الدماء والفوضى التي حدثت في العام 1970 عندما كانت قوات ياسر عرفات قد تحدّت الملك حسين[10]. قال مسؤول لرندا حبيب من وكالة الصحافة الفرنسية: "وجدنا أنفسنا في موقف مشابه لأيلول الأسود".

مع كل ذلك، كانت التهمة الرسمية الوحيدة ضد أي من المعتقلين هي عضوية منظمة غير شرعية وحيازة سلاح غير قانوني؛ مسدس. في كواليس مسرحية النظام تلك، تبيّن أن البطيخي هو الذي أوصى بسحق حماس. لم تكن كراهية رئيس إدارة المخابرات العامة منذ وقت طويل لخالد مشعل سراً. لطالما كانت لدى البطيخي الموارد لإغلاق مكتب حماس السياسي، لكن في السابق كان الملك حسين يمنعه.

استفاد البطيخي آنذاك من شعور الملك الجديد بعدم الاستقرار. كانت هناك معلومات قليلة في التسريبات المنظّمة ضد حماس بعد أسابيع من الغارات، لكن إدارة المخابرات العامة كانت ترى أن مشعل يشبه عرفات؛ ليس بالضرورة محرضاً محتملاً على أيلول أسود آخر في الأردن، وإنما كقائد مهم بأسلوبه الخاص. كانت إدارة المخابرات العامة تعتقد أن جاذبيته في المجتمع الفلسطيني الكبير في الأردن ربما تقوّض موقف ملك يفتقر للخبرة والذي كان بنفسه، كما لاحظ مراقب مقرّب: "يستحوذ التخلص من خالد مشعل على تفكيره"[11].

كان ممكناً إشهار نسخة من الاتهامات ضد حماس في أي وقت في العقد السابق. لكن في الأيام الغامضة الأولى لتولي الملك عبد الله الحكم، كانت قوة حماس مبالغاً بها في تقييمات الأمن الوطني لإدارة المخابرات العامة. شرح عارف ببواطن النظام: "كان البطيخي يقول إن المملكة تأتي أولاً[12]. عبد الله ضعيف ومشعل قوي لهذا عليه أن يغادر". رفع البطيخي مستويات القلق بين ضباط بارزين عندما عرض المشكلة طويلة الأمد. حذّر قائلاً: "سيأتي اليوم الذي يكون فيه مشعل رمزاً للشعب الفلسطيني"[13].

من وقت إلى آخر، كان نزال المُطارد يظهر من مخبئه. في عمل أثار غضب مُطارديه من إدارة المخابرات العامة، قدّم تعليقات صحافية، كان أحدها يغطي صفحة كاملة في يومية *العرب اليوم* المؤيدة لحماس. كان يقوم بإجراء اتصالات هاتفية، يضغط على أصدقائه الإسلاميين والصحافيين بشأن حق المكتب السياسي بالعودة إلى الأردن، ومروجاً لرأيه بأن تلك الإجراءات كانت نتيجة بغض البطيخي لمشعل.

في السنوات العشر التي عملت في خلالها حماس في عمّان - كان مشعل في خمس منها رئيساً للمكتب السياسي - لم يعقد هذان الرجلان سوى اجتماع واحد جليدي بعد محاولة اغتيال مشعل، وفقط بوساطة عضو إسلامي في البرلمان الأردني.

بعد تشديد الخناق على الحركة، بقي مشعل وأعضاء آخرون في طهران عدّة أسابيع يفكّرون في ما ينبغي فعله. طار عضو آخر في المكتب السياسي، هو عماد العلمي الذي يقطن في دمشق، إلى طهران لإجراء مناقشات. وسافر مشعل إلى العاصمة السورية، حيث تشاور مع أعضاء في مجلس شورى حماس، الهيئة السرية العليا التي تتخذ القرارات في الحركة، والتقى مبعوثين من الإخوان المسلمين في الأردن، الذين، كما استنتج مشعل وآخرون، كان البطيخي يتلاعب بهم. كانت النصيحة التي تلقوها من إخوانهم في الجماعة تكراراً لرسالة إدارة المخابرات العامة: من الأفضل عدم العودة إلى الأردن.

لدى عودة مشعل إلى طهران من دمشق، قرّر مواجهة البطيخي، مقدّراً أنه لن يجرؤ على اعتقال قياديين بارزين في الحركة. حجز لرحلة العودة إلى عمّان، عبر دبي، لأعضاء حماس السبعة الذين كانوا آنذاك عالقين في العاصمة الإيرانية منذ حوالى شهر. لكن مشعل كان قد أساء التقدير. عندما حطّت رحلة طيران الإمارات عند التاسعة صباحاً في 22 أيلول، كانت هناك أوامر بإغلاق مطار الملكة علياء بشكل كامل.

استطاع أبو مرزوق، غير الأردني، النــزول من الطائرة. لكن في قاعة الوصول، تم إلقاء القبض عليه وإرغامه على العودة إلى الطائرة التي جاء عليها، ليكون على متن رحلة العودة إلى دبــي.

أُرغــم الآخــرون، الــذين تم احتجازهم أيضاً في قاعة الوصول، على تسليم جوازات سفرهم إلى موظف أمن أردني. تم تقييدهم بالأغلال واقتيادهم إلى مركبات لقطع رحلة عبر المدينة بينما كان رجال الأمن يحاولون تفريق حشد إعلامي.

أخيراً، مثلوا أمام محكمة عسكرية. في المحاكمة، كان هناك الكثير من الضوضاء، لكن القليل من الإجراءات القانونية. استفادت حماس من خدمات محامٍ بارز في عمّان، هــو صالح العرموطي، وفريق من محامين متطوعين آخرين. وسط إنكار غاضب لأي مخالفــة، تم التركيــز علــى غوشة خاصة بتهمة حيازة أسلحة. عندما صرخ المدّعي العــسكري علــى غوشة، وبّخه محامي حماس الرئيسي، العرموطي، قائلاً: "اخفض صوتك. الشخص الذي تتكلم إليه *مجاهد* يحظى باحترام شعب الأردن كله"[14].

في غــياب أي تقدم، تم اقتيادهم إلى زنــزانات لقضاء الليل. بعد جولة أخرى غير مجدية في المحكمة صبيحة اليوم التالي، أمرت المحكمة باحتجاز الستة مدة غير محددة في سجن الجوادية، على مشارف عمّان الجنوبية.

عــندما حــاول عناصر من جماعة الإخوان المسلمين المحلية عقد صفقة، رفض السجناء مطالب النظام بأن ينفضوا أيديهم من حماس أو يغادروا طوعاً البلاد التي هم مواطنوها. أصرّوا على أن تتم محاكمتهم علانية.

بدلاً من ذلك، عرضتهم السلطات على محكمة عسكرية. قدّم النظام مجموعة من الــتهم الجديدة التي تصل عقوبتها إلى الإعدام: حيازة ثلاث بنادق كلاشينكوف غير مرخــصة، وقنــبلة يدوية، وختم حكومي مصري مزوّر، كذلك الحصول على أرقام هواتف خليوية بأسماء مزيّفة، وجمع أموال لمنظمة غير شرعية.

معزولين عن سجناء آخرين، أدار معتقلو حماس سجنهم كخلية أصولية. حافظوا علــى كل فروضهم الدينية، قاموا بإجراء تمارين رياضية قاسية، وشاركوا في ألعاب أحاجي يومية لتمرين أذهانهم. بعد أسبوعين، أضربوا عن الطعام. توقفوا عن ذلك بعد خمــسة أيام، لكن مشعل استمر في رفض التفاوض مع السلطات من المعتقل. متشبثاً بإيمانه أن اعتقالهم وإغلاق مكاتب حماس في الأردن كانت أفعالاً همجية من البطيخي،

تمسّك مشعل بأمله أن يتم إقناع الملك عبد الله باحترام وجهة نظر والده الراحل القائلة إن من الأفضل وجود حماس داخل خيمته وليس خارجها.

بالرغم من سياسة شفير الهاوية في عمّان، إلا أن أخ مشعل غير الشقيق مفيد، الذي كان يراقب التطورات من منزله في دالاس، كان واثقاً من تراجع الملك. قال منتقداً النظام في خلال محادثة هاتفية مع شكري أبو بكر، مدير مؤسسة الأرض المقدّسة: "إنهم يقومون بذلك لإثبات وجهة نظرهم. نعم، إنه تجمّع لوسائل الإعلام وهذا كل شيء". وافق أبو بكر: "حتى تنتهي أولبرايت من جولتها"[15].

لكن الملك عبد الله كان جاداً، لقد أراد إخراج حماس من مملكته. تشبث مشعل بموقفه؛ وكان على عبد الله والبطيخي أن يطرداه من البلد الذي كان مواطناً فيه. كملجأ أخير ووحيد بعد بقاء مشعل ورفاقه في السجن شهرين، عاد مفاوضو النظام إلى فكرة أنهم يستطيعون البقاء في البلاد إذا نفضوا أيديهم علانية من حماس. رد مشعل بحدّة: "لن نتخلى عن مبادئنا، ولن نتخلى أبداً عن حركتنا"[16].

ما حصل تالياً كان تعديلاً على العرض؛ ينبغي أن يغادروا البلد، لكن عبر المفاوضات، يمكن السماح لهم بالعودة كل بضعة شهور. لتلطيف الأمر، إذا وافقوا على ذلك، سيكونون بمنأى عن إذلال تقييدهم بالأغلال في أثناء ترحيلهم. كان رد مشعل "لا".

كان الضغط الذي مارسه مشعل من طهران يتضمن اتصالات مع شخصيات محورية في الدوحة، عاصمة إمارة قطر، حيث كان مشعل يدير جزءاً كبيراً من عملية جمع الأموال. في النهاية، نتيجة لتدخل وزراء في الحكومة القطرية من خلف الكواليس، توصل الجميع إلى اتفاق يتم بموجبه إسقاط التهم وكما قال مشعل، "ترحيلهم إجبارياً".

في 22 تشرين الثاني، تم تقييد مشعل وغوشة بالأغلال، ووضع عصابتين على أعينهما، ووضعهما في إحدى شاحنات السجن من دون إبلاغهما عن وجهتهما. بعد حوالى ساعة على الطريق، قال غوشة، بعد استنشاق الهواء، إنهم بين متاجر تحميص البن الشهيرة في حي ماركا[17]. بعد دقائق، ثبت أن حدسه صحيح عندما توقفت الشاحنة وترجلا منها. عند رفع عصابتي العيون، وجدا نفسيهما على مدرج منشأة عسكرية قرب السوق؛ كانت طائرة خاصة تنتظرهما.

تذكّر مشعل لاحقاً: "تم إرغامنا على الصعود إلى تلك الطائرة"[18]. كان وزير الخارجية القطري، أحمد عبد الله المحمود، على متن الطائرة أيضاً، لكنه قال باقتضاب لمشعل وغوشة إنه ليس مخولاً مناقشة خطط سفرهما.

كـــان وجود وزير الخارجية القطري يقتضي وفقاً للأصول الدبلوماسية حضور نظـــيره الأردني، عبد الإله الخطيب، الذي تحرك سريعاً لإخماد احتجاجات عالية من قـــبل مشعل. قال الوزير الأردني متهكماً بينما كانوا ينتظرون إقلاع الطائرة: "لكنك اتصلت فعلاً بوزير الخارجية القطري، أليس كذلك؟".

احـــتج مشعل بأنهم لم يطلبوا أبداً الذهاب إلى قطر. لكن الوزير الأردني قاطعه، وسلّمه جوازي سفرهما. كان يتم ترحيلهما.

مـــسافراً علـــى مـــتن طائرة خاصة إلى ترف غير متوقع في أحد أجنحة فندق الشيراتون في الدوحة، ترك مشعل ملك الأردن محتاراً بين مثالين نموذجيين للتعامل مع المـــأزق الدبلوماسي في الإقليم. كان والد الملك عبد الله قد أنشأ تحالفين مع الولايات المـــتحدة وإســـرائيل، لكنه كان قد احتضن حماس أيضاً؛ وكان القطريون يستقبلون آنـــذاك الرجلين المُبعدين، في الوقت نفسه الذي كانت فيه الدوحة تصبح مقراً لقناة الجزيـــرة الفـــضائية المثيرة للجدل وآلاف الجنود الأميركيين، وتحافظ في الوقت نفسه على علاقة مع إسرائيل.

بالتخلـــي عن لعب ورقة حماس بعد ذلك – سواء بالعمل ضد الحركة أو، بـــالعكس، برفض القيام بذلك تلبية لطلب من الإسرائيليين أو الأميركيين – كان عبد الله قد أضعف موقفه في المنافسة الدبلوماسية التي لا تنتهي في المنطقة. بإبعاد حمـــاس عن الأردن – استجابة لضغط مستمر من إسرائيل أو الولايات المتحدة – سيـــصبح أقـــل قدرة على حماية مصالح مملكته الحيوية، خاصة عندما يتعلق الأمر بعملـــية السلام التي تلعب فيها واشنطن دور الوسيط[19]. كان عبد الله قد أخرج نفسه من اللعبة.

كـــان مـــشعل، وأبـــو مرزوق، وباقي أعضاء المكتب السياسي قد أفلتوا بشق الأنفـــس. لم يكـــن شيء ليسعد نادي أوسلو أكثر من رؤية هؤلاء خلف القضبان بشكل دائم؛ لكن الملك عبد الله الثاني لم يُقدم على تلك الخطوة الأخيرة. مرة أخرى، كانت حماس قد نجت لتتابع الكفاح في يوم آخر.

بالنسبة إلى مشعل، كان هناك شيء مزعج جداً في عرض الملك الشاب الأخير. مفترضاً أن مشعل سيفضّل عدم تعرضه للإذلال بطرده خارج البلاد، بدا أن عبد الله قد نسي الفتنة التي وقعت عندما كان في التاسعة من عمره، عندما تسلل ياسر عرفات عبر الحدود من الأردن إلى سورية في ظلمة الليل، بدلاً من الوقوف مع رجاله لمواجهة جيش الملك حسين الراحل في اشتباكات أيلول الأسود. سيقول مشعل عند مقارنة ظروف ترحيله من الأردن بتلك التي واجهها قائد منظمة التحرير الفلسطينية: "كنت معصوب العينين، ويداي متعبتان. لقد تم طردي. عرفات هرب"[20].

كانت إسرائيل قد دفعت ثمناً باهظاً لمحاولة اغتيال مشعل في أيلول من العام 1997، لكن إبعاد حماس من الأردن بعد عامين كان أيضاً انتقاماً متأخراً من الموساد. استغرق إنجاز الأمر وقتاً، لكن مع موت الملك حسين، كان قد أصبح ممكناً إثارة نزاع بين النظام الأردني والحركة. كان البطيخي قد استفاد بذكاء من الخوف من أيلول الأسود لتفتيت الدعم لحماس في صفوف الإخوان المسلمين. كان يعتقد أنه يقول وداعاً لحماس.

لن يستمر موقع البطيخي في دوائر السلطة الأردنية طويلاً بعد إبعاد أعدائه الإسلاميين القدامى. خلال عام، سيكافح رئيس الاستخبارات للبقاء في منصبه. في كانون الأول من العام 2000، تمت إزاحته فجأة من رأس إدارة المخابرات العامة، وفي خلال عام سيواجه فضيحة بعد انتشار قصص عن اختلاسه 485 مليون دولار في صالونات العاصمة.

اعتبر البعض قرار عبد الله حظر النشر الإعلامي عن التحقيق إثباتاً على أن الخطوة ضد البطيخي كانت تهدف إلى تشويه سمعته الشخصية وليس تلقينه درساً في أخلاقيات العمل. حُظر على المحررين المحليين نشر بيانات من المتهم. صدرت أوامر لأسبوعية *المجد*، التي كان يرأس تحريرها فهد الريماوي النشيط، لحذف تقارير من صفحاتها قبل السماح بنشرها. تلقت *الحدث*، دورية أخرى، الأمر نفسه، ووجدت نفسها تواجه مشكلة مستعصية عندما قرّر محرّرها ترك الصفحة التي كان مقرراً ظهور التقرير عليها بيضاء. بدا إذلال البطيخي كاملاً عندما تقرّر عدم إطلاق سراحه بكفالة، وتم احتجازه في إحدى زنزانات إدارة المخابرات العامة التي كان هو مديرها سابقاً. أنكر البطيخي ارتكابه أي مخالفة، لكن حكماً صدر بحقه بالسجن ثمانية أعوام؛ خفضها خليفته مباشرة إلى أربعة.

كان البطيخي قد نال الإعجاب في الداخل والخارج لانتقال السلطة في بلاده بشكل سلس. لكن في بلاط ملكي يعتمد على التصريحات المقتضبة، الخداع، والأقاويل، كان البطيخي في موقع يثير الضغينة - كان يُعدّ دائماً عينيّ وأذنيّ الملك الراحل - لم يصدق بعض الأميركيين الذين عملوا عن قرب مع البطيخي قصة الفساد. كان تقييم مستشار كلينتون السابق بروس ريدل: "قوي جداً، وواسع النفوذ. كان يبدو أنه يدير الدولة. سقط لأنه أصبح قوياً للغاية لتحقيق مصالحه الخاصة".

كان الجزء الأخير من القرن العشرين وقتاً مليئاً بالشكوك. بمعايير الشرق الأوسط، كانت تلك فترة هدوء نسبي غريب، وقد شهدت غياب شخصيات مؤثرة في المأساة الإسرائيلية - الفلسطينية قبل اندلاع ما سيصبح قريباً معروفاً بالانتفاضة الثانية، أو انتفاضة الأقصى.

في أيار من العام 1999، أسقط الناخبون الإسرائيليون بنيامين نتنياهو، وودّعوا *مدمّر أحلامهم*[21]، الذي كان سياسياً مستعداً *لأن يدوس على أمه لتحقيق طموحه*[22] في تدمير عملية السلام[23]. أفسح نتنياهو في المجال لإيهود باراك الذي كان الجندي الأكثر تقلّداً للأوسمة في إسرائيل.

بوصفه رابع رئيس للوزراء في سبعة أعوام فقط، كانت لدى باراك البالغ من العمر ثمانية وخمسين عاماً خطة؛ أراد تجميد مذكرة تفاهم واي التي تم التوصل إليها بعد مخاض عسير. بدلاً من ذلك، أراد السعي لتحقيق سلام منفرد مع سورية، تماشياً مع ما كان معروفاً في الدوائر الدبلوماسية بأنه استراتيجية *سورية أولاً* لدى إسرائيل.

كانت سورية تمثّل خطراً استراتيجياً حقيقياً. كان الاتفاق مع دمشق سيكبح جماح العديد من أعداء إسرائيل الذين كانوا أيضاً حلفاء لسورية، بمن فيهم ليس طهران فحسب، وإنما ما يدعى فصائل المقاومة الفلسطينية أيضاً، ومنها حماس.

كانت إسرائيل قد أنجزت اتفاقيتي سلام مع القاهرة في العام 1979 وعمّان في العام 1994. أدرك باراك أنه يمكن الحد من قدرة ياسر عرفات على المناورة في أي مفاوضات مستقبلية إذا تم توقيع اتفاقية بين إسرائيل ودمشق.

أقنع باراك كلينتون بدعم سلسلة من الاجتماعات عالية المستوى. كان الرئيس السوري الأسد قد أوضح منذ مدة طويلة أنه لن يكون سهل المنال، وبعث برسالة

شهيرة إلى بيل كلينتون يوضّح فيها أنه ليس مثل الرئيس المصري أنور السادات، الذي اغتيل من قبل شعبه بعد الموافقة على السلام مع إسرائيل، ولا مثل الملك حسين، الذي كـــان قـــد بادل قطعة أرض بأخرى، ولا مثل عرفات، الذي وقّع على اتفاق أوسلو الأجوف.

كانـــت سورية تريد تماماً إعادة كل الأرض التي خسرها في حرب العام 1967[24]. استثمر كلينتون رأسمالاً سياسياً كبيراً لجمع الطرفين معاً، لكن في الوقت الذي وصل فيه باراك إلى واشنطن في كانون الأول 1999، كانت المعارضة في الداخل قد حذّرته من أي تنازل عن هضبة الجولان أو منح دمشق إمكانية الوصول إلى بحيرة طبرية. قال بـــاراك لمارتن إنديك، الذي كان وقتها مساعد وزير الخارجية الأميركية: "لا يمكنني القيام بذلك"[25].

مـــع تعثّر تقدم المفاوضات، أدرك الأميركيون أن باراك هو العقبة، لأنه لم يمنح مفاوضيه مهلة زمنية وقام أخيراً بإيقاف المحادثات. قال وزير الخارجية السوري فاروق الـــشرع لباراك، في خلال مأدبة متوترة إلى طاولة كلينتون: "أنت ببساطة خائف من القيام بذلك"[26].

لم يكـــن ممكـــناً توجـــيه التهمة نفسها إلى باراك بعد شهور عندما بدأ سحب القـــوات الإسرائيلية التي كانت متمركزة في لبنان طيلة حوالى عشرين عاماً؛ فقد وفى بالتالي بأحد وعوده الانتخابية.

كـــان الانسحاب مقرراً في تموز، لكن في أواخر أيار بدأت حشود من نشطاء حـــزب الله ومدنـــيين لبنانـــيين السير نحو مواقع إسرائيلية[27]. قرر باراك على عجل اختـــصار جـــدول الانسحاب المقرّر على أسابيع إلى أربع وعشرين ساعة فقط[28]، وشـــكّلت الفوضـــى الـــتي نجمت عن ذلك انتصار علاقات عامة لميليشيا حزب الله الـــشيعية بقيادة حسن نصر الله. استولى مقاتلوه على دبابات إسرائيلية مهجورة – في إحدى الحالات كان المحرك لا يزال يعمل والأرز يُطبخ على موقد صغير – بينما كان لبـــنان يحتفل والمعلّقون الإسرائيليون يشبّهون ذلك الإذلال بالانسحاب الأميركي من سايغون قبل خمسة وعشرين عاماً.

في خلال أسابيع، كان باراك مستعداً لتنفيذ خطة أخرى، هذه المرة على الجبهة الفلسطينية. بدلاً من السماح بنقل السيطرة على أجزاء أخرى من الأراضي المحتلة إلى

عرفات وفقاً لاتفاق واي، أراد رئيس الوزراء الاستفادة من احتمال تخلي إسرائيل عن أراضٍ كـــأداة في المفاوضات مع عرفات بشأن قضايا أساسية: الحدود والمستوطنات، القدس، وحق عودة اللاجئين.

وصـــلت المفاوضات حول ما يدعى قضايا الحل النهائي إلى طريق مسدود وما كان سيصبح أعواماً من الاتهامات المتبادلة حول من أفسد قمة الخمسة عشر يوماً الاستثنائية في صيف العام 2000، التي استضافها بيل كلينتون في منتجع كامب ديفيد الرئاسي.

في تـــسريب إخـــباري لأنباء المساء، كان ينبغي أن تضمن العروض التي بدا أن باراك وضعها على الطاولة نجاح الاتفاق مع عرفات.

كـــان الفلسطينيون سيحصلون على كامل الضفة الغربية عدا 9 بالمئة منها فقط وعلـــى جزء من أرضٍ إسرائيلية قرب غزة تعويضاً عن الـــ 9 بالمئة التي ستحتفظ بها إســـرائيل؛ سيكون لهم حق الإشراف الدائم على الحرم الشريف، الذي لم يكن يفوقه قدســـية لـــدى المسلمين سوى مكة المكرّمة والمدينة المنوّرة؛ سيحظون بسيادة مطلقة علـــى الأحياء الإسلامية والنصرانية في المدينة القديمة ومعظم الأحياء العربية في القدس الـــشرقية؛ ســـيكون هناك حضور دولي على الحدود بين إسرائيل وفلسطين؛ وسيتم مناقشة حل مرضٍ بشأن قضايا اللاجئين.

كانت هناك روايات عديدة بشأن ما حدث في تلك الأيام المشحونة بالتوتّر في كامب ديفيد حيث تواجد المشاركون.

كـــان مـــبعوث كلينـــتون إلى الشرق الأوسط، دينيس روس، مقتنعاً أنه يمكن التوصل إلى اتفاق تاريخي لو أن عرفات لم يتراجع في النهاية. قال روس لاحقاً: "لسوء حـــظ الفلسطينيين أنهم كانوا بقيادة ياسر عرفات، وهو قائد ثوري لم يستطع تحويل نفسه إلى رجل دولة. كان النـــزاع يحدد دوره... لم يستطع إنهاء النـــزاع"[29].

حمّـــل مستـــشار كلينـــتون للشؤون العربية - الإسرائيلية، روبرت مالي، كلاً من عـــرفات وبـــاراك مـــسؤولية الفشل. قال إن الجميع أشاروا إلى عرفات على أنه المذنب الوحيد بشأن ما وصفه بسيلٍ من التحليل الأجوف لقمة أصبحت "مأساة أخطاء"[30].

كمـــا أقرّ مالي، كان رئيس الوزراء الإسرائيلي قد حطم كل المحرّمات، خاصة قـــضية سيطرة الفلسطينيين على أي جزء من القدس وفكرة تبادل الأراضي. لم يكن أي قائد إسرائيلي قبله قد وعد بذلك.

لكن مالي أقرّ أيضاً أنه لم يكن هناك في الواقع عرض إسرائيلي حقيقي في كامب ديفيد. كان فريق باراك يتوقف دائماً قبل تقديم عرض رسمي؛ لم يكن هناك شيء مكتوب؛ وتفادى باراك أي اجتماع مباشر مع عرفات خلال خمسة عشر يوماً. كان هناك حديث عن تبادل أراض - لكن لم يتم تحديد الأراضي التي ستتم مقايضتها - و لم تكن هناك تفاصيل بشأن ما يتطلبه "الحل المرضي" لقضية اللاجئين.

كان الفلسطينيون، وفقاً لرؤيتهم الخاصة لظروفهم، قد قبلوا آنذاك 78 بالمئة من فلسطين التاريخية وفقاً لاتفاق أوسلو، الذي تبيّن أنه مقدمة للاستسلام بدلاً من أن يكون فاتحة للسلام. كان عرفات خائفاً من خداعه مجدداً. بعيداً عن كونه اتفاقاً نهائياً، كان ما سيتم الاتفاق عليه في كامب ديفيد سيشكل الأساس لأي مفاوضات مستقبلية. كان ذلك سيتطلب أيضاً ابتعاداً عن ضمانة الفلسطينيين الدبلوماسية الكبرى؛ الحماية التي يحظون بها في قرارات الأمم المتحدة الفاصلة بشأن الحدود وحق عودة اللاجئين. تساءلوا: لماذا ينبغي أن يثقوا بباراك بينما يرفض تنفيذ التزامات سابقة؟

ظهر أن أسباب الفشل في كامب ديفيد شخصية وتكتيكية أكثر منها واقعية. باختصار، لم يكن أيّ من الطرفين يثق في الآخر، وحتى مهارات كلينتون الأسطورية في الإقناع لم تبدد مخاوف عرفات بأن اتفاقاً ربما يعرّض موقعه في الداخل للخطر، وإن كان سيحسّن سمعته في الخارج.

لاحظ مالي: "كان الشك... المتبادل يعني أن باراك سيحجب عروضه النهائية، نهاية اللعبة، حتى يتحرك عرفات... ولن يتحرك عرفات حتى يرى نهاية اللعبة". بالنسبة إلى باراك، كانت كل خطوة اختباراً للإرادات؛ وبالنسبة إلى عرفات، فخاً محتملاً. كان عرفات قد كافح سنوات لإقامة علاقة مع واشنطن، لكن عندما وصلت الأمور إلى نقطة الحسم لم يعرف كيف يستفيد من تلك العلاقة لمصلحته.

قيّم مالي الطبيعة المتغيرة للمواجهة الإسرائيلية - الفلسطينية في كامب ديفيد وما كان فقط على الطاولة. "اسأل باراك، وربما يقول طواعية إنه لم يكن هناك عرض إسرائيلي، وبالرغم من ذلك، رفضه عرفات. اسأل عرفات، والجواب الذي قد تسمعه أنه لم يكن هناك عرض؛ وبالرغم من ذلك، لم يكن مقبولاً؛ أي، كان من الأفضل إبقاؤه على الطاولة"[31].

لدى عودتهما من كامب ديفيد، تم استقبال عرفات وباراك بطريقتين مختلفتين تماماً. تم الترحيب بالقائد الفلسطيني كبطل كان قد تحدّى الولايات المتحدة وإسرائيل. لكن، في عيون العديد من الإسرائيليين، كان باراك قد فشل؛ والأسوأ من ذلك أنه، وفقاً لتسريبات من المحادثات، كان قد أظهر كرماً كبيراً، بينما تجاهله عرفات ببساطة.

لم يكن لدى واشنطن أي مجال للمناورة. لم يكن أمام كلينتون سوى بضعة شهور فقط لمغادرة البيت الأبيض بعد دورتين كرئيس. كان قد خصص جهداً كبيراً لسنوات من المحادثات في سبيل التوصل إلى هدنة بين إسرائيل والفلسطينيين، متطلعاً إلى الظفر بتحقيق الاستقرار في الإقليم، وبالطبع، إلى شيء يضيفه إلى إرثه الخاص في السياسة الخارجية.

صبّ كلينتون جام غضبه على عرفات. ملمّحاً إلى إعادة انتشار متفق عليها سابقاً لقوات إسرائيلية وتسليم ثلاث قرى كان باراك قد أوقفها، انحاز كلينتون للقائد الإسرائيلي. "كُنتَ مستعداً لتقديم تنازلات كبيرة لهذا الرجل... لو كنتُ مكانك، لما أمرت بإعادة الانتشار [أيضاً]"[32].

بينما كان الوفدان يحزمان حقائبهما لمغادرة المنتجع الرئاسي في ميريلاند، لم يكن بمقدورهم تقييم الآثار السلبية التي ستتركها تلك القمة الفاشلة على تاريخ النزاع. باستثناء جهد أخير لكلينتون في خلال أيامه الأخيرة في منصبه في كانون الأول 2000 للاستفادة مما كان قد تبقى على طاولة كامب ديفيد، ستكون تلك المفاوضات الرسمية هي الأخيرة بين الفلسطينيين والقيادة الإسرائيلية طيلة سنوات مقبلة.

كانت الشرارة التي أشعلت الانتفاضة الثانية زيارة استفزازية متعمدة قام بها عضو المعارضة الإسرائيلية وقائد حزب الليكود اليميني، أرييل شارون، إلى المدينة القديمة في القدس بعد أسابيع فقط من كامب ديفيد. وقع ذلك في 28 أيلول 2000. محاطاً بمئات من رجال الأمن ومع تغطية إعلامية مكثّفة، أصرّ شارون على حقه كيهودي في الذهاب إلى ما يدعوه المسلمون الحرم القدسي الشريف، وهي المنطقة التي تحيط بالمسجد الأقصى. كان ذلك ثالث الحرمين الشريفين لدى المسلمين، لكن اليهود يدعونه جبل الهيكل، لأنه يقع فوق آثار قديمة لموقع مقدّس لديهم، الهيكل

الـــثاني. منذ استيلاء إسرائيل على القدس الشرقية في العام 1967، كان الحرم خاضعاً لإدارة الأوقاف الإسلامية شبه المستقلة في القدس[33].

كان الفلسطينيون يكرهون شارون. في الثمانينيات، أطلقوا عليه لقب جزّار بيروت بعـــد محاولـــته القضاء على ياسر عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية في لبنان. حمّلته لجنة إســـرائيلية المـــسؤولية عن المجزرة التي قامت بها ميليشيا لبنانية متحالفة مع إسرائيل ذهب ضحيتها ثلاثة آلاف فلسطيني في مخيمي صبرا وشاتيلا للاجئين الفلسطينيين على مشارف العاصمة اللبنانية. بصفته عرّاباً لحركة الاستيطان الإسرائيلية، كان شارون قد أعلن بشكل لا يُنـــسى في العـــام 1998: "ينبغي على الجميع أن يتحركوا، ويسيطروا على أكبر عدد ممكن من التلال لتوسيع المستوطنات لأن كل ما نأخذه الآن سيبقى لنا"[34]. كان راسخاً في أذهـــان معظم الفلسطينيين جواب شارون على *سؤال المليون* الذي طرحه مسؤولون إســـرائيليون بعد أيام من ضم الضفة الغربية في العام 1967. كان المعنى الكامن في السؤال مـــا إذا كانـــت إســـرائيل ستقوم بترحيل سكّان الضفة الغربية، وتحتفظ في الوقت نفسه بالأرض. غالباً ما كان شارون يعلن أن "الأردن هو فلسطين"، مشيراً إلى أن الفلسطينيين في الضفة الغربية ينبغي أن يرحلوا إلى الأردن.

أشعل تعنّت شارون وزيارته إلى الحرم القدسي الشريف الشرارة بالتأكيد. لكن الـــبعض يعتقد أن السبب في ما أصبح بسرعة انفجاراً نارياً لغضب الفلسطينيين رداً على استفزازه ينبغي أن يكون شيئاً أكثر عمقاً.

بحثاً عن تفسير، لفت مدير مركز الأبحاث الفلسطينية الأميركية في رام الله، معين ربّـــاني، الانتباه إلى الذكرى السابعة الغائبة عن الأذهان لتوقيع إعلان مبادئ أوسلو، التي حلّت قبل أسبوعين من صعود شارون إلى الجبل.

قارن ربّاني اتفاق أوسلو بما جاء بعده – أوسلو 2 في أيلول 1995؛ وثيقة الخليل في كانـــون الثاني 1997؛ مذكرة تفاهم واي في تشرين الأول 1998؛ واتفاقية شرم الشيخ في أيلول 1999. في مجمل تلك الوثائق الخمس، لاحظ شيئاً راسخاً، واستنتج أنه كان السبب الرئيسي في خيبة أمل الفلسطينيين المريرة. قال: "[هناك] نمط واضح. تـــرفض إســـرائيل أولاً الوفاء بتعهداتها؛ تسعى وتنجح في تعديلها في اتفاقية جديدة؛ تـــراوغ لاحقاً بشكل منهجي؛ وأخيراً، تطالب بمفاوضات إضافية، تقود بدورها إلى اتفاقية أخرى جديدة"[35].

وفقاً لتقدير ربّاني، بعد سبع سنوات من أوسلو، كانت إسرائيل لا تزال تسيطر تماماً على 60–70 بالمئة من الضفة الغربية وأكثر من 20 بالمئة من غزة التي تبدو بحجم طابع البريد. في المناطق الخاضعة نظرياً لسيطرة الفلسطينيين، كان الجيش والمستوطنون الإسرائيليون يفعلون ما يرغبون فيه. مقابل الاعتراف بدولة إسرائيل في اتفاق أوسلو الأول، كان الفلسطينيون قد تخلوا عن 78 بالمئة من فلسطين التاريخية، لكن إسرائيل كانت لا تزال تريد أن "تساوم على التسوية"، كما قال.

كان من المفهوم أن المحادثات التي لا تنتهي بين الإسرائيليين والفلسطينيين، بما فيها عقدة كامب ديفيد، تمثل عملية سلام، لكنها منذ بدأت في العام 1993، كان هناك انتشار "للمستوطنات" اليهودية في الأراضي المحتلة، التي كان يُفترض أن تعيدها إسرائيل. كانت الطرقات التي تربط المستوطنات تطوّق المجتمعات الفلسطينية، وكانت الرقابة العسكرية على حركة الفلسطينيين قد جعلت المنطقة تتحول إلى جيوب غير متصلة ببعضها. كان عدد سكان المستوطنات اليهودية الاستفزازية قد ازداد بنسبة 77 بالمئة.

بالرغم من ادّعاءات باراك أنه يرأس مجلس وزراء سلام، إلا أن معدل الموافقة على بناء مستوطنات إسرائيلية على أراضٍ فلسطينية في السنة الأولى من توليه منصبه كان أعلى بنسبة 65 بالمئة من السنة الأولى لتولي المتشدد نتنياهو رئاسة الوزراء. إذا كان هناك أي شك، كانت إشادة باراك باقتراحات كامب ديفيد إثباتاً قاطعاً أن سيناريو "بانتوستان (جيوب معزلة) الفصل العنصري" الذي خشي منه منتقدو أوسلو كان حاضراً بالفعل. خلص ربّاني إلى القول: "بحلول 28 أيلول 2000، كانت الحياة [بالنسبة إلى الفلسطينيين] في ظل أوسلو قد أصبحت لا تُطاق"(36).

في ذلك اليوم، بدأ صمام الأمان يحترق مع قيام شارون بدخوله المثير للجدل إلى الحرم القدسي الشريف. في أول أربع وعشرين ساعة، كان رد الفعل محدوداً باحتجاجات غاضبة داخل حرم المسجد والتي أدّت إلى جرح عدد صغير من المحتّجين ورجال الشرطة. في اليوم التالي انفجر برميل البارود. تم إلقاء حجارة من الباحة الأمامية للمسجد الأقصى على يهود يصلون في الأسفل، عند الحائط الغربي. كان هناك إطلاق لأعيرة نارية أدّى إلى مقتل سبعة فلسطينيين شكّلوا الشهداء الأوائل للانتفاضة الجديدة. انتشرت الاحتجاجات مثل النار في الهشيم في كل أنحاء الأراضي المحتلة.

كان أرييل شارون قد صعد جبل الهيكل كقائد للمعارضة يرغب بالمزايدة على رئيس الوزراء إيهود باراك الذي كان بحاجة إلى أن ينأى بنفسه عن بنيامين نتنياهو الذي لا يكلّ ولا يملّ، والذي كان في ذلك الوقت يمثل تحدّياً قوياً لقيادة شارون لحزب الليكود. كان تدنيس شارون للحرم القدسي الشريف يجعله مرشحاً لرئاسة الوزراء. كان سيقود الإسرائيليين في فصل طويل وقاسٍ من حرب البقاء مع جيرانهم الفلسطينيين.

لقي أكثر من ثلاثين فلسطينياً حتفهم في الأيام الثلاثة الأولى من الانتفاضة الجديدة؛ وأُصيب حوالى خمسمئة آخرين بجروح. في غضون شهر فقط، لقي أكثر من مئة وستين فلسطينياً حتفهم؛ أعمار ثلثهم أقل من سبعة عشر. في المدة نفسها، مات اثنا عشر إسرائيلياً[37].

كان الفلسطينيون قد ألقوا بالحجارة وأطلقوا الشتائم في خلال الانتفاضة الأولى، لكنهم كانوا في الانتفاضة الثانية يردّون على النار بالنار. ردّت إسرائيل بكامل ترسانتها – مقاتلات نفّاثة، مروحيات هجومية، ودبابات – ضد عدو يمتلك قليلاً من الأسلحة أو غير مسلح على الإطلاق. ردّ الفلسطينيون بموجات من العمليات الاستشهادية المروّعة لكن الفعّالة للغاية. صعّدت إسرائيل عملياتها بحملة من عمليات الاغتيال التي استهدفت قادة فلسطينيين.

تداعت قيادة عرفات. عالقاً بين مطالب المجتمع الدولي بإعادة إحياء العملية السلمية التي فقد شعبه إيمانه بها، وردّ إسرائيلي قاسٍ غير متكافئ، وجد قائد منظمة التحرير الفلسطينية نفسه مضطراً للجوء إلى المواربة والمراوغة. محرجاً، قام بإدانة العنف، لكن لم يصغ إليه أحد. عندما ظهرت كتائب شهداء الأقصى كقوة قتالية جديدة من بين صفوف حركة فتح التي كان يقودها عرفات، تم اتهامه بأنه كاذب أشر.

في المدة التي سبقت خسارته لمنصبه، كان إيهود باراك قد منح بالتأكيد الفلسطينيين شيئاً يفكرون فيه بشأن الطرق التي يمكن أن تؤدي إلى أفضل حلٍ للأزمة لمصلحتهم. المفارقة أن ما فعله في لبنان قبل أسابيع من كامب ديفيد هو الذي حثّ الكثير من الفلسطينيين على إعادة التفكير في استراتيجيتهم في ما يخص الحرب أو السلم.

بإنهائـه احتلال إسرائيل لجنوب لبنان الذي دام ثمانية عشر عاماً، كان باراك قد منح حـزب الله - الحركة الشبيهة بحماس في لبنان - نصراً احتفل به العالم الإسلامي. كانت سبعة أعوام من المحادثات مع إسرائيل قد أعادت للفلسطينيين قطعة من أرضهم، لكن من دون السيطرة عليها أو شيء من فوائد السلام. من ناحية أخرى، كان حزب الله، قد طـرد قوات الدفاع الإسرائيلية من لبنان. بتقديم نفسه كقائد يمكن أن يتأثر بالقوة العربية، كـان لرسـالة رئيس الوزراء باراك صدى في بؤس قطاع غزة والضفة الغربية. قدّم محمد دحلان، قائد جهاز الأمن الوقائي التابع لعرفات، تفسيراً بليغاً للأمر: "العنف ينجح"[38].

منذ اليوم الذي تسلّم فيه شارون رئاسة الوزراء في شباط من العام 2001، حوّل النـزاع إلى أمر شخصي لتسوية حسابات قديمة مع عرفات، الذي كان قد نجا من حملة شارون العنيفة في لبنان في العام 1982. سرعان ما تبيّن أن هدف شارون الكبير كـان القضاء على سلطة عرفات الفلسطينية، قيادتها، وأجهزتها التنفيذية، ورموزها. معلناً أن أوسلو هي "أكبر كارثة حلّت بإسرائيل"[39]، انطلق شارون لدفن كل مظاهر الاتفاق تحت أنقاض حرب متواصلة.

في الـوقت نفـسه، اسـتمر التوتر بين أكبر فصيلين فلسطينيين في الإضرار بما يفتـرض أنها قضية مشتركة. انتقلت العلاقات بين فتح وحماس من أزمة إلى أخرى. استطاعت كلتا الحركتين مساعدة الأخرى في أوقات مختلفة، لكن الدعامات الأساسية للعلاقـة بيـنهما كانت العداء، والارتياب، ومقداراً كبيراً من الكراهية. مثل ثنائي متخاصـمين لا يستطيعان الحصول على الطلاق، ستقبل حماس وفتح العيش معاً فقط إذا اسـتطاعت إحداهما السيطرة على الأخرى. كانت الفجوة بينهما - في السياسة، التكتـيك، والـدين - واسـعة ومعقّدة. كانت الجسور القليلة الموجودة شخصية، وليست تنظيمية. كان كلا المعسكرين الفلسطينيين - الإسلامي والعلماني - قد خرج من الانتفاضة الأولى بجروحٍ دامية وذكريات كبيرة.

بعـد عشرة أيام من تدنيس شارون للحرم الشريف في القدس القديمة، أشرف عـرفات علـى عقد اجتماع نادر للتوصل إلى اتفاق بين الفصائل الفلسطينية. كان حاضـراً في ذلـك الاجـتماع، في مبنى عرفات الرئاسي في مدينة غزة، إسماعيل أبو شـنب، أحـد قياديي حماس البارزين. كانت تلك هي المرة الأولى التي تكون فيها الحركة موجودة في مثل ذلك الاجتماع لقادة فلسطينيين.

مـــن الواضح، أن اللقاء الذي استمر ثلاث ساعات أدّى إلى تقارب بين عرفات وحمـــاس. في إسرائيل، كان التفسير أن قائد منظمة التحرير الفلسطينية يغض الطرف عـــن عنف الإسلاميين ضد إسرائيل. عندما انفضّ الاجتماع، خرج أبو شنب وشدّد على أهمية الوحدة. قال لمراسلين: "كانت كل الفصائل موجودة"[40]. ثم بيّن أنه كان قـــد ناقش تصعيد الانتفاضة مع عرفات. "ناقشنا طرقاً لتطوير هذه الانتفاضة وطرقاً لمواجهة التحديات التي يمثّلها الإسرائيليون"[41].

قـــدّم أبـــو شنب أيضاً تصوراً لطريقة تطور الانتفاضة. كما بيّن، كانت حماس تأمـــل بمحاكاة تكتيكات حزب الله. قال: "سيستمر أولئك الذين يفاوضون في القيام بذلك، وسيستمر أولئك الذين يخوضون صراعاً مسلحاً في القيام بذلك، لأن الأمرين متكاملان"[42].

كـــان ذلـــك تفكـــير عرفات الاستراتيجي أيضاً بعد أن تشبث الإسرائيليون والفلسطينيون كلٌ بموقفه في خلال الأسابيع الأولى من الانتفاضة الثانية. لم يكن ذلك يعني أن لدى قائد منظمة التحرير الفلسطينية خيارات. بعد انخراطه في عملية أوسلو، لم يكـــن يستطيع أن ينطق بكلمة "لا" صريحة للإسرائيليين أو لواشنطن؛ وفي الوقت نفسه، لم يكن يستطيع الاستمرار في قول "لا" لكل الفصائل الفلسطينية أو لأيٍّ منها، بمن فيهم الإسلاميون.

كانـــت سبعة أعوام قد مرّت منذ وقّع عرفات على اتفاق أوسلو. ومنذ عودة الشيخ أحمد ياسين في العام 1997 إلى غزة، كانت هناك ثلاث سنوات من الإهانات المبطنة والشك المتبادل بين زعيم حماس الروحي وعرفات. كان المحللون الإسرائيليون محـــتارين في محاولتهم قراءة تعقيدات أعمال القيادة الفلسطينية المزدوجة – هل كان عرفات وياسين خصمين متضادين أم كان ذلك عمل شرطي – جيد/شرطي – سيئ ذكـــياً؟ اســـتنتج البعض في أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية أن الأمر كان مزيجاً من الاثنين[43].

كانـــت إحدى أوضح الإشارات هي إطلاق سراح أعضاء في حماس ومقاتلين آخرين من السجون الفلسطينية في الأيام الأولى لتجدُّد العنف في انتفاضة الأقصى. في الـــبداية، عـــشرة هنا، ثم عشرة هناك؛ وأخيراً، عاد المئات إلى الشوارع، وأثاروا قلق إسرائيل من تكرار موجة العمليات الاستشهادية في منتصف التسعينيات. كانت بعض

تبريـــرات خـــروج أعداد كبيرة من السجون تبدو معقولة في ظاهرها – تحرر بعض السجناء ببساطة عندما هرب حرّاسهم الفلسطينيون في وجه هجمات إسرائيلية على مقار أمن السلطة الفلسطينية – وتم إخلاء سبيل آخرين لأن رجال عرفات لم يكونوا متأكدين أنهم يستطيعون حماية السجناء من الأذى الذي يسببه لهم الإسرائيليون.

كان هناك تفسير آخر، على أي حال.

كـــان الوســـيط أستاذ خالد مشعل سابقاً في الجامعة، أسد عبد الرحمن، الذي أصـــبح بحلول العام 2000 قيادياً بارزاً في منظمة التحرير الفلسطينية. عبر سلسلة من الاتـــصالات الهاتفية مع عبد الرحمن، مرّر مشعل مطلبه إلى عرفات بتحرير 240 من أفضل مقاتلي حماس من سجون السلطة.

مـــتحدثاً إلى قائد منظمة التحرير الفلسطينية عبر عبد الرحمن، قال مشعل: "نحن [حمـــاس] أبطـــال المقاومة إذا كنا أشقّاء، ونقاتل تحت الراية نفسها مثل فتح، ينبغي إخلاء سبيل هؤلاء الرجال لينضموا إلى المعركة"(44).

أشـــار مشعل إلى أن عرفات سيبدو خائناً للقضية الفلسطينية إذا رفض ذلك. لم يـــرفض، لكـــن الرجل العجوز لم يستطع مقاومة تلك الفرصة ليثبت لمشعل من هو المـــسؤول. تم إخلاء سبيل السجناء بأعداد قليلة – قلة هنا وقلة هناك – حتى لم يبق ســـوى واحد فقط خلف القضبان. عاد مشعل ليتحدث عبر الهاتف مع عبد الرحمن: "هل يمكن أن تحاول إخراجه؟".

رد عـــبد الـــرحمن: "يقـــول عـــرفات إنـــه مضطر للاحتفاظ به لحمايته من الإسرائيليين".

سأل مشعل: "هل تلك هي طريقة عرفات في قول لا؟".

قال له عبد الرحمن: "إنها نعم ولا عرفات". كان قائد منظمة التحرير الفلسطينية يثبت لمشعل من هو السيد فلسطين. كان عرفات يعتقد أنه يستطيع التوصل إلى تسوية مـــع حماس، لكنه بشكل شخصي ومن منطلق نفسي، لم يكن يستطيع التعاون معها بشكل كامل. ربما كان قد أطلق سراح سجناء لكنه لن يمنح الحركة أسلحة، وأموالاً، أو معلومات استخباراتية. الأهم من كل ذلك، لن يشاركها أبداً القيادة.

كـــان مشعل لا يزال متألماً لترحيله من عمّان، ويحاول جعل الدوحة قاعدة له. سمـــح له النظام القطري بالخروج والعودة كما يحلو له، مما أبقاه على اتصال وثيق مع

أبو مرزوق وعماد العلمي، الذي كان قد انتقل إلى دمشق. كانت العاصمة السورية، بالمقابل، مفتوحة لأعضاء بارزين آخرين من الحركة وكانت الاتصالات سهلة عبر قنوات سرية مع ياسين وآخرين في القيادة الداخلية.

لكن اندلاع الانتفاضة الثانية جعل مشعل مضطراً للتمركز في مكان أقرب إلى الأراضي المحتلة. كانت قطر، البعيدة تماماً ضمن دول الخليج، ستشكل دائماً مقراً موقتاً. كانت حماس بحاجة إلى العمل من إحدى ما كان يوصف أحياناً بأنها دول المواجهة؛ مصر، الأردن، سورية، أو لبنان. لكن الخيارات كانت محدودة؛ فقد كان الملك عبد الله قد أوضح أن الحركة لا يمكن أن تعود إلى عمّان؛ كانت القاهرة تقمع الإخوان المسلمين في كل أنحاء مصر؛ ولم تكن بيروت خياراً منطقياً لأن لبنان كان مخترقاً من الإسرائيليين.

أملى المنطق أن دمشق، بعدد اللاجئين الفلسطينيين فيها الذي يبلغ حوالى نصف مليون، تمثّل أفضل خيار لمشعل. كانت آنذاك مقراً لحوالى اثني عشر فصيلاً فلسطينياً، تغطي كامل طيف السياسة الفلسطينية - من الأصولية الإسلامية إلى الماركسية - مجتمعة، كانت معروفة بفصائل المقاومة بسبب معارضتها لعملية سلام أوسلو، ومنها الجهاد الإسلامي، الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، والجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين. كانت واشنطن مقتنعة أن دمشق تحتضن قواعد تدريب لكل تلك الجماعات في وادي البقاع الذي تسيطر عليه سورية في لبنان المجاور.

بالرغم من ذلك، كان لدى مشعل سبب للتردّد. كانت هناك أسباب عديدة لعدم توجُّهه تلقائياً إلى دمشق عند طرد حماس من الأردن مع نهاية العام 1999. لو أن رئيس الوزراء الإسرائيلي إيهود باراك كان قد نجح في جهوده للتوصل إلى اتفاقية كان يسعى إلى إبرامها في ذلك الوقت مع دمشق، لكان السوريون قد تعرضوا لضغط مباشر للتخلي عن بعض الفصائل الفلسطينية المتشددة أو كلّها التي تعمل داخل الحدود السورية.

كان مشعل منتبهاً لمحتوى تقارير تقول إن دمشق كانت قد تراجعت قبل أقل من عام أمام تهديدات بعمل عسكري من جارتها تركيا بعد أن وفّرت سورية ملاذاً آمناً لزعيم حزب العمّال الكردستاني عبد الله أوجلان. بعد إرغامه على الفرار، تم اعتقال أوجلان في كينيا بعد ثلاثة شهور.

أيضاً، كانت حماس بحاجة إلى التغلب على قلق تاريخي قبل أن تتحرك شمالاً من عمّان. لم تنس الحركة أبداً، وكانت ستجد صعوبة كبيرة في مسامحة السلطات السورية على الأحداث التي أودت بحياة أكثر من عشرة آلاف من أنصار ونشطاء الإخوان المسلمين عند قمع تمرّدهم في مدينة حماة السورية بقسوة في العام 1982.

أخيراً، لم يكن لدى حماس مكان آخر تذهب إليه، خاصة بعد أن أشعل عمل غريب وقع بعد إبعادها من قبل الملك عبد الله، توتّرات جديدة وانزعاجاً دبلوماسياً كبيراً لقطر في حزيران 2001.

في 14 حزيران، وصل رجل عجوز بشكل غير متوقع إلى مطار الملكة علياء في عمّان على رحلة قادمة من الدوحة. كان إبراهيم غوشة قد عمل طيلة سنوات كمتحدث رسمي باسم حماس في الأردن، لكنه كان آنذاك في السابعة والستين من العمر وقد قضى في الدوحة عامين. كان يريد العودة إلى الوطن.

تم اعتقال غوشة حالما خرج من الطائرة. ربما كان عجوزاً، لكنه كان لا يزال أحد قياديي حماس العنيدين ورفض المطلب الأردني بأن يستقيل من حماس قبل السماح له بدخول البلاد.

وضع الأردن يده على طائرة الخطوط الجوية القطرية إيرباص – 320 التي كان غوشة قد وصل على متنها، ورفض السماح لطاقمها بالمغادرة إن لم يُعيدوه معهم. كانت لدى الطاقم أوامر صارمة من الدوحة بعدم القيام بذلك. تم إلغاء كل الرحلات بين البلدين آنذاك.

في خلال المفاوضات الصعبة التي تلت ذلك، شهدت المنطقة موقفاً استثنائياً. بقي غوشة محتجزاً في المطار طيلة أسبوعين؛ مع هاتف خليوي خبّأه تحت بطانياته وطبيب إلى جانبه لمراقبة مرضي السكري وارتفاع ضغط الدم المصاب بهما.

عرضت حكومتا اليمن وليبيا المساعدة، لكن من دون جدوى. مشدّدين أن على غوشة أن يغادر أولاً عمّان قبل أن يُمنح موافقة رسمية على العودة، أصدر عملاء أردنيون أخيراً أوامر له بالصعود على متن رحلة مقرّرة لإحدى طائرات الخطوط الملكية الأردنية التي كان يحيط بها حشد من رجال إدارة المخابرات العامة وبينهم نائب المدير. كان غوشة يعتقد أنه ذاهب إلى اليمن. لكن، حالما أصبح على متن الطائرة، أعلن الطيّار أنهم متجهون إلى تايلاند.

بعـــد دقائـــق من الهبوط في مطار دون ميانغ الدولي في بانكوك، نـــزل غوشة وحرّاســـه في فـــندق ترانــــزيت للتوصل إلى اتفاق على كلمات بيان. لكن مسار الأحـــداث شهد تغيراً نحو الأسوأ عندما اكتشفت السلطات التايلاندية أن الأردنيين كانوا قد أحضروا معهم *إرهابياً معروفاً*، غوشة، إلى بلدهم. تم إرغامهم على الهروب على متن الرحلة التالية المتوفرة، هذه المرة إلى كوالا لامبور.

وافق غوشة أخيراً على تجميد نشاطاته مع الحركة. كان ذلك تعبيراً لفظياً، لكن مـــن دون أن يتم اعتباره متخاذلاً. عادت الجماعة إلى الأردن في اليوم التالي، واستقر غوشة في عمّان وسرعان ما اختفى عن أنظار العامة.

كان خالد مشعل يستعد للانتقال أيضاً. أخيراً، حزم حقائبه في قطر وتوجه إلى دمـــشق، حيث استقر مكتب حماس السياسي في مدينة كانت القوانين الأساسية فيها أقـــسى مما كانوا معتادينه في الأردن. في العاصمة السورية، كان محظوراً عليهم القيام بـــأي نشاط علني، وستنقضي خمسة أعوام قبل أن تسمح لهم السلطات المحلية بتنظيم حدث سلمي تمثّل بإقامة أول مؤتمر صحافي لخالد مشعل في دمشق[45].

19

رجل ميت يمشي

في دمـــشق، كان الوقت بعد الظهر عندما شغّل خالد مشعل التلفاز في مبنى في إحـــدى الضواحي، كان النظام السوري قد قدّمه كمكتب ومنـــزل لضيفه الرسمي الجديد. وكان ذلك توقفاً قصيراً في يوم حافل لمتابعة الأخبار.

تذكّر لاحقاً: "كنت أشاهد الجزيرة. فجأة، كان هناك خبر عن طائرة تصطدم بأحد البرجين. ثم كانت هناك طائرة أخرى"[1].

كان ذلك 11 أيلول 2001، ولم يستطع مشعل قول شيء.

كانـــت القناة الإخبارية الفضائية العربية التي تتخذ من الدوحة مقراً لها قد بثّت للتو أول تقاريرها عن هجوم القاعدة على أميركا، حيث اتجهت طائرات مختطفة مليئة بالمـــسافرين بكامل سرعتها نحو البرجين الشهيرين لمركز التجارة العالمية في نيويورك ومبنى وزارة الدفاع البنتاغون في واشنطن. قال لاحقاً: "كان الأمر مثل مشاهدة فيلم. كـــان شـــيئاً لا يُـــصدّق. لم تكـــن مجرد ضربة واحدة؛ كانت مجموعة متتالية من الضربات".

كان مشعل يعارض دائماً تصنيف نشاطاته على أنها إرهابية، وعندما انكشفت أبعـــاد المجـــزرة في مانهاتن وواشنطن، وجد صعوبة في فهم شناعة مشروع أسامة بن لادن. قـــال: "كـــان غريباً أن يحدث ذلك لأقوى بلد في العالم. في البداية، شعرت بصدمة كبيرة مما جرى. تابعت الأخبار فحسب".

بـــسرعة كافية، على أي حال، بدأت العواقب الرهيبة المحتملة بالنسبة إلى حماس بالظهور. سيخيّم ما حدث في 11 أيلول على نظرة العالم للانتفاضة الثانية، مثلما غيّر غـــزو صـــدّام حسين للكويت في العام 1990 النظرة بشكل جذري نحو الانتفاضة الأولى. إذا كانت نهاية الحرب الباردة قد خفّفت الاهتمام بالقتال من أجل الحرية في أصـــقاع مخـــتلفة من الكرة الأرضية، فإن أحداث 9/11 ستعرّض محاربين مثل مشعل وحركته للخطر.

الأكثـــر أهمية، سيتحرك خصومهم – في حالة مشعل، رئيس الوزراء الإسرائيلي أريـــيل شـــارون – بـــسرعة للاستفادة من رد فعل واشنطن على القاعدة لمصالحهم الخاصـــة. وســـتتمّ الاستفادة من خطاب مكافحة الإرهاب الجديد في أميركا لتبرير استعمال إسرائيل القوة العسكرية بشكل مفرط في كل نـــزاع محتمل. فجأة، سيصبح صـــراع مـــشعل ضد احتلال فلسطين مركز اهتمام جورج دبليو. بوش فيما يدعى الحرب على الإرهاب.

علـــى الأرض في الـــشرق الأوسط، كان المزاج غاضباً. بينما كانت الانتفاضة تـــدخل عامهـــا الثاني، لم يستطع أي من الطرفين التغلب على الآخر. كان أكثر من ثمانمـــئة فلسطيني قد لقوا حتفهم منذ نهاية أيلول 2000[2]. في المدة نفسها، لقي أكثر مـــن مـــئة وسبعين إسرائيلياً حتفهم. كان آلاف قد أصيبوا بجروح من كلا الطرفين. وكـــان الاقتـــصاد الفلسطيني قد انكمش بشكل كبير، مع تبخر ثلاثة آلاف وظيفة فلسطينية، وإغلاق صناعة السياحة في إسرائيل.

في الأســـابيع التي تلت الهجمات على نيويورك وواشنطن، توارت كل الفصائل الفلـــسطينية عـــن الأنظـــار، فيما بدا أنه قرار جماعي لتفادي ربطها بعملية بن لادن العالمـــية. كان التوتر على أشُدّه. تغيّر الموقف فجأة مع قرب نهاية أيلول، عندما أجاز رؤســـاء الأجهزة الأمنية الإسرائيلية توجيه ضربة صاروخية من طائرة لاغتيال محمود أبو هنود، قائد عسكري من حماس في الضفة الغربية.

وعـــدت الحـــركة بالثأر له. متجاهلة واحدة من دعوات ياسر عرفات العديدة لوقـــف إطلاق النار، ردّت الحركة في عطلة نهاية الأسبوع الأول من كانون الأول. عمليـــتان استـــشهاديتان – واحدة في القدس، والأخرى في الجزء الشمالي من مدينة حـــيفا – قتلتا ستة وعشرين إسرائيلياً وجرحتا أكثر من مئتين آخرين. كانت عملية القـــدس قاسية بشكل خاص – أولاً، التفجير المتزامن لقنبلتين قويتين. ثم، بعد توقف دام عشرين دقيقة، وصلت في خلاله كوادر المساعدة الطبية والفرق الأمنية إلى الموقع، انفجرت أداة ثالثة؛ سيارة مفخخة.

لم يكن من عادات خالد مشعل أن يطل برأسه بشكل متهور من وراء متراس. لهـــذا كان ينبغي أن تبدو المقابلة التي أجراها مع الصحيفة المغربية *التجديد* يوم وقوع التفجير في حيفا محسوبة ومثيرة للاهتمام. متباهياً ومحرّضاً في الوقت نفسه، أثار مشعل

سخط كلٍّ من شارون وعرفات عندما أوضح بفخر أن معظم القتلى الإسرائيليين في الانتفاضة هم ضحايا حماس. أعلن: "لقي أكثر من ثلاثة أرباع الصهاينة حتفهم على أيدي حماس". مصراً على أن أكثر من نصف النشطاء والمحتجين الذين يحافظون على استمرار الانتفاضة كانوا من حركته، بدا أن مشعل يحاول إبعاد كل الفصائل الأخرى عن خط المواجهة(3).

بالرغم من أن حماس كانت قد أوضحت بجلاء أنها مسؤولة عن التفجيرات الأخيرة، إلا أن قوات شارون لاحقت عرفات، ونسفت مهبطاً ومروحيتين لقائد منظمة التحرير الفلسطينية. وصف مسؤول إسرائيلي بارز اختيار الأهداف بالقول: "أردنا معاقبته وإذلاله"(4).

كان جورج دبليو. بوش هو الذي هاجم حماس. محولاً اهتمامه بعيداً من القاعدة للمرة الأولى منذ 11 أيلول، التقى الرئيس الأميركي على عجل مع أرييل شارون في واشنطن في اليوم الذي وقع فيه تفجير حيفا. كان شارون قد جاء يحمل طلباً خاصاً. كان يريد من بوش إغلاق أحد مشاريع حماس الحيوية، مؤسسة الأرض المقدّسة. في العام السابق، كانت مؤسسة الأرض المقدّسة قد جمعت 13 مليون دولار باسم العمل الخيري الإسلامي(5).

لم يُضع بوش وقتاً. تم استدعاء الصحافيين المعتمدين في البيت الأبيض إلى حديقة الورود قبل الساعة الحادية عشرة بقليل من اليوم التالي. أعلن بوش، منتقداً شبكة حماس للأعمال الخيرية، التي تعتمد عليها آلاف العائلات الفلسطينية، ومطلقاً وعيداً: "أولئك الذين يعملون مع الإرهاب لن يعملوا في الولايات المتحدة". قال: "الأموال التي تجمعها مؤسسة الأرض المقدّسة تستعملها حماس لدعم المدارس وتعليم الأطفال ليكبروا ويصبحوا انتحاريين"(6).

كان جمع الأموال يتم على الأرض الأميركية. كانت مؤسسة الأرض المقدّسة راسخة الجذور ضمن الجاليات الإسلامية التي شنّت عليها السلطات الفيدرالية غاراتها، في مواقع لا تخطر على بال مثل ضواحي دالاس؛ في بريدجفيو على الطرف الجنوبي لشيكاغو؛ في باترسون، نيوجرسي؛ وفي سان دييغو. بالرغم من إنكار واحتجاجات مديري هيئة جمع الأموال التي تدير عمليات بعدّة مليارات من الدولارات، تمت مصادرة سجلات ووثائق مؤسسة الأرض المقدّسة عندما أغار عملاء فيدراليون على

مكاتـــبها في أربع ولايات. تم تجميد أصول مؤسسة الأرض المقدّسة، إلى جانب تلك العائدة لمصرف وشركة استثمارات ادّعت إدارة بوش أنها أذرع مالية لحماس.

قـــبل شـــهور، كانـــت مؤسسة الأرض المقدّسة قد استخدمت شركة خاصة لمكافحة التجسس لتفقّد مقرها في دالاس وقيل لها إن منشآتها كانت "تحت رقابة تقنية مـــن قبل هيئات غير معروفة لفترات غير محدّدة"[7]. كشفت تلك الغارات الفيدرالية بـــشكل مـــثير عـــن تلك *الهيئات غير المعروفة* التي كانت تصيخ السمع. كان ضمن الكنـــــز الـــدفين النفيس من المعلومات الذي تم الحصول عليه من مكاتب مؤسسة الأرض المقدّسة جواهر استخباراتية مثل وثيقة سرية لمجلس حرب حماس الذي كان قد انعقـــد في مكـــان لم يُعلن عنه في الشرق الأوسط في كانون الثاني 2001، بعد ثلاثة شهور من اندلاع الانتفاضة وقبل ثمانية شهور من 11 أيلول.

قدّم التقرير نظرة نادرة على سلطة اتخاذ القرار العليا في حماس، مجلس الشورى. كـــان بـــين الحاضرين حوالى ثمانين من أبرز قادة الحركة ومعظمهم شخصيات غير معـــروفة، وفيهم عدد ممن لم تُذكر أسماؤهم من الأراضي المحتلة. كان هناك بند واحد علـــى جـــدول الأعمال: البقاء. دار النقاش عن الاستراتيجيات التي ينبغي استنباطها لإبقـــاء الانتفاضـــة مشتعلة، وأيضاً لتحصين حماس من الحملة الإسرائيلية المتصاعدة ومحـــاولات ياســـر عرفات المستميتة لتدمير الحركة. كانت حماس تتحضر لنـــزاع طويل.

تم إصدار أوامر بتفاصيل دقيقة لكل فروع حماس في الأراضي المحتلة لإنشاء لجان تخطـــيط محلـــية مهمتها مقاومة أي حركة لإنهاء الانتفاضة. كشف ذلك التقرير[8]، المؤرخ في كانون الثاني 2001، تعليمات عن الاستعداد للقيام بأعمال سريعة ستحصّن الحـــركة ضـــد اعـــتقال قادتها أو إغلاق مساجدها ومؤسساتها. ملمّحاً إلى عمليات عسكرية، قدّر الاجتماع محقاً أن الانتفاضة ستصبح "بيئة مناسبة جداً، إن شاء الله، لنا لإعـــادة بناء عملنا، اختيار أولئك المناسبين له وتجهيزهم بالأسلوب الصحيح في ضوء تلك المواجهات اليومية الساخنة مع العدو".

حـــذّر التقرير الفروع بأنه لا يمكن ربط المكتب السياسي علانية بنشاط حماس العسكري. لكن في الوقت نفسه، أصدر أوامر بتعيين قادة عسكريين مزوّدين "بتوجيه مناسب ودعم لوجستي" من الخارج. واعداً بتدفق أفضل تنظيماً للأموال من الخارج،

أشــار التقرير بشكل مبهم إلى نظام مراسلي حماس الذين يعملون بين الأراضي المحتلة والخــارج، والــذين يــستفيد منهم نشطاء الفروع غير القادرين على التواصل عبر الفــاكس أو الــبريد الإلكتروني. في حالات الطوارئ، كان يتم تزويدهم بتعليمات خاصة ورقم هاتف في سويسرا[9].

بالنــسبة إلى مشعل وحماس، كان إغلاق مؤسسة الأرض المقدّسة كارثة، وأدّى إلى قطــع تواصل الحركة مع شبكات دعم اجتماعية كريمة وقطع التمويل الذي يُعد نسغ الحياة بالنسبة إليها، والذي كان القسم الأكبر منه يُنفق على الأعمال الخيرية في الأراضي المحتلة المرهقة اقتصادياً. كانت "العواقب الوخيمة" التي توقعها مشعل بعد 11 أيلول قد وقعت.

بمــواجهة هجمــات مــثل تلك في الخارج، استحوذ على حماس ضرورة اتخاذ إجراءات دفاعية في الأراضي المحتلة.

كانــت مهام قيادة حماس في الخارج جمع الأموال، تولّي الشؤون الدبلوماسية، والتخطيط للأعمال العسكرية. كان من الضروري تعزيز كل تلك العناصر الثلاثة إذا كان المقصود الحفاظ على عمليات الحركة الواسعة في الداخل. كان مشعل يحرك كل ذلــك؛ كانــت الوثيقة السرية لمجلس الحرب في كانون الثاني قد صادقت على إعادة انتخابه رئيساً للمكتب السياسي.

لــدى عودته إلى إسرائيل من رحلته الناجحة إلى واشنطن، أعلن أرييل شارون حــربه *الخاصة على الإرهاب* وركّز انتباهه مجدداً على عدو قديم. قال، معيداً صياغة إعــلان بــوش بعد 11 أيلول: "لن تكون هذه الحرب سهلة. لن تكون هذه الحرب قصيرة الأمد. لكن ينبغي أن نفوز بها".

في خــلال خطابه المتلفز، كشف رئيس الوزراء الإسرائيلي إلى أي حدٍّ كانت منافــسته الشخــصية مــع ياسر عرفات تغّذي شعوره بالنــزاع. أعلن: "لن ينجح عرفات في خداع الحكومة التي أرأسها"[10]. قبل عشرين عاماً، كان عرفات قد وقف عبر الشارع قبالة مبنى من الشقق في بيروت، والذي كان قد أخلاه قبل دقائق قليلة، يراقب على حين كانت مقاتلات إسرائيلية تدكّ المبنى في غارة للقضاء عليه[11]. كان الطيارون يعملون بأوامر من شارون، الذي كان في ذلك الوقت وزير دفاع إسرائيل. في العام 2001 بدا أن شارون يعتقد أن لديه عملاً غير مكتمل بعد ينبغي الاهتمام به.

كـــان بعض وزراء وقادة أجهزة أمن شارون يطالبون بأصوات مرتفعة بترحيل عـــرفات، وحتى القضاء عليه. كانت هناك جوقة ترفع صوتها دعماً لفكرة قديمة بجعل الضفة الغربية تختفي خلف جدار ضخم، شبيه بالمتراس الذي كان يفصل مدينة برلين إلى شرقية وغربية في بداية الستينيات.

كـــان عـــرفات في موقـــف لا يحسد عليه. في الساعات الثماني والأربعين بعد عملـــيتي حمـــاس في القـــدس وحـــيفا في كانون الأول 2001، اعتقل أكثر من مئتي إســـلامي. احتجـــزت قواته الأمنية ناشطاً بارزاً، وأعادت وضع ياسين تحت الإقامة الجـــبرية بيـــنما كـــان عرفات يتعرض لضغط شديد من واشنطن لتدمير الميليشيات الإسلامية.

كـــان هـــناك وقـــت ربما استطاع فيه عرفات، جرياً على عادة الحكام العرب الأقوياء، فرض إرادته. بالرغم من أنه كان قد عمل بجهد كبير للحصول على الأموال والمكانة التي كان ينبغي لعملية أوسلو أن تمنحها له، إلا أن موقعه كقائد للفلسطينيين أُصـــيب بنكسة كبيرة حتى إنه كان مضطراً آنذاك لتقديم عروض وقف إطلاق النار وفقـــاً لما تمليه عليه الفصائل الأخرى. كانت الغالبية المطلقة من شعبه لا تزال خلف الانتفاضـــة، وتدعم بقوة الهجمات على المستوطنين والجيش الإسرائيلي في الأراضي المحتلة. رفضوا بشدة ادّعاءه أن العمليات الاستشهادية إرهاب[12].

إذا كـــان يُنظـــر إلى النـــزاع على أنه توازن قوى، فقد كان الفلسطينيون في موقف يائس بمواجهة ترسانة إسرائيل المتطورة عالية التقانة. وكانت حماس، على أي حال، ترى الأمر من وجهة نظر مختلفة وتصورّ النـــزاع على أنه توازن رعب.

كان إسماعيل أبو شنب، البالغ من العمر ثلاثة وخمسين عاماً وأب لسبعة أولاد، أحد مؤسسي حماس. بيّن خريج كلية الهندسة من كولورادو أن وجهة النظر الأخرى تمـــثّل معيار نجاح حماس. قال: "اسمع، إنهم يخافون عندما ندمّر دبابة إسرائيلية. ذلك دليل على النجاح. عندما نقتل جندياً إسرائيلياً، نكون قد حققنا نجاحاً كبيراً. عندما نختـــرق الدفاعات والحدود الإسرائيلية، نكون قد حققنا نجاحاً كبيراً. وعندما نؤذيهم داخل إسرائيل، عندها يكون ذلك بالفعل نجاحاً كبيراً"[13]. أقرّ أبو شنب أن العمليات الاستشهادية سلاح بدائي. أصر: "لكن ذلك كل ما لدينا وهي أقل ضرراً من أف – 16 محملة بأطنانٍ من المتفجرات".

كـــان عـــرفات عالقاً بين ما بدا أنهما تياران متناقضان للرأي الشعبـــي. وجد اســـتطلاع للـــرأي في نهاية العام 2001 أن غالبية كبيرة من الفلسطينيين تدعم وقف إطـــلاق النار والعودة إلى المفاوضات. لكن استطلاع الرأي نفسه وجد أن تسعة من كـــل عشرة فلسطينيين يرون أن أي وقف لإطلاق النار عديم الجدوى، وأنهم في نهاية المطـــاف ســـيؤيدون القـــيام بهجمات مسلحة على جنود ومستوطنين إسرائيليين في الأراضي المحتلة(14).

كقائـــد لا تـــتوافق أفعاله مع ما يطلبه الرأي العام الفلسطيني، كان مطلوباً من عـــرفات العمـــل على جبهتين، بين عالم يلتمس منه الحفاظ على إيمانه باتفاق أوسلو الممـــزق والغالبـــية الساحقة من شعبه التي فقدت إيمانها بتلك العملية، والتي كانت، بمعـــايير معيـــشتهم، فاســـدة. كان عرفات الضعيف يضطر إلى النظر في عيون شعبه والعالم، كلما حققت حماس نجاحاً في عملها.

كانت الأزمة قد وصلت إلى طريق مسدود. بصفته شريك إسرائيل في السلام، لم يكـــن عرفات ليحصل على شيء حتى يدمر حماس. لكن عرفات لم يكن يستطيع تـــدمير حماس من دون تدمير نفسه، لأن الحركات الإسلامية في ذلك الوقت كانت تمثّل جزءاً كبيراً من الرأي الفلسطيني الذي لا يعتقد بالاتفاق الذي يجعل، نظرياً على الأقل، عرفات وإسرائيل شريكين في السلام في المقام الأول.

كانـــت محاولات تدخُّل أجنبية إما سيئة في التوقيت أو في طرح الأفكار. عندما أرســـلت واشـــنطن - بـــإدارة الـــرئيس بـــيل كلينتون المنصرف - رئيس وكالة الاستخبارات المركزية جورج تينيت فيما كانت السحب الأولى للانتفاضة تتجمع في الأفـــق أواخر العام 2000، سرقت الأضواء من زيارته صور قاسية من رام الله، حيث تـــسنّى لطـــاقم تلفـــزيوني إيطالي أن يصوّر بالمصادفة حشداً فلسطينياً يقتل جنديين إســـرائيليين كانا قد ضلّا سبيلهما. عندما دعا عضو مجلس النواب الأميركي السابق جورج ميتشل لإنهاء العنف وتجميد بناء المستوطنات الإسرائيلية في تقرير قدّمه في أيار من العام 2001، تلقى انتقاداً عنيفاً من شارون، الذي أعلن أن كل النشاط الاستيطاني "مشروع وطني حيوي"(15).

جمّـــدت أحداث 11 أيلول كل محاولات صنع السلام. كانت ولاية كلينتون، الـــذي جعـــل تحقـــيق ســـلام في الشرق الأوسط إحدى العلامات المميزة لسياسته

الخارجـــية، قد انتهت. كان في مكانه جورج دبليو. بوش المتعصّب، الذي أوضح أن محاربة الإرهاب مهمته، وليس متابعة مهمة سلفه لتحقيق السلام في الشرق الأوسط.

في المـــدة الـــتي تلت تفجيري القدس وحيفا في العام 2001، أصرّ عرفات على "وقف كامل لكل العمليات، خاصة الاستشهادية"[16]. رداً على ذلك، أوقفت حماس والفصائل الأخرى إطلاق النار؛ بينما اختار الإسرائيليون عدم القيام بذلك.

كـــان وقف إطلاق النار المهزوز الذي دعا إليه عرفات قد دخل أسبوعه الثالث عـــندما تلقّى أحد أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية معلومات عن مكان وجود رائد كرمـــي، ناشط من فتح يُعتقد أنه قتل اثني عشر إسرائيلياً. بعد سماعهم أن كرمي يمر بانـــتظام عبر مقبرة طولكرم، في الضفة الغربية، زرع عملاء إسرائيليون قنبلة بارتفاع الـــرأس في جدار على الطريق الذي اشتبهوا بأنه يستعمله. تم تفجير القنبلة عندما مرّ كرمي من هناك؛ مما أدّى إلى استشهاده فوراً، وكذلك وقف إطلاق النار[17].

في خـــلال أســـابيع، أغضبت منظمة العفو الدولية شارون بنشرها تقريراً يتهم إســـرائيل بانتهاكات متعددة لميثاق الأمم المتحدة ضد التعذيب. اتهمت منظمة حقوق الإنـــسان القوات الإسرائيلية بمعاملة آلاف الفلسطينيين بقسوة، بشكل غير إنساني أو مذل، وأحياناً بتعذيبهم[18].

في الـــشهور القلـــيلة الأولى من العام 2002، تم تدمير أكثر من خمسمئة مبنى، يعـــيش فيها أكثر من ألفي عائلة، بوحشية بالغة من دون أي ضرورة عسكرية تُذكر، وفقـــاً لتقرير منظمة العفو الدولية. تم إغلاق قرى وبلدات كاملة، وحرمان مجتمعات كاملة من حرية الحركة؛ حتى أولئك الذين كانوا بحاجة إلى عناية طبية. إضافة إلى كل ذلـــك الإغلاق، أرغم منع التجول الآلاف على البقاء في منازلهم طيلة أسابيع في كل مرة[19].

كـــان العنف من دون رحمة. أُطلق على شهر آذار صفة الأسود. لقي حوالى 240 فلـــسطينياً حتفهم عندما اقتحمت قوات الدفاع الإسرائيلية المجتمعات الفلسطينية بشكل متكـــرر؛ ومـــات أكثـــر مـــن 130 إسرائيلياً في سلسلة سريعة من سبع عشرة عملية استـــشهادية، التي كانت، بنهاية الشهر، قد هزّت إسرائيل بمعدل واحدة في اليوم. بحلول نهايـــة آذار، كـــان رقم وفيات الفلسطينيين قد تجاوز ما شهدته الانتفاضة الأولى: 1442 شهيداً في ثلاثة أرباع الوقت فقط – ووصل رقم وفيات الإسرائيليين إلى 400 قتيل.

كـــان محمد عودة يرتدي ملابس ليبدو أنثى وأجنبياً، يضع نظارة ويحمل حقيبة يـــد عندما وصل، مصادفة تقريباً، إلى فندق بارك في نتانيا. بعد ظهيرة يوم 27 آذار 2002، وضـــع محمـــد عـــودة حـــول خصره حزاماً يحتوي على عشرين رطلاً من المتفجرات، وقد أخفاه تحت الملابس النسائية التي كان يرتديها. يرافقه فتحي خطيب، ســـائق مـــرتبط بحماس، انطلق عودة بعد ذلك في بحث عشوائي عن هدف، في أي مكان على طول الشريط الساحلي لإسرائيل[20].

كـــان التخطـــيط الدقيق قد انتقل إلى مرحلة التنفيذ. كان قد تم تجهيز القنبلة؛ انتقاء مسالك لتفادي نقاط التفتيش الإسرائيلية؛ واختيار التنكّر ليكون دقيقاً بما يكفي حـــتى لا يلفت الانتباه. بالرغم من ذلك، بينما كان الرجلان ينطلقان بالسيارة بعيداً عـــن طولكـــرم، حيث يعيش عودة على الطرف الشمالي للضفة الغربية، كان كل الاهتمام بالتفاصيل قد أضحى خلفهم. بعد كل ذلك الجهد، كان اختيار الهدف سيتم وفقاً للمصادفة فقط.

في وضع مثالي، كانا يأملان بالعثور على تجمّع لأفراد الجيش الإسرائيلي. أولاً، انتقلا جنوباً إلى هرتزليا؛ ثم تعمّقا جنوباً بمحاذاة البحر المتوسط إلى تل أبيب. محبطين، اســـتدارا إلى الخلف، وعادا إلى الشمال مجدداً. كان عودة آنذاك على قائمة المطلوبين الإســـرائيلية، لكـــن بالرغم من الإجراءات الأمنية المكثّفة، استطاع خطيب وعودة الـــبحث عـــن مجتمعات يمكن اختراقها بسهولة طيلة أكثر من أربع ساعات قبل أن يوصـــل خطـــيب أخيراً الاستشهادي البالغ من العمر ثلاثة وعشرين عاماً إلى خارج فندق بارك على شاطئ نتانيا.

بوصـــفه أول أيـــام الفصح اليهودي - ذكرى خروج الإسرائيليين القدامى من مـــصر - كـــان ذلك أحد أقدس التواريخ على المفكرة اليهودية. مع حلول الغسق، جلس حوالى 250 يهودياً على مقاعد في غرفة الطعام للاحتفال بطقوس الفصح.

تفادى عودة حراس الأمن في الفندق. عند حوالى الساعة السابعة مساءً، أحس بعـــض النـــزلاء أخيراً أن هناك شيئاً ليس على ما يرام بشأن *امرأة* كانت تتجول متـــرددة في ردهـــة الفندق، لكن بعد فوات الأوان. أزالت قوة الانفجار أجزاء من الجـــدران والسقوف؛ وخرجت أجساد، وأشلاء، وقطع أثاث من النوافذ المحطمة إلى مسافة خمسين ياردة.

ارتفع عدد الإصابات بمرور الوقت. قالت التقارير الأولى أن تسعة عشر شخصاً لقوا حتفهم. في مستشفى نتانيا، قال كبير الأطباء أفينوام سكولنك إن ثمانية وعشرين شخصاً لقوا حتفهم، وتعرض اثنان وعشرون لإصابات بالغة. في النهاية، لقي ثلاثون حتفهم وأُصيب مئة وأربعون آخرون بجروح، كلهم مدنيون. المحزن أن معظمهم كانوا في السبعين من عمرهم أو أكبر. كانت تلك سادس عملية استشهادية خلال سنة ونصف السنة من تجدد النزاع.

أثارت السهولة التي وصل بها عودة وخطيب إلى فندق بارك خوفاً سيطر على النفسية الوطنية الإسرائيلية؛ لم يكن أحد يشعر بالأمان. كانت الإصابات من العمليات الاستشهادية مروّعة، للأحياء والموتى على حدٍّ سواء.

كان هناك العديد من الهجمات الأخرى بإطلاق الرصاص والطعن بالسكاكين ضد الإسرائيليين، لكن كان ما يدعوه الفلسطينيون عمليات استشهادية هي التي تغلف الأرض بغطاء ثقيل من الخوف. عندما نفّذت إسرائيل عمليات اغتيال مستهدفة أشخاصاً بعينهم واستعملت نظاماً من حظر التجول الخانق والغارات القاتلة في محاولة لتحطيم الروح المعنوية الفلسطينية، ثأرت الفصائل الفلسطينية مجتمعة بموجة إثر أخرى من الهجمات الاستشهادية.

كان كل مكان لتجمع الإسرائيليين هدفاً. آنذاك، كانت قائمة الهجمات الفلسطينية تتضمن حافلات ومحطات قطارات؛ أسواقاً للمشاة وتقاطعات مزدحمة؛ محطات وقود ومراكز تسوّق؛ محال، مقاهي، وملاهي؛ نقاط تفتيش ومزارع تعاونية؛ وكل ما يتعلق بالجيش الإسرائيلي.

اكتسبت مجزرة الفصح اليهودي، كما سيُطلق على تفجير نتانيا، أهمية خاصة. كانت أشدّ عملية استشهادية وقعاً حتى ذلك الوقت، لكن توقيتها كان حاسماً أيضاً. بغض النظر عن حرمة يوم الهجوم بالنسبة إلى اليهود، تزامن ذلك مع جهود دبلوماسية محمومة في العالمين الغربي والعربي لتفادي كارثة محققة.

كان القادة العرب مجتمعين في بيروت، يحاولون وضع اللمسات الأخيرة على عرض سلام تقدمت به المملكة العربية السعودية. وجد الرئيس جورج دبليو. بوش، الذي لطالما ازدرى الفلسطينيين ومحنتهم، نفسه مرغماً على إرسال مبعوثه الجنرال أنطوني زيني إلى المنطقة في محاولة للتوصل إلى وقف لإطلاق النار. كانت كل من

مبادرة السلام السعودية وخطة زيني لوقف إطلاق النار قد ولدتا ميتتين؛ لم يكن الإسرائيليون مهتمين بما يقوله السعوديون؛ و لم يستمع الفلسطينيون إلى زيني.

بعد إعلانه رسمياً أن السلطة الفلسطينية "كيان يدعم الإرهاب"، تخلى شارون عن وصفه المعتاد لعرفات بأنه هتلر ولمنظمة التحرير الفلسطينية بأنها الرايخ الثالث[21]، وتحول آنذاك إلى مقارنتين معاصرتين مع أسامة بن لادن والقاعدة. كانت الأرض صفر (أرضية الانطلاق) بالنسبة إلى شارون هي البقايا المشوّهة لفندق بارك.

خاطب رئيس الوزراء الأمة مجدداً. قال بينما كان جنرالاته يضعون اللمسات الأخيرة على حملة عسكرية دعوها الدرع الواقي: "دولة إسرائيل في حالة حرب". أعلن شارون، من دون أن يترك الكثير لخيال الفلسطينيين ليتوقعوا ما ينتظرهم: "ينبغي أن... نقتلع جذور هؤلاء".

بعد خمسة أيام، سحبت كوادر الإسعاف الإسرائيلية أجساد خمس عشرة ضحية من تحت أنقاض مطعم متسافا قرب مركز تسوق غراند كانيون في حيفا – مسرح عملية استشهادية أخرى – دوّت صرخات احتفالية من مكبّرات المساجد في مخيم جنين للاجئين الفلسطينيين، في الضفة الغربية والذي يبعد حوالى ثلاثين ميلاً إلى الجنوب الشرقي من حيفا. أعلنت أن منفذ عملية متسافا هو شادي طوباسي، أحد السكان المحليين الذي يبلغ من العمر ثمانية عشر عاماً.

تدفق المئات إلى منزل عائلة طوباسي لمواساتهم وتناول قهوة العزاء. شكّل وجهاء عشيرة طوباسي صفاً للترحيب بالمعزّين، وسلّموا كل وافد بطاقة تحتفي ببطل عملية حيفا. في زاوية، كان وليد فايد المتجهّم، البالغ من العمر واحداً وثلاثين عاماً، يمسك ببندقية أم – 16، وشرح سبب الغياب غير المعتاد للسكر في القهوة المنكّهة بالهيل التي يتم تقديمها في فناجين خزفية صغيرة. قال: "اليوم نشربها مرّة، حتى نستطيع مشاركة عائلة طوباسي المرارة التي أذاقوها للإسرائيليين".

استبعد فايد أي إشارة على استهجان ما قام به جاره الشاب عندما حوّل مطعماً على جانب الطريق إلى كهف للموت. أسهب بدلاً من ذلك في الكلام عن توقعاته بشأن عملية الدرع الواقي الإسرائيلية. قال: "ستكون مجزرة". كان الجميع في مخيم جنين ينتظرون قدرهم: "سنخرج بأحزمة ناسفة، لأن ذلك أفضل من الجلوس في المنزل وانتظار أن يأتوا لقتلنا. لكن قبل أن يقتلوني، سأفجّر نفسي مع بعض الإسرائيليين"[22].

في غـــزة، كـــان شعور التحدي نفسه سائداً مع شيء من التهور. أكّد الشيخ ياســين فلــسفة حمــاس "ســنموت ونحن نقاتل" قبل أن يعلن أن الشهادة "سلاح استثنائي".

دق قادته العسكريون طبول الجهاد. سخر عبد العزيز الرنتيسي من الإسرائيليين: "أرادوا قتلــنا مــن دون أن يدفعوا ثمناً". كان طبيب الأطفال البالغ من العمر خمسة وخمــسين عاماً ثاني أهم شخصية في قيادة حماس في غزة بعد ياسين. كان بين سجناء حماس الذين أطلق عرفات سراحهم في الأسابيع الأولى من الانتفاضة. قال الرنتيسي: "يكتشفون الآن أن هناك ثمناً بالمحصلة". ركّز محمود الزهار، الجرّاح وعضو القيادة في غـــزة، على الحاجة إلى قيام الفلسطينيين بجرح الإسرائيليين نفسياً. "لأننا لا نستطيع المــس بالإســرائيليين من دون عمليات استشهادية، يشجع الجميع القيام بالمزيد من الهجمات. ماذا عسانا نفعل غير ذلك؟"[23].

كـــان هـــؤلاء الـــرجال يفهمون أنهم أهداف لعمليات اغتيال إسرائيلية. كان الرنتيـــسي قـــد تخلى عن استعمال الهواتف الخليوية بعد أن بدأ الإسرائيليون حشوها بالمتفجـــرات وإرغام متعاونين فلسطينيين على مقايضتها بهاتف الشخصية المستهدفة. كـــان الزهار يغير السيارات يومياً تقريباً منذ عام، عندما بدأت إسرائيل شن ضربات صاروخية على مركبات تنتقل بها ضحايا مستهدفة.

دمّـــرت المقاتلات أو المروحيات الإسرائيلية في أسابيع سابقة كل مقار الأجهزة الأمنـــية الفلسطينية في غزة. كان مدير الأمن، اللواء صائب العاجز، يعمل من مكتب مـــوقت مبني من أكياس الرمل، إلى جانب كومة من الأنقاض التي كانت سابقاً مقر جهـــازه الأمـــني. كان هناك ثلاثة هواتف خليوية ومسدس على طاولة بلاستيكية. بالـــرغم من أن ظروفه كانت تبدو صعبة، إلا أن شجاعته لم تتأثر بذلك. أصرّ اللواء بينما كان يتم تقديم القهوة على الرصيف: "إذا دخل شارون المدينة، سيقع في ورطة كبيرة"[24].

عـــندما دخلـــت حيـــز التنفيذ، كانت حملة *الدرع الواقي* عرضاً ساحقاً للقوة الإســـرائيلية. بـــدأت في الأيام الأولى من نيسان، وحولت الدبابات وعربات الجند المـــصفحة الإســـرائيلية الوضع في الضفة الغربية إلى كارثة إنسانية مريعة عندما أعاد آلاف الجـــنود احتلال الكثير من الأراضي التي تم تسليمها للسلطة الفلسطينية بموجب

اتفـــاق أوســـلو. خـــضع أكثر من مليون شخص لحظر تجول شامل. كان الآلاف محتجزين وسط شكاوى بانتهاكات واسعة النطاق لحقوق الإنسان[25].

كـــشف أرييل شارون أنه يضاهي أحمد ياسين وخالد مشعل في حكمه على القيمة العسكرية أو الاستراتيجية للمعاناة البشرية. قال لمراسلين في خلال كلمة ارتجالية في مقهى بالقـــدس: "ينبغـــي أن نضرب الفلسطينيين، ويجب أن يكون ذلك مؤلماً جداً. ينبغي أن نسبب لهم خسائر – ضحايا – حتى يشعروا بأنهم يدفعون ثمناً باهظاً"[26].

مع نقل الهجوم الإسرائيلي الشرس والبؤس الفلسطيني الناجم عنه على شاشات التلفاز إلى كل أنحاء العالم، سرعان ما تعرض شارون لضغط كبير للانسحاب من قِبل الرئيس بوش، والأمم المتحدة، وقادة روسيا، وأوروبا، والعالم العربـــي، وحتى البابا. لم يـــصغ إلـــيهم شـــارون، وأعلن أنه سيفعل ذلك *بعد إنجاز المهمة*. منتبهاً إلى أن الانتفاضـــة كانـــت تقوّض جهود البيت الأبيض للفوز بدعم العرب للغزو الوشيك لعـــراق صـــدّام حـــسين، أصرّ متحدث باسم بوش أنه عندما قال الرئيس "من دون تـــأخير"، كـــان يعـــني في الواقـــع "فوراً". لم يرتبك القائد الإسرائيلي. تعهّد فقط "بالتعجيل" في حملته. لم يحرّك بوش ساكناً.

طـــاول تأثير حملة *الدرع الواقي* كامل الأراضي المحتلة، وقد غيّرت بشكل كبير قـــوة الانتفاضة الثانية واتجاهها. لكن أخيراً، عندما هدأ الغبار، كان سيظهر اثنان من مكـــوّناتها المهمـــة في الوعي الدولي: الهجوم الإسرائيلي على جنين وإنهاء دور ياسر عرفات كقائد للفلسطينيين.

وصـــف الإســـرائيليون جـــنين بأنهـــا مركز الاستشهاديين لأن حوالى ثلاثين استشهادياً كان قد انبثق من أزقّتها في غضون ثمانية عشر شهراً فقط. كان بين هؤلاء الـــشاب شـــادي طوباسي، استشهادي حماس الذي فجّر نفسه في مطعم متسافا في حيفا.

بدءاً من 3 نيسان، لقيت المحاولة الإسرائيلية للاستيلاء على المخيم مقاومة شرسة من ما يُقدّر أنهم مئتا مقاتل فلسطيني. في حادثة واحدة، فقدت قوات الدفاع الإسرائيلية ثلاثة عـــشر رجلاً بعد دخولهم إلى مبنى كان مليئاً بالمدافعين عن المخيم. استعمل الإسرائيليون الـــدبابات والـــصواريخ. اضطر جنود القوات البرية للتحرك في جماعات، وكانوا يختبئون خلف جرّافات مدرّعة تسوّي كل ما يأتي في طريقها بالأرض.

بحلـــول وقت توقف الهجوم الإسرائيلي على جنين في 11 نيسان، كان الدمار الذي خلّفه شبيهاً بخراب دريسدن. كانت أزقّتها صامتة ومحطّمة. في أحدها، كانت قدمان بشريتان تبرزان من تلة أنقاض صغيرة. في زقاق آخر، قاطع عامل إغاثة مقابلة ليـــشير إلى قدم بشرية توجد على الأرض بين قدمي المراسل[27]. كانت البقايا الممزقة لتـــنورة بـــرتقالية لامرأة ترفرف من شرفة بناء محطّم، الذي كان قد تداعى وبرز منه فـــولاذ التـــسليح. كان هناك قميص أخضر عالق على ثقب محطّم في ما كان سابقاً نافـــذة. كانت مجموعة من الملاءات مكدّسة مثل حفنة من أوراق اللعب، في ما تبقى مـــن غرفة نوم. وعلى علبة كرتونية، نصف مطمورة في أنقاض جديدة، كانت هناك رقعة مطبوعة **أنقذوا الأطفال**.

عـــندما توقـــف إطـــلاق النار، كان اثنان وخمسون فلسطينياً وثلاثة وعشرون إسرائيلياً قد لقوا حتفهم. كان قد تم تدمير حوالى 150 مبنى، وأصبح ما يُقدّر بأربعة آلاف شـــخص مشردين. كان المشهد الذي تم نقله إلى كل أنحاء العالم، والذي ألحق أكـــبر ضرر بإسرائيل، هو ما دعاه الفلسطينيون *الأرض صفر* الخاصة بهم. كان قد تم تـــدمير المركز - ربما 10 بالمئة من المخيم كله - تدميراً كاملاً. لم يكن هناك شيء. مجـــرد أنقـــاض، رائحـــة لحم متعفّن، وشكاوى من وكالات إنسانية أن السلطات الإسرائيلية منعت دونما سبب وصولها إلى ثلاثة آلاف مدني فلسطيني كانوا لا يزالون عالقين في أماكن أخرى من المخيم.

بـــسبب صـــفته الرسمية، فاقم أحد أوائل الأجانب الذين دخلوا مخيم جنين المدمّر مشكلة العلاقات العامة بالنسبة إلى الإسرائيليين. كان تيري رود لارسن دبلوماسياً نرويجياً يتمـــتع بمـــصداقية كـــبيرة في المنطقة تتجاوز بكل المقاييس دولته الصغيرة لأنه كان أحد المفاوضـــين الرئيـــسيين في التوصل إلى اتفاق سلام أوسلو. ما رآه رود لارسن في جنين جعلـــه يـــشعر بغضب شديد. "مروّع بشكل لا يمكن تصديقه" كان هذا ما وصف به الدمار لمراسلين أجانب. "لقد فقدت إسرائيل كل الأرضية الأخلاقية في هذا النـــزاع".

كـــان عـــرفات محاصراً في مقره الواسع، المعروف باسم *المقاطعة*، من قبل رتل مـــسلح يـــتألف من أربعين دبابة. قال عرفات للجزيرة في مقابلة على الهواء مباشرة: "يريدونني أسيراً أو طريداً، أو ميتاً. لكني أقول لهم، شهيداً، شهيداً، شهيداً. عسى الله أن يرزقني الشهادة".

شـقت الجـرّافات الإسـرائيلية طريقها عبر جدران السور الخارجي التي كان الـسكان المحلـيون يعتقدون أنها حصينة. تبعتها الدبابات، التي سحقت سيارات في مرآب عرفات قبل أن تشرع في تدمير أبنية حول المكتب الذي كان عرفات يتمترس فيه. بعد قطع إمدادات الكهرباء والماء، سخر معلّقون إسرائيليون من أن ياسر عرفات أصبح يحتاج آنذاك إلى إذن من أرييل شارون للذهاب إلى الحمام.

خلـف سياسة اليد الثقيلة التي تعاملت بها قوات شارون مع عرفات طيلة شهر نيسان، كانت هناك خطوات سرية لتنفيذ خطة إسرائيلية ماكرة للتخلص من عرفات كقائد منتخب للشعب الفلسطيني.

كانـت تلك الاستراتيجية الجديدة من بنات أفكار مدير الموساد آنذاك، إفرايم هالفـي، الـذي كان قد تم استدعاؤه في 1997 من بروكسل لإنقاذ رئيس الوزراء نتنـياهو مـن نتيجة كارثية لمحاولته اغتيال خالد مشعل. في ذلك الوقت، كان ملك الأردن حـسين يحاول إيجاد حل لأزمة الشرق الأوسط بإحداث تغيير هيكلي داخل قـيادة حمـاس. هناك، كمدير للموساد في العام 2002، كان هالفي يحاول إحداث تغـييرات هيكلية في بنية أقوى منافس لحماس في الأراضي المحتلة؛ السلطة الفلسطينية بقيادة عرفات.

عندما تبدّت ملامح عملية *الدرع الواقي*، لم يخالج مدير الموساد الشعور بالنصر الـذي استحوذ على أقسام من المؤسسة الإسرائيلية. كان لديه دماغ يعمل مثل رادار فـوق - الأفـق، وفي تحليله للنتائج المحتملة لعملية *الدرع الواقي*، تنبّه إلى مشكلتين استراتيجيتين. كانت أولاهما أن الاحتجاج الدولي سيوقف بالتأكيد جنرالات إسرائيل في الوقت الذي كانوا فيه على وشك تحقيق أهدافهم. وكانت الأخرى تتعلق بطريقة معالجة الفشل العملياتي.

قال الجنرالات إنهم يحتاجون إلى شهور، لكن ذلك كان ترفاً لا يمكنهم الحصول عليه. في خلال أسابيع، كان البيت الأبيض قد فقد الأمل - نتيجة تداعيات مغامرته العراقية - من الحملة الإسرائيلية في الأراضي المحتلة. أصرّت واشنطن على أن شارون كـان قـد مضى بعيداً بما يكفي في حصار عرفات. تحت التهديد بحرمانه من فرصة دخـول البـيت الأبيض في خلال زيارته المقبلة إلى واشنطن، تراجع رئيس الوزراء الإسرائيلي أخيراً.

عــــندها، كـــان ذلك السياق الذي استنبط به هالفي خطته. لم تكن إسرائيل تـــستطيع إزاحة عرفات، لكن هالفي كان يعتقد أن إسرائيل يمكنها التلاعب بآخرين لإعادة ترتيب البنية التحتية للسلطة الفلسطينية بطريقة تسمح بانتقال قسم كبير منها إلى مكان آخر.

آخذاً بعين الاعتبار حقيقة أن إسرائيل تخوض حرباً دموية مع الفلسطينيين، كان هالفـــي يقتـــرح شيئاً ليس أقل من انقلاب أبيض. مدركاً شعبية عرفات الكبيرة بين الفلـــسطينيين، بيّن مدير الاستخبارات: "كانت الفكرة تركه يحمل لقب رئيس، لكن مع تقويض سلطته بطريقة يصبح فيها رئيس شرف، بشكل يمكن مقارنته... مع ملكة إنكلترا"[28].

وفقـــاً لخطـــة هالفي، سيكون للفلسطينيين رئيس وزراء قوي جديد وسيتمتع بمعظـــم الصلاحيات التي كان يمسك بها عرفات. كان ينبغي إصلاح أجهزتهم الأمنية التي تتجاوز الاثني عشر. يجب أن تكون السيطرة على الأموال بيد وزير يرتبط برئيس الوزراء وليس بعرفات.

متجاهلاً أي مواربة بشأن الأخلاقية الجيو - سياسية للخطة، استنتج هالفي أنـــه ينبغـــي تقديم قائد فلسطيني جديد يكون شريكاً *موثوقاً* للعمل مع إسرائيل. كانـــت تلـــك في الواقـــع مناورة تقليدية من كرّاس تدخلات السياسة الخارجية الأميركية من فيتنام إلى أميركا الوسطى؛ إنها مناورة السعي لتنصيب قائد متعاون أو صوري.

حالما بارك شارون خطته، قام هالفي وموشيه كابلنسكي، أمين السر العسكري لـــرئيس الوزراء، بجولة سرية للغاية لشرح ميزات تغيير النظام الفلسطيني على عمّان، والقاهـــرة، ولندن، وواشنطن. كان واضحاً أنهما ذهبا إلى عواصم أخرى أيضاً، التي كـــان هالفي متردداً في تسميتها، لكن أينما وطئت أقدامهما كانت خطتهما موضع ترحيب. بيّن قائلاً: "لم يكن العالم مستعداً للإصغاء فحسب، وإنما لتبنّي الأفكار كما لو أنها كانت خاصة به أيضاً"[29].

في 24 حزيـــران مـــن العام 2002، مشى الرئيس جورج دبليو. خرج بخطوات واسعة إلى حديقة الورود في البيت الأبيض. عندما اقترب من المنصة، انضم إليه وزير الخارجـــية كـــولن باول، ومستشارة الأمن القومي كونداليزا رايس، ووزير الدفاع

دونالـــد رامـــسفيلد. منتظراً في القدس، كان هالفي متلهفاً لرؤية إلى أي حدٍّ كانت أجزاء من خطته قد أصبحت خطة بوش.

كانت كلها هناك. لم يذكر الرئيس بوش عرفات بالاسم، لكن كان واضحاً أن واشـــنطن قد نحّت قائد منظمة التحرير الفلسطينية جانباً. كان عليه أن يغادر قبل أن يـــصبح الـــدعم والـــتمويل الأميركيان للدولة الفلسطينية الجديدة أمراً واقعاً. كان الفلـــسطينيون بحاجة إلى "مؤسسات جديدة، ترتيبات أمنية جديدة... دستور جديد" كما قال بوش[30].

كان هالفي سعيداً بشكل لا يوصف. كتب لاحقاً: "لم أستطع أن أتذكر لحظة أخـــرى كـــان مجتمع الاستخبارات قد شارك فيها بفاعلية أكبر في رسم نـــزعات استراتيجية في المنطقة. شعرت أننا نصنع التاريخ".

كـــان خطاب الرئيس بوش في حديقة الورود بداية انطلاقة صعبة لخطة أخرى خاصة بالشرق الأوسط: خريطة الطريق. كان لدى إسرائيل حوالى مئة تحفّظ مبدئي بـــشأن تلـــك الخطة الخاصة؛ تحفّظ لكل عشرين كلمة في الوثيقة، التي لم يُعلن عنها رسمـــياً لغاية نيسان 2003. في نهاية المطاف، تم اختصار تلك الاعتراضات والشروط إلى أربعة عشر، وتُرك بعضها للمفاوضين[31].

في غـــضون ذلـــك، حصلت تغييرات مهمة في السلطة الفلسطينية، وقد كانت كافـــية لمنح إسرائيل والولايات المتحدة شريك عمل جديداً، مما أرضى إفرايم هالفي. المدهش أن السيد فلسطين كان قد رضخ لمطالب بوش بإصلاح السلطة الفلسطينية – في الظاهـــر، علـــى الأقل. كان عرفات سيسمح بتعيين رئيسٍ للوزراء، لكنه لجأ بعد ذلك إلى كل مهاراته السياسية لجعل الحياة تعيسة للمرشح غير المحظوظ.

كانت أول صعوبة واجهها عرفات في إنشاء هذا النظام الفلسطيني الجديد العثور علـــى مرشح يتمتع بنصف خبرته بالشأن العام. كانت إحدى قواعد الرجل الذهبية القديمـــة طـــيلة عقود من حياته العملية التأكد من عدم وجود أحد حوله يتمتع بالخـــبرة أو القـــدرة التي قد تسمح له بتحدّي سلطته. كان المرشح في نهاية المطاف محمود عبّاس، المعروف على نطاق واسع أيضاً بلقب أبو مازن. تم تعيين عبّاس أخيراً في آذار مـــن العام 2003، قبل أربع وعشرين ساعة فقط من غزو العراق الذي قادته الولايات المتحدة.

كـــان عبّاس مقوّس الظهر قليلاً شخصية يصعب وصفها، التي لطالما عملت في الغـــرف الخلفية منذ الأيام الأولى لفتح، إلا أنه أصبح لاعباً محورياً في عملية أوسلو. كـــان ممثلاً لفصيله، حاضراً دائماً ويتمتع بعلاقات جيدة. لكنه كان شخصية هامشية لا تلفـــت انتـــباه أحـــد؛ حـــتى الفلسطينيين. عندما تولّى المنصب، سجّلت معظم استطلاعات الرأي شعبيته بأرقام متدنية للغاية.

كان المديح المبالغ به من قبل المسؤولين الأميركيين، والإسرائيليين الذين تكلموا إلى صـــحافيين من وراء الكواليس، بعد تعيينه في منصبه قد أوحى إلى بعض الفلسطينيين أن رئـــيس وزرائهـــم الجديـــد قد يكون مناسباً لعبارة إفرايم هالفي *شريك موثوق به*. بعمر الـــسابعة والـــستين، كان عبّاس حاداً في معارضته لما دعاه عسكرة الانتفاضة، التي كان يعتقد جازماً أن حماس سيطرت عليها بهدف إنهاء السلطة الفلسطينية.

كان خالد مشعل لاذعاً في انتقاد تعيين عبّاس. جادل بأن المقاومة حق مشروع وأن رؤية بوش، التي جاء بموجبها رئيس الوزراء الجديد إلى السلطة، كانت فارغة من أي مضمون. بعد أن قبل التحدّي، رسم خطاً فاصلاً بين هذين الفصيلين القويين في المقاومـــة الفلسطينية. قال مشعل مخاطباً عبّاس سيئ الطالع[32]: "لن يقبل أي فلسطيني [بأن تقوم]... بمصادرة الأسلحة. ينبغي أن تبقى القيادة الحقيقية وفية للمقاومة... إنها لا تحثّ الشعب على التراجع، تغيير موقفه، أو رفع الراية البيضاء"[33]. لم تكن هناك علاقة ودّ بين عبّاس وحماس.

كـــشفت خـــريطة الطريق أن كلاً من بوش وعباس عجينة في يدي أرييل شارون الماكـــر. في احتفال في ميناء العقبة الأردني لإماطة اللثام عن الوثيقة الجديدة، ترك التحرك الـــسريع من قبل القائد الإسرائيلي والتفكير البطيء من قبل عبّاس العديد من الفلسطينيين يعـــتقدون أن رئيس وزرائهم الجديد إما دمية بالفعل، أو في أفضل الأحوال غير قادر على مـــواجهة الشخـــصيات الأخرى من الوزن الثقيل التي وقّعت على الاتفاقية. سمح عبّاس لنفـــسه أن يلقـــي خطاباً كان قد كتبه الأميركيون ونقلته شاشات التلفزة إلى الأراضي المحتلة، والذي ظهر خلاله مغلوباً على أمره أمام القائدين الإسرائيلي والأميركي[34].

كـــان عـــبّاس قـــد دُفـــع للاعتقاد أن شارون سيتكلم بالطريقة نفسها، لكن الإســـرائيلي لم يفعل ذلك أبداً. ملتزماً تماماً بنصه، صعد إلى المنصة ينفث ناراً، وأخذ على نفسه عهداً بإلحاق الهزيمة بالإرهاب قبل إنشاء دولة فلسطينية.

في دمشق، كان مشعل مريراً في انتقاده لأداء عبّاس في العقبة. قال: "تخيل خطاباً فلسطينياً يتكلم عن المقاومة على أنها إرهاب وعن إنهاء المقاومة المسلحة. ولا يذكر الخطاب شيئاً عن حقوق الفلسطينيين. لم يذكر ثمانية آلاف سجين منا". عاد عبّاس إلى الأراضي المحتلة وانتقاد مشعل يرنّ في أذنيه.

بالرغم من ذلك، اجتهد عبّاس في عمله. بتصميم كبير، التمس من حماس التعاون لوقف إطلاق النار. عندما استؤنفت المحادثات، شرعت إسرائيل في جولة جديدة من عمليات الاغتيال التي كانت قد قضت آنذاك على أكثر من مئة مقاتل فلسطيني[35]. حذّرت حماس أهدافاً محتملة في صفوفها، وطلبت منهم أن يحلقوا ذقونهم ويرتدوا ملابس النساء، ليتفادوا إمكانية تحديد مواقعهم من قبل متعاونين يخبرون الإسرائيليين بتحركاتهم ورشاشات المروحيات التي يتم إرسالها في إثرهم.

اغتال الإسرائيليون أربعة قادة عسكريين آخرين قبل أن تفشل محاولة في 10 حزيران لاغتيال عبد العزيز الرنتيسي، الهدف الأكثر أهمية حتى ذلك الوقت في القتل المبرمج للقيادة الإسلامية. نجا الرنتيسي بجروح طفيفة بعد أن حوّلت ستة صواريخ إسرائيلية سيارته الجيب إلى ركام من الحديد. بعد وقوفه على قدميه، صرخ الرنتيسي، الذي يتحدث الإنكليزية بطلاقة، قائلاً: "تعبير *وقف - إطلاق - النار* لا مكان له في معجمنا"[36].

بالرغم من الهجوم على الرنتيسي، قاد ياسين حملة داخلية قوية لدفع حماس إلى الموافقة، في الأسبوع الأخير من حزيران، على الانضمام إلى الفصائل الأخرى في وقف إطلاق النار؛ مبدئياً لمدة ثلاثة شهور. كان ذلك هو الاختراق المهم الذي يحتاج إليه عبّاس، والمدهش تماماً أن وقف إطلاق النار صمد حوالى ستة أسابيع. ثم اغتالت القوات الإسرائيلية قائداً عسكرياً في الجهاد الإسلامي الفلسطينية في الخليل في الضفة الغربية فانفجر الوضع مجدداً.

في 19 آب، قتل استشهادي من حماس ثلاثة وعشرين إسرائيلياً في القدس. في 21 آب، كانت ضربة ناجحة من مروحية إسرائيلية في غزة استهدفت إسماعيل أبو شنب، الذي يصنّفه كثيرون بأنه معتدل في حماس، الأولى ضمن عشر عمليات مماثلة طالت قادة من حماس في العدد نفسه من الأيام. في 9 أيلول، فجّر استشهاديان من حماس نفسيهما: قتل أحدهما تسعة جنود إسرائيليين قرب مجمّع تزرفن العسكري؛ وقتل الآخر سبعة مدنيين في مقهى في القدس.

كـــان أي أمل متبقٍ بإمكانية إنقاذ وقف إطلاق النار قد تبخّر في 6 أيلول عندما قامـــت الطـــواقم الأرضية في قاعدة سرية لسلاح الجو الإسرائيلي بتسليح أف – 16 بقنـــبلة تـــزن نصف طن. مع تحديد مسار الطائرة في المجال الجوي فوق غزة، أصبح واضـــحاً أن قـــادة إسرائيل السياسيين، والعسكريين، والأمنيين قد أنهوا نقاشاً استمر شهوراً. شرح أحد المشاركين في النقاش لاحقاً: "لم يكن ذلك معروفاً من قبل، لكن أول سؤال كان "هل يمكننا اغتيال رجل دين؟"[37]. في الأيام الغابرة لم نكن نستطيع المساس بمسجد أو رجل دين. لكنهم كانوا غارقين حتى آذانهم آنذاك في العنف. كان السؤال الآخر: "كيف يمكنك أن تصيب مُقعداً؟"".

كانوا يسعون وراء الشيخ ياسين.

كـــان عجـــوزاً ومريضاً. ملتصقاً بكرسيه، كان ياسين منذ وقت طويل رمزاً واضـــحاً للصراع الذي تخوضه حماس. كان إلقاء قنبلة على مبنى يوجد فيه أو إطلاق صواريخ على هدف لا يستطيع بدنياً الفرار عملاً استثنائياً لتنفيذ اغتيال تجيزه الدولة. لكـــن الجنرالات الإسرائيليين استنتجوا أن تلك ستكون ضربة يمكن تبريرها بتحميل ياسين مسؤولية شخصية عن أعمال العنف التي قامت بها حماس في خلال الانتفاضة – 74 عملية استشهادية، 251 قتيلاً إسرائيلياً، وأكثر من 1,500 جريح – ومع انشغال الـــولايات المتحدة آنذاك بحربيها في العراق وأفغانستان، كان المناخ الدولي قد تغير. رسمت إسرائيل حملتها في الأراضي المحتلة بالألوان نفسها التي استعملها بوش في حربه على الإرهاب.

قـــرّوا توجـــيه ضربة لياسين عندما أبلغهم مخبر في غزة أن قائد حماس الروحي وعـــدداً من شخصيات حماس البارزة الأخرى ستجتمع في شقة الدكتور مروان أبو راس، وهـــو أكاديمـــي إسلامي. قال جدعون مئير، مسؤول بارز في وزارة الخارجية الإسرائيلية: "كانت لدينا معلومات عن الدعوة لعقد قمة"[38].

كان حجم القذيفة التي تم اختيارها للهجوم تشير إلى حذر إسرائيل. في تموز من العام الذي مضى، تعرّضت إسرائيل لانتقادات دولية شديدة بعد إلقائها قنبلة تزن طناً علـــى منـــزل في غزة والتي قتلت صلاح شحادة أحد مؤسسي حماس السبعة الذين كانـــوا قد اجتمعوا في منـــزل ياسين عشية الانتفاضة الأولى في العام 1987. لكنها قتلت أيضاً ستة عشر مدنياً، بمن فيهم تسعة أطفال، كانوا يعيشون في المبنى. منذ ذلك

الوقت، كانت إسرائيل قد ألزمت نفسها بتنفيذ عمليات الاغتيال باستعمال الصواريخ والقذائف.

كان يُفترض أن يمثّل اجتماع ياسين في 6 أيلول فرصة ذهبية، لكن الأمر كان يتطلب ما هو أكثر من الصواريخ والقذائف لاختراق البناء. قدّروا أن قنبلة حجمها أقل من الطن المثيرة للجدل التي تم استعمالها قبل عام ستكون كافية لأنه قيل لهم إن اجتماع حماس سيُعقد في الطابق الأعلى من المبنى.

إلى جانب ياسين، كان هناك آخرون في الاجتماع بينهم إسماعيل هنية، وهو شخصية سياسية رائدة في حماس، ومحمد ضيف، عضو بارز في جناحها العسكري، كتائب القسّام. كان ضيف قد نجا من محاولة اغتيال إسرائيلية سابقة. بينما كانوا على وشك الجلوس لتناول الغداء، تنبّه أولئك الحاضرون إلى صوت مروحية تقترب. هربوا جميعاً، وكانت إصاباتهم طفيفة، بالرغم من أن شظية جرحت كتف ياسين الأيمن. تمت معالجته في مستشفى الشفاء في غزة، وبحلول الليل كان يخطب في مسجد محلي. قال لمصلّين: "لقد فقدوا عقولهم. سيدفع الشعب الإسرائيلي ثمناً باهظاً على تلك الجريمة". قال الرنتيسي، الذي لم يكن موجوداً في الاجتماع، للجزيرة: "لقد فُتحت أبواب الجحيم".

بحلول الذكرى الثالثة للانتفاضة، في أيلول 2003، بقي كلا الطرفين بمنأى عن الهزيمة، لكن التكلفة كانت مروّعة. كان أكثر من 2,100 فلسطيني قد لقوا حتفهم على أيدي القوات الإسرائيلية - 380 منهم أطفال - وتوفي حوالى 750 إسرائيلياً، معظمهم مدنيون. كان عشرات الآلاف قد تعرضوا لإصابات على كلا الجانبين، وبقي العديد منهم مشوّهاً طيلة حياته. تم تدمير أكثر من ثلاثة آلاف منزل فلسطيني؛ مئات الورشات، المعامل، والمباني العامة في الضفة الغربية وقطاع غزة. تم جرف مساحات واسعة من الأراضي، واقتلاع أشجار زيتون وفاكهة، وتدمير حقول زراعية وبيوت زجاجية(39).

كان أرييل شارون قد تخلى عن احتمال التفاوض للتوصل إلى تسوية مع القيادة الفلسطينية. بالرغم من الاحتجاجات الدولية، كان قد بدأ في بناء جدار مثير للجدل حول الضفة الغربية. كان "الحاجز"، كما تفضل إسرائيل أن تصفه - خشية أن يتم تشبيهه بجدار برلين - أكبر مشروع بناء من حيث التكلفة في التاريخ الإسرائيلي.

كــان يُقــال إنــه حيوي لأمن إسرائيل، لكن في تقييم قاسٍ، أعلنت منظمة حقوق الإنسان (هيومان رايتس وتش) التي تتخذ من نيويورك مقراً لها أن ذلك يمثّل مصادرة أخرى غير قانونية للأراضي في ظل "نظام احتلال تعسّفي" والتي ستسبب ضرراً كبيراً لحــياة عــشرات آلاف المدنيين الفلسطينيين[40]. باستثناء حفنة من حاملي تصاريح الدخــول، سيتم احتجاز أكثر من مئة ألف فلسطيني في جيوب يحددها مسار الجدار والــسياج مجــتمعين. تم تحطيم الكثير من المنازل[41]، واقتلاع أشجار زيتون وفاكهة أخــرى عــند تدمير قطع كبيرة من الأرض الزراعية، في بعض الحالات بعد إشعار بالإخلاء قبل أربع وعشرين ساعة فقط، كما قالت منظمة حقوق الإنسان[42].

فجــأة، أذهــل شــارون الإسرائيليين والفلسطينيين على حدٍّ سواء عندما بدأ مــشروعاً آخر، وأعلن أن إسرائيل *ستفك الارتباط* من جانب واحد مع قطاع غزة وأجــزاء مــن الضفة الغربية. باع شارون تلك الخطوة، واشترها واشنطن، كعنصر أساســي مــن خــريطة الطريق. رأى آخرون أنها ستجعل غزة أول جيب معزول، وإحــدى المناطق الفلسطينية التي سيسمح شارون بظهورها ضمن رؤيته بعيدة المدى لإنشاء *إسرائيل الكبرى*[43].

علانــية، كــان رئــيس الوزراء قد تخلى عن أمله بأن تقوم إسرائيل بضم كل الأراضي المحتلة إليها. لكن المسار المقترح للجدار - داخل الخط الأخضر، خط الهدنة القــديم في 1949 الذي يرسم أصلاً حدود إسرائيل - كان يفترض مصادرة إسرائيل لأراضٍ أخرى، وتثبيت سيطرتها الدائمة على جزء آخر من الأراضي المتنازع عليها.

في تمــوز، تم تكــريم محمود عبّاس كأول قائد فلسطيني يستقبله الرئيس جورج دبلــيو. بوش في البيت الأبيض. علانية، كان مسؤولو الإدارة قد وصفوا الزيارة بأنها مهمــة لدعم شعبية وموقف عبّاس في وقت كان لا يزال فيه طرفاً في صراع قوة مع ياســر عــرفات، الذي رفض التخلي عن بعض صلاحياته. في واشنطن، قدم عبّاس خــريطة للــضفة الغربية لدعم حجته بأن جدار شارون سيقلّص مساحتها بنسبة 55 بالمئة، مما يجعل قيام دولة فلسطينية أمراً مستحيلاً من الناحية العملية.

قــال بوش في مراعاة نادرة للحساسيات الفلسطينية: "هذه مشكلة"[44]. لكنه واصــل بعــد ذلك سحب البساط من تحت قدميّ رئيس الوزراء الفلسطيني. مقلّداً شــارون في أثــناء حديثه إلى عبّاس، قال بوش إن الإرهاب هو العقبة الرئيسية أمام

السلام، ولم يُلق بالاً لالتماسات عبّاس لإطلاق سراح السجناء الذين تحتجزهم إسرائيل. في أثناء توديعه عبّاس، قال بوش: "سأتابع مناقشة هذه القضية [الجدار] معه [شارون]". عندما التقى بوش بعد أيام فقط، رفض شارون التراجع عمّا كان يقوم به. عندما جادل بأنه ينبغي إقامة الجدار لأسباب أمنية، أحجم بوش عن الضغط عليه.

في أيلول 2003، استقال عبّاس احتجاجاً، واشتكى أنه أضحى في موقف محرج نتيجة التصلّب الإسرائيلي والأميركي وتقويض عرفات المستمر لسلطته. لم يكن مرتاحاً من جهة حماس أيضاً.

بعد استقالة عبّاس، ابتعدت حماس عن العمليات الاستشهادية ثلاثة شهور. كانت الحركة مصممة على أن تجني لنفسها أكبر فائدة سياسية ممكنة في حال مضى شارون قدماً في خطة *فك الارتباط* المثيرة للجدل.

فجأة، بدأ خالد مشعل ينشط للمشاركة بشكل أكبر في العملية السياسية الفلسطينية استناداً إلى الدعم الشعبي المتزايد لحماس.

في منتصف العام 2000، كانت فتح عرفات تحظى بشعبية أكبر بأربع مرات تقريباً من شعبية حماس في غزة، لكن بنهاية 2003 كانت حماس قد تقدمت عليها. أكّد مشعل: "ينبغي أن يدرك الإخوة في السلطة الفلسطينية وفتح حقيقة التغييرات وما تتطلبه منهم. ينبغي أن يقبلوا مشاركة حقيقية لفصائل وقوى المقاومة، والابتعاد عن ذهنية تهميشها"[45].

دعم الشيخ ياسين مشعل بلغة أكثر وضوحاً. قال لموقع حماس الإلكتروني: "إذا كان الانسحاب الإسرائيلي [من غزة] كاملاً وتاماً، ستصبح حماس في جوهرها حزباً سياسياً... وتبدأ المشاركة في الحكومة".

لم يكن محمد دحلان - مدير أمن السلطة الفلسطينية الذي كان قد حظي بإعجاب جورج دبليو. بوش لما يمثّله من طريقة "كل شيء ممكن" لرص صفوف الغزّاويين خلف اتفاق أوسلو - مثار إعجاب حماس وبدا أنه تخطّى كل الخطوط الحمراء بأسلوبه المفضوح. قال: "لسوء الحظ، لقد فقدت السلطة بعضاً من مكانتها. [لكن] حماس تستغل هذا وتحاول فرض سلطة بديلة"[46].

في الساعات الأولى من 22 آذار 2004، نجح الإسرائيليون أخيراً في محاولاتهم لاغتيال الشيخ أحمد ياسين عندما وجّهت مروحيات إسرائيلية ضربة جوية قوية في الفجر ضد كرسيه المدولب.

كان هدفاً سهلاً. في أواخر الستينيات من العمر، كان ياسين نادراً ما يغادر منزله، إلاّ عندما يتم دفعه في كرسيه المدولب من قبل أفراد عائلته الذين يعتنون به وحرّاسه الشخصيين لأداء الصلوات اليومية الخمس في مسجد قريب للجماعة الإسلامية، الذي كان أول مقر لنشاط حماس عند انطلاقتها في غزة.

في صبيحة يوم الاثنين، جاءت مروحيات أباتشي أيه - إتش 64 من الشمال، ومزّقت جسد ياسين إلى أشلاء بعد تعرضه لإصابة مباشرة من أحد ثلاثة صواريخ أطلقتها عندما غادر المسجد بعد أداء صلاة الفجر، قتلت سبعة آخرين كانوا قريبين من مكان الحادث.

تم إشعال حاويات القمامة احتجاجاً. انطلق من حرائق دواليب في زوايا الشوارع أعمدة دخان أسود نحو سماء البحر المتوسط الزرقاء الصافية. اكتست المدينة بأعلام كل الفصائل، وظهر بحر من الرايات السوداء، الصفراء، الخضراء، والحمراء خلف النعش الخشبي القديم المحمول على الأكتاف أمام حشدٍ من مئتي ألف شخص جال شوارع مدينة غزة الوعرة. على طول الطريق، أطلق مسلحون ملثّمون أعيرة نارية من بنادق آلية، وفجّروا قنابل يدوية. بعد انتهاء مراسم الجنازة، تم دفن ياسين في مقبرة الشهداء في غزة. حدّد حجران قبره البسيط في الأرض الرملية.

بعد عدّة أيام، أثار حشد يُقدّر بحوالى مئتي ألف شخص يحملون الرايات الغبار في استاد اليرموك في غزة. كافح رجال غطوا رؤوسهم بقماش أسود للسيطرة على التجمّع، والإفساح في المجال في الملعب الرياضي لعرض جريء قامت به كتائب القسام، الجناح العسكري المحظور لحماس. دخل مئات من المقاتلين المسلحين بخطوة منتظمة إلى الملعب، مُظهرين استعدادهم للموت من أجل فلسطين في ظل أناشيد كان الحشد يكرّرها[47].

كانت تلك دعوة لحمل السلاح أكثر منها جنازة. رفع رجال وفتيان، كان بعضهم يتدلى من عوارض خشبية، سباباتهم اليمنى بينما كان منظّمون يوجّهونهم بهتافات نحو القضية: "من هو إلهنا؟ الله (جل جلاله)! من هو حزبنا؟ حماس! ما هو هدفنا؟ الموت في سبيل الله!". ثم اختفى المقاتلون بالسرعة التي كانوا قد ظهروا بها.

وسط كل الغضب العارم، كان هناك ابتهاج لما وصفه خالد مشعل بأنه حظ ياسين الرائع. هتف قائلاً: "إنها نعمة من الله! معجزة!". كان المنطق الجهادي هناك أن

ياسين طاعن في السن، مريض جداً، وعاجز لدرجة ألاّ أمل له بالشهادة، لكن الإسرائيليين كانوا قد منحوه ما يرغب فيه. شرح مشعل: "يصلي أبناء شعبنا ليموتوا شهداء. [لكن] لأنه كان معاقاً، لم يكن ياسين يتوق إلى الموت بمثل تلك الطريقة". حتى عرفات، عدو ياسين القديم، افتتح خيمة عزاء في رام الله، حيث حيّا قائد منظمة التحرير الفلسطينية الشيخ الذبيح. أعلن قائلاً: "إلى الجنة أيها الشهيد".

كانت معنويات الإسرائيليين مرتفعة. بالرغم من موجة الإدانات من عواصم عربية وغيرها، حذّر رئيس الأركان موشيه يعلون أن إسرائيل ستصعّد من وتيرة عمليات الاغتيال التي تقوم بها. هدّد قائلاً إن عرفات قد يكون التالي. أعلن شارون، الذي كان قد استيقظ في الليل للإشراف على ترتيبات الهجوم على ياسين، إن ضحيته "العقل المدبّر للإرهاب الفلسطيني". شبّه وزير الدفاع شاؤول موفاز ياسين بأسامة بن لادن، وقال إن "يديه ملطختان بدماء أطفال إسرائيليين". قلّل البعض من شأن سيطرة ياسين على عمليات حماس الاستشهادية، وجادلوا بأنه كان زعيماً روحياً فقط.

كانت هناك توقعات متسرّعة أنه بغياب يد ياسين القوية، ربما ستصاب حماس بالوهن وتتمزّق، وتصبح سياسياً أقل شأناً في وقت كانت الفصائل الفلسطينية فيه بحاجة إلى التفاوض حول إدارة غزة إذا نفّذ الإسرائيليون خطة فك الارتباط فعلاً. تم تجاهل تحذيرات بأن ذلك الاغتيال ربما يقوّي في الواقع حركة كان يحفّزها الغضب الشعبي ضد الاحتلال أكثر من جاذبية وشخصية قادة فرديين. لم يتم الالتفات إلى حجج بأن ياسين ربما كان يشكل، ضمن طيف حماس المتنوع، قوة اعتدال.

لم تكن حماس غافلة عن هدف شارون. كان يُغيظ الإسرائيليين ادّعاء الميليشيا الشيعية، حزب الله، أنها قد أرغمت إسرائيل على الانسحاب من لبنان في العام 2000. لم يكن ممكناً السماح لحماس أن تفخر بالطريقة نفسها بشأن انسحاب إسرائيلي من غزة. كان القصد من عمليات الاغتيال التي ستلي ذلك إضعاف الإسلاميين، في محاولة للإفساح في المجال أمام الفصائل الأخرى العلمانية لإحكام قبضتها على الوضع(48). كان الفلسطينيون بحاجة إلى أن يفهموا أن تولّي حماس السلطة، من وجهة نظر إسرائيل، ليس خياراً مطروحاً.

كانت تلك هي الطريقة التي يرى بها مشعل الأحداث من دمشق. قال: "يعتقد شارون أنه كسر المقاومة. [يريد] تنظيف غزة من المقاومة وكل عناصر القوة فيها،

سواء زعماء سياسيين، قادة عسكريين، أسلحة مقاومة، أو كوادر مقاومة... لتهيئتها للأحزاب التي يراهن عليها شارون والأميركيون. إنه مخدوع"[49].

كـــان موت ياسين ضربة قاسية لحماس. قدّم قائد القوات الإسرائيلية في الضفة الغـــربية، العميد جادي إيسنكوت، دليلاً إحصائياً على تراجع حماس المؤكد. في أول عـــامين مـــن الانتفاضة، كما قال، كانت عملياتها الاستشهادية قد ارتفعت بشكل كبير - من 28 مهمة في العام 2001، التي أودت بحياة 94 شخصاً، إلى 62 مهمة في العـــام 2002، أودت بحياة 234 شخصاً - لكن في 12 شهراً حتى نهاية العام 2003، كـــان عدد الهجمات قد تراجع إلى 18 فقط، لقي فيها 137 إسرائيلياً حتفهم. كان ينبغي احتساب تلك الهجمات الـــ 18 من أصل 400 تم إحباطها، معدل نجاح بنسبة 96 بالمئة لكل أجهزة الأمن الإسرائيلية مجتمعة.

حذّر مشعل الإسرائيليين، ونصحهم بتفقّد سجل الحركة. "لطالما قدّمت حماس لأمـــتها قـــوافل من القادة، المجاهدين، وطالبـــي الشهادة". مدّعية أن الأمر لا يتعلق بـــشخص معين، أثبتت الحركة وجهة نظر مشعل خلال ثمان وأربعين ساعة من موت ياسين عندما عيّنت عبد العزيز الرنتيسي كقائد جديد لحماس في غزة.

لكـــن حماس كانت قد دخلت بالتأكيد حقبة جديدة. لم يكن أحد في الحركة يتمتع بمكانة ياسين الفريدة. بالرغم من كل وهنه، كان أحد أكثر الشخصيات تأثيراً في الشرق الأوسط. حدّد مشعل بسرعة توصيفاً آخر[50]. سيبقى الشيخ رمزاً روحياً للحركة، وسيصبح خالد مشعل قائدها الوحيد على الأرض.

لم يكـــن مـــسموحاً الخلط بين دور الرنتيسي كقائد محلي في غزة والسلطات الواسعة التي كان ياسين يتمتع بها كمؤسس للحركة، وأكّد بيان رسمي للحركة موقع الرنتيسي لكنه تابع القول إن مشعل قد "أصبح قائد الحركة في كل مكان"[51].

عمره أربعة وخمسين عاماً ويعمل طبيب أطفال، كان الرنتيسي متشدداً ومستعداً للقتال. إنه معارضٌ دائماً لأي تسوية، كان قد عارض وقف إطلاق النار قصير الأمد في صـــيف العام الذي مضى واعترض على الاشتراك في المحادثات بين الفصائل بشأن تقاســـم الـــسلطة الفلسطينية. كان قد تم ترحيله وسجنه من قبل الإسرائيليين. كان عرفات قد سجنه أيضاً من دون محاكمة عامين في نهاية التسعينيات، عقاباً على انتقاده اللاذع للسلطة الفلسطينية.

كـــان هناك ابتهاج عند الكشف عن تعيين الرنتيسي في اليوم الثاني لعزاء ياسين في الاستاد. وسط هتافات عالية والمزيد من إطلاق الأعيرة النارية، اصطف أبرز القادة في الحـــركة لتهنئة قائدهم الجديد. دعا الرنتيسي الفلسطينيين للاتحاد خلف المقاومة. وحـــثّ، انطلاقـــاً مـــن اعـــتقاده بمبدأ حماس السياسي في استخدام العنف، الجناح العسكري للحركة على العمل الدؤوب وقال لأفراده: "الباب مفتوح أمامكم لضرب كل الأماكن، كل الوقت، وبالاستفادة من كل الوسائل".

جلـــس الرنتيسي بعد ذلك بهدوء في الصف الأول من المقاعد المخصصة لكبار الشخصيات، وبدا أنه غارق في أفكاره. شارك في مراسم تلقي العزاء؛ مصافحة وقبلة علـــى خدّي كل معزٍّ. كانت بذلة غير مناسبة تلتصق بجسده الثقيل وحذاؤه الأسود متـــسخ مـــن قضاء يوم في الغبار. بدا أنه قد استفاق من حلم يقظته فقط عندما شد طفل صغير أجعد الشعر يديه، اللتين كان يضمهما بقوة في حجره[52].

في أثناء لحظة هدوء في المراسم، بدا واضحاً أن صوت الرنتيسي، بعد ثلاثة أيام من الخطابات والمقابلات المتواصلة، يخذله. بعد اعتذاره بصوت أجش، أشار إلى نائبه، الجرّاح محمود الزهار، الذي كان صوته لا يزال قوياً.

مـــدافعاً عن دعوات جاءت من كل مكان للثأر لموت ياسين، أوضح الزهار إحدى الثوابت الفلسطينية التي بدا أن لا تحفّظ عليها. قال: "يتوقع الجميع منا أن نأخذ بالثأر. إنها الطريقة الوحيدة لمنع الإسرائيليين من قتل المزيد من أبناء شعبنا. الكفـــاح المسلح هو الخيار الوحيد المتاح لنا، لهذا سيدفع الإسرائيليون الثمن. لقد قـــتلوا الكـــثيرين منا في الماضي. لقد اعتقلونا وهجّرونا. لقد دفعونا للتواري عن الأنظـــار لكنهم لا يستطيعون قمعنا. كل ما حدث سيزيد من الدعم الشعبـــي لـــنا". لكـــن عـــند ذلك، توقّف الزهار لالتقاط أنفاسه، وتحول من الحرب إلى الدبلوماســـية. قال: "نحن أيضاً مستعدون للمحادثات والتوصل إلى اتفاق نحترم بنوده".

بعـــد موت ياسين، تأكدت ديناميكية القيادة وسط بعض الارتباك. حلّ نظام انتخابات داخلية محل عملية تعيين بسيطة في المناصب العليا التي كانت حقاً لياسين في الأيـــام الأولى لحماس بصفته مؤسس الحركة. لكن التوتر كان واضحاً بينما كان يتم وضع الخطوط العريضة لنظام ما بعد ياسين.

كـــان إعلان مشعل لتعيين الرنتيسي قد أوضح بجلاء أن طبيب الأطفال أصبح مـــسؤولاً في قطاع غزة[53]. كان الرنتيسي قد قال في البداية لمراسلين إنه تم انتخابه لـــيكون *رئيس حماس والمكتب السياسي*، لكنه سرعان ما أقر بدور مشعل المهيمن في خلال مقابلة مع الجزيرة. تعهّد بأن *يطيع* المكتب السياسي بقيادة مشعل.

لاحقاً، نجح مفاوضون إسرائيليون في انتزاع تعهّدين جديرين بالملاحظة من بوش *مكافـــأة* لشارون على خطته بفك الارتباط مع غزة. لطالما كانت القضايا الجوهرية للفلـــسطينيين في النـــــزاع استعادة كل الأراضي المحتلة منذ العام 1967؛ حق عودة اللاجـــئين إلى مـــنازلهم علـــى جانبـــــي الخط الأخضر؛ إخلاء كل المستوطنات الإسرائيلية؛ وأن تكون القدس عاصمة الدولة الفلسطينية.

كـــان في صلب اتفاق أوسلو فقرة تنص على معالجة تلك القضايا الشائكة القديمـــة مـــن خـــلال المفاوضات بعد التوصل إلى تحقيق تعايش سلمي مبدئي بين الفلسطينيين والإسرائيليين. لكن، من دون استشارة الفلسطينيين، خضع بوش لإصرار شـــارون على عدم السماح للاجئين الفلسطينيين بالعودة إلى إسرائيل وأنه ينبغي دفع الحـــدود بـــين الدولتين إلى الشرق من الخط الأخضر المتنازع عليه للسماح لإسرائيل بالاحـــتفاظ بقطع استراتيجية من الأرض الفلسطينية كانت مواقع لمستوطنات يعيش فيها آلاف الأشخاص[54]. طالب شارون بضمانات مكتوبة، وقدّمها رئيس الولايات المتحدة له.

بجرّة قلم أميركي، كانت أزمة الشرق الأوسط قد أصبحت أكثر حدّة. بالنسبة إلى الفلـــسطينيين الـــذين كانوا ينظرون إلى الولايات المتحدة على أنها أملهم الأخير، كان ذلك مدمراً.

بعـــد ثلاثة أسابيع من الهجوم الذي قتل ياسين وبعد ثلاثة أيام من نجاح شارون في البيت الأبيض، وجّهت إسرائيل ضربة قوية لحماس مجدداً. في 17 نيسان، أطلقت مروحية أباتشي أيه – أتش 64 إسرائيلية كانت تحوم فوق حي الشيخ رضوان في غزة صاروخين بينما كانت سيارة سوبارو بيضاء خاصة بعبد العزيز الرنتيسي تقترب مـــن منـــــزله، قـــبل الساعة الثامنة بقليل من مساء الأحد. تشوّهت السيارة، لقي حارســـان شخصيان وأحد أبناء الرنتيسي مصرعهم مباشرة، على حين بقي الرنتيسي يصارع الموت.

تم نقله بسرعة إلى مستشفى الشفاء في غزة، حيث توفي بينما كان مصوّرون من قنوات فضائية عربية ينقلون مشاهد حية إلى المنطقة عن الجهود اليائسة التي بذلها أطباء لإنقاذ أحد قادة حماس الذي لم يمض وقتاً طويلاً في منصبه.

مثل ياسين، بدا أن أمنية الرنتيسي قد تحققت أيضاً. في أثناء حديثه مع مراسلين أجانب في الأيام التي تلت استشهاد الشيخ العجوز، كان الرنتيسي قد توقع الطريقة التي سيموت بها. "سيحدث ذلك اغتيالاً أو بالسرطان؛ بأباتشي أو بنوبة قلبية. سأختار الأباتشي".

بدأت الجنازة في المسجد العمري القديم في مدينة غزة، حيث قال إسماعيل هنية لمعزّين غاضبين: "قالوا إنهم اغتالوا الرنتيسي لإضعاف حماس. إنهم يحلمون". حمل بعد ذلك حشد غاضب نعش الرنتيسي المفتوح إلى المقبرة، حيث وُوري الثرى إلى جانب ياسين.

كان مشعل قد أصبح آنذاك القائد الأوحد للحركة. كان قد أحكم قبضته على القيادة خارج الأراضي المحتلة، ولم يكن هناك منافس يمكن أن يظهر من بين صفوف الحركة داخل الأرضي المحتلة.

أشارت تقارير في وسائل الإعلام الناطقة بالعربية إلى قرب تعيين مجلس من ثلاثة رجال لإدارة حماس. كان يبدو أن تلك محاولة لوضع قيود على نفوذ وسلطة خالد مشعل. كانت قد تمت تسميته كرئيس محتمل لذلك المجلس، لكن العضوين الآخرين كانا قائدي حماس من غزة والضفة الغربية - بكلمات أخرى، اثنين من أهل الدار اللذين سيتم تعيينهما لتقييد سلطة شخص جموح من الخارج - لكن لم يتم تشكيل المجلس، وكان مشعل يُحسن استعمال سلطته من عرينه في دمشق باعتباره الأول بين أنداده في أبرز مجالس الحركة.

بعد استشهاد ياسين والرنتيسي، بدا احتمال حدوث عمليات اغتيال لقادة بارزين قائماً، وبدا أن مشعل الذي كان قد نجا من محاولة اغتيال غير اعتيادية في العام 1997 في عين العاصفة. وصف معلّق إسرائيلي قيادة حماس الجماعية بأنها "رجل ميت يمشي"، وقال جدعون عيزرا، الوزير الإسرائيلي من دون حقيبة، مهدداً مشعل: "مصير خالد مشعل هو مصير الرنتيسي. في اللحظة التي نحظى فيها بفرصة عملياتية، سنفعل ذلك". كانت هناك تحذيرات إسرائيلية جديدة بأن لا أحد في الحركة خارج متناول أيديهم.

ردّ مشعل قائلاً: "نعم، تلقيت تهديدات، مثل آخرين، وسنتخذ إجراءات احترازية. لكن تلك التهديدات لا تجعل حياتنا أقصر، لأن الله وحده يقرر مصيرنا".

عندما اجتمع حشد صغير من اللاجئين الفلسطينيين خارج مقره الدمشقي لتحية قائدهم ليلة استشهاد الرنتيسي، كانت هناك لمسة من الكآبة بين المراقبين الذين توقفوا لإمعان التفكير في المراحل التي كان خالد مشعل وحماس قد قطعاها حتى ذلك الوقت.

كان ياسين قد أنشأ الحركة بتفكير ماضٍ وإصرارا فريد. كان مشعل صاحب رؤية في خطته عام 1983 لما دعاه *الجهاد الجديد* وطريقة تمويله. كانت الحركة في موقف صعب في منتصف التسعينيات، لكن بنيامين نتنياهو كان قد منحها دفعاً كبيراً، وساعد في إعادة لحمة القيادة وهيبتها بمحاولته الفاشلة لاغتيال مشعل. الغريب أن إفرايم هالفي كان موجوداً عند إطلاق سراح الشيخ ياسين من السجن في العام 1997 وكان لاعباً من خلف الكواليس في العام 2002، يساعد على إزالة أكبر عقبة فردية أمام سيطرة حماس على الساحة السياسية الفلسطينية: ياسر عرفات.

مع ياسين والرنتيسي في قبريهما، كان البعض منتبهاً لكلمات وزير الخارجية الأميركي كولن باول التحذيرية عندما غادر أرييل شارون البيت الأبيض بعد 11 أيلول، معتقداً أن لديه تفويضاً مطلقاً من إدارة بوش لشن حربه الخاصة على الإرهاب والإسراع في التخلص من عرفات.

أشار باول: "نقول دائماً لكلا الطرفين... من الأفضل التفكير في عواقب ما سيحدث في اليوم التالي أو الذي يليه. هل ستجعل أفعالكم الأمور أفضل؟ هل ستجعل أفعالكم الأمور أسوأ؟"[55].

بعد ستة أشهر من موافقة الرئيس بوش على مطالب أرييل شارون بالحصول على *مكافأة* لخطة فك الارتباط مع غزة، انكشفت النية الحقيقية لاستراتيجيته عندما وافق المؤتمن على أسرار رئيس الوزراء ورئيس أركان الجيش دوف فايسغلاس على إجراء مقابلة صريحة مع اليومية الإسرائيلية *هآرتز*.

كان التقرير، الصريح حقاً، مذهلاً ليس بمحتواه فقط، وإنما أيضاً لتقديم ما وصفه فايسغلاس بخطة ميكيافيلية كان قد تم الترويج لها كلما كان شارون أمام منعطف حاسم في سياسته. كانت الرسالة أن غزة ستُعاد إلى الفلسطينيين في الوقت

المناسب، وكذلك بعض أجزاء الضفة الغربية، بعد أن يتخلى شارون عن المستوطنات التي كان يعتبرها حجر الأساس لإسرائيل الكبرى.

مدّعـــياً أنــــه علــــى توافـــق تام مع كوندليزا رايس، مستشارة الأمن القومي الأميركـــية، كان فايسغلاس قناة شارون للاتصال مع البيت الأبيض. ابن تاجر فرو بولـــندي، كشف أن خطة فك الارتباط ستكون خدعة سياسية تقليدية، واختار أن يصفها بأنها *قارورة فورمالديهايد* (محلول عديم الرائحة يستعمل في التعقيم أو الحفظ) سيتم وضع خريطة طريق بوش فيها.

كـــشف مـــع الكـــثير مـــن تهنـــئة الـــذات: "تقدم [الخطة] كمية كافية من الفـــورمالديهايد [للتأكد] من وجود عملية سياسية مع الفلسطينيين". قال عن رسائل بـــوش، مفـــضلاً استعمال الاسمين اليهوديين يهودا والسامرة عند إشارته إلى الضفة الغـــربية: "لديـــنا بـــين أيدينا أول وثيقة أميركية على الإطلاق بأنها [الضفة الغربية] ســـتكون جزءاً من إسرائيل. من بين 240,000 مستوطن، لن يتحرك 190,000 من أماكنهم"[56].

أراد فايسغلاس أن يكون كلامه مفهوماً بشكل واضح. قال مدّعياً أنه تم إيقاف كابـــوس إسرائيل: "العملية السياسية تعني إخلاء المستوطنات؛ عودة اللاجئين؛ تقسيم القـــدس. لقـــد تم تجمـــيد كل ذلك الآن. [وحدث ذلك] بمباركة رئاسية أميركية ومصادقة مجلسي الكونغرس".

تبجّح فايسغلاس مرتاحاً بأنه سيكون على الفلسطينيين التحول إلى فنلنديين قبل أن تتم تلبية مطالبهم[57].



20

ملاحقة الأموال

لطالما كانت تمضية برنارد سي. ولش لساعات يومه تثير الاستغراب، فقد كان يلـــزم منـــــزله في خلال النهار، لكنه يخرج معظم أوقات بعد الظهر، حوالى الساعة الخامـــسة، قبل أن يعود بعد عدّة ساعات. كان قد حافظ على ذلك الجدول الليلي الغريب طيلة السنوات التي عاش فيها وشريكته، ليندا هاملتون، في غريت فولز، وهو حي كان يسكنه أثرياء في مقاطعة فيرفاكس، فيرجينيا، في أواخر السبعينيات.

لـــدى سؤالها عما يفعله زوجها لكسب عيشه، كانت ليندا هاملتون تقول إن ولـــش يـــستثمر في الأموال، ومحال المجوهرات، والعقارات. كان يقضي معظم النهار يديـــر اســـتثماراته. كانت تنجز الأعمال الورقية. كانت قيمة منـــزلهما تبلغ مليون دولار. وكانت لديهما مدبرة منـــزل وسيارتا مرسيدس - بنـــز له ولها في المدخل.

الغـــريب أنهما كانا قد استأجرا في ما مضى منـــزلاً في فولز تشرش القريبة في فيرجينـــيا، حيث سيؤسس بعد عدّة أعوام مهندس فلسطيني اسمه موسى أبو مرزوق منـــــزلاً لعائلته يدير منه أجزاءً كبيرة من عمليات حماس في الأراضي المحتلة. لكن لم يكـــن العـــنوان المـــشترك هو الذي سيمنح هاملتون وولش دورهما البارز في الحرب الأميركية ضد الإرهاب في التسعينيات.

كان لولش خمسة أسماء مستعارة. كان مجرماً مُداناً، ولصاً، وقاتلاً هارباً. عندما كان يخرج في المساء، كان يدخل عنوة إلى منازل أشخاص آخرين، ويسرق أي شيء ثمـــين. في قبو منـــزل غريت فولز، كانت مسروقات ولش مخزّنة بترتيب في خمسين صـــندوقاً كـــبيراً. كانت هناك آلاف من قطع المجوهرات المسروقة، ومعاطف الفرو، والقطع العتيقة، ومواد أخرى قيّمة كان سيمررها إلى السوق في الوقت المناسب. كان لـــدى ولش مصهران في مرآبه واحد للذهب، والآخر للفضة. رجل حذر، كان يعيد تـــشكيل المجوهرات قبل بيعها[1]. بالمجمل، كانت المسروقات تساوي حوالى 4 ملايين دولار، والحياة جيدة.

لكـــن كـــل شيء تداعى في ليلة 5 كانون الأول من العام 1980. عندما عاد الدكتور مايكل هالبرستام، إخصائي أمراض القلب البارز، وزوجته إيليوت جونـــز، إلى منـــــزلهما في شمـــالي غربـــي واشنطن، وتملكتهما الدهشة عندما اكتشفا وجود لص يتجول في ممتلكاتهما. كان ولش يعمل.

بفعل المفاجأة، أمر اللص الزوجين بالاستلقاء على الأرض، وهو ما فعلاه. لكن، غاضباً من انتهاك حرمة منـــزله، قفز الطبيب البالغ من العمر ثمانية وأربعين عاماً على ولش.

تم إطـــلاق رصاصـــتين مـــن مسدس عيار 38 ملم. استقرت كلتاهما في صدر هالبرســـتام، من مدى قريب. مصاباً بجروح خطيرة، كافح هالبرستام حتى وصل إلى سيارته، وكان ينوي قيادتها بنفسه إلى مستشفى سيبلي ميموريال القريب مع زوجته في مقعد الراكب.

فيما كان يقود سيارته مبتعداً، رأى هالبرستام رجلاً يمشي سيراً على قدميه وقد اعتقد أنه اللص. أدار المقود، وصعد بسيارته على الرصيف، وصدمه ليسقط أرضاً.

حاول بعد ذلك القيادة إلى المستشفى لكنه فقط السيطرة على السيارة واصطدم بشجرة. في خلال ساعات، مات في غرفة العمليات.

عـــندما وصلت الشرطة إلى الموقع، كان الرجل الذي صدمه هالبرستام لا يزال فاقـــداً للوعـــي. كان ذلك ولش، يرتدي قفازين ولا يزال يحمل مسدساً وصندوق أدوات السرقة[2].

بالطـــريقة الأميركـــية، أصبح ولش شخصاً شريراً مشهوراً. اشترت مجلة *لايف* قـــصته. في مكـــان آخر، وُصف بأنه *السارق الخارق ولص المجتمع*. لكن لم يكن في اعتـــرافه أي شيء يثير الإعجاب. أصدرت المحكمة العليا في مقاطعة كولومبيا تسعة أحكام متعاقبة بالسجن مدى الحياة على برنارد سي. ولش[3].

كـــل ذلـــك تـــرك الأرملة إيليوت جونـــز لمواجهة خسائرها. أقامت دعوى للـــتعويض عن الأضرار، وحدّدت أن السجين ولش هو المتهم، لكنها شملت أيضاً في إدّعائها ليندا هاملتون على أسس قانونية جديدة آنذاك بأنها كانت تعيش بمعرفة منها على المال الذي يجنيه ولش من جرائمه.

وافقت المحكمة. أعلن القاضي أوبري إي. روبنسون: "كانت [هاملتون] خانعة، لكنها لم تكن خرساء أو مغفّلة"، وكان ذلك يجعلها شريكة ومتآمرة. لدهشة مراقبين حقوقيين، أمرت المحكمة هاملتون بدفع مبلغ 5,7 ملايين دولار لإيليوت جونز المفجوعة.

بعد خمسة عشر عاماً، كان وصف القضاة لهاملتون بأنها شريك "سلبي وخانع" في الجريمة قد أصبح منفذاً يمكن من خلاله لناتان لوين وضع مصير ليندا هاملتون في قلب حملة أميركية لتدمير حماس.

كان ناتان لوين في طليعة قوة مقاتلة جديدة بدأت آنذاك ترمي بنفسها في المعركة. كان مسرح حربها أبراج الكروم - و - الزجاج في واشنطن ونيويورك، شيكاغو ودالاس. كان معظمهم يرتدي ملابس فاخرة ويحمل حقائب منتفخة. كانت أسلحتهم حواسب، أجهزة تسجيل، وناسخات. كانت قنبلتهم الذكية القانون وخنادقهم قاعات محاكم الولايات المتحدة.

طيلة أعوام، كان المحققون الجنائيون الأميركيون قد تعقّبوا شخصيات حماس المشتبه بها، لكنهم لم يحرزوا أي تقدم يذكر. في بداية التسعينيات، كانت إسرائيل قد سلّمت جبلاً من الأدلة من الاستجواب المثير لجامع أموال حماس في شيكاغو، محمد صلاح. كان استجواب نشطاء آخرين من حماس بعد إلقاء القبض عليهم قد أشار أيضاً إلى نشاطات موسى أبو مرزوق ومؤسسة الأرض المقدّسة التي تتخذ من دالاس مقراً لها وتُعدّ حجر الأساس في إطار عمل التنظيمات الإسلامية الواسع وجمع الأموال في الولايات المتحدة. كانت تلك المعلومات هي التي وجّهت مكتب التحقيقات الفيدرالي إلى مؤتمر حماس لتسترق السمع عليه عمداً في فيلادلفيا في العام 1993.

آنذاك، كانت هناك عدّة دعاوى مدنية ضد حماس نفسها. كانت محكمتان أميركيتان قد أصدرتا أوامر للحركة بدفع تعويض قدره 330 مليون دولار لعائلات مواطنين أميركيين لقوا حتفهم في هجمات حماس في إسرائيل. لكن إلزام التنظيم بتسديد ما عليه بموجب تلك الأحكام كان مستحيلاً.

في دعاوى مدنية أخرى، كانت محاكم أميركية قد أصدرت أحكاماً ضد دول ترعى الإرهاب. حصلت عائلة ثكلى في نيوجيرسي على قرار بتعويضها بمبلغ 247,5

ملـــيون دولار ضد الحكومة الإيرانية بعد موت ابنتها في تفجير حافلة في غزة في العام 1995. لكـــن الحصول على أموال من حكومات أجنبية كان عملاً محفوفاً بالمخاطر، وكـــان محامـــو عائلات مئات ممن لقوا حتفهم عندما انفجرت رحلة بان - آم 103 فوق لوكربـــي، اسكوتلندا، في العام 1988، عالقين طيلة سنوات في صراع مرير مع حكومة معمّر القذّافي الليبية.

لكن جامعي الأموال لحماس - بالإضافة إلى المصارف الكبيرة التي كانت تقبل وتـــنقل الأموال التي تجمعها الحركة، وحتى بيوت الخبرة المالية التي تدقق حساباتها أو تقدم لها استشارات بشأن إدارة تلك الأموال - كانوا عملياً في حديقة جورج دبليو. بـــوش الخلفـــية. كانوا مسننات أساسية في آلة حماس. إذا كان ممكناً اتخاذ أي إجراء قانـــوني ضد أي منهم في الولايات المتحدة، سيكونون ملزمين بالدفاع عن ممتلكاتهم، ونقودهم، وسمعتهم. سيكون الهدف إغلاق بعض تلك المؤسسات وإرغام أخرى على الابتعاد عن إقامة علاقات تجعل الحياة أسهل لحماس.

أرادات الـــسلطات الإســـرائيلية مـــن نظيراتها الأميركية إجراء تحقيقات جنائية رئيـــسية في الولايات المتحدة. على أي حال، عندما حاولت في البداية إقناع واشنطن بـــأن حماس كانت قد بنت واجهة عمليات واسعة وناجحة في أميركا، كانت هناك شكوك عميقة بتلك الادّعاءات[4].

لكن لم يكن مثل ذلك التمهيد ممكناً عند رفع دعوى خاصة أو مدنية. ناتان لوين البالغ من العمر واحداً وسبعين عاماً جعل الأمر يبدو مثل معركة قتال قريب عـــندما تكلم عن التعامل مع "متهمين يمثّلون كينونات حقيقية، ومحامين حقيقيين... ومعركة حقيقية... وليس أهدافاً سريعة الزوال كما في قضايا أخرى"[5]. كانت ابنـــته أليزا، التي تعمل في مجال القانون معه، متحمسة. قالت: "انخرطنا في ذلك ونحـــن نعـــرف أنه ربما لا يكون هناك تعويض. لكن ينبغي أن تكون هناك لحظة عدالـــة... فهـــم بأن الأشخاص المسؤولين عن القتل والجرح بدم بارد ينبغي أن يواجهوا محاكمة".

كان ناتان وأليزا يديران مكتب محاماة صغيراً في الطابق التاسع فوق الشارع أل، علـــى جانـــب فوغي بوتوم من دوّار دوبونت في واشنطن العاصمة. خلف الأبواب الموصدة للمكتب الصغير، كان هناك شيء خادع تماماً في مظهر هذين الشخصين.

معــاً، كانا يشكلان فريقاً قانونياً قوياً. لكن الأب كان يبدو أكثر شبهاً ببعض الشخصيات الرثّة على أرصفة مقاطعة الماس مانهاتن؛ لحية بيضاء شعثاء، كرش صغير، وملابس يبدو أنها من ول - مارت وليس بروكس برازر. عندما كان لوين يجلس إلى طاولة اجتماعات مكتبه الصغيرة، كان يبدو أنه ينحني إلى اليمين، كما لو أنه سيسقط عـــن كرســـيه. كانت ابنته مثل عقد من اللؤلؤ، مشغوفة بوالدها وبالقانون بالدرجة نفـــسها. مثل زوجين متزوجين منذ أمد بعيد، كان كل منهما يُنهي جملة الآخر حتى يـــصلا إلى مـــرحلة مـــن النقاش يقولُ أحدهما بكل تأكيد فيها: "كما كنت أقول سابقاً...".

انبـــثق مـــا كانت الابنة تدعوه "نظرية ناتان لوين القانونية الجديدة" من شعور والـــدها بالحزن بعد لقائه مصادفة في إسرائيل مع جويس وستانلي بويم، اللذين كان ابنهما ديفيد البالغ من العمر سبعة عشر عاماً، والمولود في بروكلين، قد لقي حتفه في إحـــدى عملـــيات حماس في أثناء انتظاره في موقف حافلات مكتظ إلى الشمال من القـــدس في العام 1996. قرّر لوين إقامة دعوى مدنية بعد أن علم بعدم قدرة والديّ بـــويم علـــى دفع السلطات الأميركية إلى إقامة دعوى جنائية ضد قتلة ابنهما، الذين ألقت الشرطة الفلسطينية القبض عليهم.

بالعـــودة إلى الولايات المتحدة، كان لوين بولندي المولد يواجه فراغاً قانونياً. في العـــام 1941، كان قد وصل إلى أميركا بعمر الخامسة كحفيد لحاخام رزيسزو، إلى الـــشرق من مدينة كراكوف. كانت العائلة جزءاً من ركاب رحلة يهودية هربوا من الفظائـــع الألمانـــية في أوروبا. متطلعاً لسيرة مهنية في مجال القانون، كان قد عمل في الحكـــومة، لصالح كل من إدارتي كنيدي وجونسون. كان قد شغل وظيفة كاتب في المحكمة الأميركية العليا، وعاد لاحقاً لتقديم عشرات القضايا أمام أعلى هيئة قضائية في البلد. طيلة مسيرته، كان قد حظي بعدد من العملاء المشهورين - ريتشارد نيكسون، جودي فوستر، وجون لينون. لكن معظم القضايا الأخيرة لناتان لوين كانت تتعلق بما يمكن وصفه بالشأن العام اليهودي.

محـــبطاً من تردد السلطات الأميركية في ملاحقة قاتلي بويم، غامر لوين قانونياً حيث لم يجرؤ آخرون على ذلك، واستفاد من قوانين منتقاة وأحكام سابقة لبناء قضية لهـــا عواقب أكبر بكثير من مجرد معاقبة عدد من أنصار حماس في الضفة الغربية. إذا

كانت وزارة العدل ترفض ملاحقة جنود عاديين، سيلاحق وابنته قيادة حماس وجامع أموالها الأميركي. قال لابنته قبل أن يتجه إلى مكتبته: "سأنظر في الكتب".

كـــان القانـــون الذي بدأ يخطر على بال لوين هو تشريع العام 1992 الذي تم إقــــراره بعـــد مقتل يهودي أميركي يبلغ من العمر تسعة وستين عاماً؛ ليون كلينغوفر المُقعـــد في كرسيه المدولب. أحد الركاب على متن السفينة الإيطالية *أكيلي لاورو*، أطلق مسلحون فلسطينيون النار على كلينغوفر ورموه من فوق السفينة في أثناء قيامها بجـــولة في البحـــر المتوسط في منتصف الثمانينيات. أجاز تشريع العام 1992 مطالبة مواطنين أميركيين بتعويضات عن إصابات تلحق بهم خارج البلاد، وتضمن، اقتصاصاً لكلينغوفـــر، فقرة خاصة تسمح للقاضي المسؤول بمضاعفة التعويض الذي تقدّره هيئة المحلفين ثلاث مرات.

لكن لم يتم استعمال هذا التشريع محلياً، ربما لأنه، حتى مع إقراره بإمكانية اتخاذ إجراء قضائي، كان صامتاً فيما يخص هوية المتهمين.

قرر لوين أنه لا يبدو منطقياً التفكير فقط في الرجال المتورطين مباشرة في إطلاق الـــنار على بويم. لم تكن علاقة أعضاء حماس كأفراد بما آلت إليه حال بويم واضحة تمامـــاً. كـــان الشخص الذي قتل ديفيد بويم قد كسب سمعة واسعة لأنه أصبح أحد الاستـــشهاديين الذين كانت عملياتهم في القدس في أيلول من العام 1997 قد دفعت الموســـاد لتنفيذ محاولة اغتيال خالد مشعل الفاشلة. كان سائق المسلح قد اعترف بما فعلـــه للسلطات الفلسطينية، وصدر بحقه حكم بالسجن عشرة أعوام. لكن تم إطلاق سراحه مبكراً وقد لقي حتفه في اشتباك لاحق مع قوات إسرائيلية.

استنتج لوين أنه ينبغي تفسير قانون العام 1992 لإقرار مقاضاة *أي* أشخاص أو جماعـــات في الـــولايات المتحدة ربما مدّوا يد العون لأولئك الذين قتلوا أميركيين في الخارج. لكن ما نوع المساعدة التي ينبغي إثباتها؟ هل يجب عليه أن يُثبت أن المتهمين قدّموا فعلاً سلاحاً، أو شاركوا في التخطيط التفصيلي للهجوم؟ وجد لوين أنه يكرر كلماته "هذا ليس منطقياً...".

لدهشة شركاء حقوقيين سابقين وآخرين استشارهم، بدأ لوين يشكّل رأياً بأن الكونغـــرس كـــان يقـــصد معنى أوسع بكثير في قانون كلينغوفر. آخذاً ذلك بعين الاعتبار، قرر الحصول على دعم لحجته من أهم مصدر: السوابق القضائية الأميركية.

جـاءت لحظة الاكتشاف المثيرة عندما عثر على خلاصتي حكم من قضيتين مختلفتين تماماً في ظروف حقيقية.

كانـت الأولى قضية ليندا أس. هاملتون، التي بالرغم من أنها لم تكن قريبة من موقـع مقـتل الدكتور مايكل أل. هالبرستام، إلا أن حكماً صدر بالرغم من ذلك لإلزامها بدفع تعويض لأنها كانت شريكاً في عمل برنارد سي. ولش الإجرامي.

ثم تحـول لوين إلى دفاع ممتاز لموريس ديز، وهو محامي حقوق مدنية في الجنوب والـذي كـان، بعـد حـالات الإعدام دون محاكمة وحرق الكنائس، قد لجأ إلى اسـتراتيجية رفع دعاوى مدنية ضد جماعات عنصرية من البيض. كانت نتيجة تلك الدعاوى التي أقامها ديز إفلاس تلك المنظمات بتحميلها المسؤولية عن أفعال المحرّضين علـى ارتكـاب جرائم عنصرية. كانت آخر حالات نجاح ديز حصوله على حكم قـضائي بدفع 37,8 مليون دولار ضد "الفرسان النصارى" من جمعية كو كلوكس كلان بعد إحراق كنيسة في كارولينا الجنوبية في العام 1995[6].

كـان الحكم القضائي السابق، كما كان لوين يفهم الأمر، يقول إنه إذا كانت هاملـتون تعرف ما ينوي شريكها ولش القيام به و لم تكتف بالامتناع عن فعل شيء حيال ذلك وإنما عاشت أيضاً من عائداته، يمكن تحميلها المسؤولية. على التوازي، إذا كانـت جمعية ك - ك - ك تغذّي الكراهية وتصرَّف أتباعها الجاهلون وفقاً لذلك، سـتكون ك - ك - ك أيضاً عُرضة للمسؤولية القانونية. سأل لوين: "إذا كان ممكناً مقاضـاة هاملـتون وك - ك - ك، لمـاذا لا يمكن مقاضاة داعمي حماس؟". وسط ضحكات بالكاد مكبوتة من دائرة شركائه القدامى، استنتج لوين: "يمكن تحميل *أي* شـخص في الولايات المتحدة يدعم حماس، ويعرف أن الحركة متورطة في أعمال في الشرق الأوسط، المسؤولية القانونية".

قـتل ديفيد بويم في العام 1996 وكانت مدة انقضاء الزمن في قانون كلينغوفر الـذي سترفع الدعوى بموجبه محددة بأربع سنوات. قدّم مكتب لوين ولوين أوراق قـضية بويم لمحكمة شيكاغو قبل يوم واحد فقط من انتهاء المدّة في ربيع العام 2000. عـندما كـشف لـوين قائمة المتهمين، كانت هناك دهشة أخرى في أوساط المهنة، وأسئلة إضافية عن سلامة عقل الرجل من قبل زملاء كان يأمل بأن يساعدوه في إدارة ما كان يعرف أنها ستصبح قضية كبيرة.

كـــان قاتلا ديفيد بويم ضمن قائمة المتهمين، وكذلك أيضاً موسى أبو مرزوق، قائـــد حمـــاس المعروف للأميركيين، والذي كان آنذاك في دمشق بأمان وبعيداً عن متناول العدالة الأميركية.

كـــان محمد صلاح، المعروف بأنه جامع أموال حماس وأحد قادتها العسكريين، مـــتهماً أيـــضاً. كان يقطن في شيكاغو، وقد عمل في وظائف مختلفة؛ بائع سيارات، سائق شاحنة، مدرّس جامعي، وصاحب متجر. مثل ليندا أس. هاملتون، لم يتم اتهامه بأي جريمة في الولايات المتحدة، لكنه سيصبح في قضية بويم الوجه البشري للإرهاب في نشرات الأخبار التلفزيونية المسائية.

لكـــن أهداف لوين الحقيقية كانت عدّة منظمات عربية في أميركا. كانت أبرزها مؤســـسة الأرض المقدسة، وهي جمعية خيرية إسلامية ناجحة جداً، وتحظى باحترام كبير. وكـــان المـــتهمون الآخرون معهد تعليم القرآن، والاتحاد الإسلامي من أجل فلسطين في دالاس. كـــان لوين يزعم أنها تشكل جميعها شبكة من منظمات الواجهة لغسيل الأموال الـــتي تغذّي أعمال حماس. في ما يخص مكانة مؤسسة الأرض المقدسة العلنية خاصة، كان ذلك يعادل قيام لوين باتهام جمعية سانت فنسنت دي بول بالإرهاب.

قال: "اعتقدوا جميعاً أنني معتوه".

كانـــت البطاقة اليومية في الانتفاضة تتمثل بعدد الموتى والجرحى، تدمير منازل الفلسطينيين، وساعات من الإذلال التي يقضيها المرء في طابور أمام حاجز إسرائيلي. لكـــن في خفايـــا آلات الحرب الخاصة، كانت أموال من كل بقاع الأرض هي التي تشحّم الدواليب في هذا النـــزاع.

كانت إسرائيل أكبر متلقٍ للمعونة الأميركية الخارجية منذ العام 1976، وتحصل على حوالى 3 مليارات دولار في السنة على شكل مساعدات عسكرية واقتصادية[7]. كانت السلطة الفلسطينية بقيادة عرفات، وفقاً للبنك الدولي، تحصل على حوالى مليار دولار سنوياً من عدد من دول المنطقة، إضافة إلى الولايات المتحدة وبعض الحكومات الأوروبـــية. كانت كل الفصائل الفلسطينية تحصل على أموال ومساعدات سرية من حكومات عربية وإيران، ويمتزج بكل تلك الأموال هبات كبيرة من مجتمعات الشتات الـــتي كانت تصطف خلف فصائل بعينها، مثلما كانت حال مؤسسة الأرض المقدسة مع حماس.

لم تكشف حماس حجم الأموال في ميزانيتها السنوية أو مصدرها. لكن لم يكن هناك نقص في التخمينات؛ التي تراوحت معظمها بين 20 و70 مليون دولار، أكثر من 90 بالمئة منها مخصص لشبكة خدماتها الاجتماعية[8]. قدّرت وزارة الخزانة الأميركية أن حماس تجمع "عشرات ملايين الدولارات سنوياً". أقرّت واشنطن أنه يتم إنفاق قسم كبير من الأموال على "أعمال خيرية شرعية"، لكنها جادلت بعد ذلك أن "هذا العمل أداة تجنيد أساسية يخدم هدف المنظمة العسكري"[9]. في السنة الثانية من الانتفاضة، قدّر الشيخ أحمد ياسين أن الدفعات المالية لعائلات ضحايا العنف الإسرائيلي تكلّف حماس بين مليونين إلى ثلاثة ملايين دولار شهرياً[10].

كانت الأزمة الاقتصادية في الأراضي المحتلة قد وصلت إلى مرحلة أضحت فيها حماس، مع ما يُقدّر بمئة منظمة غير حكومية تعمل في الأراضي المحتلة[11]، تتفوق على السلطة الفلسطينية بقيادة عرفات بما تقدمه من أموال. كانت الفاعلية الكبيرة لعمليات حماس الاجتماعية راسخة الجذور تمثّل تحدياً مهماً لمنتقدي الحركة، خاصة أولئك الذين يعتقدون أنه ينبغي تفكيك عمل حماس الاجتماعي من أجل القضاء على شعبيتها. غالباً، عندما كانت وكالات المساعدات الدولية تحتاج إلى التأكد من دقة قوائم المستفيدين لديها، كانت تلجأ إلى لجان *الزكاة* المرتبطة بحماس للتحقق من ذلك، بسبب سمعة الجمعيات الخيرية المحلية بالدقة المهنية.

بحلول كانون الثاني من العام 2003، كانت هناك تقديرات بأن ثلاثة أرباع الفلسطينيين يعيشون على أقل من دولارين يومياً، وقدّرت الأمم المتحدة أن 150,000 أسرة فلسطينية تعتمد على أكبر أربع جمعيات خيرية إسلامية في الأراضي المحتلة المبتلية بالفساد، وعدم الكفاءة التنظيمية، وندرة أموال المانحين، لم تستطع السلطة الفلسطينية التعامل مع الحرمان الذي يغلّف الأراضي المحتلة.

لم تفعل إسرائيل الكثير للتخفيف من معاناة أولئك الذين تحتل أراضيهم، ولم يفعل آخرون ذلك أيضاً. طلبت وكالة الأمم المتحدة الرئيسية في الأراضي المحتلة – وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين (الأونروا)، التي كانت تساعد 11,000 فلسطيني قبل الانتفاضة الجديدة و700,000 آخرين في العام الثاني من النزاع – الحصول على إعانة عاجلة بقيمة 94 مليون دولار. قدم السويسريون 1,5 مليون دولار، فيما لم يقدم باقي العالم شيئاً[12].

بالنسبة إلى كثير من الفلسطينيين، كان مصدر رزقهم الوحيد يعتمد على الهبات التي تأتي من دول عربية وجمعيات خيرية إسلامية. كان الأكثر كرماً في عيون الفلسطينيين - ولاحقاً الأكثر إثارة للجدل بالنسبة إلى إسرائيل - صدام حسين، الذي دفع 10,000 دولار لعائلة كل شهيد. ودفعت السلطة الفلسطينية لكل عائلة مفجوعة 2,000 دولار.

كان يعمل بشكل دائم في مؤسسة الأرض المقدسة كادر مؤلف من خمسة وثلاثين شخصاً. في تلك المرحلة من الانتفاضة، كانوا يضبطون إيقاعهم على ما كان متوقعاً أن يصبح نزاعاً مفتوحاً ومستمراً في الأراضي المحتلة. لكن، بالرغم من دور المؤسسة الأساسي في جمع الأموال لحماس حول العالم، كانت هناك أيام كشفت فيها أدوات التسجيل، التي وضعها مكتب التحقيقات الفيدرالي على خطوط الهاتف المحلية لمؤسسة الأرض المقدسة، أن العمل في الهيئة رتيب مثله في مقر أي شركة أميركية أخرى.

خلف واجهة البناء البسيط المبنية من آجر رمادي في انترناشونال باركوي، في الضاحية الشمالية لدالاس، كان ممكناً سماع الموظفين يتذمرون من المشرفين عليهم. كانوا يتداولون دعابات مكتبية بشأن طريقة جعلهم أكثر انقياداً أو جرأة للإشارة إلى وعد منسي بتنظيم عقود عمل جديدة وكما يأملون، بتحقيق زيادة في رواتبهم التي كانوا بأمسّ الحاجة إليها.

كان 14 آذار من العام 2001 يوماً مميزاً حقاً. عندما رفع كمال تميمي سماعة الهاتف في مكتب مؤسسة الأرض المقدسة في الخليل، وهي مدينة تشهد توتراً كبيراً في الضفة الغربية، نجم عن ذلك وثيقة لمكتب التحقيقات الفيدرالي من أربع وخمسين صفحة[13]. كان ثمانية موظفين في المؤسسة على طرفي الكرة الأرضية قد تكلموا مع بعضهم في أوقات مختلفة، ناقشوا قضايا تخص حياتهم، أو حياة الفلسطينيين الذين كانوا آنذاك يعيشون الشهر السابع من الانتفاضة. في يوم اتصال تميمي، سيلقى سبعة فلسطينيين حتفهم في الأراضي المحتلة، مما رفع العدد الإجمالي للشهداء في النصف الأول من الشهر إلى ثلاثة وعشرين.

في دالاس، كان يوم العمل قد بدأ للتو. كانت الساعة 9:30 صباحاً. لكن التوقيت في الضفة الغربية كان يسبق توقيت دالاس بثماني ساعات، وكانت الساعة

في الخليل 5:30 بعد الظهر. في كل مدينة، كان الزملاء يقومون باتصالات هاتفية يتكلمون فيها عن أدق تفاصيل إدارة العمل الخيري الذي كان، حتى قبل اندلاع الانتفاضة الجديدة، ينقل إلى الخليل أموالاً بمعدل يفوق مليون دولار سنوياً[14]. أخيراً، انكشفت الأبعاد الكاملة لعمل مؤسسة الأرض المقدسة بوضوح تام، في حديث بين الأخت ميرفت في الخليل وأكرم مشعل الفظ في دالاس قريب خالد مشعل.

كانت ميرفت قد أثارت ضرورة استجابة مؤسسة الأرض المقدسة لحالات طارئة لا صلة لها بالانتفاضة. "إذا كنت تقصدين أمراضاً تصيب الناس، مثل الحاجة إلى عملية جراحية أو الإصابة بالسرطان..."، شرع أكرم بالقول مرتبكاً، قبل أن يغير لهجته. "في الانتفاضة، نمنح أولوية لـ... للمصابين والجرحى... وبالنسبة إلى الأمراض... أعني... لا نقدم معونة لها، بناءً على حقيقة أننا لا نملك ميزانية لها... معظم ميزانيتنا... مخصصة لجرحى الانتفاضة أو أولئك الذين استشهدوا في خلال الانتفاضة. هؤلاء في الواقع لهم الأولوية".

كانت التجمّعات العامة في الأراضي المحتلة أمراً خاصاً بالذكور فقط. لكن نظراً إلى أن رجالهن كانوا قد لقوا حتفهم أو كانوا في السجن، كانت الأرامل، والأمهات، والشقيقات بين الحشد الذي صعد ثلاثة سلالم لحضور اجتماع - الأول من نوعه - في غرفة تجارة طولكرم، على بعد حوالى ستين ميلاً إلى الشمال من القدس[15].

سابقاً، كان ممثلو صدام حسين ينتقلون من منزل إلى آخر لنقل تعازي الرئيس العراقي لعائلات الفلسطينيين الذين استشهدوا في النزاع، والتخفيف عنهم بشيك قيمته 10,000 دولار. كان المبلغ المدفوع أقل في حال تعرض أحد أفراد الأسرة لجروح أو دخل السجن، أو تم تدمير المنزل. لكن الأعداد كانت تخرج عن نطاق السيطرة. بدلاً من زيارة كل منزل على حدة، قرر رجال "جبهة التحرير العربية" المتحالفة مع بغداد تنسيق العملية بدعوة العائلات إلى اجتماعات مثل ذلك التجمّع في طولكرم.

بينما كانت رائحة شاورما لحم الضأن والدجاج المشوي تنبعث من محال في شارع عبد الناصر المزدحم، جلس أفراد من ثماني وأربعين عائلة كانت قد عانت من فقدان أحد أعضائها أو احتجازه أو هدم منزلها، جلسوا بصبر لسماع خطابات لا مفر منها. كانت أربع من العائلات ستتسلّم شيكات استشهاد - كان رجلان قد

توفيا كاستشهاديين؛ والآخران صبي في التاسعة من عمره أطلقت عليه القوات الإسرائيلية الرصاص وسائق سيارة إسعاف كان قد استشهد في تبادل لإطلاق النار - كان الهدوء مخيماً، لكن كان هناك شهيق مسموع لحوالى مئتي شخص أو نحو ذلك عند الإعلان أنه، إضافة إلى مبلغ 10,000 دولار المعتادة لأولئك الذين يستشهدون، هناك شيكان بعلاوة جديدة قيمتها 15,000 دولار، التي سيدفعها صدام لعائلتي الاستشهاديين، لتشجيع آخرين على التطوع لأداء مهمات استشهادية.

عند انتهاء الاجتماع، تم توزيع شيكات بقيمة حوالى 500,000 دولار. قام ركاد سالم، أمين عام جبهة التحرير العربية، بإجراء عملية حساب ذهنية قبل أن يؤكد أن صدام كان قد ساهم بما يصل إلى 10 ملايين دولار منذ بداية الانتفاضة. بالنسبة إلى الفلسطينيين، كان ذلك الاجتماع في آذار 2002 مليئاً بالعواطف الجيّاشة؛ وبالنسبة إلى الإسرائيليين كان أسوأ تحريض ممكن.

عندما سأل أحد الحاضرين سالم كيف وصلت الأموال الموجودة في حقيبته اليدوية الصغيرة من بغداد إلى طولكرم، نظر الأخير إلى الرجل الذي طرح السؤال كما لو أنه مغفّل. قال، كما لو أن ذلك كان أكثر شيء مألوفاً في العالم: "تم تحويلها عبر مصارف، من مصارف عراقية إلى مصارف في فلسطين".

هذا ما كان. من ناحية، كانت الاجتماعات نشاطاً محسوباً في العلاقات العامة؛ كان صدام يتطلع إلى دعم من الشارع العربي بينما كانت طبول حرب واشنطن تؤكد احتمال غزو العراق بقيادة الأميركيين. لكن تلك العروض العامة لتقديم أموال لفلسطينيين مفجوعين كانت استثنائية. كان يتم تحويل عشرات ملايين الدولارات من هيئات خيرية في المنطقة، ومن مؤسسة الأرض المقدسة ونظيراتها في أوروبا، بسهولة عبر نظام المصارف العالمي، بشكل مباشر إلى الحسابات المصرفية للعائلات المتلقية في فلسطين. كان البنك العربي الذي يتخذ من عمّان مقراً له يستعمل برنامجه النقدي المتطور لتحويل حوالى 90 مليون دولار من مثل تلك الهيئات إلى حسابات شخصية في الضفة الغربية وغزة.

اعتبرت السلطات الإسرائيلية والأميركية الدفعات النقدية حوافز تشجع العنف الفلسطيني. لكن لم تكن عائلات المقاومين الفلسطينيين هي فقط التي تتلقى مساعدة مادية. على الطرف الآخر من نظام الدعم الخيري، كان يتم العناية بعائلات

الاستشهاديين، وكذلك عائلات أولئك الذين تعدمهم الفصائل الفلسطينية لتعاونهم مع إسرائيل.

عند إطلاق عملية الدرع الواقي عبر الضفة الغربية في العام 2002، تم إصدار أوامر خاصة للقوات الإسرائيلية بالحصول على الأرشيف الورقي والإلكتروني لأجهزة وأقسام السلطة الفلسطينية الأمنية، الجمعيات الخيرية المحلية وأي مكاتب للفصائل الفلسطينية. كان نموذج عن الملفات التي تمت مصادرتها تلك الخاصة بمحمود أبو هنود البالغ من العمر أربعة وثلاثين عاماً، القائد العسكري لحماس، والذي كانت عائلته تحصل على مساعدة من جمعية التضامن التي تسيطر عليها حماس في نابلس. كانت إسرائيل قد اغتالت أبو هنود، وكانت حماس قد اعتبرت ذلك تحريضاً على استئناف العمليات الاستشهادية في الأسابيع التي تلت هجمات 11 أيلول على الولايات المتحدة.

مولود في الأسابيع الأولى من الاحتلال الإسرائيلي للضفة الغربية في العام 1967، كان أبو هنود أحد أبناء عائلة مؤلفة من سبعة أفراد وتعيش على أقل من 1,500 شيكل (حوالى 400 دولار) يكسبها كل شهر أحد أشقائه، الذي كان مدرّساً. كان رقم حساب عائلته في المصرف العربي في نابلس مسجلاً في أحد الملفات، كملاحظة من عامل اجتماعي كان قد زار منزل العائلة. قال: "العائلة ميسورة مادياً، وتوّابة، وصبورة".

ملاحظاً أن أبو هنود لم يحصل على عمل لأنه كان على قائمة المطلوبين الإسرائيلية، تابع الملف ليشرح بتعابير بطولية طريقة استشهاده: "قصف من مروحية أباتشي إسرائيلية قتل الشهيد. كانت هناك محاولتان سابقتان لاغتياله قبل بضعة شهور. الأولى، عندما دمّر الجيش الإسرائيلي المنزل الذي كان يختبئ فيه. قتل [أبو هنود] عندها ثلاثة من أفراد القوات الخاصة [الإسرائيلية]، وجرح تسعة آخرين [قبل أن] يلوذ بالفرار.

اعتقلته لاحقاً السلطة الفلسطينية وحُكم عليه بالسجن 15 عاماً. في 18 أيار من العام 2001، قصفت أف - 16 السجن الذي كان القائد البطل محتجزاً فيه وقتلت 13 شرطياً، لكن أبو هنود هرب مجدداً. جدّد بعد ذلك نشاطه الجهادي حتى ارتقى إلى السماء في 23 تشرين الثاني 2001. تغمّد الله القائد البطل برحمته وأسكنه فسيح جنانه[16].

أســهب ملف أبو هنود في الحديث عن تعقيدات أزمة الشرق الأوسط الشبيهة *براشـــومون* (فـــيلم ياباني بالأسود والأبيض تم إنتاجه عام 1950). عند موته، كان إرهابياً بالنسبة إلى الإسرائيليين ومجاهداً بطلاً بالنسبة إلى حماس. قبل ذلك، بالنسبة إلى الـــسلطة الفلسطينية، كان موجوداً في المكان والزمن غير الصحيحين لهذا كان ينبغي الزج به في السجن عندما كان ياسر عرفات بحاجة إلى أن يبرهن لواشنطن أنه يستطيع السيطرة على شعبه.

كانـــت كـــل الأطـــراف تراقب بعضها بتركيز شديد كما تراقب دنانيرها ودراهمهـــا. في مقاطعته المدمّرة في رام الله، كان ياسر عرفات يراقب مثل صقر تدفق الأموال.

كانـــت إحـــدى المهـــام الرئيسية التي حدّدها قائد منظمة التحرير الفلسطينية لأجهزته الأمنية مراقبة حماس وجمعياتها الخيرية ومؤسساتها الاجتماعية، وتقديم تقارير لـــه عـــن مصادر الأموال وما تفعله بها. لم يكن هناك شيء يمر مرور الكرام. كانت التقارير التي ترد لعرفات تتضمن طيفاً واسعاً من القضايا.

في بدايـــة العـــام 2001، كانت هناك مشكلة بشأن هبة نقدية كبيرة من جمعية خيريـــة للأسرى الفلسطينيين. اتهم موظفو عرفات في بيت لحم حماس بالاستيلاء على الأمـــوال وعـــدم مشاركتها مع الفصائل الأخرى. نقل أحد عملاء أجهزة عرفات الأمنـــية تقريراً للمشرفين عليه كيف عثر مصادفة على مصدر للتمويل بسبب ظروف شـــقيقين كانا يقضيان حكماً في سجن مجدو الإسرائيلي. كان زياد زاد أحمد ردايده مقـــاتلاً مع الجهاد الإسلامي على حين قاتل شقيقه هشام لمصلحة حماس. كان هشام قد ارتكب خطأ إبلاغ شقيقه أن حماس كانت توزّع أموالاً عبر شبكة سجنائها.

لاحـــظ العمـــيل في تقريره لعرفات: "كان يتم منح الأموال للإخوة في حركة حماس، الذين يقومون بإخفائها". مبيّناً أن قيادة السجناء المشكّلة من كل الفصائل في الـــسجن قد تولت أمر الأموال، استنتج العميل: "وضع نادي السجناء [الفلسطينيين] يـــده على الأمر ومنذ حوالى أسبوع مضى تم دفع المال لكل المنظمات في السجون. تلقّى كل سجين 10,000 شيكل [2,922 دولاراً أميركياً]"[17].

في مناســـبة أخـــرى، كانت هناك احتجاجات عند اكتشاف أن جمعية خيرية إسلامية في البوسنة والهرسك كانت قد أرسلت 50,000 دولار إلى جمعية خيرية تابعة

لحمـــاس في نابلس. أصدر ضباط عرفات أوامر في محاولة لاعتراض الدفعة المالية، وتم إرسال مبعوث إلى غزة لتشديد الضغط على قيادة حماس.

عندما كانت إحدى جمعيات حماس الخيرية تتلقى هبة من اللحوم لتوزيعها على الفقـــراء في نهاية شهر رمضان المبارك، كان يتم رفع تقرير عن عدالة التوزيع. وعندما انتـــشر خـــبر أن أحد نشطاء حماس ورجل الأعمال في رام الله، أحمد محمود عبد الله الـــشروف، كان قد تسلّم مبلغ مليوني دولار افتتح بها معرضاً جديداً للأثاث، تم رفع تقرير بذلك الشأن.

كانـــت إحـــدى مهام المسؤولين الأدنى مرتبة متابعة مشاجرات السجناء بشأن المـــساعدات، لكن عندما اختفى 33 مليون دولار، كان ياسر عرفات هو الذي تولى تلك القضية بنفسه.

في مرحلة مبكرة من الانتفاضة الثانية، كان القادة العرب قد اتفقوا على تأسيس صـــندوق مـــساعدات بقيمة مليار دولار، سيتم تقسيمها إلى حصص وتوزيعها على الفلسطينيين. من باب الحذر، في كانون الأول من العام 2000 كان ياسر عرفات قد وجّـــه ســـفيره إلى الـــرياض للترتيب لزيارة وفد من السلطة الفلسطينية إلى العاصمة الـــسعودية، لضمان أن الأموال "ستصل إلى مستحقيها". كان ذلك يعني أن عرفات يريد أن تصل الأموال إليه وليس إلى حماس.

بعـــد أربعة أسابيع، كان التماسٌ ثانٍ إلى الرياض نيابة عن عرفات أكثر إلحاحاً. موقّعاً من رئيس الوزراء الفلسطيني المستقبلي محمود عباس، تم تسليمه إلى رئيس جمعية خيرية سعودية ثرية. اشتكى عباس أن الأموال السعودية تذهب مباشرة إلى مجموعات متحالفة مع حماس. قال: "لهذا تأثير سيئ على الوضع الأهلي. [إنه] يقوّي أيضاً هؤلاء الإخـــوة [حماس] لأن اللجنة [السعودية] لا ترسل أموالاً أو تساعد أعضاء فتح"[18]. اقتـــرح عـــباس إرســـال بـــيانات حاسوبية للتأكد أن الأموال السعودية تصل إلى "المـــستفيدين الحقيقيين، وبالتالي ضمان دور السلطة الفلسطينية نحو شعبها... وهكذا لن تكون هناك كارثة تفقد فيها السلطة الفلسطينية كرامتها وقيادتها"[19].

في أميركـــا، كان واضحاً أن محامين مدنيين مثل فريق الأب - و - الابنة لوين ولوين متقدمين على جهود التحقيقات الجنائية لإدارة كلينتون في مهاجمة شبكة دعم حماس التي تنقل أموالاً عبر الولايات المتحدة ومنها[20].

علـــى أي حـــال، في شيكاغو، انطلق العميل روبرت رايت من القوة الخاصة لمكافحـــة الإرهـــاب التابعة لمكتب التحقيقات الفيدرالي إلى العمل على مواد قدّمتها إسرائيل تخص نشاطات موسى أبو مرزوق وجامع الأموال في شيكاغو محمد صلاح. في العـــام 1995، تم توســـيع ذلـــك التحقيق تحت اسم مستعار هو خيانة الرعاع. اكتـــشفت القـــوة الخاصة شبكة جديدة بالملاحظة من الإدارات المتشابكة والصلات العائلية بين كينونات تجارية وخيرية، التي يبدو أنها ترتبط جميعها بحماس.

كانـــت ثلاث شخصيات بارزة من مؤسسة الأرض المقدسة حاضرة في مؤتمر فيلادلفيا في العام 1993. اكتُشف أن أحد أهم جامعي أموال المنظمة وأكثرهم نشاطاً هـــو شـــقيق خالد مشعل، مفيد؛ وأن مديراً تنفيذياً بارزاً يقطن في دالاس هو قريب مشعل، أكرم. اكتُشف أن اثنين من الشخصيات الرئيسية في مؤسسة الأرض المقدسة قريبان لزوجة موسى أبو مرزوق.

بالـــرغم من قوله إن دخله هزيل عندما كان في سجن أميركي بين عامي 1995 و1997، كان يبدو أن أبو مرزوق قد وزّع مبالغ كبيرة في أنحاء الولايات المتحدة في بَدايـــة التـــسعينيات. إلى جانب ربطه بما يقرب من مليون دولار كانت موجودة في حساب محمد صلاح المصرفي في شيكاغو في العام 1992، كان أبو مرزوق قد أودع شـــيكات تساوي أكثر من 200,000 دولار في حسابات مؤسسة الأرض المقدسة و 125,000 دولار إضـــافية في حسابات الاتحاد الإسلامي من أجل فلسطين[21]، اللتين يُعتقد أن إنشاءهما تم بتعليمات من خالد مشعل.

كان أبو مرزوق قد استثمر أيضاً 200,000 دولار في إنفو - كوم، وهي شركة تبـــيع الحواسب وتستضيف مواقع الإنترنيت والتي كانت تعمل من مبنى قبالة مؤسسة الأرض المقدسة في دالاس. استنتج مكتب التحقيقات الفيدرالي أن إنفو - كوم كانت شركة غسيل أموال لحماس. في المدة نفسها، استثمر أبو مرزوق ما يقرب من مليون دولار في مـــشروع تطوير عقاري في ميريلاند. تضمنت قائمة شركائه في الاستثمار أعـــضاء في عائلـــة بـــن لادن الواسعة ورجال أعمال سيتهمهم مسؤولون أميركيون بعلاقـــتهم مع أسامة بن لادن. على بعد عشرة أميال فقط من البيت الأبيض، أطلق أولـــئك الـــذين استثمروا في ذلك المشروع السكني الأنيق أطلقوا عليه اسم روابـــي بارنابـــي. في الوقت المناسب، سيدعوها محققون اتحاديون *مرتفعات حماس*[22].

في العـــام 1998، باشـــرت السلطات الفيدرالية في شيكاغو إجراءات قضائية لـمـصادرة الأمـــوال الـــتي كانت في حسابات أفراد عائلة صلاح المصرفية إضافة إلى ممتلكاته. كان بين الأخيرة منـــزله، الذي دفعت زوجته ثمنه من الأموال التي حصلت عليها من حماس.

لكـــن فجأة، في العام 2000، انتهت عملية خيانة الرعاع بشكل غامض. وسط اتهامـــات بحـــروب بين مؤسسات مختلفة، فشل بيروقراطي، مضايقات جنسية ضمن صـــفوف فرق مكتب التحقيقات الفيدرالي، جرى وضع التحقيق الجنائي بالنشاطات الإسلامية في الولايات المتحدة في الثلاجة.

بـــيّن مـــسؤول على إطلاع بقضية خيانة الرعاع[23]: "كان تحقيقاً كبيراً، لكن توقُّفه كان لأنه يطاول أشخاصاً لا يمكن المساس بهم. فشل، جزئياً لأن الناس القائمين عليه اعتقدوا أنهم يستطيعون القضاء على الإرهاب الإسلامي كلّه... بدلاً من ملاحقة أهداف فردية".

اســـتمرت عناصـــر من التحقيق، لكن النطاق أصبح أضيق كثيراً. في الأسبوع الأول من أيلول من العام 2001، أغارت قوة من عدّة وكالات فيدرالية على مكاتب إنفو – كوم في دالاس بعد غربلة سجلاتها ووثائقها المصرفية[24].

جالـــساً في دمـــشق، كـــان باستطاعة موسى أبو مرزوق ببساطة أن يتجاهل الدعوى المدنية التي يتهمه فيها آل لوين بأنه أحد الأطراف المسؤولة عن مقتل الشاب ديفـــيد بويم. لكن المتهمين القاطنين في الولايات المتحدة لجأوا إلى استراتيجية محفوفة بالمخاطـــر. لأن نظـــرية لوين كانت جديدة تماماً، اعتمدت مؤسسة الأرض المقدسة وآخـــرون وردت أسماؤهم في قائمة المتهمين مساراً غير اعتيادي في الرد على محكمة الاستئناف في شيكاغو، وسعوا إلى نقض اختصاصها القانوني حتى قبل مناقشة أي من حقائق القضية.

ثم تغيّـــر العـــالم. قبل أسبوعين من جلسة الاستماع إلى استئناف المتهمين، لقي حـــوالى ثلاثـــة آلاف شخص حتفهم في هجمات 11 أيلول في نيويورك وواشنطن. فجـــأة، لم يعد ما كان كثيرون في المهنة يعتبرونها نـــزوة قانونية من لوين أمراً خاصاً بآل بويم وأصدقاء حماس في الولايات المتحدة. وعلى مدى الوقت الذي استغرقته أربع طائـــرات مخـــتطفة للاصـــطدام بالبرجين التوأم في مانهاتن، والبنتاغون في واشنطن،

والـــتحطم في حقـــل في بنـــسلفانيا، تحولت أهمية قضية بويم من مجرد حادثة إطلاق رصاص فردية على محطة للحافلات في القدس إلى حقوق عائلات الآلاف الذين كانوا قد لقوا حتفهم في هجمات 9/11.

في تلك الظروف التي شهدت تغييرات مفاجئة، قررت محكمة استئناف شيكاغو أنها بحاجة إلى سماع آراء إدارة بوش بشأن ما كان بخلاف ذلك سيبقى على الأرجح قـــضية غامـــضة. نظراً للمزاج المكتئب لأميركا بعد 11 أيلول، دعمت وزارة العدل لوين ونظريته الجديدة. قالت إنه بالاستناد إلى قانون كلينغوفر، يمكن بالإضافة إلى قتلة بويم الفعليين، ملاحقة *أي شخص* في السلسلة المتصلة لفعل الإرهاب.

عـــندما رنّ هاتف لوين في كانون الأول من العام 2001، كان المتصل صديقاً حـــثّه علـــى مشاهدة سي – أن – أن مباشرة. كان جورج دبليو. بوش في حديقة الـــورود، يعلن عن شن هجمات ليلية على مؤسسة الأرض المقدسة في أربع ولايات. عـــند منتصف الليل، كان قد تم إغلاق كل مكاتب المؤسسة بالشمع الأحمر، وتجميد أمـــوالها وممتلكاتها التي تُقدّر بعدّة ملايين من الدولارات، وإغلاق حساباتها المصرفية، ووقطـــع خطـــوط هواتفها. قال بوش: "تم إغلاق الشبكة. اليوم، أصبح الأمر أكثر إحكامـــاً"[25]. شـــعر لوين بأنه قد أثبت وجهة نظره. أبعده سيل من المكالمات من مهنـــئين عـــن التلفاز فيما كان يعلن راضياً: "بدأ العالم يفهم ما كنا نقوله منذ وقت طويل"[26].

في هـــذه البيئة الجديدة بعد 9/11، لم يكن ممكناً تخمين النتيجة. لم يكن لحماس علاقـــة مع أسامة بن لادن، وشبكة القاعدة، أو الهجمات على نيويورك وواشنطن. لكـــن فكرة وجود حركة إسلامية تجمع أموالاً من المجتمع الإسلامي الأميركي كانت بغيضة لإدارة حدّدت لنفسها مهمة *اجتثاث* الإرهاب في الداخل والخارج.

فجـــأة، عادت قوة خيانة الرعاع الخاصة للعمل بنشاط في شيكاغو. في خلال وقـــت قصير، أعلن المدّعي العام جون أشكروفت أن الأشقاء العشّي الخمسة، الذين كانـــوا يديـــرون إنفو – كوم ويعملون مع مؤسسة الأرض المقدسة، "جامعو أموال إرهابيون". في كانون الأول من العام 2002، تم اتهام الخمسة بغسل الأموال وتصدير معـــدّات حاســـوبية إلى ليبيا وسورية من دون الحصول على الترخيص المطلوب من الولايات المتحدة.

في آب 2003، أعلنت وزارة الخزانة الأميركية أن خالد مشعل "إرهابي". اتُّهم رسمياً باستعمال هبات خيرية لتمويل عمليات عسكرية، بما في ذلك عمليات اغتيال، وتفجيرات، وقتل مستوطنين إسرائيليين. في تموز من العام 2004، تم توجيه الكثير من التهم الجنائية لمؤسسة الأرض المقدسة وخمسة من مديريها. قال المدّعي العام جون أشكروفت لمراسلين صحافيين: "اليوم، تم اتهام المؤسسة التي تتخذ من الولايات المتحدة مقراً لها، وتدّعي أنها تقوم بأعمال خيرية بتمويل أعمال شريرة"[27].

بعد أسابيع قليلة فقط، ظهر أن دليل خيانة الرعاع قد أخذ شكله النهائي مع توجيه اتهامات ضد جامع الأموال محمد صلاح. إلى جانب صلاح، كان هناك عبد الحليم أشقر، الأستاذ السابق لإدارة الأعمال في جامعة هاورد في واشنطن العاصمة، الذي كان أيضاً أحد المشاركين في مؤتمر فيلادلفيا قبل أكثر من عقد مضى. بالرغم من منحه حصانة، إلا أن أشقر تعرض للاعتقال مرتين لرفضه التعاون مع تحقيقات هيئة محلفين كبرى بشأن حماس. بدلاً من ذلك اختار الإضراب عن الطعام. أخيراً، تم إطعامه بالقوة بأمر من المحكمة، لكنه أعلن: "أفضل الموت على خيانة معتقداتي والتزامي بحرية وديمقراطية فلسطين"[28].

تم اتهام أشقر باستعمال حساباته المصرفية في أوكسفورد، ميسيسبي، كمركز مقاصة لأموال حماس التي يتم نقلها ضمن الولايات المتحدة وإلى الخارج، وإجراء اتصالات هاتفية سرية مع حماس. بدلاً من قيام اثنين من أنصار حماس بلفت انتباه السلطات باتصالهما ببعضهما مباشرة، كان قد تم استنباط طريقة بارعة يستطيعان من خلالها الاتصال عبر هاتف أشقر في ميسيسبي.

بالعودة إلى العام 1991، عندما كان موسى أبو مرزوق في الأراضي المحتلة يعيد تنظيم بنية قيادة حماس بعد أن سحقتها إسرائيل، كان أحد أنصار حماس الذين ألقت إسرائيل القبض عليهم قد أشار إلى أن أشقر هو الشخص الذي يتم اللجوء إليه عند نفاد الشيكات الفارغة التي يوزّعها أبو مرزوق. أخبر الأسير سيد أبو مسامه المحققين معه، وفقاً لترجمة قدّمتها السلطات الإسرائيلية لاستجوابه[29]: "كانت هناك طريقة أخرى للحصول على المال. كان ذلك عبر شخص في الولايات المتحدة واسمه عبد الحليم أشقر. اتصل بي [إلى] منزلي وقال لي إنه الوسيط بيني وبين [أبو مرزوق]". بيّن الأسير أبو مسامه بعد ذلك الجواب بعد أن كان قد اتصل بأشقر

لـــيطلب منه تحويل مبلغ 300,000 دولار إلى حساب مصرفي في مصر: "اتصل بـــي [أشقر] مرتين وقال لي في المرة الأولى [إنه] قد حوّل 200,000 دولار وفي المرة الثانية إنه حوّل 100,000 دولار".

ادّعـــى مكتب التحقيقات الفيدرالي أن عملاءه، عندما فتّشوا منـــزل أشقر في العـــام 1993، كانوا قد وجدوا مجموعة كبيرة من مواد الجريمة: محضر اجتماع سري لحماس، وتقارير تفصيلية عن هجمات حماس على جنود إسرائيليين، وفاكس من أبو مرزوق الرجل الذي يتواجد في كل مكان، يأمر أشقر بتحويل 40,000 دولار إلى حـــساب ناشـــط آخر. كان اسم أبو مرزوق حاضراً أيضاً كمتهم في قضية شـــيكاغو، لكـــن نظراً إلى وجوده في دمشق آنذاك، كان يُعدّ هارباً من العدالة الأميركية.

هيئة المحلفين الكبرى التي نظرت في الدليل الذي قدمته قوة خيانة الرعاع الخاصة هاجمـــت صلاح وأشقر. مدّعية قيامهما بعملية ابتزاز طيلة خمسة عشر عاماً، اتهمت المحكمـــة الـــرجلين بالتحـــريض، والتآمر، وتنفيذ جريمة من الدرجة الأولى، وقتل، واخـــتطاف، وتـــشويه أو جرح أشخاص في الخارج، وغسل أموال، وإعاقة العدالة، ومساعدة إرهابيين أجانب، واحتجاز رهائن، وتزوير، والسفر لتسهيل الابتزاز.

لـــدى تصنيفهم لحماس بأنها حركة إرهابية بموجب قانون الابتزاز، كان مدّعو شـــيكاغو يأملـــون بتحمـــيل المـــتهمين المسؤولية عن نشاطات حماس قبل أن تعلن السلطات الأميركية أن الحركة منظمة إرهابية في العام 1995، وهو تاريخ سيثبت أنه حاسم في دعوى لاحقة.

إذا كان محامو مؤسسة الأرض المقدسة قد أخطأوا تكتيكياً في محاولتهم قبل 9/11 نقض نظرية ناتان لوين في محكمة الاستئناف، فإن خطأهم تضاعف عندما اختاروا العودة إلى المحكمة لنقض القرار الفيدرالي بتجميد أصول وأموال المؤسسة.

كمـــا كانـــت الحال في الاستئناف ضد نظرية لوين، لقي ذلك العمل المنفصل لنقض قرار التجميد الرفض أيضاً، بإجماع القضاة الثلاثة في محكمة استئناف العاصمة التي أصدرت حكماً تقول فيه إن هناك "دليلاً حسّياً واضحاً" على أن مؤسسة الأرض المقدســـة استمرت بعد العام 1995 في الإبقاء على علاقاتها مع حماس وتابعت إرسال الأموال إلى كينونات تسيطر عليها أو تستفيد منها حماس(30).

بالفـــشل في الحـــصول على هذين الحكمين القانونيين، كانت مؤسسة الأرض المقدسة ومتهمون آخرون قد حشروا أنفسهم في طريق مسدودة من الناحية القانونية. بالإنكـــار في الاستئناف الأخير أن يكون لمؤسسة الأرض المقدسة أي علم بنشاطات حمـــاس، كان هؤلاء قد نصبوا لأنفسهم مصيدة قانونية. لا يسمح القانون الأميركي لمتهمين بتقديم حجة في محاكمة كانت قد رفضتها أخرى؛ وقد حرمهم ذلك من أي فرصة لتقديم دفاع لا نعرف شيئاً مثله عند مناقشة حقائق قضية بويم.

عـــادت هيئة المحلفين في قضية بويم في كانون الأول من العام 2004 بقرار يلزم مؤســـسة الأرض المقدســـة وآخرين دفع مبلغ 52 مليون دولار. لكن بسبب رد فعل الكونغـــرس علـــى قانون ليون كلينغوفر، الذي يجيز للقاضي مضاعفة قيمة تعويض الأضـــرار ثـــلاث مـــرات، كان المبلغ النهائي الذي حصل عليه آل بويم 156 مليون دولار. بالطـــبع، كان ذلك عرضة للاستئناف، لكن ناتان لوين أحب فكرة أنه بمعيار التعويض النقدي، كان القرار واحداً من أعلى عشرة أحكام تعويض في العام 2004.



21

حكومة من الخنادق

كانـــت سماء باريس ملبّدة بغيوم رمادية عندما أطل الجنرال كريستيان استريبو فجر يوم الخميس القارص. بصفته المتحدث الرسمي باسم مستشفى بيرسي العسكري، كان على وشك تقديم أهم بيان صحافي في حياته المهنية. طيلة الليل، كان حشد من وســائل الإعـــلام قـــد تجمّع عند مدخل المستشفى، الواقع في كلامار في الضواحي الجنوبـــية للعاصمة الفرنسية. عندما اقترب الجنرال الأصلع من المراسلين، كانت بزّته العسكرية تلمع. كانت ملاحظاته قصيرة.

كانـــت الـــساعة 5:15 صباحاً عندما أعلن استريبو للعالم أن ياسر عرفات قد مـــات. كـــان ذلك في 11 تشرين الثاني من العام 2004. كان رجل عجوز قد توفي والأرض لا تزال تدور.

بعـــد أن أوهن المرض المقاتل الذي كان قد حاز جائزة نوبل للسلام لكنه فقد دربـــه، تم نقل عرفات جواً قبل أسبوعين من مقاطعته التي دمّرها القنابل في رام الله، حـــيث كان محاصراً من قبل القوات الإسرائيلية معظم العامين الماضيين. بعمر خمسة وسبعين عاماً، لم يستطع قائد منظمة التحرير الفلسطينية التخلص مما وُصف في البداية بأنها أعراض شبيهة بالأنفلونـــزا. في باريس، كان قد أصيب بالغثيان وألم المعدة. بعد أسبوع، عانى من جلطة دماغية، جعلته يدخل في غيبوبة عميقة جداً[1].

كـــان هناك تشويش قصير في الصراع المعلن بين زوجة عرفات المحتضر، سهى، وقـــادة منظمة التحرير الفلسطينية بشأن تسريب معلومات عن المريض. كانت هناك إشاعات لا أساس لها من الصحة بأن عرفات في الواقع كان قد توفي قبل عدّة أيام، ثم مزاعم خطيرة بأن الإسرائيليين ربما كانوا قد دسّوا له سماً.

لكـــن عـــندما كان الأمر يحتاج إلى وجاهة، كان الفرنسيون خير من يفعل ذلك. عزفت فرقة عسكرية لحناً حزيناً في خلال مراسم في القاعدة الجوية الرئاسية في فيلاكوبلي، القريبة من فرساي. حمل حرس شرف من الجنود الفرنسيين نعشاً

يغطـــيه العلم الفلسطيني، ووضعوه على متن طائرة فرنسية. عندما كان يتم نقل جـــثمان قائـــد مـــنظمة التحرير الفلسطينية إلى الأرض التي لطالما كان يدعوها فلسطين، ودّع الرئيس الفرنسي جاك شيراك عرفات قائلاً: "رجل شجاع ومؤمن بقضيته".

كان الفراغ الذي تركه عرفات كبيراً. بالرغم من كل جنون ارتياب واستبداد عـــرفات أو ربما بسبب ذلك، كان وشعبه قد تحمّلوا الكثير. قال قبل أسابيع فقط من موته: "لقد جعلنا القضية الفلسطينية أكبر مشكلة في العالم". أجاب عندما طلب منه مراســـل الـــشرق الأوسط الخبير غراهام آشر تقييم إرثه: "بعد مئة وسبعة أعوام على [تأسيس الحركة الصهيونية العالمية في] مؤتمر بازل... فشلت إسرائيل في القضاء علينا. نحن هنا، في فلسطين، نواجههم. لسنا هنوداً حمراً"[2].

كانت حياة أقوى قائدين فلسطينيين قد تداخلت لأكثر من عشرين عاماً، لكن عـــرفات وخالد مشعل لم يكونا قد التقيا وجهاً لوجه سوى ثلاث مرات فقط. كانا يـــتكلمان، بطبيعة الحال، عبر الهاتف خاصة في أعوام عرفات الأخيرة. يتذكر مشعل لاحقـــاً[3]: "تآمر الإسرائيليون والأميركيون عليه... وحتى بعض من أفراد شعبه: نحن [كنا] حماس وليس فتح. لكن عندما رأينا ما كان يجري، كان من الطبيعي والأخلاقي بالنسبة إلينا أن نقف إلى جانب عرفات".

لم يكـــن الوقوف إلى جانب عرفات، على أي حال، يعني الوقوف إلى جانب حـــركة فـــتح الفاســـدة والمتداعية. حاول الفصيلان إجراء حوار بينهما، لكنهما لم يستطيعا جسر الفجوة الواسعة التي كانت حول السلطة والسياسة في آن معاً.

كـــان هـــناك آنذاك منصب شاغر في فتح لقائد يتمتع بمهارات استثنائية، لكن الـــرجل الـــذي ارتدى الجُبّة الفضفاضة لرئيس السلطة الفلسطينية المتوفى كان محمود عـــباس ســـيئ الطالع، والذي كان قد تقلّد منصب رئيس الوزراء في آذار من العام 2003 بطلب من واشنطن والإسرائيليين؛ لكنه استقال بعد ستة شهور عندما وجد أن يديه مقيدتان. كان عباس أحد أفراد العُصبة القليلة ممن بقوا على قيد الحياة منذ الأيام العصيبة قبل خمسة عقود، عندما كان عرفات قد أسس فتح. تم انتخاب عباس رئيساً وخليفة لعرفات في كانون الثاني من العام 2005، بعد ستة عشر شهراً من استقالته من منصبه كرئيس للوزراء.

التــزاماً باعتراضها على كل ما ينبثق عن اتفاق أوسلو، قاطعت حماس الانتخابات. بالرغم من ذلك، كانت الحركة قد أثبتت أنها ماهرة في السياسة، ورسّخت جذورها في العديد من المناطق عبر العملية الانتخابية. منذ أواخر الثمانينيات، كانت حماس قد نــشطت سياســياً للسيطرة على لجان منتخبة لعدد من المنظمات الطلابية، والمهنية، والاجتماعية في الأراضي المحتلة. لغاية نهاية العام 2000، لم تلفت الأنظار كثيراً حقيقة أن حمــاس قدّمت مرشحين في أول انتخابات بلدية فلسطينية تم تنظيمها منذ حوالى ثلاثين عاماً.

كــان أكثــر من مئة من تلك المنافسات تجري على أوقات مختلفة طيلة شهور، لكــن كــان بين أول البلدات التي ستصوّت – في الأسبوع الأخير من كانون الأول 2004 – سلواد، قرية طفولة خالد مشعل الجبلية النائية.

كان الكثير قد تغير في سلواد في السنوات التي أعقبت فرار عائلة قائد حماس منها في العام 1967. كانت القرى المعزولة في الستينيات قد اندمجت لتصبح مدينة كبيرة تجثم على السفح الطباشيري للطرف الشمالي من جبال القدس. تبرز أبراج مراقبة إسرائيلية بين قبب مصنوعة من أحجار كلسية ومآذن رفيعة في البلدة الجبلية. مثل مجتمعات في الضفة الغربية وقطاع غزة، كان يجمع بين قلوب أهل سلواد مشاعر تغمرهم عندما تتم مصادرة أراضٍ محلــية، والاســتيلاء على منابع المياه، واقتلاع أشجار الزيتون والفاكهة على حين يعمل مــستوطنون يهود، بدعم كبير من قوات الدفاع الإسرائيلية، من دون كلال أو ملل على إنشاء نسختهم من *إسرائيل الكبرى* على أرض فلسطينية.

كــان الصعود إلى الجبال من السهل الساحلي قد أضحى مسألة حظ لوجستية. في زحمــة نقــاط التفتيش الإسرائيلية، تتأخر سيارات من القدس، رام الله، أو نابلس كــثيراً أو يــتم إرغامها على العودة من حيث أتت. لم يكن أهل القرى يستطيعون أحياناً الوصول إليها.

كــان قــد تم إنــشاء مستوطنة يهودية، عفرا، قبالة سلواد. في المساء، كانت الأضــواء القوية لمراكزها الأمنية تسطع عبر أفقها الجبلي العليل. المفارقة أن الخطوات الــسرية الأولى لإقامــة عفرا وسط قرى فلسطينية – مما يجعلها حقيقة إسرائيلية على الأرض دون مــوافقة حكومية رسمية[4] – كانت قد تمت في الوقت نفسه تقريباً الذي وطأت فيه قدما خالد مشعل تراب سلواد آخر مرة. كان ذلك في العام 1975 عندما

سُمح لمشعل، الطالب في سنته الجامعية الثانية آنذاك، بالعودة إلى الضفة الغربية لقضاء عطلة الصيف. كان العاصور، الجبل الذي تسلّقه عندما كان في الحادية عشرة من عمره ليستمع إلى أصوات القصف الذي طاول القدس في خلال حرب الأيام الستة، بعيداً عن متناول أيدي السكان الفلسطينيين المحليين آنذاك. كانت تجثم على قمته قاعدة عسكرية إسرائيلية محاطة بسور عالٍ.

في راس علي، على الطرف الشمالي من السلسلة الجبلية، كان المنزل الحجري منبسط السطح الذي كانت عائلة قائد حماس قد اشتركت فيه مع فرع آخر من العشيرة متهالكاً ومتداعياً.

في أثناء تناول الشاي الأسود الحلو المضاف إليه الشيح البري، الذي كان أبناؤهم يجلبونه من وادي الزيتون القريب، كان القرويون يتباهون بأن سلواد بالرغم من حجمها الصغير قد قدّمت أكثر من معظم المجتمعات للصراع الفلسطيني. كان تقويم تم نشره قبل الانتخابات البلدية يحيي ذكرى ستة عشر محلياً كانوا قد ماتوا في اشتباكات مع القوات الإسرائيلية. أحيا كرّاس، مزين بورود حمراء وقضبان زنزانات منحنية، ذكرى سبعين شخصاً آخر دخلوا السجن.

لكن في الضريح المحلي لأبطال المقاومة، كان هناك توازن دقيق بين الحركتين المهيمنتين والمتنافستين. كان لفتح وحماس بطلان محليان لكل منهما. المدهش أن الأربعة جميعاً جاؤوا من فروع مختلفة من العائلة الواسعة نفسها: عشيرة حامد التي ينتمي إليها خالد مشعل.

إلى جانب مشعل، الذي كان يعمل من منفاه في دمشق، كان هناك أيضاً إبراهيم حامد، الذي كان بحلول انتخابات العام 2004 هارباً من الإسرائيليين منذ حوالى ستة أعوام. كان معروفاً أن حامد هو قائد الجناح العسكري لحماس في الضفة الغربية. كانت إسرائيل قد اتهمته بأنه العقل المدبر لسلسلة من تفجيرات السيارات المفخخة والعمليات الاستشهادية التي أدّت إلى مقتل أكثر من ستين إسرائيلياً وجرح المئات. عمره تسعة وثلاثون عاماً، كان حامد لا يزال طفلاً يحبو عندما غادر مشعل، الذي كان يعيش على بعد حجر في راس علي، سلواد.

على جانب فتح، برز قدورة فارس عضواً واسع النفوذ في جيل فتح المحبط الأصغر سناً الذي كان يحاول انتزاع السيطرة على الحركة من حرس عرفات القديم.

كان بطل فتح الآخر معروفاً ببساطة باسم *القنّاص*.

كـــان كـــثيرون في القرية قد تساءلوا عن هويته منذ اليوم الأول في ربيع العام 2002 الـــذي كان فيه قنّاص غامض قد تمركز خلف شجرة زيتون على سفح جبل، عالـــياً في ممر ضيق قريب معروف باسم وادي اللصوص. كانت أهمية طريق نابلس، التي تمر عبر الممر الضيق، تفرض بالضرورة تواجد قوات أمن إسرائيلية فيه، التي غالباً مـــا كانـــت تُقيم نقطة تفتيش عند مركز شرطة بريطاني قديم يمكن رؤيته من قرب منـــزل مشعل.

انطلقـــت الرصاصـــة الأولى عند حوالى الساعة 6:30 صباحاً في 3 آذار. بعين صياد خبير، اختار القنّاص أولاً جنوداً عند نقطة التفتيش؛ ثم التعزيزات التي وصلت؛ وبعـــد ذلـــك، استهدف مستوطنين يهوديين كانوا يخففون سرعة مركباهم في أثناء اقتـــرابهم من نقطة التفتيش. المذهل أن الخمس وعشرين رصاصة التي أطلقها القنّاص، خـــلال خمس وعشرين دقيقة، قتلت سبعة جنود احتياط إسرائيليين وثلاثة مستوطنين[5]. عانى أربعة آخرون أيضاً من إصابات مباشرة، لكنهم نجوا منها.

كـــان يـــصوّب بدقة بالغة، ويختفي من دون أن يترك آثاراً حتى إن المستوطنين والمحققـــين على حدٍّ سواء تساءلوا إن كان القاتل من الجيش الجمهوري الأيرلندي أو ربمـــا تم تدريبه كقنّاص من قبل عناصر في المنظمة الأيرلندية[6]. لاحقاً، كانت هناك تقاريـــر غير مؤكدة أنه قد لقي حتفه في أثناء قيامه بصنع قنبلة. لكن عندما تحركت وحدات الدفاع الإسرائيلي والشين بيت أخيراً إلى سلواد لاعتقال القنّاص في الأسابيع التي سبقت الانتخابات المحلية في نهاية العام 2004[7]، تبيّن أن الرجل الذي كان يُعتقد أنه من الجيش الجمهوري الأيرلندي ليس في الواقع سوى طاهر حامد، رجل فلسطيني في العشرينات من العمر، يسعى للثأر لعمه الذي كان يحبه كثيراً واستشهد في اشتباك مع القوات الإسرائيلية في خلال الانتفاضة الأولى.

كـــان المرشـــح للمجلس المحلي طالب حامد، الذي وصف نفسه بأن أحد أنصار حماس *السابقين*، أحد أفراد العشيرة الآخرين التي تحمل الاسم نفسه. كان يتكلم باستمرار عـــن بـــرنامج متواضع يتضمن الحاجة إلى إنهاء بناء مستشفى غير مكتمل بعد، وتطوير المـــدارس المحلية، وجذب مصرف للعمل في سلواد[8]. لكن تلك المنافسات عبر الأراضي المحتلة لم تكن بشأن ردم حفر محلية أو حصول سلواد على خدمات صرّاف آلي.

كانت سلواد تاريخياً قلعة لفتح، خاصة في الستينيات والسبعينيات، عندما كان الشبان يترعرعون في كنف ياسر عرفات. بعد ذلك، بسطت حماس نفوذها. كانت الحركة الإسلامية قد ابتلعت الفرع المحلي للإخوان المسلمين، الذي كان والد خالد مشعل قد انضم إليه لفترة وجيزة في الأربعينيات. كانت حماس قد سيطرت أيضاً على العديد من مؤسسات ونقابات سلواد. عند عدّ الأصوات في انتخابات محلية، فغر أنصار فتح في سلواد أفواههم دهشة عندما تقدمت حماس، وحصلت على سبعة من مقاعد المجلس الثلاثة عشر لتسيطر على البلدية.

كانت انتخابات البلدات والقرى تلك اختباراً تمهيدياً لامتحان الدعم الشعبي لحركتين تزعمان أنهما الحارسان الحقيقيان للحلم الفلسطيني. مع اقتراب انتخابات أعضاء المجلس التشريعي الفلسطيني المقررة في منتصف العام 2005، في عهد الرئيس الجديد محمود عباس، كانت فتح ترى في انتخابات المجالس المحلية خطوة أولى مهمة لاستعادة شرعيتها من قبر عرفات.

في تلك الظروف، كانت حماس – خاصة خالد مشعل – قد قررت أن الوقت حان لمراجعة شاملة لسياسة الحركة الغريبة في ما يخص انتخابات السلطة الفلسطينية: كانت قد رفضت باستمرار تقديم مرشحين، لكنها لم تتدخل في إدارة الانتخابات. ناقشت حماس الأمر طيلة شهور. عندما ظهر النقاش للعلن، حققت الحركة مكتسبات واعدة في أول جولتين من الانتخابات المحلية. تم اتخاذ القرار النهائي بالمشاركة في انتخابات المجلس التشريعي الفلسطيني بعد معرفة أن حماس حققت نتائج قوية في الانتخابات المحلية فقد سيطرت على ستة عشر مجلساً محلياً مقابل عشرين لفتح.

تم الإعلان عن قرار تقديم مرشحين في آذار من العام 2005. أخيراً، ستثبت حماس ما كانت تقوله. كانت الحركة قد سببت انزعاجاً كبيراً لكوادر فتح بادّعاءاتها المتكررة أنها تمثل ما يصل إلى نصف الناخبين. آنذاك، كان ما تقوله سيخضع للامتحان.

كان مشعل حذراً عندما بيّن لاحقاً أنه كان قد تراجع عن معارضته النظرية لتقديم مرشحين في انتخابات المجلس التشريعي الفلسطيني عام 1996 إلى مصادقة كاملة على ذلك بعد عقد من الزمن. كان حذراً سابقاً نتيجة اقتناعه أن السلطة الفلسطينية صنيعة اتفاق أوسلو وأن مشاركة الإسلاميين فيها ستُعد قبولاً من حماس بذلك الصرح الآيل للسقوط. أوضح قائلاً: "لم يكن العام 1996 وقتاً مناسباً"[9].

مصرّاً على أن موت السيد فلسطين في نهاية العام 2004 لم يكن له علاقة بتغيير موقفه الأيديولوجي المبدئي، جادل مشعل أنه مع بداية العام 2005 كان مفهوماً محلياً ودولياً أن اتفاق أوسلو قد فشل. كانت الانتفاضة الثانية قد أفرزت ديناميكية جديدة للنـــزاع في مرحلة ما بعد أوسلو، وكان الناخبون الفلسطينيون يستحقون بديلاً بعد معانـــاتهم طـــيلة أكثر من عقد من إساءة فتح لاستعمال الأموال والموارد التي كانت الـــسلطة الفلـــسطينية تحصل عليها بشق الأنفس. أخيراً، كانت حماس ستلعب حتى النهاية، بعد مشاركتها في الانتخابات المحلية في العام 2004 و2005، بمشاركة كاملة في انتخابات 2006 لحكومة كل الأراضي المحتلة.

ادّعى مشعل: "ينبغي أن نحكم إذا كنا في موقع لمحاربة الفساد وإصلاح السلطة الفلـــسطينية". لكن، بدلاً من إنهاء المقاومة المسلحة، اعتبر قائد حماس أن القرار يوفر حماية واسعة لخيار العنف (الكفاح المسلح). قال: "ذلك سيجعل الشعب أكثر ثباتاً في مقاومـــة العـــدوان الإســـرائيلي". أصرّ مشعل أن المشاركة في الانتخابات كان قرار الحـــركة ولم يفرضه خالد مشعل. قال، معترفاً باعتراض البعض على ذلك: "أرادت غالبية الكوادر الاشتراك. وكذلك أنا. كانت القيادة هي التي قرّرت المقاطعة في العام 1996؛ وكانت القيادة هي التي قرّرت المشاركة في العام 2006".

كان مشعل يرى أن المشاركة رهان محسوب بدقة؛ ستدخل حماس ظاهرياً النظام مـــن أجل أن تنأى بنفسها عنه. ربما كانت عملية السلام الرسمية في حالة انهيار لكن، بعـــيداً من ساحة المعركة، كانت المنتدى الوحيد الذي تتفاعل فيه أطراف الأزمة مع بعـــضها. كان الجميع بحاجة إلى أن يفهموا – وإظهار ذلك بوضوح لهم – أن حماس لاعب كبير لا يمكن تركه على مقاعد الاحتياط. أقرّ لاحقاً: "بالنسبة إلى البعض، ربما كـــان ذلك يبدو اعترافاً فعلياً بأوسلو. لكن [إذا استطعنا الفوز]، ستلعب حماس دوراً أكبر بكثير في السياسات الفلسطينية؛ من دون أن تنخرط في عملية السلام".

كـــان هـــناك مطب كبير على الطريق بعد أن كشفت حماس عن نياتها. في الجولة الثالثة من الانتخابات البلدية في أيار 2005، استجمعت فتح قواها بفاعلية للفوز بخمسين مجلساً، وسيطرت جزئياً على مجلسين مقابل ثمانية وعشرين هيمنت عليها حماس.

في أثـــناء مناورتها لتتغلب على فتح، خفّفت حماس من لهجتها، والتزمت بوقف إطلاق النار ضد إسرائيل المتفق عليه في خلال مؤتمر للفصائل الفلسطينية في القاهرة،

في آذار 2005. كـــان وقف إطلاق النار استراحة مفيدة للرئيس الجديد عباس. لكن بالمقابـــل، كانـــت حماس قد حصلت على التزام لا لبس فيه من عباس وفتح لتحقيق هـــدفين أساســـيين: حق الفلسطينيين في مقاومة الاحتلال الإسرائيلي وحق اللاجئين بالعودة إلى منازلهم.

في الانتخابات المحلية التي جرت في الأراضي المحتلة، تجدّدت الاشتباكات العنيفة بين أنصار فتح وحماس في غزة. في تلك الأجواء، استطاعت حماس استعادة شعبيتها. الغـــريب أن الأمـــر بدا كما لو أن حماس تعتقد أنها لا *تستطيع* السيطرة على السلطة الفلسطينية أو لا ينبغي لها ذلك.

بـــدلاً مـــن الادّعـــاء أن حماس تستطيع الحكم بمفردها، حثّ مشعل مع بداية الانـــتخابات على قيام كل الفصائل مجتمعة بتعيين قيادة جماعية لحقبة ما بعد عرفات[10]. في الخليل، قال قيادي بارز في الحركة إن حماس أرادت أن تكون في موقف يمكنها من خلاله *التأثير* فقط على القيادة الفلسطينية، بدلاً من تولي القيادة بنفسها[11]. في غزة، بدا أن إسماعيل هنية، الذي كان مساعداً بارزاً للشيخ ياسين، يقترح أيضاً دوراً محدداً لحماس كمعارضة سياسية عندما قال إن الحركة ستكون في موقف أفضل في مواجهة الفساد من داخل البرلمان (المجلس الوطني التشريعي).

كانت هناك تحذيرات تُنذر بالسوء من إسرائيل بأنه لن يكون مسموحاً لحماس، باعتبارها منظمة إرهابية، المشاركة في الانتخابات؛ على الأقل ليس قبل أن تتخلى عن ســـلاحها. جادلت إسرائيل بأن هناك *تناقضاً كبيراً* بين المقاومة العنيفة وسعي حماس لدخـــول البرلمان، وكان متوقعاً أن تتعاطف واشنطن كالعادة مع ذلك الطرح. لكن كانـــت هناك مشكلتان: كان الرئيس بوش يتكلم بأعلى صوته عن جهوده لتحقيق الديمقـــراطية في الشرق الأوسط، ولم تكن لدى عباس ببساطة سلطة لنـــزع السلاح قـــبل الانـــتخابات. علـــى أي حـــال، كان عباس قد أوضح فعلاً أنه في حال فاز بالانتخابات، سيكون في موقف أفضل للتعامل مع حماس. كانت واشنطن تريد تنظيم الانتخابات، لهذا دعمت عباس؛ تماماً كما فعلت في العام 2003 عندما سعت لإعادة هـــيكلة الـــسلطة الفلسطينية حول ياسر عرفات. لكن بالموافقة على مشاركة حركة المقاومـــة الإســـلامية، كان عباس يقود كل الأطراف إلى المجهول. لم تكن حركات المقاومة المسلحة تتنافس عادة في انتخابات ديمقراطية بالكامل.

مثل ثيران هائجة تضرب الأرض قبل أن تتشاجر مع بعضها، حاولت حماس وفتح استقطاب جمهور الناخبين، ونظّمتا حملات سياسية في كل أجزاء الأراضي المحتلة. كانت الانتفاضة تفقد زخمها بسبب اتفاق وقف إطلاق النار في القاهرة، وانخفض معدل الوفيات بشكل كبير لدى كلا الطرفين. لقي حوالى 260 فلسطينياً حتفهم في اثني عشر شهراً بعد وقف إطلاق النار، وكان ذلك أقل من ثلث عدد الذين استشهدوا في العام الذي سبقه. وإلى الرقم 53، انخفض عدد القتلى الإسرائيليين أي إلى حوالى النصف مقارنة بالمدة السابقة نفسها.

كان عباس بحاجة إلى ذلك الهدوء النسبي إن كان يرغب بأن تكون لديه فرصة لإحراز تقدم في المفاوضات مع إسرائيل. لكن وسط قلق واسع النطاق في صفوف فتح من أن الحركة لم تكن مستعدة لمواجهة حماس، أعلن الرئيس في آب 2005 أنه ينوي تأجيل الانتخابات ستة شهور.

في غضون ذلك، مضى رئيس الوزراء الإسرائيلي أرييل شارون قدماً بخططه الخاصة لفصل الإسرائيليين من طرف واحد عن الفلسطينيين. صادر جزءاً مهماً آخر من الضفة الغربية بدفع مسار الجدار والسياج اللذين كان يبنيهما إلى داخل الجانب الفلسطيني من الخط الأخضر لعام 1967. في أيلول 2005، أمر بإخلاء الكثير من المستوطنات الإسرائيلية في غزة قبل إنهاء ما دعاه خطة فك الارتباط.

كان من نتائج الخطة انتفاء الحاجة إلى نشر قوات أمنية إسرائيلية داخل غزة، وبإدّعائهم أنهم لم يعودوا يحتلون القطاع، جادل بعض الإسرائيليين أن ذلك زاد من الكثافة اليهودية النسبية في دولتهم العبرية بفصل 1.4 مليون عربي عن المزيج السكاني. لكن إخلاء المستوطنين، وسط احتجاجات غاضبة من لوبي *إسرائيل الكبرى*، وانسحاب القوات العسكرية الإسرائيلية إلى محيط القطاع لم يفعلا الكثير لتغيير حقيقة أن القطاع كان لا يزال أكبر وأسوأ سجن في العالم.

بالرغم من كل الحديث عن فك الارتباط، استمر اليهود بفعل ما يحلو لهم في الضفة الغربية. كما حثّهم شارون في الماضي، كان المستوطنون قد استولوا على قمم التلال، ويحصلون آنذاك على حصص مائية تزيد كثيراً على النزر اليسير الذي يصل إلى الفلسطينيين. قائلين إنهم بحاجة إلى إجراءات أمنية أكبر، كانوا قد اقتلعوا حقول

الـــزيتون وبساتين الفاكهة، وشقوا شبكة من الطرق عبر أرض فلسطينية لاستعمالهم الخاص. كانوا يظهرون مسلحين علانية.

كانـــت المـــستوطنات تجثم بجرأة خلف جدران عالية وأسوار شائكة في أرض مخـــتارة بعناية، وكانت قطعاً من أميركا وأوروبا، وضواحي جميلة تبدو خارجة عن نطاق المألوف في الشرق الأوسط الذي ترتفع فيه الحرارة كثيراً. كانت رؤية الأذرع الهيدروليكـــية الـــضخمة لمضخات الأسمنت، أو روافع البناء التي تحمل ألواح الخشب تـــؤكد ازدراء إســـرائيل لالتماســـات الفلسطينيين بإيقاف توسيع المستوطنات على أراضيهم؛ من غير اعتبار لقرارات الأمم المتحدة أو الانتقاد المعتاد من عواصم أجنبية، التي لم تكن تلقى آذاناً صاغية.

في منتـــصف كانون الثاني عام 2005، تم نقل أرييل شارون فجأة إلى مستشفى هداسا في القدس بعد إصابته بجلطة خفيفة. تنفس الإسرائيليون الصعداء عندما خرج شـــارون في خـــلال أيام. لكن بعد ثلاثة أسابيع، مع بداية العام الجديد، عانى رئيس الـــوزراء البدين مما وصفه أطباؤه بأنه نـــزيف دموي كبير في الدماغ عندما كان في مزرعته *حفات* هشكميم، في منطقة النقب الجنوبية[12]. تم نقله على وجه السرعة إلى المستشفى حيث دخل، وسط توقعات كئيبة من الأطباء، في غيبوبة طويلة.

كـــان مـــرض شارون إحدى علامات تاريخه العاصف الأخرى. أولاً عرفات، وآنـــذاك، بعـــد أربعة عشر شهراً فقط، كان سجله قد طبع تلك المرحلة في المنطقة. رجلان طاعنان في السن، كانا مؤلفي نص معظم أحداث الأزمة التي أدخلت شعبيهما في نـــزاع بشع، لا يزال مستمراً منذ عقود. تماماً مثلما لم يستطع ياسر عرفات سريع الغـــضب الفـــرار مـــن براثن أرييل شارون العنيد، لم يستطع كذلك رئيس الوزراء الإســـرائيلي الـــتخلص من قائد منظمة التحرير الفلسطينية الذي بلغ به العمر خمسة وسبعين عاماً حتى وُوري الثرى في قبره.

بالمقارنـــة بهما، كانت شخصيتا الرجلين اللذين حلا مكانيهما باهتتين تعوزهما الـــثقة بالـــنفس عندما تقلّدا منصبيهما. كان رئيس السلطة الفلسطينية محمود عباس وإيهود أولمرت – نائب شارون، الذي أصبح رئيس وزراء إسرائيل – رجلين يفتقران للخـــبرة نـــسبياً ويحـــتاجان إلى الاستفادة من كل مهارة قيادية ممكنة إن أرادا تحقيق تطلعات شعبيهما.

بينما كانت الانتخابات الفلسطينية تلوح في الأفق في الضفة الغربية وغزة، اختبر المنغمسون في العمل السياسي إحدى ثوابت الحياة الفلسطينية، تقليد الوحدة العائلية التي تقوم على احترام الوالدين والأقرباء الأكبر سناً، خاصة الأشقاء.

كانت عائلة أحمد يوسف، قيادي حماس البارز الذي تقطن أسرته في خان يونس، على الطرف الجنوبي لقطاع غزة، قد شهدت انشقاقاً في صفوفها. سيشرح لاحقاً: "ثلاثة من حماس وثلاثة من فتح"(13). لكن زميل يوسف، بسام نعيم الجرّاح الذي تلقّى علومه في ألمانيا، كان قد كشف عمق الأزمة، وأوضح معضلة طاولة الغداء التي واجهت إحدى خالاته. يتذكر لاحقاً: "كان لديها سبعة أولاد". شرع بالقول: "اثنان في حماس"، قبل أن يتوقف قليلاً ليفكر قليلاً في ما سيقوله لاحقاً "اثنان في فتح، واثنان في الجهاد الإسلامي. الأخير لا ينتمي إلى أي فصيل"(14).

لكن دراما الانتخابات التي كشفت بكل وضوح التقاطعات الملتهبة للحياة الفلسطينية المعاصرة - حماس ضد فتح، متدين ضد علماني، خارجي ضد محلي، شقيق ضد شقيق - تجلّت في قصة عائلة الرجوب.

وقع ذلك في الخليل، وهي مدينة في الضفة الغربية لها وضعها الخاص نتيجة وجود 500 مستوطن يهودي بحماية 2000 جندي إسرائيلي مدججين بالسلاح. كانت مظاهر امتعاض ومرارة مجتمع فلسطيني مؤلف من 150,000 شخص تتجلى من خلال أداء أعضاء فريق كرة قدم محلي خارج الملعب، الذين كانوا موضع رعاية مسجد الخليل ويدعون أنفسهم *المجاهدين*. كان ثمانية أعضاء من الفريق قد لقوا حتفهم في عمليات استشهادية، قتلوا فيها أكثر من 20 إسرائيلياً وجرحوا اثني عشر آخرين(15).

بالرغم من العرف التقليدي بإبداء الاحترام للابن البكر، كان على جبريل الرجوب البالغ من العمر ثلاثة وخمسين عاماً إخفاء إحراجه بمواجهة منافسة شديدة مبكرة من نايف، شقيقه الأصغر منه بثمانية أعوام.

كان الشقيق الأكبر يعدّ أحد أصلب الشخصيات في الضفة الغربية. كانت أغنية قد حيّته بصفته *أسد الجنوب*. وبالرغم من أن البعض كان يشير إليه بأنه *الملك*، كان آخرون يزعمون أنهم على علاقة عمل وثيقة معه يقرّون بسمعة جبريل كسيفٍ مسلط على الرقاب.

لكـــنه كان سيف فتح، ولغاية موت عرفات، كان سيف قائد منظمة التحرير الفلـــسطينية. بـــصفته أحـــد الدعائم الأساسية للانتفاضة الأولى، كانت إسرائيل قد ســـجنت جـــبريل عـــدّة مرات قبل ترحيله في العام 1988. لدى عودته إلى غزة مع عـــرفات في منتـــصف التسعينيات، تم تعيين جبريل قائداً أمنياً في الأراضي المحتلة. في منصبه ذاك، كان قد سجن حتى شقيقه الأصغر الذي تجرأ بعدها على الوقوف ضده في الانتخابات العامة مرشحاً عن حماس.

كان جبريل عابساً دائماً ويطلق شارباً. وكان لنايف تلك النظرة الهادئة التي تأتي مـــع يقـــين روحي، ويطلق لحية كاملة وكثيفة، من أذن إلى أخرى. مربـــي نحل في أوقـــات فـــراغه، كان نايف أيضاً أستاذاً في الشريعة الإسلامية في جامعة القدس في الخليل.

أدار جـــبريل حملـــته من خلف النوافذ الملونة لسيارة شيفروليه سب - اوربان مصفحة، وكان يرافقه دائماً حرّاس شخصيون من فتح مسلحون ببنادق. كان يفضل ارتـــداء بذلة غربية في أثناء توزيعه كرّاسات لامعة وتحدّثه عبر مكبّر صوت مناسب. وكـــان أسلوبه يتمثّل في دعوة رجال أعمال محليين وأصحاب نفوذ آخرين إلى قاعة اجـــتماعات في أحـــد فنادق الخليل الفخمة، حيث كان يقدم نفسه باعتباره *خادماً مطيعاً لفتح*[16].

كـــان جـــبريل قد أوضح أنه، في مثل تلك الظروف، لن يستطيع مجاراة قدرة شقيقه الأصغر على التكلم بسرعة. سيبيّن بصوت يبدو مثل صوت رفش في حصى: "لـــيس هـــناك شيء نتعلمه من حماس. تعتقد حماس أن الصراع المسلح هو الطريقة الوحـــيدة لمـــواجهة إسرائيل... [لكن] ينبغي أن يتعلموا منا فلقد قدنا الثورة، وقدنا الشعب الفلسطيني طيلة واحد وأربعين عاماً"[17].

مطلقـــاً حملـــته ضـــد طرق فتح الفاسدة، كان الشقيق الأصغر نايف الرجوب يـــتفادى نقـــاط التفتيش الإسرائيلية في أثناء تجواله في المنطقة في هيونداي متهالكة. كانت راية حماس الخضراء ترفرف من على هوائي المذياع، وكان هناك دائماً مجموعة مـــن أنـــصار حماس يضعون أوشحة مزخرفة بآيات من القرآن الكريم. كان أفضل تقنيات حملة نايف الانتخابية التكلم مع مجموعات في المساجد، وإعلانه أن حماس هي "أذنيّ، وعينيّ، وقلب الشعب"[18].

أشـــارت استطلاعات الرأي في الأيام الأولى من الحملة الانتخابية إلى أن دعم حماس في الخليل يصل إلى حوالى 40 بالمئة. مع تخصيص المنطقة بتسعة مقاعد، كانت هـــناك فرصة طيبة لعائلة الرجوب أن يتم انتخاب كلا الشقيقين إلى المجلس التشريعي الفلسطيني المؤلف من 132 عضواً.

بيـــنما كـــان الإسلاميون يديرون حملة انتخابية بمهنية وانضباط كبيرين، شعر الناخبون بما كانت حماس تمثّله. دافع مرشحو الحركة بقوة عن حقوق المرأة، قللوا من أهمـــية الجانـــب الديني في برنامجهم، ونجحوا في جعل الفساد والقانون والنظام محور اهـــتمام النقاش الانتخابـــي. كشفت استطلاعات الرأي أن القضايا التي يمكن لفتح الاستفادة منها لمصلحتها – الاقتصاد وعملية السلام – لم تكن تثير اهتمام الناخبين.

المفارقـــة أن أدبيات حملة فتح الانتخابية، وليس حماس، هي التي شدّدت كثيراً علـــى الصراع والعنف. عندما بدا أنها علامة شرف أن يتباهى مرشحو فتح بالوقت الذي قضوه في السجون الإسرائيلية، أصبح لزاماً على مرشحي حماس التفاخر بالوقت الذي كانوا قد قضوه في السجون الإسرائيلية والفلسطينية.

غلّفـــت حماس حملتها الانتخابية بفكرة *المقاومة* الحالمة بدلاً من حقيقة العمليات الاستشهادية القاسية؛ لكن السياق كان مفهوماً. وبالرغم من أنها كانت مبهمة بعض الشيء، كانت هناك إشارات براغماتية نجحت إسرائيل والغرب في التقاطها. في عام مـــضى، لم تكـــن حمـــاس قد نفّذت أي عملية استشهادية داخل إسرائيل. في الأيام الأخـــيرة من الحملة الانتخابية، أوضح محمود الزهار، قائد في غزة، أن حماس مستعدة للـــتفاوض مـــع إسرائيل عبر وسطاء، شرط أن يكونوا من المنطقة أو من أوروبا. في وقت ما، كان الباب مفتوحاً وليس مغلقاً.

لكـــن لم يكن هناك تغيير كبير في الطريقة التي يُنظر بها إلى حماس في إسرائيل، واشنطن، وعواصم أخرى: كانت منظمة إرهابية، وفي حال انتخاب أعضائها، ينبغي معاقبتها وناخبيها أي المجتمع الفلسطيني. طالب الإسرائيليون وعباس بأصوات مرتفعة بأن تنبذ حماس العنف وتعترف بدولة إسرائيل. حذّرت واشنطن من أنها ستعيد النظر في تقـــديم مساعدة كانت قد وعدت بها بقيمة 350 مليون دولار إذا تم تعيين أي من أعضاء البرلمان عن حماس وزيراً في السلطة الفلسطينية[19]. أقسم قياديون بارزون من فتح إنهم لن ينضموا إلى حماس في حكومة وحدة وطنية.

كان خالد مشعل يدير الحملة الانتخابية بوصفه *الرجل الخفي*، يتكلم إلى حشود في كـــل أنحاء الأراضي المحتلة عبر هاتف خليوي يوضع أمام ميكروفون متصل بنظام مـــن مكبّرات الصوت. لم يكن يجرؤ على إعلان نصر صريح، لكنه تلقّى في دمشق تقاريـــر من زملاء في غزة والضفة الغربية جعلته أكثر ثقة بنفسه. كانت أفضل نتيجة توقّعها مشعل أن يكون التنافس متكافئاً تماماً بين حماس وفتح[20]. نظراً إلى حقيقة أن فصائل علمانية أخرى ومستقلين يمكن أن يشكّلوا تكتلاً لمؤازرة فتح، كان يتوقع أن ينتهي الأمر بحماس في الأمان النسبـــي لمقاعد المعارضة.

كان ذلك سيُعد تطوراً استثنائياً لمنظمة منهمكة تماماً بالجهاد، وبقيت متمسكة بالمقاومـــة المـــسلحة طـــيلة عقدين. لكن حفنة من مراسلين أجانب، بدأوا يشعرون بـــتحول هيكلـــي في العلاقات الفلسطينية، وأشاروا في تقاريرهم الأخيرة عن الحملة الانتخابـــية إلى أن التغـــيير قـــاب قوسين أو أدنى. بالرغم من أن استطلاعات الرأي الأخيرة أشارت إلى أن ثلاثين بالمئة من الناخبين لم يكونوا قد قرّروا بعد، إلا أن الآراء اتفقت على أن حماس ستحظى بحصة جديرة بالاحترام مع أنها لن تحصل إلاّ على أقل من نصف مقاعد المجلس التشريعي.

كـــان إعلان النتائج النهائية بطيئاً. كان أكثر من مليون ناخب قد توجهوا إلى صناديق الاقتراع وحماس تُبلي جيداً. لكن استطلاع آراء الخارجين من مراكز الاقتراع توقّـــع فوز فتح، وأشار الفرز الأولي للأصوات إلى أن ذلك في طريقه ليصبح حقيقة. عندما ذهب الفلسطينيون إلى النوم في ليلة 25 كانون الثاني، كانت نتائج الانتخابات تبدو متوافقة مع التوقعات.

في رام الله، الـــتي يُفتـــرض أنها أحد معاقل فتح، خرجت مجموعات من الشبان المناصـــرين لفـــتح إلى الشوارع. نافدي الصبر للحصول على النتائج النهائية، سمحوا لأنفـــسهم بالاقتـــناع بنتائج استطلاعات رأي الخارجين من مراكز الاقتراع، وقضوا اللـــيل يحتفلون، يجولون المدينة بالسيارات، ويطلقون أعيرة نارية ابتهاجاً. في الصباح، أفاقوا ليكتشفوا أن العالم قد تغير.

في الخلـــيل، لم يكن هناك شيء يمكنه إنقاذ فتح والابن البكر لأسرة الرجوب. كان جبريل قاسي اللهجة يشعر بالذهول عندما تبين أن حماس اكتسحت الانتخابات، وفازت بكل المقاعد التسعة عن المنطقة. ذهبت سبعة مقاعد إلى نشطاء، بينهم شقيق

جبريل الأصغر مربي النحل نايف، الذي كان بين الأشخاص المُبعدين إلى جنوب لبنان عندما حاولت إسرائيل القضاء على الإسلاميين في السنوات التي سبقت اتفاق أوسلو. فاز نايف بأكبر عدد من الأصوات.

كانت حماس، التي أربكها ذلك بطريقة ما، قد حققت فوزاً كاسحاً. 74 مقعداً في برلمان مؤلف من 132 عضواً. قال عضو البرلمان الجديد عن حماس رياض مصطفى: "لم نتوقع تشكيل الحكومة. كنا نعتقد أننا سنشكل معارضة قوية. نحن مذهولون!"[21].

لم يكن بمقدور تسعة من مرشحي حماس الفائزين بالانتخابات الذهاب إلى البرلمان، لأنهم كانوا محتجزين في سجون إسرائيلية. كانت إحدى اللواتي سيذهبن إلى هناك مريم فرحات، المعروفة باسم *أم الشهداء*. كانت قد قدمت ثلاثة من أبنائها كاستشهاديين، وأنتجت شريط فيديو عن نفسها وهي تساعد ابنها البالغ من العمر سبعة عشر عاماً على وضع حزام ناسف قبل أن ينطلق ليقتل خمسة إسرائيليين.

فازت فتح، الحركة التي تتمتع بتاريخ عريق، بثلاثة وأربعين مقعداً فقط. الأسوأ من ذلك، ربما كان فصيل عباس العلماني يستطيع تجنيب نفسه الإذلال لو أن القيادة احتوت النزاع بين المنفيين العائدين من حرس عرفات القديم والجيل الجديد الغاضب الذي كان يعتقد، محقاً بما يكفي، أن دوره قد حان. نجم عن رفض المعسكرين في فتح الاتفاق على قوائم المرشحين وجود أشخاص من فتح يتنافسون ضد بعضهم على المقاعد نفسها. بتشتيت الأصوات غير المخصصة لحماس، كانوا قد ساعدوا في تمهيد الطريق أمام الإسلاميين للحصول على خمسة وستين بالمئة من المقاعد بالرغم من أنهم لم يكونوا يحظون بدعم سوى أربعة وأربعين بالمئة من أصوات الناخبين.

ظهرت الاتهامات داخل فتح مباشرة. قال القيادي في رام الله ناصر عبد الحكيم، يشتكي من تسلط حرس عرفات القديم: "عاقبنا الشعب بسبب سوء إدارة وفساد المافيا التي جاءت من تونس"[22]. ستمضي أيام قبل أن يعرف عبد الحكيم وآخرون أن عباس بنفسه كان قد أمر بعدم نشر تقرير، إلى ما بعد الانتخابات، يحدد وجود صفقات مشبوهة بقيمة 700 مليون دولار داخل السلطة الفلسطينية ويشير إلى احتمال ضياع مليارات من الأموال العامة بالطريقة نفسها[23].

كانت هناك دعوات غاضبة تطالب برأس عباس من داخل فتح. خوفاً على حياته، ألغى الرئيس اجتماعاً مقرراً كان يتطلب منه السفر إلى غزة. قام مؤيدوه

بأعمـــال شغب؛ أحرقوا سيارات، أطلقوا أعيرة نارية على مبانٍ عامة، وهدّدوا بقتل بعض مرشحي فتح الخاسرين. تجمّع مئات من أنصار فتح في المقاطعة الرئاسية في رام الله، يطلبون المغفرة عند قبر ياسر عرفات[24].

بدلاً من التأقلم مع دور المعارضة الجديد، بدأ العديد من قياديي فتح مباشرة في التخطيط للانقلاب على الحكومة المنتخبة حديثاً. تكلموا كما لو أنهم في حالة حرب مـــع حماس، وحثّوا الولايات المتحدة ومانحين أجانب آخرين على عدم مدّها بأموال[25]. في الخفاء، دعم عباس تشديد الخناق على حكومة كان شعبه قد انتخبها للتو[26].

كان التصويت قد أنهى عملية السلام: كانت حماس، المعارضة، قد حازت على الـــشرعية؛ وتم إقـــصاء فتح ومنظمة التحرير الفلسطينية عن الحكم. تبخّر أي شك محـــتمل في امـــتلاك حمـــاس لحق النقض (فيتو) على عملية اتخاذ القرار الفلسطينية. حصلت الحركة التي ادّعت دائماً أنها تحظى بدعم 40 بالمئة من الفلسطينيين على 44 بالمئة من مجمل الأصوات.

بعد أقل من خمسة أعوام على 11 أيلول، وشن الحرب على الإرهاب، وجدت إســـرائيل وواشنطن نفسيهما مترددتين مع ولادة الحكومة الإسلامية. الأكثر أهمية أن حـــركة مقاومـــة مسلحة منضبطة وقاسية، التي تم إعلانها منظمة إرهابية في أميركا وأوروبا قد فازت بالانتخابات. لقد حصل ذلك في ظل احتلال قمعي، وفقاً لبرنامج لمقاومـــة الاحـــتلال بكـــل الوسائل؛ بما في ذلك ما تدعوه العمليات العسكرية، التي يصنفها آخرون بأنها إرهابية.

كان ذلك زلزالاً جيو – سياسياً. كانت تلك نقطة تحول مدهشة لحركة أعلنت عـــن رغبتها بأن تكون معارضة برلمانية، وكان لحماس آنذاك اليد العليا في الأراضي المحتلة. كان كل من الأميركيين والإسرائيليين قد أخطأوا تقدير نتيجة انتخابات أجمع جـــيش مـــن المراقبين الدوليين على نـــزاهتها. مقارنة بانتخابات أخرى في المنطقة، كانـــت الانتخابات الفلسطينية نموذجاً للعدالة الديمقراطية، بالرغم من إقامتها في ظل الاحتلال والحصار.

اشـــتكى عـــباس بمرارة أن كلاً من إسرائيل وواشنطن قد تخلّت عنه. كان قد طالب بإجراء مفاوضات سلام، لكن إسرائيل جعلته يبدو مفاوضاً ضعيفاً. كانت قد رفـــضت تقـــديم تـــنازلات في قضايا توسيع المستوطنات، ونقاط التفتيش، والتطوير

الاقتصادي التي كان عباس بحاجة إليها إذا كان يريد أن يعتبره شعبه رجلاً قوياً. سواء أكـــان ذلك صحيحاً أم غير صحيح، كرّم الناخبون حماس لإخراج إسرائيل من غزة. كـــان الفلسطينيون محقّين في استنتاج أن البندقية والقنبلة قد نجحتا، وأن المحادثات قد فشلت.

بعد أربعة أيام من الاقتراع، كانت وزيرة الخارجية الأميركية كونداليزا رايس لا تزال تحاول استخلاص العبر من النتيجة عندما كانت تتكلم إلى مراسلين رافقوها على متن رحلة إلى أوروبا. قالت معترفة بشكل صريح بفشل واشنطن في التفكير بإمكانية فـــوز حمـــاس: "لقد سألت لماذا لم يتوقع أحد ذلك؟ لا أعرف شخصاً لم يفاجأ بما حدث. ذلك يشير إلى عدم امتلاكنا لمعلومات كافية"[27].

عـــندما زارت رايـــس الـــشرق الأوسط بعد أسابيع، كانت دعواتها لإحلال الديمقراطية قد فقدت معظم إلحاحها وحماسها السابقين. كان نظام فتح بقيادة عباس أول حكومة عربية تفقد السلطة عبر تعبير ديمقراطي عن إرادة شعبها. لم يكن موقف الولايات المتحدة سيبدو جيداً إذا سعت علانية لإطاحة الحكومة المنتخبة حديثاً. لكن إذا نجحت حماس، لن يغير ذلك الديناميكية الداخلية الفلسطينية فقط وإنما النـــزاع مع إسرائيل أيضاً. في الوقت نفسه، سيكون ذلك تشجيعاً لإسلاميين يرزحون تحت حكم أنظمـــة عـــربية الـــتي، حتى إذا كانت حليفة للولايات المتحدة، لا تهتم كثيراً بهدية الديمقراطية من واشنطن[28].

في المـــنطقة، أثـــار الموقف الأميركي من حماس السخرية. كانت هناك اتهامات بالـــرياء وتعلـــيقات لاذعة من معلّقين طالبوا بمعرفة السبب الذي يدفع واشنطن إلى رفض قبول نتائج الانتخابات نفسها التي كانت قد أصرّت على تنظيمها في الأراضي المحـــتلة. سُئلت (وزيرة الخارجية الأميركية) بصراحة على قناة تلفزيونية مصرية: "هل هذا نوع من الديمقراطية الخاصة (المفصّلة) إذاً، د. رايس؟"[29].

بالعـــودة إلى العام 2003، كانت واشنطن قد أصرّت على تجريد منصب رئيس السلطة الفلسطينية من صلاحيات أساسية في محاولة لتخفيف قبضة ياسر عرفات على الـــشؤون الفلسطينية. كرئيس للوزراء في ذلك الوقت، كان محمود عباس المستفيد. كـــان بحاجة إلى إضعاف رئاسة عرفات كي يصبح رئيساً قوياً للوزراء. تحرك عباس بسرعة كبيرة لتجريد منصب رئاسة الوزراء الذي كان يشغله سابقاً من الصلاحيات.

مـــن دون أن يشعر بالإحراج أو الخجل، انطلق عباس لإضعاف رئيس الوزراء القادم بسحب الصلاحيات من منصبه بشأن قطاعات رئيسية في الحكومة. كان سيتم تركيز تلك الصلاحيات في مؤسسة الرئاسة، لدعم عباس والسماح لفتح بحماية نظام الـــرعاية الذي كان طيلة سنوات قد وضع مصالح أعضاء الحركة وتأمينهم المالي فوق مصالح الفلسطينيين العاديين.

كانـــت الأجهزة الأمنية، التي سرعان ما تم إبعادها عن حماس، مؤسسة خاصة بفتح. قبل شهور فقط، كان جنرال أميركي نصح بإصلاحها قد وصفها بأنها "شبكة رعاية اجتماعية". وكان حوالى 60,000 رجل يتلقون رواتب من تلك الأجهزة شبه العـــسكرية، لكن 22,000 فقط كانوا يزعجون أنفسهم بالذهاب إلى أماكن عملهم فيها[30].

كانت وزارة المال الفلسطينية وهيئة الإذاعة والتلفزيون تدوران في فلك الرئيس. كـــان يـــتم تعيين أنصار فتح مسؤولين في هيئات مكافحة الفساد. وكانوا يتقلدون مناصـــب في الـــوكالة المـــسؤولة عن رواتب ومعاشات موظفي الحكومة. كل تلك مناصب كان ينبغي لهم من خلالها الحفاظ على مصالح فتح. وصل ذلك إلى ذروته في اليوم الأخير من ولاية البرلمان الذي هيمن عليه فتح، والذي أنشأ محكمة خاصة منحها ســـلطة إلغـــاء أي قرار يصدره البرلمان المقبل الذي تسيطر عليه حماس؛ ومنح عباس سلطة تعيين كل قضاتها التسعة. كانت تلك وصفة للفوضى.

عرضت حماس، على أي حال، غصن زيتون للخاسر. في خطاب ألقاه على مسامع حشد يحتفل بالنصر في خان يونس، عرض خالد مشعل على فتح الاشتراك في السلطة مع الإســـلاميين. "نحن شعب واحد"، وكان صوته مجهول المصدر يدوّي على مسامع حشد يحمـــل رايـــات ويصل تعداد أفراده، وفقاً لبعض التقديرات، إلى خمسين ألف شخص. "عشنا معاً في خنادق المقاومة، لهذا دعونا نبقى معاً في خنادق السياسة"[31].

قـــدّم قادة حماس الميدانيون في الأراضي المحتلة العرض نفسه، مراراً وتكراراً. لم يلق ذلك سوى الرفض. بعد أيام من الاجتماع الحاشد، بدا أن مشعل قد قبل حقيقة أن حمـــاس ســـتكون لوحدها في تلك الحقبة الفلسطينية الجديدة. قال: "تكلمنا إلى الإخـــوة في فـــتح، [لكنهم] تمسكوا بموقفهم السابق الرافض للانضمام إلى حماس في الحكومة الجديدة"[32].

كانت فتح قد تعرضت لإذلال مرير. بمواجهة انهيار السلطة السياسية، انطلق محمد دحلان، أحد القادة السابقين لدى عرفات ورجل غزة القوي، لتأنيب حماس بشأن التحدّيات الكبيرة التي تواجهها. قال الرجل الذي سيلعب دوراً حاسماً في الأزمات التي ستأتي: "أنتم على وشك دخول السلطة [الفلسطينية]؛ نحييكم بحرارة". قال وهو ينظر شزراً عبر شاشة التلفاز في خلال مقابلة معه: "حان الوقت لأن تطّلعوا بأنفسكم على معاناة التواجد في الحكومة"[33].

زاد مستوى الغضب في فتح من مخاوف تجدد العنف في الشوارع، وبالرغم من أن مشعل قلل من أهمية ذلك، إلا أنه شعر بالحاجة إلى التوجه إلى أنصار حماس من خلال مؤتمر صحافي بُثّ إلى الأراضي المحتلة من دمشق. ملتمساً من أنصاره أن يكونوا متواضعين في هذا الوقت بعد الانتصار، حثّهم على عدم استفزاز آخرين.

كان فرز الأصوات لا يزال قائماً عندما حطّت أول سلسلة مطالب عند باب حماس. جمّدت إسرائيل، والولايات المتحدة، والاتحاد الأوروبي بسرعة العلاقات مع الحكومة الجديدة، رفضت تمويلها أو حتى التكلم إلى أعضائها ما لم تُلبَّ ثلاثة مطالب أساسية. طُلب من حماس نبذ العنف، والاعتراف رسمياً بإسرائيل، والتقيد بكل الاتفاقيات الموقعة سابقاً باسم الشعب الفلسطيني. كما كان متوقعاً، رفضت حماس ذلك. عندما فعلت، أوقفت واشنطن وبروكسل تدفق المعونات[34]، وتركتا المراقبين يشعرون بأن هدفهما الحقيقي كان التسبب بانهيار سريع لحكومة حماس، ووضع شروط لجعل الحركة تتصرف على النحو الذي تصرفت عليه[35].

أوقفت إسرائيل تحويل عشرات ملايين الدولارات من عائدات الضرائب التي كانت قد حصّلتها نيابة عن السلطة الفلسطينية. كانت قيمة أول دفعة شهرية تم تجميدها 50 مليون دولار من العائدات التي كانت من حق الفلسطينيين، والتي جمعتها إسرائيل كقوة احتلال. ردّت حماس بقيام مسؤوليها بجولة في المنطقة التماساً للمال بقيادة خالد مشعل. بشكل استفزازي، شملت جولة مشعل طهران، حيث تعهدت القيادة الإيرانية بمساعدة الحكومة الجديدة مادياً[36].

هاجم بنيامين نتنياهو، الذي كان يسعى كرئيس لوزراء إسرائيل في العام 1997 إلى إضعاف حماس باغتيال مشعل، ما وصفها بأنها سياسات فاشلة للحكومة الإسرائيلية. كانت، كما قال، قد ساهمت في تلك النتائج الانتخابية المخيفة. قال من

موقعه كقائد لحزب الليكود المعارض: "أمام أعيننا، تم إنشاء نظام حماستان. إنه وليد إيران وطالبان"[37].

ضمن المؤسسة الإسرائيلية، سرعان ما تم توجيه أصابع الاقام إلى الاستخبارات العسكرية *لفشلها الذريع* في اكتشاف ما وصفه المنتقدون، بعد إدراكهم لما حدث، بأنه واضح وضوح الشمس[38].

كانت حماس قد صمدت بالرغم من كل الظروف الصعبة. منذ الأيام الأولى للانتفاضة الأولى في العام 1987، كانت الحركة قد تعرضت لحملة عنيفة شنتها عليها كل من قوات إسرائيل والسلطة الفلسطينية بقيادة عرفات وبدعم أميركي. كانت قد صمدت في وجه الإبعاد، وعمليات الاعتقال الواسعة. كان قيادي بعد آخر ضحية لحملة إسرائيلية منتظمة من عمليات الاغتيال؛ وكاد مشعل نفسه يلقى حتفه في واحدة منها. تم إغلاق مؤسسات حماس؛ واعتراض عملياتها لجمع الأموال في أميركا وأوروبا من قبل مكتب التحقيقات الفيدرالي ووكالات شقيقة وسحبها إلى المحاكم؛ وحظر منشوراتها. وبالرغم من ذلك، كإسلاميين، كان قادتها قد فازوا بثقة الناخبين الذين كانوا ورعين لكنهم لم يكونوا قد اعتنقوا من قبل وصفة حماس الدينية – الوطنية للتعامل مع الاحتلال. في فرن الضغط السياسي في فلسطين، كانت فتح قد أصبحت الحركة التي أساءت لنفسها نتيجة جشع وفساد أعضائها وحروبها الداخلية.

مع قيام حكومات العالم، والمنطقة، وإسرائيل بملاحقتها عن كثب، كانت الفصائل الفلسطينية مثل نوابض مضغوطة. كانت النزاعات بينها حتمية. ادّعت حماس محقّة أن لديها تفويضاً شعبياً وإن كانت فتح قد أكّدت أن برنامجها حصل على الشرعية عند انتخاب عباس رئيساً قبل عام. قال مشعل، رافضاً اقتراح أحد المراسلين بأن يكون البرنامجان متوافقين: "تم عرض البرنامجين على الشعب الفلسطيني، الذي بدوره اختار حماس"[39].

عندما شعر بحتمية المواجهة، أوضح عباس أنه لا يزال يحظى بولاء ستين ألفاً من أفراد أجهزة الأمن الفلسطينية، التي كانت بعد الانتخابات متلهفة للثأر من حماس. عندما بدأت حماس إنشاء قواها الأمنية الخاصة، كانت كلتا الحركتين تقترب من المواجهة التي تظاهرت بالنفور منها.

كانـــت فتح قد فشلت سياسياً، لكن، على حين كانت تكافح داخلياً مع الفاسدين فـــيها، أصبحت قيادتها مقتنعة أن حماس لن تنجح في الحكومة. بناءً على اعتقاد واهم أن الـــسلطة من أجل السلطة، كان تقدير فتح كالآتي: إذا رفضت حماس التوصل إلى تسوية مـــع إســـرائيل وواشـــنطن، ســـيعاقبها العالم؛ وإذا عملت على إنجاز تسوية، سيحكم الفلـــسطينيون على الإسلاميين بأنهم منافقون. بالنسبة إلى فتح، كانت تلك تذكرة العودة إلى السلطة والسيطرة على المجتمع الفلسطيني، وقد كانت تعتبرهما حقاً مكتسباً لها.

كـــان رد فعـــل إســـرائيل الأولي على نتائج الانتخابات متوقعاً. كانت هناك تحذيـــرات شـــديدة اللهجـــة أن حكومة لحماس على عتبة إسرائيل ستكون بمنـــزلة حـــصان طـــروادة للإرهاب، وكانت هناك تحذيرات من إمكانية الزج بكل أعضاء الـــبرلمان عن حماس البالغ عددهم أربعة وسبعين عضواً في السجن، وتهديدات من قبل مسؤولين إسرائيليين إنه في حال وقوع هجوم إرهابـــي واحد، ستتم إضافة أسماء كل أعضاء البرلمان إلى قائمة المستهدفين بالاغتيال.

لكـــن قلـــة من الإسرائيليين كانت ترغب في رؤية إلى أين قد تقود تجربة بوش الديمقـــراطية. جادل شالوم هراري، الذي كان موجوداً في غزة كأحد أعضاء فريق الإدارة الإســـرائيلي في الأيام التي كان فيها الشيخ ياسين الراحل يرسّخ جذور شبكته الإســـلامية في الثمانينيات، جادل بأن ليس لدى إسرائيل ما تخسره. قال: "ينبغي أن تنتهز إسرائيل فرصة وجود حماس داخل النظام. لقد واجهنا سابقاً عملية سلام فاشلة كانوا خارجها. إنهم في الداخل الآن. لنحاول تطويعهم"[40].

برفـــضها الاستجابة لمطالب غير مشروطة، أرسلت حماس إشارات متفاوتة عن الـــسهولة التي يمكن أن تكون عليها عملية تطويع هراري. قال إسماعيل هنية، الرجل الـــذي ســـيتم تعيينـــه كأول رئيس للوزراء من حماس، ساخطاً: "يقول الأوروبيون والأميركـــيون إن علـــى حماس الاختيار بين امتلاك أسلحة وتشكيل الحكومة. لكننا نقول إننا سنحصل على الأسلحة - والبرلمان"[41]. في الوقت نفسه، كشف عن بعض الـــبراغماتية. قـــال كمن يفسر الماء بالماء: "إسرائيل موجودة وهي دولة يعترف بها كثيرون، وينبغي أن أتعامل مع ذلك"[42].

في مقابلـــة مـــع وســـائل الإعلام، استعمل خالد مشعل لهجات مختلفة في أثناء توضـــيحه للفلـــسطينيين والإســـرائيليين الحقائـــق الجديدة في حياة الجانبين المستقلة

والجماعية. قال: "نحن شركاء مع أشقائنا في فتح والفصائل الأخرى"، قبل أن يتحول إلى النقطة التي أراد التركيز عليها – التي كانت أنه لا يرى أي تعارض بين الديمقراطية والمقاومة – جادل: "إسرائيل مثل أي محتل لا تحترم سوى منطق القوة. [لكن] التاريخ يؤكد إنه إذا اختار فريق الحل السياسي و لم تكن لديه [قوة] لدعمه، لن يحرز أي تقدم، ولن يجني شيئاً"[43]. في ذلك الوقت، كما قال مشعل، لن تحط حماس من قدرها بتكرار أخطاء الماضي مع إسرائيل. أصرّ قائلاً: "قلنا إن إسرائيل ينبغي أن تعترف بحقوقنا أولاً. يجب أن يعترف القاتل أولاً أن هناك ضحية"[44].

في مقابلة مع الصحيفة الفلسطينية *الحياة الجديدة*، قال مشعل للإسرائيليين إن حماس لن تعترف بدولتهم. أضاف، في ما كان يبدو أنها جملة تخرج مرة واحدة من بين شفتي رجل نادراً ما يقول كلمة لا يعنيها: "على أي حال، إذا كنتم مستعدين لقبول هدنة طويلة الأمد، نحن مستعدون للتفاوض معكم على شروطها"[45].

كان يبدو أن حماس تفهم فعلاً جمهور ناخبيها. في استطلاع للرأي تم بعد وقت قليل من التصويت، كان 1 بالمئة فقط من الذين استُطلعت آراؤهم يريدون من حماس أن تجعل تطبيق الشريعة الإسلامية أولوية لها. بالمقارنة، دعم أكثر من 70 بالمئة التوصل إلى اتفاق سلام مع إسرائيل يقوم على مبدأ الدولتين.

مع إبقاء ذلك في الأذهان، أرسل الإسلاميون سلسلة من الإشارات التي يمكن تفسيرها على أنها نوع من الاعتدال الذي يمكن من خلاله البدء بحوار. لم يكن سيتم قطع أيدي اللصوص، كما تنص الشريعة الإسلامية[46]... إذا فاوض عباس على اتفاق مع إسرائيل يوافق عليه الشعب الفلسطيني، ستقبل به حماس أيضاً. وعندما حثّ الرجل الثاني في القاعدة، أيمن الظواهري، حماس على الالتزام بالجهاد المسلح، تم صدّه مباشرة. قال بيان للحركة الإسلامية: "حماس تعتقد أن الإسلام مختلف تماماً [عن] أيديولوجية الظواهري"[47].

لم تلق تلك العروض الأولية من حماس سوى التجاهل أو الرفض. قبل يومين من التصويت، كان رئيس وزراء إسرائيل، إيهود باراك، قد تكلم عن حل الخلافات بالتفاوض *بين بلدين* وحثّ بلاده على إعادة المزيد من الأراضي التي كانت تسيطر عليها آنذاك. لكنه انقلب على عقبيه لاحقاً. قال متوعداً: "إسرائيل لن تُجري أي مفاوضات مع حكومة فلسطينية إن كان جزء منها فقط منظمة إرهابية تدعو لتدمير إسرائيل"[48].

نظـــراً إلى عدم وجود محادثات حقيقية في خلال الأعوام الخمسة الأخيرة، اعتبر الفلـــسطينيون تلك التحذيرات الإسرائيلية تهديداً مخيفاً من قبل أولمرت. كان جواب خالـــد مشعل اللاذع: "كانت إسرائيل قد رفضت سابقاً التعامل مع حكومتي محمود عباس وياسر عرفات"(49).

عندما واجه إسماعيل هنية سؤالاً عن سبب رفض حماس الاعتراف بإسرائيل، ردّ بـــأن الأمر متبادل. شرع بالقول: "هل احترمت إسرائيل الاتفاقيات؟". أكمل: "أي إســـرائيل ينبغـــي أن نعترف بها - إسرائيل 1917؛ إسرائيل 1936؛ إسرائيل 1948، إسرائيل 1956؛ أم إسرائيل 1967؟"(50).

كـــان قول هنية معقولاً. باعتباره خليفة شارون، كان إيهود أولمرت قد تحمس لقـــارورة الفورمالديهايد، والتزم بتفكيك حفنة فقط من مستوطنات الضفة الغربية. لكـــنه كـــان يصرّ أيضاً على حق إسرائيل في الاحتفاظ بكتل استيطانية كبيرة قائمة، السيطرة على وادي الأردن وكل العاصمة المتنازع عليها، القدس. كانت إسرائيل قد رفضت تماماً حتى خريطة طريق بوش. عند نشر تفاصيلها، كان شارون قد أصرّ على وضع أربعة عشر شرطاً مهماً، وحتى وقت انهياره، كان نادراً ما يشير إلى الوثيقة من دون إضافة جملة مهمة: "كما تقبلها حكومة إسرائيل"(51).

قـــال مـــشعل للصحيفة الروسية *نيزافيسمايا غازيتا* قبل زيارة بالغة الأهمية إلى موسكو بعد أسابيع من الانتخابات: "نظراً إلى عدم التزام أحد [آخر] بشروط خريطة الطريق، لا يرى الفلسطينيون أن من المناسب أن يلتزموا بها أيضاً". متوسعاً في الشرح في أثـــناء زيارتـــه لطهران في خلال جولته لجمع أموال، كان مشعل أكثر تشدداً في التحدث إلى جمهوره: "كانت إسرائيل قد أعاقت، وتجاهلت، ونقضت الاتفاقيات التي وقّعت عليها... [لهذا] لا يمكن أن نتخيل أن يبقى الشعب الفلسطيني ملتزماً باتفاقيات يستخف بها... الطرف الآخر"(52).

بـــضغط مـــن واشنطن وعواصم أخرى، رفضت مصارف العالم تحويل الأموال إلكتـــرونياً إلى غزة. بحلول منتصف العام، اشتكت حماس أن عدّة مصارف عربية قد جمّدت أكثر من 300 مليون دولار كانت قد قدمتها إيران وعدّة أنظمة عربية(53).

كـــان علـــى وزراء ومـــسؤولي حماس أن يتصرفوا بشكل مبدع. كلما كانوا يعـــودون مـــن الخارج، كانوا يحملون حقائب مليئة بالنقود. كانت آخر عقبة أمام

إيـــصال الأموال إلى الأراضي المحتلة هي معبر رفح بين مصر وغزة، الذي كان تحت سـيطرة الإسـرائيليين والأجهزة الأمنية الفلسطينية الموالية لعباس. في منتصف أيار، كُـشف أن الـناطق باسم حماس سامي أبو زهري كان يُخفي ما يعادل 800,000 دولار بالـيورو في ملابسه لدى عودته إلى غزة من قطر، حيث كانت حماس، طيلة سنوات، تجمع الكثير من الهبات.

بعـد أسابيع، كان وزير الخارجية محمود الزهار أوفر حظاً. بعد رحلة إلى إيران، الصين، إندونيسيا، وباكستان، استطاع الزهار إدخال أربع حقائب تحتوي علـى مـا يُقـدّر بعشرين مليون دولار عبر معبر رفح[54]. لكن كل ذلك كان نثريات، نظراً لدين الحكومة الجديد المتراكم. آنذاك، كانت قيمة الرواتب المتأخرة قد وصلت إلى 300 مليون دولار. تم تسليم الموظفين ورقتين أو ثلاث من فئة المئة دولار مـن حقائب الزهار. لكن بمعدل 10 مليون شهرياً، لم يكن تهريب حماس للمال يستطيع سد الفجوة المتزايدة في فاتورة الأجور، التي كان يعتمد عليها ثلث السكان[55].

كانت فتح قد خرجت من الحكومة، لكنها بقيت ترفض الاشتراك في السلطة. ضـمن جهاز الخدمة العامة في السلطة الفلسطينية، كان هناك أكثر من خمسة آلاف مديـر عام معظمهم من أنصار فتح. اتهمتهم حماس بإعاقة العمل الحكومي. في بعض الوزارات، وصلت نسبة التغيب عن العمل إلى أكثر من 50 بالمئة. بغياب التمويل، لم يكن هناك عمل لأولئك الذين يذهبون إلى وظائفهم. عندما توفرت مبالغ صغيرة من المـال، لم يكن ممكناً ابتكار طريقة لتوزيع الرواتب التي يتفق الجميع على أنها عادلة. طالـب الـبعض بمـستحقاتهم تحت تهديد السلاح. واجه تدفق الأموال إلى السلطة الفلـسطينية عقـبة أخرى عندما جادل عباس، أنه ينبغي نقل أي مساعدات أجنبية طارئة، في حال تقديمها، عبر مكتبه الرئاسي.

كانـت الانـتخابات قـد أفرزت ديناميكية جديدة لنـزاع الشرق الأوسط. وبالـرغم من ذلك، بدا أن الأحداث على الأرض تثبت القول المأثور "كلما تغيرت الأمور أكثر، بقيت على حالها".

كان هناك وعد بأن يتم دفع رواتب شباط الحكومية في منتصف آذار، لكن آذار حل وانقضى من دون تحقيق انفراج. وعندما أدرك عشرات آلاف الفلسطينيين حقيقة

أنـــه لا توجد شيكات رواتب في نيسان أيضاً، انفجر خالد مشعل غاضباً. بعد ثلاثة شهور من الانتخابات، خرج إلى العلن، يمسك ميكروفوناً في يده.

كانـــت المناســـبة تجمعاً في مخيم للاجئين الفلسطينيين في دمشق، لإحياء ذكرى اغتـــيال إســـرائيل للـــشيخ أحمد ياسين وعبد العزيز الرنتيسي. شكّل خطاب مشعل اللاذع منعطفاً خطيراً جديداً في العلاقات بين حماس وفتح.

سخر مشعل من إسرائيل والولايات المتحدة كما كان جمهوره يتوقع منه. قال، مكرّراً رفض حماس الالتزام بثلاثة شروط لنيل قبول إسرائيل وواشنطن: "نفضل الموت جـــوعاً علـــى الاستـــسلام". هزأ من الإسرائيليين: "[إنهم يفقدون الثقة بأنفسهم] ويحتاجون إلى اعتراف حماس بهم!".

لكن إذا كان كل ذلك يُعدّ خطاباً في وقت الأزمة، فإن سخرية مشعل من فتح وعباس كان المقصود منها الاستفزاز والإهانة. كان أمراً مألوفاً لقائد حماس أن يوجه إهانات لأعداء قدامى مثل الأميركيين والإسرائيليين. وكان أمراً غير مألوف أن ينتقد علانية أخاً فلسطينياً، أو عربياً. سأل: "لماذا يتآمر قسم من شعبنا ضدنا، ويرسم خطة مدروســـة ليعيق نجاح [حكومة حماس]؟ اليوم، حان وقت إماطة اللثام... عن هؤلاء الخونة"(56).

توقـــف مشعل حياءً عن تسمية أولئك *الخونة*، لكن لم يكن هناك شك عن من كـــان يتكلم. اشتكى قائلاً: "ضحّوا بمصالح وطننا... لخدمة مصالح العدو. ساهموا في تجويع شعبنا وإقامة دولة لا تخضع لحكم القانون". مبيّناً الفرق بين نشاطات معارضة وفـــيّة لوطـــنها وما وصفه بأنه محاولة فتح القيام بانقلاب بدعم أميركي – إسرائيلي، أعلن مشعل: "سيُفشل الشعب الفلسطيني المؤامرة!".

قبل عدّة أيام من تجمّع دمشق الذي تكلم فيه مشعل، كان المرشحون الناجحون في انـــتخابات 28 آذار في إســـرائيل قـــد أقـــسموا كأعضاء في الكنيست، البرلمان الإســـرائيلي. لكن بعد ساعات فقط من مراسم القسم تلك، فجّر استشهادي واحداً وعشرين رطلاً من المتفجرات عند مدخل مطعم في تل أبيب، مما أدّى إلى مصرع أحد عـــشر شخـــصاً وجرح سبعين آخرين. كان ذلك أول هجوم من نوعه منذ انتصار حماس في الانتخابات والذي أعلنت المسؤولية عنه الجهاد الإسلامي، الحركة الإسلامية الـــتي كانـــت قد نأت بنفسها عن العملية السياسية. أدان عباس التفجير، لكن ناطقاً

باسم حماس قال إنه ردٌّ فعل منطقي على القمع الإسرائيلي. في آن معاً، كان قَسَم أعضاء الكنيست الجدد قد تزامن مع اليوم نفسه الذي يُحيي فيه الفلسطينيون عادة يوم الأسير؛ احتجاجهم السنوي ضد إسرائيل التي تحتجز آلاف الفلسطينيين في سجونها.

مستهدفاً رئيس السلطة الفلسطينية وأعضاء فتح في خطابه من دمشق، وجّه مشعل هجومه نحو الديار. اتهم قائلاً: "قال لي وزراء [حماس الجدد] إنهم دخلوا وزاراتهم ليجدوا أن أسلافهم [من فتح] قد سرقوا الأرائك، والمكاتب، والقهوة، والشاي، ودفاتر الملاحظات. هل يمكن لوم شخص يفجّر نفسه في تل أبيب؟ هل العار على من يفجّر نفسه في تل أبيب، أم على الشخص الذي يأكل ويشرب في تل أبيب؟".

تجاهلت كل وسائل الإعلام الناطقة بالإنكليزية الخطاب، لكنه أثار الحماس في الوطن العربي. إلى جانب تأكيد موقف حماس الثابت في مكافحة فساد فتح، كان مشعل يتهم آنذاك العلمانيين بالسرقة والخيانة، التعاون والتآخي مع العدو.

في رام الله، تم إطلاق أعيرة نارية تعبيراً عن الغضب. في غزة، تم إلقاء الحجارة، وحصلت اشتباكات بالأيدي بين مئات الطلاب في الجامعة الإسلامية وجامعة الأزهر. أدانت لجنة فتح المركزية خطاب دمشق ووصفته بأنه أحمق.

كانت هناك مطالب بتقديم اعتذار. تم اتهام مشعل بإثارة حرب أهلية، والتحريض على الفتنة، وبأنه يعاني من أزمته الشخصية. نبّه محمد دحلان، الذي أصبح آنذاك رئيس جهاز الأمن الوقائي في عهد عباس والشوكة منذ أمدٍ بعيد في جانب حماس في غزة، نبّه مشعل عن الحاجة إلى البراغماتية. تكلم الناطق باسم عباس أحمد عبد الرحمن مباشرة عن مشعل في مقابلة مع الجزيرة: "نريد منك تركنا نحل مشكلاتنا... من دون تدخّلك ومن دون خطاباتك!". لكن كان جبريل الرجوب قد أشار بدقة إلى تلك المشكلة الخاصة. همهم الرجوب: "دام الخطاب أكثر من خمسٍ وخمسين دقيقة. تضمّن إهانات لفتح، وتاريخها، وقياداتها، ورموزها. لم تكن تلك زلة لسان"(57).

كانت حماس قد تقيدت نوعاً ما بوقف إطلاق النار المتفق عليه في القاهرة في آذار 2005. كانت الحركة قد أوقفت العمليات الاستشهادية. لكن منذ الانسحاب

العسكري الإسرائيلي وإخلاء المستوطنين من غزة في أيلول 2005، تم إطلاق حوالى ثلاثمئة صاروخ بدائي محلي الصنع على أهداف مختلفة من داخل غزة. مملوءة بمزيج من السكر والسماد العادي، كانت ميليشيات فصائل أخرى تطلق تلك الصواريخ، لكن إسرائيل ادّعت أن حماس نسّقت تلك الهجمات[58].

كان لها تأثير قوي كأسلحة نفسية. لكن كقذائف مدفعية، لم تكن فعّالة. قدّرت إسرائيل أن حوالى 200,000 من مواطنيها يعيشون ضمن مدى صواريخ غزة. وصفها بعض المحللين الإسرائيليين بأنها "أنابيب مواقد طائرة"، وكانت تلك الصواريخ قد قتلت ما معدله ثلاثة إسرائيليين سنوياً منذ الوفاة الأولى في حزيران 2004[59]. في الشهور الثمانية التي سبقت ما يدعى فك الارتباط، كان عدد الجرحى الإسرائيليين نتيجة الصواريخ قد وصل إلى عشرات و لم تكن هناك سوى حالة وفاة واحدة[60].

تسببت كثافة النيران الإسرائيلية القوية، التي وصل عددها في إحصاء واحد إلى خمسة آلاف قذيفة مدفعية بين كانون الثاني وأيار 2006[61]، بإصابات أكبر بكثير. لقي أكثر من سبعين غزّاوياً حتفهم، قيل إن حوالى أربعين منهم محاربون، وستة وعشرون مدنياً، وستة عشر ضحية لبرنامج اغتيال إسرائيل المستمر[62].

مع قوة نارية بتلك الشدّة، كانت مسألة وقت فقط قبل أن يصبح الضغط لا يُحتمل. حدث ذلك في بداية حزيران 2006.

تخلت حماس رسمياً عن وقف إطلاق النار وسط غضب فلسطيني عارم، بعد موت سبعة أفراد من عائلة فلسطينية واحدة كانوا يتنزهون على أحد شواطئ شمالي غزة في 9 حزيران. قبل عامين، كان أربعة أفراد من العائلة نفسها قد لقوا حتفهم عندما أصابت قذيفة إسرائيلية مزرعتهم شمالي قطاع غزة. في كلتا الحادثتين، قدمت إسرائيل التفسير نفسه؛ كانت تحاول إيقاف إطلاق الصواريخ الفلسطينية على إسرائيل[63].

تم بث صور تفطر القلب إلى كل أنحاء العالم لهدى غالي المذهولة، ابنة العائلة البالغة من العمر عشرة أعوام التي كانت قد نجت من الموت، عندما كانت تبكي إلى جانب جثة والدها المتوفى على الشاطئ. كان بالقرب من الفتاة رفات مشوهة لزوجة أبيها، وخمسة من إخوتها وأخواتها.

أقر الجيش الإسرائيلي بأن دباباته كانت تقوم بمهمة في ذلك الوقت، وفي البداية اعتذر وعبّر عن أسفه لموتى الشاطئ. لكن بعد إجرائه تحقيقاً داخلياً، أنكر الجيش أن

يكـــون قد أطلق القذيفة القاتلة. متراجعاً عن موقفه، اعتبر جيش الدفاع الإسرائيلي نفسه في حلٍّ من المسؤولية، وادّعى أن سبب مجزرة الشاطئ كان على الأرجح عبوة زرعتها ميليشيات فلسطينية[64].

في اللـــيلة الـــتي سبقت مجزرة الشاطئ، كانت طائرة إسرائيلية قد هاجمت مخيم تـــدريب للمقاومـــة جنوبـــي غزة. كان بين الفلسطينيين الأربعة الذين لقوا حتفهم القيادي البارز جمال أبو سمهدانة، قائد مجموعة مسلحة مؤلفة من كل الفصائل تدعى لجـــان المقاومة الشعبية. ادّعت إسرائيل أن أبو سمهدانة لم يكن الهدف، لكن حكومة حماس كانت قد عيّنت للتو آنذاك الرجل ليرأس القوة التنفيذية، الجهاز الأمني البرلماني الذي كانت تعدّه لمواجهة قوات الرئيس عباس الأمنية.

بالنـــسبة إلى مـــسؤولين إسرائيليين، كان ذلك تعييناً استفزازياً لأن أبو سمهدانة كـــان مسؤولاً عن معظم عمليات إطلاق الصواريخ على إسرائيل. أنهت حماس وقفاً لإطلاق النار استمر ستة عشر شهراً بإطلاق خمسة عشر صاروخ قسّام من صنعها.

كـــان الوضـــع ســـيئاً، ويمكن رؤية كل ذلك ضمن الحدود المرنة جداً للفعل والغضب، رد الفعل والاستياء، في أزمة يبدو أنها لن تنتهي أبداً. لكن في 24 حزيران، قامـــت القـــوات الإسرائيلية بغارة عبر الحدود، أغضبت حماس. تسلل الإسرائيليون حـــوالى ثمانمـــئة ياردة في جنوبـــي غزة، كان هدفهم قرية أم الناصر، حيث اعتقلوا الشقيقين مصطفى وأسامة أبو معمّر، اللذين كما ادّعوا كانا يخططان للقيام بهجوم.

كـــان التسلل والاختطاف أول غارة من نوعها منذ الانسحاب الإسرائيلي من قطاع غزة. ثارت ثائرة حماس آنذاك.

22

"لم يعد هناك مشغولات ذهبية"

كـــان الجـــو في كرم سالم مثالياً لقضاء العطلات. كان النخيل وأشجار أخرى تلقي بظلالها على مجتمع مؤلف من ثلاثين راشداً وخمسة وعشرين طفلاً. معزولة تماماً في إحدى زوايا إسرائيل، حيث تلتقي حدودها مع مصر وغزة، كانت حقول بطاطا المزرعة التعاونية الجماعية تمتد نحو السياج الذي يفصل الفلسطينيين عن الإسرائيليين.

بالـــرغم من السياج ورمزية أبراج الحراسة المحلية، كان أعضاء المزرعة التعاونية يأملون بأن يأتي اليوم الذي يستطيعون فيه إدارة مشروع لتصدير الفاكهة – و – الخضار مـــع جيرانهم الفلسطينيين. كانت المفاوضات جارية، لكن بحلول أواخر حزيران من العام 2006، بدا كل شيء مستحيلاً. كان قد تم إغلاق المعبر الحدودي، الذي كانوا يأملون بأن ينقلوا من خلاله إنتاج الفلسطينيين إلى إسرائيل ثم إلى مطابخ أوروبا، عدة مـــرات في الأســـابيع الأخـــيرة، بعـــد تحذيرات من الاستخبارات من احتمال قيام الميليشيات بشن هجمات في السهول المعشوشبة في الجنوب.

كانت الرقابة الإسرائيلية على غزة مشدّدة للغاية حتى إن القوات الإسرائيلية كانت تستطيع وضع كرّاس لكل منـــزل تحدد من يوجد في داخله ومن يخرج منه لتناول العشاء في أي لـــيلة. لكـــن العـــيون الإلكترونية الشهيرة كانت قد فشلت في رؤية ما كان ربما لأسابيع، أو حتى شهور، نشاطاً غير اعتيادي حول بناء عادي قريب من المعبر.

كـــان مصدر التحذير من إمكانية وقوع هجوم هو جهاز المخابرات الإسرائيلية الداخلية، الشين بيت. بعد قيام شبكته من المتعاونين الفلسطينيين بتنبيهه أن "شيئاً ما" يجـــري على الأرض، قام الشين بيت بنشر المعلومات. ذكر وجود نفق، لكن الرسالة فقدت زخمها بشكل لا يمكن تفسيره في الوقت الذي تم فيه نقلها إلى بعض وحدات الجيش الإسرائيلي على خط المواجهة[1].

منذ ما قبل مقتل جمال أبو سمهدانة والموت الجماعي لعائلة غالي على شاطئ في غـــزة، كانت حماس تحفر نفقاً – نفقاً مهماً جداً – في جهد مشترك مع لجان المقاومة

الشعبية بقيادة أبو سمهدانة وميليشيات أخرى أصغر، كانت حماس قد أحضرت فريقاً من المتخصصين في حفر الأنفاق الذين كانوا عادة يفتحون ممرات لنقل مواد مهربة عسكرية وتجارية من مصر إلى غزة.

كانت مهمتهم تلك المرة الحفر عميقاً تحت الأرض الإسرائيلية. على عمق يصل إلى حوالى خمس وعشرين قدماً تحت الأرض، كان عليهم حفر 400 ياردة للوصول فقط إلى السياج الحدودي. ثم تابعوا العمل، وحفروا 300 ياردة أخرى وصولاً إلى مشارف مزرعة كرم سالم التعاونية.

كان ينبغي أن يكون النفق عريضاً بما يكفي لمرور رجال وأسلحة.

إلى جانب فشل إسرائيل في اكتشاف حركة الحفّارين في أثناء دخولهم إلى المبنى وخروجهم منه الذي كانت حماس قد استأجرته، كان هناك أيضاً تل صغير من التراب كان ينبغي نقله بعيداً عن الموقع. كانت أجهزة الرقابة الإسرائيلية الشهيرة قد فشلت في اكتشاف كل ذلك.

بعد يوم من اختطاف مغاوير إسرائيليين الشقيقين أبو معمّر في غزة، أعدّت حماس العدّة لغارتها الجريئة.

في الظلمة التي سبقت فجر 25 حزيران، تسلل ثمانية مقاتلين فلسطينيين عبر النفق. مرتدين بزّات عسكرية إسرائيلية، كانوا يتحركون ببطء وهم يحملون أسلحتهم معهم. بعد إزاحتهم آخر كتلة من التراب عند حوالى الساعة 5:30 صباحاً، استطاعوا الصعود إلى سطح الأرض داخل إسرائيل تحت غطاء من العتمة. كانوا بجانب مركز متقدم لقوات الدفاع الإسرائيلية.

كان أربعة جنود إسرائيليين في دبابة. كان سبعة آخرون متواجدين في برج مراقبة يرتفع خمساً وسبعين قدماً عن الأرض. وكانت ناقلة جند مدرّعة خالية من طاقمها مركونة جانباً عمداً كفخ في حالة وقوع مثل ذلك الهجوم.

بعد خروجهم من النفق خلف دبابة إسرائيلية، انقسم الفلسطينيون بصمت إلى ثلاثة فرق. ثم، فتحوا النار من بنادقهم، وحاول اثنان منهم إصابة برج المراقبة. هاجم اثنان آخران حاملة الجند المسلحة الفارغة، وانقض الأربعة الآخرون على الدبابة بقنابل يدوية، فيما فتحت وحدات من الميليشيا العاملة من غزة على الطرف الآخر للحدود النار بقذائف مضادة للدروع وأسلحة يدوية[2].

لقي جنديان إسرائيليان مصرعهما وجُرح ثالث عندما انفجرت القنابل اليدوية داخل الدبابة. أُسر عضو رابع من الطاقم، إنه الجندي جلعاد شاليط البالغ من العمر تسعة عشر عاماً[3]. لقي فلسطينيان حتفهما نتيجة نيران إسرائيلية. لكن الباقين سرعان ما بدأوا يوجهون شاليط نحو السياج الحدودي. في خلال الهجوم على الدبابة، أُصيب الجندي بجروح في كتفه ويده اليسرى، لكنه استطاع المشي إلى حيث استعمل الفلسطينيون متفجرات لإحداث فجوة في السياج. ثم اختفى كل هؤلاء في غزة[4]. كانوا قد بقوا في إسرائيل ست دقائق بالضبط.

بحسابات النزاع المعقّدة، كان شاليط صيداً ثميناً. بغض النظر عن جروحه وصدمة الهجوم وأسره، كان قد أصبح أول أسير حرب لدى الفلسطينيين منذ أكثر من عقد. كانت إسرائيل، في ذلك الوقت، تحتجز أكثر من تسعة آلاف فلسطيني في سجونها. كان شاليط ورقة مساومة رابحة، وكانت حماس مستعدة لمقايضته[5].

أُصيب الإسرائيليون بالرعب، واستشاطوا غضباً. حذّر مسؤولون بارزون من عواقب وخيمة إن لم يعد شاليط سالماً. في الوقت الذي ستنتهي فيه إسرائيل من عمليتها، سيكون قد تم القضاء على حكومة حماس الجديدة بالكامل، كما هدّدوا[6].

من وجهة النظر الفلسطينية، كان رد الفعل الإسرائيلي ذاك هستيرياً. إذا كان الإسرائيليون يعتقدون أنه يمكن تبرير القيام بحملة عسكرية ودبلوماسية رداً على أسر جندي إسرائيلي واحد، ماذا سيكون رد فعل الفلسطينيين على قيام إسرائيل بسجن الآلاف من أبناء جلدتهم؟

زاد غضب الإسرائيليين كثيراً من شعور الفلسطينيين بالرضا – وحماس خاصة – عن اختطاف شاليط.

بالرغم من أن حماس كانت قد امتنعت عن القيام بأي عملية طيلة ستة عشر شهراً مضت، إلا أن محللين إسرائيليين كانوا قد اتهموها باستغلال وقف إطلاق النار لتكديس المزيد من الصواريخ الأكثر تطوراً. ربما كانت تلك هي الحال فعلاً. لكن عندما عادت حماس إلى العمل، كان ذلك بعرض جريء لكل البراعة العسكرية التي كان كثيرون يعتقدون أنها خاصة بالقوات الإسرائيلية "التي لا تُقهر" حصراً[7]. كان الفلسطينيون يعرفون أنهم لا يستطيعون إصلاح الخلل في ميزان القوة العسكرية. لكن حماس اعتبرت تلك الغارة المذهلة على إسرائيل تثبيتاً لتوازن الرعب.

اختفى خالد مشعل عن الساحة بعد أسر شاليط مباشرة. قال مسؤولون إسرائيليون بارزون مراراً إنه العقل المدبر للعملية، مما أثار مزاعم داخل حماس أن إسرائيل تحاول اختلاق ذريعة لتقوم بمحاولة أخرى لاغتيال مشعل. أعلن ممثل الحركة في بيروت أسامة حمدان: "بالفعل، لقد تلقّينا تهديدات بتصفية الأخ خالد، ونحن نأخذ ذلك على محمل الجد"[8]. أعلن مشعل لاحقاً أنه فخور بأن يكون "شوكة في حلق العدو"[9].

عمل مسؤولو حماس في غزة، دمشق، وبيروت بجد لإقناع العالم أن قيادة الجناح العسكري السرّية في الحركة، كتائب القسام، كانت وحدها على علم مسبق بالمهمة. كان ذلك عصياً على التصديق. لم تكن العقول التي أشرفت على التخطيط والتنفيذ الدقيقين لاختطاف شاليط غافلة عن الحساسيات السياسية والدبلوماسية في ذلك الوقت. كانت حكومة حماس المنتخبة تكافح للبقاء ضد حملة تقودها الولايات المتحدة لحرمانها من الأوكسجين. في الوقت نفسه، كانت حماس تدخل في حوار صعب مع فتح عباس، وربما كان ذلك سيؤدي إلى قيام كل الفصائل الفلسطينية بتشكيل حكومة وحدة وطنية.

في ضبابية تلك الحروب، كان صعباً التأكد من هو الكاذب. هل كان الناطق باسم الإسلاميين، الذي أصرّ على أن أعضاء حكومة حماس المنتخبة لم يكن لديهم علم مسبق بالمهمة، نظراً لضرورة إبعاد هؤلاء المسؤولين عنها؟ أم كان المسؤولون الإسرائيليون الذين يخبرون مراسلين صحافيين عن دور مشعل المركزي في التخطيط، ببساطة لأن أي سبب لملاحقة مشعل كان جيداً؟ حذّر وزير العدل الإسرائيلي حاييم رامون: "يعدُّ خالد مشعل، باعتباره شخصاً يشرف، وفي الواقع يقود أفعالاً إرهابية، هدفاً بالتأكيد [للاغتيال]"[10].

كانت الحجة الإسرائيلية، التي ضخّمتها فتح، هي أن مشعل كان قد سيطر على الحكومة التي تتخذ من غزة مقراً لها لتنفيذ مآربه الشريرة. لكن تسلسل قيادة حماس كان أكثر تعقيداً من ذلك. كان مشعل بالتأكيد القائد الأعلى للحركة، لكن نظامها المتأصل في *الشورى*، أو التشاور حتى التوصل إلى اتفاق، كان يجعل من الصعب عليه السيطرة بمفرده على الحكومة الفلسطينية.

على الأرجح، بصفته الرجل الذي يعرف ما تفعله كل عناصر الحركة في أي وقت، كان مشعل يبعث برسائل متعددة. كانت إحداها عن شراء الوقت،

وكانت موجهة لفتح. من أجل إشعال الصراع مع إسرائيل مجدداً بطريقة مبتكرة، كانت حماس تدفع باتجاه وضع حدٍّ للنـــزاع بين الفصائل. في الوقت نفسه، كان مـــشعل يبيّن، للاستهلاك المحلي والأجنبـــي، ثوابت مفهومة جيداً ومقبولة ضمن حمـــاس - كانـــت تلك حركة يمكنها *القيام* بالعمل الحكومي *والقيام* بالمقاومة - الأكثر أهمية، يمكنها القيام بذلك بشكل أفضل من فتح، ويمكنها القيام بذلك *دون* فتح.

في الـــبداية، طلـــبت حمـــاس إطلاق سراح خمسمئة امرأة وقاصر فلسطيني من السجون الإسرائيلية مقابل الجندي شاليط. لكن الحركة أصرّت بعد ذلك على إطلاق ســـراح ألف سجين فلسطيني ثمناً لحرية الجندي الإسرائيلي الذي كان، كما أكدّت للعالم، لا يزال حياً.

بعـــد أربعـــة أيام، رفضت حماس خلالها الخضوع لتهديدات ومطالب، هدّدت إســـرائيل بالانـــتقام. في عملية أُطلق عليها اسم *أمطار الصيف*، أغارت إسرائيل على تجمّعات فلسطينية في الضفة الغربية، اعتقلت أربعة وستين مسؤولاً من حماس - منهم أربعـــة وزراء وعـــشرون عضواً في البرلمان المنتخب حديثاً - وبينما كانت الدبابات والقوات البرية الإسرائيلية تتجه نحو غزة، دمّرت ضربات جوية محطة كهرباء القطاع، وعـــدّة جسور، وعدداً من المباني الحكومية، بما فيها مكتب رئيس الوزراء من حماس إسماعيل هنية ووزارة الخارجية الفلسطينية.

في طعـــنة لـــسورية التي تستضيف خالد مشعل، اخترقت أربع طائرات مقاتلة إســـرائيلية الأجواء الجوية السورية، تفادت نيراناً أرضية بينما كانت تحلق فوق القصر الصيفي للرئيس بشار الأسد، على ساحل البحر المتوسط، قرب مدينة اللاذقية[11].

انقـــضى أسبوعان كاملان بعد أسر شاليط قبل أن يظهر مشعل مجدداً. كانت المناسبة مؤتمراً صحافياً في دمشق، حيث كثّف مساعدوه من إجراءاتهم الأمنية المشدّدة أصلاً حتى شعروا أن عليهم الاعتذار للحضور. استفاد مشعل من الفرصة التي قدّمتها قضية شاليط ليشن حملة دعائية متباهياً بنجاح حماس.

قـــال مشعل بتحدٍّ لمراسلين صحافيين: "لقد أُصيب العالم بالذعر والذهول لأن جندياً إسرائيلياً تعرض "للخطف" كما يقولون[12]. نقول إنه وقع في الأسر في عملية عـــسكرية بارعة. يتكلمون عن جندي [واحد] ولدينا 10,000 أسير لديهم. يدّعون

أن 200,000 إســـرائيلي حول قطاع غزة مهدَّدون بصواريخ بسيطة وبدائية يطلقها أبطال فلسطينيون. لدينا حوالى أربعة ملايين فلسطيني محتجزين، محاصرين ومهدَّدين، في سجن واحد كبير في قطاع غزة والضفة الغربية".

جـــادل مـــشعل بـــأن هدف *العملية البطولية* كان تبديد وهم رئيس الوزراء الإســـرائيلي الجديد بأن الفلسطينيين سيستسلمون. قال، موضحاً بجلاء أنه لن يكون هناك تراجع: "يقول شعبنا في غزة إنه في سبيل حماية كرامتنا، ومن أجل أبنائنا وبناتنا و10,000 في سجون العدو، لن نسلّم الجندي سوى مقابل أسرى فلسطينيين. يقولون إن مبادلة [السجين] ضرورة لا مفر منها".

مـــتحدّياً القيادة الإسرائيلية، حذّر مشعل أن الحملة الإسرائيلية *لكسر إرادتنا* لن تـــنجح. اتهمها: "أقول إنكم كاذبون"، مفنّداً المزاعم الإسرائيلية بأن إسرائيل ستعمل مع القيادة الفلسطينية *المعتدلة*. حثّ مشعل: "اختصروا الطريق"؛ ستنتهي الأزمة كلها إذا اعترفت إسرائيل بحقوق الفلسطينيين.

هكـــذا استمر الصيف، وأضحى جنون الشرق الأوسط شيئاً طبيعياً في المنطقة. كما لو أن الحكومة الإسرائيلية الجديدة التي تفتقر للخبرة لم يكن لديها ما يكفي من متاعب، اختارت إسرائيل غزو لبنان في 12 تموز 2006، بعد قيام حزب الله، حليف حماس، بغارة جريئة عبر الحدود على خاصرة إسرائيل الشمالية.

دفـــع أســـر حزب الله لجنديين إسرائيليين القيادة الإسرائيلية إلى مستويات من الغضب بدا أنها تغلّف اتخاذ القرار فيها. أطلقت إسرائيل آلتها العسكرية بكامل قوتها في هجمـــات من دون رحمة على جنوبـــي لبنان والبنى التحتية الرئيسية في كل أنحاء لبنان. لكن عندما توقف إطلاق النار، بقي شاليط أسيراً، وكذلك الإسرائيليان اللذان أسرهما حزب الله. وبقيت الصواريخ تنطلق من غزة.

مـــع إطـــلاق نـــار إسرائيلي متواصل تقريباً، كان مستحيلاً عملياً على القيادة الفلـــسطينية الـــتعامل مع التحدي السياسي الداخلي المباشر: شكل حكومة الوحدة الوطنـــية. كانت حماس وفتح قد اقتربتا أخيراً من التفاهم على أرضية مشتركة، لكن الدبلوماسية بين الحركتين تبخرت بمواجهة هجمات إسرائيل المتواصلة على غزة، التي تـــزامنت مـــع الحرب الكارثية على لبنان التي استمرت ثلاثة وثلاثين يوماً، وتركت بالمقابل رئيس الوزراء الإسرائيلي أولمرت يكافح لإنقاذ نفسه سياسياً.

لم ينجح رئيس السلطة الفلسطينية محمود عباس أيضاً في جهوده المستمرة لتكريس نفسه كقائد حقيقي لشعبه، وبقي مجرد قائد فصيل يحرّكه شعور متعجرف باللقب. في محاولة للضغط على حماس للعب وفقاً لقواعده، هدّد بإجراء استفتاء على خطة سلام وضع مسودهّا مجموعة من قادة فصائل مختلفة بينهم أسرى فلسطينيون محتجزون في السجون الإسرائيلية؛ ثم امتنع عن ذلك. حذّر بأنه سيدعو إلى إجراء انتخابات جديدة، لكن ذلك لم يُجدِ نفعاً. أثارت أوامره لحكومة حماس بتفكيك القوة التنفيذية رد فعل من الحركة قالت فيه إنها، في الواقع، تخطط لزيادة حجم القوة الجديدة. كان قد تم نشر أفرادها آنذاك في شوارع غزة.

في حالة حرب دائمة مع عباس وفتح، اتجهت حكومة حماس في البداية للعمل كمعارضة كما كانت قد توقعت. محاصرة من قبل العالم وليس لديها خبرة في إدارة العبء اليومي لحكومة مفلسة، كانت الحركة أيضاً رهينة عملياتها التي لا تنتهي من الاستشارات الداخلية، التي كانت تتطلب أن يكون أي تغيير سياسي تدريجياً أكثر مما تتطلبه إدارة الأزمة. بالرغم من كل قوّتها وبلاغتها الخطابية، كانت حماس تكافح للاستفادة من ضعف فتح.

خضوعاً لضغط أميركي، أغلقت فتح الطريق أمام إنجاز أي اتفاق لتقاسم السلطة مع حماس. في عدّة اجتماعات لمبعوثي رباعية الشرق الأوسط – لجنة تضم ممثلين عن الولايات المتحدة، الاتحاد الأوروبي، روسيا، والأمم المتحدة، وكان الهدف منها تنسيق الجهود الدبلوماسية لحل الأزمة – كانت رسالة واشنطن أنه ينبغي إبقاء حماس معزولة. يتذكر ألفارو دي سوتو، مبعوث الأمم المتحدة إلى الرباعية: "قيل لنا إن الولايات المتحدة ضد أي *إزالة* للخطوط التي تفصل حماس عن تلك القوى السياسية الفلسطينية الملتزمة بحل الدولتين"[13].

في غزة، تبنّى تكتيك العزل الأميركي بشكل كامل رجل فتح القوي محمد دحلان، الذي حذّر بأنه سيضرب ويُذل أي عضو من فتح يحاول مساعدة حماس بالانضمام إلى حكومة الوحدة. غافلاً أنه كان يتكلم ضمن مدى التقاط ميكرفون مفتوح في خلال زيارة إلى مركز إذاعة غزة في حزيران، قال دحلان إنه كان يدير حملة تحريض ومقاطعة في غزة. حذّر: "ستمضي المسيرة قدماً وإذا حاول إخواننا [في حماس] إيقافها، سنتعامل معهم بقسوة"[14]. متباهياً أنه كان قد تعلّم من ياسر عرفات

أن *العصا* هي أكثر وسائل الإقناع السياسي فاعلية، أوضح تماماً رأيه بحماس: "أخبرت [حماس] أنهم سيأكلون البراز إن قبلوا بإسرائيل، وسيأكلون البراز إذا لم يعترفوا بإسرائيل. سيأكلون البراز إذا اعترفوا بالمبادرة العربية [عرض سلام الحكومات العربية في قمة بيروت]، وسيأكلون البراز إن لم يفعلوا ذلك"[15].

تعهّد دحلان بملاحقة حماس حتى نهاية ولاية حكومتها بعد أربعة أعوام، وألمح إلى دوره في إثارة القلاقل في الشوارع. تباهى قائلاً: "يمكنني إرسال سيارتي جيب فقط وسيقول الناس إن غزة تشتعل بالنار".

لم تكن هناك حاجة فعلاً إلى وضع شاخصات على الطريق إلى غزة. لم يكن مسموحاً للمواطنين الإسرائيليين بالذهاب إلى هناك؛ لم يكن مسموحاً للغزّاويين معظم الوقت بالمغادرة؛ وكان الجيش الإسرائيلي يستعمل خرائط عالية الدقة لتلمّس طريقه في الظلام. لكن بالنسبة إلى عين ثاقبة، كانت هناك شاخصة طرقية قرب مدينة عسقلان الساحلية - أو المجدل، كما يسميها الفلسطينيون - تشير إلى أن غزة على بعد خمسة عشر ميلاً إلى الجنوب.

كانت العقوبات قد أدّت إلى توقّف الحركة الدبلوماسية إلى غزة، وبمواجهة العنف المتزايد ومخاوف الاختطاف، كان الصحافيون الأجانب وعمّال الإغاثة يترددون كثيراً في القيام بالرحلة إلى هناك. بالنسبة إلى أولئك الذين كانوا يفعلون ذلك، كانت الرحلة بسيارة أجرة من وسط القدس تنتهي في أرض قاحلة تعصف بها الرياح، حيث كانوا يترجلون في الساحة الأمامية لمعبر إيريز الذي بلغت تكلفة بنائه 35 مليون دولار.

على الجانب الإسرائيلي، كان إيريز يبدو مثل مبنى مطار معاصر: زجاج نظيف وألمنيوم لامع. كان ضباط جوازات إسرائيليون يافعون - أحياناً إثيوبي داكن البشرة أو ربما مهاجر روسي أشقر - يديرون بحذر المواقع المحصّنة التي تبدو مثل منشأة عبور تقليدية.

لكن هؤلاء الضباط كانوا آخر نقطة اتصال بشري على الجانب الإسرائيلي. بكبسة زر، كان ضابط أمن يشغّل باباً ينفتح إلى عالم من الخيال العلمي الذي يفتقر للحيوية. كانت هناك أبواب متآكلة من الفولاذ ومبنى من الأسمنت الأسود. خاضعين لرقابة شبكة من آلات التصوير غير المرئية ومزوّدين بتعليمات من صوت مجهول ومشوّش يخرج من مكبّرات صوت صغيرة، كان يتم توجيه المسافرين عبر أكشاك

صغيرة وأبواب دوّارة، ليمرّوا عبر آلات كشف المعادن. كان المكان يوحي بأنه مسلخ فريد من نوعه.

عند فتح آخر باب فولاذي، كان المسافرون يدخلون غزة تقريباً. هناك، ربما كانوا يشاهدون مصادفة مسافراً نحو الشمال، ينتظر دخول إسرائيل عبر ممر مجاور موازٍ أكثر تعقيداً.

عند الخروج من الباب الفولاذي، كان المسافرون يجدون أنفسهم عند مدخل ممر مغطّى، طوله ربما ثلاثمئة ياردة، يلتوي بين أكوام من الرمال ومصارف مياه، ويصل أخيراً إلى مكان مكشوف فيه عدد من المباني المدمّرة والأشجار المقتلعة. عادة، يكون هناك مسؤول فلسطيني ينتظر لتفقّد وثائق المسافرين. كان سائقو سيارات الأجرة الذين يأملون الظفر بمسافر يبتعدون إلى الخلف نتيجة أعيرة تحذيرية من الجانب الإسرائيلي إذا تجرأوا على الاقتراب بسياراتهم كثيراً من مخرج الممر.

إذا كانت الرحلة من إسرائيل إلى غزة قاسية، فإن الرحلة بالاتجاه الآخر أكثر صعوبة بكثير. كان كل من يحاول دخول إسرائيل يمر أولاً عبر جهاز تفتيش إلكتروني، الذي يقدّم صورة مجسّمة يقال إنها حسّاسة جداً لدرجة أنه يمكن اكتشاف ورقة في جيب مسافر. وبالرغم من ذلك، كان يُطلب من البعض التعري لإجراء فحص آخر من عيون غير مرئية. عدّ أحد الصحافيين بعناية حوالى دزّينتي بوابات، وأجهزة مسح ضوئي، وأبواب، وأبواب دوّارة عندما كان يغادر غزة[16].

كان معبر إيريز الجديد رمزاً آخر على فشل عملية السلام. كان قد تم بناؤه مع تنفيذ خطة فك الارتباط، بناءً على توقعات بأنه سيشهد عبور آلاف المسافرين يومياً. بدلاً من ذلك، لم يكن يتم السماح سوى لعشرات فقط، أو حتى مئات، بالعبور. غالباً ما كان يتم إغلاق المعبر لأسباب أمنية. كانت المنطقة إلى الجنوب أراضي تنطلق منها الصواريخ الفلسطينية، وتعرّض المعبر لهجمات مباشرة مرات كثيرة. كانت إسرائيل قد سجلت تسع هجمات رئيسية خلال تلك الأعوام، بما في ذلك عملية استشهادية قامت بها امرأة لقي فيها أربعة جنود إسرائيليين حتفهم في العام 2004.

بعد خمس عشرة دقيقة إلى الجنوب من المعبر، كان الطريق الرئيسي يصل إلى متاهة مدينة غزة المليئة بالغبار، وكان شاطئ البحر الأبيض المتوسط يشكل متنفّساً نادراً لكن محدوداً من الحصار والحرب.

في نهايـــة آب 2006، مـــع قرب انتهاء يوم حار ورطب، كانت هناك مظلات ملـــونة، رايات ترفرف في الهواء، وصافرة حادة لمنقذ تأتي من شاطئ المدينة الرئيسي. كانت عطلة المدارس على وشك أن تنتهي، وفتية صغار يصرخون فرحاً وهم يبتعدون عن أماكن تواجد عائلاتهم نحو أمواج البحر.

بعـــيداً عـــن الألعاب على الرمال، كان شابان يقفان بمعزل عن الآخرين. كان أحـــدهما، عـــاري الصدر وقد لفحته الشمس، يمسك بلجام حصان متوثب. وكان الآخـــر يرتـــشف عصير الليمون، ويدخن نرجيلة، تغلّفه بسحب من دخان معسّل الـــتفاح. في ضوء الغروب الخافت، كانت قوارب الصيد ومركبات النـــزهة تحاذي المكـــسر (جـــدار الحماية من الأمواج) وقد تحولت إلى ظلال أمام الشمس. حاولت جماعـــة ســـحب حمار مشاكس إلى الماء فيما كان الأولاد يتسابقون للقاء الصيادين القادمين.

كانت تبدو مثل بطاقة بريدية، لكن تلك كانت مدينة غزة بعد سبعة شهور من قـــيام شعبها بانتخاب الحكومة الخطأ، في عيون العالم. كانت قد انقضت ستة شهور علـــى عقـــابهم الجماعي لرفضهم الانقلاب على حماس، كما كانت إسرائيل، وفتح، والـــرباعية بقـــيادة الولايات المتحدة قد توقعت. كان قد مرّ شهران أيضاً منذ وقوع الانفجار الذي قتل الكثير من أفراد عائلة غالي على شاطئ آخر أبعد شمالاً وأقرب إلى القصف الإسرائيلي من الحدود. كانت حشود صغيرة توجد عادة على طول شواطئ غـــزة. لكـــن مصير عائلة غالي كان قد أرغم معظم مرتادي الساحل على العودة إلى شـــاطئ المديـــنة، حـــيث كانوا يشعرون بأمان نسبـــي، نظراً لابتعادهم عن مدى الأسلحة.

لكـــن لم يكـــن هناك مفر. استدارت الرؤوس على الشاطئ على حين كانت مدمّرة للبحرية الإسرائيلية تظهر أمامهم، وكان صوت محركاتها يبدو واضحاً فوق الماء في أثـــناء إبحارها جنوباً. أشارت سلسلة من أصوات ثقيلة مكتومة إلى قذائف مدفعية تنفجـــر في الشمال. وفوق الرؤوس، كان هناك صوت مزدوج: أزيز طائرة استطلاع من غير طيار، وعلى ارتفاع أعلى، هدير طائرة مقاتلة[17].

الـــصيادون حتى لم يكونوا بمنأى عن صعوبات العيش في غزة. محتجزين داخل المـــياه الـــضحلة العقـــيمة، كانـــوا مرغمين على البقاء داخل طوق حصار البحرية

الإســـرائيلية. كانت القوارب التي تجازف بالخروج إلى عرض البحر تتعرض لإطلاق نار. عندما عاد ستة صيادين بعد ظهر أحد الأيام، كانت حصيلة صيدهم ضئيلة للغاية حـــتى إن أحـــدهم اســـتطاع نقل حصته وحصة اثنين آخرين إلى السوق على متن دراجته الهوائية. بعد خمس ساعات من نشر الشباك في المياه الضحلة، لم يحصل رجل آخـــر إلاّ علـــى كمـــية صغيرة من السردين، باعها على رصيف الميناء مقابل ثلاثين شـــيكلاً (حوالى 8 دولارات). كانت القصة تتكرر باستمرار في أنحاء غزة كلها، مع انتشار الحرمان الاقتصادي بعمق مساوياً بين الجميع.

كـــان الغـــزّاويون من عمر معين يتذكرون أوقاتاً في الخمسينيات والستينيات كانـــت فيها النساء يرتدين البكيني على شاطئ المدينة. آنذاك، مع شيوع تأثير النظام الإسلامي، لم يعد ممكناً رؤية حتى بذلة سباحة عادية.

كانـــت بعـــض النساء يضعن كراسيهن البلاستيكية قرب حافة المياه، يكشفن عن أصابع أقدامهن. في درجة حرارة تصل إلى 104 فهرنهايت نهاراً، كان هناك صخب كبير عـــندما تجـــرأت قلة منهن على الخوض في الماء، وكن يرتدين ملابس سوداء تغطيهن من رؤوســـهن حـــتى أخمـــص أقدامهن تنتفخ من كل الجهات نتيجة أمواج البحر. كشفت الـــبعض منهن أيضاً عن أيديهن وبانت آثار خواتم زواجهن على جلودهن الشاحبة والتي كن قد بعنها خلال زيارات خاطفة لسوق الذهب، إما لإطعام عائلاتهن أو لشراء ملابس وكتب لأولادهن الذين كانوا على وشك بدء عامهم الدراسي الجديد.

قـــائمين على تجارتهم عند الجدران الحجرية للمسجد العمري الكبير الذي يعود تـــاريخ بـــنائه إلى القـــرن السابع، كان تجار الذهب في غزة قد أصبحوا عاطلين من العمـــل. قـــبل خمسة شهور، عندما بدأت العائلات تشعر أول مرة بضغط الضائقة الماديـــة، كـــان بعض التجار العشرين يشترون ما يصل إلى أربعة وعشرين رطلاً من الذهب في اليوم الواحد.

تقليدياً، كانت النساء العربيات يشترين مشغولات ذهبية على قدر استطاعتهن، ويحـــتفظن بها لبيعها في أوقات الشدّة. كان الصيف فصل حفلات الزفاف، وكانت هـــناك إثـــارة كبيرة عندما تشتري العروس الشابة قطعها الذهبية الأولى. لكن عندما كانـــت النـــساء تأتي إلى السوق لبيع خواتم زواجهن، كان التجار يعرفون أن عائلة أخـــرى قـــد وصلت إلى نهاية الطريق. شرح التاجر حمدي باسل: "كنت أعرف من

خلال التعبير على وجوههن أن هناك شجاراً في المنـــزل بشأن متى ينبغي بيع الذهب، وكـــم سيخـــسرون وكـــيف سينفقون مباشرة المال الذي أدفعه لهن. لم تعد هناك مشغولات ذهبية في غزة... فقط عدد من خواتم الزواج"[18].

بالنـــسبة إلى الـــبعض في غـــزة، حل الاختناق التجاري بلمح البصر. في بيت حانـــون، علـــى بعد بضعة أميال إلى الشمال من المدينة، كان محمد حسين البالغ من العمر خمسة وستين عاماً يجلس وسط كومة رثّة من الأنقاض. كان قد أمضى حوالى ثلاثين عاماً بعيداً من المقاومة، كما قال. لكنه أصبح آنذاك ملتزماً بحماس.

كانـــت الـــنار التي تشتعل في داخله ناجمة عن ضربة جوية إسرائيلية كانت قد دمّرت منـــزلاً مؤلفاً من أربعة طوابق كان يعيش فيه أولاده وعائلاتهم، والذي كان يدير منه واحداً من أكبر المتاجر في الحي.

"عملت اثنين وعشرين عاماً في المملكة العربية السعودية حتى أجني المال لبنائه. اتـــصل الإسرائيليون الساعة الواحدة صباحاً بهاتف ابني حسين، وقالوا إنه يجب على الجمـــيع الخروج من المبنى في غضون خمس عشرة دقيقة. قالوا له: "يجب أن تغادروا فـــوراً"". كـــان الابـــن قد طلب إثباتاً على أن المكالمة حقيقية. قال الرجل العجوز: "أخبره الصوت أن يخرج من المنـــزل، ينظر إلى الأعلى وسيرى أف - 16 تحوم فوق المكان". بالرغم من أن صاروخين أصابا المنـــزل بعد عدّة دقائق، إلا أن معظمه بقي صامداً. اندفع الجيران لمساعدة العائلة على نقل ممتلكاتها من البناء. قال حسين: "لكن الإســـرائيليين اتصلوا مجدداً. قالوا إنه علينا إبعاد الناس، لأن هناك ضربة أخرى. بعد ست دقائق، سوّى صاروخان آخران البناء بالأرض"[19].

على رابية تطل على مياه البحر المتوسط الزرقاء، شمالي مدينة غزة، كان مسكن فخم آخر لا يزال قائماً.

كان ذلك هو منـــزل الدكتور نبيل شعث، وزير الخارجية في الحكومة السابقة التي كانت تقودها فتح. هناك، كان الفلسطينيون العاديون يرون في حوض السباحة، والحدائـــق الغـــنّاء، وخدم المنـــزل الآسيويين إثباتاً على الفساد المستشري الذي دفع الناخبين للانقلاب على فتح.

كان حارس شخصي يتقلّد مسدساً يجول في المكان في أثناء استعراض شعث لبعض خـــيارات حـــركته التي تكافح لاستعادة موطئ قدم سياسي. شرع بالقول، في ما بدا أنه

إعلان توبة: "لقد ارتكبنا الكثير من الأخطاء". أقرّ شعث أن الخسارة في انتخابات كانون الـــثاني كانت قد أغضبت آنذاك الكثيرين في فتح. قال: "لهذا رفضنا أن نكون جزءاً من حكومة حماس. لكنهم يحتاجون إلى شركاء. ربما يمكننا مساعدتهم الآن".

بصفته وزيراً سابقاً، أنكر شعث مزاعم بأن فتح كانت قوة محركة خلف الضغط الأميركي - الإسرائيلي لقهر حماس. قال بإصرار: "هذا ليس صحيحاً".

لاحـــظ: "حمـــاس لا تعاني شيئاً أبداً، إنها تحصل على تمويل من إيران والوطن العربـــي، وتتأكد أن أنصارها لا يعانون أيضاً". متذمراً من أن العقوبات الدولية وقيام إســـرائيل باعتقال قادة حماس قد منحا الإسلاميين عذراً مقبولاً لفشلهم في الحكومة، أضـــاف: "أملـــت الولايات المتحدة علينا إجراء انتخابات، لكنها لا تستطيع تحديد النتيجة. تلك ليست ديمقراطية".

لكن آنذاك، كانت معظم المتاجر تبقى مغلقة طيلة اليوم. كانت القمامة تتكدّس في الـــشوارع، وحـــركة الـــسير تنخفض بثبات لأن القليل من الفلسطينيين كانوا يـــستطيعون شراء الوقود لسياراتهم. شغّل البعض مركباتهم على زيت الطهو. بحلول أواخـــر العام 2006، بكى رجال ونساء كانوا يقفون في صف أمام كوّة صراف آلي، ينتظرون سحب آخر أموالهم من حساباتهم المصرفية. لم يكن معظم موظفي الحكومة البالغ عددهم 160,000 شخص قد تلقوا سوى راتبين منذ الانتخابات في بداية العام. كان اقتصاد غزة مدمراً.

مـــنذ قطع الغرب التمويل، كانت حوالى 170,000 عائلة من دون دخل، و لم يكـــن هـــناك سوى القليل لدعم الاقتصاد المحلي. كان حوالى 90 بالمئة من أهل غزة يعيـــشون تحت خط الفقر؛ وقيل إن 85 بالمئة كانوا عاطلين من العمل، وإن أكثر من ملـــيون شخص أصبحوا يعتمدون على وكالات الأمم المتحدة في الحصول على مواد غذائـــية لأســـرهم من زيت، وطحين، وحبوب، وأرز، وسكر، وحليب. كان أحد المؤشـــرات علـــى الطبيعة القاسية للنـــزاع استمرار عمل وكالة الأمم المتحدة لغوث وتشغيل اللاجئين (الأونروا) ستة وخمسين عاماً من العناية بالفلسطينيين الذين أصبحوا لاجئين أول مرة عند إنشاء دولة إسرائيل في العام 1984.

انطلـــق موظفـــو الحكومة الذين لم يتلقوا رواتبهم طيلة شهور لتنظيم احتجاجات غاضبة، أغلقوا أقساماً كاملة من مدينة غزة برمي الحجارة وإطلاق الأعيرة النارية. كانت

الــضربات الجوية الإسرائيلية على محطة توليد الكهرباء الرئيسية في غزة قد عطّلت العمل فــيها إلى عدّة ساعات فقط كل يوم. اشتكت سيدات المنازل أنه لم يعد بمقدورهن طهو كميات كبيرة من الطعام لأنهن لا يستطعن الاعتماد على الثلاجات. كان انقطاع الكهرباء يعني أيضاً توقّف مضخات الماء الأهلية، الذي يعني انقطاع الماء أيضاً. لكن ما دامت بقيت حكومة حماس وبقي جلعاد شاليط أسيراً، لم تكن إسرائيل لتخفف من الضغط.

بينما كان الصيف ينقضي ويحل الخريف في العام 2006، كانت المنافسة المريرة بــين الإســلاميين والعلمانيين تطوِّر ديناميكية تعكس كل المشكلات المستعصية في الــصراع الفلسطيني – الإسرائيلي. في الانتفاضة الأولى، التي كانت قد اندلعت قبل حــوالى عشرين عاماً، اتفقت حماس وفتح على تنحية المدارس عن الصراع. آنذاك، كــان مقاتلو الحركتين يخوضون معارك شرسة في أروقة مستشفيات غزة. بعد عقود مــن تغذيــة شــعلة الوحدة الوطنية الفلسطينية تحت وطأة احتلال أجنبــي، كان الفلسطينيون يخوضون آنذاك حربهم الأهلية الخاصة بهم.

كــان مــسلحون من كلا الجانبين، يرتدون عادة زي أفراد الأجهزة الأمنية، يتــبادلون إطــلاق النار عند زوايا الشوارع أو يقومون بهجمات متبادلة على مباني ومؤسسات مرتبطة *بالعدو*. كان العدو قد أصبح فتح أو حماس أكثر من الإسرائيليين. لقــي شخــصان حتفهما عندما شنت حماس هجوماً بصاروخ على مقر جهاز الأمن الوقائي المرتبط بعباس في رفح. ثأر أنصار فتح في رام الله، وأحرقوا مبنى تابعاً لرئاسة الوزراء كانوا يعتبرون أنه قاعدة لحماس، ثم حاولوا إعاقة وصول رجال الإطفاء الذين ســارعوا إلى المكان. فقد الدكتور شعث سيارته الخضراء اللامعة من طراز بــي – أم – دبيليو عندما سرقها لصوص في وضح النهار. وفي أثناء محاولته التوجه إلى البرلمان في مدينة غزة، اعترض محتجون موكب رئيس وزراء حماس إسماعيل هنية.

عــندما كــان العنف يتصاعد، ارتفع عدد القتلى أو الجرحى ومقام المستهدفين على كلا الجانبين. تم سحب قائد بارز في جهاز الأمن الوقائي في جباليا من منــزله وإعدامــه. توفي آخر عند إلقاء قنبلة يدوية على المصعد الذي يقلّه إلى مكتبه في مقر الاســتخبارات العسكرية. فتح مسلحون النار على وصفي قبها وزير شؤون الأسرى في حكــومة حماس، عندما كان يقود سيارته عبر رام الله. تم اختطاف ضابط أمن في غزة؛ وقتل ثلاثة أولاد لأحد زملائه من فتح.

بحلـــول نهايـــة العام، كانت الحركتان تخوضان حرباً شبه دائمة ضد بعضهما. كان العـــشرات يتعرضون لإصابات في اشتباكات يومية على حين حلّقت أسعار الأسلحة في السوق السوداء عالياً. بيعت أم – 16 كانت تساوي 5,400 دولار في العام 2005 بأكثر من 13,000 دولار في العام 2006. كانت الرصاصات تُباع بدولار للواحدة[20].

حـــدث شـــجار عـــند معبر رفح على الحدود بين غزة ومصر عندما وحّدت الأجهزة الأمنية الإسرائيلية وتلك التابعة لفتح جهودهما لمنع عودة رئيس الوزراء هنية مـــن رحلة إلى ما وراء البحار، وكان معه أكثر من 35 مليون دولار مخبأة بين أمتعته. عـــندما اندفـــع مسلحو حماس إلى رفح للدفاع عن هنية، تم إحداث فجوة في جدار الحـــدود وجُـــرح ثمانـــية عـــشر شخصاً في تبادل لإطلاق نار عطّل العمل في المعبر الحدودي. تضمنت قائمة الجرحى أحد أبناء هنية ومستشاراً لرئيس الوزراء.

عـــندما كـــان العام الأول لتولّي حماس الحكم يقترب من نهايته، بدا أن خالد مشعل لم يعد يشعر بضرورة التقيد بآداب اللياقة في مخاطبة الرئيس عباس. قال مشعل بحدّة لمراسل إيطالي كان قد ذكر أن روما تدعم عباس: "ألم تفهموا بعد حقيقة أنه لا يمثل شيئاً؟ لا شيء عندما كان نائب عرفات، ولا شيء عندما كان رئيساً للوزراء في العام 2003"[21].

مـــع ذلك النوع من التعامل على مستوى القيادة وفي الشوارع، أخذ أهل غزة يلازمـــون مـــنازلهم، يأمـــرون أولادهم بالجلوس في الحمامات أو اللعب في ردهات السلالم الأسمنتية، على أمل أن يتفادوا الأعيرة النارية.



23

المظاهر خادعة

عـــندما وصـــل عميل الاستخبارات السرية البريطانية الخبير ألاستر كروك إلى بيروت في أواخر 2004، كانت العاصمة اللبنانية تشهد نشاطاً ملحوظاً. كانت مبانٍ مـــن طـــراز معماري معاصر تبرز جنباً إلى جنب مع أبنية من ماضيها العثماني وفترة الانتداب الفرنسي، التي كان العديد منها لا يزال يحمل آثار الحرب الأهلية التي بقيت مـــشتعلة حـــتى العام 1990. لكن آنذاك كانت بيوت المصممين تتنافس مع سلاسل الفـــنادق الدولية على مساحات في وسط المدينة. كان الكورنيش مجدداً المكان الذي ينبغي رؤيته بعد الظهيرة، على حين كانت مقاهي ومشارب الأشرفية تضيء بالأنوار في الليل. كانت سمعة بيروت باعتبارها ملتقى للمفكرين في العالم العربـــي لا خلاف علـــيها، حـــتى مـــع ارتفاع مد الشعور الإسلامي والهيمنة الواضحة لحزب الله على الشؤون اللبنانية.

كـــان المكان يبدو مناسباً تماماً لكروك البالغ من العمر ثمانية وخمسين عاماً. كانـــت بيروت تداوي جراح الحرب القديمة لكنها تتطلع قدماً إلى الأمام، وكان كـــروك بحاجـــة إلى بداية جديدة لما تبقّى من حياته. كان الإنهاء المفاجئ لمسيرة كـــروك المهنية في الاستخبارات البريطانية والدبلوماسية الأوروبية قد تركه يشعر بأن المستقبل قد تبخّر[1].

كـــان قد أمضى ثلاثين عاماً مع جهاز الاستخبارات السرية البريطانية، المعروفة علـــى نطاق واسع باسم أم – 16. كان يمتلك أعواماً من الخبرة في أيرلندا الشمالية، وجنوب أفريقيا، وناميبيا، وأفغانستان، وكمبوديا، وكولومبيا. كان مفاوض مختطفي رهـــائن؛ وســـيطاً في اتفاقيات وقف إطلاق النار، وآخر منصب تولاه هو مستشار خاص للاتحاد الأوروبـــي في الشرق الأوسط. كانت أيرلندا الشمالية قد شكّلت آراء كـــروك عـــن العلاقة بين الأمن والسياسة، وكانت أفغانستان قد زوّدته بمعرفة عن الاختلافات المهمة بين المجموعات الإسلامية.

لدى وصوله إلى القدس في العام 1997، كان ينظر إلى حماس ليس بوصفها منظمة إرهابية وإنما ما كان يدعوه "تنظيماً سياسياً متمرداً". في غزة والضفة الغربية، غالباً ما كان كروك يذهب في سيارة أجرة محلية، وحيداً أعزل، للاجتماع بالشيخ ياسين وقادة بارزين في حماس وميليشيات فلسطينية أخرى. حاول إطلاعها على فن السياسية كتكتيك ربما يحل يوماً ما محل المقاومة المسلحة. كان يريد تجاوز النقاش المبسّط عن الخير والشر، والالتفاف على العزلة والسلبية، والعمل مع الإسلام نيابة عن أوروبا. تم عزله عندما انهار وقف إطلاق نار فلسطيني، كان قد شجّع عليه، في العام 2003. شرح: "قيل لي إن الحديث مع مجموعات مثل حماس ليس الطريق لخوض حزب على الإرهاب"[(2)].

لكن كروك لم يكن رجلاً يستسلم بسهولة. بعد خروجه من السلك الدبلوماسي، قام بإنشاء قناة موازية، وأسس *منتدى النزاعات* المستقل في لبنان. كانت لديه علاقات من بيروت إلى باكستان، وأراد تحدّي ما اعتبره أفكار الغرب غير الصحيحة وسوء تعامله مع الحركات الإسلامية. كان لا يزال يأمل بجسر الفجوة بين الإسلام والغرب.

أنشأ كروك مشروعه الجديد في الخط الأخضر في لبنان - المنطقة المهملة التي كانت تفصل بيروت الغربية المسلمة عن الشرقية التي يقطنها النصارى في خلال خمسة عشر عاماً قاسية من الحرب الأهلية. عثر على مبنى قديم يقع بالقرب من أنقاض موقع قنّاصين مهجور على حدود الشرقية - الغربية التاريخية. بدا موقعاً ملائماً لما كان يجول في ذهنه.

كان غزو إسرائيل للبنان في صيف العام 2006، وعودة ظهور الحساسيات التي كانت قد أثارت النزاع اللبناني القديم، قد أرخى بظلال كثيفة من الشك على استعادة بيروت لعافيتها التي كلفت ملايين الدولارات. لكن ذلك وضع كروك و*منتدى النزاعات* الذي أسّسه في قلب مكاشفة إقليمية، بطريقة لم يكن يتخيلها قبل عامين فقط.

كان كروك يتباهى بأنه ليس على علاقة رسمية مع واشنطن، وكان متردداً حتى في الإقرار أن ثلاثين عاماً من العمل كعميل بريطاني ربما كانت قد ملأت دفتر عناوينه بأسماء وأرقام مفيدة. لكن في 7 كانون الثاني 2007، نشر كروك تقريراً على الموقع

الإلكتروني لمنتدى النـــزاعات يوحي بأن لديه عيوناً وآذاناً في أبرز مستويات الأذرع الثلاث للسياسة الخارجية الأميركية - البيت الأبيض، البنتاغون، ووزارة الخارجية - كان التقرير، المكتوب بالاشتراك مع زميل، محبوكاً بعناية بالغة. كان كروك قد علم بلقاء غريب حدث قبل عام، كان أحد طرفيه وفد تجاري فلسطيني ذهب إلى واشنطن بعـــد وقـــت قصير من الانتخابات الفلسطينية في كانون الثاني 2006. وكان نائب مستشار الأمن القومي إيليوت أبرامز قد استقبل الوفد في البيت الأبيض.

كـــان أبرامـــز لسان حال سياسة الرئيس في الشرق الأوسط. كان قد لُقّب *بقيصر الدبلوماســـية* عند تعيينه في العام 2005[3]، لكن خلفيته كانت توحي بأنه من الناس الذين يعتقدون بمبدأ أن *الغاية تبرر الوسيلة*. قيل عنه سابقاً إنه *شرير ريغاني*، وكان أبرامز يُعدّ في بعـــض الدوائر مدافعاً عن الطغاة المتوحشين في السلفادور وغواتيمالا في الثمانينيات. كان قد أقر بتهمة الكذب على الكونغرس في ما يخص فضيحة إيران - كونترا.

أصـــيب رجال الأعمال الفلسطينيون الزائرون بالدهشة عندما شدّد أبرامز على حاجـــة الولايات المتحدة إلى تقديم السلاح، والذخيرة، والتدريب لتمكين قوات فتح بقـــيادة محمـــود عـــباس من انتزاع السيطرة على الأراضي المحتلة من حكومة حماس المنتخـــبة. كانت هناك سابقاً إشارات عن حملة تقوم بها واشنطن وإسرائيل من أجل *زعـــزعة اســـتقرار* حمـــاس، لكن كان مفهوماً أنها تعني استنـــزاف أموال الحكومة الجديدة؛ ليس ثورة مسلحة[4].

أشار تقرير كروك على الموقع الإلكتروني لمنتدى النـــزاعات إلى أن استراتيجية أبرامز كانت موضع تنفيذ آنذاك. عنف الشوارع المتصاعد في غزة - الذي كان يعد تعـــبيراً عـــن إحباط فتح لفقدانها السلطة - كان في الواقع استفزازاً متعمداً ومنظماً. عـــلاوة علـــى ذلـــك، كانت هناك *بذور* زرعتها خطة إيليوت أبرامز لحرب أهلية فلسطينية، كما أشار كروك.

قـــيام ألاســـتر كـــروك بنَسب كلمة *انقلاب* إلى أبرامز في تقريره على موقع الإنتـــرنيت في 7 كانون الثاني كان أول مرة يتم فيها استعمالها جدّياً لوصف هدف سياسة واشنطن في الأراضي المحتلة. سابقاً، كان يتم استعمالها ككلمة مجازية.

نقـــل كـــروك عـــن مسؤولين في الإدارة رفضوا ذكر أسمائهم قولهم إن الخطة جعلـــتهم يقلقـــون كـــثيراً. حلّلها في سياق بواعث القلق الإقليمية. ونشر وثيقة عن

اعتـــراض وزيـــر الدفاع آنذاك رونالد رامسفيلد عليها، وتردُّد وكالة الاستخبارات الأميركية حتى في الإشراف على تنفيذها.

الـــرئيس بـــوش، وفقـــاً لمـــصادر كروك، كان قد حذّر رامسفيلد أن القضية الفلسطينية ليست ضمن صلاحيات وزارة الدفاع، وتبقى مسؤولية كونداليزا رايس، كجزء من برنامج وزارة الخارجية لنشر الديمقراطية في الشرق الأوسط.

كان تقرير كروك مذهلاً. وكان يشكل دعماً قوياً لنظريات إقليمية كانت تعد، حتى ذلك الوقت، معادية للولايات المتحدة في الدوائر الدبلوماسية ووسائل الإعلام المتشككة مما يجري. لكن حصل تطور آخر عزّز من حجة أولئك الباحثين عن إثبات على أن الولايات المتحدة كانت فعلاً تساعد على وقوع عصيان مسلح ضد الحكومة المنتخبة في الأراضي المحتلة. قبل ثمانٍ وأربعين ساعة من نشر كروك لتقريـــره الاســـتثنائي على الموقع الإلكتروني لمنتدى النـــزاعات، تبيّن أن الإدارة الأميركـــية كانت تسعى للحصول على موافقة الكونغرس لصرف مساعدة أمنية تبلغ قيمتها 86.4 ملايين دولار دعماً لجهود قائد فتح ورئيس السلطة الفلسطينية محمود عباس[5]. مقارنة بمساعدات واشنطن السابقة للفلسطينيين، كان ذلك مبلغاً كبيراً من المال.

انقـــضى أســـبوعان بين ظهور تقرير كروك أول مرة ومقابلة أجراها على قناة الجزيـــرة، أقـــرّ فيها للمرة الأولى أنه كان قد اعتمد على وثيقة تم تسريبها. كشف لاحقـــاً: "في الواقـــع، كانـــت سلسلة من الوثائق"[6]. وصف كروك مجموعتين من الأوراق كـــان قـــد تسلّمهما، وشرح أن إحداهما كانت تحتوي على الصفقات التي أقرّتها الولايات المتحدة لدعم أجهزة عباس الأمنية بينما توضح الأخرى الأرضية التي سيستند إليها عباس ليقيل ببساطة حكومة حماس لاحقاً في ذلك العام. "لم يكن ذلك مجرد توقُّع من جانبـــي، كما تعلم".

في بعـــض الدوائر، أثار تقرير كروك سلسلة من ردود الأفعال والتعليقات من مسؤولين أميركيين. ماذا كان الهدف الحقيقي من قيام مسؤولين أميركيين وأوروبيين بتفقّد قاعدة في الأردن كان أنصار فتح يتدربون فيها قبل شهر؟[7] هل كان استعمال تعـــبير معـــتاد في الأزمة - تفكيك بنية الإرهاب - في وثائق المنحة الأمنية التي تبلغ قيمتها 86.4 مليون دولار المخصصة لعباس إشارة مبهمة إلى حماس؟

بطـــريقة مماثلـــة، بـــدا أن مقابلة نادرة في تشرين الثاني أجرتها يومية *يديعوت أحرونوت* الناطقة بالعبرية مع الجنرال كيث دايتون، الذي كان منسق واشنطن الأمني في الـــشرق الأوسط، تؤكد ما جاء في وثيقة كروك. لماذا بدا أن دايتون يناقض نفسه ظاهـــرياً، بعد اعترافه أنه يعمل لتعزيز قوات عباس، عندما أصر على أن ذلك لم يكن اســـتعداداً لمـــواجهة مع حماس؟ بالرغم من ذلك، لتبرير برنامجه الخاص، كان الجنرال الأميركي قد جادل بأن إيران، وربما سورية، كانت تمدّ حماس بالمال والسلاح. كان قد قال: "ينبغي أن نتأكد أنه لن يتم القضاء على قوى الاعتدال"[8].

شـــكّل تعيين دايتون منسّقاً أمنياً بين إسرائيل والفلسطينيين في تشرين الثاني من العام 2005 تحدّياً غير مرحب به لرجل لا يعرف الكثير عن المنطقة. كان قد انضم إلى الجـــيش الأميركي في العام 1970 لكن، بغض النظر عن قيادته لعملية بحث فاشلة عن أسلحة الدمار الشامل لدى صدام حسين بعد سقوط بغداد في نيسان من العام 2003، كانت تلك أول مهمة للضابط البالغ من العمر ستة وخمسين عاماً في الشرق الأوسط. رسمياً، كانت مهمته التأكد أن كلا الجانبين يفي بتعهّداته الأمنية المختلفة.

ربما كان ممكناً وصف تحليل ألاستر كروك بأنه غير صحيح أو هو متحيّز لو لم تقـــع تطورات أخرى بالتزامن معه. في الاجتماعات المنتظمة لرباعية الشرق الأوسط، كـــان مـــبعوث واشنطن هو مساعد وزيرة الخارجية الأميركية لشؤون الشرق الأدنى ديفـــيد ولش، لكن أحياناً كان أليوت أبرامز يحضر أيضاً. غالباً ما كان الدبلوماسي الـــبيروفي الـــذي كـــان مبعوث الأمم المتحدة، ألفارو دي سوتو، يجد نفسه عرضة لـــضغوط مـــن الأميركيين للموافقة على الاستراتيجية التي يفضّلونها. كان دي سوتو مذهـــولاً ممـــا وصفه بأنه "دفع واضح" من واشنطن للمواجهة بين فتح وحماس، وقد شرح مخاوفه في تقرير تم تسريبه لاحقاً إلى وسائل الإعلام.

أُصيب دي سوتو بدهشة كبيرة عندما أشار المبعوث الأميركي ولش مرتين، في اجـــتماعات المندوبين في واشنطن أواخر كانون الثاني 2007، بحماس كبير إلى التوتر الـــشديد في غـــزة. قال المبعوث الأميركي لزملائه: "أحب هذا العنف. هذا يعني أن فلسطينيين آخرين يقاومون حماس"[9].

عندما كان الخيّاط أسد أبو دان يوقظ أسرته، داخل مخيم اللاجئين في جباليا، كانت الأشعة الأولى لضوء باهت تحوِّل الفجر إلى نهار فوق الأبنية على الطرف الشمالي لغزة.

توجه أكبر أبناء أسد السبعة، مازن، والكرى لا يزال يداعب عينيه إلى المطبخ. كـــان الابن البالغ من العمر واحداً وعشرين عاماً أحد أعضاء القوة التنفيذية، ذراع حمـــاس الأمنية الجديدة المثيرة للجدل. سرعان ما انضم إليه أشقاؤه، أحمد في الثامنة عشرة، ومحمد في السابعة عشرة - كانا لا يزالان تلميذين - في تناول إفطار من الخبز والـــشاي. كـــان خال الفتى، جمال، قد بات عندهم تلك الليلة. حدث ذلك في 26 كانـــون الـــثاني 2007، وكانوا قد استيقظوا باكراً للذهاب إلى مقبرة قريبة، لوضع شاهدة على قبر جدّة الفتى التي توفيت أخيراً[10].

بعـــد أن وضـــعوا الأدوات والمـــواد في شاحنة إسماعيل الصغيرة، انطلقوا نحو مقـــصدهم. لكـــن عـــندما خففوا سرعتهم عند تقاطع قرب مدخل المقبرة، اعترض طريقهم مسلح مقنّع، وأرغم إسماعيل على إيقاف شاحنته بإطلاق النار على دواليبها الأربعة. أمر الرجل إسماعيل والفتية بالترجل من المركبة ثم أوثق قيودهم ووضعهم في شاحنات صغيرة انطلقت مبتعدة عن المكان.

مـــوثقاً في الخلف، كان أبو دان مذهولاً. فيما كان يجلس في الشاحنة، متسائلاً عمـــا ســـيفعله لاحقـــاً، ظهرت مركبة أخرى إلى جانبه. كان يشغل مقعد الراكب الأمامـــي فيها رجل ضخم غاضب تعرّفه مباشرة. كان سميح المدهون، المسؤول المحلي الـــذي كان ضابطاً بارزاً في جهاز الأمن الوقائي الذي يديره محمد دحلان رجل فتح القـــوي. كان معروفاً عن المدهون أنه قائد مهاب الجانب في كتائب شهداء الأقصى، الميليشيا التي انبثقت من صفوف فتح في خلال الانتفاضة الثانية. كان واحداً من أقوى الشخصيات في القسم الشمالي من قطاع غزة.

كـــان ذلـــك اليوم يوماً سيئاً لقيام العائلة بتكريم جدّة الفتى. كانوا قد خططوا لعملـــهم في خـــلال هـــدوء نسبـــي للعنف قبل أسابيع، لكن في الساعات الأربع والعـــشرين الـــتي ســـبقت قـــيامهم بذلك كان القطاع قد أصبح مرجلاً، مع تجدد الاشـــتباكات في مدينة غزة وهناك في الجزء الشمالي. كان تسعة عشر شخصاً، ثمانية منهم مارة مدنيين، قد لقوا حتفهم. تعرض أكثر من سبعين آخرين لإصابات مختلفة.

كـــان الطريق الذي توقفت عليه شاحنة العائلة يشكل خط تماس للفصائل. قبل يـــوم، كان قد تم تفجير شاحنة للقوة التنفيذية في مكان قريب، ونجم عن ذلك وفاة مقـــاتلين اثنين من حماس وجرح ستة آخرين. في خلال الليل، كانت حماس قد شنت

هجمات انتقامية على منازل مقاتلي فتح، وكان المدهون البالغ من العمر اثنين وثلاثين عاماً يعمل للثأر منها آنذاك. غاضباً من الاشتباكات الأخيرة، كان يحمل جهاز لاسلكي محلياً، يكرر تهديدات خطيرة يطلقها منذ حاول مسلحون مجهولون قتله قبل عدّة أسابيع.

في بيت لاهيا القريبة، كان قد حوّل مبنى سكنياً يقطنه مع أفراد من عائلته الكبيرة إلى حصن منيع. وكان عشرات المسلحين متمركزين على السطح. كانت الطرق المؤدية إليه مغلقة بحواجز من كتل أسمنتية وأكوام ترابية. آنذاك، عندما أراد المدهون أسرى، تصادف وجود أبو دان وعائلته في المكان الخطأ والتوقيت الخطأ.

تم اقتياد أبو دان إلى حصن المدهون، حيث تم اقتياده على خمسة سلالم أسمنتية إلى الطابق الأعلى، الذي كان بمنزلة حجرة تعذيب. كان قد تم إرغام حوالى اثني عشر أسيراً معصوبي الأعين، بمن فيهم أبناؤه وابن حماه، على الجلوس القرفصاء لمدة طويلة، وفي الوقت نفسه كان يتم ضربهم بهراوات وقطع من أنابيب المياه[11]. بين الفينة والأخرى، كانوا يؤمرون بترديد شعارات مبتذلة تمتدح قادة فتح المحليين؛ خاصة محمد دحلان.

كان يتم تعذيب أبو دان من دون وضع عُصبة للعينين. تم إرغامه على مشاهدة إساءة معاملة عائلته. كانوا يتعرضون للضرب والركل؛ يتم شتمهم لورعهم الديني وإرغامهم على تقليد أصوات الحيوانات - كلاب، قطط، وحمير - أطلق أحد رجال المدهون عدة أعيرة نارية عن قرب على قدمي مازن البالغ من العمر واحداً وعشرين عاماً.

بالقرب منهم، كان ممكناً سماع سميح المدهون يصرخ بأعلى صوته عبر هاتفه الخليوي. كان منزل أحد قادة ميليشيا فتح الآخرين في جباليا يتعرض لنيران كثيفة من رجال حماس. حذّر المدهون أنه إذا وقع أي مكروه لزميله، سيطلق النار على أسراه ويرمي بجثثهم من شرفة الطابق السادس.

بدا أن كل شيء قد خرج عن السيطرة. لكن المساعدة جاءت بعد ذلك من طرفين أحدهما العائلة، والآخر فصائلية.

عندما لم يعد أبو دان، وفتيانه، وخالهم من المقبرة، قام أفراد آخرون من العائلة بإعلام حماس. تم إرسال فرقة للبحث عنهم. لكن عنصر التدخل الأكثر فاعلية كان

ورقـــة غريبة. كانت شقيقة سميح المدهون متزوجة من قريب لأبو دان. فجأة، كانت تتكلم عبر الهاتف بلهجة قاسية جداً مع المدهون.

وقع المدهون في ورطة. كان مستعداً لقتال حماس، لكن ليس شقيقته. وافق على فصل عائلة أبو دان عن باقي الأسرى، وتوقفت المعاملة السيئة بحقهم. في الوقت نفسه تقريباً، دخل اتفاق واهن آخر لوقف إطلاق النار بين حماس وفتح حيز التنفيذ، والذي كـــان يـــتطلب تـــبادلاً للأسرى. مقابل إطلاق سراح ثمانية عشر من رجالها الذين تحتجـــزهم حمـــاس، أفرجت فتح عن عشرين رهينة من حماس، بمن فيهم ثلاثة فتية، ووالدهم، وخالهم.

كانت عائلة أبو دان قد تعرضت للاختطاف في الأسبوع الذي ينبغي أن تحتفل فيه حماس بالذكرى الأولى لتحقيقها نصرها الانتخابـــي المذهل. بدلاً من ذلك، كان مـــستوى العنف يتصاعد بمعدل ينذر بالخطر؛ في الأيام التي سبقت ذلك الاختطاف، كـــان أكثر من ثلاثين فلسطينياً قد لقوا حتفهم على أيدي فلسطينيين آخرين. توفي خطـــيب كـــان قد انتقد قتلة قائد أمن فتح وسبعة من حرّاسه الشخصيين لاحقاً بعد إطـــلاق الـــنار عليه من سيارة عند وصوله إلى المنـــزل من المسجد. كانت الجامعة الإسلامية قد تعرضت لهجوم من قبل قوات فتح، التي أحرقت ثلاثة مبانٍ فيها. ثأرت قوات حماس، واجتاحت ثلاثة مراكز شرطة تسيطر عليها فتح في شمالي غزة.

بعـــد دخـــول وقف إطلاق النار حيز التنفيذ بثمانٍ وأربعين ساعة فقط، اندلع اشـــتباك عنيف عند معبر كرم بو سالم الحدودي، قرب المكان الذي تسلل منه مقاتلو حماس عبر نفق إلى إسرائيل وأسروا الجندي الإسرائيلي جلعاد شاليط. كان قد أشعل ذلـــك القتال الجديد وصول أربع شاحنات من مصر، وقد اكتشفت حماس أنها تحمل أسلحة أرسلها الأميركيون، ضمنها كمية من بنادق أم – 14 الآلية الجديدة، وذخيرة لقوات عباس. احتج مسؤولو فتح، وادّعوا أن القافلة لا تحمل سوى خيام، ومولدات، وإمـــدادات طبية. عندما احتجزت القوة التنفيذية الشاحنات الأربع كلها، أكّد أحد قادتهـــا لفتح إنها تستطيع الحصول على *الخيام والأدوية* في الوقت المناسب، لكن ليس الأسلحة.

لم تكـــن تلك الشحنة هي الأولى من نوعها. كانت إسرائيل قلقة دائماً من أن أي أســـلحة يـــتم تقديمها للفلسطينيين ستتحول من دون شك نحو قواتها ومواطنيها.

لكـــن في نهاية كانون الأول من العام 2006، كانت قد سمحت بعبور قافلة مماثلة من مصر لنقل أكثر من ألفي بندقية آلية ومليوني رصاصة لقوات فتح في غزة. وفقاً لبعض الوثائق، كانت هناك ثلاث شحنات أخرى سابقة.

كـــان مـــساعدو عباس قد حاولوا إنكار شحنة كانون الأول، لكن جهودهم بـــاءت بالفـــشل عندما أكّد مسؤولون إسرائيليون نبأها لمراسلين صحافيين. سابقاً، كانـــت إسرائيل قد التزمت الصمت بشأن مساعدها لعباس، على أساس أنها تحتاج اســـتراتيجياً إلى تفـــادي تـــشويه سمعته لدى الفلسطينيين، الذين سيغضبون عندما يكتـــشفون أن قائـــدهم يتعاون بشكل وثيق مع العدو. لكن الاستراتيجية كانت قد تغـــيرت. كانـــت معلـــومات عـــن تقديم أسلحة نوعاً من الأنباء السارة التي يتوق الفلسطينيون لسماعها عن رئيسهم. وكان ناطق رسمي إسرائيلي قد أعلن أن الأسلحة مخصصة لشد أزر عباس ضد *قوى الظلام*[12].

وجـــد الـــرئيس الفلـــسطيني نفسه في موقف لا يحسد عليه. ضمن رباعية الشرق الأوســـط، كـــان البعض يراه رجلاً محترماً يواجه صعوبة في الابتعاد عن عُصبة فتح التي تطـــوّق مكتبه وفريق واشنطن الذي يحرّكها. في خلال غداء مع كونداليزا رايس في مبنى المقاطعة في رام الله في تشرين الأول، بعد تسعة شهور من انتخاب حماس، كان عباس قد تعهـــد بالدعـــوة لإجراء انتخابات جديدة بأسرع ما يمكن، في محاولة لإزاحة حماس عبر الطـــريقة الانتخابية نفسها التي أوصلت الإسلاميين إلى السلطة[13]. لكن بالرغم من إلحاح رايـــس، لم تكن لدى الرئيس الفلسطيني صلاحية الدعوة إلى انتخابات مبكرة، تماماً مثلما لم تكن لديه صلاحية حل البرلمان. كانت يدا عباس مقيّدتين[14].

استمرت واشنطن، على أي حال، في ممارسة الضغوط. تم إرسال القنصل العام الأميركـــي في القدس، جاكوب والز، إلى رام الله. مزوّداً بنسخة من وثائق المحادثات، الـــتي تركها عن غير قصد خلفه، كرّر والز تحذير رايس: إذا رفضت حماس الخضوع لمطالب واشنطن، سيكون على الحكومة أن تستقيل.

نـــصح والز عباس بتعزيز فريقه *بشخصيات ذات مصداقية* مثل دحلان. مدركاً للقلق العميق داخل فتح بشأن نقص الأسلحة والأموال، غلّف والز عروض مساعداته بـــضمانات جديدة من وزارة الخارجية. "إذا تصرفتم وفقاً لهذه المعطيات، سندعمكم مادياً وسياسياً"[15].

شـــكك محللـــو الاستخبارات الإسرائيليون بأن يجعل توفُّر المزيد من الأسلحة حركة فتح الخاسرة أكثر جذباً للفلسطينيين. لكنهم لم يروا بديلاً عن دعم عباس. قال مـــسؤول إسرائيلي بارز في وزارة الدفاع: "إذا كان عليّ أن أختار بين مواجهة [بين الفصيلين الفلسطينيين] وسيطرة حماس، سأختار المواجهة"[16].

في منتصف كانون الثاني، قام عباس بخطوة توفيقية بالسفر إلى دمشق لرؤية خالد مشعل. لكن غصن الزيتون الذي كان يحمله كان آتياً من الولايات المتحدة الأميركية. كـــان الاجتماع متشنجاً، وانتهى إلى طريق مسدود بعد أن أصرّ عباس على ضرورة الاعتراف بدولة إسرائيل إضافة إلى إجراء انتخابات فلسطينية مبكرة[17].

كـــان دحلان في تلك الأثناء يعزّز قواته، ويطلق تهديدات لمشعل وقيادة حماس كلـــها. كـــان دحلان قد انتقل إلى موقع محوري في دائرة سلطة عباس، حيث جعله مـــوقفه المتصلب حليفاً رائعاً للأميركيين. حذّر دحلان في خطاب إلى حشد ضخم: "إذا كـــان قادة حماس يعتقدون أنهم بمنأى عن متناول قواتنا، سيكونون مخطئين"[18]. عـــندما ضـــرب أفراد من فتح طوقاً أمنياً حوله، طلب منهم دحلان الابتعاد عنه في حركة نالت استحسان الحاضرين، وقال لهم: "دعوا حماس تقتلني!"[19].

طيلة عام بعد الانتخابات، حاولت مصر، وسورية، وقطر، والأردن التوسط بين الفصيلين، لكن من دون نجاح. حان آنذاك دور الدولة الإقليمية التي تتمتع بثقل كبير. اســـتطاعت المملكة العربية السعودية أن تكون في آنٍ واحد حليفاً للولايات المتحدة، ووســـيطاً. كـــان الـــوقت قد حان لاستثمار رصيدٍ مصداقيتها. قلقة من إراقة دماء مسلمين على أيدي مسلمين وخطورة عدم قيامها بشيء بشأن ذلك، اختار الملك عبد الله اســـتعمال ثقـــل الـــسعوديين الدبلوماسي بين واشنطن والفلسطينيين المتناحرين. استدعى قيادتي كل من فتح وحماس إلى مدينة مكة المكرّمة لعقد اجتماع في 7 شباط.

واجـــه محمود عباس، المعتاد قول نعم لواشنطن، صعوبة كبيرة في قول لا للعائلة المالكـــة في الـــرياض. كان هناك شيك سعودي بقيمة مليار دولار كمساعدة على الطاولـــة، وكـــان كلا الفصيلين بأمسّ الحاجة إليه. لوضع أيديهم عليه، كان ينبغي للطـــرفين التوصـــل إلى اتفاق جديد. احتفظ مشعل برباطة جأشه، وكان عباس من طـــرفت عيـــناه؛ عن طيب خاطر حتى إن الصحيفة الإسرائيلية *يديعوت أحرونوت* عنونت أحد تقاريرها اللاحقة عن القمة "حماس تحظى بالمال"[20].

عـــندما عاد عباس إلى الأراضي المحتلة، اشتكى مساعدوه من أنه تعرّض لضغط كبير من قبل السعوديين. في اتفاق كانت الميزات التي ستحظى بها فتح أقل من أيٍّ من الرُزم السابقة التي عرضتها حماس، كان الإسلامي إسماعيل هنية سيبقى رئيساً للوزراء. ســيتم دمج القوة التنفيذية، التي أعلن عباس أن أفرادها "مجرمون وقطّاع طرق"، في أجهزة عباس الأمنية، مما كان يشير إلى أن مقاتلي حماس سيصبحون مؤهلين للحصول على رواتبهم عبر شيكات أميركية.

وافقت حماس على التخلي عن حقائب رئيسية - بما في ذلك وزارات الداخلية، الخارجـــية، والمالـــية - كان بمقدور الإسلاميين انتقاء مرشح مستقل لوزارة الداخلية المتنازع عليها بشدة، لكن عباس حصل على حق نقض اختيار حماس.

بـــشأن الطلب الإسرائيلي والأميركي بأن *تلتزم* حماس بالاتفاقيات السابقة، بما فـــيها أوســـلو، طلب اتفاق مكة (المكرّمة) من الحكومة الجديدة بالكاد *احترام* تلك الاتفاقـــيات الـــسابقة. دعا الاتفاق إلى إنهاء العنف الفلسطيني - الفلسطيني، لكن لا الخطابـــات ولا الوثائق أتت على ذكر إسرائيل، وعملية السلام، أو إيقاف عمليات المقاومة بما في ذلك إطلاق الصواريخ الفلسطينية على إسرائيل.

أعلن عباس أن الفلسطينيين وصلوا إلى شواطئ السلام، وهو ما ردّ عليه مشعل مبـــتهجاً: "ســـنعيد بناء بيتنا الفلسطيني على أسس قوية". نص الاتفاق على تشكيل حكـــومة وحـــدة وطنية وأظهر وجود احتمالات حقيقية كانت موضع ترحيب في الـــوطن العربـــــي ونالت تعليقات إيجابية من موسكو وباريس؛ وإن كان ليس من واشـــنطن. كانـــت حماس، التي حظيت بتسعة وزراء فقط من أصل أربعة وعشرين، ســـتدير برنامج أعمال الفلسطينيين الداخلي، فيما سيتعامل عباس ووزراء من فتح أو مـــستقلون مع الشؤون الدولية - خاصة، المفاوضات مع إسرائيل والمجتمع الدولي - كـــان ينبغـــي طرح أي اتفاق يتم التوصل إليه بين عباس وإسرائيل على استفتاء عام للفلسطينيين، وأقرّت حماس مسبقاً أنها ستقبل نتيجة التصويت.

بالرغم من الفجوة السياسية، كان اتفاق مكة المكرّمة قد أوجد أرضية مشتركة بـــين الفصيلين يمكن لكليهما العمل من خلالها. كما بيّن محمود عباس، سيكون على وزراء حكـــومة السلطة الفلسطينية الجديدة احترام المواقف التي تتخذها، حتى وإن لم تكن موضع ترحيب الحركتين[21].

من جانبه، شرح مشعل أن حماس ستحتفظ بمعارضتها الشديدة لدولة إسرائيل، لكنها ستقبل التفاوض على حل دولتين يستند إلى حدود العام 1967. أقر بحدوث تغير براغماتي بلغته المتشددة. قال: "حماس تتبنّى لغة سياسية جديدة. اتفاق مكة المكرّمة لغة سياسية جديدة [تتكلمها] حماس، واحترام الاتفاقيات هو [أيضاً] لغة جديدة، لأن هناك حاجة وطنية وينبغي أن نتكلم لغة مناسبة للعصر".

بالرغم من رفض إسرائيل وواشنطن، أدّت حكومة الوحدة الوطنية القسم القانوني يوم الأحد 17 آذار 2007. كانت الدوائر المقرّبة من عباس قد اشتكت أن الرئيس ذهب باتجاه في مكة المكرّمة، لكنه في الوطن سرعان ما أظهر أنه يستطيع الذهاب في الاتجاه المعاكس أيضاً. بعد يوم من أداء الوزارة للقسم، عيّن عباس مستشاراً جديداً لشؤون الأمن الوطني: محمد دحلان، الشخص الذي كان جورج دبليو. بوش يدعوه *رجلنا*[22].

لو أن عباس فتّش الكرة الأرضية بحثاً عن مرشح لإزعاج حماس، لم يكن ليجد أحداً يكرهه الإسلاميون أكثر من دحلان، الذي كان، بعمر السادسة والأربعين، أسير العصبية الفصائلية. قال في مقابلة بعد أسابيع من تعيينه: "أنتمي إلى فتح وبلدي هو فلسطين؛ ليس حماس. من واجبي الدفاع عن مصالح بلدي... لكنني أنتمي إلى فتح وواجبي أن أدافع عن أنصار فتح. تلك هي الطريقة التي أفهم بها عضويتي في فتح"[23].

كرئيس لجهاز الأمن الوقائي المتحزّب لعرفات في منتصف التسعينيات، كان دحلان هو الذي قاد حملة جائرة لتضييق الخناق على حماس، واعتقل الآلاف من ناشطيها. غالباً ما كان يتم احتجازهم من دون محاكمة. أحياناً، كان يتم تعذيبهم. لكن كإسلاميين، كان الإذلال المرتبط دائماً بدحلان هو طقس حلاقة شعر رؤوسهم ولحاهم.

بمنح دحلان سلطة الإشراف على الأجهزة الأمنية، كشف عباس الخطأ في اتفاق مكة المكرّمة الذي رافقه صخب إعلامي كبير: كان السعوديون قد فشلوا في التوصل إلى اتفاق عملي بشأن القضية الأكثر إثارة للخلاف في العلاقة المتشنجة بين الفصيلين. ربما كان عباسُ قد أومأ موافقاً للملك السعودي لكن الرئيس، بتسليم الأجهزة الأمنية لدحلان، كان يهزّ رأسه رفضاً لحماس. كان عباس متردداً في البداية، لكن بطريقته العدوانية السلبية كان الرئيس يتعطش للقتال.

كان دحلان الخريج الجامعي عضواً منتخباً في البرلمان. لكن نفوذه الاستثنائي في غـــزة تحقق في جزء منه من سيطرته في التسعينيات على جهاز الأمن الوقائي، وهـــي قـــوة وضـــع لبنتها الأولى بتوجيه من ياسر عرفات ومساعدة من وكالة الاستخبارات الأميركية[24]. كانت الركيزة الثانية لقوته سيطرته على فتح في غزة. كان الإسرائيليون قد سجنوه إحدى عشرة مرة قبل أن يبلغ الخامسة والعشرين من العمـــر. كانـــوا قد أبعدوه وكادوا يغتالونه. كان عباس قد عيّنه مرتين وزيراً في الـــسلطة الفلسطينية، لكن دحلان أصبح آنذاك يشكل تحدّياً لعباس، الذي كان طيلة ثلاثين عاماً مشرفاً عليه.

طيلة شهور، كان دحلان يستفيد من أنصار فتح لإزعاج حماس بقتل مقاتليها أو إلقاء القبض عليهم وإساءة معاملتهم. آنذاك، كان عباس قد وضع خمسين ألفاً أو يزيد من رجال الأجهزة الأمنية تحت تصرُّف دحلان. ضمن فتح، كان بعض زملاء دحلان منـــــزعجين من *تفرّده بالقرار*. وكان آخرون قلقين من اتساع *الانتهاكات* التي سمح بها دحلان لرجاله في ملاحقة أعضاء حماس.

بمـــواجهة ادّعاء خالد مشعل قبل وقت قصير أنه يحرّض على *الفتنة*، أو الحرب الأهلـــية، رد دحلان ساخراً، بدلاً من إنكار ذلك بكل وضوح. سأل: "أيّ انقلاب يتكلمون عنه؟ هل هناك حكومة يمكننا التمرد عليها؟"[25].

في عيون بعض الفلسطينيين، كان الرئيس بوش قد طبع على وجنة دحلان قبلة المـــوت عـــندما التقيا في قمة الشرق الأوسط في العقبة، الأردن في 2003. استجابة لطلب من بوش، كان دحلان قد بدأ آنذاك شرح سمة الأمن في الأراضي المحتلة. قال الـــرئيس، معترضاً دحلان: "لا تقل المزيد. كل ما أردته كان النظر في عينيك، وأثق بك. إنها بالضبط الطريقة التي أثق بها بالسيد [أرييل] شارون"[26].

كان ذلك آخر شيء يرغب الفلسطينيون في سماعه.

في عمّـــان، لم تكـــن هناك صحيفة تستطيع، مهما كانت صغيرة، الإفلات من الـــرقابة الحكومية. مع توزيع ستة عشر ألف نسخة وكادر صغير، كانت يومية فهد الريماوي، *المجد*، الناطقة بالعربية صغيرة بالفعل. لكن الريماوي كان محرراً يعرف القصة الكـــبيرة عندما يراها. وكناشر في نظام قمعي، كان يعرف من تجربته الخاصة المريرة المـــدى الـــذي ستصل إليه سلطات عمّان لمضايقة محرر لديه قصة كبيرة. في نيسان

2007، حظـي بفرصـة الحـصول على وثيقة ملتهبة توضح خطة تفصيلية لإسقاط حمـاس. كان يعرف أنها ستضعه في نـزاع مع السلطات مرة أخرى، لكنها كانت قصة تستحق النشر.

كان سجل اصطدام الريماوي بشكل شخصي مع القانون يعدّ شهادة على محرر شـجاع. في أوقـات مختلفة، كان قد تم إرغام الريماوي على إيقاف النشر. كان قد دخل السجن لأنه كتب، أو كان على وشك نشر، تقارير كانت تهدف إلى النيل من مقـام الملـك، أو انـتقاد وكالة الاستخبارات الوطنية، أو إغضاب جيران الأردن الإقليميين.

في العـام 2002، تم تهديد الريماوي بمقاضاته إذا نشر تقارير عن محاكمة فساد نـادرة كانـت تجري في ظل تعتيم إعلامي فرضه النظام. كانت تلك محاكمة سميح البطيخـي، رئـيس الاسـتخبارات الأردنية القوي في الفترة التي حاول فيها الموساد الإسرائيلي اغتيال خالد مشعل.

كانت طباعة *المجد* منوطة بمطبعة كبيرة في عمّان، مؤسسة طباعة الأردن، في شارع الملكة رانيا العبد الله في العاصمة. وكان توزيع الأسبوعية محدوداً للغاية والريماوي لا يمتلك المـال الكافي لشراء مطابعه الخاصة. وفقاً لنظام الرقابة، أبلغ الريماوي السلطات بالقصص الـتي كـان قد أعدّها لنسخة 30 نيسان 2007، بما في ذلك وثيقة خطة إسقاط حماس، والتي كان مخططاً أن تذهب إلى المطبعة ليلة 29 نيسان.

كانـت المـسوَّدات جاهزة وآلات الطباعة تعمل عندما اتصل عميل من إدارة المخابـرات العامة بالمسؤولين عن المطبعة، وصرخ مطالباً بعدم البدء بالعمل. صدرت أوامر للريماوي بحذف قصة حماس من الصفحة الرئيسية لنسخة الصحيفة ونشر مقال ثانٍ أصغر كان قد وضعه في الصفحة الثانية.

عـندما رفـض الريماوي، هدّدت إدارة المخابرات بحظر نشر نسخة الصحيفة كلها. استمرت المساومة ساعات. عندما طالب الريماوي بتفسير، كان السبب الذي قدّمـه العمـلاء شكوى غير متوقعة على عمله الصحافي. لم يكن الأمر يتعلق بخطأ ارتكبه، وإنما أن الكثير من تقاريره تستند إلى معلومات من مصادر استخباراتية.

تمـسك المحرّر بموقفه. عندما لم ينفع ذلك، حاول عقد صفقة. إذا سحب المقال الـصغير علـى الـصفحة الثانية، الذي يصف زيارة قام بها مسؤولون أميركيون إلى

مستودعات عسكرية في مدينة العقبة الساحلية الجنوبية، هل سيسمح له العملاء بنشر قصة الصفحة الأولى؟ كان واضحاً أن الجواب سيكون "لا".

لم يجدِ كل ذلك نفعاً. أمر رجال إدارة المخابرات العامة العمال برفع المسوَّدات من المطابع وصادروها.

ربما كانت تلك هي نهاية النسخة والإخفاء الناجح لتقرير الريماوي المذهل على الصفحة الأولى لو لم يفشل عملاء إدارة المخابرات العامة في فهم الإمكانيات الواسعة للنشر في العصر الحديث، ولولا يقظة مدوّن إنترنيت غامض على الطرف الآخر من العالم الذي كان يعرّف عن نفسه ببساطة أنه *الغرير*.

كانت مدوّنة الغرير تدعى ***حلقات مفقودة***، وقد امتنع المدوّن نفسه عن الكشف عن سيرة حياته. كانت مدوّنته تحمل صورة بطاقة بريدية لحيواني غرير من مستشفى ويرفيلد للحياة البرية في لينكولن، إنكلترا، لكن المعلومات في ركن "عنيّ" من المدونة كانت شحيحة. ظهر أن المدوّن محاسب يعيش في كندا، لكن لم يكن هناك المزيد. كان بيان رسالته المبهم يتألف من سطر واحد مقتبس من كلام الفيلسوف الصيني القديم منيشيوش: "أعرف كلمات، وأغذّي بها الروح الرائعة".

كان الغرير يتكلم لغتين. وكانت المهمة التي حدّدها لنفسه الإبحار في مواقع الأخبار العربية الإلكترونية، أن يُترجم إلى الإنكليزية مجموعة منها كان يعتقد، وفقاً لراية فوق مدوّنته البسيطة لكن الأنيقة، أنها ستساعد على جَسر الفجوات[27]. بالرغم من الجهود المبذولة في تقديم "حلقات مفقودة"، إلا أن عدد القرّاء كان مخيباً للآمال. كان معدل الزيارات اثني عشر رابطاً في اليوم.

لكن في 2 أيار 2007، عندما عرض الغرير ملخصاً من سبع صفحات وترجمة إنكليزية لقصة الريماوي في *المجد*، التي كانت السلطات الأردنية تعتقد أنها طمستها، كان ذلك أول إثبات مستقل على تقرير ألاستر كروك الأصلي، الذي لم يحظ منذ نشره في كانون الثاني باهتمام كبير في وسائل الإعلام الغربية.

كان تقرير الغرير يستند إلى نسخة طبق الأصل على موقع الريماوي الإلكتروني لأجزاء من وثيقة تتألف من ست عشرة صفحة كان قد حصل عليها من مصادره الاستخباراتية. كانت النسخة الأولى من الوثيقة مكتوبة بالإنكليزية. في الوقت الذي وقعت فيه بين يديّ الريماوي، كانت قد تُرجمت إلى العربية. آنذاك، كانت

ترجمة الغرير قد نقلتها إلى الإنكليزية مجدداً. بالرغم من كل ذلك، لم تكن قد فقدت أياً من معانيها.

كانـــت الوثـــيقة مجمـــوعة مفصّلة من الخطط عن إصلاح سريع لسلطة عباس وحـــركة فتح على أمل أن يصبحا جذّابين للناخبين الفلسطينيين في انتخابات جديدة ومبكـــرة. إذا كـــان السعوديون قد سحبوا البساط من تحت واشنطن وحلفائها في الـــرباعية بإرغـــام عباس على عقد اتفاق وحدة مع مشعل، سيكون هذا هو برنامج الهجوم المعاكس. قال الريماوي إن مؤلفي الوثيقة هم "أطراف عربية وأميركية". كان قد تم وضعها بعد قمة مكة المكرّمة وتتضمن السماح للفلسطينيين باستعراض إمكانية تألـــيف حكـــومة وحـــدة وطنـــية - ظاهرياً على الأقل - لكن تلك ستكون مجرد مسرحية.

إذا كـــان كـــلام إيلـــيوت أبرامـــز عن انقلاب قاس قد صدم رجال الأعمال الفلسطينيين الذين اجتمعوا به في واشنطن، كان ذلك هو المخطط التفصيلي لانقلاب *الطـــف*. كـــان يمكن تقديمه بحسن نية كحزمة مساعدات إلى شعب عانى طويلاً من الاضـــطهاد، لكـــن هدفه الحقيقي الواضح جعله هجوماً حزبياً على حكومة منتخبة شعبياً. كان ذلك إعلان حرب ضد حماس.

كـــان هدف كل عنصر من الخطة المرسومة في الوثيقة التي تم تسريبها للريماوي تقوية موقف عباس وضمان فوز حركة فتح بالانتخابات الجديدة. لم يكن هناك شيء متـــروك للمصادفة - كانت الخطة تتضمن دعوة عباس إلى إجراء انتخابات مبكرة في خريف العام 2007، قبل انتهاء أقل من نصف ولاية حكومة حماس -.

وفقاً للوثيقة، كانت المشكلة الرئيسية في المزيج الفلسطيني عباس نفسه. برضوخه للـــضغط، كـــان قد فقد المصداقية دولياً. بعدم إصراره على تضمين شروط اللجنة الرباعية الخاصة بالشرق الأوسط في اتفاق مكة المكرّمة، كان عباس قد فشل في حماية مـــوقعه كمركـــز ثقل في الشؤون الفلسطينية. نتيجة لذلك، قالت الوثيقة إن الدعم الدولي لعباس - وفتح - سيتضاءل أكثر. تبع ذلك أن حماس ستصبح أقوى وسيكون صعباً جداً إزاحتها في الانتخابات المبكرة المقترحة، التي كانت قانونيتها موضع شك.

كـــان واضـــعو الوثيقة على عجلة من أمرهم. كتبوا: "هذا يعني تفادي إضاعة وقـــت ثمـــين في محاولـــة تبديل أيديولوجية حماس". في حثهم على تقديم دعم مادي

وسياسي لعباس، لم يكن الهدف مساعدة الفلسطينيين عامة وإنما توجيه ضربة قاصمة لحماس بتلبية احتياجات الفلسطينيين "عبر الرئاسة وفتح".

إذا سيطر عباس وفتح على الأمن، كما استنتجت الوثيقة، سيتم منع حماس من القيام بأي محاولة لتصعيد الموقف. لكن في فقرة التدقيق التفصيلي للقضايا الأمنية، لم تكن هناك سوى إشارة مبهمة للاتفاقيات السابقة بين الجنرال الأميركي كيت دايتون ومحمد دحلان.

دعت الخطة إلى حثّ البنك الدولي والاتحاد الأوروبي على تنفيذ سلسلة من مشاريع التطوير التي ينبغي أن تحقق نتائج ترفع مكانة عباس عالياً لمدة لا تقل عن ستة إلى تسعة شهور. كان ينبغي دفع كل رواتب موظفي السلطة الفلسطينية عبر مكتب عباس، لضمان عدم وقوع الأموال في أيدي حماس.

كان يجب كبح جماح حتى الإسرائيليين. سيكون الفلسطينيون أكثر تفاؤلاً إذا استأنف عباس وإسرائيل المفاوضات وتم تحديد جدول لسحب القوات العسكرية، وإزالة الحواجز ونقاط التفتيش الإسرائيلية، وإطلاق سراح السجناء الفلسطينيين.

أخيراً، بعد تمرير الخطة إلى عباس عن طريق مدير أحد أجهزة الاستخبارات العربية الصديقة، سيكون مطلوباً من الرئيس الفلسطيني تبنيها وكأنها خطته، قبل أن يتظاهر بأنه يسعى للحصول على دعم الأميركيين وشركاء اللجنة الرباعية عليها، بأسلوب يُثبت للإسرائيليين والأوروبيين الفزعين أن عباس لديه بالفعل عرض واقعي لمستقبل فلسطين.

خلال ثمان وأربعين ساعة فقط من نشر الوثيقة في مدوّنة الغرير ***حلقات مفقودة***، كان هناك تسريب مثير آخر. حدث ذلك في تل أبيب، عندما حصلت اليومية الإسرائيلية *هآرتس* على ما بدا أنها خطة بديلة للمخطط التفصيلي الذي كان يجري إعداده لعباس وكان قد وقع في يديّ الريماوي. وفقاً لوثيقة *هآرتس*، سيكون مطلوباً من إسرائيل الموافقة على شحن المزيد من السلاح والذخيرة إلى قوات عباس. سيكون مطلوباً من إسرائيل أيضاً الموافقة على وضع جدول زمني لتخفيف نقاط التفتيش في الضفة الغربية والسماح لخدمة حافلات محددة بالعمل بين غزة والضفة الغربية.

انتقدت وسائل الإعلام الإسرائيلية الخطة باعتبارها وصفة *لحمام دم إرهابي*[28]. بعد أن وضع مسوّدتها الجنرال دايتون، ووافقت عليها وزيرة الخارجية كونداليزا رايس، ماتت الخطة في أقل من أسبوع.

إذا كان الإسرائيليون قد شعروا بالخوف، فإن خالد مشعل سخر من عرض دايتون. أقسم أنها كانت دعابة، وتساءل قائد حماس إن كانت الولايات المتحدة تعتقد حقاً أن الميليشيات الفلسطينية ستوقف إطلاق الصواريخ مقابل إزالة حفنة مما يُقدّر أنه 500 حاجز إسرائيلي في الضفة الغربية. قال ساخراً: "ما الذي ستطلبه واشنطن مقابل إزالة 480 حاجزاً الأخرى، مقابل الانسحاب الإسرائيلي وإقامة الدولة الفلسطينية؟"[29].

أثار ظهور الخطة كما هي وسط أزمة قاسية عصفت بحكومة إيهود أولمرت بشأن سوء إدارتها لغزو لبنان قبل صيف مضى، والذي تزامن مع توقيت حصول هآرتس على الوثيقة، أثار توقّعاً بأن "التسريب" كان مقصوداً. ربما كانت النية إجهاض الخطة في الوقت نفسه الذي تبدو فيه واشنطن كمن يحاول تحقيق اختراق لمصلحة الفلسطينيين.

أكّد مساعدو عباس لاحقاً أن مسؤولين أميركيين كانوا مشغولين بتطوير وتقديم الخطة التي كشفها ألاستر كروك *والمجد*. لكن مسؤولين في وزارة الخارجية الأميركية نأوا بأنفسهم عن الخطة، التي كانت تكلفتها 1.2 مليار دولار، وادّعوا أنها كانت *مبادرة أردنية*[30].

عندما كانت هناك حاجة إلى تفسير، قام إيليوت إبرامز باستضافة وفد آخر في البيت الأبيض – هذه المرة مجموعة من *الجمهوريين اليهود* كما وصفتهم *جيروساليم بوست* – بالطريقة نفسها التي كان قد تكلم بها عن الحاجة إلى *انقلاب قاسٍ* عندما استقبل رجال أعمال فلسطينيين قبل عام، أعاد أبرامز التأكيد لضيوفه آنذاك أن معظم نشاط الإدارة الدبلوماسي المحموم كان *مراوحة في المكان*، فقط لاسترضاء عباس والأوروبيين[31].

عندما عبّر زوّاره عن قلقهم من أن يؤدي ضغط الأوروبيين وحكومات عربية إلى محاصرة إسرائيل، صرفهم أبرامز مطمئناً إياهم. نقل أعضاء في الوفد عن أبرامز قوله لهم: "في نهاية المطاف، تشكل الولايات المتحدة مكابح طوارئ".

كانـــت الأنباء المثيرة التي تسرّبت في النصف الأول من العام 2007 قد كشفت كـــيف ســـيتم استعمال مكابح الطوارئ تلك. كان عمل ألاستر كروك في بيروت، تقاريـــر فهد الريماي في عمّان والغرير المدوّن في كندا، ثم سبق هآرتس الصحافي، قد رسمت معالم خطة واشنطن لوضع فتح وحماس على درب حرب أهلية. على الأرض، كان ذلك المخطط الكبير على وشك أن يصبح حقيقة.



24

العين بالعين

بعــــد ستة عشر عاماً على سقوط جدار برلين، كانت غزة الغارقة في الظلام قد أصبحت موقع إحدى أعقد حروب العالم بالوكالة منذ نهاية الحرب الباردة.

يكمــــن في صلب المسألة، خلف الصراع المتواصل بين الفلسطينيين وإسرائيل، النــــــزاع الأوسع بين أميركا وجمهورية إيران الإسلامية. كانت طهران قد استغلّت العقــــود الـــتي تلت إطاحة الشاه المدعوم أميركياً من العرش لتبني نفسها كدولة مثيرة للقلق وقوة عظمى إقليمية طموحة.

كانت واشنطن وقوى أخرى في المنطقة خائفة من مغامرة طهران النووية. كان تهديــــدها المــــستمر لإسرائيل قد جعلها الطرف الصعب في المنطقة. كانت الولايات المتحدة بأمسّ الحاجة إلى تحييد المتحالفين مع إيران في نــــزاعي العراق ولبنان، إضافة إلى حمـــاس في الأراضي الفلسطينية المحتلة. كانت النتيجة أن حماس، التي لم تشن أبداً أي هجـــوم خارج حدود أرضها المتنازع عليها، قد تم وضعها في خانة العدو العالمي للولايات المتحدة.

اعتـــبرت واشنطن نــــزاع حماس – فتح مثالاً واضحاً عن الانقسام بين معتدلين ومتطـــرفين في المنطقة. بالاستفادة من هذا التقسيم المبسّط، استطاعت واشنطن وضع حركة فتح التي تدعمها الولايات المتحدة في الأراضي المحتلة – التي كانت فيما مضى عـــدوّها الإرهابــــــي اللدود – في معسكر ما يدعى الاعتدال نفسه الذي توجد فيه حكـــومة العــــراق الشيعية التي ترعاها الولايات المتحدة، والتي تزعج واشنطن بسبب علاقاتها المتينة مع طهران[1].

لم تبذل حماس أي جهد لإخفاء صلاتها بطهران، وهي إحدى الدول الثلاث الـــتي دعاها الرئيس بوش محور الشر. كانت علاقة لم تبدأ بشكل جيد بعد الثورة الإيـــرانية في العـــام 1979. كان خلع الشاه في طهران قد منح طموحاً سياسياً للفلـــسطينيين – إســـلاميين وعلمانيين على حدٍّ سواء – لكن، بوصفها حركة

إسلامية فلسطينية، كانت حماس عربية وسُنّية؛ فيما إيران، بالمقارنة، كانت فارسية وشيعية.

كـــان أحــــد معاصــــري الشيخ أحمد ياسين القدامى قد شرح أن تلك كانت اخـــتلافات أدّت إلى انعـــدام الثقة وظهور شكوك في العلاقة. تذكّر قائلاً: "أرسلنا العديـــد مـــن الوفود إلى طهران، لكن لم يتم استقبالنا. لقد ألهمتنا الثورة، لكن كان هـــناك جدار بيننا. كنا خائفين من أن يستغلّونا، كانوا يريدون تصدير ثورة شيعية، وليس ثورة ببساطة"[2].

لكـــن في الوقت المناسب – خاصة في ظل الجهود التي قادها الولايات المتحدة لتـــشديد القبضة على منع نقل الأموال لحماس عبر النظام المصرفي العالمي – أصبحت طهـــران مـــصدراً أساســـياً للـــدعم المـــادي والمالي للحركة الفلسطينية. في أواخر الثمانينـــيات، قدّرت واشنطن أن حوالى 10 بالمئة من تمويل حماس يأتي من إيران[3]. عـــندما تم تجمـــيد المساعدات والتمويل لحماس بعد انتصارها الانتخابـــي في كانون الثاني 2006، تعهّدت طهران علناً بتقديم 250 مليون دولار. بعد اتفاق مكة المكرمة، قـــدّرت إسرائيل أن الأموال التي تأتي من طهران تبلغ حوالى 15 مليون دولار شهرياً، والتي كانت تتجه إلى قوات حماس المقاتلة، وفقاً لمسؤولين إسرائيليين وأميركيين[4].

كانت الأزمة الفلسطينية خطة عمل مركزية في جهود طهران لتقديم نفسها من فوق رؤوس القادة العرب إلى شعوبهم، أو ما يدعى الشارع العربـــي؛ وهذا ما جعل حماس أداة في الـــسياسة الخارجية الإيرانية. شجبت القيادة الإيرانية الدولة العبرية مراراً، وبتشجيعها لهجمات حماس العنيفة، تواصل الجدل، واستفادت من النـــزاع لمصلحتها الخاصة.

أثار الاتهام المباشر أو المبطن أن حماس عبارة عن دمية في يد النظام الإيراني لغطاً سياســـياً كـــبيراً في إســـرائيل وأميركا، لكن وجهة نظر أكثر اتزاناً لخبراء قدامى في الاســـتخبارات مثل رئيس الموساد السابق إفرايم هالفي رفضت ذلك التصور. جادل إفرايم قائلاً: "تتلقى حماس أموالاً، ودعماً، ومعدات، وتدريباً من إيران، لكنها ليست تابعة لطهران"[5].

أكّد مسؤول إسرائيلي بارز سابق، كان قد أصرّ على حاجة إسرائيل إلى التعامل مع حماس، الحجة نفسها: "حماس ليست أداة إيرانية، وأفرادها ليسوا جزءاً من الجهاد العالمي – إنهم وطنيون، وليسوا من القاعدة – إنهم وطنيون فلسطينيون".

وافــق آخـــرون كانـــوا لا يـــزالون يعملـــون في مستويات عليا من مؤسسة الاســـتخبارات الإســـرائيلية على ذلك. شرح أحدهم بأنه لم يكن هناك شك في أن خالـــد مشعل هو حجر الزاوية في دبلوماسية حماس وعملياتها لجمع الأموال، لكن - مقارنة بالفصيل الإسلامي الفلسطيني الآخر، الجهاد الإسلامي، الذي يقال إنه قد رهن نفسه إلى طهران - كان يرى أن مشعل قد أتقن فن تحقيق توازن بين استقلال حماس السنّية مع مطالب سورية وشيعة إيران.

قـــال: "وقعـــت الجهاد الإسلامي تحت سيطرة طهران الكاملة. لم تكن حماس تـــرغب في ذلك لنفسها. كانت حماس بحاجة إلى طهران ودمشق، لكنه توازن أتقنه مشعل جيداً. بقي قريباً من هذين الحليفين الاستراتيجيين، لكنه عمل على ضمان عدم تحوُّل حماس إلى تابع لإيران أو سورية. بالتأكيد، يستشيرهما، لكن خالد مشعل يتخذ القرارات"[6].

أضاف مشعل شيئاً جديداً إلى حجته عندما سُئل عن صلات حماس مع طهران بعد اتفاق مكة المكرّمة. كانت العلاقة جزءاً من دبلوماسية حماس في العالمين العربـــي والإســـلامي، كمـــا قـــال، وتقدم حلين (أ) و(ب). قال: "نحن مستقلون، سياسياً وتنظيمـــياً. ذهبنا إلى مكة المكرّمة، لو أننا كنا جزءاً من المحور الإيراني، لما كنا أصغينا إلى المملكة العربية السعودية، التي تقف في المحور المعاكس". تحوّل مشعل بعد ذلك إلى الشأن العراقي، حيث دعمت حماس السنّة ضد الغالبية الشيعية الموالية لإيران. شرح: "دعمنا بوضوح [السنّة]. يتعارض ذلك بكل وضوح مع السياسات الإيرانية. شجبنا إعدام صدام حسين، وإيران رحّبت به"[7].

نادراً ما كشف مشعل وزملاؤه في حماس أي معلومات عن المساعدة العسكرية الـــتي تـــتلقاها الحركة من إيران. اعترف مشعل بخضوعه لتدريب عسكري[8]، لكنه رفـــض الكـــشف عن البلد الذي تم فيه ذلك. كانت إيران، على أي حال، إحدى الدول القليلة جداً التي يمكن أن يكون قد تلقّى تدريبه فيها. سيصرّ لاحقاً: "لا يمكنني الكشف عن الموقع. كان تدريباً؛ هذا كاف".

دبلوماسياً، كانت قيادة حماس مثل عشيرة بدوية في الصحارى العربية، تتحرك باســـتمرار. بعد خروجهم من الكويت، كانوا قد انتقلوا إلى الأردن؛ وعندما ضاقت بهم الحال في الأردن، كانوا قد تجمّعوا في قطر لمدة وجيزة، قبل أن يستقر بهم الحال في

سورية. لم يكن ذلك استقراراً ثابتاً، بل موزعاً بين دمشق وطهران، والذي يمكن أن ينهار في حال تم توجيه ضربات عسكرية أميركية إلى إيران أو تحقيق اختراق في جهود إبرام اتفاق سلام بين سورية وإسرائيل.

أعطى مشعل الانطباع أنه مطمئن بشأن قدرة حركته على قراءة الأوضاع الراهنة. شرح قائلاً: "حماس لا تأخذ اللاعبين الإقليميين والدوليين بالمظاهر. نعرفهم جيداً؛ وندرك دوافعهم وأهدافهم، لهذا من الصعب خداعنا"[9]. ربما كان ذلك تظاهراً بالشجاعة، لكنه أجدى نفعاً طيلة سنوات.

كان لدى حماس الكثير لتستوعبه. فيما كان مسؤولون يحللون الأسرار التي كشف عنها الريماوي في *المجد* الأردنية ومدوّنة الغرير *حلقات مفقودة* في كندا، رأى البعض في الحركة أن خياراتهم تضيق في مواجهة أزمة هويّة حقيقية.

كان هناك وقف للعمليات الاستشهادية ضد إسرائيل منذ تشرين الثاني 2006، والذي أشار إلى أن حماس كانت قد توقفت عن العمل كحركة مقاومة. مفلسة، في ظل حصار دولي وانفلات أمني في الأراضي المحتلة، لم يكن هناك الكثير مما يمكنها فعله كحكومة. بالنسبة إلى حركة مثل حماس، كان ذلك عقاباً مضاعفاً. مقيدة اليدين، رأت شعبيتها تتراجع على حين كان زملاء محمد دحلان يثيرون قلاقل مخالفة للقانون والتي كانت ستشكل ذريعة لدحلان وفتح لخلع حماس من السلطة.

ادّعى محللون قريبون من وزارة الدفاع الإسرائيلية ومؤسسة الاستخبارات أن حماس قضت معظم ربيع العام 2007 تتدرب على تكتيكات حزب الله في جنوبي لبنان والتي أثبتت نجاحاً كبيراً. كانت حماس تقوم بتهريب المزيد من الأسلحة المتطورة إلى غزة. كانت تستثمر في جهود لتطوير أداء ومدة تخزين صواريخها[10]. وكانت أيضاً تحفر شبكة شاملة من الأنفاق القتالية، إضافة إلى مسالك إمدادات تحت الأرض كانت تستعملها لاجتياز المعابر الحدودية الخاضعة للسيطرة الإسرائيلية.

كان لدى حماس حوالى عشرين ألف رجل مسلح في القوة التنفيذية وكتائب القسام. وكان تدريب واسع النطاق يتم في غزة. لكن منذ الانسحاب الإسرائيلي من غزة في العام 2005، كان قد تم تهريب مجندين منتقين بالعشرات وإرسالهم إلى الحرس الثوري الإيراني في طهران لقضاء مدة تدريبية تمتد من خمسة وأربعين يوماً إلى ستة شهور[11]. كانت هناك دورات أخرى في سورية ولبنان. زادت تلك النشاطات من

قـــدرة الحـــركة على شن هجمات فتّاكة على إسرائيل، مع توقُّع انهيار وقف إطلاق النار، وقد تم تزويد هؤلاء الرجال أيضاً بالأسلحة للسيطرة على شوارع غزة ضد كل من فتح والقوات الإسرائيلية.

لم يـــصمد اتفاق مكة المكرّمة بين حماس وفتح سوى ستة أسابيع فقط. استقال هاني قواسمة، وزير الداخلية المستقل، في منتصف أيار، واشتكى علانية أن مجموعة من ضـــباط فـــتح في الأجهزة الأمنية أعاقت باستمرار جهوده لتطبيق القانون. كان كل فصيل قد حاول الالتفاف على الوضع القائم آنذاك أو سعى لفرض شروط يمكنه من خلالهـــا نشر قواته. في 17 أيار، قام دحلان بخطوته لاستعادة السيطرة على شوارع غزة، نشر آلافاً من رجاله من دون استشارة حماس. اندلعت اشتباكات عندما تقابلت القوات المتعارضة في الشوارع، كانت هناك عشرون حالة وفاة في اليوم الأول وحده.

في 21 أيـــار، استأنفت إسرائيل غاراتها الجوية على أهداف حماس. كانت تردّ علـــى تكثيف إطلاق الصواريخ على تجمّعات إسرائيلية في محيط غزة من قبل الجهاد الإســـلامي. كانت تلك الهجمات على إسرائيل محاولة متعمدة من الفصيل الإسلامي لإثارة رد فعل إسرائيلي، على أمل أن يوحد ذلك حماس وفتح ضد عدوهما المشترك. عندما شن سلاح الجو الإسرائيلي غارة جوية على منـــزل في غزة لخليل الحية، أحد قادة حماس السياسيين البارزين، كان خارج منـــزله ذلك المساء؛ لكن سبعة من أفراد عائلته لقوا حتفهم.

أرغمـــت الغـــارات الإسرائيلية قيادة حماس على التشتت. صدرت إليهم أوامر بالامتـــناع عن استعمال الهواتف الخليوية، التي يمكن تعقّبها بسهولة، والبقاء بعيداً عن كـــل مباني حماس، التي كانت أهدافاً واضحة للطائرات الإسرائيلية. حذّر وزير الأمن الداخلي الإسرائيلي، آفي ديختر، علانية أن قيادة حماس في دمشق مستهدفة أيضاً. قال ديختـــر: "خالد مشعل ليس بأمان وهو يعرف ذلك جيداً". كانت إسرائيل تقدم لفتح معروفاً آنذاك، لأن قيادة حماس كانت ستجد صعوبة كبيرة في مواجهة فتح والإفلات في الوقت نفسه من الضربات الإسرائيلية.

بحـــسابات حمـــاس، كان الإعداد جارياً للقيام بانقلاب. استنتج مستشار هنية، أحمد يوسف: "فتح تنفِّذ أوامر الولايات المتحدة وإسرائيل لتصعيد العنف"[12]. بالنسبة إلى الإسلاميين، كانوا قد وصلوا إلى نقطة شن هجوم، أو التعرض لهجوم.

لـــزم الغـــزّاويون منازلهم. كان المسلحون قد عادوا إلى مراكزهم على أسطح الأبنية في كل أنحاء المدينة. وكان الأطباء يتعرضون للاعتداء بشكل خاص، على حين ناشـــد مسؤولو التعليم التوصل إلى وقف لإطلاق النار كي يستطيع أكثر من سبعين ألـــف طالـــب إنهـــاء امتحاناتهم بسلام. تعرضت شخصيات بارزة من كلا الطرفين للاختطاف بشكل غامض، لكن كل فصيل أنكر أي دور في اختفائهم.

بيـــنما كـــان يتم إحصاء عدد القتلى يومياً، فقد السكان المحليون الثقة بإمكانية تحقيق وقف إطلاق النار. كان قد تم عقد أكثر من اثني عشر اتفاقاً من ذلك النوع في خمـــسة عشر شهراً، لم يدم بعضها سوى ساعات فقط. ادّعت فتح أنها كانت تدافع عـــن نفسها. وجادلت حماس أنها كانت تتعرض للاستفزاز. كانت هناك أيام أصبح مستحيلاً فيها معرفة ما يجري.

أضحت فتح واثقة تماماً أن إسرائيل والأميركيين سيقدمون المساعدة. كانت قد تمـــت الموافقة على صرف حوالى نصف مبلغ 84.6 مليون دولار الذي كانت إدارة بوش قد حاولت الحصول عليه من الكونغرس لتدريب قوات عباس ذلك العام. كانت هـــناك معسكرات تدريب قائمة آنذاك في أريحا في الضفة الغربية، وفي غزة؛ وكانت هناك منشأة جديدة على وشك أن يتم افتتاحها في الأردن[13]. كانت مصر والأردن مستعدتان لتقديم أسلحة وذخيرة لفتح. وكانت إسرائيل قد تعاونت مجدداً مع عباس عندما سمحت لخمسمئة من مقاتلي فتح تم تدريبهم بإشراف أميركي في مصر بدخول القطاع[14].

في الأيـــام الأولى من حزيران، كشفت إسرائيل أنها كانت تتعرض لضغوط من فتح للـــسماح بدخـــول شـــحنة خامسة من الأسلحة إلى غزة في أقل من ثمانية شهور. كان دحلان يريد تلك المرة الموافقة على إدخال عشرات السيارات المصفحة، مئات الصواريخ المـــضادة للـــدروع، آلاف القنابل اليدوية، وملايين مقذوفات الذخيرة إلى غزة[15]. دافع بعـــض المـــسؤولين الإسرائيليين بقوة عن إمكانية قيام قوة من أنصار فتح بقيادة دحلان بالـــسيطرة على الجزء الشمالي من قطاع غزة، لحماية إسرائيل من الصواريخ التي تطلقها حماس وميليشيات فلسطينية أخرى. كانوا يدعوهم *رجال دايتون*[16].

كانـــت الاستخبارات الإسرائيلية منقسمة في تقديراتها لقوة فتح. استنتج جهاز الأمن الداخلي، الشين بيت، أن فصيل عباس كان على حافة الانهيار وأن مواجهة مع

حماس ستقضي عليه نهائياً. كانت الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية، من جانب آخر، تعتقد أن فتح لا تزال تتمتع ببعض القوة[17].

كان كيث دايتون قد أولى دائماً عناية خاصة لسياسة الابتعاد عن وسائل الإعلام، ولم يوافق على إجراء سوى مقابلات صحافية قليلة، والتي كانت مقيّدة بشكل كبير. كانت النتيجة صورة عامة ذات بُعدين. لكن شخصية أكثر تشدداً ظهرت فجأة عندما تم استدعاء الجنرال إلى واشنطن للحديث أمام لجنة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا الفرعية المنبثقة عن لجنة الشؤون الخارجية في مجلس النواب في 23 أيار.

كان هناك مشهد سريالي من زمن غابر لظهور دايتون. كان الأمر مثل عودة إلى أعماق الحرب الباردة؛ كما لو أن الجنرال قد خرج للتو من فيلم إخباري كئيب بالأسود والأبيض لينقل أنباءً من هرمجدون. كانت قوات الرئيس عباس *الشرعية* تخوض "معركة لفرض القانون والنظام، كما لم يحدث من قبل"، كما نقل دايتون للّجنة. كانت "قوات القانون والنظام الموالية لفتح" تواجه "عدواناً سافراً" من ميليشيا حماس. وكان الهدف الأسمى للأخيرة، كما قال، تدمير إسرائيل، لكن هدفها المرحلي آنذاك كان القضاء على "القوات الأمنية الشرعية" للرئيس الفلسطيني وإقامة "دولة أصولية" على الحدود الإسرائيلية. كانت الظروف الحالكة تبدو يقيناً بالأبيض والأسود.

أخبر دايتون اللجنة الفرعية أن العنف الأخير في غزة ربما يكون بداية جهد متواصل من حماس لتثبيت سلطتها. لكنه أعلن أن فتح كانت مستعدة آنذاك لتردّ الصاع صاعين. "هناك مرحلة يكون فيها عدم القيام بشيء ما - موقف الانتظار ورؤية ما يحدث - ليس ضمن الخيارات المطروحة". ربما كانت حماس قد حققت انتصارات سهلة في الاشتباكات بداية العام 2007، كما أكّد، لكن موقف الحركة الإسلامية كان آنذاك قد ضعُف وفقدت دعمها الشعبي.

كانت وحدة من حرس عباس الرئاسي، الذي أشرفت الولايات المتحدة على تدريبه وقامت أوروبا بتمويله، قد صدّت هجوماً كاسحاً من حماس قبل أسبوع، كما قال. كانت وحدة أخرى موالية لعباس قد أبلت جيداً بالرغم من الموارد المحدودة وموت قائدها. قال الجنرال دايتون للّجنة: "أخشى أن حماس ستقاتل حتى النهاية. نحن ندخل منعطفاً حاسماً، لكن كل شيء تحت السيطرة"[18].

بالعـــودة إلى غـــزة، شعر رؤساء الأجهزة الأمنية الموالون لفتح بثقة أكبر عندما شرّفهم الرئيس عباس بوجوده بينهم. في محاولة لتقوية عزيمتهم وفي إشارة إلى مطالب واشـــنطن بضرورة *إصلاح* قواته، كان عباس قد التزم في كانون الثاني بإقصاء حوالى 150 مـــن القادة[19]. آنذاك، فيما كان رجاله يتجمّعون حوله في غرفة مليئة بدخان لفائـــف التبغ، كان الرئيس الفلسطيني يلتقي بعضاً من حرسه الجديد الذين سيتولون إدارة القتال ضد حماس.

صـــفقوا بقـــوة عندما أصرّ عباس على قيامهم بإيقاف إطلاق الصواريخ على إســـرائيل. صرّح قائلاً، فيما كانت آلتا تصوير على الأقل تعملان، يحث رجاله على ملاحقـــة حماس والميليشيات الفلسطينية الأخرى: "اضربوهم، اقتلوهم، أطلقوا عليهم النار"[20]. في تقليد لعادات إلقاء الخطب النارية في المنطقة، أكّد أحد رؤساء الأجهزة الأمنية لعباس أنهم على قدر التحدّي. قال لرئيسه: "لدينا جيش سيغطي الشمس!".

وسط كل التهنئة الذاتية تلك، تجرأ أحد الرجال الآخرين على وضع إطار زمني لانتـــصار فتح الأكيد على حماس. زعم: "لن يستغرق الأمر أكثر من *غلوة*". كانت تلـــك كلمـــة محلـــية لوصف اللحظات القليلة التي تفصل بين تسخين القهوة العربية وغليانها بالفعل، وكانت *غلوة* غزة تكافئ جزءاً من الثانية.

صـــادف 5 حزيران 2007 الذكرى الأربعين لبداية حرب الأيام الستة في العام 1967، والتي استولت في خلالها إسرائيل على الضفة الغربية وقطاع غزة. أحيا محمود عباس الذكرى بخطاب متلفز أقرّ فيه أن شعبه ربما كان على حافة حرب أهلية.

كـــان بسام عبد الرؤوف، الذي يعيش وسط بساتين الفاكهة على درب رملي في بـــيت حانون، قد تكيّف مع المعدل الجديد لاندلاع العنف. باعتباره أحد أنصار فـــتح، كـــان قد قاتل مع كتائب شهداء الأقصى وفي يوم الاثنين 11 حزيران، وجد نفسه مع آخرين يقوم بمهمة حراسة على سطح منـــزل في بيت لاهيا يقطنه جمال أبو جديان، أحد مؤسسي الكتائب في غزة والمقرّب من محمد دحلان.

مـــثل سمـــيح المدهون، الذي كان قد اختطف عائلة أبو دان في نهاية كانون الـــثاني، كان أبو جديان البالغ من العمر خمسين عاماً يحكم مثل أمير حرب جزءاً من المنطقة الشمالية في قطاع غزة. كان كل من أبو جديان والمدهون هدفاً للاغتيال من قبل فرق حماس.

في ذلك اليوم تحديداً، كانت غزة تغلي. قبل أربعة أيام، كان مقتل وائل محمود وهبة البالغ من العمر ستة وعشرين عاماً في مقاطعة رفح الجنوبية قد أدّى إلى حدوث سلسلة من عمليات الثأر[21]. مرّت التماسات لضبط النفس من عملاء أمن مصريين - الذين كانوا على الأرض يحاولون منع الانهيار الكامل - من دون أن يلتفت إليها أحد بينما انتشرت الفوضى شمالاً من رفح.

فيما كان عبد الرؤوف يحمل سلاحه على سطح منزل جمال أبو جديان، قبلت حماس التحدّي. في بيان رهيب، حذّر الإسلاميون فتح وأنصارها من عقاب إسلامي قاسٍ: *قَصَاص*. انكبّ محامون في المركز الفلسطيني لحقوق الإنسان على كتب الشريعة الإسلامية ومعاجم إنكليزية في محاولاتهم لترجمة الكلمة، قبل أن يستقر بهم الرأي على كلمة أميركية قديمة من القرن التاسع عشر - *اقتصاص* - لنقل المعنى القاتل لذلك التحول الجديد في النزاع[22].

تحت عنوان **"نتعهد بالاقتصاص من القتلة"**، بدأ بيان حماس:

> يكفي ما حدث. لم يعد ضبط النفس، الاتفاقيات والميثاق نافعاً مع هؤلاء القتلة. يصر هؤلاء الأشخاص العصاة على الاستمرار في أفعالهم السيئة وعمليات القتل التي يقومون بها. إذا تُركوا من دون عقاب، سيغرقون ويجعلوننا نغرق معهم. لهذا ينبغي... جلبهم إلى العدالة. لكن أي عدالة؟ هل هي عدالة المدّعي العام، عدالة السلطة القضائية أم القصاص؟

مستنتجاً أن القصاص هو الخيار الوحيد، جادل بيان حماس أن الجرائم التي تم ارتكابها في غزة تبرر *قصاص* العين بالعين، والذي يعني قتل القاتل، أو الردّ على الأذى بمثله، المسموح به دينياً. كحلّ إسلامي لفقدان الحكومة، كان ذلك أكثر وعيداً من التعريف البسيط للاقتصاص المأخوذ من معجم *هيرتيج (إرث) الأميركي*: "عقاب أو تعزير من يستحق".

في القتال الشرس الذي اندلع بعد ذلك، لقي أكثر من 160 فلسطينياً حتفهم، وأُصيب أكثر من 700 بجروح؛ تلقّى قسم كبير منهم رصاصة في الركبة في أعمال ثأر قام بها كلا الطرفين. وسط موجة مقزّزة من عمليات الإعدام السريع، تم رمي مقاتلين - أحدهما من فتح، والآخر من حماس - ليلقيا حتفهما من فوق برجين

سـكنيين عاليين في المدينة واللذين أصبحا مركزين لإطلاق النار. تم اختطاف وتقييد آخرين على سطوح أو جوانب مركبات كدروع بشرية عند محاصرة آسريهم.

كانت المباني الأمنية الأربعة التي تسيطر عليها فتح قد أصبحت بؤراً لقتال ضارٍ. لكـن كقوة قتالية، انهارت فتح بشكل مخزٍ. لم تنفع الأسلحة والتدريب الذي قدّمته الـولايات المـتحدة وحلفاؤها الإقليميون في شيء. سيوثّق باحثون من هيئة راجي الصوراني لحقوق الإنسان - المركز الفلسطيني لحقوق الإنسان - لاحقاً تفاصيل رهيبة من ساحات المعارك وعمليات انتقام فتح وحماس القاسية، ضد بعضهما.

تم نسف جهاز إرسال لتلفزيون فتح في شارع عمر المختار. سيطرت فتح على مقـر تلفـزيون الأقـصى لمدة وجيزة، بثّت في خلالها أناشيد فتح على قناة حماس الفـضائية. تم إغـلاق المحطات الإذاعية. ودعمت قوات العشائر في غزة من الخلف الفصيل الذي كانت تعتقد أنه سيفوز على الأرجح أو الفصيل الذي تدين له أكثر.

في إحدى المراحل، سيطر مسلحون مقنّعون على مستشفى الشفاء المركزي في غزة. قـال الدكتور وسام عوض الله لمراسلين على الهاتف: "لا نعرف من هم أو من يقاتلون. سيأتي الوقت الذي لن نستطيع فيه معالجة أحد، و[سوف] ندعهم يموتون"[23].

بعـد وقت قصير من الساعة الرابعة بعد ظهر الاثنين، وهو اليوم الذي حذّرت فـيه حماس من *القصاص*، عرف بسام عبد الرؤف ومقاتلو فتح الآخرون على سطح منـزل جمـال أبو جديان بأمر اشتباكات بين حماس وأعضاء من عشيرة المصري القـوية في سوق قريب. كان تحالف آل المصري مع فتح قد ضمن موقع رئيس جهاز الاسـتخبارات - المرتبط - بفتح في غزة لزعيم العشيرة. توقفت حصيلة القتلى عند حـوالى ثلاثين في عداوة دم بدأت في العام 2005 عندما سحب أحد رجال عشيرة المـصري مـسدساً وأطلق الرصاص على بائع فاكهة على جانب الطريق من عشيرة منافسة عندما لم يستطع صاحب الكشك صرف ورقة نقدية من فئة عشرين شيكل تم تقديمها لشراء المانغا[24].

كـان أول مـن لقي حتفه في اشتباك السوق باسل داود كفارنة، مقاتل حماس الذي كان يبلغ من العمر ثلاثة وعشرين عاماً. لكن في خلال وقت قصير، كان ثلاثة من رجال المصري الذي قاتلوا مع فتح قد سقطوا أيضاً، في برك من دمائهم. نقل آل المـصري عـشرة من جرحاهم إلى مستشفى كمال عدوان في بيت حانون. في أثناء

معالجـــتهم، فرض بعض رجال عشيرة المصري طوقاً حول المستشفى على حين انطلق رفاقهم في الداخل من جناح إلى آخر، بحثاً عن مقاتلي وأنصار حماس[25]. جاء مقاتلو حماس بعدهم، دخلوا المستشفى بقوة كل الأسلحة المتوفرة معهم. صرخ طبيب يائس: "الجميع يطلق النار على الجميع"[26].

أُصيب المرضى بالذعر. هرب أولئك الذين كانوا يستطيعون التحرك جرياً على الأقدام، وانكمش أولئك الذين كانوا حبيسي أسرّتهم خوفاً عندما تحولت الأجنحة إلى ميادين للمعارك. صدرت أوامر للأطباء الذين كانوا يعالجون المقاتل المصري المصاب بجـــروح بالغـــة بالابتعاد عن المريض الذي كان على طاولة العمليات[27]. في الوقت الذي سيطرت فيه حماس على المستشفى، كان ثلاثة رجال آخرين من آل المصري قد لقوا حتفهم؛ أب، ابنه، وأحد أبناء إخوته.

علـــى سطح أبو جديان، قاوم عبد الرؤوف وثلاثة من زملائه في فتح ما كانوا يعتقدون أنها نيران جس نبض من عشيرة أخرى في المقاطعة، متحالفة مع حماس. لكن القتال كان ينتقل باستمرار في الحي، وبحلول الثامنة مساءً تعرضوا لنيران رشاشات إلى جانـــب صـــواريخ وقذائف هاون، والتي جاء معظمها من بناء سكني قريب كانت حماس قد اتخذته رأس جسر.

توسلت امرأة قالت إنها مع أكثر من خمسين شخصاً كانوا لا يزالون داخل المبنى المكـــوّن مـــن ست شقق، في خلال اتصال هاتفي مع محطة إذاعة فتح: "ساعدونا. يريدون قتلنا!"[28].

عندما نظر إلى الخارج من طابق أدنى في المبنى نفسه، قدّر طاهر عبيد، زميل عبد الـــرؤوف البالغ من العمر تسعة عشر عاماً، أن تعداد قوات حماس التي تحاصرهم يبلغ مـــئات. كانت المباني القريبة الخاضعة لسيطرة فتح قد وقعت في أيدي حماس. راقب عبـــيد برعب بينما كان مقاتلو حماس يظهرون على سطح البناء المجاور، حيث ألقوا القبض على زميله في فتح محمود جابر صفتوي وسحبوه من خلف المتراس.

أُصـــيب القائـــد أبـــو جديان بجروح نتيجة ضربة صاروخية مباشرة على المبنى الرئيـــسي. تعثـــر عندما خرج إلى الشارع، بالكاد يستطيع السير. ثم ظهرت مركبة لحمـــاس وخرج منها ستة مسلحين. كان هناك صوت عيار ناري وسقط أبو جديان البالغ من العمر خمسين عاماً على الأرض ورصاصة في رأسه.

وقـــف أحـــد المـــسلحين الستة على صدره، وأطلق من مدى قريب عشرات العـــيارات النارية على جسد القائد العسكري بينما كان آخرون يصرخون: "خائن! متعاون! جاسوس!".

بعـــد ثلاثين دقيقة، لقي ماجد الشقيق الأصغر لأبو جديان المصير نفسه. كانت المعركة للسيطرة على المبنى السكني للعائلة قد انتهت عندما حاول ماجد الهرب، لكن تم إلقـــاء القـــبض علـــيه ونقله في ميتسوبيشي بيضاء إلى مقاطعة جباليا، في منتصف الطريق بين بيت حانون وبيت لاهيا. كان السكان المحليون يراقبون ما يجري عندما تم إلقـــاؤه على الأرض من قبل مجموعة من الرجال الذين كانوا يرتدون قمصان كتائب القسام. انطلقت أربعة أعيرة نارية[29].

عند الحادية عشرة مساءً، لم يكن لدى عبد الرؤوف خيار سوى تسليم السطح، حـــيث كـــان وحيداً ويائساً. من بين رفاقه الثلاثة، أُصيب أحدهم بجروح من شظية قذيفة وجرّ الآخران الرجل الجريح إلى بر الأمان. تعرض عبد الرؤوف نفسه للإصابة بجروح. في أثناء نـــزوله من سطح المنـــزل، التقى عدّة أطفال مذعورين متجمّعين في الأمان النسبـــي لفسحة السلالم.

لدى استجابته لدعوات من مقاتلي حماس باستسلام كل من في المبنى، تابع عبد الـــرؤوف طريقه نـــزولاً على السلالم، فقط ليصطدم برتل من الرجال الذين يرتدون ملابس سوداء ويتحركون عبر البناء. كان الحصن الخاص لقائد فتح العسكري جمال أبو جديان قد سقط في أيدي حماس.

أنقـــذ بعض رجال حماس الأطفال المذعورين وأسرعوا بهم مبتعدين عن المكان. سحب آخرون عبد الرؤوف والثلاثة الآخرين الذين كانوا على السطح إلى الشارع. بعـــد استجوابهم وتفقّد قائمة مكتوبة من أسماء مقاتلي فتح، تعرضوا للضرب بأعقاب البـــنادق. على بعد مسافة قصيرة، كان طاهر عبيد بين مقاتلي فتح الأربعة الذين تم وضعهم في شاحنة سوداء انطلقت بسرعة كبيرة.

مـــستلقياً علـــى الأرض، مقيد اليدين ومعصوب العينين، تعرض عبد الرؤوف للمـــزيد مـــن الإذلال عندما أمر آسروه أحد المارة بالتبول على رأسه. تم وضعه في ســـيارة جالت به في رحلة قصيرة، ثم إخراجه منها وإلقاؤه على قارعة الطريق. أطلق عدّة مسلحين من حماس الرصاص على قدميه قبل أن ينطلقوا بالسيارة مبتعدين[30].

عـــندما اســـتعاد وعـــيه، كان في مستشفى العودة. لكن قدميه المصابتين كانتا تتطلـــبان معالجـــة أكثـــر تطوراً مما يقدمه له أطباء مرهقون في تلك العيادة المحلية. تم إرســـاله في سيارة إسعاف إلى مستشفى الشفاء المركزي في غزة، حيث أدخله أنصار فتح باسم مستعار لإخفاء هويته عن فرق حماس التي تطوف المستشفى.

بعـــد ثمانٍ وأربعين ساعة، تم وضع عبد الرؤوف في سيارة إسعاف، ونقله على وجـــه الـــسرعة إلى مدينـــة عسقلان الإسرائيلية. كان آخر شيء يتذكّره قيام أطباء يتكلمون العبرية بحقنه بمسكّن قوي. قال لاحقاً: "استيقظت و لم أجد قدميّ"[31].

في وقـــت متأخـــر من يوم الخميس، 14 حزيران، بعد ثمانية أيام من إراقة دماء كـــثيرة وأعمـــال وحشية على كلا الطرفين، شوهدت سيارة تنطلق بسرعة جنونية، تتجه جنوباً على الطريق الساحلي إلى الغرب من مخيم اللاجئين في النصيرات. كانت الـــساعة 6:30 مـــساءً عندما أُشير إلى السائق بإيقاف المركبة التي كانت تقترب من نقطة تفتيش لحماس.

أبطأت السيارة سرعتها، لكن عندما اقتربت من نقطة التفتيش، سحب راكبوها أســـلحة وفتحوا النار. لقي أحد مقاتلي حماس، جمال أبو سويرة البالغ من العمر ثلاثة وعـــشرين عامـــاً، حتفه على الفور. تعرض آخران لجروح خطيرة. أمطر زملاؤهما السيارة بنيران أسلحة آلية، مما أدى إلى مقتل السائق.

عندما سحبوا الركاب الجرحى من المركبة، تعرّفوا مباشرة رجلاً قوي البنية في بداية العقـــد الـــثالث مـــن العمر. كانوا قد ألقوا القبض على سميح المدهون، أحد رجال فتح الأقـــوياء الأكثر ميلاً للعنف في القطاع، وكان يحاول الوصول إلى الحدود المصرية. لكن بـــدلاً من الحرية في القاهرة، كان الرجل الذي اختطف، وعذّب عائلة أبو دان في كانون الـــثاني، وأخذ بعد ذلك يتباهى عبر المذياع بأنه قتل عدداً من قادة حماس، وأحرق منازل أكثر من عشرين من أنصار الحركة، كان قد وصل إلى نهاية الطريق[32].

أُلقي به في القسم الخلفي من إحدى شاحنات الميتسوبيشي، ونقل تحت حراسة مـــشدّدة إلى مخيم اللاجئين في النصيرات القريبة. توقف الموكب خارج منـــزل عائلة جمال أبو سويرة.

تجمّع حشد بعد إلقاء المدهون على الطريق، حيث تم إمطاره بوابل من رصاص البـــنادق الآلـــية. تم ربط جثته إلى مؤخر إحدى المركبات، التي سارت ببطء، أمام

مـــوكب مـــن ثماني شاحنات لحماس، عبر شوارع وأزقّة المخيم المتهالك. أطلق مارة الشتائم، واندفع البعض لطعن الجثة بالسكاكين. كان ذلك أحد مشاهد الثأر المروّعة، التي سجّلتها آلة تصوير فيديو وتم بثها لاحقاً على قناة الأقصى التلفزيونية[33].

كـــان الهدف من التحذير المخيف من *القصاص* الذي أطلقته حماس قبل أسبوع هـــو بـــث الرعب في قلوب مقاتلي فتح بقيادة محمد دحلان، وقد تحقق ذلك. لكنه أصـــبح أيـــضاً ترخيصاً للبعض في صفوف حماس لمعاملة أسراهم بأسوأ مما كانوا قد سمعوا به واختبروه من أساليب وطرق فتح في التعذيب الجسدي - الحقيقية والمشكوك بصحتها.

بينما كانت برودة ليل الصيف تحلّ بمخيم النصيرات مساء 14 حزيران، كانت معـــركة غـــزة قـــد انتهت. كان الصوت الغريب الذي غلّف القطاع الساحلي هو الصمت.

في أول إشـــارة علـــى الانتـــصار، حلت راية حماس الخضراء محل علم السلطة الفلسطينية على المباني الحكومية في غزة. كانت هناك ادّعاءات أن غزة أصبحت *حرة للمـــرة الثانـــية*. داست حشود على صور محمود عباس وياسر عرفات الراحل تحت أقدامها في أثناء دخولها لمقرّيهما في غزة، ونجم عن ذلك مشاهد إخبارية أغاظت قيادة فتح في رام الله.

لكـــن السخرية لم تكن من القيادة الفلسطينية العلمانية وحدها. عندما احتلت حمـــاس لوقت قصير مكتب عباس، المعروف أيضاً باسم أبو مازن، رفع أحد المقاتلين سماعـــة هاتف، وأجرى اتصالاً ساخراً. "مرحباً يا كونداليزا رايس؟"، وضحك عبر السمّاعة. "ينبغي أن تتعاملي معي الآن، لم يعد أبو مازن هنا"[34].

ســـابقاً، كانت الكلمة التي يستعملها مسؤولون إسرائيليون وأميركيون غالباً في تعلـــيقهم علـــى عباس هي *دعم*؛ كان معظم ما يقومون به هو تثبيته كقائد في عيون شعبه. آنذاك، بعد فشلهم في تثبيته، ظهرت كلمة شرعي؛ كان عباس *شرعياً* وكانت حماس بهذا المعنى غير شرعية، بالرغم من انتخابها في اقتراع شعبـــي.

بالـــرغم مـــن ذلك، بمواجهة مثل ذلك الانتقاد، ظهر مدافعون عن الحركة من حـــيث لا تـــدري. قال مسؤول بارز في مؤسسة الاستخبارات الإسرائيلية: "هذا ما حـــدث. لم تكـــن واشنطن تريد حكومة وحدة وطنية. كانت تريد من فتح تدميرها

وأرسلت دايتون لإنشاء وتدريب قوة يمكنها خلع حماس. عندما سيطرت حماس، صرخ الجميع عالياً، وادّعوا أنه انقلاب عسكري نفذته حماس؛ لكن من الذي قام بعصيان مسلح؟"[35].

في *يديعوت أحرونوت*، مضى المعلّق سيفر بلوكر بعيداً في الاختلاف مع حماس، قبل أن يدافع عن أدائها الأخير في غزة. المغزى أن حماس لم تكن قاسية أو تمتلئ كراهية لإسرائيل، كما قال، وإنما أنها فازت بالانتخابات. كتب: "لم تستولِ حماس على غزة. قامت بما ينبغي لها... نزع سلاح وتدمير ميليشيا رفضت امتثال سلطتها [الشرعية]"[36].

خوفاً من ثورة حماس في الضفة الغربية، أعلن عباس حالة الطوارئ. أخيراً، بناءً على نصيحة كان يسمعها من واشنطن طيلة شهور، أقال الرئيس الفلسطيني إسماعيل هنية من منصب رئاسة الوزراء. لم يكن اختياره لسلام فياض كمرشح جديد لمنصب رئيس الوزراء في نظام جديد غير انتخابي ضربة معلم في الديمقراطية التي تصرّ عليها واشنطن. بصفته خبيراً اقتصادياً سابقاً في البنك الدولي، كان فياض يحظى باحترام واسع في الغرب، لكن كفلسطيني لم يكن معروفاً تماماً بالنسبة إلى شعبه. كمرشح في الانتخابات التي فازت بها حماس في كانون الثاني من العام 2006، كان قد ترأس قائمة من المرشحين حصلت على 2.4 بالمئة فقط من الأصوات. آنذاك، أصبح رئيس الوزراء الجديد.

مرّ أسبوع تقريباً بعد توقف القتال قبل أن يتكلم الرئيس الذي كان لا يزال غاضباً إلى الشعب. بعد أن حلّ الحكومة، التمس عباس ومساعدوه من المجتمع الدولي مواصلة الحصار على غزة بينما تولى الحكم بإصدار مراسيم. أعلن عباس: "لا حوار مع هؤلاء القتلة. ليس لسفّاحي العصيان المسلح هؤلاء أي مستقبل"[37].

أمر عباس بعد ذلك باعتقال شخصيات بارزة من حماس في الضفة الغربية، ودفع بمعظم القيادة الإسلامية للتواري عن الأنظار بعد إحراق بعض مؤسساتهم بناءً على أوامر رسمية تقضي بإغلاق أكثر من مئة وكالة لحماس. ادّعى عبد السلام السوقي، رئيس أحد أجهزة عباس الأمنية في جنين: "لدينا معلومات أنهم كانوا يستعدون للقيام بالشيء نفسه هنا كما فعلوا في غزة"[38].

كانت الخطة الأميركية لعزل حماس قد انتهت بهزيمة منكرة لفتح ورعاتها في واشنطن. كان هناك هدفان: إما إرغام حماس على الالتزام بشروط الرباعية، أو خلعها

من السلطة. بدلاً من ذلك، كانت الحركة التي حاولت واشنطن تدميرها طيلة عشرين سنة قد سيطرت على 1.4 مليون فلسطيني في أسبوع ويوم، وأذلّت الولايات المتحدة وإسرائيل وحليفيهما الإقليميين في خلال ذلك.

باعتبارها حامية الشعلة المقدّسة للوطنية الفلسطينية، تعرضت فتح للإذلال مرتين في أكثــر من عام بقليل. كانت أولاً قد ذاقت طعم الخسارة في صناديق الاقتراع في كانــون الثاني 2006، ثم مجدداً في ساحة المعركة في غزة بعد ثمانية عشر شهراً. فوق كل ذلك، كانت لدى إسرائيل آنذاك دويلة إسلامية على عتبة بابها.

كان هناك مبنى كبير - معروف لدى الغزّاويين باسم "بيت وكالة الاستخبارات المركــزية" - تــستعمله قــوات فــتح لتخزين الأسلحة. أصبح آنذاك رمزاً للفشل الاســتخباراتي والأمــني الكارثي الذي انكشف أمام أعين العالم. خلف سوره الذي يــضم بــوابة ضــخمة، كانت الجدران مثقوبة، النوافذ مكسورة، ومعظم الأثاث والتجهيزات محطمة أو منهوبة. كان أكثر الذين كسبوا غنائم هم أفراد حماس. وعلى حــين جــثا بعــض المقاتلين على ركبهم تضرّعاً، أشرف البعض الآخر على كوادر تلفــزيونية تصور ما قالوا إنه معدّات لتسجيل المكالمات الهاتفية واستراق السمع على الآخــرين. تم تعــيين فرق خاصة لغربلة الملفات الاستخباراتية، والتي كانت فتح قد فشلت في التخلص منها.

كــان هــناك أسطول من الشاحنات وسيارات النقل التي تجمّعت لنقل معظم الأســلحة التي كانت واشنطن قد قدّمتها؛ الأسلحة نفسها التي كانت إسرائيل تخشى أن ينتهــي بها الأمر في أيدي الإسلاميين. تضمنت تلك الغنيمة عشرات الرشاشات المحمــولة، أكثر من سبعة آلاف بندقية هجومية من طراز أم - 16 الأميركية، وثمانمئة ألــف رصاصــة. وقعت قافلة كاملة من المركبات الجديدة - عربات جند مصفّحة، ســيارات جــيب عــسكرية، سيارات مدنية مصفّحة، شاحنات مزوّدة بمدافع مياه وجــرّافات عسكرية - في أيدي حماس[39]. كان هناك أيضاً اثنا عشر صاروخاً بعيد المدى، وصواريخ مضادة للدبابات، وأطنان من المتفجرات[40].

كان قادة حماس العسكريون قد توقعوا أن يستمر النــزاع شهراً أو أكثر. لكن بالطــريقة نفــسها التي انهار بها صرح صدام حسين الأمني بضربة قاسية ومباشرة من قــوات الغزو بقيادة أميركا في العام 2003، ترنّح منــزل فتح الواهن مع أول غارة

لحمـــاس تقريباً. كان محللون إسرائيليون قد حذّروا من مواطن ضعف قوات دحلان. لكـــن الأمر غير الواضح كان كيف أقنع رجل واشنطن على الأرض، الجنرال كيث دايتون، نفسه أن قوات فتح الضعيفة غير المنضبطة تشكل جيشاً حقيقياً.

المـــدهش أن محمد دحلان غيّب نفسه عن مدينة غزة قبل أسابيع من اضطراب حزيـــران، قـــضى بدلاً من ذلك وقته في أوروبا، وخضع لجراحة في ركبتيه. تعرض منـــــزله الـــشبيه بالحصن، الذي قدّر سكان محليون أن قيمته تتجاوز مليون دولار، للـــنهب والحـــرق. أطلق أول مقاتلي حماس الذين دخلوا إلى مكتب دحلان رصاصة على طاولة رئيس جهاز الأمن الغائب. صرخ: "هذا مصير الخونة، مثل محمد دحلان الدنيء"[41].

كـــان العديـــد من قادة دحلان قد اختفوا قبل القتال أو حتى مع بدايته. خاطر العـــشرات باختـــراق الحـــصار البحري الإسرائيلي للساحل عندما فرّوا إلى مصر في قـــوارب صـــيد. بقي آخرون، خائفون على حياهم، طيلة أيام تحت حرارة الصيف اللاذعـــة عـــند نقطـــة تفتيش إيريز، يتوسلون إسرائيل إعادة فتح المعبر للسماح لهم بالوصول إلى مقر فتح في رام الله.

كان لدى دحلان حوالى خمسين ألف رجل تحت قيادته، لكن آلافاً منهم قرروا البقاء في منازلهم. شرح أحدهم: "إذا كان دوري في الحياة أن أكون حَمَلاً للتضحية، كـــان الله خلقـــني خروفاً"[42]. ذهب آخرون بمفردهم، أو مع قادقم، للانضمام إلى المعـــسكر الآخر. كان أحد هؤلاء خالد أبو هلال، الذي كان ممكناً العثور عليه، بعد أيـــام من انتهاء القتال، في مكتبه الجديد، جالساً خلف طاولة إيطالية كبيرة كان قد نهـــبها مـــن مكتب دحلان. جذب أبو هلال حوالى ألف مقاتل من فتح، وأثبت أنه مـــصدر اســـتخباراتي مفـــيد لحماس بشأن عملية دحلان. قال، مكشراً عن أسنانه: "أخـــبرتهم بكل ما أعرفه - كيف تفكر فتح، وكيف تخطط للرد على الأحداث[43]. لهـــذا السبب أجلس خلف مكتب دحلان الآن - حصلت على جهاز التلفاز الخاص به، وحاسبه، *وكل* أثاثه"[44].

مـــصرّين علـــى أن هـــدفهم كان دائماً دحلان، ادّعى قادة حماس أنهم أنجزوا مهمـــتهم بتنظـــيف فتح من مجموعة مثيرة للمتاعب[45]. عندما انتهى القتال، أعلنت حمـــاس أنها أطلقت سراح كل معتقلي فتح. عندما وعد قائد حماس الميداني أبو عبيدة

بالصفح - *العفو* - عن كل مسؤولي فتح، استثنى شخصاً واحداً فقط. قال: "لا يستطيع [دحلان] العودة أبداً. كل من في حماس مستعد لعودة دحلان، وسيتم التعامل مع أيٍ من أنصاره يحاول فعل أي شيء بالقوة"[46]. في نهاية المطاف، كان محمد دحلان قد أثبت أنه أصغر مما كان يعتقد هو نفسه، وليس بنصف الأهمية التي كانت واشنطن تعوّلها عليه.

أنكرت حماس أنها كانت تسعى لتحقيق مصلحة سياسية، وأصرّت أنها تصرفت دفاعاً عن النفس. شرحت جميلة أشانتي، إحدى أعضاء حماس في البرلمان: "كان علينا إراقة دمائنا لإيقاف إراقة دمائهم"[47].

لجأ وزير صحة حماس في غزة، بسام نعيم، إلى مصطلح "أقل الشرّين". أصرّ: "تم إرغامنا على الاختيار". كانت فتح تصعّد الضغط يومياً باشتباكات في الشوارع، تنفيذ عمليات قتل، واختطاف. جادل: "إما أن لا نفعل شيئاً ونستسلم، أو نردّ بقوة لتحطيم العدو. حطّمنا العدو وترون النتيجة".

رفض رئيس الوزراء إسماعيل هنية دائماً إقالته من منصبه، وبدا مصدوماً نوعاً ما، بالسرعة التي انهارت بها قوات دحلان وسيطرة حماس المطلقة على القطاع. قال بعد عدّة أسابيع: "كانت [القيادة في دمشق] مندهشة مثلنا، لم يكن هناك إنذار[48]. تخلّت فتح ببساطة عن كل مواقعها. لم نكن نخطط للسيطرة على كل المواقع العسكرية والمقرات الأمنية. لكن عندما قتل رجال دحلان أحد شيوخنا، كنا مرغمين على الهجوم على أحد المقرات الأمنية". وصف شراسة القتال بأنها ببساطة "بعض الأخطاء المؤسفة".

شرح عيسى النجار، أحد السبعة الذين كانوا قد أطلقوا أصلاً حماس من منزل الشيخ أحمد ياسين قبل عشرين عاماً تقريباً، أن قيادة الحركة السياسية اتخذت قرار حماس بالرد من حيث المبدأ ثم نقلته إلى الجناح العسكري للتنفيذ. قال: "لم تكن هناك سيطرة بعد ذلك. كانت هناك عمليات قتل في كل مكان ولم يكن القادة يستطيعون الوصول إلى بعضهم بسبب القتال. عندما توقف الأمر، كان علينا أن نتولى زمام الأمور"[49].

في غزة، ابتهجت حماس بالنصر. استعاد رجالها السيطرة على الشوارع مجدداً. سابقاً، تحت تهديد كل من فتح والإسرائيليين، كانت قد انقضت سنوات منذ تجرأوا

علـــى رفـــع أقنعتهم، زيارة منازلهم، أو الاسترخاء مطمئنين في المقاهي علانية. كان القـــتال قد توقف لأن أحد الطرفين تغلب أخيراً على الآخر. كانت الشوارع هادئة وبسبب ذلك وحده، كان هناك احتفال حقيقي في غزة.

بيـــنما كـــان طـــاقم المركـــز الفلسطيني لحقوق الإنسان يعيدون بناء حيثيات النـــــزاع، ألقـــى مديره راجي الصوراني باللوم على عاتق حماس فيما يتعلق بمئات الاعـــتقالات غـــير القانونية، عشرات حالات إساءة المعاملة أو التعذيب، وحالة وفاة واحدة في السجن. في الوقت نفسه، دافع عن حق الحركة بحكم الأراضي المحتلة.

قـــال: "اسمعوا، أيديولوجياً أو سياسياً، لست معجباً كثيراً بحماس. لكنهم جزء منا ونريدهم في النظام السياسي الفلسطيني"[50]. مشبّهاً قادة حركة فتح التي كانت قد رفـــضت قبول خسارتها للسلطة بأنهم "مسؤولون في إحدى جمهوريات الموز"، جادل بـــأن حمـــاس تتمتع بشرعية سياسية وقانونية. قال: "لكن [فتح] جعلت الحياة بائسة جـــداً، وقررت حماس تغيير الوضع. لم يستغرق الأمر منهم سوى بضعة أيام لتحطيم الجهـــاز الأمني للسلطة الفلسطينية المؤلف من 53,000 شخص والذي كان استثماراً غربياً طيلة أربعة عشر عاماً".

وضع الصوراني بعض اللوم في وقوع أعمال حزيران الوحشية على عاتق أجهزة أمـــن حماس غير المؤهلة أو المدربة، وقرار الحركة المتعمّد في الدفاع عن سلطتها. لكن مـــن الـــذي أشعل ذلك كله؟ أو ما هو؟ قال: "الاستفزاز عمل فتح؛ أربعاً وعشرين ساعة في اليوم".

في دمشق، على أي حال، كان خالد مشعل قلقاً. متوخياً الحذر في قول كلماته أكثر مما كان سابقاً، كان يدرك في الواقع أن انتصاره العسكري يمثّل تحديات سياسية ودبلوماســية ضاغطة. تماماً كما كان عرفات قد اكتشف، كان صعباً على قائد في المنفى السيطرة بشكل كامل على سير المعركة. أصدر أوامر بإزالة رايات حماس المثيرة للاســتفزاز مـــن علـــى المباني الحكومية في غزة، وناشد كلاً من أنصاره وفتح بعدم الـــسماح بخـــروج الأمور في الضفة الغربية عن السيطرة كما حدث في غزة. أعلن: "لسنا غولاً يخافه الآخرون"[51].

كان مشعل يرغب في استرضاء عباس وعناصر ضمن فتح – لتفادي نشوب مشكلة أخـــرى على الأرض – لكن قانونية قراري عباس في حل الحكومة وإعلان حالة الطوارئ

كانت نقطة خلاف جديدة. أنكر مشعل أن يكون قد نسّق انقلاباً، وألقى باللوم في نشوب الأزمة على الأميركيين. كانت الولايات المتحدة هي التي فرضت ما دعاه مشعل "نظام الرأسين" للحكومة. عندما لم يعجبها ياسر عرفات كرئيس، كانت واشنطن قد أصرّت على إنشاء منصب رئيس الوزراء ليكون مركزاً منافساً للسلطة[52].

مع عزل حماس في غزة، كان ذلك يعني أن إسرائيل، واشنطن وحكومات أخرى أضحت آنذاك في موقع يدفعها لتعزيز سلطة عباس أكثر، وفي الوقت نفسه معاقبة حماس، بإعفاء الضفة الغربية من نظامها للعقاب الجماعي المفروض على كل الفلسطينيين لأنهم كانوا قد صوّتوا لحماس في المقام الأول. بمواجهة الوضع المعقد في غزة، أعلن الرئيس بوش أن عباس "رئيس كل الفلسطينيين"، وأن واشنطن والاتحاد الأوروبي قررا استثناء الضفة الغربية من الحظر الدبلوماسي والاقتصادي.

عاد دحلان من رحلته العلاجية في الوقت المناسب لينضم إلى عباس في زيارة إلى القنصل العام الأميركي في القدس، والتي تم خلالها إبلاغهما برفع المقاطعة المالية. حذا الاتحاد الأوروبي حذو أميركا.

قامت إسرائيل بإغلاق قطاع غزة بإحكام مثل برميل، لكن رئيس الوزراء إيهود أولمرت أعلن أنه سيفرج عن بعض مبالغ الضرائب الفلسطينية المجمدة – التي كانت تبلغ وقتئذ عدة مئات من ملايين الدولارات – كان الفلسطينيون سيحصلون على خيار الجزر في الضفة الغربية والعصي في غزة.

بعد أيام فقط من أحداث غزة، كشف عباس عن تعطّشه للمزيد من الإذلال بإخبار الرئيس بوش أنه حان الوقت لاستئناف المحادثات مع إسرائيل، وفي الوقت نفسه كان يرفض الحديث إلى قسم مهم من شعبه كانوا ملتزمين بحماس.

في رام الله، كان أي إدراك بضرورة إجراء حوار مع حماس بطيئاً في الوصول إلى قيادة فتح المهزوزة. على المدى القصير، كانت الشخصيات الأكثر بروزاً في الحركة مهووسة بضرورة تقديم حماس لاعتذار عمّا كانت قد فعلته.

بالرغم من إشارات على هواجسه المبكرة، بقي مشعل متمسكاً بموقفه. كان أقرب ما يكون لتقديم اعتذار عندما أقرّ بأن أفراداً من جانب حماس قد ارتكبوا أخطاء. لكن، كما ادّعى، لم يكن ذلك ليقارن بنشاطات أولئك الذين كانوا قد وضعوا الأمن الفلسطيني بخدمة الولايات المتحدة وإسرائيل.

وجد الغزّاويون في غضون ذلك متعة كبيرة نتيجة شعورهم الجديد بالأمان و لم يكـــن ذلـــك، بعد ما كانوا قد عانوه في عام مضى، شيئاً قليلاً. لكن وفقاً لمئة معيار آخر، كانت ظروف قطاع غزة لا تُطاق.

قـــال عيسى النجار إن تمزيق الوحدة الفلسطينية "هبة لإسرائيل". اتفقت عضو البرلمان عن حماس جميلة أشانتي معه في الرأي. قالت بابتسامة حزينة: "هذه أسوأ أزمة داخلية كان علينا مواجهتها منذ العام 1984. الله يساعدنا"[53].



25

تقديم مؤسسة الأرض المقدسة للقضاء

يلخّص مبنى إيرل كابل الفيدرالي في دالاس تاريخ أميركا، قديمه وجديده. عندما تم اغتيال الرئيس جون. أف. كنيدي في شارع إلم في دالاس عندما كان موكبه يمر في العام 1963، كان إيرل كابل عمدة المدينة. يقع المبنى الحكومي الذي تمت تسميته لاحقاً باسم كابل على بعد بضعة مبانٍ فقط من المكان الذي أُصيب فيه كينيدي. لم يكن بناءً مميزاً جداً، لكن واجهته كانت تشبه البرجين التوأم اللذين بقيا يطلان على مانهاتن حتى 11 أيلول 2001. كانت قاعة استماع واسعة في الطابق الخامس من مبنى إيرل كابل هي التي شهدت المواجهة القانونية التالية مع حماس والتي بدأت في صيف العام 2007.

بينما كان جيش من المحامين والصحافيين يتجمّع في القاعة في 16 تموز، كان البلد يحشد قواه لشن هجوم على مؤسسة الأرض المقدسة، المنظمة الأبرز التي كانت واشنطن قد وضعتها في قفص الاتهام منذ 9/11. كان ينبغي أن تكون المحاكمة إثباتاً واضحاً للأميركيين أن إدارة بوش، عندما يتعلق الأمر بقوى الإرهاب، تبحث عنهم في الداخل كما تفعل تماماً في الخارج. كان لدى الادعاء أكثر من مليون صفحة من الوثائق وآلاف الساعات من التسجيلات الهاتفية التي ينبغي بناء قضية عليها. في السنوات الأربع عشرة الماضية، كان قد تم إرسال عملاء فيدراليين إلى كل أنحاء العالم - إلى الشرق الأوسط، وبريطانيا، وألمانيا، وهولندا - لجمع أدلّة.

هل كان رجال مؤسسة الأرض المقدسة، التي تقدم تبرعات للفلسطينيين، مُحسنين أم إرهابيين؟ هل ذهبت الملايين التي كانوا قد حوّلوها إلى الأراضي المحتلة إلى أيتام وأرامل أم لشراء قنابل ورصاص؟ كانت المؤسسة قد جمعت أكثر من 57 مليون دولار منذ تأسيسها في كاليفورنيا في العام 1989، ذهب منها، وفقاً للادّعاء، 36 مليون دولار إلى الأراضي المحتلة. كان ما تبقى، وفقاً لمؤسسة الأرض المقدسة، قد ذهب إلى جمعيات إسلامية أخرى في مناطق الأزمات، مثل ضحايا الحرب في كوسوفو.

سيجادل الادّعاء أنه في الأراضي المحتلة، كانت مؤسسة الأرض المقدسة تلعب بالنسبة إلى حماس دور ليندا أس. هاملتون بالنسبة إلى برنارد سي. ولش الابن، "اللص الخارق" الذي كان قد قتل الدكتور مايكل هالبرستام في واشنطن في العام 1980. بناءً على سوابق قانونية تم تقديمها في القضية، كان يمكن القول إن شريكاً سلبياً يعدّ مذنباً مثل شريكه الذي استعمل السلاح. كانت واشنطن تأمل أن يغلق المبدأ القانوني الباب نفسه أمام الجمعيات الخيرية الإسلامية في أميركا.

قال ملخّص الدعوى التي تقدّم بها الادّعاء بشأن عمل حماس الخيري المخصص لدعم حملتها العسكرية: "من أجل أن تحقق حماس هدفها... النهائي في إبادة إسرائيل، ينبغي لها الفوز بدعم قطاع واسع من الشعب الفلسطيني"[1]. بتعبيرات قانونية، كان ذلك يكافئ قيام هاملتون بأعمال ورقية، وعنايتها، ودعمها لزوجها، اللص والقاتل ولش.

في تبنّي تلك المقاربة، تراجع الادّعاء عن إعلان الرئيس المذهل في حديقة الورود في العام 2001 بأن الأموال التي كانت مؤسسة الأرض المقدسة تجمعها من دون أن يتم اقتطاع ضرائب منها كانت تذهب لارتكاب جرائم في الشرق الأوسط "أموال ملطخة بالدماء"، كما دعاها المدّعي العام جون أشكروفت. بدلاً من ذلك، كان الادّعاء أكثر دقة، وجادل بأن توزيع مؤسسة الأرض المقدسة لهباتها عبر شبكة من لجان *الزكاة* في الأراضي المحتلة التي تسيطر عليها حماس كانت قد أزالت العبء عن موارد الحركة الأخرى التي تم توجيهها للإرهاب.

في أثناء عملهم على القضية الجنائية ضد مؤسسة الأرض المقدسة، كان المدّعون الأميركيون مصممين على تحسين سجلّهم غير المترابط لأحداث التسعينيات. قبل 9/11، كانت السلطات قد كدّست كمية كبيرة من المعلومات عن جمع الأموال لأغراض إرهابية؛ عادت إلى المؤتمر السري لنشطاء حماس حيث سجّل مكتب التحقيقات الفيدرالي الأحاديث التي دارت فيه في كورتيارد ماريوت في فيلادلفيا في العام 1993. كان ذلك الدليل مفيداً جداً للفريق القانوني الذي قام برفع الدعوى المدنية في قضية ديفيد بويم، لكن لم يكن واضحاً أبداً أن لدى السلطات فكرة كاملة عما ستفعله.

بعد 9/11، قام مكتب التحقيقات الفيدرالي بإنشاء ***قسم عمليات تمويل الإرهاب*** الجديد لمراقبة نقل الأموال المخصصة للقيام بأنشطة إرهابية. كانت أولى

المدن التي قصدها مسؤولو هذا القسم هي تكساس، حيث أشرفوا على القضية التي تم رفعها في المدينة نفسها التي كانت مؤسسة الأرض المقدسة تتخذها مقراً لها[2].

باعتـــباره رئيساً لقسم عمليات تمويل الإرهاب، كان دينيس لورميل يعرف في الواقـــع التحدي الكبير الذي سيواجه المدّعين في سعيهم لإقناع هيئة المحلفين الجنائية بـــنوايا مـــسؤولي مؤسسة الأرض المقدسة، مقارنة بالسهولة النسبية لإقناع مسؤولي الخزانة الأميركية الذين كانوا قد قدّموا اقتراحاً لبوش بتجميد أصول وأموال المؤسسة الخيرية في كانون الأول من العام 2001.

كـــان المدّعون قد حصلوا فعلاً على حمولات شاحنات من الوثائق الحسّية بعد الغارات على مكاتب مؤسسة الأرض المقدسة، وأكثر من عقد من التحقيقات المعمّقة عن القضية[3]. عندما توجه خبراء لورميل إلى دالاس لإنشاء غرفة عملياتهم، لم يكونوا قلقـــين بـــشأن ما كان موجوداً في الوثائق مثلما كانوا قلقين بشأن تقديم قضية يمكن لهيئة محلفين من الأميركيين العاديين أن تستوعبها. كان لورميل يسأل باستمرار رجاله على الأرض: "هل يمكنهم [المدّعين] وضع أيديهم على أهم الأمور؟"[4]. بالرغم من القلق الواضح في سؤاله، كانت هناك ثقة متزايدة لأن أنظمة حواسب جديدة متطورة كانت تساعدهم في العمل على تلك الأدلة. توقع لورميل لاحقاً: "ينتابني شعور طيب بشأن احتمالات هذه القضية"[5].

بـــدا أن نتيجة قضية إنفو – كوم في كانون الأول من العام 2006 تبشّر بالخير. في تلـــك القـــضية، كانت هيئة محلفين محلية قد أظهرت في نهاية المطاف أنها تستطيع اســـتيعاب بعض القضايا المعقدة التي ستصبح لاحقاً جزءاً من قضية مؤسسة الأرض المقدسة. كان الشقيقان العشّي، قريبا زوجة موسى أبو مرزوق ناديا، قد شكلا فريق إنفـــو – كوم التنفيذي المشتبه بارتكابه عدداً من الجرائم خلف عملية غسل أموال. حُكـــم عليهما بالسجن سبعة أعوام لتهم تتعلق بالتآمر، وغسل الأموال، والتعامل مع أبو مرزوق الذي كان قد تم تصنيفه رسمياً بأنه إرهابـــي.

في غضون ذلك في شيكاغو، كانت جلسات الاستماع في التهم الموجهة لمحمد صلاح وعبد الحليم الأشقر – الرجل الأول جامع أموال حماس من شيكاغو والرجل الـــثاني مـــتعاون مع حماس وأكاديمي سابق في جامعة هاورد في واشنطن – تجري في محكمة القاضية إيمي سانت إيف. لم تكن تلك المحاكمة تخلو من لحظات غريبة.

كـــان جهاز الشين بيت الإسرائيلي قد وافق على إمكانية سفر عملائه إلى شيكاغو للشهادة بشأن الاستجواب الأصلي لصلاح، الذي كان قد تم اعتقاله في الضفة الغربية في العام 1993 يحمل 97,000 دولار في حقيبة. لاحظ توم دوركين، مساعد سابق للمدعي الأميركـــي في شيكاغو وممثل للأشقر آنذاك: "لن يتم إغلاق قاعة المحكمة فحسب، وإنما ســـيتم السماح لعملاء إسرائيليين بالشهادة متنكرين وبأسماء مستعارة. كان يتم استعمال ورق مجعّـــد أسود لتغطية فتحات في أبواب قاعة المحكمة، وتمركز عملاء فيدراليون، مع كلب بحث عن قنابل، خارج القاعة... جلس رجلان يبدو أنهما من وكالة الاستخبارات المركـــزية يرتديان بذلتين رسميتين ويضعان سمّاعتين في الزاوية... مع طاولة مليئة بالمعدات الإلكترونية، التي يُفترض أنها ستمنع أي محاولة من المشتركين في جلسة الاستماع لتسريب معلومات خارج قاعة المحكمة"[6].

رفعـــت هيـــئة محلفي شيكاغو الجلسة للنطق بالحكم في منتصف كانون الثاني 2007. لكـــن تلك المرة كان النذير سيئاً. بعد مداولات استمرت أربعة عشر يوماً، أصـــابت هيـــئة المحلفين الفريق الذي يعمل على القضية ضد مؤسسة الأرض المقدسة بالدهـــشة عـــندما برّأوا صلاح والأشقر من كل التهم الموجهة إليهما. بشأن الدليل الذي تم تقديمه بعد أكثر من عقد من التحقيقات والتقاضي، لم يوافق محلّفو شيكاغو علـــى وجهـــات نظـــر أشكروفت، الذي كان قد وصف الثنائي بأنهما "خلية تمويل وتدريب إرهابية تتخذ من الولايات المتحدة مقراً لها".

بالرغم من كل ذلك، انتهى الأمر بصلاح والأشقر في السجن – صلاح لواحد وعـــشرين شهراً، للكذب تحت القسم في قضية ديفيد بويم؛ والأشقر لأكثر من أحد عشر عاماً، لرفضه الحديث إلى هيئات المحلفين الكبرى التي تحقق بشأن حماس – لكن في بلـــدة آل كابوني – الذي كان قد نجا بأعجوبة من التهم المتعلقة بمجزرة الفالنتين لكن تمت إدانته أخيراً بخداع مسؤول الضرائب – لم يكن سجن صلاح والأشقر لمثل تلك التهم الثانوية مرضياً للسلطات.

مع إغلاق قضيتين رئيسيتين في شيكاغو – القضية الجنائية ضد صلاح والأشقر والقـــضية المدنـــية التي قدّمتها عائلة بويم – تحوَّل الاهتمام إلى دالاس. كانت حماس تـــشعر آنذاك بوطأة النظام القضائي الأميركي. كانت رغبة عائلة بويم في عدم نسيان موت ابنها قد ساهم في تحقيق النتيجة الأولى. لكن آنذاك كان هناك أربعة عشر عاماً

من التسجيلات الهاتفية والمراقبة التي أطلقت الحملة العنيفة على نشاط الإسلاميين في أميركا، خاصة على آلة جمع المال المغرية التي كان قد تم إنشاؤها قبل عشرين عاماً من قبل معاونين أصبحوا فيما بعد قادة حماس.

لم يكن مفاجئاً أن تتم مراقبة القضية ضد مؤسسة الأرض المقدسة عن كثب في دمشق. لكن بينما كان خالد مشعل يتلقى موجزه اليومي عن مجريات الأحداث في قاعة محكمة تكساس، كان اهتمامه شخصياً جداً أيضاً. كان أحد المتهمين، مفيد عبد القادر جامع الأموال المميز في مؤسسة الأرض المقدسة، شقيقه. كان أحد المتهمين الآخرين قريباً له، أكرم مشعل، مدير المشاريع والهبات في مؤسسة الأرض المقدسة، لكن أكرم مشعل كان قد خرج بهدوء من الولايات المتحدة قبل أن تبدأ المحاكمة بثلاثة شهور.

في مقره في دمشق، كان اهتمام أبو مرزوق بالقضية عائلياً أيضاً - كانت زوجته قريبة غسان العشّي، رئيس مجلس إدارة وخازن مؤسسة الأرض المقدسة؛ وكان محمد المزين، الرئيس المؤسس للمؤسسة، قريبه أيضاً - كانت المخاطر كبيرة، وكل المتهمين يواجهون عقوبات بالسجن مدى الحياة.

كان مفيد عبد القادر يعمل نهاراً في تلك الأثناء كمشرف عمال في مجلس مدينة تكساس. لكن في الليل، كانت لديه سمعة كبيرة كرجل غناء - و - رقص في الحفلات الإسلامية. كان دوره اللامع في تجمّعات خيرية في مدن مثل أورلاندو، توليدو، ديترويت، وشيكاغو يقوم على أداء مسرحية هزلية يمثّل فيها قتل إسرائيلي، قبل أن يتم جمع هبات نقدية أو حتى قطع من الذهب[7]. تم العثور على تسجيلات فيديو لمسرحيات قدّمتها فرقته في حديقة مبنى في فولز تشرش في شمالي فيرجينيا، وهي المنطقة التي كان أبو مرزوق قد عاش فيها سابقاً، عندما حاول مالك جديد تجديد ديكور الملكية، التي كان قد اشتراها من رجل كان - كما قيل لمحكمة دالاس - ناشطاً من حماس. تعرّض شقيق خالد مشعل للطرد من مجلس المدينة عند توجيه اتهامات له في قضية مؤسسة الأرض المقدسة.

في آب من العام 2007، وسط سرية وإجراءات أمنية استثنائية في خلال الأسبوع الثالث من تقديم الأدلة إلى المحاكمة، تم إخراج المراسلين والحضور من محكمة القاضي إيه. جو فيش. كانت واشنطن قد قدّمت عميلين إسرائيليين غامضين كشاهدي ادّعاء. لم يكن مسموحاً سوى للمحامين، والمحلّفين، والمتهمين برؤية

وجهـــي *ليور وآفي*. بثقة كبيرة، شهد الإسرائيليان أن مؤسسة الأرض المقدسة كانت جـــزءاً من شبكة عالمية لجمع الأموال التي موّلت إرهاب حماس، وأن نشطاء الحركة كانوا يسيطرون على لجان *الزكاة* الحيوية.

لكـــن *آفي* تلعـــثم في الاســـتجواب. أقـــرّ بأنه لا يستطيع تحديد هوية أي من المـــسؤولين في لجـــان *الـــزكاة* في أوقات معينة عندما كان يتم تحويل أموال مؤسسة الأرض المقدســـة من الولايات المتحدة. لاحقاً، وافق أن أياً من تلك اللجان لم تكن ضـــمن مـــئات المجموعات الإرهابية التي حظرتها السلطات الأميركية. لم يستطع *آفي* إخـــبار المحكمة كيف يمكن إقناع أي شخص، ربما غير ضابط استخبارات إسرائيلي، بأن لجان *زكاة* معينة أو أياً من أعضائها له علاقات مع حماس. بطريقة مماثلة، كانت تحقـــيقات في بريطانيا وهولندا قد برّأت منظمات شبيهة بمؤسسة الأرض المقدسة من أي تهم مماثلة. تفادى الأمر بالقول: "من الواضح أنه لم تكن لديهم أدلّتي".

رد الـــدفاع علـــى شهادة الشين بيت بتلك التي قدّمها إدوارد أبنغتون، نائب مـــسؤول الاستخبارات السابق في وزارة الخارجية الأميركية. أخبر أبنغتون المجتمعين الـــصامتين في قاعـــة المحكمة أنه طيلة الوقت الذي كان فيه قنصلاً عاماً في القدس في التسعينيات، والتي كان يتلقى في خلاله تقارير يومية من وكالة المخابرات المركزية، لم يتم إبلاغه ولا مرة واحدة أن أياً من لجان *الزكاة* التي تموّلها مؤسسة الأرض المقدسة، التي كان يزورها بين الفينة والأخرى، كانت جزءاً من حماس(8).

لكن شاهد الحكومة الأخير، العميلة الخاصة في مكتب التحقيقات الفيدرالي لارا بورنـــــز، هـــي الـــتي منحت محاميّ الدفاع أفضل لحظاتهم في قاعة المحكمة. أقرّت بورنـــز أن ليس كل *الشهداء* الذين تلقوا مساعدة من مؤسسة الأرض المقدسة كانوا إرهابـــيين. بالعمـــل على قائمة من الأسماء العربية التي كان الادّعاء قد حاول إثبات صـــلتها بحمـــاس، ضغطت محامية الدفاع مورينو على بورنـــز بشأن حقيقة أن تلك الأسماء لم تظهر على قوائم الإرهاب في واشنطن. في كل مرة كانت بورنـــز تعترف فـــيها أن ذلك الشخص لم يكن رسمياً أحد المتهمين بارتكاب أعمال إرهابية، كانت موريـــنو تـــستعمل قلـــم تخطيط أسود لحذف الاسم من قائمة أولئك الذين تحاول الحكـــومة إثبات علاقتهم بحماس. بعد بضع دقائق من الاستجواب الذي كانت تقوم به مورينو، كان قد تم فعلاً شطب كل الأسماء من القائمة.

استمرت مرافعات المحامين النهائية أكثر من يومين. قال المدّعي باري جوناس على حين كان أعضاء هيئة المحلفين على وشك الذهاب إلى خلف أبواب موصدة للتشاور بحدّة وغضب بشأن مهمتهم المعقّدة: "لا تتوقفوا مطولاً عند الأسماء". مع اتهامات يصل مجموعها إلى 197 ضد المتهمين، كان الأمر يستمر أحياناً يوماً بكامله للاتفاق على مسألة واحدة في مناقشاتهم. ذهبت رئيسة المحلفين مرتين إلى القاضي تشتكي بشأن إدارة الأمور في القاعة المغلقة وخلافات لا يمكن حلّها. كانت هناك اتهامات بأن محلّفاً معيناً بشكل خاص كانت تغط في النوم. اشتكى أحد زملائها: "يمكنك سماعها تشخر".

خرج قرار المحلفين بعد ثلاثة وعشرين يوماً، في قاعة المحكمة الواقعة في الطابق الخامس عشر التي غصّت بالحضور وبعض وسائل الإعلام. كانت الفوضى عارمة. اجتمع حشد من أنصار مؤسسة الأرض المقدسة في مقهى أسفل البناء. لكن من دون معلومات سمعية أو بصرية من المحكمة، لم تكن لديهم أي فكرة عمّا كان يجري في القاعة.

عندما أعلنت رئيسة المحلّفين الحكم، أُصيب الادّعاء بالذهول. كان شقيق مشعل مفيد غير مذنب في كل التهم التي تم توجيهها له[9]. تمت تبرئة محمد المزين، وممثل مؤسسة الأرض المقدسة في نيوجرسي، عبد الرحمن عودة، من كل التهم تقريباً. في قضيتي المتهمين الرئيسيين، شكري أبو بكر وغسان العشي، وصلت هيئة المحلفين إلى طريق مسدود. لاحقاً، سينكشف أن التصويت انقسم بين مذنب وبريء في ما يتعلق بكل التهم ضد هذين الشخصين.

بعد استعراض كل التهم الـ197، لم يكن هناك حكم واحد بالذنب. كانت تلك هزيمة ساحقة للادعاء؛ وكارثة لواشنطن.

كانت وسائل الإعلام موجودة في الطابق السادس عشر من مبنى إيرل كابل الفيدرالي. كان يتم تزويدها بمعلومات سمعية وبصرية، لكنها كانت بالرغم من ذلك تشعر بالحيرة مثل أنصار مؤسسة الأرض المقدسة المبتهجين في المقهى. في السباق ليكونوا أول من ينقل الخبر، أذاع مراسلو محطات الإذاعة والتلفاز تقاريرهم على الهواء فيما كان زملاؤهم من الصحف يعملون عبر مواقعهم الإلكترونية. لكن القصة كانت تتغير بسرعة كبيرة لدرجة أن التقارير لم تكن تستطيع اللحاق بآخر التطورات.

عندما سأل القاضي فيش كل محلّف بمفرده عن رأيه، للتأكد أنهم جميعاً يوافقون على ما قالته رئيسة المحلفين، قفز ثلاثة منهم على أقدامهم في قاعة المحكمة، واعترضوا علـــى تـــسجيلها لآرائهـــم. دخلـــت رئيسة المحلفين المجهولة في حالة صدمة. قالت للمحكمة وسط صخب كبير: "لا أفهم حقاً كيف حصل هذا. لقد وافق الاثنا عشر عضواً جميعاً على ذلك القرار".

مـــا زاد الطين بلّة أن أنصار مؤسسة الأرض المقدسة المجتمعين في المقهى كانوا يـــتابعون مـــا يعـــتقدون أنه يجري اعتماداً على وسائل الإعلام، التي لم تكن بنفسها تـــستطيع مـــتابعة الـــتطورات في قاعة المحكمة. كان المتعاطفون خارج المبنى يبعثون برســـائل نصّية إلى أولئك الذين في المقهى بشأن ما كانت وسائل الإعلام تنقله. لكن في الـــوقت الذي كانت الرسالة النصّية تستغرقه للوصول، كانت الأحداث تتغير في المحكمة.

المحيّر أن القاضي فيش كانت لديه طريقة في التعامل مع ارتباك المحلّفين. على أمل استعادة الهدوء، أرسلهم للخارج مرة أخرى. عادوا بعد أربعين دقيقة فقط، وقالوا إنه ليس بمقدورهم الاستمرار. لم تكن هناك طريقة لتجاوز ذلك المأزق.

أعلن فيش أن محاكمة *كل* المتهمين غير قانونية. وجد حتى الرجل الوحيد الذي بدا أنه بريء من كل التهم ضده – مفيد شقيق خالد مشعل – نفسه فجأة مجرداً من براءته التي أقرّها هيئة المحلفين.

كان ويليام نيل، المدير الفني من دالاس البالغ من العمر ثلاثة وثلاثين عاماً، أحد المحلّفـــين الاثنين اللذين ألقيا الضوء على المناقشات الصاخبة لهيئة المحلفين المكوّنة من أربعـــة رجال وثماني نساء. قال: "بالمحصلة، كانت قضية [الادّعاء] ضعيفة للغاية. لم يكـــن هـــناك فعلاً شيء بالنسبة إليّ، أو أي دليل دامغ". أشار نيل إلى أنه وزملاؤه صُـــدموا مـــن الحجم الكبير لوثائق الادّعاء؛ بما يتعلق بعدد التهم وجبل الأدلة الذي وجدوا أنفسهم مرغمين على تسلّقه. قال: "أعتقد أنهم حمّلونا ما لا طاقة لنا به. كان بعـــضها يعود إلى عشرين عاماً خلت. كان هناك الكثير من الثغرات، وكنت أستطيع قيادة شاحنة عبرها"[10].

مـــا بقـــي غير واضح في نهاية المحاكمة كان: هل فشلت الحكومة في جهودها لإثبات حجتها الرئيسية أن أموال تبرعات مؤسسة الأرض المقدسة كانت تذهب إلى

كيــنونات تسيطر عليها حماس في الأراضي المحتلة لتسهيل الإرهاب أو إن كانت قد أقنعت هيئة المحلفين بقضيتها؟ لم يكن بعض المحلّفين مصدومين أو غاضبين كما كانت تريدهم واشنطن.

محلّــف آخر تكلم إلى مراسل. بعد القضية كانت نانيت سكروغنــز، موظفة تأمين متقاعدة. قالت: "كنت أتوقع أن تأتي الحكومة بشيء، لكنها لم تفعل ذلك. مما رأيــته، كان ذلك عن جمع أموال من المسلمين لدعم مسلمين، ولم أرَ أي شيء غير صحيح في ذلك"[11].

نظــراً إلى عــدم السرور في قاعة هيئة المحلفين، ربما كان الكثير من الصمت الذي فــرض نفسه على باقي المحلّفين بعد انتهاء المحاكمة ينطوي على مجازفة استنتاج، لكن لم يكــن هــناك مــا يــناقض تعليق ويليام نيل الاستفزازي بشأن القضية أو تأكيد نانيت ســكروغنــز بشأن ما كان نيل يقوله نيابة عنهم. أضافت سكروغنــز: "كانت القضية كلــها تقوم على افتراضات تستند إلى شبهات. لو أن [مؤسسة الأرض المقدسة] كانت مجموعة نصرانية أو يهودية، لا أعتقد أنه [الادّعاء] كان سيقدم تهماً ضدها".

كــان المحلّــف نــيل يعرف على ما يبدو ما بدا أنها نقطة الاختراق في قضية الحكومة. كان المحلّفون يفهمون تماماً أن حماس مصنّفة كمنظمة إرهابية وقائدها خالد مــشعل علــى قائمــة الإرهابيين أيضاً. لكن عندما قيل لهم إن مكتب التحقيقات الفــيدرالي قد استنتج منذ العام 2001 أن حماس تسيطر على لجان *الزكاة*، فهموا أن العمل المشترك لآليات الضغط السياسي والقانوني الأميركية قد فشلت في إعلان تلك العملــيات الفردية راسخة الجذور في الأراضي المحتلة، منظمات إرهابية بشكل رسمي. بدا أن ذلك هو السياق الذي دفع بالمحلّفين بعيداً عن إطلاق أحكام بالإدانة. كشف نيل: "كان هناك في الواقع سؤال واحد فقط. هل تسيطر حماس على لجان *الزكاة*؟ لم يكن هناك دليل واضح [أنها تسيطر عليها]"[12].

كــان قادة الجالية العربية في أميركا مسرورين للغاية. قال نيهان عوض، المدير التنفــيذي لمجلــس العلاقــات الأميركية – الإسلامية، في وصفه لفشل الإجراءات القانونــية: "فشلت الحكومة في شيكاغو؛ فشلت في فلوريدا؛ وفشلت في تكساس". قــال لمراســلين خارج قاعة المحكمة: "سبب فشلها هو أن الحكومة ليس لديها أي حقائق. مجرد خوف"[13].

كـــان ينبغي أن تكون تلك قضية واشنطن البارزة في حربها الداخلية ضد تمويل الإرهاب. كان إعلان جورج دبليو. بوش شخصياً إغلاق مؤسسة الأرض المقدسة قد طـــبع الأمر بالموافقة الرئاسية. كان بوش قد أعلن في العام 2001: "الحقائق واضحة؛ يستفيد الإرهابيون من مؤسسة الأرض المقدسة. ولن نسمح لهم بذلك".

خـــارج محكمة دالاس، كان المطر ينهمر بغزارة. تم حمل شكري أبو بكر على أكتاف أنصار مبتهجين وفرحين. كانوا يصرخون *"الله أكبر!"* . في أفضل تقاليد حرب العصابات، كانوا قد ربحوا لأنهم لم يخسروا.

في دمشق، كان خالد مشعل يسخر من جهود ادّعاء واشنطن. قال عندما تم إبلاغه بنتيجة المحاكمة: "لم يرتكب شقيقي خطأً. كانت جريمته الوحيدة أنه شقيقي"[14].

في ذلـــك الـــيوم من تشرين الأول عندما سقطت قضية الحكومة ضد مؤسسة الأرض المقدســـة علـــى ذلك النحو المذهل، كان دينيس لورميل، الرجل الذي ترأس قـــسم عمليات تمويل الإرهاب في مكتب التحقيقات الفيدرالي في أثناء التحضير لرفع القـــضية ضـــد المؤســـسة، يحضر مؤتمراً في واشنطن. متوقفاً في ردهة فندق ماريوت وردمان بارك، أقرّ لورميل بالتحدي الخطير الذي يواجهه.

شـــرح: "سيكون الأمر صعباً دائماً، باعتبار أن المتهم يستطيع حبك حافز بديل للمـــساعدة الإنسانية"[15]. بإدراكه المتأخر لمجرى الأحداث، أدلى بدلوه في حين كان يجب على الادّعاء القيام به. "قبل بضعة أسابيع، كان هناك توقُّع بأن وزارة العدل لم تـــدرك صعوبة الموقف الذي وضعت نفسها فيه؛ كنت سأبسّط المحاكمة، أركز على عناصر معينة وأضع كل شيء في سياقه الصحيح".

كانت عتبة الإثبات في دعاوى مدنية، كما في قضية بويم، أقل مما هي الحال في قـــضايا جنائـــية مثل تلك المقامة ضد مؤسسة الأرض المقدسة. في ذلك، كان هناك بعـــض العزاء للورميل. في توقُّعه لقيام مؤسسة الأرض المقدسة بتجديد جهودها لرفع الحظـــر عن أموالها، شرح: "تلك العتبة المنخفضة هي التي تجعلهم لا يستطيعون القيام بـــذلك حـــتى الآن. وســـأكون متفاجئاً جداً إذا حاولوا رفع الحظر بالرغم من قرار دالاس"[16].

كـــان ذلك هو المنطق الذي عزّز توقعاً آخر للورميل. في المستقبل، كما قال، سيكون هناك على الأرجح دعاوى مدنية سيرفعها ضحايا الإرهاب أكثر من دعاوى

جنائـــية ســـتقيمها الحكومة. "كانت حماس بارعة في التواري خلف عملها *الدعوي* وابـــتكار ظلال من الشك [تعمل لمصلحتها في قضايا جنائية]. كما تعرفون، كانت لدينا قنبلة دخانية، كان ذلك دور أبو مرزوق في إنشاء مؤسسة الأرض المقدسة".

وضع لورميل توصيفاً جريئاً – ومعقولاً – لخيبة الأمل في دالاس. بيّن أن كشف الـــسلطات لنيتها وقيامها بحشد مواردها لخوض المعركة على جبهة مؤسسة الأرض المقدسة سيشكل رادعاً قوياً. كانت الهبات للجمعيات الخيرية الإسلامية في الولايات المتحدة قد انخفضت بشكل كبير آنذاك، لأن المانحين المحتملين كانوا يخشون أن يؤدي التبرع بأموالهم إلى تجريمهم. قال: "هذا النوع من القضايا يعطّل الأمور"، قبل أن يُنهي بملاحظـــة متفائلة: "وإذا نجحت قضية البنك العربـــي، ستشعر كل منظمة مالية في الشرق الأوسط بالخوف".

كـــان ذلـــك يبدو منطقياً. إذا كان ممكناً استعمال نظرية ناتان لوين الجديدة بنجاح في قضية مدنية ضد جامعي أموال مسلمين ونشطاء يقطنون الولايات المتحدة، في قضية ديفيد بويم في شيكاغو، عندها ستكون هناك سمكة أكبر لقليها.

تم اســـتعمال نظرية لوين في القضية الجنائية المنهارة ضد مديري مؤسسة الأرض المقدســـة، لكـــن كـــان سيتم استعمالها آنذاك في سلسلة من الدعاوى المدنية الأكثر تعقـــيداً. في صف المتهمين المحتملين خلف البنك العربـــي كان مصرف ويستمنستر الوطني الذي يتخذ من لندن مقراً له، ومصرف كريدي ليونيه الفرنسي، اللذان اتُّهما بالعمل مع فروع أوروبية لمؤسسة الأرض المقدسة في تمويل الإرهاب.

كـــان ذلك، وفقاً لرد البنك، هراء. لم تكن التحويلات أكثر من مجرد عمليات إلكترونية صغيرة في عمل دولي روتيني و لم يكن ممكناً بالتأكيد وصفها بأنها علاقة بين مـــصرف وأي مـــنظمة إرهابـــية. في بدايـــة العام 2008، تحول الاهتمام إلى بيت الاستـــشارات المالية يو – بـــي – أس، الذي وجد نفسه يواجه اتهامات بأنه ساعد حماس في تفجير حافلة في القدس على أساس أنه قدّم خدمات مالية لعملية جمع أموال للحركة في أوروبا[17].

انضم إلى جوقة الهجوم على البنك العربـــي المحامي الشهير في كارولينا الجنوبية رون موتلـــي، الـــذي كان قد مثّل الناجين وعائلات ضحايا هجمات 11 أيلول. في ذلك العمل، كان قد بنى قاعدة بيانات ضخمة مؤلفة من أكثر من 1.3 مليون صفحة

على علاقة مباشرة بعالم الإرهاب. كان موتلي قد بنى لنفسه سمعة واسعة، وجنى مبالغ كبيرة، في التغلب على شركات التبغ الكبيرة في المحاكم الأميركية، وكان حوالى ثلاثة آلاف مدّع قد وقّعوا عقوداً معه للقيام بعمل ضخم يخص 9/11[18]. ربما كان يعتقد أن لديـــه مـــا يكفـــي في جعبته، لكن موتلي لم يستطع مقاومة إغراء ملاحقة البنك العربـــي.

متمركزاً في الأردن، كان المصرف مؤسسة مالية غير حصينة. مع تاريخ يمتد أكثـــر مـــن سبعة عقود في بقعة صاخبة من الكرة الأرضية، كان قد جمع أصولاً تـــساوي 21.5 ملـــيار دولار. كانت للمصرف العربـــي سمعة ممتازة في أميركا وأوروبـــا، وكانت شبكته الواسعة تمتد عبر الشرق الأوسط وشمال أفريقيا. كان لديه اثنان وعشرون فرعاً في الأراضي المحتلة، مما يمنحه حصة الأسد من العمليات المصرفية الفلسطينية.

كـــان عمل رون موتلي، نيابة عن عدّة آلاف من العملاء الذين يعيش معظمهم في إســـرائيل، يـــستند في جـــزء منه على أقسام من القانون الأميركي القديم الخاص بالقرصـــنة. ادّعـــت دعويان منفصلتان أخريان ضد البنك العربـــي أنه قد تآمر مع حمـــاس ومجموعات مقاومة فلسطينية أخرى "بتأمين، وجمع، وتحويل، ودفع، وتقديم مـــوارد مالية سمحت [لها] بازدهارها وانخراطها في حملة الإرهاب، الإبادة الجماعية، وجـــرائم ضـــد الإنـــسانية، في محاولة لإبادة الوجود الإسرائيلي من خريطة الشرق الأوسط"[19].

باختصار، كانت الحجة أن البنك كان محرّضاً على العنف الفلسطيني. رد البنك بادّعـــاء أن الأمـــوال التي تعامل بها كانت مساعدات إنسانية من جمعيات خيرية في المملكة العربية السعودية – حوالى مئتي ألف تحويل إلكتروني لمبالغ وصلت قيمتها إلى 90 مليون دولار – لكن بين المتلقّين لما قال المصرف إنها دفعات لمستشفيات وبرامج خدمات اجتماعية ومساعدة لعائلات أولئك الذين دخلوا السجن، تعرضوا لإصابات، أو لقـــوا حـــتفهم، كانت هناك عائلات أخرى حصلت على أموال بعد فقدانها أحد أفرادها في عملية استشهادية.

في ردٍّ لطلب البنك برفض الدعوى في كانون الثاني 2007، كانت القاضية نينا غيرشـــون، في محكمة المقاطعة الأميركية في بروكلين، قد زادت آمال المدّعين عندما

كتبت في قرارها: "يجادل البنك العربي أنه قدّم فقط خدمات مصرفية روتينية... [لكن] ليس هناك شيء روتيني في الخدمات المتهم البنك بتقديمها"[20].

جادل البنك العربي أن معظم الوثائق المقدّمة ضده قد تم الحصول عليها بشكل غير قانوني عندما أغارت القوات الإسرائيلية على فروعه في الأراضي المحتلة قبل أعوام. ادّعت إسرائيل أن حماس استخدمت المصرف لنقل ملايين الدولارات إلى الأراضي المحتلة، والتي جاء معظمها عبر فرعه في نيويورك.

بعد شهور من رفع الدعوى الجنائية في بروكلين، كان المصرف العربي قد تعرض لصفعة في توقيت سيئ عندما تحرك مسؤولو السلطات المالية الأميركية ضده بعد اكتشاف وثيقة لحماس في فرعه في بيروت. بعد اكتشاف أن الرقابة الداخلية في المصرف غير فعّالة، قام "المكتب الأميركي لمراقبة النقد" بتغريم البنك العربي بمبلغ 24 مليون دولار في شباط 2005 وأغلق معظم عملياته الأميركية، خاصة حفظ الودائع وتحويل الأموال[21].

قال ألان جيرسون، أحد المحامين الذين عملوا ضد البنك: "كان لذلك تأثير كبير. لا أعتقد أن [أي] مصرف سيسمح بتدفق أموال إلى إرهابيين بسهولة إذا تم تضييق الخناق على تمويله"[22].

ما دعته أليزا لوين بفخر *نظرية والدها القانونية الجديدة* شكّلت تفسيراً ماكراً للقانون الأميركي، لكن خبرة طويلة في العمل القانوني لم تسعف ناتان لوين عندما حان الوقت لتحديد الخلل في إطار عمل قوانين مكافحة الإرهاب التي ستفيد أخيراً خطط واشنطن في استعمال نظريته القانونية ضد حماس.

الغريب بما يكفي أن رجلين، كانا يتمتعان بدهاء شديد وليس بتدريب قانوني، حدّدا عن غير قصد منهما مواطن الضعف في القانون قبل عقد من ظهور قضية مؤسسة الأرض المقدسة للعلن. كان هذين أبو بكر والعشي، اللذين سيعرف الأميركيون لاحقاً أنهما أبرز متهمين في المحاكمتين المتعلقتين بحماس عندما بدأتا في شيكاغو ودالاس.

كان الوقت متأخراً في مساء أحد أيام نيسان من العام 1996 عندما اعترض مديرا مؤسسة الأرض المقدسة هذان عبر الهاتف بشأن رزمة من إجراءات مكافحة الإرهاب التي كان يتم تداولها آنذاك في الكونغرس الأميركي. كان أحد الإجراءات

محاولـــة لكبح دعم مواطنين أميركيين لمجموعات أجنبية أعلنت واشنطن أنها إرهابية. كان يمكن لذلك تدمير القناة التي أقامتها مؤسسة الأرض المقدسة مع الأراضي المحتلة بين ليلة وضحاها.

عـــندما تكلـــم هـــذان الرجلان في أمسية 23 نيسان عام 1996، تم تسجيل محادثتهما بحذافيرها من قبل فرق مراقبة مكتب التحقيقات الفيدرالي نفسها التي كانت تتنصت على المكالمات الهاتفية لمؤسسة الأرض المقدسة منذ مؤتمر فيلادلفيا الشهير في العام 1993. على أي حال، بالرغم من أن السلطات كانت قد قدّرت أن نسخة تلك المحادثـــة الخاصـــة يمكن أن تضر بمؤسسة الأرض المقدسة في المحكمة[23] – وتصبح في نهاية المطاف أداة يستعملها الادعاء في قضية مؤسسة الأرض المقدسة – إلا أن محاميّ الادّعاء البارزين تجاهلوا على ما يبدو النصيحة القانونية المجانية من ناشطي حماس التي جاءت في وثيقة من عشرين صفحة.

كـــان ينبغي قراءة الوثيقة بعناية لأن تحليل أبو بكر والعشي للتشريع من وجهة نظـــرهما، كمـــا هـــي الحـــال غالباً في القضية، كان محكوماً بموقفهما المعادي تماماً لإسرائيل.

هتف أبو بكر: "القانون الحالي لا يغطي هذه الزاوية. لهذا السبب قاموا بتشريعه الآن لأنك إذا دعمت جامعة، مستشفى، ميتماً، ستعرّض نفسك لـــ...".

حاول العشي مقاطعة الحديث، لكن أبو بكر، الذي كان يعاني من الزكام، تابع كلامه: "سيكون عليهم إخبارك أي المنظمات الأجنبية التي ليس مسموحاً لك التعامل معها وينبغي أن تمتثل ذلك". ربما كان أبو بكر يعبّر عما يجول في نفسه بطريقة غريبة، لكن كمحامٍ مبتدئ، كان على أرض صلبة عندما أعلن: "الإثبات على من ادّعى. من دون تلك اللائحة، لا أعتقد أنهم يستطيعون تحقيق أي شيء".

مـــتوقعين طريقة تفكير هيئة المحلفين في قضية مؤسسة الأرض المقدسة في العام 2007، أقـــرّ الـــرجلان أن مؤسستهما كانت هدفاً رئيسياً للقوانين الجديدة؛ وحدّدا بعـــض لجان *الزكاة* التي كانا يوزّعان من خلالها الأموال في الأراضي المحتلة كهيئات ينبغي للولايات المتحدة تسميتها تحديداً لتفعيل القانون الجديد.

مـــستعرضاً مـــا يتوقع أن يسبب مشقّة للسلطات الأميركية في تحديد جمعيات خيريـــة فلسطينية بعينها ينبغي حرمانها من التمويل، ناقش العشي نسخته الخاصة من

التشريع القانوني التي – في حال تم إقرارها – ستسهّل على المدّعين العامين في دالاس تثبيت الإدانة بحق مؤسسة الأرض المقدسة. "[إذا] قالوا لك إن منظمة خيرية فلانية لديها ثلاثمئة يتيم، كلهم أبناء شهداء... [إذا قالوا] لا ترسل لهم أموالاً لأن آباءهم كانوا أعضاء في الحركة الإسلامية" – تحول إلى العربية قبل أن يتابع – "بالطبع لن أستطيع تحويل أموال لها".

كانت واشنطن قد حصرت نفسها بقضية مؤسسة الأرض المقدسة. قبل ستة أعوام من القضية الفاشلة في دالاس، كانت قد نفّذت إرادها من دون تكاليف ومخاطر المحاكمة – كانت قد أغلقت ببساطة وفاعلية مؤسسة الأرض المقدسة مع كل الجعجعة الرئاسية التي تضمنها إعلان حديقة ورود البيت الأبيض. في ذلك اليوم، كانت واشنطن قد حققت مرادها – كانت مؤسسة جمع الأموال الإسلامية قد توقفت عن العمل وتم نشر رسالة صاخبة جداً عن مخاطر تقديم هبات لأي جمعيات خيرية أخرى قد تتسرب منها أموال إلى حماس.

لكن الحرب على الإرهاب كانت تحتاج إلى عروض يتم فيها محاسبة إرهابيين، محكمة رأي عام تعرضها الإدارة في أخبار المساء لإثبات أنها تقوم بواجبها. كانت واشنطن مصممة على تجريم هؤلاء الأفراد، الذين تم تحطيم آلتهم لجمع الأموال شخصياً، وجنائياً.

في خلال دقائق من إعلان القاضي إيه. فيش عن نقض الدعوى بحق مديري مؤسسة الأرض المقدسة الخمسة، ظهر رئيس المدّعين العامين جيمس جاكس، وتوقع أن واشنطن ستعاود الكرّة مجدداً. طالب بإعادة المحكمة. أُصيب البعض في المهنة بالرعب. قال توم ميلشيمر، محامي دفاع بارز في دالاس: "آمل أن... يكون ذلك مجرد رد فعل".

بعد ذلك، فقط عندما بدا أن كل الأشياء لا يمكن أن تصبح أسوأ للحرب القانونية على الإرهاب، أصبحت أسوأ فعلاً. نقضت محكمة الاستئناف الأميركية السابعة، ومقرها شيكاغو، قرار بويم المثير الذي كان قد استند إلى نظرية ناتان لوين القانونية الجديدة. قررت محكمة الاستئناف أن والدي ديفيد بويم الذي كان يبلغ من العمر سبعة عشر عاماً قد فشلا في إثبات أن المساهمة المالية لمجموعة إرهابية فلسطينية قد لعبت دوراً مباشراً في موت ابنهما.

كتــبت قاضــية الاستئناف إيلانا دياموند روفنر في قرار تم اتخاذه بالغالبية: "لا يــشكل الاعتقاد، الافتراض، والتوقع بديلاً لدليل دامغ في محاكمة قانونية. ينبغي أن نقــاوم إغــراء التغاضي عن الخطأ، قبول دليل زائف وحقائق مفبركة لم يتم إثباتها، ببــساطة للوقــوف بجانب البريء وضد الإرهاب... بغض النظر عن رغبتنا بتحميل شخص ما المسؤولية عن أعمال شريرة بشكل لا يوصف أنهت حياة ديفيد بويم"[24].

26

الرجل الذي يتحدّى الموت

خففت مرسيدس - بنــز سرعتها بجانب الرصيف، توقفت للحظة لتقلّ راكباً قبل أن تنطلق مجدداً نحو أدخنة وفوضى بعد الظهر في دمشق. أشار صوت مكتوم إلى تـــشغيل نظام القفل المركزي. تم إسدال ستائر سوداء على النوافذ الملونة بينما كانت المـــركبة تـــشق طريقها من فندق الماجد في نهاية أحد أزقة وسط المدينة في العاصمة السورية.

كان السائق مقداد. شاب مرح يرتدي بذلة حماس السوداء، كان يُبقي عيناً على المـــرآة الداخلـــية وهو يمسك من دون اكتراث بالمقود. عندما عدّل شدّة الصوت، امـــتلأت الـــسيارة بإيقاع أناشيد حماس، التي كان يقاطعها مقتطفات من خطابات، وصوت أسلحة ثقيلة، وانفجار قنابل بين الفينة والأخرى.

قـــاد مقـــداد السيارة جنوباً بعيداً عن قلب المدينة، تجاوز هضبة صخرية كان القـــصر الرئاســـي للقائد السوري بشار الأسد ينتصب شامخاً عليها. أمامها مباشرة، كانت هناك هضبة أخرى عليها هوائي اتصالات متشعب.

في الـــبداية، كان منظر الشارع كئيباً ومملاً، لكن هنا وهناك، كسرت مشاهد فسيفـــسائية، وواجهات أبنية من الزجاج والفولاذ رتابة فن العمارة سوفياتية الطراز الـــشبيهة بالصناديق. يتقدمهم مزوّدو خدمة الهاتف الخليوي، كان المعلنون في سورية يملأون اللوحات الطرقية المبهرجة.

بعد حوالى عشرين دقيقة، انعطف مقداد بالمرسيدس إلى اليمين، نحو جيب آمن كان مخصصاً للمسؤولين البارزين في نظام دمشق، الدبلوماسيين الأجانب والمنظمات غير الحكومية. كانت تلك رحلة إلى ملاذ خالد مشعل.

كانت هناك لافتة على الطريق لإحدى وكالات الأمم المتحدة. كانت البعثات أو المقـــار الدبلوماســـية محـــددة برايات وطنية مختلفة. لكن لم تكن هناك لافتة تحدد الطـــريق إلى المـــلاذ الذي يتم استعماله كمقر لحماس، حركة المقاومة الإسلامية في

فلسطين. كان يبدو أن البناء الذي يكسوه الغبار والمؤلف من أربعة طوابق يضم شققاً سكنية. مزوّداً بآلات تصوير أمنية، كان البناء يقع على سفح تل يطل على شارع في الجزء الخلفي من الجيب الدبلوماسي. وكانت حركة السير خفيفة.

كانت أول إشارة على أن ذلك المبنى ربما يكون منزل أحد قادة النظام البارزين هي وجود ثلاثة حراس سوريين يرتدون سترات جلدية ويحملون أسلحة نارية وأجهزة لاسلكي في أثناء تجولهم على الرصيف في الخارج. كان الأقل وضوحاً لكن الأقوى تأثيراً المدفعية المضادة للطائرات المخفية في مخبأ أسمنتي محفور عميقاً في سفح التل، على الجانب الآخر من الطريق تماماً.

لم يكن مقداد قد قال الكثير. لكنه أصدر آنذاك أمراً فظاً للراكب بأن يبقى في السيارة. خفف من سرعة المرسيدس، وصعد بها على الرصيف، وركنها تحت مظلة ممتدة مثبّتة بسور البناء. أمسك حراس المنزل، الذين تحركوا بدقة متناهية، بطرفي غطاءين من المشمّع المعلّقين على المظلة والمثبّتين على طرفي السور. سحبوهما بسرعة إلى طرف الرصيف حتى غطيا السيارة تماماً. حرر مقداد القفل المركزي فقط عندما أصبحت السيارة مخفية تماماً ضمن غطائها القماشي[1]. لم يكن الذين في الداخل يرون ما في الخارج، ولم يكن الذين في الخارج يرون ما في الداخل.

كان وصول غريب تدريباً رئيسياً للإجراءات الأمنية المشدّدة التي تحيط بخالد مشعل داخل المبنى. كان كل من حرّاسه يرتدي بذلة أنيقة وربطة عنق داكنة. كانوا يضعون سمّاعات ويتكلمون جميعاً عبر طيّات أردان ستراتهم من وقت إلى آخر. مؤدبين جداً، كانوا رجالاً عوّدوا أنفسهم على الانضباط واليقظة ويفهمون أن رئيسهم هدف دائم لعدو مصمم على النيل منه.

كان يتم الاحتفاظ بالهواتف الخليوية عند الباب. كان يوجد في ردهة الطابق الأرضي جهاز للكشف عن المعادن وآلة مسح ضوئي شبيهة بتلك الخاصة بالأمتعة في المطارات، والتي يتم إخضاع كل الحقائب لها قبل أن يتم أخذها لتفتيشها بشكل دقيق يدوياً؛ بغياب مالكيها.

عند نهاية سلالم كانت تستدير بحدّة إلى اليمين في منتصف الطريق إلى الأعلى وخلف باب ثقيل موصد بإحكام كانت هناك قاعة كبيرة في الطابق الأول حيث يستقبل خالد مشعل زوّاره. بطراز *الديوان* العربي التقليدي، أو قاعة الاستقبال،

كانت تصطف أمام الجدران الطويلة أرائك وكراسي وثيرة، والتي كان لون تنجيدها أخضر حماس الفاتح. كان لون السجادة على الأرض أخضر أيضاً. كان النُّدل يتقدمون من الضيوف وهم يحملون صواني عليها فناجين القهوة العربية الثقيلة، والشاي المحلّى، أو المياه المعدنية، ومع طبق صغير من الحلويات العربية لكل شخص.

لكن في تلك الغرفة كان هناك ما هو أكثر من الضيافة العربية. كان يواجه كل من يدخل عبر الأبواب المزدوجة الكبيرة صور لحوالى عشرين شهيداً من حماس. في لوحة تحتل معظم المساحة بين نافذتين كبيرتين، كان كل قسم من الشكل الشبيه بقرص العسل يحمل وجه أحد كوادر حماس الذين استشهدوا في حملة الاغتيالات التي نفّذتها إسرائيل. كان هناك مقام للشهيد الشيخ أحمد ياسين في إحدى زوايا الغرفة. قبالة الجدار البعيد، كان هناك نموذج متقن الصنع من الخشب اللامع لقبة الصخرة، المقام الإسلامي المبجّل في قلب مدينة القدس القديمة، والتي أُريق لأجلها الكثير من الدماء.

كان خالد مشعل يصيح بأعلى صوته. ممسكاً الهاتف كله بيده، والجهار يعمل، كان يصرخ بالعربية. مشى بحيوية وغضب على حين كانت أبصار مساعديه تنتقل منه إلى جهاز تلفاز في إحدى زوايا الغرفة. كان عدّة أشخاص، يتكلمون جميعاً في الوقت نفسه، على الطرف الآخر من الخط الهاتفي - يصرخون على مشعل - كانت المشاهد التلفزيونية رسوماً تصويرية تأتي من غزة.

في وقت كانت فيه حماس بأمسّ الحاجة إلى إظهار وجه أقل عنفاً للعالم، كانت قناة الجزيرة تبث صوراً لمعارك في شوارع غزة بين حشود فتح وعدد من مقاتلي حماس. كان ذلك يوم الجمعة 7 أيلول 2007.

ببعض الشجاعة، كان من تبقّى من أنصار فتح قد شرعوا يوم الجمعة في تنظيم احتجاجات خارج المساجد الكبيرة. وبينما استمرت صلاة الجمعة في الداخل، أقام نشطاء فتح صلوات في الهواء الطلق احتشد فيها ضعف المتظاهرين ضد حماس خارج المساجد. عندما انتهت الصلاة، سخر أنصار فتح من قوات حماس؛ ردّدوا شعارات، ورموا حجارة، وألقوا بقنابل صوتية منزلية الصنع. كانت القوة التنفيذية التابعة لحماس قد وقعت في الفخ.

مسلحة ببنادق وهراوات، كانت القوة التنفيذية تهاجم الحشود التي تجاهلت أوامر بالتفرّق. تم إطلاق أعيرة نارية في الهواء، وتركت أخماص البنادق والهراوات

آثـــاراً على الأجساد. تم اعتقال بعض مسؤولي فتح لمدة وجيزة؛ وضرب الصحافيين الـــذين حاولوا تغطية الشغب. على الهاتف، كان مشعل يدفع باتجاه تطبيق القانون، ويحـــاول كبح جماح العنف. صرخ باسمي ياسين والرنتيسي، قائدي حماس اللذين لقيا حتفهما منذ وقت طويل.

ممـــدداً على أريكة قريبة، كان الناطق قديماً باسم حماس محمد نـــزال يعاني من كـــسر في ذراعه. كان ذلك نتيجة حادث مروري، كما قال. بلحية كثّة تزيّن ذقنه، كـــان نـــــزال الأقوى بنية يرتدي بذلة سفاري قديمة الطراز. بصوت خافت، قدّم نـــصيحة بيـــنما كان مشعل يطالب غاضباً بإيقاف قوات حماس الأمنية التي يتجول أفـــرادها في شوارع غزة. كان بين أولئك على الطرف الآخر من الخط سعيد صيام، وزيـــر الداخلية في حكومة حماس التي تسلّمت زمام السلطة في الأراضي المحتلة لغاية تعيين حكومة وحدة وطنية وفقاً لاتفاق مكة في آذار 2007.

قـــال مـــشعل بسخط واضح: "أتكلم إلى شعبنا للحفاظ على الهدوء. ينبغي أن يفهمـــوا أنـــنا لـــن نتعامل مع فتح كما تعاملت معنا في الماضي. لقد وضعوا ياسين والرنتيسي في السجن؛ لن نعاملهم بتلك الطريقة".

تـــوقفت الاشـــتباكات المسلحة بسرعة، ونعمت غزة، التي كانت على حافة الانفجار، بالهدوء مجدداً. بغياب أي تطورات في الساعة التالية، استرخى مشعل قليلاً، بعد تحقيقه درجة من النجاح. في تلك الحال، كان عدم وجود أنباء يعد أنباءً جيدة. قال: "الوضع الآن مثل أي يوم جمعة آخر في غزة. لا بأس، هناك القليل من التوتر".

بعمر السادسة والخمسين، كان خالد مشعل قد فقد مظهر كارلوس – ابن آوى النحـــيل الذي كان يبدو عليه في صور ظهرت في الصحافة الإسرائيلية عندما حاول الموســـاد اغتياله قبل عشرة أعوام. بامتلائه جسدياً، كان مشعل يبدو أكثر قوة بدنياً، وقد زاد وزنه بشكل ملحوظ. وكان الشعر الذي بدا عربياً أسود قبل عقد مضى قد تحول إلى أشيب. كانت لحيته مرتبة بعناية.

كـــان لباس مشعل يوافق ما يشير إليه الكثير من العرب بأنه *أسلوب إيراني*. عادة، يرتدي بذلة رمادية أو سوداء مع قميص مفتوح عند العنق – أحياناً أبيض، وأحياناً أزرق فـــاتح – كان يبدو مرتاحاً ببنيته المتينة، بالرغم من أنه أعلن بدرجة من الفخر أنه كان قد أنقص خمسة وعشرين رطلاً من وزنه في أربعة شهور من الحمية والتدريب الصارمين.

عـــادة، كان مشعل يلتزم العادة العربية بخلع حذائه عند الباب، ويفضل التجول في الأرجـــاء بالجوربين. لكن، مع حلول الخريف وتغلغل البرد عبر الأرضية الأسمنتية، تخلّـــى عـــن التقاليد، وأخذ ينصح الزائرين بتقليده والحفاظ على الدفء بعدم خلع أحذيتهم.

كـــان يجلس إلى جانب صورة ياسين وأعلام فلسطين وحماس، يضع رجلاً فوق الأخـــرى بينما يسترخي في كرسي كبير. من حين إلى آخر، كان يتكئ على مرفقه لتوضيح نقطة ما، قبل أن يعود للاسترخاء في كرسيه.

كـــان يحوم باستمرار حول مشعل أبو سيف، الحارس الشخصي الضخم نفسه الـــذي كان قد ألقى برجلي الموساد أرضاً في العام 1997. مثل نابض مضغوط، كان ســـيف مثل ظل مشعل. كان شعره الأسود يتبع خطوط جمجمته، وكان يحلقه على نمـــرة 3. رشـــيقاً كما كان قبل عشرة أعوام، كان أبو سيف يرتدي آنذاك قمصاناً، ومـــشبكاً فـــضياً يثبّت ربطة عنقه في مكانها. وكان مسدس لا يفارقه أبداً مثبّتاً إلى حزامه.

كانـــت أعـــوام من الغموض بشأن واجهة مكتب حماس السياسي قد تركت مـــشعل مـــع صورة ذات بعد واحد في الغرب؛ متطرف متشدّد مصمم على تدمير إسرائيل. لكن انتخاب حماس للحكومة في الأراضي المحتلة والأزمة بين الفصيلين التي تبعت ذلك كانا قد أثارا المزيد من الاهتمام برجل لعب لوقت طويل دوراً من خلف الستار في العلاقات الإقليمية.

كان مشعل شخصية مركّبة تتمتع بسحر شخصي لا يتوافق مع ما هو معروف عنه وسمعته كسفّاح. كان اهتمامه بالعلاقات الدولية أوسع مما تدل عليه خُطبه العلنية القاســـية. كـــان للـــرجل الذي يرأس حركة مقاومة عادات شخصية متكلّفة لزعيم عربـــــي مضياف. كان يمسح عنقود العنب أحياناً بمنديل، أو يستعمل سكيناً لقطع أجزاء من درّاقة ناضجة، قبل تقديم الفاكهة لضيف. إذا استغرب الضيف ذلك، كان يـــتوقف للحظـــة، يتكلم بالعربية ثم يتحول إلى الإنكليزية ليحقق اتصالاً بصرياً مع كلمتي "أرجو المعذرة!".

في الواقـــع، كـــان مـــشعل يفهـــم الإنكليزية جيداً. بالرغم من أنه كان يتردد في اســـتعمالها، إلا أنـــه كان يصحح بسرعة للمترجم الفرق في المعنى، ويكشف بالتالي عن

استيعابه للّغة. في مناقشة ما يدعى الخَيار الأردني، الذي يتم وفقاً له نقل الفلسطينيين من الضفة الغربية للعيش بين جيرانهم الشرقيين، كان يدعوه مداعباً "خيار الأردن" لأنه يمكن ترجمة كلمة *خيار* العربية إلى "خيَار" و"خِيار". كان تلاعبه بالألفاظ قد أصبح بياناً سياسياً: "آه! هناك شيح في الشاي الذي أتناوله، و"شح" هي حال عيش الفلسطينيين".

في الطيف السياسي الضيق ضمن حماس، كان مشعل يمثّل مركز البراغماتية. لكن بعد أن شاهد كيف كادت التسوية والفساد يدمران فتح، تشدّد في براغماتيته، وجادل بعض المراقبين المقرّبين من الحركة أنه في الأعوام الأخيرة أصبح أكثر تشدداً في سياسته أيضاً.

وفقاً لمشعل، كان ينبغي أن يكون دفاعه عن مشاركة حماس في العملية السياسية محطّ إعجاب الغرب. على أي حال، لم ينل الإعجاب قط بسبب موقفه الثابت في القضايا الرئيسية التي تتمثل بالعنف المستمر، وإطلاق الصواريخ، والالتزام الجوهري بميثاق الحركة: دعوتها إلى تدمير إسرائيل. لم تكن لدى مشعل نية لعقد تسوية على ما كان يراه حق الحركة الشرعي في مقاومة إسرائيل بالعنف. ربما كانت حماس قد شاركت بالانتخابات، لكنها فعلت ذلك كحركة مقاومة تضع يدها على الزناد.

في المدة التي أعقبت حرب تموز بين الفصيلين الفلسطينيين في غزة، كان مشعل يعرف أن حماس قد وصلت إلى مفترق طرق تاريخي. بالرغم من الظروف الضاغطة، كان متحمساً بشأن مسؤولية إدارة دفة الحكم، لكن مشعل حذّر أيضاً أن *انتفاضة ثالثة* تبقى بين الأوراق التي يحتفظ بها. كانت حماس مستعدة لعقد اتفاق مع إسرائيل، لكن ليس على حساب الحركة أو حقوق الشعب الفلسطيني.

مثل لاعب شطرنج، تجاوز مشعل بحذر الحديث عن الظروف التي يمكن لحماس من خلالها إجراء محادثات مع إسرائيل. إذا كان عليه الاعتراف بإسرائيل، ماذا ستفعل إسرائيل بالمقابل لحماس؟ ماذا ستكون ردة فعل كل من الأميركيين والأوروبيين؟[2] استمر في نفي أي علم بعرض وقف إطلاق النار الذي ادّعت مصادر إسرائيلية أنها تلقّته من حماس في العام 2006. أصرّ قائلاً: "لم يحدث ذلك مطلقاً. هذا غير صحيح، وأنا واثق من ذلك. أنا القائد هنا؛ أعرف ما يجري".

بالرغم من أن مشعل يمسك بأطراف القوة في حماس، إلا أن منافسه القديم وزميله موسى أبو مرزوق كان قد رسّخ نفسه بالقرب منه في مكتبه الخاص في

دمشق. كان هذان الرجلان لا يزالان يعملان بتعاون وثيق مع بعضهما في فريق قيادة حماس، لكن حظ أبو مرزوق كان قد أجلسه في المقعد الخلفي طيلة الأعوام التي كان فيها مشعل يشدد من قبضته على الحركة. كانت العلاقة بين الرجلين وما قيل بشأن تغير توازن القوى في قمة هرم حماس موضوعاً مهماً للغاية للولايات المتحدة وإسرائيل.

أحد أبناء غزة، كان أبو مرزوق طيلة حياته أحد أتباع الشيخ أحمد ياسين. كان قد أعاد بناء قيادة حماس في الأراضي المحتلة في أوائل التسعينيات بعد الحملات الإسرائيلية باعتقال وإبعاد نشطاء الحركة. بالمقارنة، لم يكن الكثير معروفاً عن نشاطات مشعل في المدة نفسها، التي كان بعض الزملاء يشيرون إليها بشكل مقتضب بأنها *أعوام مشعل الخفية*.

مدعوماً من ياسين، كان أبو مرزوق في موقع يجعله على الأرجح مؤهلاً في نهاية المطاف لتولّي قيادة حماس. بدلاً من ذلك، كان مشعل الذي ارتقى السلم حتى آخر درجة. في خلال احتجاز أبو مرزوق في أميركا بين عامي 1995 و1997، كان مشعل قد ثبّت موقعه في رأس الهرم.

عندما تم إطلاق سراح أبو مرزوق، كان قد عاد إلى مكتب حماس السياسي ليجد أن موقعه أصبح أدنى درجة وسيعمل بدلاً من ذلك كنائب لمشعل. في كل فرصة سانحة في انتخابات حماس الداخلية، كان أبو مرزوق يستعرض منافسته المستمرة كمرشح للقيادة من دون فائدة. انتهت ثلاث محاولات على الأقل بالفشل وآخرها بالخزي عندما لم يستطع حشد ما يكفي من الدعم للاحتفاظ بمنصبه كنائب له، وليس لإزاحة مشعل عن موقعه.

لكن شخصيات بارزة في حماس بيّنت أن مشعل، لمصلحة السلم الداخلي، كان قد اقترح استمرار أبو مرزوق في تأدية مهامه كنائب معين. شرح أحدهم: "الأخ خالد يحمل العصا من المنتصف".

كان أبو مرزوق يعمل تلك الأيام من عرينه في سفح تل يطل على دمشق. كانت المناظر رائعة، لكن مكتبه كان يشبه غرفة في ثكنة عسكرية وليس مقراً أنيقاً واسعاً مثل ذاك الذي كان يعمل فيه في الأيام الخوالي في عمّان منتصف التسعينيات. من وقت إلى آخر، كان يظهر علانية ليتحدث إلى وسائل إعلام غربية، لكن أبو

مـــرزوق كـــان يبدو رجلاً يواجه أوقاتاً صعبة. كان جسده النحيل في ما مضى قد أصـــبح أكثـــر وزناً، والملابس الأنيقة لرئيس المكتب السياسي سابقاً الذي كان يولي عـــناية خاصة لتطابق ألوان فناجين القهوة مع تجهيزات تحضير القهوة قد أضحت أقل تكلّفاً.

خارج دائرة حماس الداخلية، كان البعض متفاجئاً بارتقاء مشعل السهل إلى قمة هرم القيادة. جادل مراقبون مثل المؤرخ والشخصية السياسية المستقلة زياد أبو عمـــرو أن ســـلطة وقوة حماس كانت بمنـــزلة لوح القفز لطموح مشعل. شرح: "يجـــب أن تتذكـــر أن حركة قوية وتتمتع بالمصداقية تصنع أحياناً القائد؛ ليس العكس"[3].

في عمّان، نسبت الصحافية والمحللة واسعة الإطلاع رانيا قدري ارتقاء مشعل إلى محاولة الاغتيال الإسرائيلية في العام 1997. لاحظت لاحقاً: "كان اليوم الذي حاولوا فيه قتله هو اليوم الذي ولد فيه مشعل القائد. الرجل الذي مات ذلك اليوم هو موسى أبـــو مـــرزوق. لم يعد أحد يرغب بالحديث إلى أبو مرزوق بعد ذلك؛ كان مشعل، مشعل، مشعل"[4].

طيلة أعوام كانت هناك إشارات غير مباشرة إلى مجلس حرب الإخوان المسلمين في عمّان في 1993، الذي وضع أسس حماس[5]. لكن الرواية الرسمية لطالما أشارت إلى الاجتماع الأسطوري مساء 9 كانون الأول 1987، في منـــزل الشيخ ياسين في غزة، علـــى أنـــه المناسبة التي شهدت قيام الخطيب المُقعد في كرسيه المدولب وستة آخرين بإطلاق حماس بشكل عفوي في جهد للاستفادة من حالة الغضب التي أعقبت الحادث المروري الذي لقي فيه عدّة فلسطينيين حتفهم.

لكـــن بحسابات مشعل الخاصة، كان التخطيط قد بدأ في وقت أبكر كثيراً؛ أولاً في الكـــويت البعيدة ولاحقاً في المؤتمر السري في الأردن. كانت خطة إنشاء حمـــاس جـــزءاً من التخطيط الاستراتيجي للإخوان المسلمين قبل أربعة أعوام من حادث الاصطدام المروري، قرب معبر إيريز، الذي كان شرارة انطلاقة الانتفاضة الأولى. كانـــت رؤيـــة مـــشعل تشير إلى أن الصورة القوية لياسين المُقعد، الذي يعمـــل وحيداً تقريباً في كل أنحاء قطاع غزة باسم حماس، كانت تدريباً جيداً في العلاقات العامة.

قال مصدر مقرّب من قيادة حماس: "كان مستحيلاً أن تنجح عملية ياسين في غزة والضفة الغربية من دون المشروع الخارجي [الذي حثّ عليه مشعل]. حتى عندما كان ياسين يركز على *الدعوة* [مقارنة بالمقاومة المسلحة]، كان التمويل من الإخوان المسلمين [خارج فلسطين] هو الذي يجعله يستمر بالعمل".

كان تفسير مشعل الخاص أن العمل على مقاومة مسلحة جديدة كان قائماً على قدم وساق عندما حصل حادث إيريز، الذي اصطدمت فيه شاحنة يقودها إسرائيلي بسيارات قادمة بالاتجاه المعاكس قرب المعبر، ولقي فيه أربعة فلسطينيين حتفهم، الشرارة التي أشعلت خطة معدّة سلفاً. قال: "لم يكن قرار الغزّاويين السبعة في العام 1987 حدثاً عفوياً أو آنياً خارج السياق. كان مؤسسو حماس داخل الأراضي المحتلة وخارجها قد اتخذوا خطوات إطلاق الحركة. جعل الغضب والثورة بشأن الحادث المروري من كانون الأول ذاك لحظة مؤاتية.

"كنا مستعدين. من الخارج، كان الأمر يبدو مثل رد فعل [على الحادث]. لكن المشروع المقدّم في العام 1983 كان على وشك أن يُثمر، وبالنسبة إلينا كانت تلك لحظة تتويجه. كانت تلك البيئة المؤاتية لحماس لتؤسس نفسها وتخرج للعلن".

كانت أعوام مشعل كلاجئ فلسطيني في الكويت، والذي يبدو منكبّاً على سيرته المهنية الجديدة كمدرّس فيزياء، غطاءً فعالاً، حلم في خلالها بمصير مختلف. "كنت رجلاً ذا رسالة، وقضية، ومشروع. كنت أحلم بذلك مذ كنت طفلاً! أنا فخور لأن الله أكرمني لأكون مؤسساً وجندياً في المشروع الذي أصبحت قائده. إنه موقع ائتمنني إخواني عليه. لكن المهم شخصياً بالنسبة إليّ هو أنه مشروعي".

كان مشعل يقود المنظمة آنذاك، وإن يكن من المنفى. بإدارة أو تلاعب ماهر بكل أزمة في تاريخ المنظمة – بما في ذلك اغتيال ياسين – كان قد وطّد بثبات سلطته على شبكة متماسكة فكرياً وتنظيمياً لكن موزّعة جغرافياً.

كان يمكن لأجنحة الحركة المختلفة – الذراعين العسكري والسياسي؛ القيادة المحلية في غزة والضفة الغربية؛ قيادة السجناء القوية، التي استطاعت العمل داخل سجون إسرائيل؛ والفريق الحكومي، الذي كان يرأسه إسماعيل هنية في غزة – التفاعل عبر دمشق فقط. أمسك مشعل بيد من حديد بكل من تدفّق الأموال وصلات حماس الواسعة مع العالمين العربي والإسلامي.

كـــان مشعل يحظى بدعم العناصر الأكثر تشدداً ضمن الحركة، خاصة في غزة. تبنّـــى لغـــة العنف بسهولة، واستعمل خطاباً ودعاية لتحفيز قواته وإبعاد حماس عن جهود فتح المتكررة لتحقيق تسوية عبر المفاوضات مع إسرائيل.

لكـــن، مـــع عـــين على المفهوم الغربـــي للمقاومة ودوره ككبير دبلوماسيي الحركة، كان مشعل يسعى لإخفاء دوره الشخصي في العمليات الاستشهادية، وادّعى أن فـــصل السلطة بين جناحي حماس العسكري والسياسي كان حقيقياً. قال: "لم أُقرّ شخصياً أي عملية استشهادية. ذلك امتياز للجناح العسكري. إنهم الأشخاص الذين يقرّون العمليات ويخططون لها".

متبنّـــياً فصلاً كان قد أثبت نجاعته للجيش الجمهوري الأيرلندي والشين فين في أيرلندا قبل 11 أيلول، شرح مشعل: "سياسة الحركة هي الانخراط في المقاومة. الجناح العسكري يقرر الشكل الذي تتخذه ودور الجناح السياسي الدفاع عن المقاومة وتبرير أفعالها".

لم يكن مشعل، بالطبع، قد منع الاستشهاديين؛ وبدلاً من ذلك، حثّهم وأعرب علانـــية عـــن رضاه عما يقومون به. لكن بحلول العام 2004، كان استعمال حماس المـــستمر للعملـــيات الاستشهادية قد حوّل الرأي الدولي بشكل حاسم ضد القضية الفلـــسطينية. نجم عن ذلك عملية إعادة تقييم داخل حماس، والتي تمسّك فيها مشعل بـــوجهة نظره القائلة بوجود أفضلية استراتيجية يمكن كسبها من استعمال مثل ذلك الـــسلاح الفـــتّاك. وفقـــاً لحساباته، كان يفوق الدعاية السلبية تأثيراً تقويض شعور إسرائيل بالأمن، وكانت الرسالة الواضحة التي ينقلها كل هجوم هي أن الفلسطينيين لن يستسلموا.

استمر الأمر أكثر من سنة من المناقشات المكثّفة ضمن الحركة، التي حثّ عليها أنـــصار حمـــاس في مجتمعات الشتات في الولايات المتحدة وأوروبا، ليحسم اللوبـــي المناهض للعمليات الاستشهادية الجدال بأنه ينبغي أن تكون هناك طريقة أخرى *لجعل إسرائيل تنـــزف*[6]. لم يكن مشعل يقبل بأن يكون للعنف الذي يمارسه الفلسطينيون والإسرائيليون ضد بعضهم تأثير وحشي على كل أطراف النـــزاع. جادل مشعل في الأمر، واختار وضع قرار الابتعاد عن العمليات الاستشهادية في إطار شورى الحركة، أو الاستـــشارات، ولـــيس كهزيمة شخصية له: "لا نعتقد أن الإصرار الشديد على

حقوقنا يجرد الفلسطينيين من إنسانيتهم. من يدافع عن نفسه، وشعبه، وبلده لا يخسر إنسانيته. ستكون هناك أوقات سأشعر فيها بأنني مقيّد [من النقاش الداخلي]، لكن ذلك لا يحدّ من قدرتي على المناورة أو الإتيان بأفكار جديدة".

بعد عقود من الصراع الذي كان قد أحاط ليس بشعبه فقط، وإنما بالمنطقة كلها أيضاً، كان خالد مشعل الذي ارتقى من صفوف الحركة ليتكلم بمثل تلك السلطة عن مصير ملايين الأشخاص لغزاً فلسطينياً. كان من الصعب وضعه على الرف. كان مشعل يدير منظمة ضخمة معقدة. كانت حماس تعمل كحكومة وجيش في بيئة صعبة. وكانت لديه شبكة دعم دولية وأتباع في الأراضي المحتلة، والتي كانت تتطلب من مشعل القيام بأعمال الرئيس، والقائد العام، والخازن، والسفير إلى العالم.

كانت الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي قد وضعاه على قائمة الإرهابيين. كانت خُطبه غنية بالحديث عن الجهاد. لكن مشعل نفسه لم يكن قد رمى حجراً أبداً، أو أطلق عياراً نارياً في معركة. بالنسبة إليه، لم يكن هناك تدريب على المقاومة في زنزانة سجن أو أعمال حرب عصابات حول نار مخيم.

كان مشعل هجيناً من الدين والدنيا. كان منغمساً بعمق بالإسلام، يكرّس ساعة في اليوم لتلاوة القرآن الكريم. في الوقت نفسه، كشف مشعل عن بعض ميزات الأصولية النمطية - تعصّب قصير النظر، ومتطرف فكرياً وفقاً لوجهة النظر الغربية - لاحظ محلل أميركي، بحنق تقريباً، بعد لقائه الأخير مع قائد حماس: "كنت قد التقيته ثلاث مرات حتى ذلك الوقت، ولم أسمعه بالرغم من ذلك يقول كلمة *إسلام*".

كان مشعل يُظهر نفسه كرجل متشدد في العلن. في خلوة، كان يميل إلى إظهار مشاعر مفاجئة غير متوقعة. كان مشعل ينغمس في ذكريات غامضة عن حياة القرية والجلوس إلى طاولة والدته. كان مزاجه يتعكر عندما يتذكر موت يحيى عياش، سيد العمليات الاستشهادية الذي أطلق مشعل اسمه على ابن له ولد يوم اغتالت القوات الإسرائيلية عياش في العام 1996. وكان يذرف الدموع عندما يتكلم عن هجوم غامض بالقنابل في باكستان في العام 1989 قتل الخطيب - المحارب عبد الله عزام، المستشار الذي كان مشعل يشترك به مع أسامة بن لادن. قال مشعل: "كان عزام رجلاً رائعاً وندين له بالكثير"، من دون أن يكشف عن طبيعة الدين.

كـــان دبلوماسيون، ووسطاء، ومحللون يخرجون من مقره في دمشق يقولون إن خالـــد مشعل ليس كما يبدو عليه. كان منتقدوه في الغرب والوطن العربـــي كُثراً. كانـــوا يـــستطيعون سرد الكثير من أخطائه، لكن بمواجهة رفض شديد من واشنطن والقـــدس، كان هناك مقدار صغير لكن مؤثر من التأييد الغربـــي والإسرائيلي لمشعل وقدرته على منازلة قوات شديدة البطش في أزمة أصبحت دراما جيو - سياسية.

حـــذّر محللون بارزون ومستشارون ومسؤولون حكوميون سابقون في الولايات المـــتحدة والشرق الأوسط من خطر عدم إيفاء مشعل حقه من التقدير، ورفض منحه كرســـياً إلى الطاولـــة. بحلول أواخر العام 2007، كان ممكناً سماع مستشار حكومي بارز سابق في القدس يصف مشعل بأنه "قائد وطني حقيقي"، أو سماع مسؤول سابق في البيت الأبيض في واشنطن يقول عنه إنه قائد قُدّر له أن يلعب *دوراً أساسياً* في أزمة الشرق الأوسط.

شـــعر مـــسؤولو الاستخبارات العربية بالقلق لأن مشعل كان أول شخصية في حمـــاس تـــسيطر علـــى الجناحين السياسي والعسكري. في الاستخبارات العسكرية الإســـرائيلية، كانت هناك تحليلات عن القدرات التي جعلت مشعل مثل ذلك العدو المخيف للدولة العبرية. قال ضابط استخبارات عسكرية إسرائيلية سابق كان قد درس مشعل من بعيد طيلة خمسة عشر عاماً: "إنه يفهم القوة واستعمال العنف. حتى إذا لم يفعـــل ذلـــك بنفـــسه، يفهم بوضوح ماهية الأمر. إنه يثبّت قارب حماس. إنه ليس أيديولوجياً عظيماً ولم يبتكر أيديولوجية حماس، لكنه يفهمها ويفهم ما يمكن فعله بها. لكن علينا أن نفهم أن مشعل شخص خطير جداً. إنه ليس مجنوناً، بل متواضع جداً، أو على الأقل هذا ما يريد منا أن نعتقده. تذكروا هذا إنه يرأس منظمة إرهابية تمتلك قنابل وصواريخ وترمي أشخاصاً من نوافذ الطابق الخامس عشر"[7].

صـــاغ أحـــد نشطاء فتح البارزين التحذير نفسه بتعبيرات مختلفة وكان قد راقب تزايد هيمنة مشعل على حماس. جادل قائلاً: "لم يحظَ بالدعم الداخلي لتولّي القـــيادة بجاذبية شخصيته فقط. كانت هناك أسباب تجعلهم يعتقدون أن مشعل ســـيكون قائـــداً قوياً، عاقد العزم. لارتقاء سلم القيادة، كان عليه ترويج فكرة لحمـــاس والإخوان المسلمين أنه من موقعه الحالي يستطيع الفوز بأصدقاء مهمين وتحييد أعداء بارزين".

لجأ عميل إسرائيلي إلى مخزون مختلف، لكن مقنع بالقدر نفسه، من أفكار المقاومة لتحديد القوى التي تحرّك مشعل. قال: "يريد أن يكون مثلنا، مثل الصهاينة في فلسطين التاريخية. كشعب من دون أرض، نجحوا في إنشاء دولة جديدة أصبحت اليوم وطناً لأكثر من 40 بالمئة من يهود العالم. يرى مشعل نفسه مسؤولاً عن كل الفلسطينيين - في الداخل والخارج - ويريد إحضارهم جميعاً إلى وطنهم التاريخي".

في حقبة الاتصالات المباشرة، يُبقي مشعل جهاز التحكم بالتلفاز عن بعد في متناول يده لرؤية أكثر من نصف دزينة من القنوات الإخبارية الفضائية التي تنقل الأحداث مباشرة من الأراضي المحتلة إلى مقره في دمشق. لديه ستوديو تلفزيوني في القبو يتم منه بث خطاباته إلى منازل الفلسطينيين، إما عبر قناة الأقصى التابعة لحماس أو المنار التابعة لحزب الله. كانت أداة اتصالاته الرئيسية هي الهاتف الأرضي. نادراً ما يمسّ الهاتف الخليوي فقد أثبت الإسرائيليون أنهم ماهرون في تعقّبه. بدلاً من ذلك، كان مشعل شخصاً يعمل عبر الهاتف الأرضي عتيق الطراز. كان كادره يتولى الرد على رسائل بريده الإلكتروني، لكن اتصالاته الشخصية كانت ترتكز على قوائم مكتوبة بخط اليد كان قد جمعها طيلة حياته. عندما لم يكن مساعدوه يستطيعون معرفة رقم هاتف يطلبه، كان يتم إحضار أحد دفترين أسودين صغيرين له، اللذين يضمان أرقام كل الشخصيات التي يعرفها مشعل في عالم السياسة، والإسلام، والجهاد. قال: "الجميع هنا؛ علاقاتي مع العالم".

كان مشعل يستطيع دخول قاعدة عسكرية آمنة في دمشق، حيث يمكنه ممارسة رياضة المشي. غالباً، على أي حال، كان يقضي ساعة في اليوم على آلة رياضية في مقرّه. في أثناء سيره مسافة أربعة أميال في اليوم على الآلة، كان يقرأ الصحف، المجلات، وأحياناً القرآن الكريم.

كان قد أنهى قراءة مذكرات مدير وكالة الاستخبارات المركزية جورج تينيت المثيرة للجدل - *في قلب العاصفة: سنواتي في وكالة الاستخبارات المركزية* - التي وصفها بأنها "جهد شجاع لفتح نافذة على الحرب العراقية". كان يقرأ كتاب جيمي كارتر *فلسطين: السلام لا نظام الفصل العنصري*، وكتاب جون ج. ميرشايمر وستيفن م. والت *اللوبي الإسرائيلي والسياسة الخارجية الأميركية*. في الوقت نفسه، كان يقرأ تاريخ الإسلام في أربعة عشر جزءاً الذي وضعه المفكر الإسلامي ابن كثير في القرن الرابع عشر، *البداية*

والـــنهاية. كانـــت خزانة قراءة مشعل الموجودة بجانب سريره تتضمن أحد مجلدات ابن كـــثير، سيرة حياة صلاح الدين، الملك – المحارب المسلم الذي حرّر القدس من الصليبيين في 1187؛ القرآن الكريم؛ والأذكار، وهو كتاب أدعية إسلامية.

كـــان مـــشعل قد خفف أخيراً من سفره بعد أعوام من تحرُّكه المستمر. في بيئة معاديـــة باطّـــراد، كان يبقى في مقرّه المحصّن أو في مواقع آمنة أخرى في دمشق، التي كان يشير إليها بشكل مبهم على أنها "منازلي الأخرى".

قـــال، يشرح القيود الحتمية المفروضة على أسرته: "هذا قدري. تأقلمت العائلة مـــع الوضع. إنهم مقتنعون بشرف المهمة، لهذا يحملون أيضاً المسؤولية. إنها قضيتهم مثلما هي قضيتي".

يـــذهب أولاد مشعل السبعة إلى مدارس عادية وجامعة في دمشق. في المنـــزل، كـــان أولاده يدخلـــون ويخرجون في أثناء حضوره الاجتماعات، بما في ذلك الثلاثة الذين كانوا قد شهدوا محاولة الموساد اغتيال والدهم في العام 1997. منذ ذلك الحين، كانـــت معظـــم الشخصيات الرئيسية في أزمة الشرق الأوسط قد غابت عن مسرح الأحداث. كان ملك الأردن حسين قد قضى نحبه، وتم إقصاء سميح البطيخي، رئيس اســـتخباراته القـــوي، من قبل النظام الجديد. كان ياسر عرفات قد قضى نحبه أيضاً، وأرييل شارون في حالة غيبوبة عميقة. كان بيل كلينتون قد غادر البيت الأبيض منذ وقـــت طـــويل. بينهم جميعاً، كان مشعل الوحيد الذي ترنو إليه الأبصار. في حماس، أطلقوا عليه لقب *الشهيد الذي لم يمت*.

بعـــد الحـــرب الأهلـــية، كـــان هناك نوعان من الآثار. كان السكان المحليون يـــستطيعون بسهولة تحديد الأضرار التي تسببت بها الأسلحة الإسرائيلية من تلك التي أحـــدثها الفـــصيلان الفلسطينيان. حيثما كان هناك بناء متداعٍ، أو مسكن تحوّل إلى كـــومة مـــن الأنقـــاض التي تناثرت في الشوارع، كان واضحاً أن أسلحة إسرائيل المـــتطورة، المـــوجهة بالليـــزر هي التي استهدفته. لكن إذا كان البناء لا يزال واقفاً، وجدرانه مليئة بالثقوب، ونوافذه محطمة، كان على الأرجح أنه تعرض لنيران أسلحة خفيفة في القتال بين الفلسطينيين.

في مـــا يتعلق بهجماتهم على إسرائيل، كانت طواقم الصواريخ قد بدأت آنذاك اســـتعمال أداة تـــصويب جديـــدة. سابقاً، كانوا قد اعتمدوا على خرائط تقليدية

لتضاريس العدو، لكنهم أخذوا يدققونها آنذاك مع صور أقمار اصطناعية مأخوذة من غوغل إيرث[8]، وهي خدمة عين – في – السماء جديدة يمكن الحصول عليها عبر حاسب محمول واتصال بسيط بالإنترنيت من أي مكان في العالم.

في اليوم الثاني من العام الدراسي الجديد، 2 أيلول، تم إطلاق دفعة من تسعة صواريخ باتجاه سديروت، المستوطنة الحدودية التي تتعرض لمعظم الصواريخ من غزة. تمت معالجة اثني عشر طفلاً من الصدمة بعد أن وقع أحد تلك الصواريخ على ساحة مركز رعاية نهارية إسرائيلي[9].

بعد تسعة أيام، كان صاروخ قسام أطلقته حركة الجهاد الإسلامي الفلسطينية على وشك الدفع بالأزمة إلى شفير الهاوية مجدداً. بعد إطلاقه في الساعات الأولى من 11 أيلول، وقع الصاروخ على زيكيم، قاعدة تدريب لقوات الدفاع الإسرائيلية على مشارف غزة. سقط الصاروخ على خيمة تدريب فارغة، لكن عشرات من الجنود اليافعين الذين كانوا نائمين في خيم مجاورة جُرحوا في الحادث، وكانت إصابة أحدهم خطيرة. مع ثماني وستين إصابة إضافية[10]، كانت تلك أنجح ضربة للقسام في حملة امتدت ستة أعوام.

في غزة، توقعوا الأسوأ. وصف ناطق في إذاعة حماس الضربة بأنها "نصر من الله"، لكن أفراد القيادة سارعوا إلى منازل آمنة وملاجئ تحت الأرض. متوقعين أن يتم استهداف الأبنية الرسمية والمقار الأمنية، أخلت حماس كل الموظفين منها. عندما انتقلت الفرق الوزارية، أخذت معها حواسبها وأجهزة كشف المعادن إلى مقراتها الأخرى المؤقتة.

في خلال الليل، تم تكديس أكوام كبيرة من التراب عند التقاطعات، لتقديم حماية للمقاتلين الفلسطينيين وتعمل كمتاريس قد تبطئ غزواً إسرائيلياً. ظهرت تلك المتاريس أولاً في المراكز الشمالية في بيت حانون وبيت لاهيا، لكن مع انقضاء كل يوم كانت شاحنات التراب تشق طريقها عميقاً في القطاع.

طالب الجيش والرأي العام الإسرائيلي بتوجيه ضربة كبيرة. لكن، نتيجة صدمة فشل غزو لبنان في الصيف الماضي والتردد في "منح حماس ما تريده"، قاوم السياسيون ذلك.

متوقعة حملة عنيفة، أجرت حماس تدريبات عسكرية ليلية، تضمنت زرع عبوات ناسفة على الطرق والدروب إلى غزة من إسرائيل. كانت شخصيات بارزة في

الحكومة قد استمدت شجاعتها من معرفتها بأن إسرائيل قلقة من امتلاك حماس لأسلحة جديدة وبراعة رجالها القتالية التي ظهرت في الاشتباكات مع قوات فتح المدعومة أجنبياً في حزيران. قال خالد أبو هلال، قائد سابق في فتح والذي تحوّل إلى حماس: "لم يكونوا يرغبون في دفعنا إلى الزاوية. ليس لأننا أكثر قوة، لكن لأنهم يعرفون أن ليس لدينا ما نخسره".

تزامنت الأزمة بشأن هجوم القسام على قاعدة تدريب إسرائيلية مع الابتهاج بحلول شهر رمضان المبارك. كان سيبدأ مع رؤية هلال الشهر الجديد، الذي كان متوقعاً بعد يومين أو ثلاثة من الهجوم على زيكيم. وعلى حين تحولت الأنظار نحو السماء، صوّر رسّام كاريكاتير في صحيفة *فلسطين* التابعة لحماس غزّاوياً ينظر إلى السماء التي بدا فيها هلالان بدلاً من واحد؛ أحدهما لحماس، والآخر لفتح.

كانت تتجسس على حياة المدينة الكئيبة عين إسرائيل في الجو - منطاد مراقبة أبيض كبير من دون ملاح يتمركز على ارتفاع حوالى ألف قدم فوق الحد الشمالي لقطاع غزة - عادة في خلال رمضان، كان من واجب شخصيات بارزة تقديم مآدب *الإفطار* وحضورها - وجبة فطور الصيام اليومي - في كل أنحاء غزة. لكن ذلك أضحى مستحيلاً بسبب خوف هؤلاء من أعمال انتقامية بعد الهجوم بصاروخ قسام على قاعدة التدريب الإسرائيلية. كان هناك شك معقول في أن يكون المنطاد والطائرات التي تحوم في الأعلى تتعقّب تحركاتهم.

بالرغم من اختبائه في مكان سرّي، ظهر رئيس وزراء حماس في غزة، إسماعيل هنية، ليؤم المصلين في مسجد الغربي، قرب منزله في مخيم الشاطئ للاجئين الفلسطينيين. شكّل خمسة حراس شخصيين يرتدون ملابس سوداء طوقاً أمنياً مشدداً حول المنصة المرتفعة التي تكلم من فوقها. يحملون بنادق إيه - ك 47، بقوا يراقبون الحشد الموجود في المسجد حتى انتهى هنية من خطابه؛ تم إخراجه بسرعة بعدها عبر باب جانبي لإعادته إلى مخبئه.

مثل الكثير من زملائه البارزين، تكلم هنية عن العلاقات المتوترة مع فتح على أنها ثغرة يمكن سدّها، بالرغم من التكلفة الضخمة من الدماء والثقة. كان ذلك العام هو الأول في أربعة عقود من الاحتلال الإسرائيلي الذي يزيد فيه عدد الذين لقوا حتفهم من أبناء شعبه في عنف فلسطيني - فلسطيني، أكثر من 490، على عدد الذين

قـضوا نحـبهم في هجمات إسرائيلية - على الأقل 396[11] - توفي سبعة أشخاص، وجُرح تسعون آخرون، في اجتماع حاشد لفتح في غزة في تشرين الثاني، وقد أعلنت حماس بعد ذلك أن ثمانية وثلاثين من أفراد القوة التنفيذية عوقبوا بالسجن، والصرف مـن الخدمة، أو تخفيض الرتبة بعد اتهامات بأنهم كانوا قد فتحوا النار من دون تمييز على تجمّع فتح، الذي كان يرمي عليهم حجارة ويشتمهم.

تكلم آخرون في الحركة في غزة بتعبيرات أكثر ثورية من هنية، كما لو أن خطأً أحمـر قد تم تجاوزه. شرح قائد بارز: "هذا ما يحدث في صراع وطني على السلطة. الأمـر ليس سهلاً، لكن في مرحلة ما ينبغي أن تتّخذ قرارات وأنت تعرف أن البعض لـن يقـبل بها - لكن الغالبية ستفعل. اخرج إلى الشوارع - ليست هناك تماماً ثورة ضـدنا هناك! اليوم يفجّر العراقيون بعضهم ولدى اللبنانيين مشكلات كبيرة - لكن هنا الغالبية هادئة".

في غزة، لم تكن هناك إجراءات دينية علنية أو ثقيلة الوطأة بعد نـزاع حزيران مـع فتح. لكن، في مجتمع كان محافظاً أصلاً، كانت هناك درجة من الالتزام الذاتي. قـال خـيّاطون إن النساء كن يطلبن تفصيل فساتين طويلة. أطلق المزيد من الرجال لحـاهم وأكّـد حلاقو غزة أن "السيف"، وهي لحية رقيقة تمتد من الشاربين لتغطي كامـل الـذقن، قد أصبحت حلاً وسطاً بين الحلاقة الكاملة وإطلاق لحية كثّة كما يفضلها الإسلاميون المتشددون[12].

كانـت دور العـرض قد أغلقت أبوابها منذ الانتفاضة الأولى، وتم إرغام آخر متجـر لبـيع المشروبات في غزة على إغلاق أبوابه في الأسابيع التي سبقت انتخابات العـام 2006. لكن المحال التي كانت تبيع أشرطة الموسيقى ودي - في - دي، وهي أحـد أول أهداف الأصوليين في أماكن أخرى، بقيت تزاول عملها في ما يوصف في إسرائيل والخارج بأنه حماستان.

علـى أي حـال، كان شريان الحياة الاقتصادي الأخير قد جف في غزة عندما دخل الحصار الإسرائيلي والدولي شهره العشرين. باستثناء الفاكهة والخضار التي تنمو محلياً، كانت المتاجر والأسواق خالية من أي شيء آخر. كان الرجال البالغون يجدون صـعوبة كـبيرة في الحصول على لفائف التبغ، التي كان يجري تهريبها عبر أنفاق من مصر، لكن رفع أسعارها جعلها خارج متناول معظم هؤلاء.

كانت حماس تسيطر فعلاً على غزة، لكنها سرعان ما اكتشفت أن لدى محمود عباس، من بعيد في رام الله، ما كان ربما السلاح الأمضى في النـــزاع بين الفصيلين. استمر عباس في دفع رواتب عشرات آلاف الموظفين المدنيين الذين كان معظمهم من فـــتح في غزة، لكن بشرط واحد فقط هو ألا يذهبوا إلى العمل. بين ليلة وضحاها، كان قد أنشأ مجتمعاً مؤلفاً من طبقتين في غزة.

بغـــياب قـــوة شـــرطة رسمية، كان متطوعو حماس - يرتدون سترات صفراء فوســـفورية وقبعات حماس الخضراء - ينظمون حركة السير. بغضّ النظر عن بعض المشكلات الصغيرة، لم تكن هناك حرب عصابات بين الفصيلين، عداوات عشائرية، أو ســـرقة سيارات. تم الترحيب بإطلاق سراح ألان جونستون، مراسل هيئة الإذاعة البريطانية بـــي - بـــي - سي الذي بقي محتجزاً أربعة شهور لدى مجموعة متشددة محلـــية في غزة، وظهرت لوحات طرقية جديدة في المدينة. كانت تقول: "لا مزيد من التهديد للزوار والضيوف الأجانب".

كانـــت الـــسلع الأساسية لا تزال تصل على متن شاحنات عبر المعابر التي تسيطر علـــيها إســـرائيل، لكن بنـــزين يسير. شرحت شخصية استخباراتية إسرائيلية: "بعد ثلاثة شـــهور لم يكونوا قد انهاروا بعد. لم نكن نسمح بمرور سوى إمدادات قليلة. كنا شبكة أمان خالد مشعل ليس لأننا نحبه، لكن لأننا لم نكن نرغب باندلاع أزمة كبيرة أيضاً"[13].

كانت إسرائيل على مشارف ما ينبغي أن يكون احتفالين كبيرين. كان حزيران 2007 سيشهد الذكرى الأربعين لحرب الأيام الستة، التي استولت فيها إسرائيل على الضفة الغربية وغزة في العام 1967. وكانت هناك خطط كبيرة آنذاك لإحياء الذكرى الستين لتأسيس دولة إسرائيل في أيار من العام 2008. بالنسبة إلى الإسرائيليين، كان ينبغي أن تكونا هاتان مناسبتين لتخليد قرون من صراع وبقاء اليهود.

لكـــن بعـــد أربعين عاماً من إراقة الدماء وعقد المؤتمرات، لم تكن إسرائيل قد حققت سواء أمنها أو استولت على كل الأراضي التي يشعر شعبها بأنها له. بالتشبث بمـــستعمراتها غـــير الـــشرعية، كانت قد قدّمت مبرراً لنظام أمني قاسٍ يحاصر ملايين الفلسطينيين الذين يشعرون بمرارة شديدة، وقد ترك ذلك العديد من مواطنيها يعيشون واقعـــاً ممزوجاً بالخوف والغضب. بعد أربعين عاماً، كانت إسرائيل لا تزال تقاتل في اليوم الأخير من حرب الأيام الستة.

كـــان الذي يحلّ بين المناسبتين الإسرائيليتين ذكرى تأسيس حماس العشرون. في هـــذين العقدين، كانت حماس قد قاومت كل الضغوط التي مارستها إسرائيل، وفتح، والعالم عليها. بالرغم من ذلك، كانت الحركة الإسلامية في أواخر العام 2007 مختلفة جـــداً عن حركة المجموعة الغاضبة التي كانت قد انبثقت في بداية الانتفاضة الأولى في العام 1987.

كانـــت حمـــاس قد تحدّت التوقعات المبكرة بإخفاقها. لم يبدُ أن قيام إسرائيل بترحيل مئات من شخصياتها البارزة في العام 1992 قد أثّر على خطط حماس في نقل زمام القيادة إلى الجيل التالي. كان قادة فتح قد ادّعوا دائماً أن الحركة ستتفكك عندما يـــستولي المحاربـــون الشبان على السلطة من الحرس القديم الحذر للإخوان المسلمين لكـــنهم كانـــوا على خطأ. لم تستطع عمليات الاغتيال التي قامت بها إسرائيل ولا الإجراءات الصارمة التي اتخذها عرفات، تحطيم لا العمود الفقري لحماس ولا روحها. لـــدى استشهاد الشيخ أحمد ياسين، كان معلّقون إسرائيليون قد أصرّوا على أن ذلك ســـيترك فـــراغاً في القيادة، وأن الإسلاميين الشبان سيمزّقون الحركة إرباً. كانوا هم أيضاً على خطأ.

بالـــرغم مـــن الجهـــود الاستراتيجية المكثّفة لإسرائيل وأميركا، والتأثير المدمر للعقـــوبات الدولية التي دعمتها لندن وباريس، إلا أن حماس صمدت. قال قائد بارز مـــن فـــتح كـــان في موقع يستطيع من خلاله مراقبة حماس في الأراضي المحتلة: "من الواضـــح أنه ستكون هناك اختلافات في الحكم والسيطرة الفعّالة. لكن في حماس لن يصل الأمر إلى حدّ حدوث انشقاق أو تمرد. أنظر في الأمر ولا أرى ذلك".

كانـــت أصـــوات رسمية في الولايات المتحدة قد ألقت بثقلها خلف وجهة نظر مديـــر الموساد السابق إفرايم هالفي بأن هناك حاجة إلى التعامل مع حماس. بين هؤلاء مستـــشارا الأمـــن القومـــي السابقان زبيغنيو بريجنسكي وبرنت سكوكرفت، سفير الـــولايات المتحدة السابق إلى الأمم المتحدة توماس بيركينغ[14]. كان وزير خارجية بوش السابق كولن باول قد أوضح بجلاء موقفه. قال: "ينبغي التعامل مع حماس. لقد فازوا بالانتخابات التي أصررنا على إجرائها"[15].

كـــان التركيز في خطاب حماس قد تحوّل من الجهاد إلى *الهدنة*. كانت مطالبتها بـــالأرض قد تحوّلت من استعادة كل التراب الذي يمتد من "النهر إلى البحر" إلى حل

الدولـــتين بناءً على حدود العام 1967. كان الهدف قد أصبح الاحتلال الإسرائيلي، وليس اليهودية.

كانـــت حماس قد أثبتت أن بمقدورها القتال، لكنها أظهرت بوضوح أيضاً أن باســتطاعتها الالتزام بوقف إطلاق النار. كان لا يزال للحركة موطئ قدم ثابت في المقاومة، لكنها أبلت حسناً في العملية السياسية الديمقراطية. رفضت حماس الاعتراف بإســرائيل، لكــنها كانـــت قد غيرت هدفها الأساسي. كان يمكنها القبول بدولة فلسطينية مجاورة لدولة عبرية، وأن تترك لمفاوضات مستقبلية مسألة حق الفلسطينيين بكل الأراضي التي أصبحت إسرائيل.

كـــان ميثاق حماس للعام 1988؛ بلغته العنيفة، ومعاداته للسامية، وتحريضه على القتال قد أصبح بحاجة إلى تعديل على نطاق واسع. على أي حال، حافظ على شكله القـــديم. كانـــت لجـــنة داخلية من حماس قد أمضت معظم العام 2005 تعمل على تنقـــيحه، لكـــن تم وضع نتائج عملها على الرف بعد انتصار حماس الانتخابـــي غير المـــتوقع في الأراضـــي المحـــتلة[16]. لكن، حتى يحين وقت إلغاء مطالبة الميثاق بإبادة إسرائيل، يمكن لإسرائيل والغرب الإشارة إلى ذلك على أنه عقيدة حماس الأولية.

لا يزال مشعل نفسه يحافظ على التزام حماس المتشدد بالصراع المسلح كمصدر وحـــيد للقـــوة الفلسطينية في أي مفاوضات مع إسرائيل. لن يشجب العنف بغياب تـــنازلات حقيقـــية. مخاطباً حشداً اجتمع في دمشق لإحياء الذكرى العشرين لإنشاء حمـــاس في كانـــون الأول مـــن العام 2007، أعلن: "لا يمكن تحرير الأرض إلاّ بقوة السلاح"[17]. كان ذلك تكراراً للتحدي الذي أظهره في مقابلة مع بـــي – بـــي – ســـي، والتي حذّر فيها: "مفاوضات من دون مقاومة تقود إلى استسلام". ربما تكون الأيديولوجية في طور التحول، لكن خطاب المقاومة أبعد ما يكون عن نهايته.

لم تكـــن هـــناك نهايـــة للنصائح التي كان خالد مشعل يتلقاها. قلقاً من عمق الانقـــسام الفلـــسطيني الجديد، كان شقيقه الأصغر ماهر يتكلم معه على الهاتف من عمّان، ويصر على أن حماس ينبغي أن تتخلى عن سيطرتها الجديدة على غزة.

جاء الهجوم التالي خلال زيارة قام بها إلى دمشق أستاذ مشعل القديم في الجامعة، أســـد عبد الرحمن، الذي حذّر تلميذه السابق أن عليه الاختيار. قال له عبد الرحمن: "لا يمكنك حكم بلد بمواعظ، ومؤسسات خيرية، وأسلحة. لا يمكن أن تكون مسلماً

متشدداً، وفي الوقت نفسه سياسياً... خاصة في عالم حديث فيه عدوّان عملاقان الولايات المتحدة عالمياً، وإسرائيل إقليمياً[18].

كان القصد من محاضرة عبد الرحمن أن على حماس الإقرار بأن حدود العام 1967 ستصبح من دون شك الأساس لحل الدولتين، ولهذا السبب، حان الوقت ليقبل الإسلاميون علانية وجود دولة إسرائيل. كانت تلك النتيجة المحتملة مقبولة لدى معظم الدول العربية، كما قال، وقد أخذ الكثير من الناخبين الإسرائيليين يعتقدون بضرورة إجراء حوار مع حماس. قال عبد الرحمن لمشعل: "لكن ينبغي أن تقرر. لا يمكن أن تكون نصف حامل. إما أنك تريد الاشتراك في العملية السلمية أو لا، وإذا لم تفعل ذلك، هناك ثمن ينبغي دفعه".

كما هو معتاد، كان الوقت متأخراً في دمشق عندما باح عبد الرحمن بما في سريرته. كان رد مشعل مقتضباً، وقال قائد حماس: "عندما يحين الوقت".

كان لدى الموساد خطة جديدة لقتل خالد مشعل. كان جهاز أمن مشعل متنبهاً لإمكانية أن تكون المحاولة التالية وشيكة. كان التنفيذ سيعتمد على تحليل التكلفة – الفائدة المعقّد مثل تخمين توقيت العملية الاستشهادية التالية. كانوا قد حاولوا وفشلوا مرة، وكانت مهمة الموساد القضاء على أعداء إسرائيل. إذا ظهر مشعل في ظروف مؤاتية، ربما تكون الضربة ببساطة لا تُردّ. كانت تلك هي حال الفرص النادرة التي يمكن من خلالها كسب حروب أو خسارتها. لم يكن أحد يعرف متى تحين.

كانت إسرائيل قد اغتالت سلف مشعل وعشرات من رفاقه، وقد تلقّى تحذيرات كثيرة أنه يبقى هدفاً، بالرغم من الفشل قبل عقد في عمّان. لم يكن الاختباء في دمشق يضع قائد حماس خارج متناول الإسرائيليين. بقي مشعل رابط الجأش في ردّه على مكالمة هاتفية في الأسبوع الأول من أيلول 2007، عندما تم إبلاغه أن طائرات إسرائيلية قد اخترقت الأجواء الجوية السورية لقصف هدف سري سيُقال لاحقاً إنه يمثل المرحلة الأولى من منشأة نووية مزعومة[19].

لم تكن إسرائيل تنحو لتؤكد رسمياً قيامها بعمليات قتل في الخارج، لكن هجمات في أوروبا، وفي عمّان، وتونس، ومالطا في الماضي كانت قد أظهرت أن أجهزتها لا تأخذ الحدود الدولية بعين الاعتبار. كانت تتمتع بسجّل حافل على الأرض في العاصمة السورية. كان القيادي في حماس مصباح أبو حويلة قد نجا

بأعجوبة من الموت عندما انفجرت سيارته بعد دقائق من مغادرته إياها بصحبة زوجته وابنـــته في حي المزة في دمشق في 14 كانون الأول 2004[20]. كان هناك اعتقاد على نطاق واسع أن التفجير نفّذه الأمن الإسرائيلي أو جماعة بالنيابة عنه. كانت سورية قد ألقـــت باللوم على إسرائيل في تفجير آخر قبل ثلاثة شهور تقريباً، والذي وقع عندما أدار صانع قنابل حماس عز الدين شيخ خليل مفتاح تشغيل سيارته في حي الزاهرة في دمشق[21].

كـــان لدى مشعل دائماً أجوبة جاهزة على أسئلة بشأن محاولة اغتياله في عمّان في 1997. لكن عندما كان الأمر يتعلق بآليات الهجوم المستقبلي المحتمل، كان يتردد في توقّع ذلك. كان يصرّ على أن التفجيرين السابقين في دمشق لم يكونا موجهين له شخصياً. لكنه كان يعرف أن الإسرائيليين يجدّون في إثره.

كان كل ما يقوله: "أتوقع الشهادة في أي وقت. لكن قرار كيف ومتى سأموت بيد الله (عزّ وجل) وليس الموساد".

خاتمة

أظهر انفجار سيارة ملغومة في وسط دمشق في شباط 2008 السهولة التي يمكن لإسرائيل القضاء بها على أعدائها، ما دامت العملية تسير وفقاً للخطة. كان هناك اعتقاد على نطاق واسع بأن ذلك من عمل الموساد، وكانت تلك ضربة جريئة على بعد أميال فقط من مقر حماس.

كان الرجل الذي لقي حتفه عماد مغنية، القائد العسكري لحزب الله الذي يُنسب إليه بعض من أسوأ الهجمات في الثمانينيات، بما في ذلك مقتل أكثر من 350 مواطناً أميركياً وفرنسياً في تفجير مقر المارينز في بيروت في العام 1983. كان ذلك أول هجوم على أحد قياديي حزب الله البارزين في ستة عشر عاماً.

ربما كان ممكناً استهداف قائد حماس بالسهولة نفسها. لم يكن ذلك ليثير استغراب البعض. ربما، بطرق المنطقة المعقدة، كان اغتيال خالد مشعل قد تأجل بشكل لن يكون مفهوماً إلاّ بمرور الوقت.

في خلال العام 2008، أحكمت حماس قبضتها على السلطة في غزة، لكن العمل من داخل الحكومة أصبح تدريباً قاسياً في إدارة الأزمة.

في آب، قضى الإسلاميون على البقايا الأخيرة للجهاز الأمني الذي تسيطر عليه فتح ووكلائه المحليين في اشتباك عنيف مع إحدى أكبر ميليشيات العشائر وأفضلها تسليحاً في غزة. تم اعتقال المئات من نشطاء فتح، وإغلاق العشرات من مؤسساتها في ما بدا أنها الطريقة نفسها التي كانت فتح قد تعاملت بها مع حماس طيلة أعوام.

في ذلك الوقت، كانت كل مصانع غزة، عدا القليل منها، مغلقة وكانت المصارف تعاني من نقص حاد في السيولة. كان عدد شاحنات الإمدادات التي تعبر نقاط التفتيش التي تسيطر عليها إسرائيل قد انخفض إلى الثلث مقارنة بعام مضى، وكان يتم نقل أكثر من ثلث احتياجات غزة التي يتم تهريبها من مصر عبر أنفاق تديرها حماس بفاعلية[1]. كان في وزارة داخلية حماس وحدة لإدارة الأنفاق تراقب

تدفّق السلع بآلة تصوير، وكان جباة الضرائب التابعون لها متمركزين عند كل مخرج نفــق[2]. كانت هناك تقارير عن مدّ أنبوب للمشتقات النفطية عبر أحد الأنفاق[3]. عـــندما قرر رجل أعمال من رفح إقامة حديقة حيوانات، كانت أولى الحيوانات التي ســيتم عرضها قد تم تخديرها وتهريبها عبر ممرات رملية من مصر؛ أسدين، وزوج من الحمير، وثلاثة غزلان[4].

بالـــرغم من بذل أفضل جهود محمود عباس وإسرائيل والأميركيين، استطاعت حماس من وقت إلى آخر فك الحصار المفروض عليها دولياً.

في كانـــون الثاني، حطّمت سلسلة من الانفجارات التي وقعت قبل الفجر عدّة أقـــسام من السياج الحدودي مع مصر. تدفّق عشرات آلاف المتسوقين الفلسطينيين المبـــتهجين عـــبر الخط الحدودي إلى أسواق مصر، حيث اشتروا كميات من الطعام، والأدوية، ومواد البناء، والماشية. حاولت فرق العمل المصرية إعادة بناء السياج، لكن جـــرّافات حمـــاس هـــدمت الجدار مرة أخرى، وأبقت الحدود مفتوحة طيلة حوالى أسبوعين قبل أن يتم إغلاقها في وجه الغزّاويين مجدداً.

انتهـــى ذلك الجو الاحتفالي قصير الأمد بشكل مفاجئ عندما شنت حماس أولى عملياتها الاستشهادية منذ أكثر من ثلاثة أعوام. لقي إسرائيلي واحد واستشهاديان من حمـــاس حـــتفهم في هجـــوم 4 شـــباط، الذي برّرته الحركة بأنه انتقام من الغارات والضربات الجوية الإسرائيلية التي لقي فيها أكثر من 120 غزّاوياً حتفهم[5].

لم تحقـــق المحادثـــات بين إسرائيل والسلطة الفلسطينية، التي حثّ عليها جورج دبلـــيو. بـــوش مع نهاية العام 2007، أي تقدم يُذكر. ثم، بعد حوالى عام تقريباً من رفـــض الـــتعامل مع حماس، عرض محمود عباس الحديث مع الحركة، وكذلك فعل النظام في الأردن.

الأكثـــر إثـــارة أن الرئيس الأميركي الأسبق، جيمي كارتر، أقر بقيادة وسلطة مـــشعل بـــزيارة مقر الحركة في دمشق في نيسان؛ بالرغم من احتجاجات غاضبة من إسرائيل وواشنطن[6]. في حزيران، ظهر تصدّع آخر في الحصار الدبلوماسي المفروض علـــى حمـــاس عـــندما تحركت حتى إسرائيل بهدوء عبر وسطاء للتفاوض على وقف لإطـــلاق النار مع حماس في غزة، لكن من دون أن تحقق هدفها المعلن؛ إطلاق سراح جلعاد شاليط.

بينما كان العام 2009 يقترب، بدا أن الساحة ستخلو تماماً من آخر مجموعة من القادة الذين لعبوا دوراً في هذا النــزاع الدائر منذ عقود. كانت ولاية جورج دبليو. بــوش الثانــية كرئيس للولايات المتحدة ستنتهي في 20 كانون الأول 2009. كان محمود عباس، على أي حال، يرفض قبول حجج بأن ولايته كرئيس منتخب للسلطة الفلسطينية ينبغي أن تنتهي أيضاً في الشهر نفسه[7].

بمــواجهة تهم مستمرة بالفساد، وافق إيهود أولمرت على التنحي عن منصبه في القــيادة الإســرائيلية. حاولت وزيرة خارجيته تسيبــي ليفني ملء الفراغ، لكنها لم تــستطع حــشد التأييد الكافي لتشكيل ائتلاف حكومي. كان أولمرت سيئ الطالع مــرغماً علــى البقاء في القيادة مثل بطة عرجاء، منتظراً الانتخابات العامة التي كان مقرراً إجراؤها في مطلع شباط 2009. كانت استطلاعات الرأي تشير إلى أن المنافس الجدّي على منصب رئيس وزراء إسرائيل سيكون بنيامين نتنياهو، الذي كان قد أعاد تدريجــياً بناء موقعه في السياسة الإسرائيلية منذ خروجه من منصبه بعد محاولته اغتيال خالد مشعل في العام 1997.

في قاعــة محكمــة دالاس في تشرين الثاني من العام 2008، حققت إدارة بوش أخــيراً نصراً مؤزراً في معركة قانونية امتدت سبعة أعوام لإثبات أن مؤسسة الأرض المقدسة التي تتخذ من تكساس مقراً لها كانت واجهة لحماس تتنكّر بهيئة جمعية خيرية. بعد المشكلة في قاعة المحلّفين في القضية الأولى قبل عام، أصدرت هيئة محلفين جديدة أحكامــاً في أكثر من مئة تهمة تتضمن غسيل الأموال، والتهرب من الضرائب، ودعم الإرهــاب ضــد مديــري مؤسسة الأرض المقدسة الأربعة وشقيق مشعل مفيد عبد القادر.

في الأيام الأخيرة من الحملة الانتخابية الرئاسية في الولايات المتحدة، تكلم خالد مشعل عن أعوام بوش. قال، قبل أن يطلق سهماً باتجاه الرئيس الأميركي القادم: "إذا تكلمنا عن خطة واشنطن لاقتلاع حماس، حسناً، لم تنجح".

"ســواء أجــاء [بــاراك] أوبامــا، أو [جون] ماكين، سيجد ملف النــزاع العربــي - الإسرائيلي على مكتبه، وسيجد كلمة حماس مكتوبة في كل صفحة"[8].

الحواشي

2. قرية الشيوخ

1. Tom Segev, 1967: Israel, the War and the Year That Transformed the Middle East (Metropolitan Books, 2007), 404.
2. Author interviews with Abdul Rahim Ismail Abd Al-Qadir, Amman, Jordan, August 2007.
3. Benny Morris, Righteous Victims: A History of the Zionist-Arab Confl ict, 1881–2001 (Vintage Books, 2001), 681.
4. Avi Shlaim, The Iron Wall: Israel and the Arab World (Penguin, 2000), 25.
5. Ziad Abu-Amar, Islamic Fundamentalism in the West Bank and Gaza (Indiana University Press, 1994), 2.
6. Shlaim, Iron Wall, 31
7. Ilan Pappe, The Ethnic Cleansing of Palestine (Oneworld, 2006), xii.
8. Ibid., xv.
9. David K. Shipler, Arab and Jew: Wounded Spirits in a Promised Land (Penguin, 2002), 16.
10. Ibid.
11. Ibid., 35.
12. Ibid.
13. Author interviews with Fatima Abdul Rahman, Amman, Jordan, August 2007.
14. Author interview with Awni Fares, Silwad, West Bank, September 2007.
15. Shlaim, Iron Wall, 241–45.
16. Author interviews with Fatima Abdul Rahman, Amman, Jordan, August 2007.
17. Author interviews with Ranya Kadri, journalist, Amman, Jordan, July–August 2007.
18. Author interviews with Fatima Abdul Rahman, Amman, Jordan, August 2007.
19. Segev, 1967, 369.
20. Ibid., 429.
21. Ibid., 384.
22. Ibid., 402.
23. Ibid., 500.
24. Ibid., 576–80.
25. Ibid., 407.
26. Ibid., 532–39.
27. Ibid., 474.
28. Ibid., 404.
29. Ibid., 410.
30. Ibid., 478.

3. السياسي الماهر في عمّان

1. Author interviews with Randa Habib, Amman, Jordan, June–July 2007.
2. Confidential author interview, Washington, DC, October 2007.
3. King Hussein, Uneasy Lies the Head (Bernard Geis Associates, 1962).
4. Rolland Dallas, King Hussein: A Life on the Edge (Fromm International, 1999),
5. Laurie A. Brand, Palestinians in the Arab World: Institution Building and the Search for State (Columbia University Press, 1988), 9.
6. Tony Walker and Andrew Gowers, Arafat: The Biography (Virgin, 2003), 48–51.
7. Ibid.
8. "Black September: Tough Negotiations," BBC News, January 1, 2001.
9. Dallas, King Hussein, 251.
10. Brand, Palestinians, 168.
11. Tim Weiner, Legacy of Ashes: The History of the CIA (Doubleday, 2007), 137.
12. Confidential author interview, Amman, Jordan, September 2007.
13. Weiner, Legacy of Ashes, 351.
14. Author interviews with Ranya Kadri, Amman, Jordan, June–November 2007.

4. ثقافة العمل

1. Diana Elias, "Kuwait University Separates the Sexes to Vocal Dismay of Some," Associated Press, July 17, 2002.
2. Laurie A. Brand, Palestinians in the Arab World: Institution Building and the Search for State (Columbia University Press, 1988), 138.
3. Author interviews with Professor Asad Abdul Rahman, Amman, Jordan, September 2007.
4. Author interviews with Mullah Abdul Qadar, Amman, Jordan, August 2007.
5. Marvin Howe, "In Kuwait, Palestinians Thrive in the Economy but Feel Bias as Aliens," New York Times, February 19, 1978.
6. Brand, Palestinians, 120.
7. Author interview with Maher Abdul Qadar, Amman, Jordan, August 2007.
8. Ibid.
9. Author interviews with Khalid Mishal, Damascus, Syria, November 2007.
10. Author interview with Azzam Tamimi, Damascus, Syria, September 2007.
11. Ibid.
12. Author interviews with Professor Asad Abdul Rahman, Amman, Jordan, September 2007.
13. Ibid.
14. Author interviews with Fatima Abdul Rahman, Amman, Jordan, August 2007.

5. هل فقدتم عقولكم يا رجال؟

1. Avi Shlaim, The Iron Wall: Israel and the Arab World (Penguin, 2001), 427.
2. Confidential author interview, Tel Aviv, Israel, November 2007.
3. David I. Fand, "Aid to Israel: Some Strings Needed," Heritage Foundation Executive Memorandum #82, April 31, 1985.
4. Confidential author interview, Tel Aviv, Israel, November 2007.

5. Author interview with Dan Kurtzer, Princeton, New Jersey, January 2008.
6. Author interview with Shalom Harari, Je rusalem, Israel, November 2007.
7. Confidential author interview, Gaza City, Occupied Territories, September 2007.
8. Ziad Abu-Amr, Islamic Fundamentalism in the West Bank and Gaza: Muslim Brotherhood and Islamic Jihad (Indiana University Press, 1994), 43–45.
9. Ibid., xvi.
10. David K. Shipler, Arab and Jew: Wounded Spirits in a Promised Land (Penguin, 2002), 156.
11. Tony Walker and Andrew Gowers, Arafat: The Biography (Virgin, 2003), xvi.
12. Confidential author interview, Tel Aviv, Israel, November 2007.
13. Author interview with Dan Kurtzer.
14. Ibid.
15. Ibid.
16. Ibid.
17. Ibid.
18. Ibid.
19. Ray Hanania, "Sharon's Terror Child," CounterPunch, January 18–19, 2003.
20. Author interview with Arnon Regular, former Haaretz correspondent, Je rusalem, Israel, November 2007.
21. Hanania, "Sharon's Terror Child."
22. Robert Dreyfuss, Devil's Game: How the United States Helped Unleash Fundamentalist Islam (Metropolitan Books, 2005), 208.
23. Ibid., 202.
24. Ibid., 209.
25. Chalmers Johnson, "The Largest Covert Operation in CIA History," History News Network, September 6, 2003.
26. Tim Weiner, Legacy of Ashes: The History of the CIA (Doubleday, 2007), 401.
27. Ibid., 136–37.
28. Dreyfuss, Devil's Game, 205.
29. Confidential author interviews, Amman, Jordan, September–November 2007.
30. Author interview with Nabil Shaath, Amman, Jordan, November 2007.
31. Author interview with Shalom Harari.
32. Ze'ev Schiff and Ehud Ya'ari, Intifada: The Palestinian Uprising—Israel's Third Front (Simon & Schuster, 1989), 224.
33. John Wallach and Janet Wallach, The New Palestinians: The Emerging Generation of Leaders (Prima Publishing, 1992), 213.

6. سيرك عرفات

1. Laurie A. Brand, Palestinians in the Arab World: Institution Building and the Search for State (Columbia University Press, 1988), 146.
2. Author interviews with Azzam Tamimi, Damascus, Syria, September–November 2007.
3. Author interviews with Khalid Mishal, Damascus, Syria, September– November 2007.
4. Steve Coll, Ghost Wars: The Secret History of the CIA, Afghanistan, and Bin Laden, from Soviet Invasion to September 10, 2001 (Penguin, 2004), 142.

5. "Kuwait," Wikipedia, en.wikipedia.org/wiki/Kuwait#_note-3.
6. Brand, Palestinians, 144.
7. Ibid., 108.
8. Marvin Howe, "In Kuwait, Palestinians Thrive in the Economy but Feel Bias as Aliens," New York Times, February 19, 1978.
9. Ibid.
10. Brand, Palestinians, 124–25.
11. Ibid.
12. Robert Dreyfuss, Devil's Game: How the United States Helped Unleash Fundamentalist Islam (Metropolitan Books, 2005), 184.
13. Kristin Smith, conference paper excerpted in "Impact of 9/11 on the Middle East," Middle East Policy 9, no. 4 (December 2002).
14. Author interviews with Khalid Mishal.
15. Author interviews with Maher Mishal, brother of Khalid Mishal, Amman, Jordan, September 2008.
16. Author interviews with Khalid Mishal.
17. Confidential author interview, Amman, Jordan, September 2007.
18. Author interviews with Khalid Mishal.
19. Ibid.
20. Ibid.
21. Ibid.
22. Azzam Tamimi, Hamas: Unwritten Chapters (Hurst & Co., 2007), 44.
23. Author interviews with Khalid Mishal.
24. Author interviews with Fatima Abdul Rahman, Amman, Jordan, August 2007.
25. Author interviews with Khalid Mishal.
26. Author interview with Khalid Mishal, Damascus, Syria, November 2007.
27. Lawrence Wright, The Looming Tower: Al-Qaeda and the Road to 9/11 (Vintage Books, 2007), 118.
28. Ibid.
29. Chris Suellentrop, "Abdullah Azzam: The Godfather of Jihad," Slate, April 16, 2002.
30. Author interview with Khalid Mishal, Damascus, Syria, September 2007.
31. Ibid.
32. Ibid.
33. Tamimi, Hamas, 300.
34. Barnett Rubin, "Arab Islamists in Afghanistan," in Political Islam: Revolution, Radicalism, or Reform? ed. John L. Esposito (Lynne Rienner, 1997), 194.
35. Wright, Looming Tower, 179.
36. Matthew Levitt, Hamas: Politics, Charity, and Terrorism in the Service of Jihad (Yale University Press, 2006), 150.
37. Confidential author interview, Gaza City, Occupied Territories, September 2007.
38. E-mail correspondence between author and Reuven Paz, former member of Israeli security services, February 10, 2008.
39. Tamimi, Hamas, 305n16.
40. Confidential author interviews, Damascus, Syria, September–November 2007.
41. Tamimi, Hamas, 46.

42. Author interview with Shalom Harari, Je rusalem, Israel, November 2007.
43. Tamimi, Hamas, 46.

7. المشروع الفلسطيني

1. Paul McGeough, "Blood and Dust," Good Weekend magazine, Sydney Morning Herald, December 8, 1990.
2. B'Tselem, "Statistics: Fatalities in the First Intifada," http://www.btselem.org/english/Statistics/First_Intifada_Tables.asp.
3. Human Rights Watch, "Justice Undermined: Balancing Security and Human Rights in the Palestinian Justice System," November 2001.
4. Ze'ev Schiff and Ehud Ya'ari, Intifada: The Palestinian Uprising—Israel's Third Front (Simon & Schuster, 1989), 79.
5. Tony Walker and Andrew Gowers, Arafat: The Biography (Virgin, 2003), 254.
6. Schiff and Ya'ari, Intifada, 123.
7. Ibid.
8. Walker and Gowers, Arafat, 255.
9. Azzam Tamimi, Hamas: Unwritten Chapters (Hurst & Co., 2007), 47.
10. Ziad Abu-Amr, Islamic Fundamentalism in the West Bank and Gaza: Muslim Brotherhood and Islamic Jihad (Indiana University Press, 1994), 63.
11. Author interviews with Khalid Mishal, Damascus, Syria, September– November 2007.
12. Ibid.
13. Nicholas B. Tatro, "Graffiti Serves as a Guide to Political Happenings," Associated Press, March 10, 1988.
14. Author interviews with Khalid Mishal.
15. Stephen Franklin, "Fundamentalists Find Palestinian Niche," Chicago Tribune, August 22, 1988.
16. U.S. v. Holy Land Foundation et al., Case No. 3:04-CR-240-G (N.D. Tex.), Government Exhibit 002-0022.
17. Ibid., Government Exhibit 003-0065.
18. Abu-Amr, Islamic Fundamentalism, 71.
19. Zaki Chehab, Inside Hamas: The Untold Story of the Militant Islamic Movement (Nation Books, 2007), 30.
20. Tamimi, Hamas, 62–63.
21. Ibid., 33.
22. Confidential author interview, Gaza City, Occupied Territories, September 2007.
23. Ibid.
24. Tamimi, Hamas, 67.
25. Author interview with Abdel-Salam Majali, Amman, Jordan, November 2007.
26. Confidential author interview, Gaza City, Occupied Territories, September 2007.
27. Author interview with Isa Al-Najjar, Gaza City, Occupied Territories, September 2007.
28. Ahmad Yassin, "A Witness to the Age of the Intifada," Al Jazeera, April–June 1999, trans. and quoted in Tamimi, Hamas.
29. Tim Weiner, Legacy of Ashes: The History of the CIA (Doubleday, 2007), 426–27.

30. Ibid.
31. Author interviews with Abdul Rahim Ismail Abd Al-Qadir, Amman, Jordan, August 2007.
32. Author interviews with Maher Mishal, Amman, Jordan, August 2007.
33. U.S. Library of Congress, ed., "Country Studies: Kuwait—Reconstruction After the Persian Gulf War," www.country-studies.com/persian-gulf-states/kuwait-reconstruction-after-the-persian-gulf-war.html.
34. Author interviews with Khalid Mishal.
35. Tamimi, Hamas, 74.
36. Confidential author interview, Amman, Jordan, July 2007.
37. "King Hussein of Jordan—Obituary," The Times (London), February 8, 1999.
38. Walker and Gowers, Arafat, 299
39. Galia Golan, Israel and Palestine: Peace Plans from Oslo to Disengagement (Markus Wiener Publishers, 2007), 34.
40. U.S. v. Holy Land Foundation et al., Government Exhibit 016-0025.
41. Ibid., Government Exhibit 016-0049.
42. Ibid.
43. Ibid.
44. Ibid., Government Exhibit 016-0051.
45. Ibid., Government Exhibit 016-0045.

8. المهندس الملتحي في خلية نيويورك

1. Executive Order 12947, "Prohibiting Transactions with Terrorists Who Threaten to Disrupt the Middle East Peace Process," White House, January 23, 1995.
2. This account of Mousa Abu Marzook's U.S. detention is reconstructed from documents filed in the U.S. District Court, Southern District of New York, in several applications regarding Israel's extradition application, case numbers 95-CIV-9799 and 97-CIV-2293—in particular, the affidavit of Joseph Hummel, "Israel's Request for Extradition of Abu Marzook," and Abu Marzook's writ of habeas corpus.
3. Confidential author interview, Amman, Jordan, August 2007.
4. Charles W. Hall and John Lancaster, "U.S. Is Asked to Turn over Terror Suspect; Israel Wants Marzook for Activities in Hamas," Washington Post, July 29, 1995.
4. Author interview with Dave Manners, Washington, DC, October 2007.
5. Ibid
6. Neil MacFarquhar, "Heavy Hand of the Secret Police Slows Reform in the Arab World," New York Times, November 14, 2005.
7. Ibid.
8. Paul McGeough, "The Making of a Human Time Bomb Primed for Endless War," Sydney Morning Herald, July 16, 2005.
9. Queen Noor, Leap of Faith: Memoirs of an Unexpected Life (Phoenix, 2003), 297.
10. Author interviews with Randa Habib, Amman, Jordan, August–September 2007.
11. Confidential author interview, Amman, Jordan, August 2007.
12. Confidential author interview, Amman, Jordan, September 2007.

13. Richard Pérez-Pe˜a, “After Terrorist Threat, Kennedy Becomes a Wary Fortress,” New York Times, August 14, 1995.
14. “Terrorist Threat Tightens Security at N.Y. Airports; Officials Urge Stricter Screening Nationwide,” Washington Post, August 15, 1995.
15. Barton Gellman, “Americans Threatened in West Bank; New Group Demands U.S. Release of Detained Hamas Leader,” Washington Post, September 24, 1995.
16. Serge Schmemann, “Israel May Seek Extradition of Arab Detained by the U.S.,” New York Times, July 29, 1995.
17. Copy of fax in author’s fi les.
18. Hillel Kuttler, “US Captures Top Hamas Offi cial,” Je ru salem Post, July 28, 1995.
19. Robin Wright, “U.S. Tries to Keep Hamas Official Out of Country Immigration,” Los Angeles Times, July 28, 1995.
20. Kuttler, “US Captures Top Hamas Offi cial.”
21. Hall and Lancaster, “U.S. Is Asked to Turn Over Terror Suspect.”
22. Ibid.
23. U.S. v. Holy Land Foundation et al., Case No. 3:04-CR-240-G (N.D. Tex.), Government Exhibit 013-0104.
24. Joel Greenberg, “Israel to Ask U.S. to Yield Palestinian,” New York Times, July 31, 1995.
25. Don Van Natta Jr., “Judge Orders Hamas Leader Extradited to Israel,” New York Times, May 9, 1996.
26. James C. McKinley Jr., “U.S. Rejects Offer of Leader of Hamas Never to Return,” New York Times, August 3, 1995.
27. Schmemann, “Israel May Seek Extradition of Arab Detained by the U.S.”
28. Rachel Blustain, “Hamas Heavy Hires an Attorney Named Cohen, as in Controversy,” The Forward, August 4, 1995.
29. Ibid.
30. Ibid.
31. Robert O’Harrow Jr. and Charles W. Hall, “Virginia Man Suspected of Terrorism Known for Anonymity,” Washington Post, August 8, 1995.
32. Ibid.
33. Mousa Mohammad Abu Marzook v. Warren Christopher et al. (S.D. N.Y. 924 F. Supp. 565, 64 USLW 2815), affirmation of Abu Marzook, 6.
34. Ibid., 12.
35. Ibid., 16n9.
36. Author interview with Mousa Abu Marzook, Damascus, Syria, September 2007.
37. Serge Schmemann, “Israel Moves Towards Taking Hamas Figure from U.S. Custody,” New York Times, August 2, 1995.
38. Abu Marzook v. Christopher et al., “Request for the Extradition of Mousa Mohammad Abu Marzook,” Israeli Ministry of Justice, 2.
39. Ibid., 3.
40. Abu Marzook v. Christopher et al., affidavit of Dr. Ali A. Abbasi, 4–8.
41. Ibid.
42. Abu Marzook v. Christopher et al., Judgment 31.
43. Ibid., 1.

9. العنف هو السلاح الوحيد

1. Mousa Mohammad Abu Marzook v. Warren Christopher et al., Case No. 95-CIV-9799-KTD (S.D. N.Y.), "Israeli Request for the Extradition of Mousa Mohammad Abu Marzook," affidavits of "Nadav," September 26, 1995, and Ephraim Rabin, September 23, 1995.
2. Ibid., affidavit of Mohammad Salah, November 8, 1995, 3.
3. Amnesty International, "Under Constant Medical Supervision: Torture, Ill-Treatment and Health Professionals in Israel and the Occupied Territories," August 1996.
4. Abu Marzook v. Christopher et al., Duffy judgment, 32.
5. Ibid., affidavit of Mohammad Salah, 5–6.
6. James Brooke and Elaine Sciolino, "Bread or Bullets: Money for Hamas," New York Times, August 16, 1995.
7. Abu Marzook v. Christopher et al., affidavit of Ephraim Rabin, 1–7.
8. U.S. v. One 1997 E35 Ford Van et al. (N.D. Ill., E.D., 98C 3548), affi davit of Robert Wright.
9. Abu Marzook v. Christopher et al., Israeli police interview with Bassam Mousa, January 30, 1993, 25.
10. Ibid., affidavit of Abu Hamed, September 25, 1995, 1–2.
11. Ibid., Israeli police interview with Salah Arouri, January 27, 1993, 10.
12. Shaul Mishal and Avraham Sela, The Palestinian Hamas: Vision, Violence, and Coexis tence (Columbia University Press, 2000), 90.
13. Ibid.
14. Ziad Abu-Amr, Islamic Fundamentalism in the West Bank and Gaza: Muslim Brotherhood and Islamic Jihad (Indiana University Press, 1994), 74.
15. Confidential author interview, Washington, DC, November 2007.
16. Tony Walker and Andrew Gowers, Arafat: The Biography (Virgin, 2003), 365–66.
17. Amos Perlmutter, "Arafat's Police State," Foreign Affairs, July–August 1994.
18. Ibid., 388.
19. Amnesty International, "Trial at Midnight: Secret, Summary, Unfair Trails in Gaza," June 1, 1995, 2.
20. Walker and Gowers, Arafat, 389.
21. Ibid., 5–6.
22. Ibid.
23. John Kifner, "Dedicated Extremists Present Twin Threat to Mideast Peace," New York Times, September 15, 1993.
24. Abu Marzook v. Christopher et al., affidavit of Joseph Hummel, 6.
25. Samuel M. Katz, The Hunt for the Engineer: How Israeli Agents Tracked the Hamas Master Bomber (Fromm International, 1999), 77.
26. Clyde Haberman, "30 Israelis Hurt by Suicide Bomber," New York Times, October 5, 1993.
27. "1994: Jewish Settler Kills 30 at Holy Site," BBC On This Day, February 25, 1994.
28. Clyde Haberman, "Suicide Bombs Kill 19 in Israel; Shadow Cast Over Peace Talks," New York Times, January 23, 1995.

29. Clyde Haberman, "Five Killed in Israel as Second Bomber Blows Up a Bus," New York Times, April 14, 1994.
30. Confidential author interview, Gaza City, Occupied Territories, September 2007.
31. Clyde Haberman, "Gazans Eject PLO Leader from Funeral," New York Times, November 14, 1994.
32. Confidential author interview, Ramallah, Occupied Territories, November 2007.

10. القليل من الغموض مفيد

1. Confidential author interview, Gaza City, Occupied Territories, September 2007.
2. Ibid.
3. Author interviews with Khalid Mishal, Damascus, Syria, September– November 2007.
4. Confidential author interview, Amman, Jordan, October 2007.
5. Confidential author interview, Amman, Jordan, September 2007.
6. Confidential author interview, Amman, Jordan, September 2007.
7. Mousa Mohammad Abu Marzook v. Warren Christopher et al., Case No. 95-CIV-9799-KTD (S.D. N.Y.), affidavit of Yaacov Amidror, "Hamas—Organizational Structures and Decision-Making Procedure—An Expert Opinion," September 20, 1995.
8. Confidential author interviews, Amman, Jordan, August 2007.
9. Steve Rodan, "The Big Fish That Got Away," Je ru salem Post, October 17, 1997.
10. Tamimi, Hamas: Unwritten Chapters (Hurst & Co., 2007), 82.
11. Confidential author interview, Amman, Jordan, September 2007.
12. Ibid.
13. Author interview with Azzam Tamimi, Damascus, Syria, November 2007.
14. Abu Marzook v. Christopher et al., writ of habeas corpus of Mousa Mohammad Abu Marzook, November 16, 1995.
15. Matthew Levitt, Hamas: Politics, Charity, and Terrorism in the Service of Jihad (Yale University Press, 2006), 149.
16. Ahmed Yousef, American Muslims: A Community Under Siege (UASR Publishing Group, 2004), 268.
17. Abu Marzook v. Christopher et al., affidavit of Said Msamah, January 13, 1991.
18. Ibid., affidavit of Yaacov Amidror, "Musa Muhammad Abu Marzook—An Expert Opinion," September 20, 1995.
19. Tamimi, Hamas, 60–61.
20. Author interview with Wesley Egan, Washington, DC, October 2007.
21. Ibid.
22. Abu Marzook v. Christopher et al., Case No. 96-CV-4107 (2nd Cir.), statement of Mousa Mohammad Abu Marzook, 3.
23. Elaine Sciolino, "To Palestinian, Israel Is Better Than U.S. Cell," New York Times, February 1, 1997.
24. Secret PTQ2948, U.S. State Department document, dated January 29, 1997, released to author under Freedom of Information Act request.
25. Gil Sedan, "Extradition of Hamas Leader Presents Quandary for Israel," Jewish Telegraphic Agency, May 2, 1997.

26. Serge Schmemann, "Hamas Leader May Be Spared Extradition," New York Times, February 20, 1997.
27. Ibid.
28. Neil MacFarquhar, "Jordan to Let Terrorist Suspect Held in U.S. into Kingdom," New York Times, May 1, 1997.
29. Author interviews with Randa Habib, Amman, Jordan, July–August 2007.
30. Confidential author interview, Amman, Jordan, August 2007.
31. Author interview with Wesley Egan.
32. Confidential author interview, Tel Aviv, Israel, November 2007.
33. Roger Gaess, "Interview with Mousa Abu Marzook," Middle East Policy, May 1, 1997.
34. John Lancaster, "Freedom Suits Hamas Leader; Fresh from U.S. Jail, Abu Marzook Minds His Step in Jordan," Washington Post, May 9, 1997.
35. Confidential author interview, Amman, Jordan, August 2007.
36. Ibid.
37. Ibid.
38. Confidential author interview, Damascus, Syria, September 2007.
39. Confidential author interview, Gaza City, Occupied Territories, September 2007.
40. Confidential author interview, Amman, Jordan, September 2007.
41. Gaess, "Interview with Mousa Abu Marzook."
42. Marjorie Miller, "Hamas Combat: Both Political and Mortal," Los Angeles Times, July 29, 1995.
43. Author interviews with Ranya Kadri, Amman, Jordan, July–November 2007.
44. Ibid., 558.
45. Avi Shlaim, Lion of Jordan: The Life of King Hussein in War and Peace (Penguin/ Allen Lane, 2007), 567.
46. Ibid., 569.
47. Joel Greenberg, "Despite Devastation and Fear, Support for Netanyahu Seems Strong," New York Times, August 1, 1997.
48. Ibid.
49. Rabin Eitan and Amira Hass, "Triple Suicide Bombs Rock Je rusalem," Haaretz, September 5, 1997.
50. Uzi Benziman, "The Gap Between the Final Settlement and Reality," Haaretz, September 21, 1997.
51. Confidential author interview, Amman, Jordan, August 2007.

11. لقد استعملوا أداة غريبة

1. Author interview with Abu Sayf, Damascus, Syria, September 2007.
2. Author interview with Saad Na'im Khatib, Amman, Jordan, November 2007.
3. Smadar Perry, "Hussein Demands Mossad Fire All Involved in the Affair," Yedioth Ahronoth, October 10, 1997, trans. Nilly Ovnat.
4. Avi Shlaim, Lion of Jordan: The Life of King Hussein in War and Peace (Penguin/ Allen Lane, 2007), 572.
5. Author interviews with Majali Whbee, Je rusalem, Israel, August–September 2007.
6. Author interview with Dave Manners, Washington, DC, November 2007.

12. ينبغي أن يحيا مشعل

1. Smadar Perry, "Hussein Demands That Mossad Sack All Involved in the Affair," Yedioth Ahronoth, October 10, 1997, trans. Nilly Ovnat.
2. Author interview with Mousa Abu Marzook, Damascus, Syria, September 2007.
3. George Tenet, At the Center of the Storm: My Years at the CIA (HarperCollins, 2007), 41.
4. Author interview with Mousa Abu Marzook.
5. Author interviews with Bassam Akasheh, Amman, Jordan, July 2007.
6. Author interview with Mohammad Nazzal, Damascus, Syria, September 2007.
7. Perry, "Hussein Demands That Mossad Sack All Involved in the Affair."

13. من هو خالد مشعل؟

1. Unless otherwise stated, this account of the entire attack and its aftermath is based on a series of confidential author interviews conducted in Amman, Jordan; Je rusalem, Israel; Tel Aviv, Israel; New York; and Washington, DC, in August–November 2007.
2. Shimon Shiffer, "Israel Reveals Formula of Secret Chemical Weapon to Jordanians," Yedioth Ahronoth, October 10, 1997, trans. Nilly Ovnat.
3. Gordon Thomas, Gideon's Spies: The Secret History of the Mossad (Thomas Dunne Books, 2005), 125.
4. Yossi Melman, "Admitting the Facts but Not the Guilt," Haaretz, December 18, 1997.
5. Rabin Eitan and Yossi Melman, "Other Secret Service Chiefs Kept in the Dark about Mossad Operation," Haaretz, October 9, 1997.
6. Kevin Sack, "Civil Rights Anniversary Points to Unfi nished Tasks," New York Times, September 21, 1997,
7. Author phone interview with Bruce Riedel, June 9, 2007.
8. Author interview with Dave Manners, Washington, DC, October 2007.
9. Shelby Hodge, "Fertittas Host Dinner for Clinton," Houston Chronicle, September 29, 1997.
10. "Schedule of the President for Saturday, September 27, 1997," released by William J. Clinton Presidential Library to author under Freedom of Information Act request.
11. Author interview with Dennis Ross, Washington, DC, October 24, 2007.
12. Author phone interview with Bruce Riedel.
13. Reuters. "Hussein: 'Israel Told About Hamas Truce Before Attack,'" Haaretz, October 9, 1997.
14. Smadar Perry, "Hussein Demands That Mossad Fire All Involved in the Affair," Yedioth Ahronoth, October 10, 1997, trans. Nilly Ovnat.
15. Shimon Shiffer, "Israel Reveals Formula for Secret Chemical Weapon to Jordanians," Yedioth Ahronoth, October 10, 1997, trans. Nilly Ovnat.

14. إخراج أرنب من قبعة الملك

1. Efraim Halevy, Man in the Shadows: Inside the Middle East Crisis with the Man Who Led the Mossad (St. Martin's Press, 2006), 164.

2. Ibid., 166.
3. Ibid., 167.
4. Ibid.
5. Schiff Ze'ev, "A Far-Reaching Failure," Haaretz, October 5, 1997.
6. Halevy, Man in the Shadows, 170
7. Avi Shlaim, Lion of Jordan: The Life of King Hussein in War and Peace (Penguin/ Allen Lane, 2007), 573.
8. Author interview with Sami Rababa, Amman, Jordan, July 2007.
9. Author interview with Dave Manners, Washington, DC, October 2007.
10. Narcotic Educational Foundation of America, "Designer Drugs: The Analog Game," undated, www.cnoa.org.
11. Confidential author interview, Washington, DC, October 2007.
12. Gordon Thomas, Gideon's Spies: The Secret History of the Mossad (Thomas Dunne Books, 2005), 128.
13. BBC, "The Moscow Theatre Siege," Horizon, January 15, 2004.
14. Ibid.
15. Halevy, Man in the Shadows, 173.
16. Ibid., 174.
17. Barton Gellman, "Botched Assassination by Israel Gives New Life to Hamas," Washington Post, October 6, 1997.
18. Author phone interview with Smadar Perry, January 2008.

15. الثمن الذي دفعه بيبي

1. Avi Shlaim, Lion of Jordan: The Life of King Hussein in War and Peace (Penguin/ Allen Lane, 2007), 416, 429, 579.
2. Author interviews with Majali Whbee, Je rusalem, Israel, August–September 2007.
3. Author interviews with Khalid Mishal, Damascus, Syria, September– November 2007.
4. Author interview with Mousa Abu Marzook, Damascus, Syria, September 2007.
5. Arieh O'Sullivan, "Chronology of Events," Je ru salem Post, October 7, 1997.
6. Author interviews with Majali Whbee, Je rusalem, Israel, September 2007.
7. O'Sullivan, "Chronology of Events."
8. Nahum Barnea, "On a Nationalistic Background," Yedioth Ahronoth, October 10, 1997, trans. Nilly Ovnat.

16. صورة الموساد الأسطورية

1. Gordon Thomas, Gideon's Spies: The Secret History of the Mossad (Thomas Dunne Books, 1995), 142–45.
2. Ibid., 74–78.
3. Uri Dan and Dennis Eisenberg, "Dig Out the Truth," Je ru salem Post, October 30, 1997.
4. Author phone interviews with Smadar Perry, February–April 2008.
5. Laura King, "Tactics, Not Anti-Terror Goal, Questioned in Failed Attack in Jordan," Associated Press, October 5, 1997.

6. Michael Yudelman, "Israel Conditions Yassin Return," Je ru salem Post, October 6, 1997.
7. Barton Gellman, "Hamas Founder Returns to Gaza Strip as a Hero; Prisoners Swapped for Israeli Agents," Washington Post, October 7, 1997.
8. Mike Trickey, "Israel Refuses to Apologise for Canadian Passports: Beneath Tough Talk Feds Willing to Let Episode Fade Away," Hamilton Spectator, October 7, 1997.
9. Leslie Susser, "A Much Tougher Fight from Now On," Je ru salem Report, October 30, 1997.
10. David Rudge, "Ex-Ambassador: Affair Has Damaged Relations with Jordan," Je ru salem Post, October 6, 1997.
11. "Ricin and the Umbrella Murder," CNN, October 23, 2003.
12. Dow Jones International News, "Netanyahu Meets with Security Chiefs over Spy Crisis," October 5, 1997.
13. Confidential author interview, Tel Aviv, Israel, September 2007.
14. Ariela Ringel-Hoffman and Guy Leshem, "Danny Yatom Is All Alone," Yedioth Ahronoth, October 10, 1997, trans. Nilly Ovnat.
15. Nahum Barnea, "On a Nationalistic Background," Yedioth Ahronoth, October 10, 1997, trans. Nilly Ovnat.
16. Thomas, Gideon's Spies, 327.
17. Confidential author interview, Washington, DC, October 2007.
18. Herb Keinon, "A Man of Details," Je ru salem Post, February 20, 1998.
19. Ibid.
20. Thomas, Gideon's Spies, 126.
21. Ibid.
22. Uri Dan, "Mossad's Chris tian Heroine Dies," New York Post, February 19, 2005.
23. Barry Came and Stephanie Nolen, "Canadian Passport Abuse," Maclean's, October 13, 1997.
24. Ibid.
25. Confidential author interview, Middle East, September 2007.
26. Bertrand Marotte, "Canadian 'Lent' Passport: Agents Used It for Two Years While Jewish Man Lived in Israel," Hamilton Spectator, October 6, 1997.
27. Confidential author interview, Middle East, September 2007.
28. Reuters, "Canada Confirms Jordan Attackers Not Canadian—Report," October 4, 1997.
29. Norman Spector, "Norman Spector on the Middle East, Israel and the Canadian Angle," Globe and Mail, October 10, 1997.
30. "Canadians at Risk from Ex-Envoy's CSIS Comments, Minister Says," Toronto Star, November 12, 1997.
31. Victor Ostrovsky with Claire Hoy, By Way of Deception: The Making of a Mossad Offi cer (Wilshire Press, 1990), 75, 118.
32. Confidential author interview, Middle East, September 2007.
33. Confidential author interview, Amman, Jordan, September 2007.
34. Ron Ben-Yshai, "They Did Not Check, They Did Not Consult, They Did Not Think," Yedioth Ahronoth, October 10, 1997, trans. Nilly Ovnat.

35. Smadar Perry, "Hussein Demands That Mossad Sacks All Involved in the Affair," Yedioth Ahronoth, October 10, 1997, trans Nilly Ovnat.
36. Meron Benvenisti, "Reality Is Not a Thriller," Haaretz, October 9, 1997.
37. Efraim Halevy, Man in the Shadows: Inside the Middle East Crisis with the Man Who Led the Mossad (St. Martin's Press, 2006), 166.
38. Ibid., 168.
39. Author interviews with Majali Whbee, Amman, Jordan, September– November 2007.
40. Esther Wachsman, "Three Years Too Late for Nachshon," Je ru salem Post, October 7, 1997.
41. Bruce Cheadle, "Don't Believe Israel, Axworthy Warned," Hamilton Spectator, November 5, 1998.
42. Andrew Mitrovica, "Probe of Mossad's Use of Canadian ID Halted; Intelligence Sources Say Investigation Incomplete Because Ottawa Did Not Want to Upset Israel," Globe and Mail, September 6, 1999.
43. Uzi Mahnaimi, "Mossad Agents Flee Bungled London Spying Mission," Sunday Times, March 15, 1998.
44. Uzi Mahnaimi and Andy Goldberg, "Bungling Spies," Sunday Times, March 1, 1998.
45. Thomas, Gideon's Spies, 335.

17. شقيق ضد شقيق

1. Mouin Rabbani, "Smorgasbord of Failure: Oslo and the Al-Aqsa Intifada," in The New Intifada: Resisting Israel's Apartheid, ed. Roane Carey (Verso, 2001), 70.
2. "As Mideast Talks of Peace, Soft Voice Urges War," New York Times, August 27, 2000.
3. Confidential author interview, Washington, DC, October 2007.
4. Ibid.
5. Barton Gellman, "Hamas Founder Returns to Gaza Strip as a Hero; Prisoners Swapped for Israeli Agents," Washington Post, October 7, 1997.
6. Azzam Tamimi, Hamas: Unwritten Chapters (Hurst & Co., 2007), 189.
7. Serge Schmemann, "In Fury, Hamas Leader Masks His Intentions," New York Times, October 24, 1997.
8. "As Mideast Talks of Peace."
9. Gellman, "Hamas Founder Returns to Gaza Strip as a Hero."
10. Confidential author interview, Gaza City, Occupied Territories, September 2007.
11. "As Mideast Talks of Peace."
12. Nicholas B. Tatro, "Hamas Leader Calls Halt to Israeli Attacks," Houston Chronicle, October 20, 1997.
13. Pinhas Inbari and Ziv Hellman, "Jordan Is the Key," Je ru salem Post, October 17, 1997.
14. Laura King, "Hamas Founder Returns Home to Gaza Strip; Netanyahu Tries to Explain Prisoner Exchange to Israelis," Associated Press, October 7, 1997.
15. Associated Press, "Yassin Vows to Continue Jihad," Haaretz, October 24, 1997.
16. Ibid.

17. Joel Greenberg, "Freed Hamas Leader Suggests Terms for Truce," New York Times, October 8, 1997.
18. Jay Bushinsky, Steve Rodan, and Mohammed Najib, "Mashaal Warns of More Hamas Attacks Soon," Je ru salem Post, October 24, 1997.
19. Tamimi, Hamas, 102.
20. Author interview with Mousa Abu Marzook, Damascus, Syria, September 2007.
21. Author interviews with Khalid Mishal, Damascus, Syria, September– November 2007.
22. Khaled Abu Toameh, "Mossad Still Trying to Kill Me, Says Mashaal," Je rusalem Report, December 25, 1997.
23. Sheikh Ahmad Yassin, "Letter from Kfar Yona Prison to the Movement's Leaders and Followers," Al-Wasat, November 12, 1993, trans. and quoted in Khaled Hroub, Hamas: Political Thought and Practice (Institute for Palestinian Studies, 2002), 222.
24. Author interview with Yasser Abu Hilalah, Amman, Jordan, September 2007.
25. Danny Rubinstein, "Israel's Problem Is Arafat's Nightmare," Haaretz, October 8, 1997.
26. Queen Noor, Leap of Faith: Memoirs of an Unexpected Life (Phoenix, 2004), 408.
27. Galia Golan, Israel and Palestine: Peace Plans from Oslo to Disengagement (Markus Wiener Publishers, 2007), 30.
28. Serge Schmemann, "After All the Talk, a Hesitant Peace," New York Times, October 24, 1998.
29. Dennis Ross, The Missing Peace: The Inside Story of the Fight for Middle East Peace (Farrar, Straus and Giroux, 2004), 448–50.
30. Joel Greenberg, "After Crackdown, Militant Group Threatens Arafat's Forces," New York Times, November 2, 1998.
31. Deborah Sontag, "Freed Palestinian Militant Leader Calls for Holy War Against Israel," New York Times, December 28, 1998.
32. Noor, Leap of Faith, 431.
33. Author interviews with Randa Habib, Amman, Jordan, July–August 2007.
34. Avi Shlaim, Lion of Jordan: The Life of King Hussein in War and Peace (Penguin/ Allen Lane, 2007), 600–606.
35. Noor, Leap of Faith, 441.

18. تقييد بالأغلال وترحيل

1. Lee Hockstader, "A Test of Royal Will; Jordan's Crackdown on Islamic Resistance Is King's First Political, Personal Trial," Washington Post, October 7, 1999.
2. U.S. v. Holy Land Foundation et al., Case No. 3:04-CR-240-G (N.D. Tex.), phone tap, Government Exhibit 018-0009.
3. Ibid., 5–12.
4. Lee Hockstader, "In About-Face, Jordan Cracks Down on Militant Palestinian Group," Washington Post, September 1, 1999.
5. Stephen Glain, Mullahs, Merchants, and Militants: The Economic Collapse of the Arab World (Thomas Dunne Books, 2004), 137.

6. Associated Press/Reuters/Agence France-Presse, "Jordanian Police Arrest Hamas Members in Raid; Warrants Issued for Four Leading Officials; Cooperation with Israelis, Palestinians Cited," Globe and Mail, August 31, 1999.
7. Hala Boncompagni, "Hamas Leaders Determined to Return Home to Jordan," Agence France-Presse, September 2, 1999.
8. Randa Habib, "Jordan Deals Heavy Blow to Hamas, Risks Alienating Islamists," Agence France-Presse, August 31, 1999.
9. Khalid Mishal interviewed by Ghassan Bin Jiddu, Al-Jazeera, September 21, 1999.
10. Randa Habib, "Jordan Has 'Proof ' of Hamas Threatening New Black September," Agence France-Presse, September 23, 1999.
11. Confidential author interview, Amman, Jordan, August 2007.
12. Ibid.
13. Confidential author interview, Amman, Jordan, September 2007.
14. Azzam Tamimi, Hamas: Unwritten Chapters (Hurst & Co., 2007), 316–17fn.
15. U.S. v. Holy Land Foundation et al., phone tap, Government Exhibit 018-0007.
16. Tamimi, Hamas, 133.
17. Ibid., 134.
18. Khalid Mishal interviewed by Ghassan Charbel, Al-Hayat, December 5, 2003.
19. Confidential author interview, Amman, Jordan, July 2007.
20. Author interviews with Khalid Mishal, Damascus, Syria, September– November 2007.
21. Avi Shlaim, The Iron Wall: Israel and the Arab World (Penguin, 2000), 600.
22. "Israeli Election Hinges on Attitudes Towards Netanyahu," Australian Broadcasting Corporation, May 17, 1999.
23. Ron Pundak, "From Oslo to Taba: What Went Wrong?" Survival 43, no. 3 (2001): 31–46.
24. Ahron Bregman, Elusive Peace: How the Holy Land Defeated America (Penguin, 2005), 19.
25. Ibid., 35.
26. Ibid., 47–48.
27. Deborah Sontag, "Israelis Out of Lebanon After 22 Years," New York Times, May 24, 2000.
28. Bregman, Elusive Peace, 76.
29. Dennis Ross, Statecraft: And How to Restore America's Standing in the World (Farrar, Straus and Giroux, 2007).
30. Hussein Agha and Robert Malley, "Camp David: The Tragedy of Errors," New York Review of Books, August 9, 2001.
31. Ibid.
32. Bregman, Elusive Peace, 121.
33. Jonathan Cook, "Targeting Haram Al-Sharif," Al-Haram Weekly, July 31, 2003.
34. "Sharon Tells Settlers to Grab West Bank Hilltops," Agence France-Presse, November 16, 1998.
35. Mouin Rabbani, "Smorgasbord of Failure: Oslo and the Al-Aqsa Intifada," in The New Intifada: Resisting Israel's Apartheid, ed. Roane Carey (Verso, 2001), 72.
36. Ibid., 76–77.

37. Institute for Palestinian Studies, "Killing Fields: Day By Day Chronology of the Second Intifada," www.leksikon.org/kill ingfi elds/.
38. Bregman, Elusive Peace, 77.
39. Ibid.
40. Voice of Palestine, "All Palestinian Factions Attend Leadership Meeting on Action in 'Coming Stage,'" BBC Monitoring Service—Middle East, October 10, 2000.
41. "Hamas, Arafat Discussed Ways to Step Up Uprising—Hamas Leader," Xinhua News Agency, October 8, 2000.
42. "Hamas Says It Has Discussed with Arafat Ways to Develop Unrest, Agence France-Presse, October 8, 2000.
43. "As Mideast Talks of Peace, Soft Voice Urges War," New York Times, August 27, 2000.
44. Author interview with Asad Abdul Rahman, Amman, Jordan, September 2007.
45. Tamimi, Hamas, 224, 327fn.

19. رجل ميت يمشي

1. Author interviews with Khalid Mishal, Damascus, Syria, September– November 2007.
2. Institute for Palestinian Studies, "Killing Fields: Day by Day Chronology of the Second Intifada," www.leksikon.org/kill ingfi elds/.
3. "Hamas Claims Responsibility for Three-Quarters of 'Zionist' Deaths," Agence France-Presse, December 3, 2001.
4. Tom Hundley, "Sharon: Israel Is at War; Retaliatory Strikes Hit Arafat's Heliport," Orlando Sentinel, December 4, 2001.
5. Mike Allen and Steven Mufson, "U.S. Seizes Assets of 3 Islamic Groups; U.S. Charity Among Institutions Accused of Funding Hamas," Washington Post, December 5, 2001.
6. "Transcript of President Bush's Dec. 4 Remarks on Financial Fight Against Terror," U.S. Newswire, December 4, 2001.
7. U.S. v. Holy Land Foundation et al., Case No. 3:04-CR-240-G (N.D. Tex.), letter from Dr. F.D. Hale, chief executive officer of Executive Protection Group, Government Exhibit 001-0195.
8. Ibid., meeting report, Government Exhibit 006-0006.
9. Ibid.
10. Alan Sipress and Dana Milbank, "Bush Demands Tough Action from Arafat over Bombings," Washington Post, December 3, 2001.
11. Trudy Rubin, "Oust Arafat? That Would Solve Little; He's a Failure but the Alternatives Are Depressing to Consider," Philadelphia Inquirer, December 5, 2001.
12. "Poll Shows 86 Percent of Palestinians Support Attacks on Settlers, Israeli Army," BBC Monitoring—Middle East, June 25, 2002.
13. Author interview with Ismail Abu Shanab, Gaza City, Occupied Territories, March 2002.
14. Deborah Sontag, "The Palestinian Conversation," New York Times Magazine, February 3, 2002.
15. Suzanne Goldenberg, "Sharon Rejects Call for Freeze on Settlements," The Guardian, May 23, 2001.

16. Palestine Satellite Channel TV, "Arafat Calls for End to Armed Attacks on Israelis," BBC Monitoring—Middle East, December 16, 2001.
17. Ahron Bregman, Elusive Peace: How the Holy Land Defeated America (Penguin, 2005), 173–74.
18. Amnesty International, "Israel: Briefing for the Committee Against Torture," AI Index No. MDE 15/075/2002, May 2002, 1–2.
19. Ibid.
20. Bregman, Elusive Peace, 179–80.
21. Idith Zertal and Akiva Eldar, Lords of the Land: The War over Israel's Settlements in the Occupied Territories, 1967–2007 (Nation Books, 2007), 408.
22. Author interview with Walid Fayed, Jenin, Occupied Palestinian Territories, March 2002.
23. Author interview with Mahmoud Al-Zahar, Gaza City, Occupied Territories, March 2002.
24. Author interview with Saeb Al-Ajez, Gaza City, Occupied Territories, March 2002.
25. Amnesty International, "Israel and the Occupied Territories: Mass Detention in Cruel, Inhuman and Degrading Conditions," AI Index No. MDE 15/074/2002, May 23, 2002.
26. Matt Rees, "Streets Red with Blood," Time, March 18, 2002.
27. The author was in the Jenin refugee camp in the days before and immediately after the Battle for Jenin.
28. Efraim Halevy, Man in the Shadows: Inside the Middle East Crisis with the Man Who Led the Mossad (St. Martin's Press, 2006), 213.
29. Ibid., 214.
30. "President Bush Calls for New Palestinian Leadership," White House news release, June 24, 2002.
31. Galia Golan, Israel and Palestine: Peace Plans from Oslo to Disengagement (Markus Wiener Publishers, 2007), 90.
32. "Hamas Leader Mish'al Discusses Abu-Mazin's Call for Disarmament, Road Map," BBC Monitoring—Middle East, May 7, 2003.
33. Interview with Khalid Mishal on Al-Manar TV, March 12, 2003, trans. MEMRI Inquiry and Analysis Series No. 143, July 18, 2003.
34. Bregman, Elusive Peace, 259–61.
35. Amnesty International, "Israel and the Occupied Territories: Israel Must End Its Policy of Assassination," AI Index No. MDE 15/056/2003, July 4, 2003, 1.
36. B. Chernitsky, "The Domestic Palestinian Dispute over the Hudna," MEMRI Inquiry and Analysis Series No. 144, July 25, 2003.
37. Confidential author interview, Tel Aviv, Israel, September 2007.
38. Molly Moore and John Ward Anderson, "Israeli Jets Bomb Hamas Meeting, Injuring Spiritual Leader," Washington Post, September 7, 2003.
39. Amnesty International, "Israel and the Occupied Territories Surviving Under Siege: The Impact of Movement Restrictions on the Right to Work," AI Index No. MDE 15/001/2003, September 8, 2003.
40. Human Rights Watch, "Israel's 'Separation Barrier' in the Occupied West Bank: Human Rights and International Humanitarian Law Consequences," February 2004, 1–2.
41. Ibid., 4.

42. Ibid., 3.
43. Golan, Israel and Palestine, 119.
44. Glenn Kessler, "Bush Criticized Israeli Fence; Abbas Reminded of Need to Fight Terror," Washington Post, July 26, 2003.
45. Ben Lynfield, "Hamas Seeks Primacy in Gaza," Chris tian Science Monitor, March 3, 2004.
46. Ibid.
47. Paul McGeough, "At the Gates of Hell," Sydney Morning Herald, March 27, 2004.
48. Bregman, Elusive Peace, 282.
49. "Hamas May Target Israeli Prime Minister," BBC Monitoring—Middle East, March 25, 2004.
50. Ibid.
51. "Paper Cites Hamas Sources on Movement's Elections, Decision-making Process," BBC Monitoring—Middle East, March 30, 2004.
52. The author was present.
53. "Hamas Political Bureau Head Confirms Al-Rantisi Movement's Leader in Gaza," BBC Monitoring—Middle East, March 24, 2004.
50. Elisabeth Bumiller, "In Major Shift, Bush Endorses Sharon Plan and Backs Keeping Some Israeli Settlements," New York Times, April 15, 2004.
55. Sipress and Milbank, "Bush Demands Tough Action from Arafat over Bombings."
56. Ari Shavit, "The Big Freeze," Haaretz, October 8, 2004.
57. Ibid.

20. ملاحقة الأموال

1. Elliott Jones Halberstam et al. v. Bernard C. Welch and Linda S. Hamilton, Case No. 82-1364 (U.S. Court of Appeals, District of Columbia), Circuit Judge Wald for the court, decision.
2. Richard D. Lyons, "Escaped Felon Is Convicted of Murdering Dr. Halberstam, a Noted Washington Cardiologist," New York Times, April 11, 1981.
3. Associated Press, "Killer of Halberstam Given 9 Consecutive Life Terms," New York Times, May 23, 1981.
4. Judith Miller, "Israel Says That a Prisoner's Tale Links Arabs in the U.S. to Terrorism," New York Times, February 17, 1993.
5. Author interview with Nathan Lewin, Washington, DC, October 18, 2007.
6. Associated Press, "Klan Must Pay $37 Million for Inciting Church Fire," New York Times, July 25, 1998.
7. Frida Berrigan and William D. Hartung, "Who's Arming Israel?" Foreign Policy in Focus, July 26, 2006.
8. International Crisis Group, "Islamic Social Welfare—Activism in the Occupied Palestinian Territories: A Legitimate Target," Middle East Report No. 13, April 2, 2003, 13.
9. U.S. Treasury, "U.S. Designates Five Charities Funding Hamas and Six Senior Hamas Leaders as Terrorist Entities," news release, August 22, 2003.
10. Lee Hockstader, "Palestinians Find Heroes in Hamas; Popularity Surges for Once-Marginal Sponsor of Suicide-Bombings," Washington Post, August 11, 2001.

11. International Crisis Group, "Islamic Social Welfare," 11.
12. Chris McGreal, "Food Running Out in Gaza as Aid Appeal Fails," The Guardian, February 11, 2003.
13. U.S. v. Holy Land Foundation et al., Case No. 3:04-CR-240-G (N.D. Tex.), transcript dated May 14, 2001 at 09:31:26, Government Exhibit 014-0004.
14. Dale L. Watson, "Holy Land Foundation for Relief and Development—International Emergency Economic Powers Act," FBI memorandum, November 5, 2001, 25 (hereafter "Watson Memo").
15. The author attended the meeting on March 26, 2002.
16. Intelligence and Terrorism Information Center, "Special Information Bulletin—'Charity' and Palestinian Terrorism," February 2005.
17. Intelligence and Terrorism Information Center at Centre for Special Studies, "Large Sums of Money Transferred by Saudi Arabia to the Palestinians Are Used for Financing Terror Organizations (Particularly the Hamas) and Terrorist Activities (Including Suicide Attacks Inside Israel)," www.terrorism-info.org.il/malam_multimedia// ENGLISH/SAUDI%20ARABIA/PDF/SAUDI3.PDF; Appendix C, Jamil Radai-dah's letter to Colonel Jibril Al-Bakhri of the Palestinian Preventive Security Service, February 15, 2001.
18. Ibid.; Abu Mazen's letter to Salman Bo Abed Al Aziz, Captured Document E2, December 30, 2000.
19. Ibid.; Office of the President, summary of the news prepared for Yasser Arafat, Captured Document E3, January 7, 2001.
20. Don Van Natta Jr. and Timothy L. O'Brien, "Flow of Saudis' Cash to Hamas Is Scrutinized," New York Times, September 17, 2003.
21. Watson Memo, 15–16.
22. Mary Beth Sheridan, "Oxon Hill Development Has Ties to Terror; Hamas Leader, Man Accused of Al-Qaeda Link Invested in Barnaby Knolls," Washington Post, April 19, 2004.
23. Confidential author interview, Washington, DC, October 2007.
24. Steve McGonigle, "FBI Affidavit Says Dallas-Area High-Tech Firm Made Payments to Hamas Leader," Dallas Morning News, February 22, 2003.
25. Mike Allen, "Bush Freezes Suspected Terror Assets," Washington Post, December 4, 2001.
26. Author interview with Nathan Lewin.
27. John Ashcroft, "John Ashcroft Holds a Justice Department News Conference," news release, July 27, 2004.
28. "The Accused," Chicago Sun-Times, February 1, 2007.
29. Mousa Mohammad Abu Marzook v. Warren Christopher et al., Case No. 95-CIV-9799-KTD (S.D. N.Y.), "Israeli Request for the Extradition of Mousa Mohammad Abu Marzook," transcript of Shin Bet interview with Said Msamah, January 13, 1991.
30. Michelle Mittelstadt, "U.S. Had Right to Freeze Assets of Charity Accused of Aiding Hamas, Court Rules," Dallas Morning News, June 20, 2003.

21. حكومة من الخنادق

1. Glenn Frankel, "A Quiet Ending on a Bleak Day; Few Present in Paris Dawn as Arafat's Death Is Announced," Washington Post, November 12, 2004.
2. Graham Usher, "'Not Red Indians,'" Al-Ahram Weekly, November 4–10, 2004.
3. Author interviews with Khalid Mishal, Damascus, Syria, September– November 2007.
4. Idith Zertal and Akiva Eldar, Lords of the Land: The War over Israel's Settlements in the Occupied Territories, 1967–2007 (Nation Books, 2007), 37.
5. Margot Dudkevitch, "25 Minutes, 25 Bullets, 10 Dead," Je ru salem Post, March 4, 2002.
6. Matthew Gutman, "What's the IRA Doing in Ramallah," Je ru salem Post, July 14, 2003.
7. Amos Harel, "Sniper Who Killed 10 Israelis Arrested," Haaretz, October 8, 2004.
8. Ben Lynfield, "Yasser Arafat's Local Election Gambit," Chris tian Science Monitor, October 14, 2004.
9. Author interviews with Khalid Mishal.
10. Palestinian Information Centre, "Mish'al: National Leadership Is a Must at the Current Stage," BBC Monitoring—Middle East, November 22, 2004.
11. Khaled Amayreh, "Hamas Eyes Its Future Role," Al-Ahram Weekly, November 4–10, 2004.
12. "Israeli PM Suffers Serious Stroke," BBC, January 5, 2006.
13. Author interview with Ahmad Yousef, Gaza, Occupied Territories, September 2007.
14. Author interview with Bassam Naim, Gaza City, Occupied Territories, September 2007.
15. David Remnick, "The Democracy Game," New Yorker, February 27, 2006.
16. Brian Murphy, "Brother Battles Brother," Associated Press, January 20, 2006.
17. Greg Myre, "Political Sibling Rivalry: Hebron Parliamentary Race Pits Brother Against Brother," New York Times, January 24, 2006.
18. Murphy, "Brother Battles Brother."
19. Ibid.
20. Author interviews with Khalid Mishal.
21. International Crisis Group, "Palestinians, Israel and the Quartet: Pulling Back from the Brink," Middle East Report No. 54, June 13, 2006, 2.
22. Khalid Abu Toameh, "Fatah Activists Blame Their Leaders," Je ru salem Post, January 27, 2006.
23. Chris McGreal, "Palestinian Authority 'May Have Lost Billions,'" The Guardian, February 6, 2006.
24. Khaled Abu Toameh, "Rioting Fatah Members Turn on Abbas; PA Leader Fearing for His Life, Cancels Gaza Meeting with Hamas," Je ru salem Post, January 29, 2006.
25. International Crisis Group, "Palestinians, Israel and the Quartet," 10.
26. Ibid., 11.
27. Steven Weisman, "Rice Admits U.S. Underestimated Hamas Strength," New York Times, January 30, 2006.

28. International Crisis Group, "Palestinians, Israel and the Quartet," 32.
29. Glenn Kessler, "Push for Democracy Loses Some Energy; On Mideast Tour, Rice Focuses on Hamas," Washington Post, February 25, 2006.
30. Mary Curtin, "U.S. Envoy Says Palestinian Forces Unprepared for Pullout," Los Angeles Times, July 1, 2005.
31. "Hamas Leaders Stress Political Unity, Palestinian Rights at Gaza Celebration," Palestinian Information Center Web site, BBC Monitoring—Middle East, January 28, 2006.
32. Al-Sharq Al-Awsat, "Hamas Leader Reportedly Calls for Partnership with Palestinian Factions," BBC Monitoring—Middle East, February 13, 2006.
33. Laura King. "Hamas Faces a New Struggle," Los Angeles Times, January 26, 2006.
34. International Crisis Group, "Palestinians, Israel and the Quartet," 2.
35. Alastair Crooke interviewed by Ahmad Mansour, "The U.S. Campaign to Topple the Palestinian Government," Al-Jazeera, January 24, 2007, available at confl icts forum.org/2007/interview-the-us-campaign-to-topple-the-palestinian-government/.
36. Josef Federman, "Olmert: Hamas Is Not a Strategic Threat to Israel," Associated Press, February 22, 2006.
37. Sheera Claire Frenkel and Gil Hoffman, "Politicians Scramble to Spin Hamas Victory in Their Favour; Kadima, Under Fire, Declines to Comment," Je ru salem Post, January 27, 2006.
38. Yaakov Katz, "Red-Faced IDF Misread the 'Street'; Military Intelligence Failed to Gauge Hamas Strength," Je ru salem Post, January 27, 2006.
39. Al-Manar TV, "Hamas Faces No Dilemma, to Focus on Reform, Resistance—Mish'al," BBC Monitoring—Middle East, January 28, 2006.
40. Scott Wilson, "Hamas Poised to Become Insiders," Washington Post, January 25, 2006.
41. King, "Hamas Faces a New Struggle."
42. International Crisis Group, "Palestinians, Israel and the Quartet," 3.
43. Al-Jazeera, "Leading Palestinian Hamas Figure Discusses Participation in Government, Talks," BBC Monitoring—Middle East, January 25, 2006.
44. Al-Safi r, "Hamas's Mishal Seeks Government of Technocrats," BBC Monitoring—Middle East, February 9, 2006.
45. Al-Hayat Al-Jadidah, "Hamas Says Ready to Negotiate with Israel on Truce Conditions," BBC Monitoring—Middle East, February 3, 2006.
46. Remnick, "The Democracy Game."
47. Associated Press, "Hamas Rejects Support of Al-Qaeda, Says Its Ideology Is Moderate Islam," March 5, 2006.
48. Bernard Wasserstein, "This May Be the 'Crack in History' That Israel Needs," Sunday Times, January 29, 2006.
49. Al-Manar TV, "Hamas Faces No Dilemma."
50. Lally Weymouth, "'We Do Not Wish to Throw Them into the Sea,'" Washington Post, February 26, 2006.
51. Henry Seigman, "Hamas: The Last Chance for Peace?" New York Review of Books, April 5, 2006.

52. Palestinian Information Centre, "Palestinian Hamas Chief Mish'al Interviewed During Visit to Tehran," BBC Monitoring—Middle East, February 25, 2006.
53. Associated Press, "Hamas Not Interested in 'Secret Ways' to Transfer Funds," May 5, 2006.
54. Peter Hirschberg, "Hamas Pays Workers from Suitcases Full of Dollars," Inter Press Service, June 23, 2006.
55. Khaled Abu Toameh, Yaakov Katz, and Herb Keinon, "Haniyeh Returns to Gaza, but Without His $3m in Cash; 18 Hurt as Hamas Goes on Rampage at Rafah Crossing After Israel Delays PA Premier's Reentry," Je ru salem Post, December 15, 2006.
56. Al-Jazeera, "Hamas Leader Mish'al Addresses Syria Rally, Vows Not to Recognise Israel," BBC Monitoring—Middle East, April 22, 2006.
57. Al-Jazeera, "Fatah, Hamas Still Trying to Contain Repercussions of Mish'al's speech," BBC Monitoring—Middle East, April 23, 2006.
58. Intelligence and Terrorism Information Center, "Rocket Threat from the Gaza Strip, 2000–2007," December 2007, 7.
59. Ibid., 74.
60. Ibid.
61. Steven Erlanger, "Hamas Fires Rockets into Israel, Ending 16-Month Truce," New York Times, June 11, 2006.
62. B'Tselem, "Statistics: Fatalities," www.btselem.org/En glish/Statistics/Casualties.asp.
63. Erlanger, "Hamas Fires Rockets into Israel."
64. Phil Zabriskie, "Death on the Beach," Time, June 26, 2006.

22. لم يعد هناك مشغولات ذهبية

1. Josh Brannon et al., "IDF Poised for Gaza Offensive After Two Soldiers Killed; Army Caught by Surprise in Early Morning Cross-Border Raid," Je ru salem Post, June 26, 2006.
2. Ibid.
3. Conal Urquhart, "Israel Promises Revenge for Soldier Deaths," The Guardian, June 26, 2006.
4. Michael Matza, "Israeli Hostage: Bargaining Chip?" Philadelphia Inquirer, June 26, 2006.
5. Ibid.
6. Josh Brannon et al., "Captors List Demands, as IDF Braces for Gaza Incursion," Je ru salem Post, June 27, 2006.
7. Palestinian Information Centre, "Hamas Defends Capture of Israeli Soldier," BBC Monitoring—Middle East, June 29, 2006.
8. Associated Press. "Hamas Official Slams Abbas for Helping Israel," Dow Jones International News, June 27, 2006.
9. Ibrahim Humaydi, "Leader Mish'al Explains Hamas's 'Selective' Approach to Quartet Conditions," Al-Hayat, October 12, 2006, trans. BBC Monitoring—Middle East.
10. Joel Greenberg, "Palestinian Ministers Arrested; Israel Seizes Hamas Offi cials in W. Bank," Chicago Tribune, June 29, 2006.

11. Associated Press, "Syria Fires on Israeli Jets," June 28, 2006.
12. Syrian TV, "Hamas Leader Discusses Developments at July 10 Damascus News Conference," BBC Monitoring—Middle East, July 12, 2006.
13. Alvaro de Soto, "End of Mission Report," leaked in full to The Guardian, May 2007, available at http://image.guardian.co.uk/sys-fi les/Guardian/documents/2007/ 06/12/DeSotoReport.pdf.
14. Khaled Amayreh, "Dahlan Vows to Decimate Hamas," Al-Ahram Weekly, June 8, 2006.
15. Ibid.
16. Dion Nissenbaum, "Border Complex Mostly Empty," News and Observer, May 21, 2007.
17. Paul McGeough, "A Beach Scene That Hides the Waves of Despair," Sydney Morning Herald, September 2, 2006.
18. Author interview with Hamdi Basal, Gaza City, Occupied Territories, August 2006.
19. Ibid.
20. Adam Entous and Haitham Tamimi, "Hamas, Abbas Rivalry Spurs Palestinian Arms Race," Reuters, June 8, 2006.
21. Ibid.

23. المظاهر خادعة

1. Alastair Crooke interviewed by Ahmad Mansour, "The U.S. Campaign to Topple the Palestinian Government," Al-Jazeera, January 24, 2007, available at conflictsforum.org/2007/interview-the-us-campaign-to-topple-the-palestinian-government/.
2. Ibid.
3. Michael Crowley, "Elliott Abrams: From Iran-Contra to Bush's Democracy Czar," Slate, February 17, 2005.
4. Steven Erlanger, "U.S. and Israelis Are Said to Talk of Hamas Ouster," New York Times, February 14, 2006.
5. Adam Entous, "U.S. to Give Abbas Forces $86 Million Amid Power Struggle," Reuters, January 5, 2007.
6. Author phone interview with Alastair Crooke, director of Confl icts Forum, June 15, 2008.
7. Adam Entous, "U.S., European Officials Visit Fatah Base in Jordan," Reuters, December 25, 2006.
8. Ari Rabinovitch, "U.S. General Says Building Up Abbas' Guard," Reuters, November 24, 2006.
9. Alvaro de Soto, "End of Mission Report," leaked in full to The Guardian, May 2007, available at http://image.guardian.co.uk/sys-fi les/Guardian/documents/2007/06/12/DeSotoReport.pdf.
10. Author interview with Assad Mousa Abu Dan, Jabalya, Gaza Strip, September 2007.
11. The author has viewed a video recording captured by Hamas of the abuse of the Abu Dan family.
12. Richard Boudreaux, "Israel Escorts Egyptian Arms Delivery to Abbas; U.S. Consents to the Shipment, Intended to Counter the Militant Hamas Movement," Los Angeles Times, December 29, 2006.

13. David Rose, "The Gaza Bombshell," Vanity Fair, April 2008.
14. Nathan J. Brown, "What Can Abu Mazin Do?" Carnegie Endowment for International Peace, June 15, 2007.
15. Rose, "The Gaza Bombshell."
16. Cam Simpson and Neil King, "Dangerous Territory: With Aid, U.S. Widens Role in Palestinian Crisis—To Undercut Hamas and Iran, Bush Pushes $86 Million Plan," Wall Street Journal, January 12, 2007.
17. Azzam Tamimi, Hamas: A History from Within (Olive Branch Press, 2007), 255.
18. "Dahlan: Any Attack on Fatah Members Will Be Met with Harsh Retaliation," Al-Ayyam, January 8, 2007, trans. MEMRI Inquiry and Analysis Series No. 316, January 23, 2007.
19. Associated Press, "Fatah Holds Massive Rally in Gaza Soccer Stadium," January 7, 2007.
20. Ronny Shaked, "Hamas Won the Jackpot," Yedioth Ahronoth, February 10, 2007.
21. Al-Hayat Al-Jadida (Palestinian Authority), February 27, 2007, trans. MEMRI Inquiry and Analysis Series No. 331, February 28, 2007.
22. Rose, "The Gaza Bombshell."
23. Abd-al-Ra'uf Arna'ut, "Palestinian Security Adviser Says Impartial, Professional Force Planned," Al-Ayyam, April 7, 2007, trans. BBC Monitoring—Middle East.
24. Palestine History.com, "Palestinian Biography—Mohammed Dahlan," www.palestinehistory.com/biography/palestine/palbio34.htm.
25. Ma'an News Agency, "Palestinian MP Dahlan Urges Government's Clear Answers Amid 'Leadership Vacuum,'" October 11, 2006, trans. BBC Monitoring— Middle East.
26. Ahron Bregman, Elusive Peace: How the Holy Land Defeated America (Penguin, 2005), 257.
27. "Missing Links," arablinks.blogspot.com/.
28. Evelyn Gordon, "Benchmarks for a Bloodbath," Je ru salem Post, May 10, 2007.
29. Nahid Hattar, "Hamas Leader Mish'al Discusses Emotional Ties with Jordan," Al-Sabil, May 15, 2007, trans. BBC Monitoring—Middle East.
30. Warren P. Strobel and Dion Nissenbaum, "How U.S. Policy Missteps Led to a Nasty Downfall in Gaza," McClatchy Washington Bureau, July 4, 2007.
31. Hilary Leila Krieger, "Abrams: US Trying to Appease Arabs, EU," Je ru salem Post, May 11, 2007.

24. العين بالعين

1. Confidential author interview, Gaza City, Occupied Territories, September 2007.
2. Ibid.
3. Aaron D. Pina, "Fatah and Hamas: The New Palestinian Factional Reality," Congressional Research Service, March 3, 2006.
4. Cam Simpson, "U.S.-Iran Tension Colors Palestinian Crisis," Wall Street Journal, December 17, 2006.
5. Laura Rozen, "Israel's Mossad, Out of the Shadows," MotherJones.com, February 19, 2008.

6. Confidential author interview, Je rusalem, Israel, September 2007.
7. Nahid Hattar, "Hamas Leader Mish'al Discusses 'Emotional Ties' with Jordan," Al-Sabil, May 15, 2007, trans. BBC Monitoring—Middle East, May 17, 2007.
8. Author interviews with Khalid Mishal, Damascus, Syria, September– November 2007.
9. Ibid.
10. Intelligence and Terrorism Information Center, "Hamas' Military Build-up in the Gaza Strip," April 2008.
11. Marie Colvin, "Iran Arming and Training Hamas Force," Sunday Times, March 9, 2008.
12. "We Are Facing a Second Nakba," Al-Ayyam, May 18, 2007, trans. MEMRI Inquiry and Analysis Series No. 359, June 1, 2007.
13. Adam Entous, "Forces Loyal to Abbas Get New Bases, Training," Reuters, April 12, 2007.
14. Scott Wilson, "Fatah Troops Enter Gaza with Israeli Assent; Hundreds Were Trained in Egypt Under U.S.-Backed Program to Counter Hamas," Washington Post, May 18, 2007.
15. Amor Harel and Avi Issacharoff, "Fatah to Israel: Let Us Get Arms to Fight Hamas," Haaretz, June 7, 2007.
16. Ibid.
17. Ibid.
18. Keith Dayton, congressional testimony, May 23, 2007, CQ Transcriptions.
19. Khaled Abu Toameh, "PA to Retire at Least 160 Officers; Abbas Seeks to Prove to Rice He's Sincere About PA Security Reform," Je ru salem Post, January 11, 2007.
20. The video is now widely available in Gaza—copy in author's fi les.
21. Palestinian Centre for Human Rights (PCHR), "Black Pages in the Absence of Justice: Report on Bloody Fighting in the Gaza Strip from 7 to 14 June 2007," October 2007.
22. Jaber Wishah, deputy director, PCHR, e-mail to author, December 16, 2007.
23. Donald McIntyre, "Hamas Seizes Fatah Base as Bloody Battles Push Gaza Towards Civil War," Inde pen dent on Sunday, June 13, 2007.
24. International Crisis Group, "Inside Gaza: The Challenge of Clans and Families," Middle East Report No. 71, December 20, 2007, 7–8.
25. PCHR, "Black Pages in the Absence of Justice," 61.
26. Nidal Al-Mughrabi, "Guns Blaze in Hospital as 13 Die in Gaza Chaos," Toronto Star, June 12, 2007.
27. PCHR, "Black Pages in the Absence of Justice," 62.
28. Al-Mughrabi, "Guns Blaze in Hospital as 13 Die in Gaza Chaos."
29. PCHR, "Black Pages in the Absence of Justice," 33.
30. Author interview with Bassam Abdul Raouf, Beit Hanoun, Gaza Strip, Occupied Territories, September 2007; and Raouf 's affidavit in PCHR, "Black Pages in the Absence of Justice," 46.
31. Author interview with Bassam Abdul Raouf.
32. Ed O'Loughlin, "Inside the Hamas Revolution," Sunday Herald, June 16, 2007.
33. Ibid., 39–40.
34. Conal Urquhart, Ian Black, and Mark Tran, "Hamas Takes Control of Gaza," The Guardian, June 15, 2007.

35. Confidential author interview, Tel Aviv, Israel, September 2007.
36. Ed O'Loughlin, "Hopeless in Gaza," Sydney Morning Herald, June 23, 2007.
37. Mohammed Assadi, "Abbas Assails Hamas 'Assassins,' Talks to Israel," Reuters, June 20, 2007.
38. Human Rights Watch, "Internal Fight: Palestinian Abuses in Gaza and the West Bank," July 2008, 23.
39. Aaron Klein, "Hamas Lists Seized U.S. Weapons," WorldNetDaily.com, June 20, 2007.
40. Intelligence and Terrorism Information Center, "Hamas Military Build-up in the Gaza Strip," April 2008.
41. Jeremy Bowen, "Breaking Point in the Middle East?" BBC, June 15, 2007.
42. International Crisis Group, "After Gaza," Middle East Report No. 68, August 2, 2007.
43. Author interview with Khalid Abu Hilal, Gaza City, Occupied Territories, September 2007.
44. Ibid.
45. Peter Beaumont, Mitchell Prothero, Azmi Al-Keshawi, and Sandra Jordan, "How Hamas Turned on Palestine's 'Traitors,'" The Observer, June 17, 2007.
46. Mitchell Prothero, "Hamas War Chief Reveals His Plans for Gaza Peace," The Observer, June 24, 2007.
47. Author interview with Jamila Ashanti, Gaza City, Occupied Territories, September 2007.
48. Author interview with Ismail Haniyah, Gaza City, Occupied Territories, September 2007.
49. Author interview with Isa Al-Najjar, Gaza City, Occupied Territories, September 2007.
50. Author interview with Raji Sourani, Gaza City, Occupied Territories, September 2007.
51. Khalid Mishal press conference, Damascus, Al-Manar TV, June 15, 2007.
52. "Hamas Leader Says USA Wants Calm Mideast to Prepare for New Wars," Al-Jazeera, July 17, 2007, trans. BBC Monitoring—Middle East.
53. Author interview with Jamila Ashanti, Gaza City, Occupied Territories, September 2007.

25. تقديم مؤسسة الأرض المقدسة للقضاء

1. Jack Douglas Jr., "Scrutinized for Years, Foundation Faces Trial," Fort Worth Star-Telegram, July 15, 2007.
2. Author interview with Dennis Lormel, former head of FBI's Terrorist Financing Operations Section, Washington, DC, October 2007.
3. Ibid.
4. Ibid.
5. Ibid.
6. Tom Durkin, "Terrorism in Our Courts," Chicago Tribune, February 8, 2007.
7. U.S. v. Holy Land Foundation et al., Case No. 3:04-CR-240-G (N.D. Tex.), "An Explanatory Memorandum," Government Exhibit 003-0085, 2–4 of En glish translation.

8. Jason Trahan, "Holy Land Defendants' Long Wait Ends as U.S. Vows to Retry Case," Dallas Morning News, October 23, 2007.
9. Greg Krikorian, "Mistrial in Holy Land Terrorism Financing Case," Los Angeles Times, October 23, 2007.
10. Trahan, "Holy Land Defendants' Long Wait Ends."
11. Greg Krikorian, "Weak Case Seen in Failed Trial of Charity," Los Angeles Times, November 4, 2007.
12. Trahan, "Holy Land Defendants' Long Wait Ends."
13. David Koenig, "Mistrial for Most Defendants in Muslim Charity Trial," Associated Press, October 22, 2007.
14. Author interview with Khalid Mishal, Damascus, Syria, November 2007.
15. Author interview with Dennis Lormel, former head of the FBI's Terrorist Financing Operations Section, Washington, DC, October 2007.
16. Ibid.
17. Kathianne Boniello, "Bomb Kin Sue Bank Giant," New York Post, February 3, 2008.
18. Jennifer Senior, "A Nation Unto Himself," New York Times Magazine, March 14, 2004.
19. Judge Nina Gershon, "Opinion and Order – Oran Almog et al. v. Arab Bank" (E.D. New York), January 29, 2007, 5.
20. Ibid., 55–56.
21. Julia Preston, "Arab Bank Is Ordered to Suspend Most Operations in U.S.," New York Times, February 26, 2005.
22. Amy Klein, "Waging War Against Terror, Via Courtroom," The Record (Bergen County, NJ), January 24, 2005.
23. U.S. v. Holy Land Foundation et al., transcript dated April 23, 1996, at 21:18:50, Government Exhibit 013-0083.
24. Boim v. Holy Land Foundation et al., Case Nos. 05-1815, 05-1816, 05-1821 and 05-1822 (7th Cir.), majority decision by Appellate Judge Ilana Diamond Rovner, December 28, 2007, 9.

26. الرجل الذي يتحدّى الموت

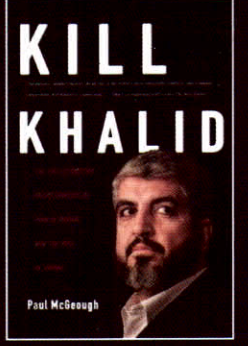
1. The author visited the Damascus headquarters of Hamas for a series of interviews with Khalid Mishal from September 2007 to November 2007.
2. Confidential author interview, Washington, DC, October 2007.
3. Author interview with Ziad Abu Amr, Gaza City, Occupied Territories, September 2007.
4. Author interview with Ranya Kadri, Amman, Jordan, July 2007.
5. Azzam Tamimi, Hamas: Unwritten Chapters (Hurst & Co., 2007), 45.
6. Confidential author interview, Gaza City, Occupied Territories, September 2007.
7. Confidential author interview, Tel Aviv, Israel, September 2007.
8. Clancy Chassay and Bobbie Johnson, "Google Earth Used to Target Israel," The Guardian, October 25, 2007.
9. Amir Mizroch, "'Waiting for Babies to Die Is No Strategy,'" Je ru salem Post, September 4, 2007.

10. Yaakov Katz and Herb Keinon, "Olmert 'Won't Play into Hamas Hands' by Sending IDF into Gaza," Je ru salem Post, September 12, 2007.
11. Human Rights Watch, "Internal Fight: Palestinian Abuses in Gaza and the West Bank," July 2008, 18.
12. Sarah el Deeb, "Wary Gazans Adjust to Hamas Rule in Subtle Ways," Associated Press, July 1, 2007.
13. Confidential author interview, Tel Aviv, Israel, September 2007.
14. Sue Pleming, "U.S. Should Deal with Hamas, Say Ex-Offi cials," Reuters, October 10, 2007.
15. Colin Powell, All Things Considered, National Public Radio, July 18, 2007.
16. Alastair Crooke, "From Rebel Movement to Political Party: The Case of the Islamic Resistance Movement," Confli cts Forum Briefing Paper 3, undated.
17. "Hamas's Mish'al Addresses Palestinians on Movement's 20th Anniversary," Al-Aqsa Satellite TV, December 14, 2007, trans. BBC Monitoring—Middle East.
18. Author interview with Asad Abdul Rahman, Amman, Jordan, September 2007.
19. The author was present when Mishal took the call on September 6, 2007.
20. Arieh O'Sullivan, "Hamas Man Escapes Damascus Hit," Je ru salem Post, December 14, 2004.
21. Arieh O'Sullivan and Joseph Nasr, "Syria Blames Israel for Hamas Hit," Je rusalem Post, September 27, 2004.

خاتمة

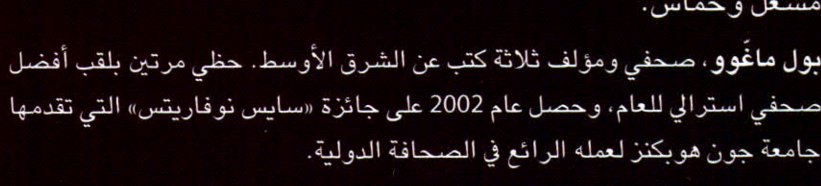
1. International Crisis Group, "Round Two in Gaza," Middle East Briefi ng No. 24, September 11, 2008, 12–13.
2. Ibid., 14.
3. "Hamas Lays Pipeline to Supply Gaza Strip with Fuel from Egypt," UMCI News, August 31, 2008.
4. Diaa Hadid, "Drugged Lions Join Long List of Gaza Contraband," Associated Press, August 9, 2008.
5. Ahmad Yousef, "Palestinian Revenge Was Inevitable," Haaretz, February 12, 2008.
6. "Carter in Hamas 'Ceasefire Call,'" BBC News, April 19, 2008.
7. "Abbas Aims to Stay in Office to 2010 Despite Hamas," Reuters, September 14, 2008.
8. Alix Van Buren, "The New U.S. President Is Going to Have to Reckon with Hamas," La Repubblica, October 11, 2008, trans. BBC Monitoring—Middle East.

في العام 1997، دسّ جهاز الاستخبارات الإسرائيلي الموساد السمّ لقائد حماس خالد مشعل في وضح النهار في أحد شوارع عمّان. دخلت الشخصية الفلسطينية المغمورة (في حينه) في غيبوبة، لكن ليس قبل إحباط محاولة فرار عميلي الموساد، بعد مطاردتهما واستدعاء قوات أردنية لمحاصرة السفارة الإسرائيلية المشتبه بها. أُصيب ملك الأردن حسين بنوبة غضب عارم، وسرعان ما تصاعدت الأحداث إلى أزمة دبلوماسية مع تدهور حالة مشعل بتأثير السم الغامض. خشي الشرق الأوسط من الأسوأ، لكن سلسلة من المفاوضات على مستويات عالية، توسّط فيها بيل كلينتون شخصياً، أدّت إلى تسليم الإسرائيليين الترياق المناسب وإنقاذ حياة مشعل ممّا مهّد لصعوده وازدياد نفوذه السياسي بشكل لافت للنظر.

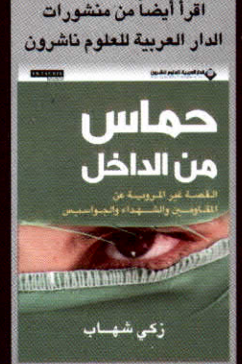


يتمحور الكتاب حول تلك الحادثة المأساوية، ويقدم «اقتل خالد» إحدى روائع صحافة التحقيقات. يعيد الصحفي البارع بول ماغوو بناء تاريخ حماس عبر مقابلات خاصّة مع لاعبين رئيسيين في الشرق الأوسط وواشنطن، وتتضمن معلومات حصرية عن مشعل نفسه، الذي يبقى حتى هذا اليوم واحداً من أقوى الشخصيات وأكثرها غموضاً في المنطقة.

يقدم «اقتل خالد» استعراضاً لأعمال حماس السياسية عبر عقد من العمليات الاستشهادية، والنزاع السياسي الداخلي، وازدياد الدعم الشعبي، الذي بلغ ذروته في معركة غزة في 2007 وحتى المأزق السياسي الحالي.



«اقتل خالد» وثيقة متكاملة عن محاولة اغتيال فاشلة وعواقبها غير المتوقعة على الشرق الأوسط. إنها القصة الداخلية الأكثر دقّة عن خالد مشعل وحماس.



بول ماغوو، صحفي ومؤلف ثلاثة كتب عن الشرق الأوسط. حظي مرتين بلقب أفضل صحفي استرالي للعام، وحصل عام 2002 على جائزة «سايس نوفاريتس» التي تقدمها جامعة جون هوبكنز لعمله الرائع في الصحافة الدولية.




الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com
ص. ب. 5574-13 شوران 2050-1102 بيروت – لبنان
هاتف: 785107/8 (1-961+) فاكس: 786230 (1-961+)
البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb